غُوستاف فلوبير

التربية العاطفيّة

مایاو

ماريان

روائع الأدب والفكر منقولة إلى العربية

مایان

© منشورات عويدات - بيروت
جميع حقوق الطبعة العربية في العالم وفي البلدان العربية
خاصة محفوظة لدار منشورات عويدات - بيروت ، بموجب
اتفاق خاص مع دار غاليمار Gallimard - باريس

حقوق لوحة الغلاف الأصلية محفوظة
لمنشورات عويدات بموجب عقد مع دار غاليمار

الطبعة الأولى ١٩٨٣

التربية العاطفية

تقديم

ألبير تيبوديه

إننا نحتفظ ، من « التربية » ، بصورة جيل بشري يجري مع زمانه الخاص ، جارفاً معه أناساً يعبرون . لذلك ، فمدهش عرضها . عرض « مدام بوفاري » كان عرضاً زمنياً . تبدأ هي ، منذ طفولة شارل المدرسيّة ، قصة حياة متنافرة ، سلبيّة ومهزوزة ، كما قبّعة بائسة تحت ضربات الأقدام ، إنها غلطة القدر . يمكن أن تأخذ عليه عدم الاهتمام بالشخصيّة الرئيسة . في « التربية » ، يستعيد فلوبير الأسلوب نفسه ، وهذا طبيعيّ لنوع روايته ، لكنّه يمرّر الزمن فيه بالمكان ، ويمزجه بطريقة عرض تفتتح المرحلة « لمدام بوفاري » وسلمبو . بدلاً من أن يجمع ، كما في تينك المرتين ، أشخاصه الرئيسيّين في مأدبة كبرى ، هو يجمعهم ويعرّضهم للنور ، بواقعيّة متحرّكة ترمز إلى مسيرة الوقت واتزانه . إنها رحلة فريدريك ، المركب أوّلاً ، ثم العربة . بشريّة بكاملها ، كاريكاتوريّة ، تصعد نهراً بطيئاً ، في هذه الرحلة على الماء وقد اعتنى بها فلوبير كلوحة مصغّرة للجنس البشري الذي يكوّن ، على كوكبه ، صبيّ طريق ساذج ، يراقبه خالق ساخر . هي ، على كل حال ، صورة طبيعيّة . هنا ، نذكر ، مفارقةً ، قطعة لامارتين

المدهشة : « النجوم » ، حيث يشعر الشاعر بالأرض تنشق كما زورق يشقّ أمواج الأثير ، ويأخذ ، في خليج السماء ، الانسانيّة النائمة . ما يحمله مركب فلوبير ، هو حمولة أناس مثيرين للسخرية . ومن جهة أخرى ، فقد كتب في « الشرق » أنّ الرحلة توسّع ، فيه ، بطريقة مدهشة حساً غريباً . جماعة من الوجوه البورجوازية ، حصيلة النوع البشريّ ، مأخوذة بين هذين الخطّين ، في البداية والنهاية : « بما أنهم كانوا معتادين أن يرتدوا كيفما اتفق في الرحلة . . . » و « أرباب عائلات يفتحون عيونهم ، كبيرة ، متسائلين » . منظر رتيب ينتج ، دوماً ، المشاهد ذاتها ، ويرمي في المسافة ؛ صورة زمن تكوّنه الحياة البشريّة المتجمّعة على المركب : « عند كل دورة للنهر ، نجد الستار نفسه من شجر الحور الشاحب . خالياً ، كان الريف . متوقّفة ، في السماء ، غيوم بيضاء صغيرة ، والضجر كان منتشراً بغموض ، يبدو كأنه يضعف مسيرة المركب ، ويجعل سِحَن المسافرين تزداد تفاهة » .

ركّز فلوبير على سبب الحلم ووسّعه بإصرار متفرّد . يبدو أنه يأخذ مركزاً مشابهاً للمياه . فلنقرأ ، من وجهة النظر هذه ، بداية القسم الثاني كلها ، وهي بفنيّة عجيبة ، هذه السلسلة الفريدة واللافتة ، رحلة العربة ، دخول باريس من أحياء مخيفة ، الوصول إلى الفندق ، ثم البحث عن ريجمبار الذي بدا كأنه بمهمّة ، كما ليون في روّان مدفوعاً بهومي . إنما ، بعد حصول فريدريك على عنوان أرنو ، نجد عبارة توضح ، استبطانياً ، كل ما بقي : « خرج فريدريك من الحانة إلى أرنو ، كأنه محمول بهواء

فاتر ، وبنشوة نشعر بها في الأحلام » . ويبدو ، حتى الآن ، في الواقع ، تناغم حلم قاد كل شيء : الرحلة الليليّة بواسطة المركبات، وهذا السّباق خلف ريجمبار حيث كل ما يطلبه فريدريك يفلت منه ، كما في الأحلام . وهذا يستمر . حفلة الرقص التنكرية عند « المارشالة » ، لها طابع حلم فوضويّ ، وكل شيء ينتهي بحلم حقيقيّ يكمل الحلم غير الحقيقيّ على وسادة فريدريك . إن صورة الحياة هذه ، المطلوبة بسلبيّة ، والتي يأخذها وجود فريدريك ، لتتناقض مع حياة إيمّا بوفاري المشتهاة بتلهّف . تحلم إيما بالحياة ، إنما ليست تحلم بحياتها ، فتحياها بطريقة مثيرة للشفقة ، والدليل القاطع انتحارها . ولقد فُرضت مدام بوفاري أكثر على الجمهور الذي كان يطلب من الرواية أن تقدّم إليه وهم الحقيقة ، لا أن تريه أن الحقيقة وهم .

من الأمور التي تُشغف فريدريك بالأكثر ، والتي لا يُشقّ له غبار فيها ، شغفه بمدام أرنو ، المرأة الثلاثينيّة ، الملهمة والعذراء ، التي كان فلوبير ، طفلاً ، رآها في تروفيل ، وقد صوّرها في روايته بكثير حنان . هذه اللوحة الدقيقة والمعتدلة كانت أكثر صعوبة من مدام بوفاري ، وربما أن فلوبير جعل منها رائعة أدبية تفوق رائعة إيمّا . هذا النسق من الألوان المعتدلة والنماذج المضيئة ، لا أرى ، أبداً ، ما يوازيه إلاّ نسق سانسفرينا . إيمّا وسلمبو هما حوّاء الخالدة ، بمظهرين مختلفين ، لكن مدام أرنو تحمل ، في الفن ، كلّ الطهارة المقدّسة التي لاسمها الذي هو : ماري . جاءت لتطأ بقدمها رأس الأفعى . رآها فلوبير كما عذراء

هادئة ، حيث تلطّف الأمومة ، تكمل ، تهدّىء طبيعة المرأة ، تجعلها تشعّ عذوبة وسطوة .

مع ذلك ، كانت ماري وشيكة السقوط ، يوماً ، وما أمسكها عن ذلك إلاّ مرض ابنها . ومدام دو رينال ، تلك ، أتصمد تجاه جوليان ، وزوجة تورفيل تجاه فالمون ؟ نميل إلى الظن أن لا .

إن أمانتها ، في قسم منها ، هي نتيجة تحفّظ فريدريك . إنه الرجل الذي يحلم حياته ، أحلامه مركّزة حول ماري ، وتبقى هي مثار حلمه . ثم انه « رجل كل النقائص » ، تماماً كما أن فالمون وجوليان هما ، الأوّل ، رجل عزم متحرّر ، والثاني رجل قوة صلبة . وعند جوليان ، كل ما يفلت العمل الحاضر ، ينقلب ، هنا ، تلقائياً ، إلى حلم ، ويصبح مختلفاً في الزمن ، متجهاً نحو المستقبل .

وهكذا يشترك فريدريك في الفضيلة ، مناصفة ، مع السيّدة أرنو . هناك وصف رائع في بيت أوتوي لهذا الحب الذي على شفير الخطيئة ، ولا يقع ، بسبب قوّة ماري من جهة ، ومن جهة أخرى لضعف فريدريك . أن يكون رجل كل النقائص ، فهذا يسمى ، بين بقيّة الأسماء ، خجلاً . الخجل انهيار أمام الحاضر ، نقص في الوصل بين التصوّر والفعل ، والحياة الداخليّة تساعد ، تحديداً ، على ردم أو إخفاء هذه الفجوة . « زد على ذلك انه كان ممنوعاً ، بنوع من الرادع الديني . يبدو له ذلك الثوب ، وهو يشبه الظلمات ، غير محدود ، لا متناهياً ، ولهذا ،

بالتحديد ، كانت شهوته تتضاعف . لكن الخوف من أن يفعل كثيراً ومن أن لا يفعل بقدر كافٍ ، كان ينتزع منه كل بصيرة » .
وبتذكّرنا فالمون وجوليان ، نتبّع خطًّا منحنياً يذهب من لاكلو إلى ستندال ، ومن ستندال إلى فلوبير . يُرى من خلال أبطالهم الثلاثة أن الأول ضابط ، وفي المدفعيّة ، سلاح بونابرت ، والثاني عسكريّ أيضاً ، وفلوبير مدني محصّن .

إذا كان قدر كل واحد متعلقاً بقدر الآخر ، كذلك طباعه ، فإنّ هذا ، لدى فريدريك والسيّدة أرنو ، ليس إلا ملمحاً مشتركاً مع كل شخصيات فلوبير الذين ليسوا ذوي إرادات ، لا يفرضون أنفسهم في وسطهم ، وهم ، بطريقة تكاد تكون منحرفة ، يتلقّون الفعل دائماً . هكذا بوفار وبيكوشيه هما لا ينوجدان إلاّ من يوم تلاقيا ، من يوم هما اثنان : تصوّر مطلق ، في المتنافر ، من طبع جماعيّ يكوّن عمق البشريّة .

بالنسبة لفريدريك ، إن ماري ، وحدها ، هي ما هو العالم الغامض والخياليّ لايماً : صورة السعادة . تجسّد هي طيبة مشرقة ، بلطفٍ مشعّة ، وبطريقة لا تنضب ، إمكان سعادة ، بعيداً كلياً ، عن طيبة غير متحفّظة وفضفاضة ، بقدر ما هي بعيدة عن جفاف قلق لامبالٍ . وفي الأخير ، حين تركّز حبّها على فريدريك ، تكون ، بصواب ، قد انتقت الرجل الذي يسمح لها بانتصار ، ليس ، في الحقيقة ، سهلاً ، لكنه نسبيّ قياساً بقواها . في مشهد المصنع ذاك ، في كراي ، الذي يزورانه مع سينيكال ، والذي يعيد ، مع فوارق أدقّ ، زيارة الكاتدرائية في « مدام

بوفاري » . كئيباً يبدو وجه السيّدة أرنو ، لتميّز وتصدّ رغبة تحسها على شفتي فريدريك . وإن المناسبات التي تساعدها للابتعاد عن الشوق ، هي مناسبات سعيدة بالنسبة إليها . تستطيع العيش في واقع حزين ، لكنها بحاجة لأن تعيش في واقع هادىء . لا تحمل حبها كلّه إلى فريدريك ، إلاّ حين يصبح هذا الحبّ ماضياً ، وإذ لا تستطيع الحديث عن الفرح ، هي لا تستطيع ، كذلك ، أن تفعل سوءاً ، فيصبح حلمها وراءها ، كما وجده فريدريك وإمّا أمامهما ، وتقدر أن تمتلكه بدل أن يمتلكها . وحين يظنّها فريدريك جاءت لتكون له ، تكون جاءت ، فقط ، لتسوّي كل شيء في قلبيهما ، فتسدل شعرها الأبيض ، وتقصّ منه خصلة طويلة تقدّمها له ، هكذا ، هي تدخل مكانها الطبيعي ، الذي هو هدوء الماضي . ويدهشنا المشهد أكثر حين نعرف أنه حدث ، فعلاً ، بين فلوبير والسيّدة شليسنجر وقد صارا هرمين .

ان « التربية » هي وقائع ١٨٤٨ ، كما ان « الأحمر والأسود » هو وقائع ١٨٣٠ . فالروح التي ألهبت ثورة شباط ، يجب أن تكون ممثلة فيها بطريقة هامة . ليس بواسطة فريدريك ، البورجوازي الشاب السلبي والعاطفي ، المشرّع لكل التأثّرات ، المهتز مع كل التيارات ، إنما بثوّار فاعلين أصحاب عنف . وفي « التربية » نماذج ثلاثة للثوّار .

هناك ، أولاً ، ديلورييه ، ابن حاجب غير مستقيم خرب ابنه وحاول يسرق له مال أمّه . ساخط وطموح ، يصبح ثائراً عن مصلحة ، ليتبوّأ مكانة يرفضها له المجتمع البورجوازي لفقره .

« يحرّك جموعاً كثيرة ، ويفتعل الكثير من الضجيج ، ويكون له ثلاثة أمناء سرّ في تصرّفه ، وعشاء سياسي حافل مرة في الأسبوع » . والثورة هي الوسط الذي يسمح له بذلك . « نعيش ، كان يقول ، في هذا الزمن ، نستطيع تأكيد حضورنا ، إظهار قوّتنا ! محامون بسيطون يأمرون جنرالات ، معدَمون يغلبون الملوك » . مدّع أحمق ومتعصّب ، يطمع لأن يقتسم ثروة فريدريك معه بدون أن يعرف له جميلاً . مع ذلك ، هو يكن لفريدريك احتراماً يكاد يكون حائراً ، بطبعٍ جافّ لطبيعة رقيقة وقادرة على التمتع . لكن إعجابه كله يتجه إلى سينيكال ، وهو مثله ساخط ، يحترم فيه إرادة يعرف أنه لا يتحلّى بها ، ويحسده عليها .

سينيكال ، ابن رئيس عمّال ، ورث عنه حُبّ السلطة وإصدار الأوامر . إنه ثائر لحاجة إلى السيطرة ، ولشهوة إلى العدالة . نلمحه في الرواية ، على فترات ، دائماً على قمم حيث هو حسن الاقامة ، ذو بسالة يعكسها على الآخرين . هكذا ، يساعد هو في جعل زيارة المصنع ، في كراي ، قطعة أجمل ، وأقلّ تشنّجاً ، بما لا يقارن ، من زيارة الكاتدرائية في « مدام بوفاري » ، تعصّبه في النظام والأوامر ، يجعله ينتقل ، طبيعياً ، من الثورة إلى مركز رئيس الشرطة في خدمة الانقلاب . إنه لمن الممكن ، بل والمحتمل ، أن يكون جيل ١٨٤٨ و ١٨٥١ ، قد أفرز هذا النوع ، لكنه ، كما يبدو ، هو أقلّ ظهوراً في تاريخ هذه الفترة من فترة ١٧٩٣ ، حيث طبائع الأمر والسلطة كانت في المقام الأوّل ، وحيث راح اليعقوبيّون يحضّرون للامبراطورية المديرين

ورجال الشرطة !

أما الثائر الحقيقي في ١٨٤٨ ، فهو ديسّردييه . انه يقدّم لنا ، ربما ، الصورة الوحيدة الندية والصريحة ، الجميلة والجذابة ، التي نصادف في « التربية العاطفية » (أقلّه بين الرجال) . ثائر هو بحماسة ، لحماية الضعفاء والمقهورين . يفشل ديلورييه في مقاطعته . وسينيكال يفشل في الشرطة . وديسردييه يُقتل في الثاني من كانون الأول ، يقتله سينيكال ، رجل الشرطة . وتتم التصفية .

هناك عامل مأساوي عند الثلاثة . لكن يبدو أن فلوبير أراد أن ينهي هذه الثلاثية بملهاة حقيقيّة . وشخصيّة ريجمبار ، واحدة من شخصيات مثيري السخرية التي تكثرعند ديكنز وعند ألفونس دوديه ، تخترق الرواية ، بالصورة التي أراده فلوبير أن يجتاز بها الحياة . « سينيكال ـ الذي كانت جمجمته مروّسة ـ ما كان يجلّ إلا النظريات . ريجمبار ، على العكس ، ما كان يرى في الوقائع إلا الوقائع . ما يُحزنه فعلياً ، حدود الرين . يطمح لأن يبرز في سلاح المدفعيّة ، وراح يرتدي ثياباً من خياطة خياط مدرسة البوليتكنيك » . يستطيع ، بهذا المكسب ، أن يجلس في المقاهي ، من الصباح إلى المساء ، يجرع البيرة ويتحدّث في السياسة ، بلحية طويلة ، وقبّعة ذات أطراف مرفوعة ، وسترة خضراء طويلة . وهو زوج خيّاطة تهتمّ بلباسه ، يحمل من بيته إلى المقهى ، ومن طاولة إلى أخرى ، خطوة محترمة . لم يكن على فلوبير إلاّ أن يفتح عينيه ليتعرف إلى ريجمباريّي السياسة . ومن لا يعرف الذين هم

للأدب ؟ الرسّام الهرم بيلزان هو نظير ريجمبار . واليوم أيضاً ، حين تهتمّ الأسطورة بسنة ١٨٤٨ ، فإن أوّل ما يلفت الانتباه ، هو ديكور هذه اللحى .

ان الكتاب الفرنسي الذي كان فلوبير معجباً به ، بالأكثر ، معنى ومبنى ، هو كتاب « الطبائع » للابروييّر . أراد أن يجمع ، (وقد نجح إلى حدّ ما) في « التربية العاطفية » ، حصيلة عصره ، كما جمع لابروييّر ، بدوره ، حصيلة عصره . ولو كان لابروييّر عاش في عصر عُرفت فيه رواية الملاحظة والتحليل ، لكان كتب كتاباً من هذا النوع . لكن أثر الروائي وأثر الأخلاقي يختلفان بمقدار ما تختلف طبيعة عصر يُنتج روائيين وطبيعة عصر ينتج أخلاقيّين . ما يقدم مظهراً متناسقاً ، هو مكانة كل من الأثرين ، والجهد المبذول من فنّان كبير ، ليقدّم لوحة عميقة ، حياديّة وعامة ، من زاوية البلد والزمن ، حيث عاش وجوده وعرف الانسانيّة .

لكنّ حظ « التربية العاطفية » كان أقلّ بريقاً من حظ « الطبائع » ، ولا يقارَن به إلاّ من حيث الانتقادات التي وُجّهت ، أوّل الأمر ، إلى فلوبير . قال : « إن الأكثر تسامحاً بينها ، هو أنني ، قال ، لم أضع إلاّ لوحات ، وأن التأليف والرسم ينقصان تماماً » . يبقى ، من كل ما كتب فلوبير نفسه عن روايته ، الكشف الأهم الواجب حفظه ، أنه كتب « التربية العاطفيّة » ، في قسم منها لسانت بوف . وفي الواقع ، ان صورة السيّدة أرنو ، هي حصيلة نصائح كان سانت بوف وجّهها إلى فلوبير في مقالته

عن « مدام بوفاري » . فرواية فلوبير كانت تتطلّب درجة من الثقافة أرفع من تلك التي كانت تكفي « مدام بوفاري » ، ألفه مع الأساتذة مثل لابرويير ولوساج الذي منهما استوحى . من المحتمل أنه كان يلزمه ، كذلك ، أمر آخر كان ينقص سانت بوف . فقد كان هذا غريباً ، نوعاً ، عن الحياة ، وعن تطوّر الجيل الذي كان فلوبير رسمهما هنا ، فقد أحبّ في « التربية العاطفية » بعض مشاهد وبعض أوجه ، لكن مشروع الرواية العامّ لم يكن يثيره بأكثر مما أثارته رواية « سلمبو » .

نجحت « التربية العاطفية » في العالم الامبراطوري . كان ذوقه ، ربما ، أكثر نداوة وأصحّ من ذوق النقد . في ١٨٦٩ ، قُرئت ، كاملة ، على فترات كثيرة ، عند الأميرة ماتيلد ، وأثارت حماسة كبيرة ، وبخاصة الفصل الأخير . وجّهت السيّدة دو مترنيخ إطراءات كثيرة إلى المؤلف ، وهكذا أيضاً فيولّيه ـ لو ـ دوق . التبس الأمر ، ربما ، على النقد . إنما العبارة الأخيرة أثّرت فيه تأثير ريشة طاووس مُرّرت في خياشيم ثور . « تستشهد كل الجرائد ، على وضاعتي بمشهد التركيّة التي جرّدوها من طبيعتها ، ويقارنني سارسي بالمركيز دو ساد الذي يقرّ بأنه لم يقرأه . . . ، ويدّعي باربي أوريفلي بأنّني أوسّخ الجدول وأنا أغتسل فيه » . لم يكن فلوبير يتوقّع هذا الفشل الذي كان قاسياً عليه ، والذي لم يفهمه . كان يردّد على أصدقائه : « ولكن . . . أتستطيعون تفسير عدم نجاح هذه الرواية ؟ » كان يثق بأنه كتب أكثر من « عادات مقاطعة » ، الرواية الكاملة الكبرى ، (بلزاكيّة وباريسيّة) ، التي

تطلّبها زمنه والتي كانت تفرض وجودها على فنّ تلك الفترة . كان يظنّ أيضاً أنه أنتج عملاً نافعاً وأخلاقياً . ولقد ادّعى دو كمب أنه قال له أمام التويلري المحترقة : « ما كان هذا ليحدث ، لو فهموا « التربية العاطفية » ! » ، على كل حال ، كان كتب إليه في ١٨٧٠ : « نعم ، معك حقّ ، إننا ندفع ثمن كذبنا الطويل الذي فيه كنّا نحيا ، لأن كل شيء كان خطأ : جيش خطأ ، سياسة خطأ ، أدب خطأ ، ثقة خطأ ، وحتى عواهر خطأ . أن تقول الحقيقة ، كان عملاً لا أخلاقياً ، عاب على برسيني ، كلّ الشتاء المنصرم ، فقدان المثال ، ولربما كان حسن الظن » .

إنما ، إذا كانت « التربية العاطفية » أثارت النقد لكونها لم تبدّد ، أبداً ، أوهام الامبراطوريّة الثانية وهي تظهر لها أوهام الذين تقدّموها ، فهي كانت لتشعّ ، ببطء ، أكيداً وبقدرة ، على كل تطوّر الرواية الواقعيّة . تصوير ساخر لكائنات متفكّكة ، كان عمل الموباسّانيّين ، الزوليّين والهويسمانيّين . أن تضع ، في رواية ، لوحة لجيل بكامله ، وأن تترك بعدك هذا الأثر ، هذا الأثر المشعّ ، كان طموح كثيرين من الروائيّين الشبان ، لم تمض سنة ، أو فصل ، ولم يصوّر ، تقريباً ، بطريقة فنية من أحد فيه . كل روائيّ صار يريد رسم جيله ، أو ما كان يراه في أوساط كان قدره يقذفه إليها .

ومن هذا الواقع ، فإن تضاعف قيمة آثار فلوبير ، دلّ على قوّتها الجوهريّة ، فقد قلّدها كثيرون ، لكنها احتفظت بمجد ان لم يعادلها أيّ من مقلّديها .

ألبير تيبوديه

القسم الأول

I

حوالى الساعة السادسه صباح الخامس عشر من أيلول ١٨٤٠ ، كانت السفينة فيل ـ دي ـ مونترو الوشيكة الاقلاع تنفث دخاناً كثيفاً أمام رصيف سان برنار .

يتوافد الناس راكضين ، بينما البراميل والحبال وسلال الثياب تعرقل السير . لا يجيب البحارة أحداً ، الناس يصطدمون بعضهم ببعض ، تصعد الطرود بين المدفتين ، وتضيع الضوضاء في هدير الباخرة ، التي ، وهي تقلع ، تغمر كل شيء بدخان أبيض ، بينما الجرس ، في المقدمة ، يقرع بلا انقطاع .

أخيراً انطلقت الباخرة ، والبارجتان ، مليئتين مخازن ، مشاغل ومصانع ، انطلقتا كشريطتين واسعتين نكرّهما .

بقي شاب في الثامنة عشرة جامداً قرب دفة السفينة ، شعره طويل ، ويتأبّط ألبوماً . راح يراقب ، عبر الضباب ، الأجراس ، والأبنية التي يجهل أسماءها ، ثم ، بآخر نظرة ، ضمّ جزيرة سان لويس ، ومنطقة « لاسيتي » ونوتر دام ، وإذ اختفت باريس ، تنهّد تنهّدة كبيرة عميقة .

إنه السيد فريدريك مورو ، وهو يعود ، بعد نجاحه في البكالوريا ، إلى نوجان ـ سور ـ سين ، حيث عليه أن يمضي شهرين كئيبين ، قبل الانطلاق لدراسة الحقوق . كانت أمه ، بالمبلغ الضروري ، أرسلته إلى هافر عند عم تأمل أن يرثه ابنها .

وقد عاد من هناك البارحة . وتعويضاً لنفسه عن عدم القدرة على الاقامة في العاصمة ، هوذا يرجع إلى مقاطعته سالكاً أطول طريق .

بدأ يخفّ الضجيج ، الجميع أخذ مكانه ، البعض واقف يتدفأ قرب المدخنة التي كانت تبصق بغرغرة بطيئة وموقّعة ، دخانها الأسود المتموّج ؛ نقاط ندى تزلق على النحاس ، يرتجف سطح السفينة لارتجاج بسيط في الداخل ، والدولابان ، يدوران بسرعة ، يخبطان المياه .

كان النهر محاطاً بدروع رملية . وكنت ترى طَوْف جُذوع تتماوج بتأثير تقلّبات الموج ، أو ترى ، في مركب بلا شراع ، رجلاً جالساً يصطاد ، وذاب ضباب طوّاف . فظهرت الشمس ، وصغرت التلة التي كانت ترافق ، إلى اليمين ، مجرى السين ، وبدت أخرى ، أقرب منها ، إلى الجهة المقابلة .

هذه التلة كانت تظلّلها أشجار متناثرة بين منازل منخفضة سقوفها على النمط الايطالي . تحيط بهذه المنازل حدائق ذات انحدارات تقسمها جدران جديدة ، شبكات حديدية ، فسحات معشوشبة ، أبنية زجاجية لنباتات ، وآنية جيرانيوم مُبْعَدة بترتيب على شرفات ، حيث يمكن الاتّكاء . أكثر من واحد ، حين رأى هذه المساكن المتقنة والهادئة ، تمنى لو هو صاحب أحدها ، ليعيش فيها حتى نهاية أيامه ، مع صالة بليار ، ومركب وامرأة أو أي حلم آخر . لذة جديدة : كل الجدة للرحلة البحرية هذه كانت تسهّل المناجاة . ابتدأ المزّاحون يروون نكاتهم . كثيرون راحوا يغنّون .

كانوا فرحين . وطفقوا يصبّون كؤوساً صغيرة .

كان يفكّر فريدريك في الغرفة التي سيشغلها هناك ، في تصميم دراما ، في مواضيع لوحات ، في آلام مستقبليّة . رأى أن السعادة التي يستحقها تأخرت في المجيء . أنشد أبياتاً كئيبة ، مشى على ظهر السفينة بخطوات عجلى ، تقدّم إلى الطرف ، من جهة الجرس ، وفي حلقة مسافرين وبحّارة ، رأى سيّداً يروي نكات لقرويّة ، وهو يتلاعب بصليبها الذهبي الذي على صدرها . كان جريئاً في حوالى الأربعين ، ذا شعر قصير جعد . تملأ سترته المخملية السوداء ، قامته الصلبة ، وزمرّدتان تلمعان في قميصه الباتستة ، وبنطاله الأبيض الواسع يقع على حذاء أحمر غريب ، روسيّ الجلد ، تعلوه رسوم زرقاء .

ما أزعجه وجود فريدريك . استدار نحوه مرات كثيرة ـ رامقاً إياه بغمزات من عينيه ، بعد ذلك قدّم سيكاراً لكل من يحيط به . وإذ ضجر ، ولا شكّ ، من هذه الرفقة ، راح وجلس بعيداً . لحق به فريدريك .

دار الحديث ، أول الأمر ، على أنواع التبغ المختلفة ، ثم ، وبشكل طبيعي ، على النساء . قدّم السيد ذو الحذاء الأحمر نصائح للشاب ، عرض نظريّات ، أخبر نكات ، مستشهداً بنفسه كمثال ، بادئاً كل هذا بنبرة أبويّة ، مع سذاجة « إفسادية » مسلّية .

كان من حزب الجمهورية . سبق له أن سافر ، وخبر بواطن المسارح ، والمطاعم ، والجرائد ، وكل الفنّانين المشهورين

الذين كان يسمّيهم ، وبلا تكلّف ، بأسمائهم الأولى . وسرعان ما أفضى إليه فريدريك بمشاريعه ، فشجّعه عليها .

إلا أنه قاطع نفسه ليراقب قسطل المدخنة ، ثم تمتم ، بسرعة ، حساباً طويلاً ، يعرف « كم كل ضربة مكبس ، كذا مرة في الدقيقة ، يجب . . . » وإذ حصل على الجواب ، استمتع بالمنظر . وقال في نفسه إنه سعيد لخلاصه من الأعمال .

أظهر فريدريك تجاهه نوعاً من الاحترام ، ولم يقاوم رغبة معرفة اسمه . أجاب المجهول ، بنفس واحد :

ـ جاك أرنو ، صاحب « الفن الصناعي » ، بولفار مونمارتر .

جاءه خادم ؛ على قبعته شريطة ذهب ، يقول :

ـ لو ينزل سيّدي ؟ الآنسة تبكي .

واختفى .

كان « الفن الصناعي » مؤسّسة « مخلوطة » ، تضمّ نشرة رسم ومخزن لوحات . وكان فريدريك شاهد هذا العنوان مراراً في واجهة صاحب مكتبة بلده الأصلي ، على إعلانات هائلة ، حيث يمتد ، بعظمة ، اسم جاك أرنو .

كانت الشمس تحرق صفحة المياه وتلمّع جدائل الحديد حول الصواري . عند جؤجؤ السفينة تنقسم المياه قسمين يمتدان حتى حدود الحقول . وعند كل لفتة للنهر ، كنت ترى ستار الحور الشاحب نفسه . الريف مقفر . في السماء بعض غييمات بيضاء متوقفة ، والضجر ، المنتشر بلا تحديد ، يبدو كأنه يضعف مسيرة

المركب ، ويجعل هيئة المسافرين تزداد تفاهة .

ما خلا بضعة بورجوازيين ، في الدرجات الأولى ، لكن المسافرين عمال ، أصحاب محلات بصحبة نسائهم وأولادهم . وبما أنهم كانوا معتادين أن يلبسوا كيفما اتفق في الرحلة ، فان معظمهم قد اعتمر طاقيّات يونانية قديمة ، أو قبّعات نُسيت ألوانها ، وارتدوا ثياباً سوداء بسيطة ، رثّة لاحتكاكها الكثير بالمكتب ، أو سترات طويلة مقطّعة الأزرار لكثرة ما خدمت في المحلّ ، وهنا وهناك بعض صدرات فوقها شال ، تبدي قميصاً قطنياً خشناً ، مبقّعاً قهوة ، دبابيس ذهبانية تعقص ربطات عنق شبه ممزّقة ، شرائط مدروزة تحفظ أطراف الأحذية ، اثنان أو ثلاثة أوغاد يمسكون قضبان خيزران برسلون نظرات منحرفة ، وأرباب عائلات يفتحون عيوناً كبيرة متسائلين . يتحدّثون واقفين أو مقرفصين حول حوائجهم ، آخرون كانوا نائمين في الزوايا ، كثيرون كانوا يأكلون . اتّسخ سطح السفينة بقشر جوز ، وأعقاب سجائر ، وقشر إجّاص ، وبقايا لحوم كانت جُملت بأوراق ، ثلاثة نجّاري آبنوس ذوي قمصان فضفاضة ، كانوا واقفين أمام مطعم . عازف قيثار بثياب ممزّقة وقف يرتاح ، متكئاً على آلته . بين وقت وآخر ، كنت تسمع طقطقة الحطب في المدفئة ؛ أو صيحة ، أو ضحكة ، وعلى جسير النزول ، القبطان ينتقل من حاجز هوائي إلى آخر ، لا يتوقّف . وأراد فريدريك أن يعود إلى مكانه ، فأزاح شبكة حديد الدرجات الأولى ، مزعجاً صيّادَين مع كلبيهما .

وحَدَث ما يشبه الرؤيا :

كانت جالسة وسط المقعد وحيدة . أو ، أقلّه ، لم تلاحظ أحداً ، في البريق الباهر الذي أرسلته له عيناها وبينما كان يمر ، رفعت رأسها ، ولا إرادياً هزّ كتفيه ، وحين صار بعيداً ، ومن الجهة نفسها ، راح ينظر إليها .

كانت تعتمر قبّعة قش ، لها شرائط زهرية تطير في الهواء ، وراءها . عصابات رأسها ، الملامسة لحاجبيها الطويلين ، تنزل عميقاً وتبدو تضغط ، بوله ، وجهها . ثوبها ، الذي من موسلين زاهٍ ، المنقّط بنقاط صغيرة ، يفيض بثنايا كثيرة . كانت تطرّز شيئاً ، وأنفها المستقيم ، ذقنها ، كلّها ، بوضوح تظهر في عمق المياه الزرقاء .

وبما أنها حافظت على وضعها ذاته ، دار دورات كثيرة يميناً وشمالاً ليخفي مظله . ثم انزرع قريباً من شمسيّتها الموضوعة بجانب المقعد ، وتظاهر بمراقبة زورق إنقاذ .

ما كان رأى ، قبل ، شيئاً مثل روعة بشرتها السمراء ، واغواء قامتها ، ونعومة أناملها التي يخترقها النور . راح ، بذهول ، يراقب سلّة شغلها ، كما لو هي أمر غريب . ما اسمها ، تساءل ، أين مسكنها ، ما نمط حياتها ، ما ماضيها ؟ تمنى لو يعرف أثاث غرفتها ، كل أثوابها التي كانت ترتديها ، الناس الذين تخالطهم ، حتى لذة الامتلاك الجسدي نفسها ، اختفت برغبة أعمق ، في حشريّة أليمة لا حدود لها .

أقبلت زنجية متّشحة بوشاح، ممسكة بيدها فتاة صغيرة بدأت تكبر. هي مستيقظة لتوّها، عيناها تتلألآن بالدموع. أخذتها على ركبتيها. «ما كانت البنت عاقلة، مع أنها بلغت السابعة. لن تحبّها أمها. لقد تسامحنا أكثر من اللزوم مع نزواتها». سرّ فريدريك لسماعه هذه الأشياء، كما لو كانت اكتشافاً، كسباً.

حسبها من أصل أندلسي، ربما مولّدة بيضاء. لعلها، أتت، من الجزر، بهذه الخادمة السوداء معها؟

وراءها، على الحرف النحاسي، شال طويل بحروف بنفسجيّة، يفترض أنها لفّت به قامتها كثيراً خلال الليالي الرطبة وسط البحر، وغطت به قدميها، ونامت بداخله. لكنه راح يزلق قليلاً قليلاً، وكان سيقع في الماء، فقفز فريدريك والتقطه. قالت له:

- أشكرك سيّدي.

التقت عيناهما.

- هل أنت جاهزة، يا زوجتي؟ هتف السيد أرنو وقد ظهر في فتحة الدرج.

ركضت إليه الآنسة مارت، تعلقت بعنقه، وراحت تشدّ شاربيه. انتشرت أنغام قيثارة، وأرادت الفتاة أن ترى الموسيقى. وسرعان ما وصل العازف، مع العبدة، ودخل الدرجات الأولى. عرفه السيد أرنو موديلاً قديماً. خاطبه برفع الكلفة، مما أدهش الحاضرين. أخيراً رمى العازف شعره خلف

كتفيه ، مطّ ذراعيه وراح يعزف .

كانت حكاية شرقية ، تحكي عن خناجر وأزهار ونجوم . يغنّيها الرجل ذو الثياب الرثّة بصوت نفّاذ . ضربات القيثارة تقطع اللحن خطأً . ينقر أقوى : تهتز الأوتار ، وأنغامها المعدنية تبدو تصعّد شهقات كما شكوى حب متكبّر وخاسر . في جانبي النهر ، تنحني أشجار حتى تلامس الماء . نسيم منعش يمرّ . والسيّدة أرنو تنظر ، بطريقة غامضة ، إلى البعيد . حين توقفت الموسيقى ، حرّكت جفونها مرات كثيرة ، كما لو هي تطلع من حلم .

تقدم العازف منهم بتواضع . وحين راح السيد أرنو يبحث عن مال ، مد فريدريك يده المقفلة صوب الكاسكيت ، وإذ فتحها ببراءة ، وضع ليرة ذهبية . ما كان التبجّح أمامها دافعه للاحسان ، لكنها فكرة تبرّك فيها تشترك عاطفة قلبية تكاد تكون دينيّة .

دله ارنو على الطريق ودعاه بود إلى النزول ، فأكد له فريدريك أنه تغدّى ـ على العكس كان يتضوّر جوعاً ، وما عاد يملك قرشاً واحداً .

بعدها ، فكر ، كان له الحق ، كما أي آخر ، بالبقاء في الغرفة .

وأمام موائد مستديرة ، كان بورجوازيّون يأكلون ، وفكرهم يدور . السيّد والسيّدة أرنو كانا في العمق ، إلى اليمين . جلس هو على مقعد مخمليّ طويل ، بعدما أخذ جريدة كانت هناك .

كان عليهما ، في مونتيرو ، أن يستعجلا أمرهما . رحلتهما ،

في سويسرا ، تدوم شهراً . وبخّت السيّدة أرنو زوجها لضعفه أمام ابنته . همس في أذنها بشيء عذب ولا شك ، إذ هي ابتسمت . ثم أهتمّ بتكسير النافذة خلفه .

السقف واطىء وأبيض يعكس نوراً ساطعاً . راح فريدريك يلاحظ ظلال رموشها . تبلّل شفتيها بكأسها ، تكسر شيئاً من رقاقة محشوة بأصابعها . الرصيعة اللازورديّة المعلّقة بسلسال ذهبي في رسغ يدها ، تقرع صحنها بين وقت وآخر مع ذلك ، فالحاضرون ما كانوا يلاحظونها .

أحياناً ، من نوافذ السفينة ، كان يظهر جنب مركب يقرّب الزورق من الشاطىء ليأخذ أو لينزل مسافرين . الناس إلى الطاولات ينحنون إلى الكوى ويسمّون المناطق النهريّة .

طفق أرنو يشتكي من المطبخ ، وصرخ أمام الحساب ، وأنقصه . ثم أخذ الشاب إلى مقدّم السفينة لشرب مشروب ساخن . لكنّ فريدريك استدار إلى الخيمة ، حيث عادت السيّدة أرنو . كانت تقرأ كتاباً رقيقاً غلافه رماديّ . زاويتا فمها تنفرجان الفينة بعد الفينة ، وإشراقة رضى ولذة تنير جبهتها . حسد من اخترع هذه الأشياء المهتمة بها . وبقدر ما يتأملها ، يشعر بهاويات تنحفر بينهما . فكّر أنّه سيغادرنها الآن نهائياً ، من دون أن يحصل على كلمة منها ، من دون أن تترك له ولو ذكرى .

إلى اليمين يمتد السهل . إلى الشمال مرج يصل ، على مهل ، قمة ، حيث ترى كروماً ، وشجر جوز ، وطاحونة ، ودروب صغيرة متعرّجة في الأكمة التي تصل إلى حدود السماء . يا

للسعادة ! أن يتسلّقا ، جنباً إلى جنب ، ذراعه حول خصرها ، بينما ثوبها يكنس الأوراق الصفراء ، فيصغي إلى صوتها تحت إشعاع عينيها ! تستطيع السفينة التوقف ، ما عليهما إلّا النزول : وهذا الأمر الغاية في السهولة ، ما كان أسهل منه ، إلّا تحريك الشمس !

أبعد قليلاً، اكتُشف قصر. سقفه مقرّن مع أبراج صغيرة مربّعة . روضة أزهار تنبسط أمام واجهته ؛ وممرات تغوص ، كما عقود قبب سود ، تحت الزيزفون العالي . تخيلها تمرّ على حدود الخمائل . ظهر ، هذه اللحظة ، على درج المدخل ، بين صناديق الليمون ، أمرأة ورجل في مقتبل العمر . ثم اختفى كل شيء .

بدأت الفتاة الصغيرة تلعب حوله . أراد فريدريك تقبيلها . اختبأت وراء خادمتها . عنّفتها أمّها لكونها لم تكن لطيفة مع السيّد الذي أنقذ شالها . أكانت هذه تلميحة غير مباشرة ؟

ـ « استحدّثني أخيراً ؟ » تساءل في ذاته .

الوقت يضغط . كيف الحصول على دعوة عندهم ؟ وما تفتق له شيء أفضل من أن يجعلها تلاحظ لون الخريف ، وأضاف :

ـ قريباً الشتاء . فصل حفلات الرقص والعشاء !

لكن أرنو كان مهتماً بحوائجه . ظهرت ضفة سورفيل ، اقترب الجسران ، اخترقوا مصنع الحبال ، ثم صفّ بيوت واطئة ؛ تحتها قدور زفت ، نيران حطب ، وأولاد مراهقون يركضون على الرمل وهم يدورون على أنفسهم . عرف فريدريك رجلاً بصدرة

ذات أكمام ، هتف له :

ـ اسرع .

وصلوا . بصعوبة وجد السيّد أرنو ، بين جموع المسافرين ، أجابه وهو يضغط يده :

ـ بالتوفيق ، سيّدي العزيز .

حين صار على الرصيف ، استدار فريدريك . كانت قرب دفة السفينة ، واقفة . تطلّع إليها بنظرة حاول أن يجعل فيها ذوب روحه . بقيت جامدة ، كأنه لم يفعل شيئاً . ثم ، من دون اهتمام بترحيب خادمه :

ـ لِمَ لم تأتِ بالعربة إلى هنا ؟

صار الرجل يعتذر .

ـ يا لك من أرعن ! أعطني مالاً !

وراح يتغدّى في فندق .

بعد ربع ساعة ، اشتعلت فيه رغبة : أن يدخل ، كما صدفة ، ساحة العربات . لربما رآها .

ـ « ما الجدوى ؟ » قال في ذاته .

وحملته العربة . الحصانان لم يكونا لأمّه . كانت استعارت حصان السيّد شامبريون ، الجابي ، لتقطره بجانب حصانها . إيزيدور ، وقد انطلق مساء أمس ، ارتاح في براي ونام في مونتيرو ، ليرتاح الحيوانان ويخبّا برشاقة .

تمتدّ حقول حُصدت إلى ما لا نهاية . خطّان من شجر يزيّنان الطريق ، كومات الحصى تتتابع ؛ وشيئاً فشيئاً ، فيلنوف ـ

سان ـ جورج ، أبلون ، شاتيّون ، كورباي ، والمناطق الأخرى ، وكل رحلته استفاقت في ذاكرته ، بطريقة صافية إلى حدّ أنه ، الآن ، يميّز تفاصيل جديدة ، خصائص أكثر حميميّة ؟ تحت الدائر الأخير من ثوبها ، تنتعل قدمها حذاء حريرياً ناعماً ، بنيا الخيمة التي من نسيج محبوك ، تؤلّف ، فوق رأسها ، قبّة واسعة ، وشرّاباتها الحمر الصغيرة التي في الأطراف ، ترتجف ، في النسيم ، بلا هوادة .

كانت تشبه نساء الكتب الرومنطيقيّة . ما أراد أن يزيد شيئاً على شخصيتها ، أو ينقص شيئاً منها . وراح العالم يتّسع . صارت النقطة المشعّة حيث تلتقي كل الأشياء ؛ واستسلم متمايلاً مع حركة العربة ، جفناه نصف مطبقين ، ونظرة إلى الغيوم . استسلم لفرحة حالمة لا متناهية .

ما انتظر في براي لتقديم الشعير للحصانين ، اتجه ، وحيداً ، إلى الأمام . كان أرنو ناداها « ماري ! » فهتف عالياً جدا : « ماري ! » ضاع صوته في الهواء .

لون أرجواني وسيع ألهب السّماء ، إلى الغرب . أكداس القمح الكبيرة ، التي كانت تنهض وسط الأرض المحصودة ، تلقي ظلالها الضخمة في البعيد . راح كلب ينبح في مزرعة ؟ ارتجف ؛ إذ غلّت فيه كآبة لا سبب لها .

حين لحق به إيزيدور ، جلس على مقعد القيادة . زال ضناه . كان قرّر ، حازماً ، أن يدخل ، كيفما كان ، عند آل أرنو ، وأن يرتبط بهم . لا بدّ أن يكون جوهم مسلّياً . على كل

حال ، كان السيّد أرنو يعجبه ؛ ثم ، مَن يدري ؟ حينما ، تدفق الدم إلى وجهه : صدغاه يطنّان ، صفق سوطه ، أرخى الرسن ، وقاد الحصانين بسرعة قصوى ، جعلت الحوذيّ يردّد :

ـ رويداً ! رويداً ! تجعلهما منتفخي الرئة .

شيئاً فشيئاً هدأ فريدريك ، وسمع خادمه يتحدّث .

ننتظرك ، سيّدي ، بفارغ الصبر . بكت الآنسة لويز لتأتي بالعربة .

ـ مَن هي الآنسة لويز ؟

ـ صغيرة السيّدة روك ، تعرفها ؟

ـ آه ! كنت نسيت ! قال فريدريك بإهمال .

في هذا الوقت ، كان الحصانان قد تعبا . راحا يعرجان ؛ ودقّت التاسعة في سان ـ لوران عندما وصل إلى ساحة السلاح ، أمام بيت أمّه . هذا البيت الرحب ، مع حديقة تطل على الريف ، أضيفت لملاحظة السيّدة مورو ، الإنسان الشخصيّة المحترمة بالأكثر ، في كل المنطقة .

انها تتحدر من عائلة نبلاء قديمة ، انقرضت الآن . زوجها من أبناء الطبقة الشعبية زوّجها إياه أهلها . مات بضربة سيف ، أثناء حملها ، تاركاً لها ثروة مشبوهة . تستقبل ثلاث مرات في الأسبوع ، وبين وقت وآخر ، تقيم غداء احتفالياً . لكنها تعدّ الشموع من قبل ، وتنتظر ، على أحرّ من الجمر ، إيجار أراضيها . هذا العوز ، المستور كالنقيصة ، يجعلها رصينة . غير أنها تمارس فضيلتها بتواضع متطرّف ، من دون مرارة . صداقاتها البسيطة

تبدو حسنات كبيرة . يستشيرونها في اختيار الخدم ، في تربية الفتيات ، في فن المربّيات ، وينزل المطران عندها في جولاته الأسقفيّة .

تغذّي السيّدة مورو طموحاً كبيراً في إبنها . ما كانت تحبّ سماع تأنيب الحكم ، بنوع من الحكمة المسبقة . ابنها بحاجة إلى الحماية أوّلاً . ثم ، بفضل أساليبها ، سيصبح مستشاراً في الدولة ، سفيراً ، وزيراً . نجاحاته في معهد سانس ، تبرّر تكبّرها . لقد حصل على جائزة الشرف .

حين دخل الصالون ، نهضوا ، جميعاً ، بسرعة ، قبّلوه . وجعلوا ، بالكراسي الواسعة والعادية ، نصف دائرة حول المدفأة . سأله ، مباشرة السيّد جمبلان ، رأيه حول السيّدة لافارج . هذه الدعوى ، التي في جنون العصر ، ما توانت عن نقاش حاد ، أوقفته السيّدة مورو ، على أسف السيّد جمبلان ؛ كان يحسبه مفيداً للشاب كونه سيصبح متشرّعاً ، وخرج من الصالون مجروحاً شعوره .

لا شيء يباغت في صديق للأب روكّ ! في ما يخص الأب روكّ ، تحدّثوا عن السيّد رمبروز الذي كان حصل ، من زمان قريب ، على أملاك فورتيل الواسعة . لكنّ الجابي كان انتحى بفريديك جانباً ليعرف ما يفكّر في آخر مؤلّف للسيّد غيزو . جميعهم يتوقون لمعرفة أعماله . وتصرّفت السيّدة بنوا بلباقة لتستعلم عن عمها . كيف حاله هذا القريب الطيّب ؟ بات لا يخبر عن أحواله . ألم يكن له قريب بعيد في أميركا ؟

أعلنت الطاهية أن طعام السيّد جاهز . بدأوا ينسحبون ، بفطنة . وإذ هما في الغرفة وحيدان ، قالت أمّه بصوت منخفض :

ـ وبعد ؟

كان المسنّ استقبله بحرارة ، دون أن يفصح عن نواياه .

تنهّدت السيّدة مورو .

وفكر : « تُرى ، أين تكون الآن ؟ » .

العربة تمشي ، وهي ، ولا شك ، ملتفّة بالشال . ساندة رأسها الجميل النعسان ، إلى قماش العربة .

كانا يصعدان إلى غرفتهما ، حين وصل خادم مرسال حاملاً ورقة .

ـ ماذا هناك ؟

ـ إنه ديلورييه بحاجة إليّ .

ـ آه ! رفيقك ! قالت السيّدة مورو بضحكة احتقار . الوقت مناسب جداً ، فعلاً ! تردّد فريدريك . إنّما تغلّبت الصداقة . أخذ قبّعته .

قالت أمّه :

ـ أقلّه ، لا تبقَ طويلاً !

II

كان والد ديلورييه قائد جبهة استقال في ١٨١٨ ، عاد إلى نوجان وتزوّج . وبمال زوجته اشترى وظيفة « مباشر » محكمة بالكاد تكفيه للعيش . يصب غضبهُ على المحيطين به ، إذ هو ساخط لظلامات متعدّدة طويلة ، ومتألّم من جراح قديمة ، ودائم التأسّف على الأمبراطور . قلائل هم الأولاد الذين ضُربوا أكثر من ابنه . ما كان يستسلم المراهق برغم الضرب . حين تحاول أمّه التدخل ، تُعنّف مثله . أخيراً ، جعله في مكتبه هو ، ويأمره ، طوال النهار ، بالانحناء على طاولته ، ونقل فصول ، مما جعل كتفه اليمنى أقوى من الأخرى بشكل واضح .

عام ١٨٣٣ ، وبعد دعوة السيّد الرئيس ـ باع مكتبه . ماتت زوجته بالسرطان . ذهب يعيش في ديجون ؛ بعدها صار تاجر رجال في « برواي » ، وإذ حصل لشارل على نصف منحة ، وضعه في معهد (Sens)، حيث تعرّف عليه فريدريك . إنّما واحدهما كان في الثانية عشرة ، والآخر في الخامسة عشرة . بالاضافة إلى فروقات كثيرة أخرى في الطباع .

يملك فريدريك ، في صوانه ، كل أنواع الحاجيّات ، أشياء نادرة ، ضروريّات الزينة ، مثلاً . يجب أن ينام طويلاً في

الصباح ، أن ينظر السنونوات ، أن يقرأ مسرحيّات ، وقد وجد حياة المهد قاسية بالمقارنة مع ملاءات البيت التي راح يتحسر عليها. لكن حياة المعهد بدت جيدة لابن «المباشر» كان يعمل بنشاط ، حتى انه ، في سنته الثانية ، انتقل إلى الصف الثالث . مع ذلك ، بسبب فقره ، أو مزاجه الغاضب ، أحاطت به عدوانية خفيّة . إنما ، إذ ناداه خادم ، مرة ، ابن المتسوّل في ملء ملعب الوسط ، قفز إلى عنقه وكاد يقتله لولا تدخل ثلاثة من الأستاذة . وأعجب فريدريك بذلك جداً فضمه بين ذراعيه . من يومها ، صارت صداقتهما كاملة . عاطفة الكبير ، ولا شك ، تملّقت غرور الصغير ، وقبل الآخر ، كما السّعادة ، هذا التفاني المقدّم .

كان والده ، أثناء العطل المدرسيّة . يتركه في المعهد . وقع صدفة على ترجمة لأفلاطون فتحمّس . أخذ بدراسة الماورائيّات . وصار تقدمه سريعاً ، لأنه يقتحمها بقوى شابة ويكبر ذكاء يتحرّر . قرأ جوفّروا ، كوزان ، لاروميغيير ، مالابرانش ، لايكوسيّين ، وكل محتويات المكتبة . أحس بحاجة لأن يسرق مفتاحها ، ليتزوّد بالكتب .

تسليات فريدريك كانت أقل جدية . رسم في شارع الملوك الثلاثة سلالة المسيح ، المحفورة على عمود ، ثم بوّابة الكاتدرائية . بعد فواجع القرون الوسطى ، استثار الذاكرة : فرواسّار ، كومينز ، بيار أو ليتوال ، برانتوم .

تملّكته صور مطالعاته ، صار يشعر بالحاجة إلى إعادة كتابتها . يطمح لأن يكون ، يوماً ، والتر سكوت فرنسا .

ديلورييه يتفكّر في نظام فلسفيّ مهمّ يحقّقه ولو في المستقبل البعيد .

يتحدثان عن كل هذا أثناء الفُرص في الملعب ، بمواجهة « العبارة الأخلاقية » المرسومة تحت سلة الحائط يتوشوشان في الكنيسة ، عند لحية القديس لويس ، يحلمان في المهجع من حيث ترى مقبرة . أيام النزهات ، يتدبّران أمرهما وراء الآخرين ، ويتحدثان إلى ما لا نهاية .

يتحدثان عما سيفعلان في ما بعد ، حين خروجهما من المعهد . أوّل الأمر ، سيقومان بسفرة طويلة بالمال الذي يجمعه فريدريك من ثروته ، عند بلوغه سن رشده . ثم يعودان إلى باريس ، يعملان معاً ، لا يفترقان : ـ وإذ يرتاحان من أعمالهما ، يكون لهما مغامرات عاطفيّة مع أميرات في صالونات صغيرة أو عربدات خاطفة مع مومسات شهيرات . أحياناً تخيّم شكوك على نزق آمالهما . وبعد نوبات فرح هاذية ، يقعان في صمت عميق .

في أمسيات الصيف ، يأخذهما النهار ، فيتمدّدان على ظهرهما ، خائفين ، سكرانين ، بعد أن يكونا مشيا طويلاً عبر الدروب الحجريّة على حدود الكروم ، أو على الطريق الكبرى وسط الريف ، والقمح يتماوج في الشمس ، في حين يحمل الهواء روائح سماويّة . الآخرون ، بأكمام قمصانهم ، يلعبون الحواجز ، أو يطيّرون طيّارات ورق . يناديهم الناظر . يعودون ، تابعين بساتين تخترقها جداول صغيرة ، ثم الشوارع العريضة التي تظلّلها جدران قديمة . تطن الشوارع المقفرة تحت أقدامهم يتفتح السور ، يصعدون الدرج ، وها هم حزانى كما بعد فجور مفرط .

أدّعى المراقب أنهما يتحمّسان بالتبادل . والحال أنه إذا ما عمل فريدريك في الصفوف العليا ، فذلك بناء على نصح صديقه ؛ وفي عطلة ١٨٣٧ ، اصطحبه عند أمّه .

لم يعجب الشاب السيّدة مورو . بغرابة أكل ، رفض الذهاب إلى قداس الأحد ، عقد أحاديث جمهورية ؛ وفي الأخير ظنّت أنه صحب ابنها إلى أماكن مشبوهة . راقبوا علاقاتهما . أحبّا بعضهما أكثر . ووداعهما كان شاقاً ، في العام الذي أقبل ، حين انتقل ديلورييه من المعهد لدراسة الحقوق في باريس .

نوى فريدريك اللحاق به . ما التقيا من سنتين . بعد انتهاء معانقاتهما ، انتقلا إلى الجسور يتحدّثان على مزاجهما .

غضب والد فريدريك ، وكان صار صاحب قاعة بليار في فيلّنوكس ، غضباً شديداً ، عندما طالبه ابنه بحقوق الوصاية ، حتى أنه توقّف عن الإنفاق عليه . وبما أنه أراد أن يكون استاذاً في الكلية وهو بلا مال ، قبل ديلورييه في « تروا » مركز كاتب محام عند كاتب عدل . اقتصد أربعة آلاف فرنك ؛ ولو كان لن يقبض من ميراث أمّه ، فإنّ له ما يعمله خلال سنوات ثلاث بحرية منتظراً وظيفة . يجب ، إذن ، التخلّي عن مشروعهما القديم بالعيش معاً في العاصمة ، في الحاضر ، أقلّه .

وافق فريدريك حزيناً ، ها أوّل أحلامه انهارت .

- تعزّ ، قال ابن القائد ، الحياة طويلة ، ونحن شابان . ألحق بك . لا تفكّر في الأمر . هزّه بيديه ، وليسلّيه ، راح يسأله عن رحلته .

ما كان عنده أخبار كثيرة . إنّما ، على ذكر السيّدة ، أرنو ، اختفت كآبته . لم يتحدّث عنها ، أمسكه الخجل . تبسط ، في المقابل ، في الحديث عن أرنو ، متذكّراً أحاديثه ، حركاته علاقاته ؛ ودعاه ديلورييه لتعميق هذه المعرفة .

فريدريك ، في أيامه الأخيرة هذه ، ما كان كتب شيئاً . تغيّرت آراءه الأدبية : فضّل ، فوق أي أمر ، الألم ؛ فرتر ، رينيه ، فرانك ، لارا ، ليليا وآخرون أقلّ أهمية حسّوه بالمقدار نفسه . وكان يرى الموسيقى ، أحياناً ، أفضل من يعبّر عن اختلاجات نفسه ، فيروح يحلم بسمفونيّات . أو تشدّه إليها المسافات ، فيريد أن يرسم . مع أنه كان كتب أشعاراً . وجدها ديلورييه جميلة جداً ، لكنه لم يسأله أخرى .

لم يعد يهتم بالماورائيات . تشغله الثورة الفرنسية والاقتصاد الاجتماعي . كان ، الآن ، شيطاناً كبيراً في العشرين ، هزيلاً ، بفم واسع ، حازم المظهر . وهذا المساء كان يرتدي سترة عتيقة . حذاؤه أبيض من الغبار ، إذ كان مشى طريق فيلّنوكس ، قصد أن يرى فريدريك .

ذهب إليهما إيزيدور . السيّدة تسأله الرجوع ، وتخشى عليه البرد ، فأرسلت إليه معطفه .

ـ إبقَ إذن ! قال ديلورييه .

وبقيا يتنزهان من جهة إلى أخرى فوق الجسرين اللذين يرتكزان إلى الجزيرة الضيّقة المؤلّفة بالقناة والنهر .

عندما يذهبان في اتجاه نوجان ، تقابلهما مجموعة بيوت

منخفضة نوعاً . إلى اليمين ، تبدو الكنيسة وراء طواحين الخشب المقفلة الأبواب . وإلى الشمال حواجز الشجيرات طوال الضفة ، تنهي حدائق تكاد لا تُلاحظ . لكن ، من جهة باريس ، تنحدر الطريق في خط مستقيم ، وحقول تختفي في البعيد ، في بخار الليل . صامتة هي ونورها أبيض . تتصاعد إليهما روائح أوراق رطبة . على مئة متر منهما ، هطول مياه يبعث همسه الضاج العذب الذي تحدثه الأمواج في الظلمات .

توقّف ديلوربيه وقال :

هؤلاء الناس الطيّبون النائمون بطمأنينة ، غريب أمرهم ، يا للصبر ! تتحضّر سنة ٨٩ جديدة ! منهكون نحن من البنى الاجتماعية ، من القوانين ، من الحجج ، من الأكاذيب ! آه ! لو كان لي جريدة أو منبر حر ، كم كنت أهزّ كلّ هذا ! إنّما ، لمباشرة أيّ عمل ، لا بدّ من المال ! أيّ لعنة تفوق كونك ابن صاحب حانة وتضيّع وقتك بحثاً عن خبزك اليومي .

رمى فريدريك بعضاً من معطفه فوق كتفي صديقه . تغطيّا به معاً ، ومشيا جنباً إلى جنب متخاصرَين .

ـ كيف تريدني أن أعيش هناك من دونك ؟ قال فريدريك . مرارة صديقه أعادت إليه حزنه . كدت أرتبط بامرأة تحبّني . . . لماذا تضحك ؟ الحبّ هو الغذاء الثقافي وكما الجو الكامل بالابداع . العواطف غير العاديّة تنتج مؤلفات رائعة . وحين أحتاج إليها ، أرفض البحث عنها ! وفي حال وجدتها ، ستصدّني . أنا من سلالة المغضوب عليهم ، وسأنطفىء مع كنز من

الماس اصطناعي أو طبيعي ، لا أعرف .

امتد ظلّ أحد ما على الأرض ، في وقت سمعاً هذه الكلمات :

ـ خادمكما ، سيّدي !

إنه رجل قصير ، يرتدي سترة طويلة واسعة سمراء ، يعتمر كاسكيت تظهر أنفاً مروّساً .

ـ السيّد روكّ ! قال فريدريك .

ـ هو بنفسه ! أجاب الصوت .

برّر ابن نوجان حضوره بأنه عائد يبحث عن فخاخ الذئاب ، في بستانه ، على حدود الماء .

ـ وها انك عدت إلى منطقتنا ؟ حسناً ! علمت هذا من ابنتي . أتمنى أن تكون صحتك لا تزال جيّدة . ألن تذهب بعد ؟

وذهب ، مكرها ولا شكّ ، لاستقبال فريدريك الفاتر له .

ما كانت السيّدة مورو تخالطه . كان السيّد روكّ يعيش مع خادمته بطريقة غير شرعيّة ، وما كانوا يحترمونه تماماً بالرغم من كونه مدير الانتخابات ووكيل أعمال السيّد دمبروز .

ـ صاحب المصرف الذي في شارع أنجو؟ تابع ديلورييه أتعرف ما ينبغي أن تفعل به يا الجريء ؟

قاطعهما إيزيدور ، مرة بعد . عليه اعادة فريدريك . السيّدة قلقة لغيابه .

ـ حسناً ، حسناً ! سنذهب ، قال ديلورييه . لن ينام خارج المنزل .

وإذ عاد الخادم :

ـ يجب أن تسأل هذا الشيخ أن يُدخلك عند آل دمبروز . لا شيء ، أكثر فائدة من مخالطة بيت غني ! وبما أنّ لك ثوباً أسود وقفّازاً أبيض ، إستفد منهما ! يجب أن تقتحم هذا العالم ! تدخلني إيّاه في ما بعد . إنه رجل الملايين ، فكّر ! تدبّر أمرك كي تعجبه ، وتعجب زوجته أيضاً . صر عشيقها .

هتف فريدريك .

ـ إنّما ، يبدو لي ، أني أقول لك أشياء كلاسيكيّة . تذّكر راستينياك في « الملهاة البشريّة » ! ستنجح ، متأكّد أنا !

كان فريدريك يثق بديلورييه ، فشعر أنه تزعزع ؛ ونسي السيّدة أرنو ، أو ظن أنها تدخل ضمن النبوءة عن المرأة الأخرى ، فما استطاع إلاّ الابتسامة .

أضاف كاتب المحامي :

ـ نصيحة أخيرة : إنجح في امتحاناتك ! اللقب نافع دوماً : واترك ، صراحة ، أشعارك المسيحيّة والشيطانية ، الموازية تقدماً فلسفيّاً لما كنّا عليه في القرن الثاني عشر . يأسك سخيف . كثر من المتميّزين كانت لهم بدايات أصعب ، خذ ! مثلاً ، ميرابو . على كل حال ، إن افتراقنا لن يطول . سأسترد المسروق كرهاً من والدي الغشّاش . يجدر بي ، الآن ، أن أعود ، وداعاً ! أمعك مئة فلس ثمن عشائي ؟

أعطاه فريدريك عشرة فرنكات ، بقيّة المبلغ الذي أخذه ، صباحاً ، من إيزيدور .

في هذه الأثناء ، وعلى مسافة مئة وعشرين قدماً من الجسرين ، على الضفة الشمالية ، كان نور يلمع في كوّة بيت منخفض .

لاحظه ديلوربيه. قال، حينها، كمن حزر أمراً ، نازعاً قبّعته :

ـ فينوس ، ربّة السماوات . لكنّ بينوري هي أمّ الحكمة . هل وشوا بنا بسبب هذا ، ياللعجب !

هذا التلميح إلى مغامرة مشتركة جعلهما فرحين . عالياً قهقها ، في الشوارع .

وبعدما سدّد حسابه في الفندق ، أوصل ديلوربيه فريدريك حتى مفترق « أوتيل ديو » ؛ وإذ انتهت معانقتهما الطويلة ، افترق الصديقان .

III

بعد شهرين وصل فريدريك ، ذات صباح ، إلى شارع كوك ـ هيرون نازلاً من الباخرة ، وفكّر مباشرة في زيارته الكبرى .

ساعده الحظ . جاءه السيّد روك بلفّات ورق ، رجاه حملها ، بنفسه ، إلى السيّد دمبروز . وأرسل ، مع الطرد ، ورقة فيها يقدّم مواطنه الشاب .

بدت السيّدة مورو مدهوشة لهذا الإجراء . أخفى فريدريك الفرح الذي أحدثه فيه .

الاسم الحقيقي للسيّد دمبروز كان الكونت دمبروز . إنّما ، منذ ١٨٢٥ ، تاركاً شيئاً فشيئاً نبالته وحزبه ، عاد إلى الصناعة . ولقد جمع ثروة يقدّرونها ضخمة ، بما أن أذنه كانت في كل المكاتب ، واليد في كل المبادرات ، لاقتناص المناسبات ، وكان بارعاً كيوناني ومثابراً كشخص من « الاوفرنية » . فوق هذا ، كان عسكرياً في جيش الشرف ، عضواً في المجلس العام لجريدة « الفجر » ، نائباً ،عظيماً في يوم من أيّامه ، وكرجل مجاملات ،

يتعب الوزير بطلبات المساعدة الدائمة ، والصلبان ، ومكاتب التبغ . وفي استيائه المستمر من السلطة ، يميل إلى اليسار . أمرأته ، السيِّدة دمبروز الجميلة ، التي تتحدث عنها جرائد الأزياء ترئس الجمعيّات الخيريّة . وفي تملّقها للدوقات ، تمتصّ حقد الأشراف ، وتجعلهم يعتقدون أنّ في استطاعة السيِّد دمبروز أن يتوب ويؤدي خدمات .

كان الشاب مضطرباً في ذهابه إليهم .

« كنت حسناً فعلت لو أخذت معي ثوبي . سيدعونني ، ولا شك إلى حفلة الاسبوع المقبل الراقصة . ماذا سيقولون لي ؟ » .

عاودته رباطةِ جأشه إذ فكّر أنّ السيّد دمبروز لم يكن إلّا بورجوازيّاً ، وبسرور قفز من عربته التي بعجلتين على رصيف شارع أنجو .

حين دفع واحداً من بابي العربات ، اخترق ساحة ، صعد درج المدخل ودخل رواقاً ذا بلاط من مرمر ملوّن .

درج مزدوج مستقيم ، وسجّادة حمراء تستند إلى جدران عاليه من جصّ لامع . عند أسفل الدرجات ، شجرة موز ، أوراقها العريضة تنقلب على مخمل المطلع . شمعدانان برونزيان يحملان كرات من بورسلان معلقة بسلاسل ، منافذ أجهزة التدفئة تصدر هواءً ثقيلاً ؛ وما كنت تسمع سوى تكتكات ساعة كبيرة ، موضوعة في الطرف الآخر للرواق ، تحت مجموعة أسلحة .

دقّ جرس ، فظهر خادم أدخل فريدريك غرفة صغيرة ،

حيث تلاحَظ خزنتان قويّتان مع أدراج ملأى بالكرتون . وسطها يكتب السيّد دمبروز على مكتب متحرّك .

أسرع في قراءة رسالة السيّد روك ، فتح ، بسكّينه القماشة المحتوية الأوراق ، تفحّصها .

من بعيد ، يبدو شاباً ، بسببَ ضعفه لكنّ شعراته النادرة البيضاء ، وأعضاءه الواهية ، وبخاصة شحوب وجهه الغريب ، تدل ، كلّها ، على طبع متلَف . طاقة لا ترحم ترتاح في عينيه المزرقتي الاخضرار ، الأكثر بروداً من أعين زجاجيّة . وجنتاه ناتئتان واليدان حركاتها بطيئة .

وإذ نهض ، أخيراً ، وجّه إلى الشاب بعض الأسئلة عن أشخاص يعرفهم ، عن نوجان ـ عن دروسه ؛ ثم صرفه بانحناءة.

خرج فريدريك من ممشى آخر ، ووجد نفسه في أسفل الساحة ، قريباً من أبواب الرجوع .

توقّفت عربة زرقاء مقفلة أمام درج المدخل . فُتح الباب ، وصعدت أمرأة ، فراحت العربة تسير فوق الرمل بضجة لا تتميّز .

في الوقت ذاته لوصولها ، وصل فريدريك من الجهة الأخرى، تحت باب العربات. وإذ لم يكن عرض المساحة كافياًوُجِدَ مرغماً على الانتظار . كانت المرأة الشابة منحنية خارج كوّة الباب ، تتحدّث ، همساً ، إلى الحاجب . ما لاحظ إلاّ ظهرها ، مغطّى بعباءة بنفسجيّة . مدّ نظره إلى داخل العربة المغطّاة بنسيج ازرق ، مع زركشات وبعض خيطان حريريّة . أفعمته ملابس المرأة ؛

تضوّع من هذه العلبة الصغيرة المبطّنة أريج زنبق ، وكما رائحة أناقات نسائية . أرخى الحوذيّ الرسن ، مسّ الحصان الحذّ بغتة ، واختفى كل شيء .

عاد فريدريك على قدميه ، تابعاً الشوارع العريضة .

تأسّف لعدم قدرته على تميّز السيّدة دمبروز .

أبعد قليلاً من شارع مونمارتر ، جلبة عربات جعلته يدير رأسه ، وقرأ ، في الجهة المقابلة ، على بلاطة من مرمر :

جاك أرنو

كيف لم يفكّر فيها من قبل ؟ الحق على ديلورييه ؟ وتقدم إلى المخزن ، مع هذا لم يدخل . انتظر ظهورها .

وراء الزجاج العالي الشفّاف ترتيب لبق لتماثيل صغيرة ، ورسوم ، ومنحوتات ، وفهارس ، ومشاهد من « الفن الصناعي » ؛ وأثمان الاشتراك مكرّرة على الباب ، الذي تزيّنه ، في وسطه ، الحروف الأولى من إسم الناشر . وتلاحظ ، على الجدران ، لوحات كبيرة ، دهانها يلمع ، ثم ، في العمق ، خزانتان تحملان بورسلاناً ، برونزاً ، إغراءات جذّابة ، يفصل بينهما درج صغير ، مقفل في أعلاه بستار من موكيت ، وهناك ثريّا من خزف سكسوني قديم ، وسجادة خضراء على الأرض ، وطاولة مرصّعة ، كلها تضفي على الجو مظهر صالون أكثر منه مظهر مخزن .

بدا فريدريك كأنه يتفحّص الرسوم . ثم دخل بعد تأرجحات لا متناهية .

رفع أحد الموظفين الستار ، وأجاب بأن السيّد لن يكون في المخزن قبل الخامسة . ولكن ، إذا كان في الامكان نقل الرسالة . . .

ـ لا ! سأعود ، قال فريدريك بهدوء .

اهتمّ ، في الأيام التالية ، في البحث عن مسكن ؛ وقر رأيه على غرفة مفروشة في الطابق الثاني من فندق في شارع سان ـ هياسنت .

وذهب إلى افتتاح المحاضرات الجامعية ، وهو يتأبّط نشّافة جديدة ، ثلاثمائة شاب ، حاسري الرؤوس ، يملأون مدرّجاً حيث هرم ، في ثوب أحمر ، يتكلّم ، بإسهاب ، بصوت رتيب . أقلام تصوت على الورق . وجد من جديد في هذه الغرفة رائحة الصفوف ، منبراً مشابهاً ، والضجر نفسه ! عاد خلال خمسة عشر يوماً . لكنهم ما كانوا ، بعد ، في الموضوع الثالث ، حتى أهمل القانون المدني .

ما تحققت الأفراح التي كان قد وعد نفسه بها . وحين أتعب غرفة المطالعة ، وجاب مجموعات اللوفر ، وشاهد كثيراً من لعروض المسرحيّة ، وقع في بطالة بلا قرار .

ازدادت أحزانه هموماً ومشاكل . كان عليه أن يحسب بياضاته ويخضع للحاجب ، وهو فظ في مظهر ممرّض ، يأتي في الصباح يسوّي له سريره ، وهو يشمّ الكحول ويشتم .

ما كانت تعجبه شقّته الصغيرة المزيّنة بساعة مرمرية . جدرانها رقيقة ، يسمع ، كان ، من خلالها الطلّاب يسكرون ويضحكون ويغنّون .

راح ، متعباً من هذه الوحدة ، يبحث عن واحد من أصدقائه القدامى : باتيست مارتينون ؛ اكتشفه في نُزل بورجوازي في شارع سان ـ جاك ، يجدّ في درس القوانين الاجرائية أمام موقد فحم .

تقابله امرأة بزيّ هنديّة ترفأ جوارب .

كان مارتينون ممن يسمّونهم : رجلاً جميلاً جداً . فهو طويل ، ممتلىء الخدّين ، متناسق الجسد وعيناه الزرقاوان موحيتان ؛ كان والده ، وهو رجل زراعة كبير ، يعدّه للقضاء ، ـ ولأنه يريد أن يظهر وقوراً ، أرخى ذقنه التي يعتني بها .

وبما أنّ ضجر فريدريك ، بلا سبب كان ، ولا يستطيع أن يجد له حجة ، لم يفهم مارتينون شيئاً من مراثيه للوجود . هو كان يذهب كلّ صباح إلى المدرسة ، يتنزّه ، من بعد ، في اللوكسمبور ، يشرب ، مساءً ، كأسه النصفيّة من القهوة ، وبالألف وخمسمائة فرنك بالسنة ، وحبّ هذه العاملة ، يجد نفسه في سعادة تامة .

« يا للسعادة ! » تعجب فريدريك في داخله .

كان قد تعرف في المدرسة إلى السيّد دوسيزي ، ابن عائلة كبيرة ، يبدو فتاة لرقة حركاته وعذوبته .

كان هذا السيّد يهتم بالرسم ، يحبّ الغوطيّ . غالباً ما كانا

معاً يذهبان يتأملان كاتدرائية نوتردام . لكنّ ذوق هذا النبيل الشاب كان يدل على ذكاء عاديّ ، بل بسيط . كل أمر كان يشدهه ، ويضحك كثيراً لأبسط مزحة ، ويدل على سذاجة كاملة ، حتى أنّ فريدريك حسبه أول الأمر مزّاحاً ، لكنه ، في النهاية ، اعتبره أبله .

التوافقات ، إذن ، ما كانت معقولة مع أحد . وظل ينتظر دعوة من آل دمبروز . في رأس السنة ، أرسل إليهم بطاقات ، لكنه ما حصل على واحدة .

فعاد إلى « الفن الصناعي » .

عاد لمرة ثالثة ، فرأى ، أخيراً ، أرنو يتنافش وسط خمسة أشخاص أو ستّة ، بالكاد ردّ عليه التحيّة ، جُرِح فريدريك . لكنّه مع ذلك ظل يبحث عن طريق للوصول إليها .

فكّر أول الأمر ، أن يحضر قصد شراء لوحات . ثم راودته فكرة أن يبثّ في بريد الجريدة موضوعات « قوية جداً » ، مما يجرّ علاقات . أو ربما من الأفضل الذهاب ، مباشرة ، إلى الموضوع ، إعلان حبه ؟ فكتب ، حينها ، رسالة من اثنتي عشرة صفحة ، مليئة بالبثّ الغنائي والنداءات ، لكنّه مزّقها ، وما عاد فعل شيئاً . ولا حاول أيّ شيء ، ـ جمّده خوف الفشل .

فوق مخزن أرنو ، في الطابق الأول ، ثلاث نوافذ تضاء كل ليلة . تتماوج ظلال وراءها ، بخاصة واحد ، هو ظلها ؛ ـ وراح يتلبّك ، من بعيد ، لينظر هذه النوافذ ويتأمّل هذا الظل .

عبدة رآها يوماً في التويلّري ، ممسكة بيدها فتاة صغيرة ،

ذكّرته عبدة السيّدة أرنو ، يجب أن تأتي ، هنا ، هي أيضاً كما الأخريات ؛ وكل مرة يجتاز التويلّري ، يروح قلبه يدقّ ، آملاً لقياها . ويكمل نزهته ، أيام الشمس ، حتى آخر الشانزيلزه .

بالقرب منه ، تمرّ سيّدات ، باسترخاء ، جالسات في عربات ، خمارهن يطير في الهواء ، على خطوة الأحصنة الواثقة مع تمرجحات تكاد لا تُحسّ تجعل الجلد اللامع يطقطق . يتكاثر عدد العربات وتتمهّل ابتداء من المستديرة ، وتملأ كل الطريق . يصير العُرف بجانب العُرف ، الفانوس إلى جانب الفانوس ، السروج التي من فولاذ ، سلاسل اللجام المفضّضة ، الزرد الذي من نحاس ، كلها ترمي ، هنا وهناك ، نقاطاً مضاءةً بين السراويل القصيرة ، والقفازات البيض والفراء المنسدل على العوارض الأمامية . يحسّ نفسه ضائعاً في عالم بعيد . عيناه تتنقلان فوق رؤوس النساء ؛ وتلاميح غير واضحة تذكّره بالسيّدة أرنو . يتصورها ، وسط الأخريات ، في واحدة من هذه العربات الصغيرة المقفلة الشبيهة بعربة السيّدة دمبروز . ـ وإذ تتحضّر الشمس للمغيب ، يبدأ الهواء البارد يرفع الغبار في زوابع صغيرة . فيجعل الحوذيون ذقونهم في أعناقهم ، تسرع الدواليب ، تصرّ الطرقات . وتنزل كل المجموعات ، على الخبب السريع ، طوال الشارع ، محتكّة ببعضها ، متجاوزة بعضها ، مفترقة بعضها عن بعض ، ثم تتفرق في ساحة الكونكورد . وراء التويلّري تتلّون السماء بلون أردوازيّ . تؤلف أشجار الحديقة كومتين كبيرتين ، بنفسجيّتي الرؤوس . تشتعل قناديل الغاز ،

ونهر السّين ، مزرقّة كلّ مساحته ، يتكسّر تموّجات فضيّة لامعة تحت أضواء قناديل الجسور .

يروح يتعشّى بمتوسّط ثلاثة وأربعين قرشاً ، في مطعم بشارع لاهارب .

ينظر ، باحتقار ، طاولة التاجر التي من خشب الأكاجو، الفوط المبقّعة ، الفضيّة القذرة ، والقبّعات المعلّقة في الجدران . من يحيطون به هم من الطلاب ، مثله . يتحدّثون عن أساتذتهم، عن عشيقاتهم، هو يكتئب من الأساتذة ؟ هل كانت له عشيقة ؟ وليتحاشى أفراحهم، كان يصل متأخراً أقدر المستطاع . بقايا الأطعمة تكون تغطي كل الطاولات .الصبيّان المتعبان ينامان في زاويتين ، وتملأ الصالة المقفرة رائحة مطبخ ومسرجة ودخان .

ثم ، على مهل ، يطوف الشوارع . تتمرجح المصابيح جاعلة ، على الأرض، ترتجف أنوار صفراء . تزلق ظلال بمحاذاة الأرصفة ، مع تمسيّات . لزجة الأرض ، والضباب ينزل ، ويبدو له أنّ الظلمات الرطبة التي تلّفه ، تهبط ، لا نهائياً ، في قلبه .

تملّكه ندم . عاد إلى المحاضرات . إنما ، بما أنّه لم يكن عرف شيئاً من المواد المشروحة ، راحت تقلقه أشياء بسيطة .

فأنكبّ يكتب رواية عنوانها : سيلفيو ، ابن الصيّاد . تدور حوادثها في مدينة البندقية . كان هو البطل ؛ والسيّدة أرنو البطلة . إسمها أنطونيا ؛ـ وليحصل عليها ، يسفك دماء كثيرين ، يحرق جزءاً من المدينة ويغني تحت شرفتها ، حيث تخفق ، مع

النسيم ستائر شارع مونمارتر الحمراء التي من قماش مشجّر . التذكرات المبهمة والكثيرة التي يذكرها تثبط عزيمته ؛ فما تجاوز هذا الحدّ ، وتضاعفت بطالته .

حينها ، توسّل إلى ديلورييه المجيء ليشاطره غرفته . يتدبّران أمر عيشهما بالألفي فرنك التي له ، كل أمر أفضل من هذا الوضع الذي لا يطاق . ما كان يستطيع ، بعد ، ديلورييه ، مغادرة « تروا » . دفع به ليتسلّى وليخالط سينيكال .

كان هذا معلم رياضيات ، رجلاً عنيداً ذا اقتناعات جمهورية ، سان ـ جوست جديداً يقول ديلورييه . ذهب إليه فريدريك ، ثلاث مرات ، في طابقه الخامس ، ولم يتلقَ منه أية زيارة . فما عاد إليه .

أراد أن يتسلّى . ففكّر في حفلات الأوبرا . هذه الأفراح الصاخبة جمّدته وهو في الباب . الخوف من ارتباك ماليّ ، ردّه ، إذ تصور أنّ عشاء مع دومينو ، يلزمه بمصاريف باهظة ، وهذه مجازفة كبرى .

مع ذلك ، تراءى له أنّ الحب واجب . كان ينهض ، مرات ، وقلبه مليء بالأمل ، يرتدي بعناية كما لموعد ، ويروح يمشي في باريس لا نهائياً . مع كل امرأة تمشي أمامه ، أو تتقدّم في اتجاهه ، يهتف في ذاته : « ها هي ! » وكل مرة ، خيبة جديدة . فكرة السيّدة أرنو تقوّي رغباته . سيجدها ، ربما ، في طريقه ، ويتصور ، قصد دخول عالمها ، تعقيدات الصدفة ، أخطاراً غريبة يخلّصها منها .

هكذا راحت تكرّ الأيام، في تكرار الضجر ذاته ، وقلق العادات نفسها . يتصفّح منشورات تحت قناطر الأوديون ، يقرأ « لاريغودي دوموند » في المقهى ، يدخل غرفة في « معهد فرنسا » ، يستمع ، خلال ساعة ، إلى درس في اللغة الصينيّة ، أو في الاقتصاد السياسي . يكتب ، كلّ أسبوع ، طويلاً إلى ديلورييه ، وبين وقت وآخر ، يتعشّى مع مارتينون ، ويلتقي ، مرّات ، السيّد دوسيزي .

استأجر بيانو ، وألّف مقطوعات فالس ألمانيّة .

ذات مساء ، في مسرح القصر الملكي ، لمح في المقاعد المتقدّمة ، السيّد أرنو مع امرأة . هل هي ؟ كانت الستارة التي من التفتا الخضراء ، المشدودة إلى حدود المقاعد ، تستر وجهها . انتهت اللوحة ، فأُسدل الستار . كانت طويلة القامة ، في حوالى الثلاثين ، ذابلة ، شفتاها الممتلئتان تظهران ، حين تضحك ، أسناناً رائعة . هي تتحدّث ، بألفة ، مع أرنو ، وتدغدغ أصابعه بلمسات من مروحة . ثم ، ها هي فتاة شقراء يكاد جفناها يكونان حمراوين كما لو كانت بكت ، تجلس بينهما . من حينها ، راح أرنو ، منحنياً إلى كتفها ، يحدّثها أحاديث تستمع إليها ولا تجيب . أخذ فريدريك يتفنّن في اكتشاف مكانة هاتين السيّدتين ، المتواضعتي الثوب الغامق بقبّة عريضة نازلة .

عند آخر الحفل ، أسرع في الأروقة . كانت الجماهير تملأها . ينزل أرنو ، أمامه ، الدرج ، درجة درجة ، ذراعاه بذراعي كل من المرأتين .

فجأة ، أناره قنديل غاز . في قبّعته شارة حداد . هل ماتت ؟ عذّبته هذه الفكرة إلى حدّ تراكض في الغد إلى « الفن الصناعيّ » ، وإذ دفع سريعاً ثمن لوحة معلّقة أمام الساعة ، سأل صبيّ المخزن كيف حال السيّد أرنو .

أجاب الصبي :

ـ بخير .

أضاف فريدريك شاحباً :

ـ والسيّدة ؟

ـ والسيّدة أيضاً !

نسي فريدريك حمل لوحته .

انتهى الشتاء . في الربيع قلّ حزنه ، وراح يحضّر امتحانه ، وإذ اجتازه بطريقة سيّئة ، ذهب إلى نوجان .

ما ذهب إلى « تروا » ليرى صديقه ، وذلك كي يتحاشى ملاحظات أمّه . وحين العودة ، ترك محل سكنه ، واستأجر ، في شارع نابوليون ، غرفتين فرشهما . نسي أمله بزيارة آل دمبروز . ورغبته الكبيرة في السيّدة أرنو ، بدأت تخبو .

IV

ذات صباح من كانون الأول ، وهو ذاهب إلى محاضرات القانون ، ظنّ نفسه يلاحظ ، في شارع سان ـ جاك حركة تفوق المعتاد . كان الطلاب يخرجون مسرعين من المقاهي أو من النوافذ المفتوحة ، يتنادون من منزل إلى آخر ، في وسط الرصيف ، أصحاب المتاجر ينظرون بكآبة ، يُغلق المنجور ، وحين وصل شارع سوفلو ، لاحظ تجمعاً كبيراً حول البانتيون .

شباب ، في زمر متفاوتة العدد ، بين الخمسة والاثني عشر شخصاً ، كانوا يتنزّهون ممسكين بأيدي بعضهم البعض ويقتحمون الجماعات الأكثر عدداً المرابطة هنا وهناك . في آخر الساحة ، بجانب الأسوار ، رجال بقمصان فضفاضة يخطبون بإطناب ، بينما قبعاتهم المثلّثة القرون مائلة إلى الأذن ، والأيدي خلف ظهورهم . رجال الشرطة يطوفون على طول الجدران ، فتُسمع أصوات البلاط تحت أقدامهم . لجميعهم مظهر سرّي ، ذاهل . بالتأكيد ، هم ينتظرون أمراً ما . على شفتي كل منهم سؤال .

وجد فريدريك نفسه قرب شاب أشقر ذي وجه جذّاب ، له شارب ولحية صغيرة كما مرهف من زمن لويس الثالث عشر .

سأله سبب هذه الفوضى .

ـ لا أعرف شيئاً ، قال الآخر ، ولا هم أيضاً ، هذه هي الموضة الآن ! يا للمزاح !

وانفجر ضاحكاً .

مطالب بالاصلاح يطلبون توقيعها ، مضافاً إليها إحصاء هومانّ ، واحداث أخرى أيضاً ، تركت ، في باريس ، من أشهر ستّة ، غوغاء غير معروفة الأسباب . وغالباً ما كانت تتجدّد إذا تجاهلتها الجرائد لفترة ما .

ـ كل هذا يفتقر إلى التناسق واللون ، أكمل جار فريدريك . أعرف ، يا سيّد ، كم نحن منحطّون ! زمن لويس الحادي عشر ، وزمن بنجمان كونستان ، كان العصيان أشدّ بين الطلاّب . أجدهم اليوم هادئين كالخراف ، حمقى كالبُله ، ملائمين لأن يكونوا عطّارين ، والله ! وهذا ما يسمّونه شبيبة المدارس !

بسط ذراعيه واسعاً كما فريدريك لوميتر في روبير ماكير .

ـ شبيبة المدارس ، أباركك !

ثم نادى لمّام خرق يحرّك قشور محار على حدود تاجر خمر :

ـ هل أنت من شبيبة المدارس ، هذه ؟

رفع الشيخ وجهاً بشعاً نرى ، في وسطه ، لحية بنية ، أنفاً أحمر وعينين مخمورتين غبيتين .

ـ لا ! تبدو لي ، بالأحرى ، واحداً من هؤلاء الرجال ذوي السحن الشاحبة الذين نراهم في جماعات مختلفة ، حاصدين

الذهب ملء أيديهم . . . آه ! إجمع ، يا شيخي الجليل ، اجمع ! أفسدْني بكنوز « أليون » ! . . . هل أنت انكليزي ؟ فلنتحدّث قليلاً عن الوحدة الجمركية .

شعر فريدريك أن أحداً لامس كتفه ، فاستدار . انه مارتينون ، وكان شاحباً بشكل غريب .

ـ وبعد ! زفر مصعّداً آهة كبيرة ، فتنة أخرى !

خافا أن يكون متهماً ، وصار يشكو . رجال بقمصان فضفاضة يحزنونه بشكل خاص ، كما لو أنهم ينتسبون إلى مجتمعات سرية .

ـ هل هناك مجتمعات سرية ؟ قال الشاب ذو الشوارب . إنها مزحة قديمة من الحكم لترويع البورجوازيّين ! . .

طلب إليه مارتينون التحدث بصوت خافت ، خوفاً من الشرطة .

ـ أما تزال تؤمن ، أنت ، بالشرطة ؟ إذن ، فكيف لم تخش كوني واحداً من جهاز المراقبة ؟

ونظر إليه بطريقة ما ، حتى ان مارتينون ، مدهوشاً ، لم يتنبّه ، أوّل الأمر ، للمزحة . صارت الجموع تدفعهم ، فأكرهوا على أن يكونوا في درج صغير ، يؤدّي بهم ، عبر ممشى ، إلى مدرّج آخر .

وسريعاً ما تلاشت الضوضاء تلقائياً . رؤوس كثيرة حسرت . كانوا يسلّمون على الأستاذ الشهير : صاموئيل روندلو ، الذي التف بسترته الطويلة الضخمة ، رافعاً ، في الهواء ، نظارتيه

الفضيتين ، ولاهثاً من الربو ، وهو يتقدّم ، بخطى وئيدة ، ليلقي محاضرته . انه واحد من الأمجاد القضائية في القرن التاسع عشر ، خصم زكريّا وريدورف . منصبه الجديد ؛ كعظيم فرنسا ، ما غيّر شيئاً في سلوكه . فقير هو ، ويحاط بكثير من الاجلال .

في هذه الأثناء كان بعضهم يهتف ، في آخر المكان :

ـ فليسقط غيزو !

ـ فليسقط بريتشار !

ـ فليسقط الخونة !

ـ فليسقط لويس ـ فيليب !

ماجت الجماهير ، وضغطت على الباب المغلق فمنعت الأستاذ من التقدم أكثر . توقّف أمام الدرج . رأوه على الدرجة الأخيرة من الدرجات الثلاث . تكلّم . غطّى صوته هدير . قبل قليل كانوا يحبونه وها هم الآن انقلبوا يكرهونه لأنه يمثّل السلطة ، كل مرة يحاول أن يجعلهم يستمعون إليه ، يعود الصراخ . قام بحركة كبيرة ليتبعه الطلاب . أجابه زعيق عام . بازدراء هزّ كتفيه ، وغاب في الممشى . استفاد مارتينون من مكانه ليغيب في الوقت نفسه .

ـ يا له من جبان ! قال فريدريك .

ـ هو محاذر ! قال الآخر .

راح الجمهور يصفّق . انسحاب الأستاذ صار نصراً بالنسبة إليهم . في كل النوافذ ، راح حشريون ينظرون . بعضهم راحوا يهدرون بالنشيد الوطني ، آخرون يصرفون الذهاب عند

بيرنجيه .

ـ عند لافيّت !

ـ عند شاتوبريان !

ـ عند فولتير ! زأر الشاب ذو الشوارب الشقراء .

اهتمّ رجال الشرطة بأن يتمشوا ، قائلين بألطف ما يمكن :

ـ اذهبوا ، يا سادة ، اذهبوا ، انسحبوا !

هتف أحدهم :

ـ فليسقط القتلة !

هي ، هذه ، شتيمة شائعة ، منذ اضطرابات أيلول . كلّهم ردّدوها . راحوا يصيحون ساخرين ، يصفرون لحرس النظام ، بدأوا يشحبون ، واحد منهم ما عاد يحتمل ، ولامحاً شاباً يقترب منه وهو يهزأ به ، بعتفٍ دفعه ، فأوقعه على بعد خمس خطوات ، على ظهره ، أمام محل بائع الخمر . تفرّقوا جميعاً ، لكنه سريعاً ما تدحرج ، هو عينه ، قلبه أرضاً شبيه بهرقل ، ذو شعر كحزمة كتّان ، يطفو من تحت كاسكيت من قماش مشمّع .

توقّف في زاوية شارع سان ـ جاك ، بسرعة ترك علبة كرتون يحملها ، ليثب نحو الشرطي ، وإذ قلبه تحته ، راح يزرع وجهه لكمات قوية . تراكض رجال الشرطة الآخرون ، كان الشاب قوياً جداً ، بالكاد استطاع أربعة منهم ، أو أكثر ، أن يمسكوه . اثنان من عنقه ، اثنان آخران أمسكاه كل من ذراع ، خامس راح يلطمه بخاصرتيه ، وكلّهم ينادونه : قاطع طرق ، مجرم ، مثير للفتنة . صدره عار ، وثيابه مملّعة ، يحتجّ لبراءته ، ما

استطاع احتمال رؤية ولد يُضْرَب .

ـ اسمي ديسّردييه ! عند السادة فالينسار إخوان . دنتلاً وملبوسات جاهزة ، شارع كلاري . أين علبة الكرتون ؟ أريدها ! وراح يكرّر : ديسّردييه !... شارع كلاري . علبة الكرتون !

مع ذلك استكان ، وبمظهر رابط الجأش ، تركهم يقتادونه إلى مكتب شارع ديكارت . موجة من الناس تبعته . مشى ، وراءه مباشرة ، فريدريك والشاب ذو الشوارب ، ممتلئين إعجاباً بالموظف ، وثائرين ضدّ عنف السلطة .

كلّما تقدموا به ، تقل الجماعة عدداً .

بين وقت وآخر ، يستدير رجال الشرطة بهيئة غاضبة . وإذ لا شيء ، بعد ، لأهل الصخب ، يفعلونه ، ولا شيء ، للمحشريين ، يرونه ، بدأوا جميعاً يذهبون شيئاً فشيئاً . يلتقون بمارّة يلتفتون إلى ديسّردييه وينكبّون ، عالياً ، على أحاديث مهينة . وامرأة هرمة ، في بابها ، هتفت بأنه سرق خبزاً . هذا الظلم كان ليزيد من غضب الصديقين . وإذ وصلوا ، أخيراً ، أمام مقرّ الحرس ، لم يكن بقي إلا حوالى العشرين شخصاً . كان مرأى الجنود كافياً لتفرقتهم .

دفاع فريدريك ورفيقه ، بجرأة ، عن هذا الذي وضعوه في السجن . تهدّدهما الحارس بأن يضعهما ، هما أيضاً ، إن أصرّا . طلبا رئيس المكتب وأعلنا اسميهما مع صفتهما كطالبي حقوق ، مؤكدين أن السجين هو زميل لهما .

أدخلوهما غرفة عارية كلياً ، حيث أربعة مقاعد قبالة حيطان من جصّ مسودة من الدخان . في الطرف ، فُتحت كوّة . ظهر منها وجه ديسّردييه القاسي ، الذي ، بشعره المبعثر ، وعينيه الصغيرتين الصريحتين ، وأنفه المربّع الطرف ، يذكّر ، ببعض إبهام ، شكل كلب جيّد .

- ألم تتعرّف علينا ؟ قال هيسّونّيه .

كان هذا اسم الشاب ذي الشوارب .

- ولكن . . . تمتم ديسّردييه .

- لا تكن أحمق ، تابع الآخر ؛ نعرف انك ، مثلنا ، طالب حقوق .

ما فطن لشيء ، بالرغم من غمزهما له . ثم بدأ يستجمع ذاته ، وفجأة :

- هل وجدتم علبة الكرتون ؟

رفع فريدريك عينيه ، واهن العزيمة ، تمتم هيسّونيه :

- آه ! علبتك حيث تضع ملاحظاتك حول المحاضرات ؟ نعم ، نعم ! اطمئن !

كثّفا إيماءاتهما . فهم ، ديسّردييه ، آخر الأمر ، أنهما يريدان مساعدته . وصمت خشية إحراج موقفهما . كان يعاني من خجل إذ رأى نفسه في مرتبة الطلّاب وشبيهاً بهؤلاء الشباب ذوي الأيدي البيضاء إلى هذا الحد .

- أتريد إبلاغ أحد أمراً ما ؟ سأل فريدريك .

- كلّا ، شكراً ، للا أحد .

ـ وعائلتك ؟

خفض رأسه دون أن يجيب . كان المسكين ابن زنا . عجب الصديقان من صمته .

ـ أمعك ما تدخّن ؟ تابع فريدريك .

تلبّك ، ثم سحب من جيبه بقايا غليون ـ غليون جميل من زبد البحر ،مع شبيق[1] خشبيّ أسود ، وغطاء فضي وطرف ذهبي .

من سنوات ثلاث ، يعمل فيه ليجعل منه رائعة . كان اعتنى بأن يحافظ على ممرق التبغ مضموماً ، بثبات ، في مشدّ من شاموا ، وأن يدخّنه بأكثر ما يمكن من تمهّل ، بدون أن يضعه ، أبداً ، على مرمر ، وكل مساء يعلّقه قرب سريره . راح ، الآن ، يتحسّس أقسامه بيده النازفة من تحت الأظافر ، وذقنه في صدره ، بؤبؤا عينيه ثابتان ، فاغر الفم . يتأمل آثار فرحه بنظرة لا متناهية الحزن .

ـ لو نعطيه سيكاراً ، الكثير منها ، ما قولك ؟ قال ، هيسّونّيه ، بصوت خافت ، متأثراً .

فوضع فريدريك ، بسرعة ، علبة ملأى منها على حافة الكوّة .

ـ خذها ، وداعاً ، وتشجّع !

ارتمى ديسّردييه على اليدين المتقدمتين . ضغطهما بشدة ، مخنوقاً صوته بالشهقات .

(١) قصبة الغليون .

ـ كيف ؟ . . لي أنا هذه ! . . لي أنا ؟ . .

تواری الصديقان وذهبا يتغديان، معاً ، في مقهى تابوراي ، أمام اللوكسمبورغ . . .

وهو يقسّم البفتاك ، أخبر هيسّونيه رفيقه بأنه يعمل في جرائد أزياء ، وبأنه يصمم إعلانات لـ « الفن الصناعي » .

ـ عند جاك أرنو ؟ قال فريدريك .

ـ أتعرفه ؟

ـ نعم ! لا ! . . . أقصد انني رأيته ، التقيته .

وبغير اهتمام ، سأل هيسّونيه ، إذا كان يرى زوجته .

ـ من وقت لآخر ، قال البوهيميّ .

ما جرؤ فريدريك على متابعة أسئلته . أخذ هذا الرجل مكاناً لا محدوداً في حياته . دفع الغداء دون أي اعتراض من الآخر .

كان التعاطف متبادلاً . تبادلا العنوان ، ودعاه هيسّونّيه ، بودّ ، لرفقته حتى شارع فلوروس .

كانا وسط الحديقة ، حين توقّف موظّف أرنو ، غضّن وجهه بطريقة منكرة وراح يصيح كالديك . أجابته كل الديوك الموجودة في الجوار بصياح متتابع .

ـ إنها علامة ، قال هيسّونيه .

توقّفا عند مسرح بوبينو ، أمام بيت يدخلونه عبر ممر . ظهرت امرأة من كوّة العلية بين « الكابوسين » ونباتات أخرى ذات أريج ، حاسرة الرأس ، بالمشد ، ساندة ذراعيها على حافة

المزراب .

ـ مرحبا يا ملاكي ، مرحبا « بيبيش » ، قال هيسّونيه ، مرسلاً إليها القبلات .

بخبطة قدم ، فتح السور واختفى .

انتظره فريدريك طوال الأسبوع . تلكّأ في الذهاب إليه لئلا يبدو مستعجلاً في الغداء عنده ، لكنه بحث عنه في كل الحي اللاتيني . التقاه ، ذات مساء ، واصطحبه إلى غرفته في شارع نابوليون .

طال الحديث ، راحا يبوحان . يطمح هيسّونيه بمجد المسرح وربحه . كان يشارك بمسرحيات هزلية خفيفة لم تنجح ، وعنده « كدسات من التصاميم » ، ينظم أغانٍ ، قال بعضها . وإذ لاحظ ، في رفّ على الحائط ، كتاباً لهيغو وآخر للامارتين ، تدفّق سخرية على المدرسة الرومنطيقيّة . ما امتاز هؤلاء الشعراء ، لا برجاحة العقل ولا باللياقة ، وبخاصة ما كانوا فرنسيّين ! راح يتبجّح بمعرفته اللغة ، ويهذي بأحلى العبارات بطريقة قاسية جارحة ، وذوق أكاديمي يميّز الأشخاص بمزاج مرح حين يقتحمون الفنّ الرصين .

جُرح فريدريك بشعرائه المفضّلين . ودّ لو يتركان هذا الحديث . لَمَ لا يغامر ، الآن ، بالكلمة التي بها تتعلّق سعادته ؟ سأل الشاب المتأدب إذا كان بمستطاعه تقديمه عند أرنو .

كان الأمر سهلاً ، واتفقا على اليوم التالي .

نكث هيسّونيه بالموعد ، وبثلاثة أخرى . وظهر ، ذات

سبت ، حوالى الرابعة . إنما ، توقف ، مستفيداً من العربة ، أولاً ، عند « المسرح الفرنسي » ، ليحصل على قسيمة شرفة ، ونزل أيضاً عند خيّاط ، وعند خيّاطة ، كتب قصاصات أوراق عند حجّاب . أخيراً وصلا إلى بولفار مونمارتر . اخترق فريدريك المخزن ، صعد الدرج . عرفه أرنو في المرآة الموضوعة أمام مكتبه . ومدّ له يده ، بإهمال ، وهو يكتب .

كان ثمة أشخاص خمسة أو ستة ، واقفين ، يملأون المكان الضيّق الذي تنيره نافذة واحدة تطل على الساحة ، كنبة من صوف مزركش تشغل ، في آخر المكان ، داخل قبّة ، بين ستارين قماشيين متشابهين . على المدفأة المغطّاة بأوراق قديمة ، تمثال برونزي لفينوس ، شمعدانان ، مزيّنان بشموع وردية ، يحاذيانها بشكل مواز . إلى اليمين ، بجانب دُرج الملفّات ، رجل مستغرق في كرسيّ مريح ، يقرأ الجريدة ، محتفظاً بقبّعته على رأسه ، الجدران تختفي تحت أدوات الرسم واللوحات ، والصور الثمينة أو المخططات لأساتذة معاصرين ، ممهورة بإهداءات تشهد ، لجاك أرنو ، بصداقة مخلصة .

- هل كل شيء على ما يرام ؟ قال مستديراً ناحية فريدريك .

ومن دون أن ينتظر جوابه ، سأل هيسّونيه بصوت منخفض :

- كيف تدعوه ، صديقك ؟

وبصوت عال :

ـ خذ سيكاراً من علبة في دُرج الملفّات .

كانت « الفن الصناعي » ، بمكانها في قلب باريس ، مقراً ملائماً للمواعيد ، أرضاً محايدة ، فيها تتلازم الخصومات بودّ . فأنت ترى ، اليوم ، أنتينور بريف ، رسّام الملوك ، جول بورّيو الذي بدأ يشهر برسومه معارك الجزائر ، الكاريكاتوريست سومباز ، النحات فوردا ، وآخرين أيضاً ، وما أحد استجاب لآراء الطالب المسبقة . كانت عاداتهم بسيطة وأحاديثهم حرة . المتزهّد لافورياس بدأ حكاية بذيئة ، ومخترع المنظر الشرقي ، ديتّمر العظيم ، كان يرتدي قميصاً حبريّة تحت سترة بلا أكمام ، واستقلّ عربة عامة للعودة .

جرى الحديث ، أول الأمر ، عن المدعوّة أبولوني ، موديل قديم ، ادّعى بورّيو معرفتها ، على البولفار في عربة . شرح هيسّونيه تحوّلاتها عبر سلسلة قوّاديها .

ـ كم يعرف هذا الجريء ، فتيات باريس ! قال أرنو .

ـ بعدك ، إذا بقي ، سيّدي ، تمتم البوهيمي ، مع تحيّة عسكريّة ، ليقلّد رامي الرمانات مقدماً مطرته لنابوليون .

ثم ناقشوا بعض اللوحات التي كان رأس أبولوني موديلاً لها ، انتقدوا الزملاء الغائبين . عجبوا لاسعار أعمالهم المرتفعة ، وكلهم كانوا يتشكّون من عدم ربحهم الكافي ، حين دخل رجل متوسّط القامة ، ثوبه بزر واحد ، عيناه نابضتان ، مظهره يكاد يكون مجنوناً .

ـ يا لكم من كدسة بورجوازيين ! قال . ماذا تفعلون ؟ يا

للعنة ! الشيوخ الذين كانوا ينجزون الروائع ما كانوا يلهثون وراء الثروة كورّيج ، موريلّو . . .

ـ أضف بيلّران ، قال سومباز .

لكنه ، من غير أن يوقف هجاءه ، أكمل موعظته بحدة ، حتى أن أرنو اضطر للتكرار ، مرتين :

ـ زوجتي بحاجة إليك ، الخميس . لا تنسَ !

أعادت هذه الكلمة ذهن فريدريك إلى السيدة أرنو ، لعل الوصول إليها يتم عبر الغرفة القريبة من الديوان . فتحها أرنو ليأخذ محرمة . لمح فريدريك في عمقها مغسلة لكن نوعاً من التذمر صدر من زاوية المدفأة . إنه الرجل قارىء الجريدة ، في الكرسي المريح . طوله خمس أقدام وتسع بوصات ، جفناه منسدلان ، شعره رماديّ ، مظهره فخم ، واسمه ريجمبار .

ـ ما بك ؟ قال أرنو .

ـ سفالة أخرى من الحكم !

كان الأمر يتعلّق بعزل أستاذ مدرسة ، أكمل بيلّران موازنته بين ميكال انج وشكسبير . ذهب ديتّمر . أمسكه أرنو ليضع ، في يده ، ورقتي مال ، حينها ، ظنّ هيسّونيه الوقت مؤاتياً :

ـألا تستطيع أن تسلّفني ، يا ربّ عملي العزيز ؟ . . .

لكنّ أرنو كان جلس وراح يؤنّب شيخاً ذا مظهر كريه ، نظارتاه زرقاوان .

ـ آه ! جميل أنت ، سيّد اسحق ! ها قد ضاعت لوحات ثلاث ، افتُضح أمرها ! كلّ الناس لا يهتمّون بي ! باتوا يعرفونها !

ماذا تريدني أفعل بها ؟ يجب أن أرسلها إلى كاليفورنيا ! . . . يا للشيطان ! اسكت !

اختصاص هذا الرجل يقوم على وضع تواقيع الأساتذة القدماء في أسفل اللوحات . رفض أرنو تأديته حسابه ؟ وبعنفٍ صرفه . ثم ، مغيّراً طريقته ، حيّا سيّداً أنيقاً ، مترصناً ، بربطة عنق بيضاء .

تحدث مستنداً إلى غلاّقة النافذة ، طويلاً ، إليه ، بكلام معسول . قال ، عالياً ، في الأخير :

ـ إيه . . . لست مهتماً بأن يكون لي سماسرة ، سيدي الكونت !

إذ اقتنع الرجل ، دفع له أرنو خمساً وعشرين ليرة ذهبية ، ومذ صار خارجاً :

ـ كم هم مضجرون هؤلاء الأسياد الكبار !

ـ كلهم بؤساء ! تمتم ريجمبار .

بقدر ما تتقدّم الساعة ، تتضاعف مشاغل ارنو . كان يصنف موضوعات ، يفضّ رسائل ، يسدّد حسابات ، وعلى طرق مطرقة في المخزن ، خرج يراقب الخلافات ، ثم عاد إلى عمله ، وراح يجاوب بحدّة على المزاح ، وهو يكتب كان عليه أن يتعشّى ، هذا المساء ، عند محاميه ، وأن يذهب غداً إلى بلجيكا .

الآخرون يتحدّثون عن أعمال اليوم : رسم شيروبيني ، البناء نصف الدائري للفنون الجميلة ، المعرض القادم . يطعن بيلّران بالمؤسّسة . النميمة والأحاديث تلتقي وتتقاطع . الشقة

الصغيرة المنخفضة السقف ، ملأى كانت إلى حد عدم القدرة على التحرّك ، وضوء الشموع الوردية كان يرى بين دخان السجائر ، كأشعّة شمس في الضباب .

انفتح الباب قرب الديوان ودخلت امرأة طويلة نحيلة ـ بحركات سريعة تجعل تطن ، على ثوبها الذي من التفتا السوداء ، كل حليّها ذات السلاسل التي في ساعتها .

كانت المرأة التي واجهها ، الصيف الماضي في « القصر الملكي » . بعضهم ، من الذين نادوها باسمها ، تبادلوا السلام معها بالأيدي . هيسّونّيه استطاع ، أخيراً ، الحصول على خمسين فرنكاً . دقّت الساعة السابعة ، وانسحبوا جميعاً .

طلب أرنو إلى بيلّران البقاء ، وقاد الآنسة فاتناز إلى الغرفة .

ما سمع فريدريك حديثهما ، كانا يتهامسان في هذه الأثناء ، ارتفع صوت المرأة :

ـ من أشهر ستة والعمل انتهى ، وما زلت أنتظر !

ساد صمت طويل . ظهرت الآنسة فاتناز مجدّداً . كان وعدها أرنو بشيء .

ـ أوه ! أوه ! نرى في ما بعد !

ـ وداعاً أيها الرجل السعيد ! قالت وهي تخرج .

عاد أرنو إلى الغرفة بحيويّة ، مسح على شاربيه دهان تجميل ، رفع حمالات بنطاله ليشد سير حذائه ، وقال وهو يغسل يديه :

ـ يلزمني مصراعا باب ، الواحد بمئتين وخمسين ، من نوع

بوشيه ، هل أنت موافق ؟

ـ حاضر ! قال الفنّان وقد احمرّ .

ـ حسناً ، ولا تنسَ زوجتي .

رافق فريدريك بيلّران حتى ضاحية بواسّونيير ، وسأله إذا كان في وسعه أن يزوره بين وقت وآخر ، ووافق الفنان بسعادة .

كان بيلّران قرأ كل كتب الجماليّات ، ليكتشف نظرية الجمال الحقيقيّة ، كونه مقتنعاً بأنه إذا ما وجدها ، سيعطي روائع . يحيط نفسه بكل المساعدين الممكنين ، رسوم ، جصّ ، نماذج ، لوحات ، ويبحث تضنيه الهموم . يشكو الزمن ، الأعصاب ، المحترف ، يخرج في الشارع ليهبط عليه الوحي ، يرتعش إذ يلاقيه ، ثم يتخلّى عن مؤلّفه ويحلم بسواه مما قد يكون أحلى . هكذا تؤرّقه رغبات المجد . وهو الذي يضيع أيامه في المناقشات ، في سبيل قاعدة أو إصلاح في مادة الفن ، ما كان ، في الخمسين ، قد أنتج إلاّ مسودّات كانت كبرياؤه الصلبة تمنعه من أن يخضع للفشل ، لكنه دائم الغضب ، ويحيا هذا الحماس المصطنع والطبيعي ، الذي يصنع طبيعة الممثّلين الهزليّين .

تلاحظ ، وأنت داخل إليه ، لوحتين كبيرتين ، ترى عليهما ، للوهلة الأولى ، بقعاً بُنيّة ، حمراء وزرقاء ، شبكة خطوط بالطبشورة تمتد فوقها كأنها زرد شبكة صيد وقد حُبكت عشرين مرة ، حتى انه لمن المستحيل أن تفهم فيها شيئاً . شرح بيلّران موضوع هاتين اللوحتين ، مشيراً ، بالابهام ، إلى الأقسام الناقصة . كانت واحدة منهما تحاول أن تكون : « جنون

نبوخذنصّر » ، والأخرى : « حريق نيرون لروما » . أُعجب بهما فريدريك .

أعجب ، كذلك ، بعاريات مبعثرات الشعر ، بمناظر لجذوع شجر كثيرة وقد كسرتها العاصفة ، وخصوصاً بفذلكات بالريشة ، كتذكار من كالّو ، من رامبرانت أو من غويا ، ما كان يعرف أشكالها . بيلّران ما كان يقدّر ، بعد ، أعمال شبابه . هو ، الآن ، مع الأسلوب الكبير . يؤكّد ، ببلاغة ، نظريات فيدياس وونكلمنّ . الأشياء ، حواليه ، تعزّز قدرة كلمته : كنت ترى رأساً على مركَع ، سيوفاً تركية محدّبة ، عباءة راهب ، رسم مثلها فريدريك .

كان ، حين يصل باكراً ، يفاجئه بسرير الميدان السيّء ، الذي يخفي بقايا بخور ، لأن بيلّران ينام متأخراً إذ هو يحضر مسرحيات ، بمواظبة . تخدمه امرأة هرمة ، ذات أسمال بالية ، يتعشّى في مطعم حقير ، ويحيا من دون عشيقة . معلوماته ، وقد جمعها كيفما اتفق ، تجعل تناقضاته مرحة . حقده على العام والبورجوازي يفيض سخريّة بغنائية بارعة ، ويكنّ للأسياد عبادة ، تكاد ترتفع به إليهم .

إنما ، لم هو لا يتحدّث ، مطلقاً ، عن السيدة أرنو ؟ أما بالنسبة إلى زوجها فكان يسمّيه ، مرة ، صبياً طيّباً ، وأحياناً مشعوذاً . ويروح فريدريك ينتظر بوحه .

يوماً ، وهو يقلّب في واحدة من علبه الكرتونيّة ، وجد ، في وجه بوهيميّة ، شيئاً من الآنسة فاتناز ، وبما أنها تهمّه ، أراد أن

يعرف وضعها .

كانت في ظنّ بيلّران معلّمة في الريف . الآن هي تعطي دروساً ، وتهتم بالكتابة في الصحف الصغيرة .

حسب فريدريك ، نظنّها ، من خلال تصرفاتها مع أرنو ، عشيقته .

ـ لا عليك ! ان له كثيرات سواها !

حينها ، أضاف الشاب بجرأة ، مميلاً بوجهه الذي احمرّ خجلاً لسوء ظنه :

ـ تردّ له ذلك زوجته ، ولا شك ؟

ـ أبداً ! هي شريفة !

ندم فريدريك ، وظهر أكثر اهتماماً بالجريدة .

تبدو له الحروف الكبيرة التي تؤلّف اسم أرنو على اللوحة المرمريّة ، أعلى المخزن ، مميّزة تماماً ، وغنيّة بالمعاني ، مثل كتابة مقدّسة الرصيف العريض النازل ، يسهّل المرور إليه ، ينفتح الباب تلقائياً ، والمسكة ، الناعمة الملمس ، كأنها يد في يدك وأنت تفتح . ومن دون أن يدري ، صار دقيقا بمواعيده كما ريجمبار .

كل يوم ، يجلس ريجمبار في زاوية النار ، في كرسيّ مريح ، مستحوذاً على صحيفة « الناسيونال » ، يعود لا يتركها ، معبّراً عن أفكاره بتعجّبات ، أو بهزات كتف بسيطة . من وقت لآخر ، يمسح جبهته بمحرمة جيبه المطوية كيفمكان ، وبها يحتفظ على صدره ، بين زرّين في سترته الطويلة الخضراء . بنطاله ذو ثنيات ، حذاؤه عالٍ ، وربطة عنقه طويلة . وقبعته ، المرفوعة

الأطراف ، تجعله يُعرف ، من بعيد ، بين جماعات الناس .

ينزل في الثامنة صباحاً من أعلى مونمارتر ، ليشرب نبيذاً أبيض في شارع سيّدة النصر . غداؤه الذي يستمرّ حتى الثالثة ، يتبعه لعب بليار . ويتجه ، حينها ، إلى ممر البانوراما ليشرب الأبسنت . بعد الجلسة عند أرنو ، يدخل حانة بوردلي ليشرب الفرموت ؟

ثم ، بدلاً من أن يلحق امرأته ، غالباً ما كان يفضّل العشاء منفرداً ، في مقهى صغير من ساحة غايّون ، حيث يريد أطباقاً « من حواضر البيت ، أشياء بسيطة » ! أخيراً ، ينتقل إلى صالة بليار أخرى ، يبقى فيها حتى منتصف الليل ، حتى ساعة من الصباح ، إلى أن يطلب إليه سيّد المؤسسة ، وقد أنهكه التعب ، الخروج ، بعد أن يكون أطفأ الأنوار وأقفل النوافذ .

لم يكن حب الشراب ما يدفع المواطن ريجمبار إلى هذه الأمكنة ، لكنها عادة قديمة هي التحدث في السياسة ، ومع تقدمه في السن ، فقد الحميّا ، لم يبقَ لديه سوى كآبة صامتة . عند مرأى وجهه الرزين ، تظنّه يفكّر في قضايا العالم . ما كان يخرج منه شيء ، ولا أحد من أصدقائه ، يعرف له مهنة ، بالرغم من أن له غرفة أعمال .

يبدو أرنو يحترمه غاية الاحترام . قال ، يوماً ، لفريدريك :

ـ هذا يعرف كثيراً ! انه رجل قوي !

مرة أخرى ، بسط ريجمبار على طاولته أوراقاً تتعلّق بسيماء

صلصال بريتاني ، كان أرنو يستند إلى خبرته .

بدا فريدريك أكثر اهتماماً بريجمبار ـ حتى انه ليقدّم له الابسنت بين الفينة والأخرى . ومهما اعتبره غبياً ، فغالباً ما كان يبقى برفقته لساعة طويلة ، فقط لكونه صديق جاك أرنو .

بعدما ساعد كثيرين من أساتذة معاصرين في بداياتهم الأولى ، راح تاجر اللوحات ، وهو رجل طموح ، محتفظاً بمظاهر فنية ، بأن يوسّع أرباحه المالية . كان يبحث عن تحرر الفنون ، عن الرائع الرخيص الثمن ، كل مصانع الترف الباريسي تأثّرت به ، كان الأمر جيداً بالنسبة للأعمال الصغيرة ، أما بالنسبة للأعمال الكبيرة ، فقد كان الأمر سيّئاً . بكلفه للمديح ، غيّر اتجاه الفنّانين المهرة ، أفسد الأقوياء ، أنهك الضعاف ، وشهر الفاشلين . يتصرف بهم ، من خلال علاقاته ومجلّته . تلاميذ الرسم يطمحون أن يروا أعمالهم في واجهة محلّه ، ويأخذ من عنده صانعو النجود أزياء المفروشات . يعتبره فريدريك كمليونير ، وهاوي فنون ، ورجل أعمال معاً . مع ذلك ، كثير من الأشياء كانت تثير عجبه ، لأن السيّد أرنو ماكر في تجارته .

كان يتلقى من آخر ألمانيا أو إيطاليا لوحة مشتراة ، في باريس ، بألف وخمسمائة فرنك ، فيعرض إيصالاً يجعلها بأربعة آلاف ، ويبيعها ، مجاملة ، بثلاثة آلاف وخمسمائة ، واحدة من دوراته العادية مع الرسامين ، كانت لفرض زيادة على لوحاتهم كحسم عليها بحجة أنه يطبع اللوحة ، يبيع ، دائماً ، مصغر اللوحة ، ولا تعود ، هي ، تظهر . ويجيب مَن يرون أنفسهم

مستثمرين بخبطة على البطن . ومع ذلك فهو ممتاز ، يسخو بتقديم السيجار ، يخاطب المجهولين بدالّة ، يتحمس لعمل أو لرجل ، وإذ يتشبّث برأيه ؛ غير ملتفت إلى شيء ، يضاعف الجولات ، المراسلات ، الاعلانات . يحسب نفسه مستقيماً تماماً ، وفي حاجته إلى الثرثرة يروي بسذاجة حكايات قلة أمانته .

ولكي يغيظ زميلاً يفتتح جريدة رسم أخرى ، في احتفال كبير ، طلب ، إلى فريدريك ، أن يكتب ، تحت نظره ، قبل قليل من زمن الموعد ، بطاقات تلغي دعوة المدعوّين .

ـ هذا لا يمسّ الشرف ، أتفهم ؟

وما جرؤ الشاب على رفض هذه الخدمة .

في الغد ، وفريدريك يدخل مكتب أرنو ، مع هيسّونّيه ، رأى طرف ثوب يختفي من خلال الباب (الذي يؤدّي إلى الدرج) .

ـ ألف عذر ! قال هيسّونّيه ، لو عرفت أن عندك نساء . . .

ـ أوه ، بالنسبة إلى هذه ، إنها امرأتي ، قال أرنو ، كانت تقوم بزيارة لي بسيطة وهي تمرّ .

ـ كيف ذلك ؟ قال فريدريك .

ـ طبعاً ! هي تعود إلى البيت .

جمال الأشياء المحيطة به ، ذبل بسرعة . ما كان يحسّ به يغمره ، تلاشى ، أو بالأحرى ، كأنه ما كان . شعر بمفاجأة لا متناهية وكما بوجع خيانة .

ابتسم أرنو وهو يبحث في دُرجه أيهزأ به ؟ وضع الموظف على الطاولة كدسة أوراق رطبة .

ـ آه ! الملصقات ! هتف التاجر . لست مستعداً لأن أتعشّى الليلة !

تناول ريجمبار قبّعته .

ـ كيف ، أنت تغادرني ؟

ـ هي السابعة ! قال ريجمبار .

تبعه فريدريك .

في زاوية شارع مونمارتر ، استدار ، تلفّت إلى نوافذ الطابق الأول ، وضحك ، سراً ، شفقة على نفسه ، متذكراً بكم من الحبّ ، كان تأمّلها مراراً ! أين ، إذن ، هي تعيش ؟ كيف الالتقاء بها ، الآن ؟ عادت الوحدة تلفّ رغبته أكثر من أي وقت !

ـ أتريد شربها ؟ قال ريجمبار .

ـ شرب ماذا ؟

ـ الأبسنت !

ترك فريدريك نفسه ينقاد إلى حانة بوردلي مستغرقاً في هواجسه . وبينما رفيقه يتأمل ، مستنداً إلى ذراعه ، الدورق ، راح يلتفت يمنة ويسرة . لكنه لمح جانب بيلّران على الرصيف ؟ فخبط على الزجاج ، وما كاد الرسّام يجلس ، حتى سأله ريجمبار لماذا بات لا يتردّد إلى « الفن الصناعي » .

ـ فلأمت إذا عدت ! انه فظّ ، بورجوازي ، حقير ،

غريب الأطوار !

أرضت هذه الشتائم غضب فريدريك . مع أنها آذته ، إذ رأى فيها تعريضاً ما بالسيدة أرنو .

ـ ماذا فعل بك ؟ قال ريجمبار .

خبط بيلّران الأرض بقدمه ، وتنهّد بقوة بدل أن يجيب .

كان أكب على أعمال مخالفة للقانون ، كأن يرسم رسوم الكبار لهواة قليلي المعرفة ، وبما أن هذه الأعمال تذلّه ، فقد آثر الصمت عموماً . لكن « قذارة أرنو » ظلّت تغيظه كثيراً . فكان يتعزّى بهذه .

بناء على طلب ، كان فريدريك شاهده ، حمل إليه لوحتين . حينها ، سمح التاجر لنفسه ببعض الانتقادات ! ازدرى التأليف ، اللون والرسم ، بخاصة الرسم ، باختصار ، ما أراد يقبلهما إطلاقاً . لكن بيلران ، وقد أجبره الاستحقاق ، تركهما لاسحق اليهودي ، وبعد خمسة عشر يوماً ، باعهما أرنو نفسه لاسباني بألفي فرنك .

ـ ولا فلس ! يا للنذالة ! ويفعل غيرها الحقير ! سنراه ، يوماً ، في محكمة الجنايات .

ـ كم تبالغ ! قال فريدريك بصوت خجول .

ـ هيّا ! أبالغ أنا ! حسناً ! صرخ الفنان ، ضارباً الطاولة بعنف .

هذا العنف لا شك أنه أعاد إلى الشاب ثقته بنفسه . ولكن مع هذا فان التصرف بطريقة أفضل ، يظل ممكناً ، إذا وجد أرنو

اللوحتين . . .

ـ رديئتان ! قل الكلمة ! أتعرفهما ، أنت ؟ هل هي مهنتك ؟ تعرف ، أنت يا صغيري ، أنني لا أقبل ، أبداً ، بهذا . الهواة .

ـ طبعاً ! ليس هذا من اختصاصي ! قال فريدريك .

ـ إذن ، أية مصلحة لك في الدفاع عنه ؟ تمتم بيلّران ببرود .

تلبّك الشاب نوعاً :

ـ لكن . . . لأنني صديقه .

ـ قبّله عني ، طبت مساءً !

وبالطبع ، خرج الرسّام حانقاً ، ومن دون أن يذكر حسابه .

كان فريدريك أقنع نفسه ، وهو يدافع عن أرنو . وفي استشاطة غضب بيلّران ، أخذه حنان لهذا الرجل الذكي والطيّب ، الأصدقاء ينمّون ضدّه ، وهو ، الآن ، يعمل وحيداً مهملاً . لم يستطع أن يقاوم الرغبة في رؤ يته ثانية ، وللحال . بعد دقائق عشر ، كان يدفع باب المخزن .

كان أرنو ، يحضر مع موظّفه ملصقات ضخمة لمعرض لوحات .

ـ عجباً ! من يعيدك ؟

هذا السؤال البسيط ، أقلق فريدريك . وإذ لم يدرِ ما يجيب ، سأل هل رأى ، صدفة ، مفكّرته ، مفكّرة صغيرة من

جلد أزرق .

ـ هذه التي تضمّ رسائلك النسائيّة ؟ قال أرنو .

وإذ احمرّ فريدريك كالبنت البتول ، احتجّ على هكذا افتراض .

ـ قصائدك ، إذن . أردف التاجر .

كان يتأمّل النماذج المعلّقة ، يناقش شكلها ، لونها ، إطارها . ويشعر فريدريك بالغضب أكثر فأكثر ، لمنظره في وضع التأمل ، وبخاصة ليديه اللتين تتمشيان على الملصقات ، رخوتين نوعاً ، وبأظافر مسطّحة . أخيراً نهض أرنو ، وإذ قال : « انتهينا » ، مرّر يده تحت ذقن فريدريك ، بدالّة . هذه الألفة ما أسرّت الشاب ، فتراجع . ثم اجتاز عتبة المكتب للمرة الأخيرة في حياته ، كما ظنّ . السيدة أرنو نفسها ، رآها تضاءلت بسبب تصرفات زوجها .

في الأسبوع عينه ، تلقى رسالة من ديلورييه ، يعلمه فيها بوصوله إلى باريس ، الخميس القادم . فانكبّ ، من حينها ، باندفاع ، على هذا التعلّق الأقوى والأكثر صلابة . هكذا رجل يوازي النساء جميعاً . لن يكون بحاجة لريجمبار ، لبيلّران ، لهيسّونّيه ، ولا لأحد . وليؤوي صديقه بطريقة أفضل ، اشترى فراشاً صغيراً ، كرسياً مريحاً ثانياً ، ضاعف عدة السرير . وصباح الخميس ، كان بدأ يرتدي ثيابه ليستقبل ديلورييه ، حين سمع قرع جرس الباب . دخل أرنو .

ـ كلمة واحدة ! أرسلوا إليّ أمس من جنيف سمكة ترويت

كبيرة حسنة ، نتمنّاك بيننا ، مساء اليوم في السابعة تماماً . . . شارع شوازيل ، ٢٤ مكرّر . لا تنسَ !

رأى فريدريك نفسه مرغماً على الجلوس . اصطكّت ركبتاه . طفق يردّد : « أخيراً ! أخيراً ! » ثم كتب إلى خيّاطه ؛ إلى صانع قبّعاته ، وإلى صانع أحذيته . أرسل ورقاته الثلاث هذه ، مع ثلاثة رسل مختلفين . دار المفتاح في القفل وظهر البوّاب ، وعلى كتفه حقيبة .

إذ رأى فريدريك ، ديلورييه ، بدأ يرتجف كامرأة زانية أمام زوجها .

ـ ما بك ؟ قال ديلورييه . يجب أن تكون تبلّغت رسالة مني ؟

ما كان لفريدريك القوة ليكذب .

فتح ذراعيه وارتمى على صدره .

ثم طفق كاتب المحامي يروي قصته . ما كان والده يريد إعطاءه حقوق الوصاية ، متصوّراً أنها تنقضي بعد سنوات عشر . لكنه ، لقوته في المرافعة ، استطاع ، ديلورييه ، أن يحصل على كل ميراث أمّه ، سبعة آلاف فرنك ، هي معه ، في محفظة عتيقة .

ـ إنها احتياط لوقت الضيق . يجب أن أفكر في توظيفها وفي أن أتوظّف أنا نفسي ، من صباح غد . بالنسبة إلى اليوم ، عطلة تامة ، وكله لك ، يا عزيزي !

ـ أوه ! لا تزعج نفسك ! قال فريدريك . لو كان عندك

هذا المساء أمر مهم . . .

ـ خلِّ عنك ! . . . وإلا كنت أنا أتعس التعساء . . .

هذا النعت ، رُمي كيفما اتفق ، مسّ فريدريك في أعماق قلبه ، كما تلميح مهين .

كان البوّاب وضع على الطاولة ، قرب النار ، أضلاع خروف ، هلامية ، كركندا ، تحلية ، وقنينتي خمر من بوردو . هكذا استقبال أدهش ديلوربيه .

ـ تعاملني ، والله ، كملك !

تحدّثا عن ماضيهما والمستقبل . ومن وقت لآخر ، كانا يمسكان أيدي بعضهما البعض من فوق الطاولة ، ناظرين بعضهما إلى بعض بحنان . لكن موظفاً أتى بقبّعة جديدة . علّق ديلوربيه ، عالياً ، كم هي جميلة ورائعة .

ثم وصل الخيّاط ، بنفسه ، آتياً بالثوب الذي كان كواه .

ـ كأنّك تستعد للزواج ؛ قال ديلوربيه .

وبعد ساعة ، وصل ثالث ، أخرج من كيس أسود كبير حذاءً ملمّعاً ، زاهياً . وإذ كان فريدريك يقيسه ، لاحظ صانع الأحذية ، بسخرية ، حذاء الريفي .

ـ أليس السيد في حاجة إلى شيء ؟

ـ شكراً ، تمتم كاتب المحامي ، ساحباً ، تحت الطاولة ، حذاءه العتيق .

أزعج هذا الاذلال فريدريك . ثم استدار ليعترف بالأمر . أخيراً هتف ، كما مأخوذاً بفكرة :

ـ آه ! تباً لي ، كدت أنسى !

ـ ماذا هناك ؟

ـ أنا مدعو المساء للعشاء في المدينة !

ـ عند آل دمبروز ؟ لماذا لم تحدّثني عنهم في رسائلك ؟

ما كان العشاء عند آل دمبروز ، بل عند آل أرنو .

ـ كان عليك أن تعلمني ! قال ديلورييه . كنت أخرت مجيئي يوماً .

ـ مستحيل ! أجاب فريدريك بقوة . لم يدعوني إلا هذا الصباح ، من وقت قريب .

وليعوّض عن خطئه ، ويسلّي صديقه ، فكّ رُبُط حقيبته المعقّدة ، ورتّب له أغراضه في الخزانة الصغيرة ، أراد أن يعطيه سريره ، وينام في الغرفة الخشبيّة . ثم بدأ ، منذ الرابعة ، يستعدّ للذهاب .

ـ ما يزال لديك الوقت الكافي ! قال الآخر .

ارتدى ثيابه ، أخيراً ، وذهب .

« هؤلاء هم الأغنياء » فكّر ديلورييه .

وخرج يتعشّى في شارع سان ـ جاك ، عند صاحب مطعم بسيط يعرفه .

توقف فريدريك مرات كثيرة ، في الدرج ، لفرط ما كان قلبه ينبض . طقّ واحد من كفّيه ، كان ضيقاً . وإذ راح يخفي المزق بقميصه ، أمسكه أرنو ، الذي كان صاعداً وراءه ، من ذراعه وأدخله .

في المدخل . المزيّن على النمط الصيني ، فانوس ملوّن ، في السقف ، وخيرران في الزوايا . تعثّر فريدريك ، وهو يدخل الصالون ، بجلد نمر . ما كانوا أشعلوا المصابيح بعد ، لكنّ قنديلين كانا مشتعلين في الصالون الصغير في العمق .

أتت مارت ، الابنة ، تقول إن أمها ترتدي ملابسها . رفعها أرنو إلى علو فمه ليقبّلها . ولأنه شاء أن ينتقي ، بنفسه ، من القبو بعض قناني الخمر ، ترك فريدريك مع البنت .

كانت قد كبرت كثيراً ، عمّا رآها عليه في رحلة مونتيرو وشعرها البني كان ينسدل حلقات طويلة مجعّدة على ذراعيها العاريتين . ثوبها ، الأكثر انتفاخاً من تنّورة راقصة ، يُظهر أعلى ساقيها الورديتين ، وقامتها اللطيفة تحسّها طرية كما باقة . تقبّلت ثناء السيّد بمظهر الفخورة ، ركزت عينيها العميقتين عليه ، ودرجت بين الأثاث ، وكما هرة اختفت .

ما عاد يشعر بأي ارتباك . كانت كرات القناديل ، المغطاة بدانتيلاً من ورق ، ترسل ضوءًا لَبَنيّاً ، يرقق لون الجدران المطلية بالساتان الخبّازي اللون . عبر صفائح حاجز النار ، الشبيه بمروحة ضخمة ، كنت تلاحظ الفحم في المدفأة ؛ بمقابل الساعة . علبة حلى فضية الأقفال . وهنا وهناك أشياء مبعثرة : لعبة وسط الأريكة ، خمار كتفين على مسند كرسيّ ، وعلى طاولة العمل ، كنزة صوف منها تنزل صنّارتا عاج ، رأسها إلى أسفل . إنه مكان هادىء ، شريف وعائلي معاً .

عاد أرنو ؛ ومن البوّابة الأخرى ، ظهرت السيّدة أرنو . بما

أنها تكتنفها الظلال ، لم يلاحظ أول الأمر ، إلاّ رأسها . ثوبها من مخمل أسود ، وفي شعرها ، شبكة جزائرية طويلة ، خيوطها من حرير أحمر ، تلتفّ على مشطها ، وتنزل على كتفها اليسرى .

أرنو قدّم فريدريك .

- أوه ! عرفت السيّد تماماً ، أجابت .

ثم وصل المدعوون جميعاً ، وفي وقت واحد تقريباً : ديتّمر ، لوفارياس ، بوريو ، الموسيقي روزنوالد ، الشاعر تيوفيل لورّيس ، ناقداً فن زميلان لهيسّونيه ، صانع ورق ، وأخيراً ، الشهير بيار - بول ماينسيوس ، آخر ممثلي الرسم العظيم ، ويحمل ، بشجاعة ، مع مجده ، سنواته الثمانين وبطنه الضخم .

حين الانتقال إلى غرفة الطعام ، أخذته السيّدة أرنو من ذراعه ثمة كرسي لا تزال فارغة ، إنها لبيلّرن . يحبه أرنو وهو يستثمره . على كل حال ، كان يخشى لسانه السليط - مع أنه ، لإرضائه ، طبع ، في « الفنّ الصناعي » ، رسمه مع مديح فيه كثير غلو . وحوالى الثامنة ، ظهر بيلّران ، متعباً ، وهو يفضّل المجد على المال . تصور فريدريك أنهما تصالحا من زمان .

كل شيء ، أرضاه : الرفقة ، الأطعمة ، كل شيء . الغرفة التي تشبه ردهة من القرون الوسطى ، كانت مفروشة جلداً مطروقاً ؛ خزانة رفوف هولنديّة تقوم أمام مسند أسلحة ذي شُبُق ؛ وحوالى الطاولة ، كؤوس « بوهيم » ، مختلفة الألوان ، كأنها تضيء في بستان ، بين الزهور والثمار .

كان عليه أن يختار بين عشرة أنواع من الخردل . أكل من

البهار الهندي ، من الزنجبيل ، من شحارير كورسكا ، من « اللازانية » الرومانية ؛ شرب خموراً عجيبة . كان أرنو يتباهى بحسن استقباله . كان يساير ، بخصوص الأطعمة ، كل سائقي سيّارات نقل البريد ، وهو مرتبط بطهاة أكبر المطاعم التي ترسل إليه التوابل .

لكنّ الأحاديث هي أكثر ما أسرّ فريدريك . حبه للسفر ، دغدغه ديتّمر الذي تحدّث عن الشرق ؛ أرضى حشريّته حول أمور المسرح ، حين استمع إلى روزنوالد يتكلّم عن الأوبرا ؛ وحياة بوهميا النظيفة بدت له غريبة مضحكة عبر فرح هيسّونيّه ، الذي روى ، بطريقة مثيرة ، كيف أمضى شتاءً كاملاً لم يكن له ما يأكل خلاله سوى جبنة من هولندا . ثم إنّ نقاشاً بين لوفارياس وبوريو حول المدرسة الفلورنسيّة ، ذكّره بروائع الآثار ، وفتح له آفاقاً ، ورأى نفسه مكرَهاً على كبت حماسته حين هتف بيلّران :

ـ دعوني من هذه الواقعية الكريهة ! ماذا تعني الواقعيّة ؟ بعضهم يرى أسود ، سواهم أزرق ، الغالبية ترى رؤ ية الغباء . لا شيء أقل طبيعية من ميكال أنج ، ولا شيء أكثر قوة ! وسواس الحقيقة الخارجيّة يدل على التفاهة المعاصرة ؛ وسوف يصبح الفن ، إذا أكملنا هكذا ، ما لا أدري ماذا . لن تصلوا إلى غايته ، ـ نعم ، غايته ! ـ إلهي أن تُحدث فينا إثارة غير شخصيّة ، عبر آثار صغيرة ، برغم كل مخادعات الإجراء . هاكم ، مثلاً ، لوحات باسّولييه : جميلة ، مغناجة ، غاية في النظافة ، وليست ثقيلة ! كتّاب العدل يشترونها بعشرين ألف فرنك ؛ الفكرة بثلاثة

فلوس ؛ إنّما من دون الفكرة ، لا شيء عظيماً ؛ من دون عظمة لا شيء جميلاً . الألب جبل ! قمة الأبنية ، هي ، دوماً ، الأهرام ؛ الحيويّة المتدفّقة تفضل الذوق ، والصحراءُ الرصيفَ ، والمتوحّش الحلاق !

راح فريدريك ، وهو يستمع إلى هذه الأحاديث ، ينظر إلى السيّدة أرنو . كان الكلام يسقط في ذهنه كما معادن في الأتّون ، تضاف إلى ألمه ، وتُحدث حباً .

على ثلاثة مقاعد منها ، هو جالس ، في الجهة نفسها . هي تنحني ، بين الفينة والفينة ، لتوجّه بضع كلمات لابنتها ؛ وإذ تبتسم ، يغمز خدها ، مما يزيد وجهها طيبةً أكثر لطافة ورقة .

وقت الشراب اختفت . صار الحديث حراً . حلّق السيّد أرنو فيه ، وعجب فريدريك لوقاحة هؤلاء الرجال . في حين أن انشغالهم بالمرأة يوازيه بهم ، إلاّ أنه يرتفع عليهم .

وإذ عاد إلى الصالون ، أخذ ، مصادفة ، ألبوماً كان على الطاولة . كبار رسّامي العصر زينّوه بالرسوم ، كتبوا فيه النثر ، الشعر ، أو وقّعوه فحسب . بين الأسماء الكبيرة ، هناك أسماء كثيرة لمجهولين ، والأخطار الحشريّة ما ظهرت إلاّ بفبضان من الغباوات . تحمل ، كلها ، ثناءً يكاد يكون مباشراً ، للسيّدة أرنو . خشي فريدريك أن يخطّ سطراً إلى جانبها .

ذهبت إلى مخدعها وجاءت منه بعلبة الحلى ذات الأقفال الفضية التي كان قد لحظها على المدفأة . هي هديّة زوجها ، وهي أثر من عصر النهضة . أصدقاء أرنو امتدحوها ، زوجته شكرته ؛

أستبدّ به الحنان ، فقبّلها أمام الجمهور .

ثم طفقوا يتحدثون ، جماعات ؛ ماينسيوس الطبّيب كان مع السيّدة أرنو ، على مثواة قرب النار . كانت تميل إلى أذنه ، يتلامس رأساهما . كان قَبِل فريدريك أن يكون أصماً ، عاجزاً وبشعاً ، شرط أن يكون مشهوراً ، وشعره أبيض ، ليكون له ما يؤهّله للدخول في حميميّة كهذه . صار قلبه يتفتّت ، غاضباً على شبابه .

وأتت إلى زاوية الصالون حيث يقوم ، سألته إن كان يعرف أحداً من المدعوّين ، أن كان يحبّ الرسم ، منذ كم من الوقت يدرس في باريس . كل كلمة تخرج من فمها ، بدت لفريدريك جديدة ، تأسره أكثر . راح ينظر ، بانتباه إلى تنسّلات قبعّتها ، مدغدغاً ، عن بعد ، كتفها العارية ؛ وما كان لينتشل عينيه منها ، يُغرق روحه في بياض هذا الجسد النسائي ، مع ذلك ، ما كان يجرؤ على رفع جفنيه لرؤيتها وجهاً لوجه .

قاطعهما روزِنوالد ، سائلاً السيّدة أرنو أن تغنّي شيئاًقسّم روزنوالد ، فانتظرت . انفتحت شفتاها ، وتهادى صوت نقي ، طويل ، مغزول .

لم يفهم فريدريك شيئاً من الكلمات الإيطاليّة .

بدأت بإيقاع خفيض ، مثل ترتيلة كنسيّة ، ثم بثت فيه حياةً ، صُعُداً ، ضاعفت رنّات صوتها ، وفجأة هدأت ؛ وعاد لنغم ، بهيام ، وترجمات عريضة بطيئة .

كانت واقفة قرب ملامِس البيانو ، ذراعاها مسترخيتان

نظرها ضائع . أحياناً ، ولتقرأ اللحن ، ترفّ جفونها وهي تمدّ جبينها ، للحظة . صوتها الرنّان يتخذ ، في أوتاره الخافتة ، أداء كئيباً يجمّد ، ويميل رأسها الجميل ، بحاجبيها الكبيرين ، إلى كتفها . ينتفخ صدرها ، ذراعاها تتنحّيان ، يتلّوى عنقها ، بلين ، كما بتأثير قبلات هوائية ، وهو يصدر نغمات متعاقبة سريعة . أطلقت ثلاث نغمات مرتفعة ، ثم خفضت ، فنغمة أعلى ، وبعد صمت ، أنهت بنقطة الإطالة .

ما فارق روزنوالد البيانو . أكمل اللعب لذاته . طفق المدعوّون، ينسحب واحد منهم بعد آخر . في الحادية عشرة ، إذ ذهب الجميع ، خرج أرنو مع بيلّران بحجة تشييعه . كان من هؤلاء الأشخاص الذين يتمارضون إن لم يتمشوا بعد العشاء .

كانت السيّدة أرنو تقدّمت إلى المدخل ، حيّاها ديتّمر وهيسّونّيه ، مدّت إليهما يدها ؛ كذلك مدّتها إلى فريدريك ؛ وشعر كما باختراق لكل ذرّات جسده .

ترك أصدقاءَه . كان بحاجة ليكون وحده . قلبه يخفق . لماذا هذه اليد الممدودة ؛ أهي حركة عفويّة ، أم تشجيع ؟ « هيّا بي ! يا لي من مجنون ! » ماذا يهمّ كان هو يستطيع مخالطتها بسهولة ، والعيش في جوّها .

كانت الشوارع خالية . تمرّ أحياناً عربة ثقيلة ترجّ البلاطات . تتتابع البيوت بواجهاتها الرماديّة ، ونوافذها المقفلة ؛ وفكّر ، بازدراء ، في كل البشر النائمين خلف هذه الجدران ، الموجودين من دون أن يروها ، ولا واحد منهم يحدس بوجودها ! ما

عاد يعرف المكان ، ولا المسافة ، ولا شيء . خبط الأرض بقدمه ، وضرب مصاريع المحلّات بعصاه ، وظلّ يمشي في اتجاه وجهه ، للصدفة ، هائماً ، مقاداً . أحاطه هواء رطب ، فعرف أنه على حدود الأرصفة .

القناديل تلمع في خطين مستقيمين ، بلا حدود ، وتنعكس أنوار حمراء طويلة ، في عمق المياة . لونها أردوازيّ ، في حين أنّ السماء ، الأكثر صفاء ، بدت تحملها الظلال الكثيرة والكثيفة التي كانت ترتفع من على جانبي النهر . أبنية ضخمة ما كنّا نلاحظها ، كانت تضاعف من الظلمات . ضبابة مشعّة تطفو ، فوق ، على السطوح ؛ كلّ الضجيج يذوب في طنين واحد . وهبّ نسيم خفيف .

توقّف في قلب « الجسد الجديد » ، راح يتنفّس الهواء ، حاسر الرأس ، مكشوف الصدر . في هذه الأثناء ، شعر بشيء يصعد ، من أعماقه ، شيء لا ينضب ، موجة حنان تسكره ، كما حركة الأمواج تحت مرامي بصره . دقّت الأولى في ساعة كنيسة ما ، ببطء ، شبيهة بصوت كأنه يناديه .

حينها ، شعر برعشة في روحه حيث يبدو لك انتقل إلى عالم أرفع . أصابته موهبة غريبة ، لا يعرف موضوعها . بجدية ، تساءل ، هل سيكون رسّاماً كبيراً أو شاعراً كبيراً ، ومال للرسم ، لأن مقتضيات هذه المهنة تقربه من السيّدة أرنو . إذن ، موهبته ، نداءه الباطني ! صار هدف وجوده واضحاً ، والمستقبل واثقاً .

حين أغلق بابه ، سمع أحدهم يشخر في الغرفة المستقلة

السّوداء ، قرب الغرفة . إنه الآخر . كان نسيه .

ظهر وجهه في المرآة . رأى نفسه جميلاً ؛ ـ وتأمّل ذاته لدقيقة .

مكسيم دوكمب . الصديق والحسود ؟

V

اشترى ، قبل ظهر الغد ، علبة ألوان ، ريشاً ، وحمّالة ، قبل بيلّران بأن يعطيه دروساً ، فاصطحبه فريدريك إلى شقّته ، ليتأكدّ من أنّ شيئاً من حاجيّات الرسم لا ينقصه .

كان ديلورييه قد رجع ، كان ثمة شاب يُشغل الكرسي المريح الثاني . قال كاتب المحامي دالاً عليه :

ـ إنه هو ! هاكه ! سينيكال !

لم يعجب فريدريك . عرض جبينه أبرزته قصة شعره التي جعلته واقفاً . شيء ما قاسٍ وبارد يلمع في عينيه الرماديتين ؛ وسترته الطويلة السّوداء ، وكلّ لباسه ، يشعرانك وكأنه عالم تربية أو كنسيّ .

تحدّثوا ، أولاً ، عن أمور عادية ، من بينها آلامية [1] روسّيني وحين سُئل سينيكال ، قال أنه لا يذهب أبداً ، إلى المسرح . فتح بيلّران علبة الألوان .

ـ أكلّ هذا لك ؟ قال كاتب المحامي .

ـ طبعاً .

ـ يا لها من فكرة !

(١) انشودة تصّور آلام أمّ المسيح .

وانحنى فوق الطاولة حيث معلّم الرياضيّات يتصفّح كتاباً للويس بلان . كان جلبه ، هو نفسه ، ويقرأ ، بصوت خافت ، مقاطع منه ، بينما بيلّران وفريدريك يتفحصّان معاً مجموعة الألوان . ثم تحدّثا عن العشاء عند أرنو .

ـ تاجر اللوحات ؟ سأل سينيكال . سيّد جميل ، حقّاً !

ـ لماذا ؟ قال بيلّران .

أجاب سينيكال :

ـ إنه رجل يسكّ عملة بدناءات سياسيّة !

وراح يتحدّث عن محفورة شهيرة تمثّل كل العائلة الملكيّة منشغلة باهتمامات مثاليّة : لويس ـ فيليب ـ يحمل قانوناً ، الملكة كتاب صلاة ، الأميرات تطرّزن ، دوق دونيمور يتقلّد سيفاً ؛ السيّد دو جوانفيل يُظهر لإخوته الصغار خريطة جغرافية ؛ وفي العمق نلاحظ سريراً . بجزءين . هذه الصورة واسمها « عائلة طيّبة » ، كانت لذة البورجوازيّين وبلوى المواطنين . أجاب بيلّران بنبرة مغتاظة كأنه محقق تلك المحفورة أنّ الآراء تختلف ؛ اعترض سينيكال . على الفنّ ، فقط ، أن يهدف إلى إصلاح أخلاق الجماهير ! يجب ألاّ تظهر إلاّ المواضيع الدافعة إلى الفضائل ، الأخرى مصجرة .

ـ لكن هذا يتوقّف على التنفيد ! صرخ بيلّران . أستطيع أن أجعل منها روائع !

ـ تروح عليك ، إذن ! لا حقّ لنا . . .

ـ ماذا ؟

ـ كلا ! سيّدي ، ليس من حقك أن تجعلني أهتمّ بأشياء

أنبذها . ما حاجتنا إلى ترهات متكلفة ، مستحيل أن نستفيد منها شيئاً ، إلى ربات الجمال هذه ، مثلاً ، وكل مناظرك؟ إني لا أرى فيها تثقيفاً للشعب ! دلّنا على تعاساته ! إدفع بنا إلى التضحيات ! والله ، إن المواضيع كثيرة : المزرعة ، العامل . . .

طفق بيلّران يتمتم غيظاً،إذحسب ذاته وجد حجة :

ـ موليار ، تقبل به ؟

ـ فليكن ! قال سينيكال . أعجب به كممهّد للثورة الفرنسيّة .

ـ آه ! الثورة ! يا للفن ! ولا مرة حصلت فترة تدعو للرثاء مثلها !

ـ ليس أهمّ منها ، يا سيّد !

كتّف بيلّران ذراعيه ، وقال وهو ينظر إليه في وجهه :

ـ كأنك حارس وطني مجدّ !

أجاب خصمه المعتاد المناقشات :

ـ أبداً ! وأكرههم مثلك ! ولكن ، بمثل هذه الاعتقادات نُفسد الشعب ! وهذا لصالح الحكم ! لن يكون قوياً من دون تواطؤ جماعة مهرّجين كما هذا الرجل .

دافع الرسّام عن التاجر ، لأن آراء سينيكال أسخطته . استطاع حتى أن يجرؤ على القول إن لجاك أرنو قلباً حقيقياً من ذهب ، وهو مندفع لأصدقائه ، محب لزوجته .

ـ أوه ! أوه ! لو قدّم له مبلغ محترم ، لما رفض أن يجعلها موديلاً .

امتقع فريدريك .

ـ هل آذاك يا سيّد !

ـ أنا ؟ أبداً ! مرة رأيته في المقهى ، مع صديق . هذا كل ما في الأمر .

كان سينيكال صادقاً في هذا . لكنه رأى نفسه منزعجاً ، يوميّاً ، من إعلانات « الفن الصناعي » . كان أرنو ، بالنسبة إليه ، يمثل جماعة يحسبها مهلكة للديمقراطيّة . كجمهوري متعصّب ، يتّهم بالفساد كل الأغنياء .

ما تتابعت المناقشة . تذكّر الرسّام موعداً ، له ، قريباً ، والمعلّم تلاميذه . وإذ خرجا ، سأل ديلورييه ، بعد صمت طويل ، أسئلة مختلفة عن أرنو .

ـ ستقدّمني إليه في ما بعد ، أليس كذلك يا عزيزي ؟

ـ بالطبع ، قال فريدريك .

ثم اهتمّا بإقامتهما . كان ديلورييه حصل ، من دون تعب ، على مركز كاتب ثان عند محام ، وتسجّل في مدرسة الحقوق ، واشترى الكتب اللازمة ، ـ وابتدأت الحياة التي كانا حلما كثيراً بها .

كانت سعيدة ، لنضارة شبابهما . وكون ديلورييه لم يتكلّم قط على اتفاق ماليّ ، ما تحدّث عنه فريدريك . تكفّل بكل النفقات ، رتّب الخزانة ، اهتم بترتيب الشقة ؛ ولكن ، إذا لزم توبيخ البواب ، كان هو يتكفّل بالأمر ، مكملاً ، كما في المعهد ، دوره كحام وكبكر .

بعد انفصال طوال النهار ، يلتقيان مساءً . يأخذ كل منهما مكانه في زاوية قرب النار ، وينكب على عمله . لا يتأخران في التوقّف عنه . يتناجيان بلا نهاية ، يُسَرّان بلا سبب ، ويختلفان مرات بسبب قنديل يدخّن أو كتاب ضاع ، غضب لحظة تبدده ضحكات .

ويتحدّثان ، من سريرهما ، إذ يتركان باب الغرفة المنفصلة مفتوحاً .

في الصباح ، يتمشيان بقميصيهما الفضفاضين على الشرفة ؛ تشرق الشمس ، يمرّ ضباب خفيف فوق النهر ، ويُسْمَع صراخ في سوق الأزهار المجاور ؛ ـ ودخان غليونهما يحلّق في الهواء النقي ، يلامس عينيهما اللتين لا تزالان متورّمتين . يشعران ، وهما يتنشّقانه ، أملاً كبيراً .

وعندما لا تمطر الأحد ، يخرجان معاً ؛ ويتمشيان في الشوارع . تأتيهما الأفكار نفسها معاً ، أو يتحدّثان ولا يريان شيئاً حواليهما . ديلورييه يطمح إلى الغنى كوسيلة سلطة على البشر . أراد أن يحرّك كثيراً من الناس ، يثير كثيراً من الضجة ، يكون له أمناء سر ثلاثة في تصرفه ، وعشاء سياسي كبير ، مرة في الأسبوع . فريدريك سيفرش قصراً بطريقة أسطورية ، ليحيا نائماً على أرائك من كشمير ، على خرير نافورة مياه ، يخدمه عبيد ؟ ـ وصارت أحلامهما هذه ، في غاية الدقة والوضوح ، حتى إنهما يتكدّران كما لو هما أضاعاها .

ـ ماذا يفيدنا أن نحلم بكل هذا ، ما دمنا لن نحققه ،

أبداً .

ـ مَن يدري ؟ أجاب ديلورييه .

بالرغم من آرائه الديموقراطيّة ، أراده أن يدخل عند آل دمبروز . اعترض الآخر مذكّراً بمحاولاته .

ـ لا بأس ! عد أليهم ! سوف يدعونك !

حوالى منتصف الشهر ، وصلتهما ، بين الحسابات الكثيرة ، حساب صاحب المطعم الذي كان يأتيهما بطعام العشاء . وإذ لم يكن مع فريدريك كل المبلغ ، استَدان من ديلورييه مئة ريال . بعد خمسة عشر يوما ، أعاد الطلب ذاته ، وعنّفه كاتب المحامي على النفقات التي كان يضطر إليها عند أرنو .

في الواقع ، ما كان معتدلاً في إنفاقه . زين جدرانه الثلاثة بمنظر البندقية وآخر لنابولي وثالث للقسطنطينيّة ، ومواضيع خيالية من ألفرد دودرو متناثرة ، وجماعة من براديه على المدفأة ، أعداد من « الفنّ الصناعي » على البيانو ، وأغلفة كرتون على الأرض في الزوايا ، كلها تملأ المسكن بطريقة يصعب معها وضع كتاب ، وتحريك الذراعين . يدّعي فريدريك أنها ، جميعها ، تلزمه لرسمه .

كان يعمل عند بيلّران . وغالباً ما يكون هذا في جولات . فهو معتاد حضور كل المآتم والأحداث التي تتحدث الجرائد عنها . فيمضي فريدريك ساعات ، في«المحترف»، وحيداً . هدوء هذه الغرفة الواسعة ، ميت لا يُسمع سوى كردحة الفئران ، والضوء المنسدل من السقف ، وحتى صوت الموقد ، كلها تجعله أول الأمر

في جوّ ثقافي مريح . ثم تمتد عيناه ، مغادرتين عمله ، إلى قشور الجدران ، بين تحف الرفوف ، إلى جذوع التماثيل حيث الغبار المتراكم كأنه بقايا مخمل ؛ وكمسافر ضائع وسط غابة ، كل الطرقات تؤدّي به إلى المكان ذاته ، باستمرار ، فيجد في عمق أية فكرة ، ذكرى السيّدة أرنو .

يحدّد أيّاماً لزيارته . وحين يصل إلى الطابق الثاني ، أمام بابها ، يتأرجح في دقّة الجرس . تقترب خطوات ، يُفتح الباب ، ويسمع هذه الكلمات : « السيّدة خرجت » ، يكون خلاصه ، وكحمل ثقيل أزيل عن قلبه .

مع ذلك التقاها . مرة أولى ، كان برفقتها ثلاث نساء . في المرة الثانية ، بعد ظهر ذات يوم ، وصل معلّم الخطّ للآنسة مارت . على كل حال ، الرجال الذين تستقبلهم السيّدة أرنو ، لم يكونوا يزورونها . فلم يعد ، خجلاً .

لكنه ما كان يغيب ، ليُدعى إلى عشاء الخميس ، عن الحضور إلى « الفنّ الصناعي » ، كل أربعاء ، بشكل دائم ؛ ويبقى هناك بعد الجميع وحتى بعد ريجمبار ، إلى آخر دقيقة ، يتأمّل لوحة ، يتصفّح جريدة . أخيراً يقول له أرنو : ـ « هل أنت حر ، غداً مساءً ؟ » .

ويوافق قبل أن تتم العبارة . يبدو أرنو يستلطفه . أبان له فنّ معرفة الخمور ، وصنع « البنش » ، وتحضير سلمية دجاج الأرض ؛ يعمل فريدريك بنصائحه ، محبّاً كلّ ما يتعلّق بالسيّدة أرنو ، أثاثها ، خدَمِها ، بيتها ، شارعها .

ما كان يتكلّم في حفلات العشاء ، بروح بتأمّلها . يزيّن خدّها ، إلى اليمين ، في صدغها ، خال صغير ، عصابات رأسها أكثر سواداً من بقيّة شعرها ، وكأنها ، دائما ، رطبة ، نوعا ، من أطرافها . تتحسّسها ، بين وقت وآخر ، بإصبعين فقط . صار يعرف شكل كلّ من أظافرها ، يلتذ بسماع حفيف ثوبها الحريري حين تمرّ قرب الأبواب ، ويستنشق ، سرّاً ، أريج محرمها ؛ ويحسب مشطها ، قفّازها ، خواتمها ، أشياء مميّزة ، مهمّة كآثار فنية ، تكاد تكون حيّة كبشر . كلها تستحوذ على قلبه وتضاعف ألمه .

لم يقدر على إخفاء هذا عن ديلوربيه . حتى يعود من عندها ، يوقظه ، كأن الأمر حصل سهوا ، ليستطيع التحدّث عنها .

يتثاءب ديلوربيه طويلاً ، وهو كان ينام في غرفة الخشب المنفصلة ، قرب النبع . يجلس فريدريك عند أسفل سريره . يتحدّث ، أوّلاً ، عن العشاء ، ثم يروي مئة خبر صغير لا معنى له ، حيث يرى علامات ازدراء أو عاطفة . فمثلاً ، ذات مرة ، رفضت ذراعه ، لتأخذ ذراع ديتّمر ، فحزن هو .

ـ آه ! يا للسخف !

أو أنها نادته صديقها .

ـ هيّا بك إذن !

ـ لكني لا أجرؤ ، قال فريدريك .

ـ إذن ، فلا تفكّرن بها . طبت مساء .

استدار ديلورييه صوب الزقاق ونام . ما كان يفهم شيئاً من هذا الحب الذي كان يحسبه كضعف أخير من فترة المراهقة . وإذ رأى أن حميمّيتهما باتت ، لا شك ، لا تكفيه ، تصوّر أن يدعو أصدقاءهما المشتركين ، مرة في الأسبوع .

صاروا يصلون السبت في حوالى التاسعة . تكون مسحوبة الستائر الثلاثة . القنديل مضاء وهكذا شموع أربع . وسط الطاولة ، وعاء دخان ، مليء ، موضوع بين قناني البيرة ، إبريق الشاي ، وعاء « الروم » وحلويات صغيرة . تسمعهم يتحدثون عن خلود النفس ، ويقارنون بين الأساتذة .

في مساءٍ ما ، جاء هيسّونّيه بشاب طويل يرتدي سترة قصيرة الأكمام ، ذي وقفة مرتبكة. كان الفتى الذي دافعا عنه في مكتب الشرطة ، العام الماضي .

قدّم سيّده بحقه دعوى سرقة ، لأنه ما استطاع أن يعيد إليه علبة الدانتيلاّ التي ضاعت في الشغب . الآن هو موظّف في محلّ نقّال . كان هيسّونّيه التقاه ، صباحاً ، في زاوية من شارع ؛ وأتى به ، لأن ديسّردييه ، كعرفانٍ بالجميل ، أراد أن يرى الآخر .

وقدّم إلى فريدريك علبة السيجار التي لا تزال ملأى ، وهو احتفظ بها ، بكل تقوى ، على أمل أن يردّها إليه . دعاه الشباب للعودة . لبّى .

كانوا كلّهم متعاطفين . كرههم للحكم كأنه شريعة في ما بينهم . وحده ، مارتينون ، اهتمّ بالدفاع عن لويس - فيليب . فيتّهمونه في الأمكنة العامة وفي الصحف : سجن باريس ، قوانين

أيلول ، بريتشار ، لورد غيزو ، فيسكت مارتينون خوف إغضاب أحدهم . خلال سنوات سبع ، في المعهد ، ما نال عقاباً ، وفي مدرسة الحقوق كان يعرف كيف يرضي الأساتذة . عادة ، هو يرتدي سترة واسعة لونها مصطفي مع واقٍ للحذاء من مطّاط ؛ ولكنه ، ذات مساء ، ظهر في زيّ عريس : سترة مخملية مع شال ، ربطة عنق بيضاء ، سلسلة ذهبيّة .

تضاعف العجب حين عرفوا أنه آتٍ من عند السيّد دمبروز . في الواقع ، كان صاحب المصرف دمبروز قد اشترى من مارتينون الأب قسماً من غابة كبيرة . وإذ عرّفه الرجل بابنه ، دعاهما للعشاء عنده .

ـ هل كان هناك كثير من الفطور اللذيذ الطعم ؟ سأل ديلورييه . وهل اقتنصت زوجته ؟

حينها ، دار الحديث على النساء . بيلّران ما كان يقبل بوجود نساء جميلات (يفضّل ، كان ، النمور) ؛ ويرى المرأة مخلوقة منحطة في السلّم الجمالية .

ـ ما يغريك هو ، بخاصة ، ما يذلّها كفكرة ، أعني النهود ، الشّعر . . .

ـ مع ذلك ، اعترض فريدريك ، شعر طويل أسود ، وعينان كبيرتان سوداوان . . .

ـ أوه ! عـــرفتهن ! هتف خيسّـونّيــه . كثيـرات من الأندلسيّات في المروج ! أشياء قديمة ؟ بلا مزاح ! غادة ماجنة تسلّي أكثر من ربّة جمال ! لنكن فرنسيين أصيلين ، ورعايا هذا العهد ان

استطعنا !

« سيلي أيتها الخمورة الطيّبة ؛ ويا أيتها النساء ، تكرّمْنَ بابتسامة ! » .

يجب الانتقال من السمراء إلى الشقراء ! - أهذا رأيك ، ديسّردييه ؟

لم يجب ديسّردييه . دفعوه ، كلّهم ، ليعرفوا ذوقه .

- أفضّل ، أنا ، قال محمرّاً ، أن أحبّ الواحدة ذاتها ، دوماً !

قال هذا بطريقة جعلتهم يصمتون لحظات ، بعضهم فوجىء بهذه البراءة ، الآخرون اكتشفوا ، ربما ، رغبة نفسهم السرية .

وضع سينيكال كأس جعته على إطار النافذة ، وأعلن ، جازماً ، أنّ البغاء ظلم والزواج فجور ، فالأفضل الابتعاد عنهما . ديلورييه ، كان يعتبر النساء للمتعة وحسب . السيّدة دوسيزي كان يخشاهنّ .

لأنه ربي تحت نظر جدة تقيّة ، وجد رفقة هؤلاء الشباب مثيرة كمكان مشبوه ، ومثقّفة كسوربون . لم يعطوه دروساً ؛ وبدا مليئاً حيويّة حتى أراد التدخين رغماً عن أمراض القلب التي تؤرّقه كلّ مرة ، وبانتظام . كان فريدريك يعتني به . تعجبه ربطات عنقه الأنيقة ، فراء سترته وبخاصة حذاؤه الرقيق كالقفّازات البادي كغاية في النظافة والرقة ؛ سيّارته كانت تنتظره في الشارع .

وذات مساء ، إذ خرج والثلج ينزل ، طفق سينيكال

يشتكي من حوذيّه . ثم ثار ضد ذوي القفّازات الصفر ، ونادي الفروسيّة . يبدو عاملاً أكثر منه من هؤلاء الأسياد .

ـ أقلّه ، أنا أعمل ! فأنا فقير !

ـ هذا واضح ، قال فريدريك ، أخيراً ، فاقد الصبر حقد عليه معلم الرياضيّات ، بسبب هذه الكلمة .

ولكن ، إذ قال ريجمبار إنه يعرف سينيكال قليلاً ، أراد فريدريك أن يرضي صديق أرنو ، طلب إليه حضور لقاءات السّبت ، وبدا لقاء المواطنين لطيفاً

مع ذلك ، كانا مختلفين .

ما كان سينيكال ، المدوّر الرأس ، يحترم إلاّ النظريات ريجمبار ، على العكس ، ما كان يرى في الأمور إلاّ الأمور نفسها . ما كان يحزنه بالأكثر ، هو حدود الرين .

كان يدّعي أنه يعرف بالمدفعيّة ، ويرتدي لباساً يخيطه له خياط المدرسة البوليتكنيكيّة .

مذ قدّم له الكاتو ، في اليوم الأول ، رفع كتفيه بازدراء قائلاً إن مثل هذه تلائم النساء . ولم يظهر ، في أي حال ، أكثر لطفاً في المرات التالية . فور أن تبلغ الأفكار حداً معيّناً ، يتمتم : « أوه ! بلا أوهام ، بلا أحلام ! » في ما يختصّ بالفنّ (بالرغم من تردّده إلى المحترفات ، حيث يعطي ، أحياناً ، مسايرة ، دروساً في سيف المبارزة) ، ماكانت آراؤه ، أبداً ، فائقة الأهمية . كان يقارن أسلوب السيّد ، ماراست بأسلوب فولتير ، والآنسة فاتناز بمدام دوستايل ، بسبب أنشودة عن بولونيا فيها عاطفة . أخيراً ، كان ريجمبار يرهق الجميع وبخاصة ديلورييه ، لكونه مقرّباً من أرنو .

كاتب المحامي كان يطمح إلى التردّد على هذه العائلة علّه يرتبط بمعارف تعود عليه بالنفع . « متى ستقدّمني هناك ؟ » كان يقول . يحتجّ ، الآخر ، بكون أرنو مأخوذاً بأعماله الكثيرة ، أو هو مسافر ؛ ثم ، ليس الأمر مهماً ، فحفلات العشاء شارفت على الانتهاء .

لو كان عليه المخاطرة بحياته لأجل صديقه ، لفعل فريدريك . إنّما ، لكونه يريد الظهور بأفضل ما يمكن ، كان يخشى ألاّ يعجب السيّدة أرنو ، ممّا يسيء إلى وضعه ، هو ، تجاهها ، ويحطّه في عينيها ، بسبب لغته ، تصرفاته وثوبه ، التي راح يراقبها ليأخذه ، بعدها ، إلى مكتب « الفنّ الصناعي » حين يكون صار لا يذم سببها . كان ليقبل بالآخرين ، أما هذا ، بالتحديد ، فهو يرعجه ألف مرة أكثر . انتبه كاتب المحامي إلى أنه لا يريد الوفاء بوعده ، وبدا له صمت فريدريك شتائم مضاعفة .

كان يريد اصطحابه ، يراه تحقيقاً لاحلامٍ فوّتها ، ويثيره كسله ، كرفض وكخيانة . كان فريدريك ، مليئاً من فكرة السيّد أرنو ، يتحدّث ، أكثر الأحيان ، عن زوجها ؛ ويبدأ ديلورييه تكرار كلمات بشكل لا يطاق يردّد إسم أرنو مئة مرة في النهار ، في نهاية كل عبارة ، كما عادة معتوه مستهجنة . حين يطرقون بابه ، يجيب : « أدخل ، أرنو » في المطعم ، يطلب ، « على غرار أرنو » ، جبن بري . وفي الليل ، متظاهراً بكابوس ، يوقظ رفيقه وهو يزعق : « أرنو ! أرنو ! » وفي نهارٍ ما ، كان فريدريك

أرهق ، قال له بصوت شاك :

ـ دعني وشأني مع أرنو !

ـ أبداً ! أجاب كاتب المحامي .

دائماً هو ! أينما كان ! إمّا مشتعلة إمّا باردة .

صورة أرنو . . .

ـ إخرس ! صرخ فريدريك رافعاً قبضته .

بهدوء ، تابع :

ـ انه موضوع يشقّ عليّ ، تعرف هذا تماماً أنت .

ـ أوه ! معذرة أيها الرجل الطيّب ، أجاب ديلورييه كثير الأنحناء ، سنحترم ، منذ اللحظة ، أعصاب الآنسة ! معذرة ، مرة بعد ! ألف عذر !

هكذا انتهت المداعبة .

إنّما ، بعد أسابيع ثلاثة ، قال له ، ذات مساء :

ـ لقد رأيت ، منذ وقت قريب ، السيّدة أرنو !

ـ أين ؟

ـ في القصر ، مع المحامي بالنذار ؛ امرأة سمراء ، متوسطة القامة ، أليس كذلك ؟

وافق فريدريك ، بحركة منه . انتظر أن يتحدّث ديلورييه . عند أوّل كلمة إعجاب ، كان سيبوح له بشكل تفصيلي. كان مستعداً ، تماماً ، لمصادقته . بقي الآخر صامتاً . ما استطاع ، فريدريك الاحتمال ، فسأله ، بمظهر اللامبالي عن رأيه فيها .

وجدها ، ديلورييه ، « لا بأس بها ، إنّما خصوصيات

تميّزها » .

ـ آه ! تظن ؟ قال فريدريك .

حلّ آب ، فترة امتحانه الثاني . حسب الاعتقاد السائد ، خمسة عشر يوماً تكفي لتحضير الموادّ . ابتلع فريدريك ، الواثق من قواه ، ودفعة واحدة ، الكتب الأربعة الأولى لأصول المحاكمات ، الثلاثة الأولى لقانون الجزاء ، الكثير من المقاطع من أصول التحقيق الجنائي وقسماً من القانون المدنيّ ، مع تعليقات السيّد بونسليه . ليلة الامتحان ، جعله ديلورييه يراجع موادّه حتى الصباح ؛ وللاستفادة من الربع ساعة الأخير ، تابع أسئلته له على الرصيف ، وهما سائران .

كان في الساحة كثير من الناس لأن اختبارات عدة تجري في وقت واحد . وكان بين الحاضرين هيسّونيه وسيزي ، ما كانا يتغيبان عن هذه الاختبارات ، حين يتعلّق الأمر بالرفاق . ارتدى فريدريك الثوب التقليدي الأسود ؛ ثم دخل ، يتبعه حشد ، مع طلّاب ثلاثة آخرين ، غرفة كبيرة تضيئها نوافذ لا ستائر لها ومجهّزة بمقاعد منجّدة ، على امتداد الجدران . في الوسط ، كراسٍ جلديّة تحيط بطاولة عليها غطاء أخضر . هي تفصل المرشّحين عن السادة الممتحِنين وهم بثوب أحمر ، يتشحون ، جميعاً ، أوشحة جامعية من فرو القاقم على الكتف(١) ، مع قبّعة بشرائط ذهبيّة على رأس الرئيس .

وجد فريدريك نفسه ما قبل الأخير في صفّه . انها وضعيّة سيئة . مع أوّل سؤال عن الفرق بين الاتفاق والعقد ، حدّد الواحد بالآخر ؛

---

(١) حيوان من الفصيلة السّموريّة .

وإذ كان الأستاذ رجلاً طيّباً ، قال له : ـ « لا تضطرب ، يا سيّدي ، عد إلى روعك ! » ثم ، بعدما سأله سؤالين سهلين ، أعقبهما جوابان غامضان ، انتقل إلى السؤال الرابع . فريدريك كان صار ثابط الهمة ، لهذه البداية التافهة . ديلوربيه ، بمواجهته بين الجمهور ، يومىء إليه أن لم يضع ، بعد ، كل شيء . وفي الاختبار الثاني عن القانون الجنائي ، نجح بشكل مقبول . إنما ، بعد الثالث ، المتعلّق بالوصية السرية ، وكان بقي الفاحص هادىء الأعصاب طوال الوقت ، قلقه ازداد ؛ لأنّ هيسّونّيه كان يضم يديه كما ليصفّق ، بينما ديلوربيه راح يهزّ كتفيه . وفي النهاية ، ما الوقت الذي فيه يجب أن يجيب عن طريقة المحاكمات ! كان الأمر يدور على المعارضة الثالثة . وإذ صُدم الفاحص لسماعه نظرّيات مناقضه لنظرّياته ، سأله بلهجة عنيفة :

ـ وأنت ، يا سيّد ، أهذا رأيك ؟ كيف توفّق بين مبدأ المادة ١٣٥١ من القانون المدنيّ وهذه الطريق الهجومية الغريبة ؟

شعر فريدريك بألم كبير في رأسه ، لأنه أمضى الليل كله ولم ينم . ووقع عليه شعاع شمس داخل من فرجة حصيرة النافذة ، راح واقفاً وراء الكرسي ، يتمايل ويملس شاربه .

ـ مازلت انتظر إجابتك ! تابع رجل القبعة ذات الشرائط الذهبيّة .

وبما أن حركة فريدريك ، ولا شكّ ، أغاظته :

ـ لن تجدها في لحيتك !

هذا التهكّم أحدث ضحكاً في الحضور . وإذ أحس نفسه

ممدوحاً ، رضي الأستاذ . سأله سؤالين بعد عن التأجيل والقضية المجملة . ثم أحنى رأسه علامة الرضا . انتهى الأمتحان وعاد فرديريك إلى الرواق .

في حين راح الحاجب يخلع عنه الثوب ليعطيه ، مباشرة ، لآخر ، أحاط به أصدقاؤه مكملين ادهاشه بآرائهم المتناقضة حول نتيجة الأمتحان . سريعاً ما أعلنوها بصوت جهوري ، في مدخل القاعة : المرشّح الثالث . . . أُرجىء ! » .

- هيا بنا ! قال هيسّونّيه ، فلنذهب من هنا !

أمام مقر الحاجب ، التقوا بمارتينون ، أحمر ، معجباً ، مع بسمة في العينين وهالة المجد على جبينه . كان نجح ، بدون صعاب ، في امتحانه الأخير . تبقى ، فقط ، الأطروحة . لا تمرّ أيّام خمسة عشر ، إلّا يصبح مجازاً . عائلته تعرف وزيراً ، فلا بدّ من مجال حسن يُفْتَح أمامه .

- انه يورّطك مع ذلك ، قال ديلورييه .

لا شيء مذلّ كما رؤية الحمقى ينجحون في مشاريع نفشل نحن فيها . أجاب فريدريك بغيظ ، إنه يسخر من كل أمر . طموحاته كانت أسمى ؛ وإذ بدا هيسّونّيه كأنه يريد الذهاب ، انتحى به فريدريك جانباً ليقول له :

- ولا كلمة عن كل هذا ، عندهم ، أبداً !

كان حفظ السرّ سهلاً ، إذ إنّ أرنو ، في الغد ، يذهب برحلة إلى المانيا .

في المساء ، حين عاد كاتب المحامي ، وجد صديقه متبدّلاً : كان

يردّد الأشياء ذاتها ، يصفر ؛ وإذ دُهش لهذا المظهر ، أعلن فريدريك أنه لن يذهب إلى أمّه ؛ سيقضي عطلته بالعمل .

غمره فرح ، إذ عرف بسفر أرنو . صار في وسعه الحضور هناك براحة ، من دون خشية مقاطعته في زياراته . اليقين بالطمأنينة التامة جعله شجاعاً . وأخيراً ، هو لن يكون بعيداً ، لن يكون منفصلاً عنها ! شيء ما ، أقوى من سلسلة حديديّة تربطه بباريس ، صوت باطنيّ يهتف له بالبقاء .

اعترضته صعوبات . تخطّاها بالكتابة إلى أمّه ، اعترف لها برسوبه ، سبّبته تغييرات طارئة في المنهاج ، ـ صدفة ، ظلم ؛ ـ على كل حال ، كل المحامين الكبار (ذكرهم بأسمائهم) ، كانوا رسبوا في امتحاناتهم . لكنه سيتقدّم من جديد في تشرين الثاني . وبما أنّ لا وقت لديه للإضاعة ، فلن يذهب إلى البيت هذه السنة ؛ وطلب ، عدا قسط فصل ، مئتين وخمسين فرنكاً لإعادات الحقوق ، وهي ضرورية جداً ـ كل هذا مغلّفاً بالندم والتعزيات والمداهنات وتوكيد الحب البنويّ .

السيّدة مورو ، التي كانت تنتظره في الغد ، تضاعف حزنها . أخفت مغامرة ابنها ، وأجابته بضرورة العودة ، مهما حصل . لم يوافق فريدريك وقع خصام . مع ذلك ، حصل ، في نهاية الأسبوع ، على قسط الفصل مع المبلغ المطلوب للإعادة ، ودفعه ثمن بنطلون رمادي لؤلؤي ،وقبّعة من لبد بيضاء وخيزرانة مذهّبة الرأس .

حين حصل على كل هذه :

« لربما هي فكرة مزيّن راودتني » فكّر .

واستحوذ عليه تردّد كبير .

رمى في الفضاء ثلاث مرات قطعاً نقدية ليقرّر هل يذهب عند السيّدة أرنو . كل مرة كان الفأل سعيداً . إذن القدر يأمره . وانطلق بعربة فيكر إلى شارع شوازيل .

صعد الدرج بحيوية ، وشد حبلة الجرس ما قرع أحس أنه سينهار .

ثم رجّ ، بخبطة قوية ، الشرابة الحريرية الحمراء الثقيلة . مجموعة أجراس متناغمة الدقات دقت ، وهدأت تدريجياً ، ثم لم يسمع شيئاً . خاف فريدريك .

ألصق أذنه بالباب ؛ ولا نَفَس ! وضع عينه في ثقب القفل ، ولم يلاحظ في المدخل ، سوى رأسي قصبة على الحائط ، بين زهور الورق . وإذا استدار ليعود ، غيّر رأيه . ودقّ ، هذه المرة ، دقة خفيفة . فُتح الباب ، وعلى العتبة ، بدا أرنو نفسه ، مشعّث الشعر ، وجهه محمرّ ، ومظهره مقطّب .

ـ عجباً ! أيّ شيطان أتى بك ؟ أدخل !

أدخله ، لا إلى الصالون الصغير ، ولا إلى غرفته،بل إلى غرفة الطعام حيث يرى ، على الطاولة ، قنينة شمبانيا وكأسين ؛ وبنبرة مفاجئة :

ـ هل لك ما تطلبه مني ، يا صديقي العزيز ؟

ـ لا ! أبداً ! أبداً ! تلعثم الشاب مفتّشاً عن ذريعة لزيارته . قال ، أخيراً ، انه أتى ليعرف أخباره ، لأنه ظنّه في ألمانيا حسب

هيسّونّيه .

ـ إطلاقاً ! أجاب أرنو . يا للولد الطائش يسمع كل شيء بلا تمييز !

وليخفي اضطرابه ، راح فريدريك يمشي يميناً وشمالاً ، في الغرفة . أوقع ، إذ تعثّرت قدمه بكرسيّ ، مظلّة موضوعة فوقها ؛ كُسرت قبضتها العاجيّة .

ـ يا إلهي ! صرح ، كم أنا حزين لتحطيمي مظلّة السيّدة أرنو !

عند هذه الكلمة ، رفع التاجر رأسه ، وابتسم ابتسامة خاصة .

وانتهز فريدريك المناسبة المتاحة للحديث عنها ، فأضاف بحزن :

ـ ألا يمكنني أن أراها !

هي في بلدتها ، بجانب أمها المريضة .

ما جرؤ على أن يسأل عن مدة هذا الغياب . فقط ، سأل عن بلدة السيّدة أرنو .

ـ شارتر ! أيدهشك هذا ؟

ـ أنا ؟ لا ! لماذا ؟ إطلاقا !

ما وجدا ، بعد ذلك ، شيئاً يقولانه . أشعل أرنو سيجارة ، استدار حول الطاولة ، نافخاً . وقف فريدريك أمام الموقد يتأمّل الجدران ، الرفوف ، الأرض . وغامت ، في باله ، صور عذبة ، وأمام عينيه . وأخيراً انسحب .

جزء من جريدة كان مرميّاً في أرض المدخل ؛ لمّها أرنو ، ووقف على أصابع قدميه ، وأنفذها في الجرس ، ليُكمل ، كما قال ، قيلولته التي انقطعت . وإذ ودّعه بالمصافحة :

ـ أخطر الحاجب ، من فضلك ، أني لست هنا !

وأغلق الباب وراءه بعنف .

نزل فريدريك الدرج درجة درجة . فشله في هذه المحاولة الأولى لم يشجّعه على محاولات أخرى . وابتدأت ثلاثة أشهر ضجر . وبما أن لا عمل لديه ، فقد ضاعفت بطالته حزنه .

كان يمضي ساعات من على شرفته ينظر إلى الجدول الذي يسيل بين الأرصفة البنية ، المسودّة ، من مكان إلى آخر ، خلال انطماسة المزاريب مع طوف ، من عند الكواءات ، راسٍ عند الحدود ، حيث صبيان يتسلّون مرات ، ويغسلون كلباً مجعّد الوبر ، طويله . عيناه ، إذ تتركان إلى الشمال جسر نوتر ـ دام الحجري وثلاثة جسور معلّقة ، تتجهان دائماً ، صوب رصيف الدردار ، تحلّقان فوق أجمة من أشجار عتيقة شبيهة بزيزفون جسر مونتيرو . برج سان ـ جاك ، القصر البلدي ، سان جرفي ، سان لويس ، سان بول ، كلها تنهض في وجهه ، عبر السقوف المتشابهة ، ـ وهندسة بناء تموز التذكاري ، تتراءى ، إلى الشرق ، كنجمة ذهبيّة طويلة ، بينما ، في الطرف الآخر ، قبّة التويلّري ، تكوّر ، على السماء ، صوبجانها الأزرق الضخم . وراء هذه الجهة ينبغي أن يقوم بيت السيّدة أرنو .

يدخل غرفته ، وإذ ينام على أريكته يستسلم إلى التأمّل الفوضويّ : تصاميم مؤلّفات ، مشاريع عمل ، انطلاقات صوب المستقبل . وأخيراً ، لينجو من نفسه ، يخرج .

يصعد ، كما صدفة ، إلى الحي اللاتيني ، الضاجّ ، عادة ، إنّما المقفر في هذه الفترة ، لأن الطلّاب كانوا عادوا إلى عائلاتهم . جدران

المعاهد الكبيرة ، كما ممتدّة بالصمت ، كانت ذات مظهر أكثر كآبة ؛ كنت تسمع كل أنواع الضجيج الهادىء ، خبط أجنحة في الأقفاص ، غطيط مخرطة ، مطرقة إسكافيّ ؛ وتجّار الألبسة ، وسط الشوارع ، يسألون النوافذ ، بعيونهم ، بلا فائدة . في عمق المقاهي المستوحدة تتثاءب المحاسبة بين قنانيها الملأى ؛ والجرائد ، على طاولات غرف المطالعة ، تبقى مرتّبة . في مشغل الكوّاءات ثياب ترتعش بتأثير نفثات الهواء الفاتر . يتوقّف ، كان ، بين لحظة وأخرى ، أمام رفوف مكتبة ، يستدير حين سماعه صوت سيّارة النقل العام ؛ وإذ ينتبه لكونه أمام اللوكسمبور ، لا يعود يذهب أكثر .

يجتذبه ، أحياناً ، صوب الشوارع الواسعة ، أمل بالتسلية . بعد أزقة مظلمة تضوع منها نداوات رطبة، كان يصل إلى ساحات كبيرة مقفرة ، مشعّة نوراً ، وحيث الأبنية الضخمة ترسم على حدود الأرض تخريمات ظل أسود . لكنّ العربات والمحلّات تعود تبدأ ، والجماعات تصمّه ، وبخاصة الأحد ـ حين تتماوج موجة كبيرة على الطريق ، وسط الغبار في حركة دائمة ، من الباستيل حتى العذراء . يحسّ نفسه مقزّزاً لوضاعة الوجوه ، وتفاهة الأحاديث ، والسرور الغبيّ ، التي تنزّ كلها عرقاً على الجباه ! على كل حال ، لم يكن لديه ما هو أفضل من النظر إلى هؤلاء الناس .

وكل يوم يذهب إلى « الفنّ الصناعي » ؛ ـ وقصد أن يعرف متى تعود السيّدة أرنو ، يروح يستعلم ، طويلاً ، عن أمّها . جواب أرنو لم يكن يتغيّر ؛ « تتقدّم باستمرار » أمرأته وصغيرته ، تعودان الأسبوع المقبل . بمقدار ما تتأخر في العودة ، يكتئب فريدريك ، ـ إلى حدّ رق

أرنو لهذه العاطفة ، فصار يصطحبه خمس أو ست مرّات للعشاء في المطعم .

عرف فريدريك من خلال هذه المواجهات المباشرة أن تاجر الرسم ، كان كثير الروحانيّة . كان يستطيع أرنو ملاحظة هذا البرود . ثم كانت مناسبة يردّ له ، نوعاً ، بعض فضله .

ولأنه أراد أن يقوم بواجبه ، على وجه كامل ، باع كل ثيابه الجديدة من تاجر سقط ، بما يعادل الثمانين من الفرنكات ؛ وإذ أضاف فوقها مئة أخرى باقية لديه ، جاء ألى أرنو يأخذه إلى العشاء . كان عنده ريجمبار . وذهبوا إلى « تروا - فرير - بروفنسو » .

بدأ المواطن بخلع سترته الطويلة ، وإذ كان واثقاً من مراعاة الآخرين له ، كتب اللائحة . لكنه انتقل إلى المطبخ ليتحدّث بنفسه إلى الرئيس ، ونزل إلى القبو ، وكان يعرف كل زواياه ، وأصعد المسؤ ول عن المؤسّسة ووبّخه ما كان مسروراً من الأطعمة ، ولا من الخمور ، ولا من الخدمة ! مع كل طبق جديد ، مع كل قنينة مختلفة ، منذ اللقمة الأولى والجرعة الأولى ، يترك شوكته تقع ، أو يدفع كأسه بعيداً ؛ ثم يصرخ ، مستنداً بكوعيه إلى الشرشف بكل طول ذراعيه ، انه ليس بالإمكان ، بعد ، العشاء في باريس ! أخيراً ، ريجمبار ، الذي لا يعرف أن يحلم إلاّ لفمه ، طلب لوبياء بزيت ، هكذا ببساطة ، رآها نصف ناجحة ، لكنها أرضته نوعاً . ثم تحدّث إلى الصبي عن صبيان المطعم القدامى : « ماذا حلّ بأنطون ؟ والمدعو أوجين ؟ وتيودور الصغير ، الذي كان دائماً يخدم في الأسفل ؟ في ذلك الوقت كان الطعام أفضل ، كما لن يحصل في ما بعد ! » .

ثم دار حديث عن ثمن الأراضي في الضاحية ، مضاربة لأرنو ، أكيدة . في الأنتظار ، يخسر فوائده لأنه لا يريد البيع بأي ثمن . كشف له ريجمبار أحداً ما ، وراحا يحسبان ، بالقلم ، حسابات حتى نهاية التحلية .

انتقلوا لشرب القهوة ، مفترق سومون ، في حانة من دور منخفض . راح فريدريك ، واقفاً ، يتفرّج إلى ألعاب لا تنتهي بالبليار ، شارباً كؤوساً كثيرة ؛ ـ وبقي ، هنا ، إلى منتصف الليل ، دون أن يعرف لماذا ، ضعفاً ، حماقة ، على أمل غامض بأن يحدث أمر ما لصالح حبّه .

متى سيراها مجدّداً ؟ كان يتشاءم . إنّما في إحدى أواخر أمسيات تشرين الثاني ، قال له أرنو :

ـ تعرف ؟ أمس عادت امرأتي .

في الخامسة من الغد ، كان يدخل إليها .

بدأ بتهانىء بخصوص أمّها التي كان مرضها خطراً .

ـ لا ! من قال لك هذا ؟

ـ أرنو !

صعّدت آهاً خفيفة ، ثم أضافت أنها ، أوّل الأمر ، خشيت حقاً ، لكنها ، الآن ، زالت مخاوفها .

كانت جالسة قرب النار ، في المثواة المطرّزة . هو ، إلى الكنبة ، قبّعته بين ركبتيه ؛ كان الحديث صعباً تتركه كل هنيهة ، لم يجد مناسبة ليبوح بعواطفه . وإذ راح يشتكي من دراسته المماحكة ، قالت : ـ « نعم . . . ، أدرك . . . ، المشاغل . . . ، خافضة رأسها ،

مأخوذة ، فجأة ، بأفكار شتّى .

كان مهتماً لأن يعرف هذه الأفكار حتى أنه لا يفكر في سواها . بدأ الغروب يلقي الظل حولها .

نهضت ، إذ عليها الخروج ، ثم ظهرت بقبّعة مخملية وعباءة سوداء موشّاة بفرو السنجاب . جرؤ في أن عرض عليها مرافقتها .

ما كنت ترى ؛ كان برد وضباب كثيف يحجب واجهات المنازل ويتعفّن في الفضاء . راح فريدريك يتنشّقه بلذة ، لأنه كان يشعر عبر قطن الثوب ، شكل ذراعها ، ويدها التي فيها قفّاز من شاموا ، بزرين ، يدها الصغيرة التي أراد أن يُلبسها جسداً من القبل ، تستند إلى ذراعه . كانا يترجّحان في مسيرهما ، بسبب الأرض التي تعرّضهما للانزلاق . بدا له كأنهما متمرجحان بالهواء في قلب غيمة .

أعاده بريق الأنوار ، على البولفار ، إلى الواقع . المناسبة ملائمة والوقت يحثّ . أمهل نفسه حتى شارع ريشليو ليبوح بحبّه . لكنها ، فجأة ، توقّفت أمام محلّ بورسلان قائلة له :

ـ ها قد وصلنا ، شكراً لك ! إلى الخميس ، كالعادة ، أليس كذلك ؟

عادت حفلات العشاء ، يزداد دنفه بمقدار ما تزداد مخالطته للسيّدة أرنو .

يثيره تأمّل هذه المرأة ، كما استعمال عطر قويّ جداً . نزل هذا حتى أعماق طبعه ، وصار ، تقريباً ، نمطاً عاماً للشم ، طريقة جديدة للعيش .

البغايا اللواتي كان يلتقيهن على ضوء الغاز ، المغنيات المحترفات

اللواتي يطلن تعاقب النغمات السريعة ، الفارسات على أحصنتهن الخابّة ، البورجوازيات السائرات ، الشابات المرحات في نوافذهن ، كل النساء كنّ يذكرنه إياها ، بمشابهة أو بمفارقة بعيدة . راح ينظر ، عبر زجاج المحلاّت ، الكشمير ، الدانتيلاّ والنوط المن الأحجار الكريمة ، ويتخيّلها مزينة حول نهديها ، مدروزة في صدارها ، لامعة في شعرها الأسود . في معرض البائعات ، تتهالك الأزهار لتنتقيها وهي تمرّ ؛ في واجهة الإسكافيين تبدو الأخفاف النحيفة التي من ساتان معرّق ، منتظرة قدمها ، كل الشوارع تؤدّي إلى بيتها : العربات لا تتوقف في الساحات إلاّ لتوصل إليها بسرعة أقصى ؛ باريس ، كلّها ، تتعلّق بشخصها ، والمدينة الكبرى بكل أصواتها ، تتمتم ، كما أوركسترا عظيمة ، حواليها .

حين يذهب إلى حديقة النباتات ، فإن مرأى نخلة يطوّف به إلى بلاد بعيدة . معاً يسافران ، على ظهر جمال ، في غرفة تحت بين جزر زرقاء ، أو جنباً إلى جنب على بغلين بأجراس صغيرة ، تصطدم بالأعشاب الخضراء الطويلة ، حيث أعمدة مكسورة . يتوقف ، أحياناً ، في اللوفر أمام لوحات قديمة ، فيتصورها في شخصيات تلك الرسوم ؛ معتمرة طنطوراً ، تصلّي راكعة وراء حاجز سميك ؛ سيّدة الكاستيل أو الفلاندر ، جالسة بسحنة جامدة وحس صوت يتدفّق ماء . ثم تنزل درجاً ما كبيراً من برفير وسط مساغ ، تحت قبّة من ريش النعام ، بثوب من الديباج . وأحياناً أخرى ، يحلم بها في بنطلون من حرير أصفر على وسائد حريم ـ وكل جميل ، مثل تلألؤ النجوم ، وبعض الألحان ، وطريقة عبارة أو محيط ، يذكّره بها بطريقة مفاجئة

ولا شعوريّة .

وبخصوص أن يجعل منها عشيقته ، كان واثقاً من أن كل محاولة ستبوء بالفشل .

ذات مساء، وصل ديتّمر وقبّلها في جبينها ؛ لوفارياس أيضاً ، قائلاً :

ـ تسمحين ، أليس كذلك ، بحسب امتياز الأصدقاء ؟

تمتم فريدريك :

ـ يبدو لي أننا ، جميعاً ، أصدقاء .

ـ ليس الجميع أعزاء ، أجابت .

هذا لتجبهه ، مسبقاً ، بطريقة غير مباشرة .

ما العمل ، إذن ؟ البوح لها بحبّه ؟ سوف ترفض استقباله ولا شكّ ، أو هي تطرده من بيتها ساخطة . على أنه يفضّل كل أنواع الآلام على أن لا يراها .

جسد موهبة عازفي البيانو ، جراح الجنود . عنى مرضاً خطيراً علّه ، هكذا ، يثير اهتمامها .

أمرٌ ما أدهشه ، إنه لم يكن يحسد أرنو ، وما كان يستطيع تصورها سوى مرتدية ثيابها ، تبدو براءتها طبيعيّة ، ويخفي جنسها في ظلال خفيّة .

مع ذلك ، يحلم ، كان ، في سعادة أن يحيا معها ، يخاطبها بدالّة ، يمرّر يده على عصابات رأسها ، طويلاً ، أو أن يركع على الأرض ، ذراعاه حول خصرها ، يتملّى من روحها في عينيه !

يجب لذلك قلب نظام القدر ، وهو غير قادر على مثل هذا ،

ويروح يلعن الله مشتكياً من جبنه ، ويتلوّى في رغبته كسجين في زنزانته . يخنقه قلق مسيطر . يبقى جامداً لساعات ، أو ينفجر باكياً .
ويوماً ، إذ لم يتمالك نفسه ، قال له ديلورييه :
- تباً لك ! ماذا دهاك ؟
كان فريدريك يشكو من أعصابه . لكن ديلورييه ما صدّق شيئاً . وأمام ألم كهذا ، استفاقت عاطفته وراح يشدّد عزمه . رجل مثله يترك نفسه يتلاشى ، يا للحماقة أمرٌ مسموح في المراهقة ، إنّما ، في ما بعد ، هو مضيعة للوقت.
- أنت تضيعني يا فريدريك ! أودّ أن استعيد ، فيك ، القديم . شاب هو نفسه دائماً ! كان يعجبني ! هيّا ، دخّن غليوناً ! هزّ نفسك قليلاً ، تحزنني !
- هذا صحيح ، قال فريدريك ، أنا مجنون !
أجاب كاتب المحامي :
- آه ! أيها الشاعر الجوّال القديم ، أعرف ، أنا ، ما يثقل عليك ! قلبك ؟ أصدقني ! عجباً ! تفقد واحدة ، تحظى بأربع ! نتعزّى عن النساء الورعات بالأخريات أتريد أن أعرفك على نساء ؟ ليس عليك إلاّ أن تأتي إلى « الألهامبرا » .
كان مرقصاً شعبيّاً حديث العهد في أعلى الشان - إليزيه ، انهار منذ الفصل الثاني بموت عجيل تعرفه مثل هذه المؤسّسات . نلهو ، هناك ، قدر ما نشاء . هيّا بنا ! تأخذ أصدقاءك ، إذا شئت . أرسل إليك حتى ريجمبار !

سردابان من الطراز العربي المغربي يمتدان متوازيين إلى اليمين وإلى الشمال . في المقابل ، جدار منزل يشغل كل العمق ، والجهة الرابعة (التي للمطعم) ، تشكّل رواق ديرغوطي ، زجاجه ملوّن . يحمي المنبر ، حيث يعزف الموسيقيّون ، نوع من الغماء الصينيّ . الأرض المحيطة كانت من أسفلت ، وفوانيس بندقيّة معلّقة في أعمدة تؤلّف ، من بعيد ، على الرباعيّات الراقصة ، تاجاً من أضواء متعدّدة الألوان . هنا وهناك ، قاعدة تمثال تحمل حوض حصى فيه ترتفع نافورة ماء . بين الأغصان المقطوعة كنت تلمح تماثيل جصّ . « هيبيه » أو « كوبيدون » لزجان من ألوان زيتيّة ؛ والممرات الكثيرة المزينة برمل أصفر بعناية مفلوش ، يجعل الحديقة أوسع ، بكثير ، مما هي .

هناك طلّاب ينزّهون عشيقاتهم ؛ موظفون يتبخترون بثيابهم الجديدة ، وعصا بين أصابعهم ؛ تلاميذ ثانويون يدخّنون . عازبون عتاق يدغدغون لحيتهم المصبوغة بمشط ؛ وهناك إنكليز ، وروس ، وأناس من أميركا الجنوبيّة ، وثلاثة مشارقة بالطربوش . وكذلك ، غادات ماجنات ، وشابات مرحات ، وفتيات ، جئن إلى هنا أملاً بوجود عشيق ومعيل ، أو حبيب ، أو قطعة ذهب ، أو فقط ، حبّاً بالرقص . وفساتينهن ذوات القمصان الخضراء ، الزرقاء ، الكرزية أو البنفسجيّة ، تمر ، تخفق بين الآبنوس والليلك . يكاد جميع الرجال يكونون بالثياب ذوات المربّعات ، بعضهم في البنطلون الأبيض . برغم برود المساء . والإضاءة لقناديل الغاز .

هيسّونيه ، لعلاقاته مع جرائد الأزياء والمسارح الصغيرة ، كان يعرف الكثيرمن النساء . يرسل إليهن قبلات على طرف الأصابع .

وبين الوقت والآخر ، يفارق أصدقاءه ، ليتحدّث إليهنّ .

كان ديلورييه حسوداً لهذه المظاهر . اعترض ، بوقاحة ، شقراء كبيرة ترتدي النانكين . بعد أن تأمّلته بمظهر عبوس ، قالت له : ـ « كلا : لا ارتاح إليك ، سيّدي ! » واستدارت على عقبها .

أعاد الكرة مع سمراء ضخمة ، مجنونة ولا شك ، غضبت منذ الكلمة الأولى ، وتهدّدته ، إذا هو أكمل ، بمناداة رجال الشرطة . اجتهد ديلورييه في الضحك . وإذ لاحظ امرأة صغيرة متنحية جالسة تحت فانوس ، عرض عليها رقصة الكدريل .

الموسيقيّون جاثمون على المنبر في وضعية القرد ، يسيئون العزف ، ويصفرون بعنف . رئيس الفرقة ، واقفاً ، يعيّن النغم بطريقة آليّة . كانوا متجمهرين يمرحون ؛ شريط القبعات مفكوك يلامس ربطات العنق ، الأحذية تغوص تحت التنانير الداخليّة ؛ كلهم يقفزن بإيقاع ؛ ديلورييه يشدّ إليه المرأة الصغيرة ، ومأخوذاً بجنون الكانكان ، راح يتعثر وسط مربّعات الرقص كدمية في مسرح العرائس سيزي وديسّردييه يكملان نزهتهما ؛ والأرستقراطيّ الشاب طامع بالفتيات ، لكنه ، بالرغم من حضّ الموظف له ، ما كان يجرؤ على التحدّث إليهن ، متصوراً أنّ لدى هؤلاء النساء ، دوماً ، « رجلاً مختبئاً في الدرج مع مسدس ، ومنه يخرج ليجعلك توقّع كمبيالة » .

عادا قرب فريدريك . توقّف ديلورييه عن الرقص ؛ وكلهم كانوا يتساءلون كيف إنهاء السهرة ، حين هتف هيسّونيه :

ـ عجباً ! مركيزة أماغي !

كانت امرأة شاحبة ، خانسة الأنف ، بقفّازات من دون أصابع

حتى الكوعين ، وأقراط سوداء كبيرة تنزل على طول الخدين ، كما أذني كلب . قال لها هيسّونيه :

ـ يجب إقامة عيد صغير عندك ، حفلة استقبال شرقيّة ؟ اهتمّي بأن تجمعي بعضاً من صديقاتك لهؤلاء الفرسان الفرنسيّين . وبعد ، ما يزعجك ؟ أتنتظرين نبيلاً إسبانيّاً !

خفضت الأندلسيّة رأسها . كانت تخشى ألاّ تكون الحفلة إلاّ لترطيب . أجوائه ، تعرف ، هي ، عادات صديقها القليلة البذخ . في الأخير ، حين لفظت كلمة : مال ، عرض سيزي خمس نابوليونيّات هي كل ما يملك .تقرّر الأمر . لكنّ فريدريك ما كان ، بعد ، هناك .

ظنّ نفسه عرف صوت أرنو ، لمح قبّعة امرأة ، فاختفى ، بسرعة ، في الغيضة المجاورة . كانت الأنسة فاتناز وحيدة مع أرنو .

ـ أعذرني ! هل أزعجك ؟

ـ اطلاقاً ! أجاب التاجر .

فهم فريدريك ، في آخر الحديث ، أنه أتى « الألهامبرا » ليرعى للآنسة فاتناز عملاً عاجلاً ، ويبدو أنّ أرنو لم يكن بعد واثقاً تماماً ، لأنه قال لها بصوت كئيب :

ـ أواثقة ، أنتِ ، تماماً ؟

ـ تمام الثقة ! آه ! يا لك من رجلٍ !

ومطّت شفتيها مقدّمة اياهما مكتنزتَين ـ مدمّاتين تقريباً لفرط احمرارهما . إنها ذات عينين رائعتين وحشيّتين مع نقاط ذهبية في البؤ بؤ ين ،مليئتين حياة ، حُبّاً وشهوة . تضيئان كما قنديلين ، وجهها

الضعيف يكاد يكون أصفر . بدا أرنو مسروراً بصدودها . انحنى صوبها قائلاً :

ـ لطيفة أنتِ ، قبّليني !

من أذنيه أخذته ، وقبّلت جبينه .

في هذه اللحظة ، توقّف الرقص ؛ وظهر في مكان رئيس الفرقة شاب جميل ، سمين جداً ، بياضه يشبه بياض الشمع . شعره أسود طويل منسدل على طريقة شعر المسيح ، يرتدي سترة مخمل أزرق سماوي ذات سعف مذهّبة، متكبّر المظهر كطاووس ، أبله كمغرور ، وبعدما حيا الجمهور ، شرع في أغنية . إنه قرويّ يروي رحلته إلى العاصمة ، بلكنة نورماندية سافلة ، كأنه رجل سكران .

وكانت أغنيته تثير الحماسة . إن دلماس « مغنٍّ معبّر » يعرف كيف لا يترك الجمهور يفتر . أعطوه بحيوية ، غيتاراً ، وراح ينتحب بأغنية عنوانها « شقيق الألبانيّة » .

ذكّرت الكلمات فريدريك بالكلمات التي كان غنّاها الرجل ذو الملابس الرثة في السفينة . عيناه تعلّقتا ، لا إراديّاً ، بأسفل الثوب الذي أمامه . بعد كل مقطع ، استراحة طويلة ، ـ وهبوب الهواء في الأشجار ، يشبه ضجة الأمواج .

كانت الآنسة فاتناز ، وهي تكشح بيدها أغصان شجرة الزينة ، التي كانت تحجب نظرها عن المنبر ، تتأمّل المغنّي ، بتركيز ، منخاراها مفتوحان ، حاجباها متقاربان ، كأنها مأخوذة في فرح حقيقي .

ـ حسناً ! قال أرنو . أفهم لماذا أنت ، هذا المساء ، في « الألهامبرا » ! يعجبك دلماس يا عزيزتي !

ما أرادت تبوح بشيء .

- آه ! يا للحشمة !

ومشيراً إلى فريدريك :

- هل بسببه ؟ أنتِ على خطأ . ليس أكتم منه !

الآخرون الذين كانوا يبحثون عن أصدقائهم ، دخلوا القاعة ذات الاخضرار . قدّمهم هيسّونيه . قدم أرنو ، إلى كل واحد سيجاراً وشراباً .

احمرّت الآنسة فاتناز إذ رأت ديسّردييه .

سريعاً ما قامت ، وإذ مدّت إليه يدها مصافحة :

- ألا تذكرني ، سيّد أوغيست ؟

- كيف تعرفها ؟ سأله فريدريك .

- كنا في المحل نفسه ! أجاب .

جذبه سيزي من قميصه وخرجا فور اختفائه ، راحت الآنسة فاتناز تمتدحه . وأضافت أنه يمتاز بموهبة الحب .

ثم دار الحديث عن دلماس ، الذي يمكنه ، كإيحائي ، أن يبرع في المسرح . وتبع هذا مناقشة اختلط فيها شكسبير ، بالرقابة بالابداع ، بالشعب ، بريع بوّابة - سان - مارتان ، بألكسندر ديما ، بفيكتور هيغو وديما رسان . وابتدأ أرنو بمواضيع مهمة فمال الشباب يستمعون إليه . لكن كلماته لم تكن واضحة لصخب الموسيقى ، وإذ انتهى الرقص المربّع أو البولكا ، أرتموا كلّهم على الطولات ، ينادون الصبّي ويضحكون . وبين الأوراق كانت تنتشر قناني البيرة وشراب الليمون الغازيّ ، ونساء تصرخن كالدجاج . وكنت ترى ، أحياناً ، رجلين

يريدان المصارعة . وجرى توقيف لص .

بعجلة غزا الراقصون الممرات . يتقاطرون لاهثين ، مبتسمين ، بوجوه حمراء ، في زوبعة ترفع الأثواب وأذيالها . تزأر الأبواق أقوى ، يتسارع اللحن . ووراء الرواق الذي من القرون الوسطى ، تُسْمَع خشخشة ومفرقعات ؛ فطفقت تدور شموس ، وللحظة ، أضاءت نار بنغاليّة ، زمرديّة اللون ، الحديقة كلّها ؛ ومع آخر صاروخ ، زفر الجميع نهدة كبيرة .

وببطء ، بدأوا ينسحبون . سحابة من بارود المدفع تطفو في الهواء . كان فريدريك وديلورييه يسيران خطوة خطوة ، وسط الجماعة ، حين استوقفهما مشهد : مارتينون يصرف نقوداً في مستودع المظلّات ، وهو يرافق امرأة خمسينيّة ، بشعة ، أنيقة اللباس ، ومن طبقة اجتماعيّة مشكوك فيها .

ـ هذا الشجاع ، قال ديلورييه ، هو أقلّ بساطة مما نظنّ . ولكن أين سيزي ؟

أشار ديسّردييه إلى الحانة ، حيث رأوا ابن الشُّهَماء ، أمام كوب من « البنش » برفقة قبّعة وردّية .

عاد هيسّونيه ، وكان غاب لخمس دقائق ، للظهور في اللحظة ذاتها .

تستند صبيّة إلى ذراعه ، وتناديه ، بصوت عالٍ ، « هرّي الصغير » .

ـ لا ! قال لها . لا ! ليس أمام الجمهور ! بل ناديني فيكونت ! هذا يعطيك صفة فارسة من طراز لويس الثالث عشر وجزمة ليّنة ، وهذا

يعجبني ! نعم ، ياحسنائي ، فارسة قديمة ! أليست لطيفة ! ـ أمسك ذقنها . ـ حبّي هؤلاء السادة ! كلّهم أبناء عظام فرنسا ! أخالطهم ليجعلوني سفيراً !

ـ كم أنت مجنون ! قالت الآنسة فاتناز .

طلبت إلى ديسّردييه أن يوصلها إلى منزلها .

نظر أرنو إليهما يبتعدان ، ثم استدار نحو فريدريك :

ـ أتعجبك الآنسة فاتناز ؟ لست صريحاً من هذه الجهة . أظن أنك تخفي عواطفك .

ـ أكمدّ لون فريدريك ، وأقسم أنه لا يخفي شيئاً .

ـ هذا لأننا لا نعرف لك عشيقة ، قال أرنو .

رغب فريدريك أن يذكر إسماً ، مطلق إسم . إنّما لربما رويت قصته . فأجاب أنه ، في الواقع ، لا عشيقة له .

استنكر التاجر ذلك .

ـ هذا المساء كانت المناسبة مؤاتية ! لماذا لم تتصرف كالآخرين يذهبون كلٌّ مع امرأة ؟

ـ وأنت ؟ قال فريدريك ، نافد الصبر لهذا الإلحاح .

ـ آه ! أنا ! ياصغيري ! الأمر مختلف ! أعود إلى جانب امرأتي !

طلب عربة واختفى .

سار الصديقان . وكان الهواء شرقيّاً . ما كانا يتحدثان . يأسف ديلورييه كونه لم ينجح عند مدير جريدة ، وفريدريك يستغرق في حزنه . قال أخيراً إنّ المرقص بدا له سخيفاً .

ـ خطأ مَن ، هو؟ إذا لم تتركنا بسبب أرنو .

ـ عجباً ! كل ما كان في إمكاني عمله يبدو ، تماماً ، بلا معنى !

لكنّ لكاتبِ المحامي نظريّات . يكفي ، للحصول على الأشياء ، أن تتمنّاها بقوّة .

ـ مع هذا ، أنت نفسك ، من لحظات . . .

ـ أسخر من ذلك تماماً ! قال ديلورييه ، موقفاً التلميح . هل سأقيّد نفسي بالنساء !

وهاجم لطفهن المتكلّف وغباءهن ؛ وبالإجمال لا تعجبه النساء .

ـ لا تتخذ واحدة ، إذن ! قال فريدريك .

صمت ديلورييه . ثم ، فجأة :

ـ أتراهن ، بمئة فرنك ، انني أواصل أولى من نصادف ؟

ـ نعم ! قبلت !

كانت المارة الأولى شحاذة كريهة ؛ وكانا بدءا يقنطان من الحظ عندما لمحا وسط شارع الرفولي ، فتاة طويلة القامة حاملة علبة كرتون صغيرة .

اقترب منها ديلورييه تحت القناطر , مالت ، بسرعة ، ناحية التويلري . ومشت إلى ساحة الفروسيّة ؛ راحت تتلفّت يميناً وشمالاً . ركضت قرب عربة فيكر ، حاذاها ديلورييه . مشى إلى جانبها وهو يحدّثها بالإشارات . قبلت ، أخيراً ، ذراعه ، وأكملا طوال الأرصفة . ثم ، تنزّها على الرصيف ، خلال عشرين دقيقة ، في الأقل ، حول الحصن الصغير ، كأنهما بحريّان يحرسان . لكنهما ،

فجأة ، اخترقا جسر « الشنج » ، سوق الأزهار ، ورصيف نابوليون . دخل فريدريك وراءهما . أفهمه ديلوربيه أنه قد يزعجهما ، وليس عليه إلا أن يحذو حذوه .

ـ كم معك ؟ بعد ؟

ـ ورقتان من فئة المئة فلس :

ـ هذا يكفي ! طبت مساءً !

عجب فريدريك كما لو أنه رأى مزحة نجحت : « يسخر مني ، فكّر في نفسه . لو عدت إليه ؟ » لربما ظنّ ديلوربيه أنه يحسده ؟ « كأن ليس لي حب ، مئة مرة أندر ، أشرف ، أقوى ! » شكل من الغضب راح يدفعه . وصل أمام باب السيّدة أرنو .

النوافذ الخارجية كانت مقفلة كلّها . مع ذلك ، ظلّت عيناه على الواجهة ، كما لو أنه ظن يستطيع تذويب الجدران . الآن ، ولا شك ، هي هادئة مطمئنة تستريح كزهرة نائمة ، بشعرها الأسود الجميل بين دانتيلا الوسادة ، شفتاها نصف مطبقتين ، ورأسها على ذراع . هي ذراع أرنو . ابتعد لينجو من هذه الرؤ يا .

عادت إلى ذاكرته نصيحة ديلوربيه ، كريهة رآها . وراح يتشرّد في الشوارع .

حين يتقدم سائراً ، كان يهتمّ بالتفرس في وجهه . بين وقت وآخر ، يمّر من بين قدميه شعاع نور ، يرسم على الأرض ربع دائرة ، ويظهر رجل في الظل ، بجزمته وفانوسه . في بعض الأمكنة ، الهواء يحرّك قساطل المدافىء ؛ وتتصاعد نغمات بعيدة تمتزج بطنين رأسه ، ويحسب نفسه سمع في الفضاء لازمة موسيقيّة لرقصة الكوريل . حركة مسيره ، تدل ، كانت ، على سكره . وجد نفسه على جسر

الكونكورد .

حينها ، استعاد ذكرى ذلك المساء ، في الشتاء الماضي ، ـ حين اضطر ، وهو خارج من عندها ، للمرة الأولى ، إلى التوقف لفرط نبض قلبه السريع ، تحت قبضة آماله . هذه الآمال ماتت كلها الآن .

تغطّي وجه القمر ، من وقت لآخر ، سحابات مظلمة . يقف يتأمّلها حالماً بوساعة المدى ، بشقاء الحياة ، بالعدم ، . ظهر النهار ، اصطكّت أسنانه ؛ وتساءل ، نصف نائم ، مبلّلاً بالضباب ، مليئة عيناه بالدموع : لماذا لا يُقدم على الانتحار ؟ لا شيء سوى حركة للتنفيذ ! ثقل جبهته يجرجره ، ، ورأى جثّته طافية على المياه ؛ انحنى فريدريك . كان الدرابزين عريضاً نوعاً ، ولتخاذله لم يحاول اجتيازه .

استولى عليه رعب . عاد إلى الشوارع العريضة وتراخى على مقعد . رجال من الشرطة أيقظوه ، مقتنعين أنه قد أتى فحشاء ما .

عاد يمشي . وإذ شعر بالجوع ، والمطاعم مقفلة جميعها ، ذهب يتعشّى في خمارة . بعدها ، وقد رأى أن الوقت ما يزال باكراً ، راح يتسكّع في ضواحي دار البلديّة ، حتى الثامنة والربع .

من زمان كان ديلوريه قد صرف آنسته . وكان يكتب على الطاولة ، في وسط الغرفة . حوالى الرابعة ، دخل السيّد دوسيزي .

هو ، بفضل ديسّردييه ، قابل سيّدة ، ورافقها ، في عربة ، وزوجها ، حتى عتبة بيتها ، حيث اعطته موعداً . ولكن لا أحد يعرف اسمها .

ـ ماذا تريدني أفعل ؟ قال فريدريك .

حينها ، طفق الرجل الطيّب يهذي . تحدّث عن الآنسة فاتناز ، عن الأندلسيّة ، وعن الأخريات كلّهن . أخيراً ، وبكثير من التلميح ، عرض هدف زيارته : واثقاً من كتمان صديقه ، أتى إليه يساعده في مسعى ، بعده ، يرى نفسه ، نهائياً ، رجلاً . وفريدريك ما رفضه . روى القصة لديلورييه من دون أن يقول الحقيقة في ما يخصّه هو .

رأى كاتب المحامي أنه ، الآن ، في وضع جيّد . هذه المراعاة لنصائحه ضاعفت بشاشته .

بشاشته هي ما أغرت ، منذ اليوم الأوّل ، الآنسة كليمنس دافيو ، مطرّزة الأمتعة العسكريّة بالذهب ، أجمل شخص ، رشيقة كقصبة ، عيناها كبيرتان زرقاوان ، مبهورتان دائماً . راح كاتب المحامي يبالغ في الحديث عن براءتها ، حتى جعله يظنّه وساماً . كان يزخرف سترته الطويلة ، بشريطة حمراء ، في مواجهاتها ، لكنه ينزعها أمام الجمهور ، لئلاّ يذلّ ربّ العمل ، كما يقول . في ما تبقّى ، يحتفظ بها على مسافة ، يستسلم للملاطفات كباشا ، ويناديها « ابنة الشعب » ، على طريقة المزاح . كل مرّة كانت تجلب له باقات صغيرة من بنفسج . ما رغب فريدريك في هكذا حبّ .

مع ذلك ، حين كانا يخرجان ، متخاصرين ، إلى مكتب بنسون أو باريلّو ، يحسّ بحزن متميز . ما كان فريديك يعرف كم من سنة ، كان آلَمَ ديلورييه ، كلّ خميس حين ينظّف أظافره قبل الذهاب للعشاء في شارع شوازيل !

ذات مساء ، من على شرفته ، رأى ، من بعيد ، هيسّونيه على

جسر الأركول . طفق البوهيميّ يناديه بالاشارات ، وإذ نزل فريدريك طوابقه الخمسة :

ـ إليك الأمر : السبت القادم ، ٢٤ من الشهر ، عيد السيّدة أرنو .

ـ كيف ذلك واسمها ماري ؟

ـ أنجيل أيضاً ، لا يهم ! سيحتفلون ببيتهم الريفي في سان ـ كلو ؛ مكلّف أنا بإبلاغك . ستجد مركبة في الثالثة ، عند الجريدة ! هكذا الاتفاق ! عفواً لإزعاجك . ولكن عليّ دورات كثيرة !

لم يكد فريدريك يعود على أعقابه ؛ حتى سلّمه البوّاب رسالة :

« السيّد والسيّدة دمبروز يسألان السيّد ف . مورو أن يشرّفهما بالعشاء عندهما السبت ٢٤ الجاري . ـ المرجو الجواب » .

« بعد فوات الأوان » ، فكّر بينه وبين نفسه .

مع ذلك ، فقد أظهر الرسالة إلى ديلورييه الذي هتف :

ـ آه ! أخيراً ! لكنك لا تبدو فرحاً . لماذا ؟

بعد تأرجح بسيط ، قال فريدريك إنّ لديه دعوة أخرى في اليوم نفسه .

ـ دع لي لذة إقصاء شارع شوازيل . إياك والحماقات ! سأجيب عنك ، إذا كان الأمر يزعجك .

وكتب كاتب المحامي موافقاً ، بصيغة الغائب .

يتصّور العالم ، وكان لا يراه إلا من خلال توهّج رغباته ، كمخلوق اصطناعي ، عامل بمقتضى القوانين الرياضية . عشاء في المدينة ، لقاء رجل صاحب مركز ، بسمة أمرأة جميلة ، كلّها تقدر أن

تتوصّل إلى نتائج مدهشة ، بعد سلسلة اسقاطات بعضها من بعض . بعض الصالونات الباريسيّة هي كالآلات التي تتناول المادة الخام وتجعلها ذات قيمة مئة مرة أكثر . كان يؤمن بالعاهرات اللواتي يرشدن الديبلوماسيّين ، بحفلات الزواج التي لم تحصل إلّا بعد مكائد ، بموهبة المحكومين بالأشغال الشاقة ، بانقياد القدر لسطوة الأقوياء . وطفق يجلّ معاشرة آل دمبروز المفيدة جداً ، وتكلّم عليها بحماسة مما جعل فريدريك يحتار في اختياره .

ما كان يريد أقلّ من هذا ، إذ إنه عيد السيّدة أرنو ، من أن يرسل إليها هديّة . فكّر ، بشكل طبيعيّ ، في مظلّة ليصلح خطأه . والحال أنه اكتشف مظلّة حريريّة متموّجة اللون ، ذات مقبض عاجيّ مرصّع ، آتية من الصين . لكن ثمنها مئة وخمسة وسبعون فرنكاً ولا يملك أيّ فلس ، ويعيش ، حتى ، على مال الفصل المقبل . ومع ذلك ، هو يريدها ، تمسّك بها ، وبالرغم من نفوره ، استنجد بديلورييه .

أجابه ديلورييه بأن لا مال معه .

- بحاجة أنا ، للمال ، قال فريدريك ؛ بحاجة كبيرة !

وإذ كرّر الآخر ، العذر نفسه ، غضب .

- كان في وسعك مرّات . . .

- ماذا ؟

- لا شيء !

وفهم ديلورييه . أخذ ، متحفّظاً ، المبلغ المطلوب ، وإذ نقّده قطعة قطعة :

- لا أطلب إليك إيصالاً ما دمت أعيش على نفقتك !

قفز فريدريك إلى عنقه يقبّله ويؤكد حبّه . بقي ديلوريه بارداً .

وفي الصباح قال عندما لاحظ المظلّة على البيانو :

ـ آه ! هذه !

ـ سأبعث بها ، قال فريدريك ببرود .

ساعده الحظ . حصل في المساء على ورقة أطرافها سوداء ، تعلمه بها السيّدة دمبروز بموت أحد أعمامها، وتعتذر لتأجيل اللقاء به .

وصل ، منذ الثانية ، إلى مكتب الجريدة ، لكن أرنو ، بدلاً من انتظاره لاصطحابه بعربته ، كان ذهب مساء البارحة ، إذ لم يعد يستطيع مقاومة حاجته للاستجمام .

هو ، كلّ سنة ، مع بروز الأوراق الأولى ، خلال بضعة أيام متتالية ، يرحل فجأة في نزهات طويلة عبر الحقول ، يشرب الحليب في المزارع ، يلهو ، كالأطفال ، مع القرويّات ، يستعلم عن المحاصيل ، ويجلب بقلا للسلطة . أخيراً ، ليحقق حلماً قديماً ، اشترى بيتاً في الريف .

في وقت كان يتحدّث فريدريك إلى الموظّف ، وصلت الآنسة فاتناز ، وخاب أملها إذ لم يكن أرنو موجوداً . سيبقى هناك يومين بعدما نصحها الموظّف بالذهاب ، ما كانت تستطيع ؛ بالكتابة إليه ، خشيت أن تضيع الرسالة . عرض فريدريك حملها بنفسه . كتبت رسالة على عجل ،وتوسّلت إليه أن يسلّمها دون أن يراه أحد .

بعد أربعين دقيقة ، نزل في سان ـ كلو .

كان البيت ، الذي على بعد مئة متر من الجسر ، وسط تلّة . يخفي ، جدران الحديقة ،صفّا زيزفون ، ومرجة خضراء واسعة تصل

إلى حدود الجدول . كان باب السياج مفتوحاً ، فدخل فريدريك .

كان أرنو مضطجعاً على العشب ، يلاعب جراء هرة صغار . تبدو هذه التسلية تستغرقه كلياً . أيقظته من غفلته رسالة الآنسة فاتناز .

ـ يا للشيطان ! هذا مضجر ! معها حق ؛ يجب أن أذهب .

وإذ دسّ الرسالة في جيبه ، سُرّ بأن يعرض له مسكنه . عرض له كلّ شيء ؛ الزريبة ، العنبر ، المطبخ ، الصالون إلى اليمين ، ومن ناحية باريس يُطلّ على طرق مزدوجة لعريش ، عليها ياسمين برّي . إنّما ، فوق رأسهما ، تصاعد تعاقب نغمات سريع . كانت السيّدة أرنو ، حاسبة نفسها وحيدة ، تتسلّى بالغناء .

تقسّم سلّم أنغام ، زغردات ، توقيعات متعاقبة سريعة . هناك نغمات كانت تبدو طويلة ، وأخرى سريعة كنقاط شلّال ؛ وصوتها ، النافذ من الشبّاك ، يقطع الصمت الطويل ، ويتصاعد صوب السماء .

فجأة توقّفت ، حين وصل السيّد والسيّدة أودري .

ثم ظهرت ، هي نفسها ، في أعلى درج المدخل . وبما أنها تنزل الدرج ، لمح قدمها . كان حذاؤ ها مكشوفاً ، من جلد أسمر ذهبيّ ، مثلّث اللسان بطريقة مستعرضة ، مما يرسم ، على جواربها ، تشبيكاً ذهبيّاً .

وصل المدعوّون . كانوا مدعوّي الخميس ، باستثناء السيّد لوفوشيه المحامي .

كلّ منهم جاء بهدّية ما : ديتّمر وشاح سوري ، روز نوالد ألبوم أغان عاطفيّة ، بوريولوحة مائيّة ، سومباز لوحة كاركاتورية تمثّله هو ،

وبيلّران لوحة بقلم الفحم تمثّل شكلاً من رقصة الأموات ، بتخيّل كريه وتنفيذ سيّء . هيسّونيه كان أعفى نفسه من كلّ هدّية .

انتظر فريدريك ليقدم هديته بعد الآخرين .

شكرته شكراً جزيلاً ، فقال :

ـ إنّما . . . هي تكاد تكون دَيْناً عليّ ! زعلت كثيراً .

ـ مماذا ؟ أجابت . لا أفهم !

ـ إلى المائدة ! قال أرنو ، وقد أخذه من ذراعه ، ثم همس في أذنه ! لست ماكراً إطلاقاً أنت !

لا شيء ، كان طريفاً مثل غرفة الطعام ، مدهونة بالأخضر المائي . في أحد أطرافها غادة من حجر مقطّسة إبهامها في حوض ماء على شكل صدفة . ونرى ، من النوافذ المفتوحة ، كل الحديقة مع المرجة المحاذية لصنوبرة اسكتلندية قديمة ، تكاد تكون عارية من الأوراق ؛ باقات من الأزهار تزيّنها بتفاوت ، وبعد النهر تمتد ، بنصف دائرة واسعة ، غابة بولونيا ، نويّي ، سيفر ، ميدون . أمام السّور ، في المقابل ، زورق شراعيّ يتموّر .

دار الحديث أوّل الأمر عن هذا المنظر ، ثم عن المنظر بشكل عام . وبدأت المناقشات حين أصدر أرنو أمره للخادم بتحضير العربة (خفيفة بدواليب أربعة ، يجرّها جوادان) في حوالى التاسعة والنصف . هناك رسالة من أمين صندوقه تستدعيه .

ـ أتريدني أعود معك ؟ قالت السيّدة أرنو .

ـ بالتأكيد ! وأضاف بعد تحيّتها تحيّة جميلة : تعرفين جيّداً ، سيّدتي ، انني لا أستطيع عيشاً بدونك !

كلّهم هنّأوها على هذا الزوج الطيّب .

ـ آه ! هذا لأني لست وحيدة ! أجابت بلطف ، وهي تدلّ على ابنتها الصغيرة .

وإذ عادت الأحاديث إلى الرسم ، تحدّثوا عن واحد اسمه روسدايل ، يأمل منه أرنو مبالغ محترمة ، وسأله بيلّران إذا كان ، فعلاً ، سول ماتياس العظيم،قد جاءمن لندن الشهر الماضي يقدّم إليه ثلاثة وعشرين ألف فرنك .

ـ صحيح جداً ! وإذا استدار ناحية فريدريك : إنه السيّد الذي كنت أنزّهه ذاك اليوم ، في « الألهامبرا » رغماً عنّي ، أؤ كدّ لك ، لأن هؤلاء الانكليز ليسوا فكهين !

كان فريدريك ، الذي اشتبه بحكايةٍ ما ، نسائية ، في رسالة الآنسة فاتناز ، قد أُعجب بلباقة السيّد أرنو في إيجاد مخرج شريف لهربه . لكنّ كذبته الجديدة ، ولا لزوم لها أبداً ، جعلته يحملق .

فأضاف التاجر ، بشكل بسيط :

ـ ما اسم صديقك ، ذاك الشاب الكبير ؟

ـ ديلورييه ، قال فريدريك بحيويّة .

وليصّحح بعض أخطاء يأخذها عليه ، امتدحه كشاب متفوّق الذكاء .

ـ حقاً ؟ إنّما لا يبدو شاباً طيّباً كما الآخر موظّف النّقْل .

لعن فريدريك ديسّردييه . قد تحسبه السيّدة أرنو يصادق الناس الشعبيّين .

بعدها سأل عن تحسينات العاصمة ، والأحياء الجديدة ، وذكر

السيّد أودري ، بين كبار المضاربين في التجارة ، السيّد دمبروز .

قال فريدريك ، مستغلاً الفرصة ليجعل نفسه ذا شأن ، إنه يعرفه . لكنّ بيلّران انطلق في نقد لاذع ضدّ العطّارين ، بائعي شموع كانوا أو فضة ، لا فرق. راح أرنو يتحدّث في بستنة الحدائق مع السيّدة أودري ، أمّا سومباز ، المهرّج من المدرسة القديمة ، فطفق يتندّر عن زوجها ، يدعوه أودري كالممثّل ، يجب أن يكون متحدّراً من أودري ، رسّام الكلاب ، لأنّ دمغة الحيوانات بارزة على جبينه . أراد ، حتى ، أن يجسّ له رأسه ، امتنع الآخر بسبب شعره المستعار . وانتهى وقت التحلية على صخبٍ من الضحك .

بعد شرب القهوة ، تحت الزيزفون والتدخين وبضع دورات في الحديقة ، تمّ الانتقال للتنزّه على طول النهر .

توقفوا أمام صيّاد ينظف أنقليساً ، في مسمكة . أرادت الآنسة مارت أن ترى . أفرغ علبته على العشب ، فارتمت الفتاة لتلتقطها ، صارت تضحك لذّة ، وتصرخ هلعاً . ضاعت جميعها . فدفع ثمنها أرنو .

رغب ، بعد هذا ، في نزهة بالزورق .

جهة ، من الأفق ، كانت بدأت تحمرّ ، بينما من الجهة الأخرى ينتشر لون ليموني واسع في السماء ، وكان أرجوانياً على قمم التلال وقد صارت سوداء ، كانت السيّدة أرنو جالسة على حجر ضخم ، ووراءها هذا الضوء كأنه لحريق . الآخرون ، يتسكّعون هنا وهناك ؛ هيسّونيه ، في أسفل الزورق الضيّق ، يقفز إلى الماء .

عاد أرنو يتبعه زورق إنقاذ ، كدّس فيه مدعوّيه ، برغم

الملاحظات الحكيمة . أظلمت ، فصارت عودتهم ضروريّة .

كانت الشموع مضاءة في الصالون المزرورق ، وفيه شماعدين مشعّبة معلّقة بالجدران . الأم أودري تهجع ، هانئة ، في كرسيّ مريح ، والآخرون يستمعون إلى السيّد لوفوشيه متحدّثاً عن أمجاد المحاماة . وحدها السيّدة أرنو ، قرب النافذة . توجه صوبها فريدريك .

تحدّثا عن الموضوع المطروح . هي معجبة بالخطباء . هو يفضّل مجد الكتّاب . ولكن يجب أن نشعر ، قالت ، بلذة تحريك الجماهير ، أن ننقل إلى نفوسهم كل ميولنا . هذه الانتصارات لم تكن قط لتراود فريدريك ، الذي لا طموح له .

ـ آه ! لماذا ؟ قالت . يجب أن يكون لك ولو القليل منه .

كانا متحاذيين ، واقفين عند النافذة . يمتد أمامهما الليل كوشاح هائل مظلم ، مرصّع بالفضّة . للمرة الأولى هما لا يتحدّثان في مواضيع لا معنى لها . فقد عرف ، حتى ، ما تكره وما تحبّ : بعض العطور تؤذيها ، تهمّها كتب التاريخ ، وتؤمن بالأحلام .

اقتحم فصل المغامرات العاطفيّة . شكت بلايا الرغبة ، لكنها ثارت على الدناءات الخبيثة . واستقامة الروح هذه ، تتوافق ، تماماً ، مع جمال وجهها المتناسق إلى حدّ تبدو متعلّقة به .

تبتسم مرات مركّزة عينيها عليه ، لدقيقة . يشعر ، حينها ، أن نظرتها تخترق أعماقه ، كأشعّة الشمس العظيمة التي تنزل إلى عمق المياه . من دون قصد سيّء ، يحبّها من دون أمل العودة ، إطلاقاً . وفي فورانه الصامت ، الشبيه بانطلاقات العرفان ، أراد اغراق جبينها بوابل

من القبلات . في هذه الأثناء ، كأن انتفاضة حملته خارج ذاته ؛ انها رغبة بالتضحية ، حاجة ، مباشرة ، للإخلاص ، قويّة إلى حدّ لا يمكنه إشباعها .

ما ذهب مع الآخرين ، ولا هيسّونّيه . سيعودان ، مع عائلة أرنو ، بالعربة . كانت هذه العربة تنتظر عند أسفل درج المدخل ، حين نزل أرنو إلى الحديقة يقطف وروداً . وإذ حزم الباقة بخيط ، لاحظ أن سوقها متفاوتة الطول ، فبحث في جيبه المليئة بالأوراق ، أخذ واحدة كيفما اتفق ، وغلّفها بها وأمسكها بدبّوس وقدّمها إلى زوجته ، مع شيء من الحنان .

ـ هذه لك ، حبيبتي ، أعذريني لكوني نسيتك !

لكنها صرخت صرخة بسيطة ، كان الدبّوس ، الموضوع بغباء ، قد جرحها ، وعادت إلى غرفتها . انتظروها حوالى الربع ساعة . ظهرت أخيراً ، حملت مارت ، وارتمت في العربة .

ـ وباقتكِ ؟ قال أرنو .

ـ لا ! لا ! ليس الأمر مهمّاً !

ركض فريدريك يأتي بها ، هتفت له !

ـ لا أريدها !

لكنه سريعاً ما عاد بها ، قائلاً إنه أعاد وضعها في الغلاف لأنه وجد الأزهار أرضا . أغرقتها في جيب المقعد الجلدي ، وانطلقوا .

لاحظها فريدريك ، وكان جالساً بجانبها ، ترتجف بشدة . وإذ اجتازوا الجسر ، انحرف أرنو شمالاً :

ـ ولكن لا ! إنك تخطىء ! من هنا ، إلى اليمين !

بدت غاضبة . كل أمر يزعجها . أخيراً ، غفت مارت ، فأخذت الباقة ورمتها خارجاً ، ثم أمسكت فريدريك من ذراعه ، وأشارت إليه بالأخرى ، ألّا يتحدّث عنها .

بعدذلك ، أطبقت بمحرمتها على شفتيها ، وما عادت تتحرّك .

الآخران ، على المقعد ، يتحدّثان عن الطباعة والأشتراكات .

ضاع أرنو ، وكان يقود من دون انتباه ، وسط غابة بولونيا . راحوا يبتعدون في دروب صغيرة . يمشي الحصان ببطء ، وأغصان الأشجار تلامس غطاء العربة . ما كان فريدريك يلاحظ ، من السيّدة أرنو ، إلّا عينيها . مارت ممدّدة في حضنها ، وهو يحمل لها رأسها .

ـ هي تتعبك ! قالت أمّها .

أجاب :

ـ أبداً ! أبداً !

زوابع غبار بطيئة ارتفعت كانوا يدخلون أوتوي . كل البيوت مقفلة . قنديل ، هنا وهناك ، ينير زاوية جدار ، ثم يدخلون الظلمات . ولاحظ ، مرّة ، أنها تبكي .

هل هو ندم ؟ رغبة ؟ ماذا إذن ؟ تهمّه ، هذه الكآبة التي لا يعرف سببها ، كأمر شخصي . صار الآن بينهما نوع من المشاركة ، فقال لها بألطف ما استطاعه من صوت :

ـ تتألّمين ؟

ـ نعم ، إلى حدّ ما ، أجابت .

العربة تدور ، والنباتات التزيينيّة من زهر العسل والسرنجة ، تطفو في أسوار الحدائق ، تنشر ، في الليل ، هبّات عطر موهية . ثنيات

فستانها الكثيرة تغطي قدميها . بدا له أنهما يتواصلان بواسطة جسد القناة المدّد بينهما . انحنى ناحية البنت الصغيرة . أزاح شعرها الداكن الجميل ، وقبل جبينها ، متمهّلاً .

- أنت رجل طيّب ! قالت السيّدة أرنو .

- لماذا ؟

- لأنك تحبّ الأطفال .

- ليس كلّهم !

وما أضاف شيئاً ، لكنه مدّ يده اليسرى صوبها وتركها ممدودة ، على آخرها ، - متصّوراً أنها ، ربما ، ستحذو حذوه ، ويلتقي يدها . ثم خجل وسحب يده .

ووصلوا إلى الطريق . صارت العربة أسرع ، تضاعفت قناديل الغاز ، إنها باريس . وأمام مستودع الأثاث ، قفز هيسّونّيه عن المقعد . انتظر فريدريك الوصول إلى الساحة ، لينزل . ثم ترصّد ، في زاوية من شارع شوازيل ، ورأى أرنو يسير متمهّلاً صوب الشوارع العريضة .

ومنذ صباح اليوم التالي ، أكبّ على العمل بكلّ قواه .

وراح يرى نفسه في محكمة الجنايات ، في مساء شتائي ، عند نهاية المرافعات ، حين المحلّفون شاحبون ، والجموع اللاهثة تقرع حواجز المحكمة . متحدّثاً منذ أربع ساعات ، ملخّصاً كلّ براهينه ، كاشفاً سواها ، وشاعراً مع كلّ عبارة ، مع كل كلمة ، مع كل حركة ، بشفرة المقصلة ، المعلّقة وراءه ، ترتفع ؛ ثم ، على منبر المحكمة ، خطيباً يحمل على شفتيه خلاص شعب بكامله ، مغرقاً خصومه بتأثير تشخيصاته ، محطّماً إيّاهم بأجوبة سريعة لاذعة ، بصواعق ونبرات

موسيقيّة بصوت ساحر ، مؤثّر ، نزق ، سامٍ . وستكون ، هي ، هنا ، في مكان ما ، وسط الآخرين ، مخبّئةً ، بوشاحها ، دموع الحماسة ؛ ثم يتلاقيان ؛ ولن يعرف وهن العزيمة ولن تؤثّر فيه الافتراءات والشتائم ، شرط أن تقول له : « آه ! كم هذا جميل ! » وهي تمد يديها الناعمتين تلامس منه الجبين .

تومض هذه الصور كمنارات في أفق حياته . روحه صارت في التهابها، أكثر رشاقة وأكثر قوّة. اعتزل حتى آب ونجح في امتحانه الأخير.

عجب ديلورييه من تدفّقه حماسة ، وكان طالما شقي ليلقّنه ، مرة بعد ، المادة الثانية في نهاية كانون الثاني ، والثالثة في شباط . خلال عشر سنين يجب أن يكون صار نائباً ، وزيراً ، خلال خمس عشرة ؛ لِمَ لا ؟ يستطيع ، بميراثه الذي سوف يحصل عليه قريباً ، أن يؤسّس جريدة . تكون هي البداية . بعدها ، نرى ، وبالنسبة إليه ، هو دائم الطموح لمركز أستاذ في مدرسة الحقوق ، وناقشت أطروحة الدكتوراه بطريقة مميّزة ، جعلت الأساتذة يهنّئونه .

ونجح فريدريك بأطروحته بعد أيام ثلاثة . وقبل أن يذهب في العطلة ، جاءته فكرة نزهة في الهواء الطلق ليختتموا اجتماعات السّبت .

بدا فرحاً . فالسيّدة أرنو هي الآن في شارتر ، قرب أمّها . لكنه سيجدها قريباً ، وينتهي بأن يصبح عشيقها .

قُبل ديلورييه ، في اليوم ذاته ، كمتدّرج في تمرين الخطابة في أورساي ، ألقى خطاباً صفّقوا له كثيراً . وبرغم كونه زاهداً ، فقد انتشى ، وقال لديسّردييه في وقت التحلية :

ـ نبيلٌ أنت ! حين أصبح غنيّاً ، سأعيّنك وكيل أعمالي .

كانوا جميعهم سعداء . سيزي لن ينهي دراسة الحقوق . مارتينون سيُكمل تدرّجه في الإقليم حيث سيعين قائمقاماً . بيلّران سيهتم بلوحة كبيرة تمثّل عبقريّة الثورة . وفي الأسبوع المقبل سيقرأ هيسّونيه على مدير تحرير «الديلاسّمان Délassements» ، تصميم مسرحيّة ، ولا يشكّ في النجاح :

ـ لأن حبكة الدراما تنسجم معي ! أكثرت من الأسفار لأختبر الآلام . وبالنسة للنكت والطرائف ، فهي مهنتي !

وقفز ، واقعاً على يديه ، ماشياً عليهما حول المائدة ، ورجلاه في الهواء .

ما أسرّت سينيكال ، هذه الشقاوة . فهو قد طُرد لتوّه من مدرسته ، لكونه ضرب ابن ارستقراطي . وازداد شقاؤه ، لأنه عومل على أساس طبقي ، فصار يكره الأغنياء ويلعنهم ؛ وأفصح بحريّة إلى ريجمبار الذي كان خائب الظن أكثر فأكثر ، مكدّراً ، مشمئزاً . استدار « المواطن » ، الآن إلى الأسئلة المتعلّقة بالموازنة وراح يشكو بطانة الحكّام وكيف تبذّر الملايين في الجزائر .

وبما أنه لم يكن يستطيع النوم من دون التوقّف في حانة ألكسندر ، فقد اختفى منذ الحادية عشرة . تأخّر الآخرون بعد ذلك الوقت ، وإذ كان فريدريك يودع هيسّونيه ، عرف أنّ السيّدة أرنو قد تكون عادت ليلة أمس .

توجه إلى مكتب السفريات يؤجل سفره ، وحوالى السادسة مساء وصل إلى عندها . أخبره الحاجب أنّ عودتها أُرجئت أسبوعاً .

تعشّى فريدريك وحيداً ، ثم راح يتسكّع في الشوارع .

غيمات وردية ، على شكل وشاح ، كانت تمتد فوق السطوح ؛ بدأوا يرفعون خِيم المحلاّت ، وطنابر الريّ شرعت تسكب مياهاً كالمطر فوق الغبار ، وامتزجت ، نداوة غير منتظرة ، بتشعّع المقاهي التي تريك ، من أبوابها المفتوحة ، بين الفضيات والأواني المذهّبة ، باقات أزهار تتراءى في الزجاج العالي . تمشي الجموع ، على مهل . كان ، هناك ، جماعات من الرجال يتحدّثون على الرصيف ، ونساء يتهادين بليونة في العيون وسحنة الكاميليا التي يُضيفها ، على أجساد النساء ، تعب القيظ . شيءٌ ما ، ضخم ، ينحني ، يلفّ المنازل . ولا مرّة بدت له باريس على هذا الجمال . وما كان يرى ، مستقبلاً ، إلاّ سلسلة سنوات لا متناهية مليئة بالحبّ .

توقف أمام مسرح بوّابة ـ سان ـ مارتان ، يتأمّل الملصق . ولأنه بلا عمل ، اشترى بطاقة دخول .

كانت تقدّم مسرحيّة جنّ . المشاهدون قلّة . في كوى المقصورة العليا ، يتجزّأ النور في مربعات صغيرة زرقاء ، بينما مسارج صف الأنوار كانت تشكّل صفاً واحداً من أضواء صفراء . يعرض المشهد سوق عبيد في بكّين ، مع أجراس صغيرة ، وطبلات ، وسلطانات ، وقبّعات مروّسة وأعواد هنديّة طيّبة الرائحة . وإذ أُسدل الستار ، هام في الصالة وحيداً ، فأُعجب بعربة لاندو خضراء ، في الشارع ، عند أسفل درج المدخل ، مقطورة إلى حصانين أبيضين ، يمسكهما حوذي ذو سروال قصير .

كان يعود إلى مكانه حين ، في مقعد من صدر المسرح ، دخلت

سيّدة وسيّد . الزوج ذو وجه شاحب ، يحمل لحية رمادية ، زراً وردياً في وسام عسكريّ ، ومظهر بارد يُنسب للديبلوماسيّين .

تصغره زوجته بعشرين عاماً ، على الأقلّ ، متوسّطة القامة والمظهر ، شعرها أشقر ملولب على النمط الإنكليزي ، ترتدي فستاناً ذا صدار مسطّح ، وتحمل مروحة عريضة بدانتيلاّ سوداء . كي يأتي مثل هؤلاء إلى المسرح في هذا الفصل ، ويجب افتراض صدفة ، أو الضجر من قضاء أمسية على انفراد . كانت المرأة تعض مروحتها ، ويتثاءب السيّد . ما استطاع فريدريك تذكّر أين رأى هذا الوجه .

في الاستراحة التالية ، إذ كان يجتاز ممشى ، التقاهما . حيّاهما تحيّة حائرة ، عرفه السيّد دمبروز ، فدنا منه واعتذر ، مباشرة ، عن إهمالات لا تُغْتَفَر . كان هذا تلميحاً إلى بطاقات عديدة أرسلها بناء لرغبة كاتب المحامي . غير أنه يخلط بالزمان ، ظاناً أنّ فريدريك في سنته الثانية من دراسة الحقوق . ثم حسده لذهابه إلى الريف . بحاجة ، هو ، للراحة ، لكن الأعمال تقيّده بباريس .

مالت السيّدة دمبروز ، مستندة إلى ذراعه ، برأسها قليلاً . رقة وجهها المرهفة تتناقض مع كآبتها للحظاتٍ مضت .

ـ نجد فيها ، مع ذلك ، تسليات جميلة ! قالت ، عند آخر كلمات زوجها . كم سخيفة هذه المسرحية ! أليس كذلك ، يا سيّد ؟

وظلّوا واقفين يتحدّثون عن المسرح والمسرحيّات الجديدة .

كان فريدريك معتاداً تقطيبات البورجوازيات الريفيّات ، فما وجد ، عند واحدة منهنّ ، هذه العفوية ، هذه البساطة التي هي تهذيب ، ويرى ، فيها البسطاء تعبيراً عن انجذاب فوريّ .

اعتمد عليه ، عند عودته . حمّله السيّد دمبروز تحيّاته للسيّد روكّ .

ما تأخّر ، في العودة ، في أن يخبر ديلورييه عن هذا الاستقبال .

ـ رائع ! أجاب كاتب المحامي ، ولا تترك أمّك تأسرك ! عُد بسرعة !

في الصباح التالي ليوم عودته ، وبعد الغداء ، اصطحبت السيّدة مورو إبنها إلى الحديقة .

هي سعيدة ، تقول ، لرؤيته في مركز جيّد ، إذ ليسا غنيّين كما يُرَى . لا تعود الأرض بشيء ، وفير ، ولا يدفع المزارعون شيئاً ذا بال ؛ حتى انها اضطرت إلى بيع عربتها . أخيراً ، شرحت له وضعها .

في أوائل عقبات ترمّلها ، أقرضها رجل ماكر ، هو السيّد روكّ ، مالاً ، تجدّدت القروض وطالت ، رغماً عنها . أتى يطلب ماله فجأة . خضعت لشروطه ، وباعته ، بثمن بخس ، مزرعة برال . بعد عشر سنين اختفى رأس مالها بإفلاس صاحب مصرف في مِلين . ولأنها تخاف الرهونات العقاريّة ، وحفاظاً على مظاهر ضروريّة لمستقبل ابنها ، أمالت أذنها ، مرة بعد ، إلى السيّد روكّ . لكنها هذه المرّة دفعت دينها . وبالإجمال ، فقد بقي لهما دخل يقارب العشرة آلاف فرنك ، منها ألفان وثلاثمئة له ، كلّ ميراثه !

ـ هذا غير معقول ! صرخ فريدريك .

هزّت برأسها أن الأمر معقول جداً .

ولكن ، هل عمّه سيترك له شيئاً ؟

لا شيء أكيداً !

ودارا في الحديقة ، صامتين . أخيراً ، ضمّته إلى صدرها ، وبصوت تخنقه الدموع :

ـ آه ! يا ولدي المسكين ! لكم تخلّيتُ عن أحلام كثيرة !

جلس على المقعد ، في ظل شجرة الأكاسيا الكبيرة .

كانت تنصحه بأن يعمل كاتب محام عند برو هارام المحامي ، هذا يتخلّى له عن مكتبه . وإذا ما جعله مهمّاً ، يستطيع بيعه ، ويتخذ قراراً مناسباً .

ما عاد فريدريك يسمع . راح ينظر ، بآليّة ، من فوق الحاجز ، إلى الحديقة الأخرى ، المجاورة .

كانت هناك فتاة وحيدة ، في حوالى الثانية عشرة ، شعرها أحمر . مخصّرها الرمادي يترك كتفيها عاريتين ، ذهّبتهما الشمس قليلاً . بقع مربّى تلطّخ تنّورتها البيضاء ؛ تبدو عصبيّة ورقيقة . أدهشها ، ولا شكّ ، وجود مجهول ، لأنها توقفت فجأة وبيدها مرشتها ، ترشقها بخوخ شائك أخضر ـ أزرق صافٍ .

ـ هي ابنة السيّد روكّ ، قالت السيّدة أرنو . لقد تزوّج خادمته وأقرّ نسبة الابنة إليه .

VI

مفلس ! مسلوب ! ضائع !

بقي على المقعد ضائعاً كمن أصابته صدمة يلعن الحظّ أراد أن يضرب أحداً ما ؛ وليقوّي يأسه ، أحسّ تثقله الاهانة ، الفضيحة ؛ - تصور ، كان ، أنّ ثروته الأبويّة ستبلغ يوماً دخلاً يوازي خمسة عشر ألفاً ، وألمح بهذا ، كان ، إلى آل أرنو . سيُعْتَبَر ، إذن ، متشدّقاً ، مضحكاً ، سوقياً وضيعاً ، دخل عالمهم على أمل استفادةٍ ما ! وهي ، السيّدة أرنو ، كيف رؤيتها الآن ، من بعد ؟

على كل حال ، هذا غير ممكن إطلاقاً ، بهذا الدخل الذي من ثلاثة آلاف فرنك ! بات لا يستطيع البقاء في الطابق الرابع ، وأن يكون خادمه البوّاب ، والحضور بقفّازات بائسة سوداء ازرقّت أطرافها ، وقبّعة ضخمة ، والسترة نفسها طوال السنة . لا ! لا ! مستحيل ! مع ذلك ، فالحياه لا تطاق بدونها . كثيرون يعيشون جيداً بدون أن تكون لهم ثروة ، ديلوربيه منهم ؛ - ورأى حالهُ جباناً في أن يعلّق أهمية كهذه على أشياء تافهة . ربما ضاعف الفقر كفاياته . تحمّس إذ فكّر بالرجال العاملين في السقائف . روحية كما التي للسيّدة أرنو ، تعجب بمشهد كهذا ، ويرقّ قلبها . وهكذا ، تحوّلت الكارثة إلى سعادة . كشفت له

غنى طبيعته ، كما تكشف الهزّات الأرضيّة الكنوز . ولكن ، لا مكان في الدنيا لاستثمارها ، إلاّ باريس ! ففي اعتقاده ، الفنّ والعلم والحبّ (هذه الوجوه الثلاثة لله ، حسب بيلّران) تتعلّق ، حتماً ، بالعاصمة .

ومساءً ، أعلن لأمّه عزمه العودة إلى باريس . فوجئت وسخطت . هذا جنون ، وسخف . الأفضل اتّباع نصائحها ، أي البقاء في مكتب قربها . رفع فريدريك كتفيه : ـ « لست جادة ! » ـ إذ رأى نفسه مهاناً بهذا العرض .

حينها ، استعملت المرأة الطيّبة طريقة أُخرى . راحت ، بصوت حنون ، وبعض شهقات بسيطة ، تحدّثه عن وحدتها ، عن شيخوختها ، عن تضحياتها لأجله . الآن ، وهي أكثر تعاسة ، يتركها . ثم ، ملمّحة إلى نهايتها القريبة :

ـ القليل من الصبر ، يا إلهي ! قليلاً وتكون حراً !

كان هذا النواح يتكرر عشرين مرة في النهار ، خلال ثلاثة أشهر . وفي الوقت عينه ، تثيره بهجات المنزل . هو ينعم بسرير ناعم ، وفوط غير ممزّقة ؛ ومع كونه سئماً ، عصبيّاً ، خاسراً ، أخيراً ، بقوة العذوبة الغريبة ، ترك نفسه ينقاد عند المحامي بروهارام .

لم يظهر لا علماً ولا كفاءة . كانوا اعتبروه ، حتى الآن ، كشاب ذي وسائل كثيرة ، يجب أن يكون فخر المحافظة . فكان خيبة أمل شعبيّة .

أوّل الأمر ، قال في نفسه : « يجب إبلاغ السيّدة أرنو ، وخلال أسبوع ، راح يفكّر في رسائل تقريظية ، ورسائل قصيرة ذات أسلوب رشيقٍ سامٍ . إنّما الخوف من البوح بوضعه يؤخّره . ثم ظنّ أنه الأحسن

الكتابة إلى الزوج . أرنو يفهم الحياة ، ويعرف كيف يفهمه . أخيراً ، بعد تأرجح خمسة عشر يوماً :

« عجباً ! يجب ألاّ أراهم من جديد ؛ لينسوني ! أقلّه ، لا أكون انحططت في ذاكرتها ! لربما تحسبني متّ ، وتأسف عليّ . . . » .

وبما أنه كان يقرّر بسرعة ، فقد أقسم على ألاّ يعود إلى باريس ، وحتى على ألاّ يستعلم عن السيّدة أرنو .

ومع هذا كان يأسف حتى لرائحة الغاز ولفوضى عربات النقل العام . كان يحلم بكلّ الكلمات التي قالتها له ، برنة صوتها ، بنور عينيها ، ـ ولأنه حسب نفسه كرجل ميت ، ما عاد يعمل شيئاً ، إطلاقاً .

متأخراً يستيقظ ، وينظر للغاية . من النافذة مرور العربات وسائقيها . الستة الأشهر الأولى كانت كريهة .

وفي بعض الأيّام ، يأخذه غضب على ذاته ، فيخرج . يذهب إلى الحقول نصف المغطاة في فصل الشتاء بفيضان السّين . تقسمها صفوف من الحور . هنا وهناك جسر ما ، صغير ، يُبنى . يشرد حتى المساء ، مقلّباً الأوراق الصفراء بقدميه ، متنشّقاً الضباب ، قافزاً فوق الحفر .بقدر ما تنبض شرايينه أقوى ، تستفيق فيه رغبات عمل حانق . يريد أن يكون صياداً في أميركا أن يخدم باشا في الشرق ، أن يبحر كبحّار ؛ وينفث كآبته في رسائل طويلة إلى ديلورييه .

كان هذا يكافح ليشقّ طريقه . سلوك صديقه الجبان ، ونواحه الدائم ، ظهرا له بلا معنى . وسريعاً ما صارت مراسلاتهما شبه متوقّفة . كان فريدريك أعطى كلّ أثاثه إلى ديلورييه ، الذي حافظ على

المسكن . كانت أمّه تحدّثه عنه ، مرّات ، أخيراً ، ذات يوم أعلن أنه أهداه ، ووبّخته حين تلقّى رسالة .

ـ ما بك ؟ قالت ، ترتجف ؟

ـ لا شيء ! أجاب فريدريك .

كان ديلورييه يخبره بأنه استقبل ، عنده ، سينيكال ، ومنذ خمسة عشر يوماً ، هما يعيشان معاً . فسينيكال هو ، الآن ، بين الأشياء التي من عند أرنو ! يستطيع بيعها ، التعليق عليها ، والمزاح .أحسّ نفسه مجروحاً حتى أعماق النفس . صعد إلى غرفته . كان يتمنّى الموت .

نادته أمّه . تريد استشارته حول زراعة في الحديقة .

هي تشبه بستاناً إنكليزيّاً ، مقسوماً ، في نصفه ، بسياج قضبان ، ويمتلك نصفه السيّد روكّ ، المالك أيضاً ، آخر ، على حدود النهر . الجاران متخاصمان ، فكانا يتجنّبان الظهور في الساعات ذاتها . إنّما ، بعد عودة فريدريك ، طفق الرجل يتنزّه أكثر من ذي قبل ولا يبخل باللياقات تجاه ابن السيّدة مورو . شكا إليه سكناه مدينة صغيرة . ويوماً أخبره أنّ السيّد دمبروز كان سأل عن أخباره . ومرة أخرى استرسل في عادة شرب الشمبانيا ، حين بدأ بطنه يجعله من الوجهاء !

ـ في هذا الوقت ، كان في أمكانك أن تصبح سيّداً ؛ فأمّك كانت تدعى دوفوفان . ويا ماقيل ! انه جدير بالعناية ، إسم كبير ! على كل حال ، أضاف ، ناظراً إليه بخبث ، هذا يعود إلى وزير العدل .

هذا الغرور بالأرستقراطيّة ، يتوافق ، بغرابة ، مع شخصه . ولأنه قصير ، كانت سترته الكستنائية الضخمة تبالغ في إظهار طول

جذعه . وحين ينزع كاسكيته ، فأنت تلاحظ وجهاً يكاد يكون نسويّاً مع أنف مروّس كثيراً ؛ شعره الأصفر كأنه مستعار ، يحيي الناس بخفوت وهو يلامس الجدران .

حتى الخمسين من سنواته ، كان اكتفى بخدمات كاترين ، ابنة « اللورين » التي من سنه ، والتي فيها آثار واضحة للجدري . إنّما ، حوالى سنة ١٨٣٤ ، أتى ، من باريس ، بشقراء ، جميلة ، ذات وجه غنميّ و « جسد ملكي » . وسريعاً ما صارت تُرى تتبختر ، بأقراط كبيرة ، وعُرف كل شيء بولادة فتاة سمّيت إليزابيت ـ أوليمب ـ لويز روك .

كاترين ، في حسدها ، كانت تتوقع أن تكره الفتاة . على العكس ، فقد أحبّتها . أحاطتها بالعناية ، بالإنتباه والمداعبات ؛ وكان الأمر سهلاً للحلول محلّ أمّها وجعلها كريهة ، لأنّ السيّدة إليونور تُهمِل الصغيرة ، كليّاً ، مفضّلة الثرثرة عند التجار . منذ اليوم التالي لزواجها ، قامت بزيارة مقرّ وكيل الوالي ، أعادت الكلفة بينها وبين الخدم ، وظنّت أنه من الأفضل أن تبدو قاسية مع ابنتها . تحضر دروسها ، وكان الأستاذ بيروقراطيّاً هرماً من العُمدة ، فما يعرف كيف يتصرف . تتمرّد التلميذة فتُصْفَع وتروح تبكي في حضن كاترين التي تجعل ، دوماً ، الحقّ بجانبها . تتقاتل المرأتان ، ويأتي السيّد روكّ ، يُسْكِتهما . كان تزوّج محبّة بابنته ، ولا يريد إزعاجها .

غالباً ما هي ترتدي ثوباً أبيض مع بنطلون مزين بالدانتيلاّ ، وفي الأعياد الكبرى ، تخرج مرتدية كأميرة ، لتذلّ ، إلى حدّ ما ، البورجوازيّين الذين كانوا يمنعون أولادهم من مخالطتها ، لولادتها غير

الشرعيّة .

وحيدة تعيش ، في حديقتها ، تتمرجح بالأرجوحة ، تركض خلف الفَراش ، ثم ، فجأة ، تتوقف تتأمّل السينونيّات[1] المتخبطة على أزهار الورد . هي هذه العادات ، ولا شكّ ، التي أعطت وجهها مظهر الجرأة والأحلام . كانت بقامة « مارت » ، من هنا قول فريدريك لها ، منذ مقابلته الثانية لها :

ـ أتسمحين بأن أقبّلك ، آنستي ؟

رفعت رأسها ، أجابت :

ـ طبعاً أريد !

لكن حاجز القضبان يفرّقهما الواحد عن الآخر .

يجب الصعود فوق الحاجز ، قال فريدريك .

ـ لا إحملني !

انحنى فوق الحاجز ، وحملها من أطراف يديه ، وقبّلها على خدّيها ؛ ثم أعادها حيث كانت ، الأسلوب الذي غدا يتكرّر في المرّات التاليات .

صارت ، فور معرفتها بمجيء صديقها ، تنطلق طلاقاته من دون تحفّظ ، أو تختبىء خلف شجرة ، وتنبح ، مثل كلب ، لتخيفه .

يوماً ، ولم تكن السيّدة مورو في البيت ، أصعدها إلى غرفته . أخذت كل قناني العطور ، ونثرت فوق شعرها بغزارة . ثم ، بلا أيّ حرج ، استلقت على السرير ، وبقيت متمدّدة ومستيقظة .

---

(١) حشرات من مغمدات الأجنحة .

ـ أتصور أنني امرأتك ، قالت .

في الغد ، رآها تبكي . صارحته بأنها « تبكي خطاياها » ، وإذ حاول أن يعرفها ، أجابت خافضة عينيها :

ـ لا تسألني أكثر !

تقترب قربانتها الأولى . في الصباح ، أخذوها إلى كرسي الاعتراف .

لم يجعلها السرّ عاقلة . تغضب ، أحياناً ، غضباً حقيقيّاً . فيستنجدون بالسيّد فريدريك ليهدّئها .

غالباً ما كان يصطحبها في نزهاته . وبينما هو يحلم في سيره ، تروح تقطف الزهور على حدود القمح ، وحين تراه أكثر حزناً من المعتاد ، تحاول تعزيته بكلمات لطيفة . انجذب قلبه ، المحروم من الحب ، نحو صداقة الطفلة ؛ صار يرسم لها اشخاصاً ، يروي لها قصصاً ، وراح يقرأ لها .

بدأ بـ « الحوليات الرومنطيقيّة »، مجموعة شعر ونثر شهيرة . ثمّ ، ناسياً عمرها إذ إن ذكاءها بهره ، قرأ عليها ، بالتتابع : « أتالاّ » ، « الخامس من آذار » ، « أوراق الخريف » . لكنها ، ذات ليلة كانت ، في المساء عينه ، استمعت إلى « مكبث » ، بترجمة لوتورنور البسيطة ، استفاقت صارخة : « اللطخة ! اللطخة ! » تصطكّ أسنانها ، ترتجف ، وتركّز عينين ذاهلتين على يدها اليمنى ، تفركها قائلة : « دائماً اللطخة ! » وصل الطبيب ، أخيراً ، فنصح بتجنّبها الانفعالات .

ما رأى البورجوازيّون في هذا سوى تشخيص غير مشرف

لعاداتها . قالوا إن « الشاب مورو » يريد أن يجعلها ممثّلة .

وسريعاً ما دخل الاهتمام أمر آخر ، معرفة متى يأتي العم برتلماوس . عيّنت له السيّدة مورو غرفة نومه ، واندفعت تتنازل مستخدمة قرشها الأبيض في أيّامها السوداء .

لكن الشيخ لم يكن محبوباً . يقارن ، باستمرار ، بين هافر ونوجان ، حيث رأى الهواء ثقيلاً ، الخبز سيّئاً ، الشوارع سيّئة التبليط ، الغذاء رديئاً والمواطنين كسالى . « للتجارة البائسة عندكم ! » استنكر تبذير المرحوم أخيه ، بينما جمع ، هو ، دخلا يوازي سبعاً وعشرين ألف ليرة ! في بحر الأسبوع غادر ، وعلى عتبة العربة قال هذه الكلمات القليلة التطمين :

ـ أنا مسرور دائماً لكونكم في حالة حسنة .

ـ لن تحصل على شيء ! قالت السيّدة أرنو وهي تدخل .

لم يكن قد جاء إلّا بناء على إلحاحها . وخلال ثمانية أيّام ، كانت ألمحت إلى شيء ، وربما بطريقة واضحة تماماً . ندمت على فعلها ، وبقيت على كرسيّها ، خافضة الرأس ، مطبقة الشفتين . راح فريدريك ، وهو بجانبها ، يراقبها . كانا صامتين معاً ، وقد عاد من مونتيرو لسنوات خمس . هذه المصادفة ، وقد طرأت على ذهنه ، ذكّرته بالسيّدة أرنو .

تردّدت ، في هذه الأثناء ، ضربات سوط ، وسمع في اللحظة نفسها صوتاً يناديه .

إنه السيّد روكّ ، وحيداً في عربته المفتوحة الجانبين . ماضٍ هو لتمضية النهار في فورتيل ، عند السيّد دمبروز ، وعرض ،

صادقاً ، على فريدريك ، مرافقته .

ـ لست بحاجة لدعوة وأنت معي ، لا تخشَ !

رغب فريدريك بالقبول . إنّما كيف يفسّر إقامته الدائمة في نوجان ؟ لم يكن له ثوب صيفي ملائم ؛ وما تقول أمّه ؟ فرفض .

من حينها ، بدا الجار أقلّ صداقة . كانت لويز تكبر مرضت السيّدة إليونور مرضاً خطيراً ، والعلاقة توقّفت ، فكان فرح عظيم للسيّدة مورو ، تخشى على زواج ابنها ، من معاشرته مثل هؤلاء الناس .

كانت تحلم أن تشتري له قلم المحكمة . ما كان يتحمّس كثيراً ، فريدريك ، لهذه الفكرة . صار ، الآن ، يرافقها إلى القداس ، وفي المساء يتسلّيان بلعب الورق . كان صار يعتاد الريف ، يستغرق فيه ؛ ـ وحتى حبّه كان انطبع بعذوبة كئيبة ، وفتنة منعسة . لفرط ما سكب ألمه في رسائله ، ومزجه في قراءاته ، كان ، إلى حدّ ما ، استنفده ، حتى أنّ السيّدة أرنو ماتت بالنسبة إليه ، وعجب كيف لا يعرف قبرها ، ولطالما كان هذا الانفعال هادئاً ومستسلماً .

يوماً ، في ١٢ كانون الأوّل ١٨٤٥ ، حوالى التاسعة صباحاً ، سلّمته الطاهية رسالة في غرفته . عنوانها مخطوط بالحروف الكبيرة ، وبخطّ لا يعرفه . وإذ كان ما يزال نائماً ، ما عجّل في فضّها . أخيراً قرأ :

« محكمة صلح هافر ، الدائرة الثالثة .

سيّدي .

بما أنّ عمّك ، السيّد مورو ، قد توفّي بلا وصيّة . . . » .
سيرث !

كأن حريقاً اشتعل في الغرفة . قفز من سريره ، حافي القدمين ، في غلالته : مرّر يده على وجهه ، شاكاً بعينيه ، ظاناً أنه يحلم ، وليتأكّد ، في الواقع ، شرّع النافذة .

كان سقط الثلج . السطوح بيضاء . ـ ورأى دلو غسيل في الساحة ، تعثّر به ليلة أمس .

أعاد تلاوة الرسالة ثلاث مرّات متتالية ، الأمر حقيقي ! كل ثروة العم ! دخل سبع وعشرين ألف ليرة ! وأخذه فرح جنوني ، عند فكرة رؤيته السيّدة أرنو ثانية . وبوضوح الوهم ، رأى ذاته قربها ، عندها ، مقدّماً لها هدية ما ملفوفة بالحرير ، في حين تقف أمام الباب تلبرية[1] ، لا ، بالأحرى عربة مقفلة بدواليب أربعة ! عربة مقفلة سوداء ، مع خادم ذي خلعة سمراء ؛ صار يسمع صهيل حصانه وصوت اللجام مختلطاً بهمس القبلات . وسيتجدّد الأمر كل يوم ، إلى ما لا نهاية . سيستقبلهم عنده ، في بيته ؛ غرفة الطعام ستكون من جلد أحمر ، صالون السيّدات الصغير من حرير أصفر ، أرائك في كلّ مكان ! ويالخزائن الرفوف ، ما أجملها ! والآنية الصينيّة ! والسّجاد ! تصطخب هذه الصور ، فيشعر بدوار في رأسه . ولتذكّر أمّه . فنزل ، والرسالة بيده .

حاولت السيّدة مورو تملّك نفسها ، فانهارت . أخذها

---

(١) مركبة خفيفة ذات عجلتين بإسم صانعها .

فريدريك بين ذراعيه وقبّلها بجبينها .

ـ أمي الرائعة ، تستطيعين استعادة عربتك الآن . إضحكي ، لا تبكي ، كوني سعيدة !

وخلال عشرّ دقائق ، عمّ الخبر حتى الضواحي . فتراكض السيّد بنوا وزوجته ، والسيّد جمبلان ، والسيّد شامبيون وكل الأصدقاء . اقتنص فريدريك فرصة للكتابة إلى ديلورييه . طرأت زيارات أخرى . وانقضى بعد الظهر بالتهاني . نسوا ، الآن ، السيّدة روك ، فهي « وضيعة » .

ولما صارا وحيدين في المساء ، نصحت السيّدة مورو ابنها بالإستقرار في « تروا » محامياً . فهو ينجح أكثر ، وبسهولة ، إذ إنه أكثر شهرة في منطقته من أية منطقة أخرى .

ـ اه ! الأمر لا يطاق ! صرح فريدريك .

ما كان يحصل على سعادته ، حتى يراد له التخلّي عنها . أخبرها برغبته النهائيّة في السكن في باريس .

ـ ماذا ستفعل هناك ؟

ـ لا شيء !

فوجئت أمّه بتصرّفاته ، فسألته ماذا يريد أن يكون .

ـ وزيراً ! أجاب فريدريك .

وأكّد لها أنه لا يمزح أبداً ، وأنه يطمح إلى الأنطلاق في الدبلوماسيّة ، فدروسه وميوله الفطريّة كلها تدفعه في هذا الإتجاه . سيدخل ، أوّلاً ، بمعاونة السيّد دمبروز مجلس مستشاري الدولة .

ـ تعرفه ، أنت ، إذن ؟
ـ طبعاً ! بواسطة السيّد روكّ !
ـ أمر غريب ، قالت السيّدة مورو .

أيقظ في قلبها أحلامها القديمة . استسلمت لها ، في ذاتها ، وما عادت تحدّثت عن سواها .

لو عرف تلهّفها ، لكان فريدريك ذهب في اللحظة عينها .

في الغد ، كانت كل الأمكنة محجوزة في العربات . فندبّر أمره لما بعده ، في السابعة مساء .

وبينما هما يجلسان إلى العشاء ، دقّ الجرس دقّات حزن طويلة . ودخلت الخادمة تعلن موت السيدة إليونور .

ما كانت هذه الميتتة تعاسة لأحد ، حتى ولا لأبنتها . في ما بعد ، لن تكون الفتاة إلاّ أفضل .

وبما أن البيتين متلاصقين ، كانا يسمعان ضجة مجيء ورواح ، وصخب كلام . وألقت هذه الجثة القريبة شيئاً من حزن على انفصالهما . فمسحت السيّدة مورو عينيها مرتين أو ثلاثاً ، وانقبض قلب فريدريك .

انتهى الطعام ، أتت كاترين أوقفته بين بابين . تريد الآنسة أن تراه ، مهما كلّف الأمر . هي تنتظره في الحديقة . خرج جانب الحاجز وتوجه ، وهو يصطدم بالأشجار ، إلى منزل السيّد روكّ . كانت أضواء تسطع في نافذة من الطابق الثاني . ظهر شكل في العتمة ، وهمس صوت :

ـ هذا أنا !

بدت له أكبر من المعتاد ، بسبب ثوبها الأسود ، ولا شكّ . ما عرف بما يبدأ الكلام ، فاكتفى بأن أخذ يديها متنهّداً :

ـ آه ! لويزتي المسكينة !

لم تجب . نظرت إليه ، بعُمق ، وقتاً طويلاً . خشي فريدريك أن تسبقه العربة ، ظنّ يسمع صوتها في البعيد ، وليتخلّص :

ـ أعلمتني كاترين أنك تريدين شيئاً . . .

ـ نعم ، هذا صحيح ! كنت أريد أن أقول لك . . .

أخذته الدهشة ، وبما أنها بقيت صامتة :

ـ ماذا ؟

ـ ماعدت أعرف . نسيت ! أصحيح أنك ذاهب ؟

ـ نعم ، حالاً .

كرّرت :

ـ آه ! حالاً ؟ . . . كلياً ؟ . . . ألن نلتقي ثانية ؟

خنقتها الشهقات .

ـ الوداع ! الوداع ! قبّليني !

وضمّته إلى صدرها بعنف .

القسم الثاني

I

أحسّ نفسه مغموراً بالنشوة ، حين جلس في مكانه في العربة ، وتحرّكت تجرّها جيادها وقد أسرعت في الانسحاب معاً . نظّم حياته ، سلفاً ، مثل مهندس معماريّ يضع تصميماً لقصر . ملأها عذوبة وجلالاً ؛كأنها تصل حتى السماء . بدت خصبة بأمور كثيرة مهمّة ؛ وهذا الاستغراق في التأمّل كان عميقاً إلى حدّ اختفت معه المواضيع الخارجيّة .

عند أسفل شاطىء سوردون ، عرف أين صار . مَا انقضى ، بعد ، سوى كيلومترات خمسة ، على الأكثر ! سخط . فتح الكوّة ليرى الطريق . مرّات عدة سأل السائق كم يلزم من الوقت ، بالضبط ، للوصول . مع ذلك استكان ، وبقي في زاويته ، وعيناه مفتوحتان .

الفانوس المعلّق بمقعد الحوذيّ ، ينير أرداف الجياد . ما كان يرى أبعد من أعرافها المتماوجة كموج أبيض ؛ كان لهاثها يؤلّف ضباباً من كل جهة من المِقْرَن . سلاسل الحديد الصغيرة ، تدقّ ، الزجاج يرتجف في قاعدته ، والعربة الثقيلة ، تسير سيراً

متموازياً . بين مكان وآخر ، كنت تلاحظ جدار مستودع ، أو فندقاً وحيداً . أحياناً ، أثناء المرور في القرى ، يكون فرن خبّاز يعكس أضواء كالحريق ، فتبدو أشباح هائلة للجياد تركض على البيت المقابل . في المرابط ، حين يكونون تحضروا للرحيل ، يخيّم صمت عميق ، للحظة . أحدهم يخطو ، فوق ، تحت الخزان ، بينما تقف ، على عتبة الباب ، امرأة شمعتها في يدها . وإذ يقفز السائق إلى مكانه ، تعاود العربة مسيرها .

سمعوا الساعة تدق الأولى والربع في مورمان .

« إذن ، فكّر ، اليوم ! اليوم ، عما قليل ! » .

إنّما بدأت آماله وذكرياته ، شيئاً فشيئاً ، نوجان ، شارع شوازيل ، السيّدة أرنو ، أمّه ، كل شيء اختلط في ذهنه .

ضجيج ألواح أيقظه . كانوا يجتازون جسر شارنتون ، انها باريس . حينها ، خلع رفيقاه الواحد ، كاسكيته والآخر شاله ، اعتمرا قبّعتهما وطفقا يتحدّثان . كان الأول تاجراً ، رجلاً أحمر ضخماً ، ذا سترة طويلة مخمليّة ؛ الثاني آتياً كان إلى العاصمة لاستشارة الطبيب ؟ ـ وإذ ظنّ فريدريك أنه أزعجه خلال الليل ، راح ، بسرعة ، يعتذر ، من فرط ما ارهفت نفسه سعادة .

أكملوا المسير في خطّ مستقيم ، فرصيف المحطة ، ولا شكّ ، مغمور بالماء . وابتدأ الريف ، من جديد . في البعيد ، مداخن معامل ترسل دخاناً . ثم استداروا إلى ايفري . صعدوا شارعاً ؛ وفجأة ، رأى قبّة البانتيون .

بالمقلوب ، بدا السّهل أطلالاً . سور تحصيناته مقبّب

أفقيّاً ؛ وعلى الأرصفة الترابيّة المحاذية للطريق ، أشجار صغيرة أغصان لها تحميها ألواح شائكة .

تتالى مؤسّسات منتجات كيميائيّة مع مراكم محروقات لتجار الخشب . أبواب عالية ، كما يوجد في المزارع، تترك للرؤية من مصاريعها نصف المفتوحة ، ساحات وسخة ملأى بالأقذار ، وفي وسطها برك مياة وسخة . مقاهٍ فنية ، حمراء قانية ، في طوابقها الأولى بين النوافذ قضيبا بليار بشكل صليب في إكليل زهور ملوّنة . وبعض أكواخ ، نصف مبنية ، صارت مهجورة . ثم صف مزدوج من البيوت ، ما عاد ينقطع . وعلى عري واجهاتها بين مكان وآخر ، يبرز سيجار ضخم من حديد أبيض مشيراً إلى دكّان تبغ ، أو لافتة قابلة قانونيّة تمثّل سيّدة بقبّعة ، تهزهز طفلاً صغيراً في غطاء سرير مزخرف بالدانتيلا ؛ أو ملصقات تغطي زوايا جدران ، ممزقة ، ترتجف في الهواء كخرق . وعمّال يمرّون ، بقمصان فضفاضة ، وعجلات نقل لبائعي جعة ، ومقطورات كوّاءاتٍ ، وعربات قصّابين ؛ ينزّ مطر خفيف ، فالطقس بارد ، والسّماء شاحبة ، لكنّ عينين تلمعان خلف الضباب توازيان الشمس بالنسبة إليه .

طويلاً توقّفوا على باب المدينة ، لأن تجار بيض وطيور ، سائقي عجلات ، وقطيع غنم تجعل فيه زحمة . الخفير يروح ويجيء أمام كوخه ليدفأ ، وقد خفض معطفه .

صعد موظف الجمرك العربة ، فانطلق ضجيج أبواق . نزلوا الشارع العريض خبباً ، ميازين العربة تصطرع ، والمجرّات

طائرة . عذبة السوط تصطفق في الهواء الرطب . يطلق القائد صوته المرتفع : « أضيء ! أضيء ! يا ! » فيتراجع المكنسون ، المشاة إلى الوراء يقفزون ، يتدفّق الوحل حتى الكوى ، يلتقون بطنابر ، بعربات ، بعربات نقل عام . وأخيراً ، امتدّت حديقة النباتات .

يكاد نهر السّين ، مصفرّاً ، أن يلامس سطح الجسور . تنتشر منه برودة . تنشّقها فريدريك ملء رئتيه ، متذوّقاً هواء باريس الذي يبدو وكأنه يحمل دفقات عاشقة وهموماً ذهنيّة ؛ رقّ قلبه لمرأى أوّل فيكر . وأحبّ ، حتى عتبة تجّار الخمور وعليها القش ، ومسّاحي الأحذية ، وصبيان المحلّات يهزّ كل منهم محمصّة البن . نساء تكردحن تحت مظلّاتهن ؛ كان ينحني ليميّز وجوههنّ ؛ فقد يجعله القدر يرى السيّدة أرنو . تتابع المحلات ، تتضاعف الجموع ، صار الصخب أقوى . بعد أرصفة سان ـ برنار ، التورنيل والمونتي ـ بلّو ، ساروا في رصيف نابوليون ؛ أراد ألا يرى نوافذه ، لكنها كانت بعيدة ثم ، من جديد ، فوق السين ، على الجسر الجديد ، وانحدروا حتى اللوفر ، ووصلوا شارع كوك ـ هيرون عبر شوارع سان ـ أونوريه ، وكروا ـ دي ـ بيتي ـ شان والبولوا ، ودخلوا ساحة الفندق .

ليطيل لذّته ، ارتدى فريدريك ، على مهل ، وحتى سار مشياً إلى بولفار مونمارتر ؛ كان يبتسم لفكرة رؤيته مجدّداً الاسم العزيز على اللوحة المرمريّة ؛ رفع عينيه . لا واجهات ، لا لوحات ، لا شيء !

ركض إلى شارع شوازيل . ما كان فيه ، بعد ، السيّد والسيّدة أرنو ، وتحتفظ جاره بمسكن البوّاب ؛ انتظر فريدريك ؛ ظهر أخيراً ، لم يكن هو نفسه . ما كان يعرف عنوانهما الجديد .

دخل فريدريك مقهى ، وراح ، وهو يتغدّى ، يبحث في دليل التجارة . فيه ثلاثمئة أرنو ، إنما ولا جاك أرنو ! أين هم ، إذن ؟ بيلّران لا بد أن يعرف .

انتقل إلى أعلى ضاحية بواسّونيير ، إلى محترفه . ليس للباب جرس ولا مقرعة ، فضرب بقبضة يده عليه ، نادى ، صرخ . وحده ، الفراغ ، أجابه .

بعد ذلك فكّر بهيوسّونّيه . إنّما أين يجد رجلاً مثل هذا ؟ مرة رافقه إلى بيت عشيقته ، شارع فلوروس . وإذ رأى نفسه في شارع فلوروس ، انتبه إلى جهله إسم الآنسة .

استنجد بمديريّة الشرطة . هام من درج إلى درج ، من مكتب إلى مكتب . مكتب الاستعلامات كان مقفلاً . قالوا له أن يعود غداً .

فدخل عند كل تجار اللوحات الذين اهتدى إليهم ، علّهم يعرفون أرنو . عرف أنه ما عاد يتعاطى التجارة .

أخيراً عاد إلى فندقه ثابط الهمة ، منهوكاً ، مريضاً ، ونام . وبينما هو يتمدّد في فراشه ، طرأت على باله فكّرة جعلته يقفز فرحاً :

« ريجمبار ! يا لي من أحمق ، كيف لم أفطن إليه ! » .

في السابعة من صباح الغد ، وصل إلى شارع نونتر ـ دام ـ

دي ـ فيكتوار أمام محلّ مشروب كحوليّ ، حيث اعتاد ريجمبار أن يشتري النبيذ الأبيض . ما ان فتح ، بعد ، قام بنزهة في الأرجاء ، وخلال نصف ساعة حضر مجدّداً . كان ريجمبار خرج للتوّ . انطلق فريدريك في الشارع . ظنّ أنه يرى قبّعته من بعيد ؛ تداخلت عربة موتى وعربات حزن . وإذ انتهى الصخب اختفت الرؤية .

بفرح تذكّر أنّ « المواطن » يتغدّى كل يوم في الحادية عشرة تماماً عند صاحب مطعم صغير في محلّة غايّون . عليه بالصبر ! وبعد تسكّع لا متناهٍ من « البورس » إلى « المادلين » ، ومن « المادلين » إلى « جيمناز » ، دخل فريدريك ، في الحادية عشرة تماماً ، مطعم محلّة غايّون ، واثقاً من أنه سيجد ريجمبار .

ـ لا أعرفه ! قال صاحب المطعم الحقير بنبرة متعجرفة .

أصرّ فريدريك ؛ أجاب :

ـ بتّ لا أعرفه ، يا سيّد ! وهزّ حاجبيه بعظمة مع تمايل في رأسه ، أفشت سرّاً .

ولكن ، في لقائهما الأخير ، كان « المواطن » تحدّث عن حانة ألكسندر . ابتلع فريدريك فطيرة حلوى ، وقافزاً إلى عربة خفيفة ، استعلم من الحوذيّ إذا كان هناك ، في مكانٍ ما ، في أعلى سانت ـ جينيفييف ، مقهى ما اسمه ألكسندر . أخذه الحوذي إلى شارع فران ـ بورجوا ـ سان ـ ميشال ، إلى مؤسّسة بهذا الإسم ، وعند سؤاله : « السيّد ريجمبار ، إذا شئت ؟ » أجابه صاحب المقهى ، ببسمة غاية في الرقة ، وقال :

ـ لم نره ، بعد ، ياسيّدي ، بينما رمق زوجته الجالسة إلى المكتب ، بنظرة ذكيّة .

وسريعاً ما نظر إلى الساعة :

ـ إنما سيصل خلال عشر دقائق ، ربع ساعة على الأكثر . سيليستان ، أسرع بالقائمة ! ـ ماذا يفضل السيّد أن يتناول ؟

بالرغم من أنّ فريدريك ليس في حاجة إلى شيء ، فقد جرع كأس روم ثم كأس كيرش ثم كأس كوراسّو ثم جرعات مختلفة باردة مرة ومرة ساخنة .

قرأ « العصر » كلّها ، وأعاد قراءتها . وتفحّص ، حتى أعماق الورقة ، رسم « كاريفاري » الكاريكاتوري . وفي الأخير ، صار يعرف ، غيباً ، كل الإعلانات . بين وقت وآخر ، يقرع حذاء على الرصيف ، إنه هو ! ويبدو جانب أحدهم على الزجاج ، ثم يختفي دائماً !

ولكثرة ما أصابه من ضجر طفق يبدّل مكانه . جلس في آخر الصالة ، ثم إلى اليمين ، فإلى الشمال . وبقي في نصف المقعد ، ذراعاه ممدودتان . لكنّ هرة ، وقد داست ، برقة ، مخمل المسند ، أخافته إذ قفزت فجأة لتلسح بقاع الشراب عن الطاولة ، ويلعب صبيّ في الرابعة من عمره ، لا يطاق ، بخشخيشة على درجات المكتب . تبتسم أمه ، وهي أمرأة صغيرة شاحبة ، بمظهر غبيّ . ماذا تراه يفعل ريجمبار ؟ ينتظره فريدريك ، هائماً في خيبة لا محدودة .

يقرع المطر كالبرد على غطاء العربة . يلاحظ ، من خلال فتحة الستارة ، الحصان المسكين في الشارع ، أكثر جموداً من حصان خشبيّ . صار السيل غزيراً ، والحوذي ينام ، مختبئاً بالغطاء . لكنه يخاف من تسلّل البورجوازي ، فيشق الباب ، بين فينة وأخرى ؛ ـ ولو كانت النظرات يمكن أن تستهلك الأشياء ، لكان فريدريك أذاب الساعة لفرط ما تعلّقت عيناه بها . ومع ذلك هي تدور . ويتمشى السيّد ألكسندر ، طولاً وعرضاً ، وهو يردّد : « سوف يأتي ! سوف يأتي ! » ويسلّيه ، يقيم معه حواراً ، يتحدّث في السياسة . أكثر ، عرض عليه أن يلعبا « دومينو » .

أخيراً ، في الرابعة والنصف ، نهض فريدريك ، مرة واحدة ، وهو هنا منذ الظهر ، وأعلن أنه لن ينتظر بعد .

ـ لا أفهم شيئاً ، أنا نفسي ، أجاب صاحب المقهى بمظهر بريء النيّة ، انها المرة الأولى فيها يتخلّف السيّد لودو !

ـ كيف ، السيّد لودو ؟

ـ طبعاً يا سيّدي :

ـ قلت ريجمبار ! صرخ فريدريك مغتاظاً .

ـ آه ! عذراً ، ألف عذر ! أنت تخطيء ! ـ السيّد سأل عن السيّد لودو ، أليس كذلك سيّدة ألكسندر ؟

وملتفتاً إلى الصبيّ :

ـ ألم تسمعه أنت ، مثلي ؟

ولكي ينتقم الولد ، ولا شكّ ، من معلّمه ، اكتفى بالابتسامة .

عاد فريدريك نحو الشوارع ساخطاً على الوقت الضائع ، غاضباً من « المواطن » ، متوسّلاً حضوره كأنه إله ، مقرّراً أن ينتشله من أعماق المخابىء البعيدة . أزعجته العربة ، فتخلّى عنها : تصطخب أفكاره ؛ ثم تفجرّت في ذاكرته كل اسماء المقاهي التي سمع ذلك الأبله يتلفظ بها ، مرة واحدة كأنها ألعاب ناريّة : مقهى غاسكار ، مقهى غريمبير ، مقهى هالبو ، حانة بوردليه ، هافانيه ، هافري ، بوف ألامود ، معمل جعة ألماند ، مارموريل ؛ وانتقل إليها جميعها . إنّما ، في مقهى ، يكون ريجمبار خرج لتوّه ، في آخر ربما سيأتي ؛ في ثالث ما رأوه من أشهر ستّة ؛ في غير مكان ، كان طلب ، أمس ، فخذ خروف ليوم السبت . أخيراً ، عند فوتيه ، بائع شراب الليمون ، وبينما فريدريك يفتح الباب ، اصطدم بالخادم .

ـ أتعرف السيّد ريجمبار ؟

ـ كيف لا أعرفه ؟ إني ، أنا ، من لي شرف خدمته . إنه فوق ؛ ينهي غداءه ! واقترب منه صاحب المحل بنفسه ، والفوطة تحت ذراعه :

ـ تطلب السيّد ريجمبار ، يا سيّدي ؟ من لحظة كان هنا .

أطلق فريدريك شتيمة ، لكن بائع شراب الليمون أكّد له أنه سيجده ، حتماً ، عند بوتّفيلين .

ـ أقسم بشرفي ! ذهب قبل المعتاد إذ انه على موعد عمل مع سادة . لكنك ستجده ، أكرّر لك القول ، عند بوتّفيلين ، شارع سان ـ مارتان ، ٩٢ ، المدخل الثاني إلى اليسار ، في آخر

الساحة ، الطابق الأول ، الباب إلى اليمين !

وجده أخيراً عبر دخان الغلايين ، وحيداً ، في آخر الحانة قرب بليار ، أمامه كأس جعة ، ذقنه منخفضة ، في وضع من يستغرق في التأمّل .

ـ آه ! من زمان وأنا أبحث عنك ، أنت !

ومن غير أن يفاجأ ، مدّ له ريجمبار إصبعين فقط ، وكأنه رآه لليلة أمس ، تلفظ بجمل متعدّدة لا معنى لها عن افتتاح دورة الامتحانات .

قاطعة فريدريك ، قائلاً له ، بالنبرة الطبيعيّة التي استطاعها :

ـ هل أرنو بخير ؟

تأخر الجواب ، كان ريجمبار يتغرغر بشرابه .

ـ نعم ، حسناً !

ـ أين يسكن الآن ؟

ـ ما بك ؟ . . . شارع بارادي ـ بواسّونيير ، أجاب « المواطن » متعجّباً .

ـ أيّ رقم ؟

ـ ٣٧ ، تبا لكَ ، يا لك من غريب الأطوار !

نهض فريدريك :

ـ كيف، أتذهب ؟

ـ نعم ، نعم ، عندي عمل ، قضيّة كدت أنساها ! الوداع !

انطلق فريدريك من الحانة إلى أرنو كأنه محمول بهواء فاتر وبهناء غير عاديّ كالذي نشعر به في الأحلام .

سريعاً ما وجد نفسه في طابقٍ ثانٍ أمام باب يدقّ جرسه ؛ ظهرت خادمة ؛ انفتح باب ثانٍ ؛ السيّدة أرنو جالسة قرب النار . قفز أرنو وقبّله . في حضنها صبيّ في الثالثة ، تقريباً ؛ وكانت ابنتها ، التي هي الآن كبيرة مثلها ، واقفة من الجانب الآخر للمدفأة .

- إسمح لي بأن أقدّم لك هذا السيّد ، قال أرنو ، حاملاً ابنه .

وسُرّ لحظات برميه في الهواء ، عالياً جداً ، ليتلقّاه بطرف يديه .

- ستقتله ! آه ! يا إلهي ! إنه هذا الأمر ! صرخت السيّدة أرنو .

لكن أرنو أقسم أن لا خطر ، فأكمل وزأزأ بمداعبات باللهجة المرسيليّة ، لغته الأصليّة . « آه ! حمامة شجاعة ، عندليبي الحبيب ! » ثم سأل فريدريك لَمَ لم يكتب إليه طوال تلك المدة ، ماذا عمل هناك ، وما أرجعه .

- أنا الآن يا عزيزي تاجر خزفيّات . لكن لنتحدّث عنك !

أفاض فريدريك في الحديث عن صحة أمّه ؛ علّق على الأمر أهميته كبرى ليجعل نفسه مهمّا . باختصار ، سيقطن باريس ، نهائيّاً هذه المرة ؛ وما ذكر شيئاً عن الميراث ، خوفاً من الإساءة إلى ماضيه .

كانت الستائر ، مثلها مثل الأثاث ، من صوف كستنائي مزخرف ، وسادتان تلامسان المسند ؛ سخّانة على النّار ؛ وكمّة المصباح ، الموضوع خزانة صغيرة تجعل الشقة مظلمة نوعاً . ترتدي السيّدة أرنو مبذلا ، من صوف المرينوس[1]، أزرق . نظرها إلى النّار ، ويدٌ لها على كتف الطفل ، وبالأخرى تفكّ رباط صديريّته . هو يبكي ، حاكاً رأسه ، كما ألكسندر الإبن .

كان فريدريك ينتظر تشنّجات فرح ؛ ـ لكنّ العواطف تذوي حين نتغرّب بها ، وبدت له السيّدة أرنو ، لكونه لم يرها في الوسط الذي عرفها فيه ، كأنها فقدت شيئاً ، كأنها تقهقرت بغموض ، أخيراً ، بدت هي نفسها . هدوء قلبه أذهله . استخبر عن الأصدقاء القدامى ، ومن بينهم بيلّران .

ـ لا أراه كثيراً ، قال أرنو .

أضافت :

ـ بتنا لا نولم ، كما من زمان !

هل هذا لإعلامه بأنه لن يُدعى ؟ لكنّ أرنو تابع حديثه الحميم ، ولامه لأنه لم يأتِ للعشاء معهم ولو بدون إعلامهم . وشرح لماذا هو أبدل تجارته .

ـ ماذا تريد أن تفعل في فترة انحطاط كفترتنا هذه ؟ الرسم العظيم انتهى ! على كلّ ، نستطيع بثّ الفنّ أينما كان . تعرف ؟ أحبّ أنا الجمال ! يجب أن أصطحبك ، مرة ، إلى مصنعي .

---

(١) غنم إسباني .

وأراد أن يظهر له ، للحال ، بعضاً من إنتاجه في محلّه في الطابق الأوّل .

تنتشر الأطباق على الأرض ، مع الحسّائيّات ، والصحون والأحواض . على الجدران ، علقت مربّعات عريضة من بلاط للحمّامات ولغرف الزينة ، مع تماثيل ميتولوجيّة ، من طراز عصر النهضة ، بينما ، في الوسط ، خزانة رفوف مزدوجة ، تصل حتى السقف ، فيها كؤوس للبوظة ، آنية زهور ، شماعدين ، أحواض صغيرة ، وتماثيل كبيرة متعدّدة الألوان ، تمثّل عبداً أو راعية . . . أشياء أرنو أضجرت فريدريك الذي كان بردانا وجائعاً .

ركض إلى المقهى الإنكليزي ، تعشّى عشاء دسماً ، وراح يفكّر ، وهو يأكل :

« كنت مرتاحاً ، هناك ، مع آلامي ! بالكاد عرفتني ! يا لها من بورجوازيّة ! »

وبقوّة فجائيّة اتّخذ قرارات أنانيّة . أحس قلبه قاسياً مثل الطاولة حيث يسند كوعيه . إذن ، فهو الآن يستطيع الارتماء ، وسط العالم ، بلا خوف . أتته فكرة آل دمبروز . سيستعملهم ، ثم تذكّر ديلورييه . « آه ! بالواقع ، تبّاله ! » مع ذلك ، فقد أرسل إليه ، مع موظف ، رسالة قصيرة يواعده فيها ، غداً في « الباليه ـ رويّال » كي يتغذّيا معاً .

ما كان ديلورييه ميسورا .

كان تقدّم إلى مسابقة شهادة الأستاذيّة بأطروحة عن حقّ

الوصيّة ، فيها يترافع عن وجوب حصره بقدر ما يمكن ؛ ـ وإذ دفعه خصمه لقول حماقات ، فقد أتى منها الكثير من دون أن يندهش الفاحصون . ثم شاء الحظ أن يسحب بالقرعة موضوع أمثولة التقادُم[1]. حينها انطلق ديلورييه في نظريّات ضعيفة ؛ الاعتراضات القديمة يجب أن تكون لها قيمة الجديدة ؛ لماذا يُحْرَم المالك من ملكه لأنه لا يستطيع تقديم مستنداته إلاّ بعد انقضاء إحدى وثلاثين سنة ! يريد أن يعطي ضماناً للرجل النبيل لا للصّ الذي اغتنى . كلّ الظلامات كرّسها امتداد هذا القانون ، وهو ظلم ، تعشّق القوّة ! حتى إنه صرخ :

ـ لنلغِه ! ولن يثقّل الفرنسيّون على الغاليين ، ولا الانكليز على الايرلنديّين ، ولا اليانكيّون على الهنود الحمر ، ولا الأتراك على العرب ، ولا البيض على السود ، بولونيا . . . قاطعه الرئيس :

ـ حسناً ! حسناً ! سيّدي ! ليس علينا إلاّ الأخذ بآرائك السياسيّة ، ستتقدّم في ما بعد !

ما كان أراد ديلورييه التقدّم . لكن هذا الشقي ، العنوان ٢٠ من الفصل الثالث من القانون المدنيّ كان صار ، بالنسبة إليه ، جبلاً ـ عقبة . فراح يعدّ مؤلّفاً كبيراً حول « التقادم ، معتبراً كأساس للقانون المدني وللقانون الطبيعي للشعوب » . وضاع بدينو وروجاريوس ، وبالبوس ، وميرلان ، وفازاي ،

---

(١) حق اكتساب بمرور الزمن .

وسافيني ، ونروبلونغ وقراءات أخرى كثيرة . ليشعر بنفسه مرتاحاً أكثر ، استقال من منصبه ككاتب أوّل . كان يعيش من إعطائه دروساً ، من وضعه أطروحات ؛ وفي جلسات تمارين الخطابة ، يخيف ، كان ، بحدّته ، الحزب المحافظ ، كل الشباب العقائديين المتحدّرين من السيّد غيزو ، حتى أنه كانت له شهرة في عالم ما ، ممزوجة بحذر منه .

وصل الموعد مرتدياً سترة ضخمة مبطّنه بالفلانيلاّ الحمراء ، كالتي كانت ، قديماً ، لسينيكال .

ما استطاعوا التعانق طويلاً بسبب الجمهور الذي كان يمرّ وذهبا عند فيفور ، متخاصرين ، ضاحكين فرحاً ، مع دمعة في عمق عيونهما . ومذ صارا وحدهما ، هتف ديلورييه :

آه ! سنعاودها جميلة ، الآن !

ما أحبّ فريدريك هذه الطريقة الفجائية للارتباط بثروته . أظهر صديقه فرحاً كبيراً لكليهما ، وليس به وحده .

ثم روى ديلورييه رسوبه ، وشيئاً فشيئاً أعماله ، حياته ، متحدّثاً عن ذاته بعزم وعن الآخرين بمرارة . ما كان يعجبه شيء . ولا رجل في مركز إلاّ وهو أبله أو نذل : غضب على صبي المطعم لكأس سيّئة الشطف ، وردّا على ملامة بسيطة من فريدريك قال له :

ـ كأنني سأزعج نفسي إرضاء لهكذا . أشخاص ، يربحون منك حتى ستة وثمانية آلاف فرنك في السنة ، وهم ناخبون وربما منتخبون ! آه ! كلاّ ، كلاّ !

ثم ، بمظهر بشوش :

- لكني نسيت أني أتحدّث إلى رأسمالي ، إلى موندور[1]،إذ إنك موندور ، الآن ! وعاد إلى التركة ، وعبّر عن هذه الفكرة : انّ الميراث الجانبي (أمر غير عادل في ذاته ، بالرغم من أنه مغتبط به) سوف يلغى في يومٍ ما ، في الثورة القادمة .

- تظن ؟ قال فريدريك .

- ثق بهذا ! أجاب . هذا لن يتأخر ! نعاني كثيراً ! حين أرى في الفقر أشخاصاً مثل سينيكال . . .

« دائماً هذا السينيكال ! » فكّر فريدريك .

- هل من جديد ، بعد هذا ؟ أما تزال عاشقاً للسيّدة أرنو ؟ لقد انتهى ذلك ، أليس كذلك ؟

أغمض فريدريك عينيه ، خافضاً رأسه ، لا يدري ماذا يجيب .

بخصوص أرنو ، أخبره ديلورييه أن جريدته تخصّ ، الآن ، هيسّونيه الذي حوّلها . صار اسمها : « الفن : مؤسّسة أدبيّة ، شركة مساهمة ، كل سهم بمئة فرنك ؛ رأسمالها : أربعون ألف فرنك » مع امكان كل مساهم تحسين صورته ؛ لأن « هدف الشركة طبع مؤلّفات المبتدئين ، وتجـذيب المواهب ، وربمـا العباقرة ، المصائب الأليمة التي تخفق القرائح الخ . . . ترى النكتة ! » مع ذلك فهناك شيء للعمل ، رفع أسلوب الجريدة ،

(١) مشعوذ من القرن السابع عشر جمع ثروة لا بأس بها .

ثم مع الاحتفاظ بالمحرِّرين أنفسهم ومع الوعد بتتمة المجموعة ، خدمة المشتركين بجريدة سياسيّة ؛ السلفات لن تكون ضخمة .

ـ هيّا ، ماذا ترى ؟ أتريد الإشتراك ؟

ما رفض فريدريك العرض ، إنّما يجب تركيز أعماله قبل ذلك .

ـ إذن ، إذا كنت بحاجة لشيء . . .

ـ شكراً ، يا عزيزي ! قال ديلورييه .

ثم راحا يدخنان متكئين على لوحة من مخمل ، على حدود النافذة . كانت الشمس تلمع ، والهواء ناعماً ، ورفوف العصافير تحوّم في الحديقة ؛ تماثيل البرونز والمرمر ، مغسولة بالمطر ، تتلألأ ؛ خادمات بمرايلهن يتحدّثن جالسات على كراسي ؛ وتُسمع ضحكات أطفال ، مع الهمس الدائم تحدّثه نافورة المياه .

أحسّ فريدريك نفسه مكدّراً بمرارة ديلورييه ؛ إنّما بتأثير الخمر الصاخب في العروق ، ما كان يشعر إلاّ بحالة سعادة ، بليدة التلذّذ ، كنبتة مكتفية بالحرارة والرطوبة ، نصف نائم ، مخدّراً ومتقبّلاً الضوء بملء وجهه . ديلورييه ، جفناه نصف مطبقين ، ينظر إلى البعيد ، بحيرة . تنهّد وطفق لنا يقول :

ـ آه ! كان أجمل ، حين كان كميل دي مولان ، واقفاً هناك على الطاولة يدفع الشعب على الباستيل ! يحيون ، كانوا ، ذلك الزمن ، يؤكدون ذواتهم ، قواهم ! محامون صغار أمروا قادة ، حفاة خلعوا ملوكاً ، بينما الآن . . .

صمت . ثم ، فجأة :

ـ عجباً ! المستقبل كبير !

وقال هذه الأبيات من برتيليمي ، وهو يدقّ على الزجاج :

« ستعود إلى الظهور تلك الجمعية الرهيبة التي منها ، بعد أربعين سنة ، رأسك يدوخ .

جبّارة تمشي بخطى واثقة بلا خوف » .

ـ لا أعرف البقيّة ! لكنّ الوقت متأخر ، لو نذهب !

وأكمل ، في الشارع ، عرض نظريّاته .

راح فريدريك ، من غير أن يستمع إليه ، يراقب في واجهات المتاجر الأقمشة والمفروشات الملائمة لسكناه ؛ وربما هي فكرة السيّدة أرنو ، ما جعله يقف عند بسطة تاجر سِقْط ، أمام صحون خزفية مزخرفة ثلاثة . مزدانة ، كانت ، بزخارف عربية صفراء ، بلمعان معدني ، ٥ الصحن منها بمئة قرش . وضعها جانباً .

ـ لو كنت مكانك ، قال ديلورييه ، كنت أشتري فضّيّة ، كاشفاً بحبّه للأشياء الفاخرة أصله الرهيف .

مذ صار وحده ، ذهب إلى بوما دير الشهير ، حيث أوصى على بناطلين ثلاثة ، وثوبين ، وعباءة مبطّنة بفرو ، وسترات خمس ؛ ثم إلى صانع أحذية ، فصانع قمصان وصانع برانيط ، طالباً إليهم جميعاً أقصى السرعة في التنفيذ .

بعد أيّام ثلاثة ، عند عودته من هافر ، وجد خزانته ملأى ؛ وقرر ، في استعجاله اللبس منها ، زيارة فوريّة لآل دمبروز . لكن الوقت مبكّر ، فما كادت تصير الثامنة .

« لو أذهب إلى الآخرين ؟ » قال في ذات .

وحيداً ، أرنو ، أمام المرآة يحلق . عرض عليه أخذه إلى موضع فيه يمرح ، وعلى ذكر السيّد دمبروز :

- آه ! هذا حسن ! سترى هناك بعضاً من أصدقائه ؛ تعالَ ! ستكون سهرة غريبة .

راح فريدريك يقدّم الأعذار ، عرفت صوته السيّدة أرنو ، فحيّته من وراء الفاصل ، لأن ابنتها متوعّكة ، وهي متألّمة ؛ ويُسمع ضجيج ملعقة على كأس ، وحفيف أشياء بلطف يحرّكونها في غرفة مريض . ثم اختفى أرنو ليودّع امرأته . يكدّس الحجج ، كان :

- تعرفين جيّداً أن الأمر جدي ! يجب أن أذهب ، بحاجة أنا إلى ذلك ، ينتظرونني .

- إذهب ، إذهب ، يا صديقي . إلْهُ !

نادى أرنو من بعيد عربة خيل :

- باليه - رويّال ! صالة عرض مونبنسييه ، ٧ .

ومتراخياً على الطنافس :

- آه ! كم اني متعب ، يا عزيزي . أكاد أتهاوى . عدا ذلك ، سأصارحك أنت . مال إلى أذنه ، وسراً :

- أبحث لأجد أحمر النحاس - المعروف عند الصينيينّ .

وشرح ما هو الطلاء والنّار الخفيفة .

وإذ وصل عند شيفيه ، أعطوه سلّة حملها معه في العربة . ثم انتقى لزوجته « المسكينة » عنباً ، أناناس ، ومأكولات لطيفة

أخرى ، وطلب أن تُحْمَل إليها في الغد الباكر .

انطلقا ، بعد هذا ، إلى صانع ألبسة مسرحيّة . فالأمر يتعلّق بحفلة تنكّرية . أخذ أرنو سروال مخمل أزرق ، وسترة مشابهة ، وشعراً مستعاراً أحمر ، وفريدريك دومينو[1]. نزلا شارع لافال ، أمام بيت مضاء في الطابق الثاني بفوانيس ملوّنة .

يُسْمَع ضجيج الكمنجات ، من أسفل الدرج .

ـ ياللشيطان ! إلى أين تصطحبني ؟ قال فريدريك .

ـ إنها فتاة طيّبة ! لا تخف !

فتح لهما الباب وصيف ، فدخلا غرفة الانتظار ، حيث مرميّة كدسات ، من سترات ومعاطف وأوشحة ، على كراسٍ . تقدّمت امرأة بزي خيّال من زمن لويس الخامس عشر . إنها الآنسة روز ـ أنيت برون ، سيّدة المكان .

ـ وبعد ؟ قال أرنو .

قُضي الأمر . أجابت .

ـ آه ! شكراً يا ملاكي !

ـ وأراد أن يقبّلها .

ـ إحذر يا غبيّ ستُفسد زينتي !

قدّم أرنو فريدريك .

ـ أدخل وافرح ، سيّدي ، أهلاً وسهلاً !

فتحت باباً وراءها ، وراحت تصرخ بتفخيم :

---

(١) لباس التقنّع .

ـ السيّد أرنو ، وأمير من أصدقائه !

ذُهل فريدريك أوّل الأمر ، من الأضواء . ما رأى سوى الحرير ، والمخمل ، والأكتاف العارية ، وكتلة من الألوان تتمايل على أنغام أوركسترا مختبئه وراء الإخضرار ، بين الحيطان الممدودة بالحرير الأصفر ذي رسوم بالباستيل بين مكان وآخر ، وشماعدين كبيرة كريستاليّة من طراز لويس السادس عشر . لمبات عالية كراتها غير مصقولة تشبه كرات الثلج ، تشرف على سلال أزهار موضوعة على مناضد مزخرفة في الزوايا ؛ وفي المقابل ، بعد غرفة ثانية صغيرة ، كنت تلاحظ في ثالثة ، سريراً ذا أعمدة حلزونية ، بجانبه مرآة من البندقيّة .

توقّف الرقص ، وعلا تصفيق وضجيج فرح عند مرأى أرنو متقدّماً وسلّته على رأسه ؛ الأطعمة كانت تؤلف حدبة في الوسط . ـ «حذار الثريّا !» رفع فريدريك عينيه : إنها الثريا المن خزف سكسونيّ قديم الكانت تزيّن محل « الفنّ الصناعي » ؛ مرّت بباله ذكرى الأيّام القديمة ؛ إلّا أنّ جنديّ مشاة في لباس بسيط ، عليه إمارات البلاهة التي يذكرها التقليد للمجندين ، انزرع أمامه رافعاً يديه علامة التعجب ؛ فعرف فيه صديقه القديم هيسّونيه ، رغم الشاربين الأسودين المخيفين الحادّي التروس يشوّهانه . أثقله البوهيمي بالتهاني ، ببربرة نصف ألزاسية ونصفها الآخر زنجي ، منادياً أياه بكولونيله . فريدريك ، المشوّش بكل هؤلاء الأشخاص ، لم يعرف ما يجيب . وإذ عادت من جديد الموسيقى ، قام الراقصون و الراقصات إلى الرقص .

حوالى الستين شخصاً كانوا . غالبيّة النساء في زي قرويّات أو مركيزات ، والرجال ، وأكثرهم في سنّ النضج في ألبسة سائقي العجلات ، أو حمّالي المرفأ أو البحّارة .

حاذى فريدريك الحائط وراح يتأمّل حلبة الرقص أمامه .

شيخ جميل مرتدٍ كقاضٍ أوّل في محكمة البندقيّة ، بسيمار طويل من حرير أرجوانيّ ، يرقص مع السيّدة روزانيت التي كانت ترتدي ثوباً أخضر ، سروالاً صوفيّاً وجزمة ليّنة بمهاميز ذهبيّة . الثنائيّ المواجه كان مؤلفاً من أرناؤ وطيّ محّمل سيوفاً تركية محدّبة وسويسريّة ذات عينين زرقاوين ، بيضاء مثله ، سمينة كسّماني ، بقميص فضفاضة ومخصّر أحمر .وامرأة شقراء كبيرة هي ممثّلة بكماء في الأوبرا ، تزيّت بزيّ أمرأة متوحشة لتلفت الانتباه إلى شعرها المنسدل حتى مأبض ركبتيها ؛ وغير قماطها الأسمر اللون ليس عليها سوى تنّورة جلديّة ، دمالج زجاجيّة ، وإكليل من بريق خدّاع ترتفع منه رزمة ريش طاووس . أمامها ، واحد ، على طريقة بريتشار ، بلباس غريب أسود واسع جداً ، يعيّن النغم بكوعه على نافذته . راعٍ صغير أزرق صاف وفضي كما ضوء قمر . يصدم عصاه بمزراق على رأس كاهنة باخوس ذات تاج من عنب ، على جنبها الأيسر جلد فهد وأخفاف قديمة كانت للممثلين بشرائط مذهّبة . في الجهة الأخرى ، بولونية بسترة قصيرة مخملية برتقاليّة ، تميل تنّورتها الشفّافة على جواربها الحريريّة ذات اللون الرمادي اللؤلؤيّ ، المضمومة بجزمة ورديّة مزنّرة بفرو أبيض . تبتسم ، هي ، لأربعينيّ ذي بطن متنكّر بلباس صبيّ الجوقة ،

ويقفز عالياً ، رافعاً ، بيدٍ درعه ، وممسكاً ، بالأخرى ، قلنسوته الحمراء . لكنها الملك ، النجمة ، إنّما كانت الآنسة لولو ، وهي راقصة شهيرة في حفلات الرقص العامة . بما هي غنيّة ، الآن ، فإنها تضع طوقاً من دانتيلاً على سترتها المخمليّة ؛ وبنطالها الحريري العريض ذو اللون الأحمر الورديّ ، لاصقاً بالردف ومزموماً على خصرها بوشاح كشمير ، له ، على امتداد درزته زهور كاميلية طبيعية بيضاء ، صغيرة . تبدو سحنتها الشاحبة ، المتورّمة قليلاً وذات الأنف الخانس ، أكثر وقاحة بتشعُّث شعرها المستعار حيث تضع قبعة رجالية من لبد رمادي ، مائلة فوق الأذن اليمنى ؛ وفي القفزات التي تقفزها ، كان حذاؤها الخفيف الزرد الألماسي ، يكاد يلامس أنف جارها ، بارون ضخم من القرون الوسطى ، مقيّدٍ بشكّة حديديّة . هناك أيضاً ملاك ، سيف ذهبي في اليد ، جناحا إوز عراقيّ على الظهر ، يروح ويجيء ، مضيّعاً ، كلّ لحظة ، مراقصه ، بزيّ لويس الرابع عشر ، لا يفهم شيئاً في الوجوه ويشوّش الرقص .

وهو ينظر هؤلاء الأشخاص ، أحسّ فريدريك بتخلٍّ ، بضيق . ما زال يفكّر في السيّدة أرنو ، وبدا له أنه يشارك في شيء عدائي مدبّر ضدّها .

عندما انتهت الرقصة ، دنت منه السيّدة روزانيت . كانت تلهث قليلاً ، وواقية عنقها المصقولة كما مرآة ، ترتفع ، بلطف ، تحت ذقنها .

ـ وأنت ، سيّدي ألا ترقص ؟

اعتذر فريدريك ، ما كان يعرف أن يرقص .

ـ حقّاً ! ولكن معي ؟ طبعاً تعرف !

وعلى رجل واحدة ، الأخرى منحنية قليلاً ، وقفت تداعب بيدها رمّانة سيفه اللؤلؤيّة ، وتأمّلته دقيقة ، نصف متوسّلة ، نصف ساخرة . قالت أخيراً : « طبت مساء ! » ، استدارت واختفت .

طفق فريدريك ، منزعجاً من ذاته ، غير عارف ما يعمل ، يدور في الحفل .

دخل صالون السيّدات الصغير ، المبطّن بالحرير الأزرق الباهت ، مع باقات من أزهار الحقول ، بينما في السقف ، وفي دائرة من خشب مذهّب ، رسوم حب ، ضافية في سماء صافية الزرقة ، تلهو كالأطفال على غيوم بشكل زغب . هذه الأناقات التي قد تكون اليوم لروزانيت سخافات ، أذهلته . وأعجب بكل شيء : الزهور الأرجوانية الأصطناعيّة تزيّن دائر المرآة ، ستائر المدفأة ، الأريكة التركيّة ، وفي تجويف في الحائط ، نوع من خيمة منسوجة بحرير ورديّ ، مع موسّلين أبيض . أثاث أسود مرصّع نحاساً يفرش غرفة النوم ، حيث يقوم ، على منبر مغطى بجلد إوز عراقيّ ، السرير الكبير ذو القبّة وذو ريش النعام . دبابيس رأس من جواهر مركّزة في مدبسات ، خواتم على صوانٍ ، حلى مرصّعة ذوات دوائر مذهّبة ، وعلب حلى فضّيّة ، كلّها ، تُرى كانت ، في العتم ، بضوء تفيضه جرّة من نوع « بوهام » ، معلّقة بثلاث سلاسل قصيرة . يُلاحظ ، كذلك ، من خلال فتحة باب ،

دفيئة تملأ كل عرض سطح ، وفي نهايتها مطيرة في الطرف الآخر .

إنه مكان للتسلية . وفي نزوة مفاجئة من شبابه ، أقسم أن يستمتع ، تجرّأ ؛ وإذ عاد إلى مدخل الصالون ، حيث ازداد الناس (كل شيء يتموّج بذرورية مضيئة) ، ظلّ واقفاً يتأمّل الحلبة ، رافاً عينيه ليرى أحسن ، ـ ومتنشّقاً أريج النساء الذي كان يدور كقبلة هائلة منتشرة .

إنّما بالقرب منه ، في الجهة الأخرى من الباب ، يقف بيلّران ؛ ـ إنه في زينة متكاملة ، يده اليسرى في صدره وممسكاً ، باليمنى ، إلى قبّعته ، قفّازاً أبيض ممزّقاً .

ـ عجباً ! مرّ زمن طويل ولم نرك ! أين كنت ؟ في رحلة إلى إيطاليا ؟ أمدهشة كما يقولون ؟ أم هي مبتذلة ؟ لا فرق ! هل ستأتيني بمخطّطات رسومك في يومٍ ما ؟ ومن غير أن ينتظر جوابه ، راح الفنّان يتحدّث عن حاله .

كان قد تقدّم كثيراً بعدما عرف ، نهائياً ، حماقة النّسق يجب ألاّ ننقّب كثيراً عن الجمال والوحدة في اللوحة ، بل عن الشخصّية والتنوّع .

ـ لأن كل شيء موجود في الطبيعة ، إذن كل شيء شرعيّ ، ليّن . فقط ، يلزم إلتقاط الإشارة . اكتشفت السر ! وكرّر مرّات وهو يلكزه بكوعه : ـ اكتشفت السر ، تلاحظ أنت ! هكذا ، أنظر هذه المرأة الصغيرة ذات التسريحة الشبيهة بأبي الهول ، إلهي ترقص مع حوذي روسي ، هذا صاف ، جاف ، ثابت ، كله مستعرض وذو نبرات فجّة : أزرق نيلي تحت

العينين ، صفيحة قرمزيّة على الخدّ ، سخيم على الصدغين ؛ طق ! طق !

وراح يرمي في الهواء ، بإبهامه ، ما يشبه ضربات الريشة .

ـ بينما الضخمة ، هناك ، تابع دالاً على السمّاكة ، ذات التوب ذي اللون الكرزي بصليب ذهبيّ في العنق وخمار مقصّب معقود على الظهر ، ـ لا شيء إلاّ استدارات ؛ المخاران دَهِشان كأجنحة طاقيّتها ، زاويتا فمها تنفرجان ، ذقنها تنخفض ، كل ما فيها بدين ، غير واضح ، غزير ، هادىء ومشع ، ريبنز حقيقي ! مع ذلك هن كاملات ! أين المثال إذن ؟ ـ اغتاظ . ـ من هي المرأة الجميلة ؟ ما هو الجمال ؟ آه ! الجمال ! تحدّده لي . . .

قاطعة فريدريك ليعرف من هذا البزيّ بيارو ، ذو الجانب الشبيه بالتيس ، وهو يبارك كل الراقصين مغنياً أغنية رعيوية .

ـ لا شيء ! إنه أرمل ، أب لصبيان ثلاثة . يتركهم من دون سراويل ، يمضي حياته في النادي ويضاجع الخادمة .

ـ وهذا المتنكّر بثياب مشرف ملكي ، المتحدّث في فتحة النافذة إلى « المركيزة بومبادور » .

ـ المركيزة هي الآنسة فاندايل ، ممثّلة قديمة في الجيمناز عشيقة « القاضي » ، الكونت دوبالازو . من عشرين سنة هما معاً ، ولا أحد يعرف لماذا . هل كان لها عينان جميلتان هذه المرأة ؟ وبالنسبة إلى الشخص ، قربها ، يسمّونه العقيد هيربيني ، ليس له كثروة إلا صليب الشرف ومعاشه ، يخدم كعمّ للشابات المرحات في

الاحتفالات ، ينظّم المبارزات ويتعشّى في المدينة .

ـ هل هو وغد ؟ قال فريدريك .

ـ لا ! انه رجل شريف !

ـ آه !

سمّى له الفنّان آخرين ، وحين رأى سيّداً يرتدي مثل أطبّاء موليير ، ثوباً أسود من نسيج صوفي متين ، لكنه مشقوق من أعلى إلى أسفل ليُظهر كل حلبّه ، قال :

ـ هو يمثّل الدكتور دو روجيس ، ساخطاً لأنه ليس شهيرا كتب كتاباً إباحياً في الطب ، يتملّق الناس . وهو كتوم تعبده هؤلاء النسوة . يتجرجر ، هو وامرأته (هذه الهزيلة الكستنائية بثوب رمادي) ، في كل الأماكن العامة وفي سواها . برغم العمل ، حصلت عندهما حفلات شاي فنية يقال فيها شعر .

ـ احترس !

بالفعل تقدّم منهما الطبيب . وألّفوا ، معاً ، عند مدخل الصالون ، جماعة متحدّثين ، وانضمّ إليهم هيسّونيه ثم حبيب المرأة « المتوحّشة » ، وهو شاعر شاب ، متفاخر ، بمعطف قصير على طريقة فرنسوا الأوّل ، وأخيراً ، انضم شخص متنكر بزي تركيّ من رجال الجمارك . لكن سترته ذات الشارات الصفر ، كانت تنقّلت على ظهر أطبّاء الأسنان المتجوّلين ، وبنطلونه العريض ذو الثنبة أحمر أجرد ، عمامته ملتفة ، كأنقليس ، على الطريقة التترية بمظهر مسكين ، كل ثوبه المحزن جعل النساء لا تخفي الاشمئزاز . عزّاه الطبيب بمديح كثير عن « جمّالة الميناء » عشيقته . هذا التركي كان ابن صاحب مصرف .

اتجهت روزانيت ، بين مربّعي رقص ، إلى المدفأة ، حيث يستلقي ، في كرسيّ مريح ، عجوز قصير بدين ، بثياب كستنائية أزراره مذهّبة . يبدو مرحاً ، بالرغم من خدّيه الرخوين المتدلّين على ربطة عنقه البيضاء وشعره الأشقر المتجعّد طبيعياً كوبر كلب جعيد .

استمعت إليه ، مائلة نحو وجهه ، ثم هيّأت له كأس شراب ، ما كان شيء أكثر نعومة من يديها تحت كميها اللذين من دانتيلا واللذين يتجاوزان زخارف الثوب الأخضر . بعدما شرب الرجل الطيّب ، قبّلهما .

ـ إنه السيد أودري ، جار أرنو !

قال بيلّران ضاحكاً : لقد فقده !

ـ كيف ؟

حوذيّ أخذها من خصرها ، وابتدأت رقصة فالس . حينها ، نهضت كل النساء برشاقة . وابتدأت تنانيرهنّ وأوشحتهنّ وقبّعاتهن تدور .

كنّ يدرن قربه ، حتى انه يرى نقاط العرق على جباههن .

ـ وهذا الدوار المتزايد والمتناغم ، المدوّخ ، الباثّ في باله نوعاً من السكر ، يثير فيه صوراً أخرى ، بينما هنّ ، جميعاً ، لهن الانبهار ذاته ، ولكل منهن إثارة مميّزة حسب نوع جمالها . « البولونيّة » التي كانت مستسلمة بشكل منحط ، أثارت فيه الرغبة بضمها إلى صدره ، منسحبين معاً في مركبة جليد فوق سهل مغطّى بالثلج . وتحت خطى « السويسريّة » التي كانت ترقص وجذعها مستقيم وأجفانها مطبقة ، كانت تدور آفاق لذة حسية هادئة في شاليه على ضفاف بحيرة . ثم ، فجأة ، إذ أحنت كاهنة باخوس ، إلى الوراء ، رأسها الأسمر ، جعلته

يحلم بمداعبات نزقة في غابات دفلى في زمن عاصف ، على ضجيج طبلات متشابك . أما « السمّاكة » التي كان النغم السريع يتعبها ، فتضحك عالياً ؟ وأراد لو يشرب معها حتى الانطفاء ، داعكاً خمارها بملء يديه ، كما في الزمن السحيق الجميل . لكنّ حمّالة الميناء ، الأصابعها رشيقة بالكاد تلامس الأرض ، فبدت تخبّىء في ليونة أعضائهاورصانةوجههاكل لباقات الحب الحديث، الذي له صحة علم وتحرّك عصفور . روزانيت تدور ، يدها على خصرها ، شعرها المستعار القافز على رقبتها ، ينشر حواليها مسحوق السّوسن . وفي كل دورة لها ، في نهاية مهاميزها الذهبية ، ما استطاعت إيقاع فريديك في فخّها .

عند آخر تساوق لرقصة الفالس ، ظهرت الآنسة فاتناز ، على رأسها محرمة جزائرية ، قروش كثيرة على جبينها ، كحل على عينيها ، مع سترة من كشمير أسود تصل حتى تنورة صافية ، مفضّضة ، وفي يدها دفّ من الباسك .

وراءها يسير صبي كبير ، في ثوب دانتي الكلاسيكي ، وهو (ما كانت تخفي ذلك الآن) المغنّي القديم في « الالها مبرا » ، ـ واسمه أوغيست دو لامار ، كان تسمّى أوّلاً أنتينور ديلاّمار ثم دكاس ، ثم بنمار وأخيراً دكار ، مغيّراً ومحسّناً اسمه ، حسب شهرته المتنامية ، لأنه ترك الجوقة الصاخبة إلى المسرح ، ومن قريب بدأ ، بضجة في مسرح « الأمبيغو » بميلودراما : « غاسباردو الصيّاد » .

إذ رآه هيسّونّيه اكفهرّ . مذ رُفضت مسرحيته صار يكره الممثّلين . خيلاء هؤلاء السادة لا تُتَصوّر ، وهذا بخاصة ! ـ « ياله من

مدّع » !

حيّا دلمار روزانيت ثم استند على المدفأة . وثابتاً بقي ، يد على القلب ، الرجل اليسرى إلى الأمام ، العينان في العلاء ، مع تاجه الذي من غار مذهّب فوق اسكيمه ، مجتهداً في أن يجعل نظرته مملوءة شعراً لسحر النساء . تحلّقوا في دائرة كبيرة حوله .

لكنّ الآنسة فاتناز ، بعدما عانقت روزانيت طويلاً ، جاءت تتوسّل هيسّونّيه لأن يعيد النظر في أسلوب كتاب تربية تريد طبعه وهو كتاب أدب وأخلاق . وعد رجل الأدب بذلك . حينها سألته إذا كان لا يستطيع في واحدة من الجرائد التي يصل إليها ، أن يمدح قليلاً صديقها وأن يقدّم له دوراً في ما بعد ونسي هيسّونّيه أن يشرب كأس « ينش » .

كان أرنو صنع هذا الشراب ، وراح يقدّمه ، بلذة إلى الناس ، يتبعه وصيف الكونت حاملاً صينية فارغة .

وعندما جاء ليتجاوز السيّد أودري ، أوقفته روزانيت

ـ وبعد ، ما هذا العمل ؟

احمرّ قليلاً ، وأخيراً قال الرجل :

ـ تقول صديقتنا انه سيكون لك فضل . . .

ـ كيف لا يا جار ! كله لك .

ولُفظ اسم السيّد دمبروز ؟ وبما أنهم كانوا يتحدّثون بصوت منخفض ، لم يسمعهم فريدريك بوضوح ، فحمل نفسه إلى الزاوية الأخرى من المدفأة حيث روزانيت ودلمار يتحدثان .

كان للممثل الفاشل مظهر خشن ، مصنوع ، مثل ديكور

المسرح ، ليراه الناس من بعيد : يدان ضخمتان ، رجلان كبيرتان ، فكّ ثقيل . كان يغتاب الممثّلين الأكثر شهرة ، يتحدّث ، متعاليا ، عن الشعراء ، كان يقول : « عضوي ، بنيتي الجسدية ، وسائلي » ، مزخرفاً حديثه بكلمات قليلة الوضوح بالنسبة إليه ذاته ، وهو يفضّلها من مثل : « مماثل ، تجانس . . . » .

تستمع إليه روزانيت وتهزّ رأسها استحساناً . كنت ترى الاعجاب ظاهراً تحت حمرة خدّيها ، وشيء ما رطب يمرّ كحجاب في عينيها الصافيتين اللتين لا يتحدّد لونهما . كيف يفتنها رجل كهذا ؟ وراح فريدريك ، في أعماق ذاته ، يحاول احتقاره أكثر .

الآنسة فاتناز ، هي الآن مع أرنو . وتنظر ، بين وقت وآخر ، وهي تضحك عالياً ، إلى صديقتها التي لا يحيد السيّد أودري بنظره عنها .

ثم اختفى أرنو والآنسة فاتناز ، وصار الشاب يحادث روزانيت بصوت خافت .

ـ طيّب ، نعم ، اتفقنا ! أتركني وشأني .

وطلبت إلى فريدريك ليرى هل أرنو في المطبخ .

عدد كبير من كؤوس نصف ملأى تغطّي السقفيّة ؟ والقَلْي السريع جارٍ في القدور الكبيرة، والترسيّة * والمقلاة. يأمر أرنو الخدم برفع الكلفة ، يخنق الخردلية ، يذوق الصلصة ، يمازح الخادمة .

ـ حسناً ، أعلمها ! قال ، سأبدأ الضيافة .

---

* إناء يطبخ فيه سمك الترس وهو يشبهه .

توقّف الرقص ، عادت النساء للجلوس ، الرجال يتمشّون . وسط الصالون ، نفخ الهواء واحداً من الستائر المسدلة : والمرأة « السفنكس » ، بالرغم من تنبيهات الجميع ، تعرّض للهواء ذراعيها العرقانين . أين روزانيت ؟ بحث عنها فريدريك أبعد ، حتى في صالون السيّدات الصغير والغرفه . كان التجأ ، إلى هناك ، بعضهم ليكون وحيداً أو اثنين اثنين . يختلط الظل والهمس . ضحكات خافتة تحت المحارم ، ونلمح ، قريباً من الصدور ، أصوات مراوح ، بطيئة وحلوة كما خفقات أجنحة عصفور جريح .

وهو يدخل المِصْري ، رأى ، تحت أوراق نبتة الكالاديوم العريضة ، قريباً من نافورة المياه ، دلمار ممدداً على بطنه على أريكة ، روزانيت ، قريبة منه ، يدها في شعره ، وينظران بعضهما . في اللحظة عينها ، دخل أرنو من الجهة الأخرى ، جهة المِطْيرة . نهض دلمار بقفزة ، ثم خرج بخطى هادئة لا يلتفت وراءه. ، وحتى ، توقّف قرب الباب ليقطف زهرة خبّيزة جعلها في عروقه . أحنت روزانيت رأسها ، فلاحظ فريدريك ، الذي كان يراها من جانبها ، أنها تبكي .

ـ عجباً ، ما بكِ ؟ قال أرنو .

رفعت كتفيها ولم تجب .

ـ هل بسببه ؟ تابع .

طوّقته بذراعيها ، وقبّلته ، على مهل ، في جبينه قائلة :

ـ تعرف انني أبقى أحبك دوماً . لا نفكّر فيه بعد ! هيّا إلى العشاء !

تنير ثريّا ، ذات أربعين شمعة ، الغرفة العالية الجدران المختفية

تحت زخارف قديمه معلّقه . وهذا النور الساطع النازل عمودبا يجعل سمكة الترس الضخمة أكثر باصاً بين المقبّلات والفواكه وسط شرشف تحيطه صحون ملأى بثريدة سلطعونية. راحت النساء تجلس الواحدة قرب الأخرى فيسمع حفيف تنانيرهن وقمصانهن الفضفاضة وأوشحتهنّ ، والرجال تمركزوا واقفين في الزوايا . أجلس بيلّران والسيّد أودري قرب روزانيت ، أرنو في المقابل . بالازو وصديقنه خرجا للتوّ .

- رحلة سعيدة ، قالت ، فلنبدأ !

فابتدأ « صبي الجوقة » ، وهو رجلي فكه ، صلاة المائدة راسماً إشارة الصليب .

استنكرت السيّدات الأمر وبخاصة « السمّاكة » وهي أم فتاة تربدها امرأة شريفة . أرنو ، كذلك ، « ما أحبّ هذا » ، قائلاً بضرورة احترام الديانة .

دقت ساعة المانية ، مجهّزة بديك ، الساعة الثانيه ، فأحدثت ، على الصياح ، مزاحاً وتفكهات . نبع ذلك كل أنواع الأحاديث : توريات ، طرائف ، تبجّحات ، مراهنات ، أكاذيب تُحسب حقائق ، أقوال بعيده الاحتمال ، مزيج كلمات ، سر بعاًما تناثر وصار أحاديث خاصة . دارت الخمور ، تتابعت الأطباق ، فقطّع « الدكتور » . وكانوا يتراشقون بليمونه ، بسدادة قنينة ، بعضهم يترك مكانه ليتحدّث إلى آخر ، وغالباً ما كانت تستدير روازنيت صوب دلمار ، جامداً وراءها . بيلّران يثرثر ، السيّد أودري يبنسم . الآنسة فاتناز تكاد تكون وحدها أكلت هرم السلطعون ، وتسمع القوقعة تحت

أضراسها الطويلة . « الملاك » الجالس على مقعد البيانو (هو المكان الوحيد الملائم لجناحيه) ، يعلك بهدوء وانتظام .

ـ يا للأكل اللذيذ ، كان يردّد « صبيّ الجوقة » مبهوراً ، يا للأكل الطّيب !

وراحت المرأة « السفنكس » تجرع ماء الحياة ، تصرخ بصوت مرتفع ، نهيج كما جني . فجأة ، انتفخ خدّاها ، وإذما عادت تستطيع مقاومة الدم الذي كاد يخنقها ، وضعت فوطتها على فمها ، ثم رمتها تحت الطاولة .

رآها فريدريك .

ـ ليس شيئاً !

وعلى إلحاحه للذهاب والاعتناء بنفسها ، أجابته متمهّلة .

ـ ماذا ينفع ؟ هذه كسواها ! الحياة ليست طريفة !

حينها ارتجف ؛ أخذته كآبة جليديّة ، كما لو أنه رأى عوالم كاملة من الشقاء واليأس ، موقد فحم قرب فراش ميدان ، وجثث معرض الجثث المجهولة الهويّة ، وحنفيّة مياه باردة تسيل على شعرها .

في هذه الأثناء كان هيسّونيه مقرفصاً قرب « المرأة المتوحشة » ، ناهقاً بصوت مبحوح ليقلّد الممثّل غراسّو :

ـ لا تكوني متحجرة العاطفة ، يا سيلوتا ! بهيج هذا الاحتفال العائلي ! أسكريني لذات حسية ، حباً ! فلنمجَن ! فلنمجن !

وراح يقبّل النساء في أكتافهن . ترتعشن ملسوعات بشاربيه ، ثم رأى أن يكسر صحناً على رأسه ، قلّده آخرون ، وابتدأت قطع الصيني تتطاير كما القرميد في هواء عاصف ، فهتفت « حمّالة الميناء » :

- لا تهتمّوا ! لا تكلّف شئاً ! البورجوازي ، صانعها ، بهديها منها !

كل الأعين اتجهت إلى أرنو . أجاب :

- آه ! على الفاتورة ، إذا شئت .

مركّزاً ، ولا شك ، على ألّا يبدو أو يبقى عشيق روزانيت .

لكنّ صوتين غاضبين ارتفعا :

- غبيّ !

- بذيء !

- بأمرك !

- بأمرك أنت !

إنه « غيال » الذي من القرون الوسطى و « الحوذي » الروسيّ يتنازعان . هذا كان قال إن الشكات* ليست دليل شجاعة، الآخر اعتبر الأمر شتيمة . أراد المشاجرة ، كلّهم تدخّلوا ، وراح « العقيد » وسط الصخب ، يحاول أن يسمع صوته .

إسمعوني أيها السادة ! كلمة ! عندي اختبار ، أيها السادة !

وإذ ضربت روزانيت سكينها على كأس ، ران صمت . وقالت وهي تنظر إلى الفارس المحتفظ بخوذته ، ثم إلى الحوذيّ المعتمر قبّعة ذات وبر طويل :

- إنزع ، أنت ، قدرك ! إنها تثيرني ! وأنت ، هناك ، رأسك الشبيه برأس الذئب . أطيعاني ! أنظرا كتفيّ ! أنا المارشالة !

* مجموع آلات الوقاية المعدنية كالدرع والخوذة . . .

توقفت مشاحنتهما وصفّق الجميع هاتفين :

ـ لتحيا المارشالة ! لتحيا المارشالة !

عندئذ تناولت قنينة شمبانيا ، وبدت تصب عن علٍ ، في كؤوس يقدّمونها إليها . وبما أن الطاولة عريضة جداً ، كان المدعوّون ، والنساء بخاصة ، يأتون إليها واقفين على رؤوس الأصابع ، على قضبان الكراسيّ ، ممّا ألّف ، لدقيقة ، جماعة هرميّة من تسريحات الشعر ، من الأكتاف العارية ، من الأيدي الممدودة ، من الأجساد المائلة . وتناثر خمر بينهم جميعاً ، لأن « بيارو » وأرنو ، الواقفين في زاويتي الغرفة ، وكلّ منهما يحمل قنينة ، راحا يطرطشان الوجوه . عصافير المطيرة الصغار ، وقد ترك بابها مفتوحاً ، اقتحمت الغرفة ، نافرة ، طائرة حول الثريّا ، خابطة على الزجاج والأثاث . وغطّ بعضها على الرؤوس ، كأنه زهر عريض في الشّعر .

الموسيقيّون كانوا ذهبوا . أتوا بالبيانو من غرفة الانتظار إلى الصالون . جلست إليه الآنسة فاتناز ، يرافقها « صبيّ الجوقة » ناقراً دفّاً ، وشرعت تعزف رقصة الكدريل بهيجان ، ناقرة ملامس البيانو كحصان هائج ، متمايلة القامة لتعزف أفضل . اصطحبت المارشالة فريدريك ، هيسّونّيه يستدير على ذاته ، « حمّالة الميناء » تتصرّف كمهرّج ، « بيارو » يقلّد نوعاً من القردة ، « المتوحّشة » ، ذراعاها مبعدتان ، تترجّح كزورق إنقاذ . وإذتعبوا ، جميعاً ، توقّفوا ، وفُتحت نافذة .

ودخل الفجر مع نداوة الصباح . خيّمت دهشة ثم صمت . ارتعشت الشعلات الصفراء ، وبين لحظة وأخرى ، تتشظّى

رؤوسها ، وانتثرت على الأرض ، شرائط وأزهار وحبّات لؤلؤ . بقع « بنش » ومشروب لطّخت المنافذ المزخرفة ، اتّسخت البُسط ، دُعكت الثياب ، اغبرّت ، نزلت الضفائر على الأكتاف ، وأظهر الماكياج وجوهاً شاحبة ، بعدما سال مع العرق ، وبدت الأعين حمراء ترفّ .

« المارشالة » كانت ندية ، كحين خروجها من الاستحمام ، خدّاها ورديّان ، عيناها لامعتان . رمت ، بعيداً ، شعرها المستعار . وانهدّ شعرها حواليها كجزّة لم يعد يُرى من ثيابها سوى سروالها مما أحدث أثراً ساخراً ولطيفاً معاً .

« المرأة السفنكس » ، التي أسنانها تصطك حرارة ، كانت في حاجة إلى وشاح .

ركضت روزانيت إلى غرفتها لتجيء به ، وإذ تبعها الآخر ، أقفلت ، بقوة ، الباب في وجهه .

لاحظ « التركي » عالياً أن أحداً لم يرَ السيّد أودري يخرج . ما انتبه أحد لهذا الخبث . كانوا متعبين .

ثم ، وهم ينتظرون العربات ، التفّوا بالرأسيات والمعاطف . دقّت السابعة . المرأة « الملاك » لا تزال إلى الطاولة أمام مزيج من زبدة وسردين . و « السماكة » ، قربها ، تدخّن مقدمة إليها نصائح حول أمور الحياة والوجود .

وصلت أخيراً العربات الخفيفة ، فانصرف المدعوّون . كان على هيسّونيه أن يقرأ ، قبل غدائه ، ثلاثاً وخمسين صحيفة ، « المتوحّشة » عندها تمرين في المسرح ، بيلّران موديل ، « صبيّ

الجوقة » ثلاثة مواعيد . لكن « الملاك » مصابة بعوارض عسر هضم وما استطاعت النهوض . حملها « البارون » القرن متوسّطي ، إلى العربة .

- انتبه لجناحيها ! صرخت « حمّالة الميناء » من النافذة .

كانوا على قرص الدرج حين قالت الآنسة فاتناز لروزانيت :

- وداعاً ، حبيبتي ! كانت سهرتك لطيفة جداً .

ثم مالت إلى أذنها :

- تحفظي !

- إلى أوقات أفضل ، أجابت « المارشالة » مدبرة ، على مهل .

أرنو وفريدريك معاً عادا كما أتيا . بدا تاجر الخزفيّات كامد اللون إلى حدّ جعل رفيقه يظنه متعباً .

- أنا ؟ أبداً !

وراح يعضّ شاربه ، يفرك حاجبيه ، فسأله فريدريك إذا كانت مشاغله هي التي تؤرقه .

- أبداً !

ثم فجأة

- أنت تعرفه ، أودري ، أليس كذلك ؟

وبلهجة حاقدة :

- إنّه غني ، هذا الوغد العتيق !

بعدها تحدّث أرنو عن طبخة مهمة يجب إنهاؤها الليلة في مصنعه

يريد أن يراها . سيذهب القطار بعد ساعة . « في هذه الأثناء يجب أن أذهب أقبل امرأتي » .

« آه ! زوجته ! » فكّر فريدريك .

ثم نام وألم لا يطاق في رأسه ، وشرب قنينة ماء ليروي عطشه .

عطش آخر كان اعتراه ، إلى النساء ، إلى البذخ وإلى كل ما تحمله الحياة الباريسية . أحسّ نفسه ضائعاً إلى حدّ ما ، كرجل ينزل عن بارجة ، وفي رؤ يا أوّل النوم ، رأى تمرّ وتعود ، باستمرار ، كتفا « السمّاكة » نهدا « حمّالة الميناء » ، فخذا « البولونيّة » شعر « المتوحّشة » . ثم ظهرت عينان سوداوان كبيرتان لم تكونا في الحفلة ، وخفيفتان كفراشات ، ملتهبتان كمشاعل ، تروحان ، تجيئان ، تتموّجان ، تصعدان في الافريز ، تهبطان حتى فمه . استبسل فريدريك ليعرف هاتين العينين ، ولم يتوصّل . أخذه الحلم ، وبدا له أنه مكدون وأرنو إلى عربة خيل وأن « المارشالة » مقرفصة فوقه ، تبقره بمهاميزها المذهّبة .

II

وجد فريدريك ، في زاوية شارع ريمفور ، فندقاً صغيراً ، واشترى ، في وقت معاً ، العربة الخفيفة ، الجواد ، الأثاث وحوضي زهور من عند أرنو ليضعهما من جهتي باب الصالون . وتضم شقته غرفة وغرفة منفصلة . رأى أن يُسكن معه ديلورييه . ولكن كيف يستقبلها ، هي ، عشيقته ، العتيدة ؟ وجود صديق سيكون محرجاً . هدم الحائط الذي بين الحجرتين ليوسع الصالون ، وجعل من الغرفة المنفصلة ، غرفة تدخين .

اشترى مجموعات الشعراء الذين يحبّ ، وكتب رحلات ، أطلس ، قواميس . كانت له تصاميم أعمال لا عدّ لها ، يستعجل العمّال ، يدور على المحلاّت ، وفي سروره اللامتناهي ، يشتري كل شيء بلا مساومة .

من خلال حساب مقاوليه ، رأى فريدريك أنه سيدفع ، قريباً ، حوالى أربعين ألف فرنك ، عدا رسوم الارث ، وهي تفوق السبعة وثلاثين ألفاً . وبما أن ثروته تكمن في تملك الأراضي فقد كتب إلى كاتب عدل هافر ليبيع منه حصّة بها يتخلّص من ديونه ويكون له مبلغ في تصرفه . وإذ أراد معرفة هذا الشيء المبهم ، اللامع غير المحدّد ، والذي يسمّونه العالم ، سأل ، كتابة ، آل دمبروز ، إذا في وسعهم

استقباله . أجابت السيّدة أنها تنتظر زيارته في الغد .

كان نهار استقبال . في الساحة عرُبات متوقّفة . أسرع خادمان تحت مظلّة الباب ، وثالث ، في أعلى الدرج ، راح يمشي أمامه .

اجتاز غرفة استقبال ، غرفة أخرى ثم صالوناً ذا نوافذ عالية ، ومدفأته الهائلة تحمل ساعة كبيرة على شكل كرة مع إناءين من بورسلين رائعين حيث حزمتا شماعدين تنتصبان كمجموعة جنيبات برية متداخلة الأغصان ، مذهبة . في الجدران لوحات على نمط الاسباني ريبيرا ، انسدلت الأسجاف المزخرفة بعظمة ، وللكراسي المريحة ، والمنافذ المزخرفة ، والطاولات ، وكل الأثاث الذي من الطراز الامبراطوري ، كان لها ، جميعها ، هيبة وشيء من ديبلوماسيّة . ابتسم فريدريك ، لذة ، بالرغم منه .

وصل أخيراً إلى شقّة بيضاوية مطلية باللون الزهري الغامق ، مليئة بأثاث ناعم ، تضيئها مرآة واحدة تشرف على حديقة . السيدة دمبروز جالسة قرب النار ، وحواليها ، على شكل دائرة ، حوالي اثني عشر شخصاً . وبكلمة لطيفة ، أشارت إليه بالجلوس ، إنما من دون أن تبدو عليها لهفة .

كانوا يمتدحون ، حين دخل ، فصاحة الأب كور . ثم راحوا يشتكون من خلاعة الخدم ، بسبب سرقة اقترفها فرّاش ، ودار القيل والقال . السيّدة دو سوميري الهرمة كانت مزكّمة ، الآنسة دو تورفيزو ستتزوّج ، آل مونتشارّون لن يعودوا قبل نهاية كانون الثاني ، ولا آل بريتنكور ، فهم يطيلون ، الآن ، البقاء في الريف . وكأنّ تفاهة الأحاديث متعلّقة بترف الأشياء المحيطة بهم ، فما يقولون أكثر غباء من

طريقة تحدّثهم ، من دون هدف ، من دون تتابع ، ومن دون حياة . مع هذا ، فهناك أناس لهم خبرة في الحياة : وزير سابق ، خوري رعيّة كبيرة ، اثنان أو ثلاثة موظفين كبار ، يوجدون ، كانوا ، في الأماكن العامة الأكثر ارتياداً . بعضهم يشبه السيّدات المسنّات المرهقات ، آخرون يشبهون وسطاء مهرة ، ومسنّون يصطحبون زوجاتهم وكأنهن أحفاد لهم .

تستقبلهم السيّدة دمبروز بلطف . في حديثهم عن مريض ، تفرك حاجبيها بلوعة ، وتبدو فرحة عند الحديث عن حفلات أو سهرات ستُحرم منها قريباً ، لأنها ستُخرج ابنة أخ زوجها ، وهي يتيمة ، من مدرستها الداخليّة . فامتدحوا تفانيها ، هكذا يليق بربّة العائلة أن تتصرف .

راقبها فريدريك . بَشرة وجهها الكامدة بدت رخوة وبطراوة غير ذات بريق ، كبشرة ثمرة محفوظة . لكن شعرها الملَوْلَب على الطريقة الانكليزية ، كان الفم من الحرير ، عيناها صافيتا الزرقة اللامعة ، كل حركاتها ناعمة . جلست على أريكة لشخصين ، في الطرف ، تداعب شرّابات حمراء لستار ياباني ، لتظهر ، ولا شك ، يديها : يدان طويلتان ضيّقتان ، وإلى حدّ ما ضعيفتان ، بأصابع مقلوبة من أطرافها . ترتدي ، كانت ، ثوباً رمادياً من نسيج متموّج ، بصدار عالٍ كما واحدة طهريّة .

سألها فريدريك إن كانت لن تأتي هذه السنة إلى فورتيل . ما كانت ، تعرف ، بعد . تصوّر أن نوجان تضجرها . تضاعفت الزيارات . حفيف أثواب دائم على السجّاد ، السيّدات الجالسات على

أطراف الكراسي يطلقن ضحكات صغيرة ، يتلفظن بكلمتين أو ثلاث ، ويذهبن ، خلال خمس دقائق ، مع فتياتهن . وسريعاً ما صار الحديث مستحيلاً ، فاستعدّ فريدريك للانسحاب ، فقالت له السيّدة دمبروز :

- كل أربعاء ، سيّد مورو ، أليس كذلك ؟ معوّضة بجملتها الوحيدة هذه ، إهمالها .

كان سعيداً . وانطلق يتنشّق ، في الشارع ، نسمة هواء نديّة ، ولأنه بحاجة إلى جو أقل تصنّعاً ، تذكّر أن عليه زيارة « للمارشالة » .

كان باب غرفة الانتظار مفتوحاً . ركض كلبان طويلا الوبر . هتف صوت قائلاً :

- دلفين ! دلفين ! - أهذا أنت يا فليكس ؟

وقف لم يتقدّم . الكلبان الصغيران ينبحان . ظهرت أخيراً روزانيت ملتفّة بنوع من ثوب استحمام من موسّلين أبيض مزركش بدانتيلاً ، عارية القدمين في بابوج .

- آه ! عذراً سيّدي ! ظننتك المزيّن . دقيقة ! سأعود !

بقي وحيداً في غرفة الطعام .

النوافذ مقفلة . تلفّت فريدريك في كل أرجائها ، متذكراً صخب تلك الليلة ، حين لحظ في الوسط ، على الطاولة ، قبّعة رجل ، من لبد قديم محدّبة ، ضخمة ، قذرة . لمن هي هذه القبّعة ؟ ودالاً بوقاحة على قبّعته المفتّقة ، بدا يقول : « أسخر من كل أمر ، مع هذا ! أنا السيّد ! » .

عادت المارشالة . أخذتها ، فتحت المِصْرَى ، ورمتها ،

أغلقت البـاب (أبواب أخـرى ، في وقت واحد ، انفتحت وانغلقت) ، وبعدما اجتازت وفريدريك المطبخ ، أدخلته غرفة زينتها .

بسرعة يُلاحظ ، أن هذا هو المكان المسكون بالأرواح ، وكأنه مركز صالح في الواقع . يزيّن الجدران قماش فارسيّ مزخرف ، وهكذا الكراسي وأريكة واسعة مريحة ، وعلى طاولة مرمرية بيضاء حوضان عريضان من خزف أزرق ، أوان كريستالية أخرى فوقها رفوف ملأى بقوارير ، وفراشٍ وأمشاط وأغراض تجميليّة ، وعلب بودرة ، وتُرى النار في مرآة متحرّكة عالية ، وقماش يتدلّى خارج مغطس ، وتفوح روائح عجين لوز ولبان جاوة .

ـ تعذرني على هذه الفوضى ! فالليلة أتعشّى خارجاً .

أخذتها وإذ استدارت على أعقابها ، كادت تسحق كلباً . رآهما فريدريك لطيفين . قالت وهي ترفع إليه وجههما الأسود :

ـ هيّا ، ابتسما ، قبّلا السيّد .

دخل فجأة رجل يرتدي سترة طويلة وسخة ذات قبّة من فرو .

ـ فليكس ، أيها الطيّب : ستحصل على أجرك الأحد القادم ، بكل تأكيد .

وابتدأ الرجل يمشّطها ، ويروي لها عن صديقاتها . السيّدة دو روشفين ، السيّدة دوسان ـ فلورنتين ، السيّدة لومبار ، كلهن نبيلات كما عند دمبروز . ثم تحدّث عن المسرح ، ثمة في المساء عرض غريب في « الأمبيغو » .

ـ تذهب ؟

ـ لا ! أبقى في البيت .

ظهرت دلفين . وبّختها لكونها خرجت من دون إذن منها . أقسمت هذه أنها « تعود من السوق » .

ـ هاتي الحساب ! تسمحين ، أليس كذلك ؟

وهي تقرأ ، راحت روزانيت تبدي ملاحظات على كل أمر . وكان الجمع خطأ .

ـ ردّي لي أربعة فلوس !

ردّتها دلفين ، وبعدما صرفتها :

ـ آه ! وحقّ العذراء ، كم نعاني مع هؤلاء الناس .

صُدم فريدريك لهذا الاتهام . انه يذكره الآخرين ، ويقيم مقارنة بين البيتين بطريقة مزعجة .

عادت دِلفين ، همست في أذن « المارشالة » .

ـ لا ! لا أريدها !

عادت دِلفين من جديد :

ـ سيّدتي ، هي تصرّ .

ـ آه ! يا للازعاج ، أطرديها !

وفي اللحظة ذاتها ، دفعت الباب سيّدة بالأسود . ما سمع فريدريك شيئاً ولا رأى شيئاً . كانت أسرعت روزانيت للقائها في الغرفة .

حين ظهرت ، مجدّداً ، كان خدّاها محمرّين وجلست على كرسيّ من غير أن تتكلم .

كرجت دمعة على خدّها ، ثم قالت بلطف وهي تستدير إلى

الشاب :

ـ ما اسمك الأول ؟

ـ فريدريك .

ـ آه ! فريدريكو ! ألا يزعجك أن أناديك هكذا ؟

وراحت تنظر إليه بطريقة غَنِجة ، تكاد تكون عاشقة . وفجأة صرخت فرحاً لمرأى الآنسة فاتناز .

ما كان للفنّانة وقت تضيّعه . عليها ، في السادسة تماماً ، أن تترأس طاولة ضيافتها . وكانت تلهث ، متعبة . وسحبت من قفّتها سلسال ساعة وورقة ثم أشياء أخرى ، ومشتريات .

ـ تعرفين أنه يوجد في شارع جوبير ، قفّازات أسوجية بستة وثلاثين فلساً ، هذا رائع ! منظّف ثيابك يطلب ، بعد ، ثمانية أيام . وبخصوص التخريم قلت ليمرّوا في ما بعد . بيغنيو حصل على العربون . يبدو لي هذا كل شيء ! تكونين مدينة لي بمئة وخمسة وثمانين فرنكاً !

راحت روزانيت لتأتي بعشر ليرات نابولونيّة . أي منها لم يكن معها نقود ، فقام فريدريك ونقدها .

ـ أردّها لك ، قالت الفاتناز ، وهي تدسّ الخمسة عشر فرنكاً في حقيبتها . لكنّك فلاح . ما عدت أحبّك ، لم تراقصني ولا مرة الليلة الماضية !

ـ آه ! يا عزيزتي ، اكتشفت ، في محل في شارع فولتير ، إطار عصافير مصبّرة لطيفة جداً . لو كنت مكانك لاشتريتها . هه ! كيف ترين ؟

وعرضت قطعة قماش قديمة من حرير ورديّ كانت اشترتها لتخيط منها صديريّة قرن متوسّطية للدمار.

- هو جاء اليوم ، أليس كذلك ؟

- لا !

- غريب !

وبعد لحظة :

- أين تذهبين هذا المساء !

- عند ألفونسين ، قالت روزانيت ، كانت ، للمرة الثالثة ، تغيّر رأيها حول مكان تمضية السهرة .

تابعت الآنسة فاتناز :

- وبخصوص شيخ الجبل ، هل من جديد ؟

وبغمزة سريعة طلبت إليها « المارشالة » السكوت ، وقادت فريدريك إلى غرفة الانتظار لتعرف هل سيرى أرنو قريباً .

- ألحّ عليه بالمجيء ، ليس ، طبعاً ، أمام زوجته .

في أعلى الدرج ، مظلّة مسنودة إلى الحائط ، وقبقاب .

- إنه قبقاب الفاتناز ، قالت روزانيت . يا لها من رِجْل ، أليس كذلك ؟ هي قويّة ، صديقتي !

وبنبرة ميلودراميّة ، مشدّدة على الحرف الأخير من الكلمة :

- لا نفاخر بها كثيراً !

تشجّع فريدريك بعد هذه المسارّة ، فأراد تقبيلها بعنقها . قالت ببرود :

- أوه ! افعل ! هذا لا يكلّف شيئاً !

بخروجه من عندها ، أحسّ نفسه رشيقاً ، متيقّناً من أنها ستصبح قريباً عشيقته . هذه الرغبة أيقظت رغبة أخرى . وبرغم الشعور بالحقد الذي يحمله ، أراد رؤ ية السيّدة أرنو .

على كل حال ، عليه الذهاب لأجل مهمّة روزانيت .

« إنما ، الآن ، (دقّت السادسة) ، لا شك أن أرنو موجود » .

أرجأ زيارته للغد .

كانت في جلستها الأولى التي رآها فيها أوّل مرة ، تخيط قميص طفل . الصغير يلعب ، عند قدميها ، بلعبة خشبيّة . صارت ، أبعد قليلاً ، تكتب .

شرع يمتدحها خلال ولديها . أجابت بلا مبالغة وبلا حماقة أموميّة .

الغرفة ذات مظهر هادىء . شمس جميلة تخترق الزجاج ، تلتمع زوايا الأثاث ، وبما أنها جالسة قرب النافذة ، فإن شعاعاً يرتمي على خصل عنقها ، يخترق جلدها العنبريّ . عندئذ قال :

ـ إنها كبرت تماماً في ثلاث سنوات !ـ أتتذكرين ، آنستي ، حين كنت تنامين على ركبتيّ في العربة ؟ ـ مارت لم تكن تذكر ـ ذات مساء في العودة من سان ـ كلو ؟

ألقت السيدة أرنو نظرة خاصة حزينة . هل ذلك لتمنع عليه أية إشارة إلى ذكراهما المشتركة ؟

عيناها الجميلتان السوداوان ، الذي يشع بياضهما ، تحرّكتا ، بلطف ، تحت جفنيهما الثقيلين إلى حد ما . في أعماقهما طيبة لا متناهية . تملّكه ثانية حبّ أقوى من كل مرة ، غريب : انه تأمّل

يحذّره ، وقد أثار فيها شيئاً . كيف يظهر مزاياه ؟ بأيّة أساليب ؟ فما وجد إلا التحدّث عن المال . فراح يتحدّث عن الطقس الذي كان أقلّ برودةً مما هو عليه في هافر .

ـ هل كنت هناك ؟

ـ نعم ، لعمل . . . عائلي . . . ميراث .

ـ آه ! مسرورة أنا جداً ، أجابت بفرح حقيقي ، مسّه كأنه خدمة كبيرة تجاهه .

ثم راحت تسأله عمّا يريد أن يعمل ، فالرجل يجب أن يعمل عملاً ما . تذكّر كذبته ، وقال انه يأمل أن يصير في مجلس مستشاري الدولة ، بفضل السيّد دمبروز ، النائب .

ـ أتعرفه ؟

ـ بالاسم .

ثم ، بصوت خافت :

ـ « هو » اصطحبك إلى الحفلة التنكرية ، ذلك اليوم ، أليس كذلك ؟

صمت فريدريك .

ـ هذا ما كنت أريد معرفته ، شكراً .

بعدها سألته سؤالين أو ثلاثة رزينة عن عائلته ومنطقته . كان جميلاً منه أن يبقى هناك مدة طويلة من غير أن ينساهم .

ـ ولكن . . . أأستطيع ؟ أجاب . أو تشكّين ؟

نهضت السيّدة أرنو .

ـ أرى أنك تكنّ لنا محبّة كبيرة وراسخة . الوداع . . . إلى

اللقاء !

ومدّت يدها بطريقة صادقة ورجوليّة . أليس هذا ارتباطاً ، وعداً ؟ فريدريك أحسّ نفسه سعيداً لأن يحيا ، يمسك نفسه لئلا يغنّي ، بحاجة كان ليخالط الناس ، ليقوم بمروءات وصدقات . تلفّت حواليه ليرى هل أحد بحاجة لاغاثة . وغارت إرادته بالتفاني لأنه ليس رجلاً يبحث عن المناسبات لذلك .

ثم تذكّر أصدقاءه . كان هيسّونيه أول من تذكّر ، بيلّران الثاني . وضع ديسّردييه السيء أوحى ، تلقائياً ، بالمراعاة . وبالنسبة إلى سيزي ، كان يسرّ بأن يُظْهر له ثروته قليلاً . فكتب إلى الأربعة ليأتوا للاحتفال بالبيت الجديد بمأدبة يقيمها الأحد القادم ، الحادية عشرة تماماً ، وكلّف ديلورييه باصطحاب سينيكال .

كان فصل المعلّم من مدرسته الثالثة إذ لم يرد توزيع جوائز ، اعتبر هذا الأمر مسيئاً إلى المساواة . هو الآن عند صانع آلات ، وما عاد يسكن مع ديلورييه من ستّة أشهر .

ما كان شيء صعباً في افتراقهما . كان سينيكال صار يستقبل ، في المدة الأخيرة ، رجالاً بقمصان فضفاضة . مواطنون ، عمّال ، طيّبون جميعاً ، لكنّ رفقتهم بدت مضجرة للمحامي . ومن جهة أخرى ، فان بعض أفكار صديقه ، الممتازة كسلاح في معركة ، لم تكن تعجبه . وكان يسكت طمعاً ، متمسّكاً بمراعاته ليوصله ، إذ انه ينتظر ، بنفاد صبر ، ثورة كبرى ، حيث يحسب لنفسه مكاناً ، مقاماً رفيعاً .

اقتناعات سينيكال كانت أكثر لامبالاة . كل مساء ، عند انتهاء عمله ، يصعد إلى سقيفته ، ويبحث في الكتب عمّا يبرّر أحلامه . كان

فسّر « العقد الاجتماعي » . امتلأ بأفكار « المجلّة الحرة » . تعرّف مابلي ، موريلّي ، فورييه ، سان سيمون ، كومت ، كابيه ، لويس بلان ، جمل الكتّاب الاشتراكيّين الثقيل ، من يريدون للبشرية مستوى الثكنات ، ويرغبون بأن يجعلوها تتسلّى في ماخور أو يطووها في مصرف ، ومن مزيج هؤلاء اتّخذ مثالاً للديمقراطيّة الفاضلة ، لها مظهر مزدوج لاكارة ، ومصنع غزْل ، حيث لا وجود للفرد إلا في خدمة المجتمع ، أكثر سلطاناً مطلقاً ، مثاليّة ، عصمة ، سماويّة ، من اللاما * الكبار والنبوخذنصريّين . ما كان يشكّ بتطبيق هذا المفهوم ، وكل ما يتراءى له عدائياً ، وينكبّ عليه بحجج رياضيّ وإيمان الباحث . تصدمه ألقاب الشرف ، الصلبان ، التبختر ، لباس الخدم الموحد بخاصة ، وحتى الشهرة الطنّانة ، ـ دروسه كما آلامه ، تؤجّج ، كل يوم ، كرهه الرئيسي لكل تفرقة أو تكبّر .

ـ بماذا أنا مدين له ، هذا السيّد ، لأقوم بواجب تجاهه ؟ لو أرادني لجاء إليّ !

اصطحبه ديلورييه .

وجدوا صديقهم في غرفة نومه . فيها ستائر وستائر مزدوجة ، مرآة من البندقية ، لا شيء ينقصها ، كان فريدريك مستلقياً في مثواه ، مرتدياً سترة مخمليّة ، يدخن سجائر دخان تركيّ .

اغتمّ سينيكال ، كما مراؤ ون اصطحبوا إلى اجتماعات اللذة . بنظرة واحدة رأى ديلورييه كل شيء . ثم ، وهو يحيّيه بصوت خافت :

---

* لاما : كاهن للديانة اللامية عند التتر والبوذيّين الكلمة تعني : « أمين الله » .

احتراماتي سيدنا !

قفز ديسّرديه إلى عنقه .

ـ أنت ، إذن ، غنيّ الآن ؟ آه ! هنيئاً لك ! نعمّا حَدَث !

ظهر سيزي وعلى قبّعته شارة حداد . منذ وفاة جدّته ، صار يستمتع بثروة محترمة ، ويهتم بالمسرح ، أقلّ من اهتمامه بالتمايز عن الآخرين ، يريد ألاّ يكون كما الجميع ، ليكون له « طابعه » . هذه هي كلمته .

صار الظهر ، وكلهم يتثاءبون ، فريدريك ينتظر أحداً ما . وعلى اسم أرنو ، قطّب بيلّران . يعتبره مارقاً منذ تخلّيه عن الفنون .

ـ لو نتخلّى عنه ؟ ما قولكم ؟

وافقوا جميعاً .

فتح الباب خادم ينتعل راناً ضخماً ، فرأوا غرفة الطعام بنعل جدار عال ، من سنديان مطعّم بالذهب وخزانتي الأطباق المحملتين آنية . قناني الخمر تتدفأ على النار ؟ شفر السكاكين الجديدة تلمع قرب المحار ، وبرنّة صوت الزجاج الدقيق جداً لطافة جذّابة . لا تظهر الطاولة ، كانت ، تحت ألوان الطعام ، والثمار ، والأشياء الغريبة . هذه الملاحظات كانت ضائعة بالنسبة لسينيكال .

ابتدأ بأن طلب خبزاً بيتياً (بنبرة حازمة) ، وبهذا الخصوص ، تحدّث عن جرائم بيزانسيه وأزمة المعاش .

لا شيء من كل هذا كان ليطرأ لو انهم يهتمون بالزراعة ، لولم يكن كل شيء ترك للمنافسة ، للفوضى ، للاتكالية والاهمال هكذا تتأسّس إقطاعية المال ، الأشدّ مضضاً من الأخرى ! إنما لنحذرها ! الشعب في

النهاية ، سيتعب ، وسيجعل المسيطرين على رؤ وس الأموال يدفعون ثمن آلامه ، إما بثورة دموية أو بسلب فنادقهم .

استشفّ فريدريك ، في لمحة ، موجة رجال بأذرع عارية يقتحمون صالون السيّدة دمبروز الكبير ، محطمين المرايا .

أكمل سينيكال : إن العامل ، نظراً لانخفاض الأجور ، هو أكثر تعاسة من المستَرَقّ والعبد والمنبوذ ، بخاصة إذا كان له أولاد .

ـ أعليه أن يتخلّص منهم بالاختناق ، كما ينصحه دكتور انكليزي نسيت اسمه ، من أتباع مالتوس ؟

وقال مستديرا صوب سيزي :

ـ هل نتحوّل ، نحن ، إلى نصائح مالتوس السافل ؟

أجاب سيزي ، الذي كان يجهل الدناءة وحتى وجود مالتوس ، انهم ينجدون ، مع ذلك ، الكثير من البائسين ، وأن الطبقات الراقية . . .

ـ آه ! الطبقات الراقية ! قال الاشتراكي ساخراً . أوّلاً ، ليس هناك طبقات راقية ، ليس الرقيّ إلا رقيّ القلب ! لا نريد إحساناً : اسمع جيداً ! إنما المساواة ، والعدالة في توزيع المنتجات .

ما كان يطلبه ، هو أن يصير العامل رأسمالياً ، كما الجندي عقيداً . مجلس المحلّفين ، أقلّه ، يستطيع الحدّ من زحمة العمّال ، إذ يحدّون من عدد المتدرجين ، والشعور بالأخوّة يكون محفوظاً في الأعياد والرايات .

هيسّونّيه ، بصفة كونه شاعراً ، أسف على الرايات ، بيلّران

كذلك ، إيثار أتاه في مقهى دانيو ، وهو يستمع إلى أحاديث المشركيّن*. فأعلن فورييه رجلاً عظيماً .

ـ دعك من هذا ! قال ديلورييه . هو حيوان قديم ! يرى في تقويض الامبراطوريات نتائج الثأر الالهي ! تماماً كما السيّد سان سيمون وجماعته ، مع حقده على الثورة الفرنسيّة : كدسات من المهرجين يريدون ردنا إلى الكثلكة !

قال السيّد دو سيزي ، للتعلّم ولا شك ، أو ليعطي عن نفسه فكرة حسنة : ـ هذان العالمان ، أليسا من رأي فولتير ؟

ـ هذا ، أتركه لك أنا ! أجاب سينيكال .

ـ كيف ؟ كنت أظن . . .

ـ لا ! لم يكن يحب الشعب !

ثم راح الحديث يدور حول الأحداث المعاصرة : حفلات الزفاف الاسبانيّة ، اختلاسات روشفور ، فصل سان دني الجديد ، ممّا أدّى إلى تضاعف الضرائب . مع أنهم يدفعون كثيراً ، حسب سينيكال .

ـ ولماذا ؟ لبناء القصور وفيها قرود متحف العلوم الطبيعيّة ، ليجعلوا أعوان الزعماء يتبخترون في ساحاتنا ، أو للمحافظة ، بين خدم القصر ، على سمة قوطيّة !

قال سيزي : ـ قرأت في « لامود » اتهم في سان ـ فرديان ، وفي حفلها التويلّري التنكرية ، كانوا كلهم متنكرين .

* واحدهم المشتركي وهو أحد أنصار نظرية الفيلسوف فورييه في التجمّع الاشتراكي .

ـ أليس هذا مدعاة للرثاء ؟ قال الاشتراكي ، هازًّا كتفيه بقرف .

ـ ومتحف فرساي ! هتف بيلّران . لنتحدّث عنه ! هؤلاء الأغبياء اختصروا لوحات دولاكروا وأكثروا من لوحات غرو ! رمّوا ، في اللوفر ، وكشطوا وقلّبوا بغير عناية كل اللوحات التي لن يبقى منها ، في عشر سنوات ، ولا لوحة . وفي ما يختص بأخطاء الدليل ، فقد كتب ألماني كتاباً كاملاً . بات الغرباء يسخرون منا !

ـ نعم ، لقد صرنا سخرية أوروبا ، قال سينيكال .

ـ هذا ، لأن الفن متشيّع للتاج .

ـ طالما لن نحصل على الانتخاب العام . . .

ـ عفوك ! لأن الفنّان ، هو المرفوض منذ عشرين سنة في كل المحافل ، كان غاضباً على السلطة . إيه ! ليتركونا وشأننا . اسأل شيئاً ، أنا ! فقط ليحكم المجلس بأهمية الفنّ . يجب تأسيس منبر لعلم الجمال وليكن الاستاذ ، في الوقت عينه ، ممارساً وفيلسوفاً ، يتوصّل ، كما آمل ، إلى جمع الجمهور .

ـ حسناً تفعل ، هيسّونّيه ، لو تكتب كلمة بهذا المعنى في جريدتك .

ـ هل تتمتع الجرائد بالحرية ؟ هل نحن أحرار ؟ قال ديلورييه بحماسة . حين ترى أنه يمكن إيجاد ثمان وعشرين قاعدة لبناء مركب صغير عند النهر ، فهذا ممّا يجعلني أرغب بالذهاب للعيش عند أكلة لحوم البشر ! السلطة تفترسنا ! كل شيء لها ، الفلسفة ، الحق ، الفنون ، الهواء ؛ وفرنسا تحشرج ، غاضبة ، تحت جزمة الجندي وعباءة رجل

الدين !

هكذا ، راح ميرابو المستقبل يصبّ غضبه . وأخيراً ، تناول كأسه ، نهض ، وقال واضعاً يده على خصره ، وعينه تلتمع :

ـ أشرب نخب سقوط النظام الحالي كلياً ، أعني كل ما يسمّونه امتيازاً ، احتكاراً ، إدارة ، طبقيّة ، نفوذاً ، دولة ! وبصوت أرفع : « أريد أن أحطمها كهذه الكأس ! » ورمى الكأس الجميلة فتطايرت شظايا .

كلهم صفّقوا ، وبخاصة ديسردييه .

مشهد الظلامات يثير قلبه . يقلقه . كان من هؤلاء الذين يرتمون تحت العربات لينجدوا الجياد الواقعة . كانت معرفته محدودة بكتابين ، أحدهما « جرائم الملوك » والآخر « أسرار الفاتيكان » . بسرور واندهاش ، استمع إلى المحامي . وإذ لم يتمالك نفسه ، قال :

ـ ما آخذه على لويس ـ فيليب ، هو تخلّيه عن البولونيّين !

ـ إسمع ! قال هيسونيه . أولاً ، بولونيا غير موجودة ، إنها اختراع لافاييت ! البولونيون ، عامة ، هم جميعاً من ضاحية سان مارسو ، بعدما غرق الحقيقيون مع بونياتوفسكي .

لم يدافع سينيكال عن البولونيّين ، لكنه اهتم بآخر كلمات الأديب . يحسدون ، كانوا ، الباباوات ، الذين كانوا ، بعد كل شيء ، يحامون عن الشعب ، وسمّى الرابطة « فجر الديموقراطية ، حركة مساواة كبرى ضد فرديّة البروتستانتيّين » .

فوجىء فريدريك بهذه الأفكار . وبالتأكيد هي تضجر سيزي ، لأنه تحدّث عن اللوحات الحيّة في « الجيمناز » ، التي كانت تجتذب

الكثير من المشاهدين .

تألّم سينيكال من هذا . هكذا مشاهد تفسد فتيات البروليتاريّ ، ثم نراهن ينشرهن ترفاً متكبراً . كذلك امتدح الطلّاب البافاريّين الذين أهانوا لولا مونتيس . على غرار روسّو ، يعلّق الأهمية على امرأة فحام أكثر منها على عشيقة ملك .

- أنت تمزح ! أجاب هيسّونيه بجلال . ثم دافع عن هؤلاء النساء لصالح روزانيت . وإذ تكلّم على حفلتها التنكرية وعلى ثوب أرنو ، قال بيلّران :

- يؤكدون أنه بدأ الاهتزاز في الثروة .

كان رفع على تاجر اللوحات دعوى بخصوص أراضيه في بلّفيل ، وهو ، حالياً ، في شركة صلصال صيني مع آخرين أمثاله .

ديسّردييه يعرف أكثر ، لأن رب عمله ، السيّد موسّينو ، ذهب يستعلم عن أرنو عند صاحب مصرف : أوسكار لوفيفر وقد أجاب أنه لا يراه ثابتاً ، إذ هو يعرف بعض تجديداته .

انتهت التحلية ، فانتقلوا إلى الصالون ، المفروش كصالون « المارشالة » ، بقماش دمشقي أصفر مزركش ، أثاثه من طراز لويس السادس عشر .

بيلّران لام فريدريك لأنه لم ينتقِ الطراز اليوناني المتجدّد . سينيكال حكّ أعواد ثقاب على الطنافس ، ديلورييه ما جاء ولا بملاحظة . تركها للمكتبة وقد سماها مكتبة فتاة صغيرة . تضم غالبيّة آثار الكتّاب المعاصرين . كان الحديث عن آثارهم مستحيلاً ، لأن هيسونيه ، مباشرة ، راح يروي نكات عنهم ، ينتقد وجوههم ،

عاداتهم ، لباسهم ، متحمساً لأطياف أدباء مغمورين ، مزدرياً المشهورين ، راثياً ، بالطبع ، انحطاط العصر . مطلق أغنية قصيرة قروية ، تتضمن ، وحدها ، شعراً يفوق كل غنائيي القرن التاسع عشر : بلزاك أدنى من شهرته ، بايرول لا شأن له ، هيغولا يفهم شيئاً في المسرح ، الخ . . .

- لماذا لم تقتن كتب شعرائنا العمّال ؟ قال سينيكال .

وعجب السيّد دو سيزي ، وهو يهتم بالأدب ، لكونه لم يجد ، على طاولة فريدريك « بعضاً من هذه الفيزيولوجيات الجديدة ، فيزيولوجيا المدخّن ، صيّاد السمك ، موظف الحدود » .

توصّلوا إلى إزعاجه ، إلى حد رغب في أن يرميهم خارجاً . « لكني صرت بهيماً ! » وآخذاً ديسّردييه على حدة ، سأله إذا في وسعه أن يقدّم إليه مساعدة ما .

رقّ قلب الشاب الطيّب . وبسبب مركزه كأمين صندوق ، ما كان في حاجة لشيء .

بعدها ، اصطحب ديلورييه إلى غرفته ، وآخذاً من مكتبه ألفي فرنك :

- هاك ، أيها الصديق ، ضع في جيبك ! هذه بقيّة ديوني القديمة .

- ولكن . . . والجريدة ؟ قال المحامي . تكلّمت إلى هيسونّيه ، تعرف أنت .

وإذ أجاب فريدريك أنه محرج الآن ، ابتسم الآخر ابتسامة خبيثة .

بعد المشروبات ، شربوا البيرة ، بعدها مشروبات ساخنة ، دخّنوا ، من جديد ، كل منهم غليوناً . وفي الخامسة مساءً انصرفوا جميعاً . كانوا يسيرون متقاربين ، صامتين ، حين قال ديسّردييه ان فريدريك أحسن استقبالهم . كلهم وافقوه الرأي .

أعلن هيسّونيّه أنه أكثر الأكل . انتقد سينيكال تفاهة داخل بيته . سيزي يظن الأمر ذاته . انه فاقد « الطابع » تماماً .

وبيلّران :

ـ كان في بامكانه أن يطلب لوحة منّي .

وتمشى ديلورييه ، صامتاً ، ويده في جيبه ، تمسك بالألفي فرنك .

فريدريك بقي وحده . يفكّر في أصدقائه ويرى هوّة كبيرة معتّمة بينه وبينهم . مع ذلك كان بسط لهم ذراعيه وما استجابوا لصراحة قلبه .

تذكّر كلمات بيلّران وديسّردييه عن أرنو . هل كان هذا اختراعاً ، حسداً ؟ ولكن لماذا ؟ وتراءت له السيّدة أرنو محطّمة ، باكية ، بائعة مفروشاتها . أرّقته هذه الفكرة طوال الليل ؛ وفي الغد حضر اليها .

لم يدرِ كيف يبدأ الحديث حول ما يعلم ، سألها ـ بطريقة الحوار ـ إذا كان ارنو لا يزال يحافظ على املاكه في بلّفيل .

ـ نعم ، دائماً .

ـ أظنّه الآن في شركة للصلصال الصيني ، اليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ معمله يسير سيراً حسناً
ـ أفترض هذا .
وبما انه يتلعثم :
ـ ما بك ؟ إنك تخيفني !
أخبرها قصة التجديدات . خفضت رأسها وقالت :
ـ كنت أشكّ في هذا !

بالواقع ، كان ارنو ، لمضاربة قوية ، رفض بيع أراضيه ، استلف عليها كثيراً ، وإذ لم يجد ، أبداً ، مشترين ، ظن نفسه يعوّض بانشاء مصنع . تجاوزت التكاليف التوقّعات . ما كانت تعرف اكثر ، يتجنّب ، كان ، كل سؤال ، ويؤكّد باستمرار ان كل شيء يسير حسناً .

اهتمّ فريدريك بطمأنتها . هي ، ربما ، ارتباكات مؤقّتة . وإذا ما عرف أموراً أخرى ، فسوف يطلعها عليها .

آه ! نعم ، اليس كذلك ؟ قالت ضامّة يديها بنبرة متوسّلة ناعمة .

يمكنه ، اذن ، ان يكون مفيداً لها . وها هو يدخل عالمها ، قلبها !

ظهر أرنو .
ـ آه ! كم هو لطيف منك ان تصطحبني للعشاء !
بقي فريدريك صامتاً .

تحدّث أرنو عن أشياء لا أهمية لها ، ثم ابلغ امرأته أنه سيرجع متأخراً جداً بسبب موعد مع السيّد أودري .

ـ عنده ؟

ـ طبعاً ، عنده .

باح ، وهما ينزلان الدرج ، انه ما دامت « المارشالة » منفرّغة سيقضيان معاً سهرة عائلية في « الطاحونة الحمراء » ؛ وبما أنه في حاجة دائمة لمن يبوح اليه بما يؤرّقه جعل فريدريك يرافقه حتى الباب .

بدل ان يدخل ، بقي يتمشّى على الرصيف مراقباً نوافذ الطابق الثاني . فجأة أزيحت الستائر .

ـ آه ! حسناً ! ذهب أودري . طبت مساء !

انه أودري ، اذن ، من كان يحادثها ؟ ما عاد فريدريك يعرف ما يفكّر .

انطلاقاً من هذا النهار ، صار ارنو أكثر حميمية من ذي قبل . يدعوه للعشاء ، عند عشيقته . وسريعاً ما صار فريدريك يتردد إلى المنزلين معاً .

بيت روزانيت يسلّيه . يأتونه مساء ، بعد الخروج من النادي أو المسرح . يشربون شاياً . ويلعبون اللوتو*. الأحد يتسلّون بالحزازير . تتمايز روزانيت عن الجميع ، فهي أكثر صخباً ، وتقوم بأشياء غريبة ، كالركض على أربع ، أو أن تتزيّا بقبّعة قطنية غريبة . لتنظر المارة من النافذة ، تستعمل قبّعة من جلد مقسّى . تدخّن الشُبُق ، تغني تيروليّات** بعد الظهر ، لبطالتها ، تقطّع أزهاراً على قطعة قماش

---

* نوع من لعب الورق .

** مفردها تيرولية وهي غناء جبلي أصله من التيرول يتميّز بالانتقال السريع من صوت الصدر إلى صوت الرأس وبالعكس .

فارسيّ ، تلصقها ، بنفسها ، على زجاجها ، تلطّخ بالخضاب كلبيها الصغيرين ، تحرق أقراطاً معطّرة ، أو تنسحب تكشف الحظّ .

واذ هي لا تستطيع مقاومة رغبة ما ، تولع بتحفة ما رأتها ، تعود لا تنام ، تركض لتشتريها ، تقايضها بأخرى ، وتبيعها بثمن بخس ، تضيّع جواهرها ، تبذّر المال ، تكاد تبيع قميصها لمقعد في مقصورة المسرح الأمامية . غالباً ما تسأل فريدريك عن مضى كلمة قرأتها ، لكنها لا تستمع الى الجواب ، لأنها تنتقل ، مباشرة ، إلى فكرة أخرى ، مكثرة من الأسئلة . وبعد كثير فرح ، تنقلب الى فورات غضب طفوليّة . أو هي تحلم ، جالسة على الأرض ، أمام النار ، خافضة الرأس ، ركبتها بين يديها ، أكثر جموداً من حنش مخدّر . وبدون احتراز ، تروح ترتدي ثيابها أمامه ، تشد ، ببطء ، جواربها الحريريّة ، ثم تغسل وجهها بماء كثير قالبة قامتها كحورية ماء ترتعش ، وضحكة اسنانها البيضاء ، بريق عينيها وجمالها ، فرحها ، تخلب ، كلها ، فريدريك ، وتجلد أعصابه .

والسيّدة أرنو ، يكاد يجدها ، دائماً ، تدلّ طفلها كيف يقرأ ، أو وراء كرسيّ مارت التي تكون تقسّم على البيانو . ويحصل فرح كبير له حين يلمّ لها ، مرات مقصّها أو الدبابيس ، حين تكون تخيط . ذات جلال هادىء كل هذه الحركات ، يداها الصغيرتان كأنهما لا غداق الصدقات ، لكفكفة الدموع . وصوتها البهيم بطبيعته ، فيه نبرات لطيفة وكنسمات نسيم منعشة .

ما كانت تتحمّس للأدب ، لكن روحها تفتن بكلمات بسيطة ونافذة . تحبّ السفر ، وعصف الهواء في الغابات ، والتنزّه ، حاسرة

الرأس ، تحت المطر . يستمع فريدريك الى هذه الأمور بلذّة ، ظاناً أنها بدأت تستسلم .

مخالطة هاتين المرأتين جعلت في حياته ، ضربين من الموسيقى : الأول لعوب ، متحمّس ، مسلٍّ ، والآخر رزين يكاد يجاوز التديّن . ومعاً عازفان ، يضيفان دائماً ، وشيئاً فشيئاً يمتزجان ـ لأنه ، إذا ما لمسته ، مثلاً ، السيّدة ارنو ، ولو بطرف إصبعها ، تحضر الأخرى ، تلقائياً ، لأن حظه معها أقرب مما هو مع الأولى ؛ ـ وبرفقة روزانيت ، حين يحسب قلبه مبهوراً ، يتذكّر ، فوراً ، حبّه الكبير .

هذا الارتباك سببه المشابهة بين المنزلين . خزانة من اللواتي تُرى في بولفار مونمارتر ، تزيّن ، الآن ، غرفة طعام روزانيت ، وأخرى صالون السيّدة أرنو . هي نفسها ، في البيتين ، خدمة المائدة ، ونرى ، حتى ، المخمل نفسه المنسحب على كل مثواه ، ثم كثير من هدايا صغيرة ، ستائر ، علب ، ومراوح تنتقل من العشيقة الى الزوجة ، لأن أرنو ، ومنها دون حرج ، يستعيد من الواحدة ما كان أهداها ليهديه للأخرى .

تضحك « المارشالة » مع فريدريك من هذه الطُرُق السيّئة . ذات أحد ، بعد العشاء ، اصطحبته خلف الباب وأرته ، في جيب سترة أرنو ، كيس حلوى كان أخفاه على المائدة ، ليقتسمه ، ولا شك ، وعائلته الصغيرة . كان السيّد أرنو يأتي عفرتات تحاذي الدناءة . يرى هذا أمراً كالهرب من رسم الدخول ؛ ما كان يذهب الى المسرح ويدفع ، فببطاقة للمقاعد الخلفيّة يأتي ، دوماً الى الأماميّة ، ويروي ، كطرفة ممتازة ، أنه معتاد ، في الحمّامات الباردة ، وضع زر

سروال على رأس الصبي في مقابل عشرة فلوس ، وما كان هذا يمنع « المارشالة » من أن تحبه .

ومع ذلك قالت يوماً وهي تتحدّث عنه :

ـ آه ! إنه بات يزعجني ! عانيت كثيراً ! مهما كان الأمر ، أجد سواه !

اعتقد فريدريك أنّ « الآخر » موجود ، واسمه السيّد اودري .

ـ وبعد ، قالت روزانيت ، ماذا يمكن ان يحدث ؟

وأضافت وصوتها متلجلج بالدموع :

ـ مع ذلك ، أطلب منه الأشياء بسيطة ، ولا يقبل إلا يريد ! بينما الأمر مختلف بالنسبة الى وعوده .

حتى انّه وعدها بربع أرباحه في مناجم الصلصال المهمّة ، ما وفى بشيء ، من هذا ، سوى بالكشمير الذي كان يغويها من أشهر ستّة .

لتوّ ، فكّر فريدريك في ان يهديها شيئاً . هذا قد يجعل أرنو يعتبر ويمكن ان يغضبه .

مع ذلك ، هو طيّب ، زوجته نفسها تقول هذا . لكنه مجنون ! بدلاً من أن يأتي بالناس للعشاء عنده ، بات يأخذ أصدقاءه الى المطعم . يشتري أشياء لا فائدة منها إطلاقاً ، كسلاسل ذهب ، ساعات ، أشياء منزلية . حتى ان السيّدة أرنو ، دلّت فريدريك ، في الممشى ، على كثير من السخانات ، الدفايات والسماور * . باحت أخيراً ، ذات يوم ، بكآباتها : فقد جعلها أرنو توقّع سنداً لأمر السيّد دمبروز .

---

* علاية روسية للشاي .

في هذه الأثناء ، كان فريدريك يحتفظ بمشاريعه الأدبيّة ، بنوع من النخوة بينه وبين ذاته. يريد ان يكتب تاريخاً لعلم الجمال ، نتيجة محادثاته مع بيلّران ، ثم وضع فترات مختلفة من الثورة الفرنسية بقالب مسرحي ، بتأثير غير مباشر من ديلوريه وهيسّونيه . وفي انصرافه الى العمل ، غالباً ما يأتيه وجه الواحدة أو الأخرى . يقاوم رغبة رؤيتها ، وما يتأخر في ان يخضع لها . ويكون أكثر حزناً في عودته من عند السيّدة أرنو .

ذات صباح ، وهو يجترّ كآبته قرب ناره ، دخل ديلورييه . أحاديث سينيكال الناريّة أحزنت ربّ عمله ووجد نفسه ، مرة بعد ، بدون عمل .

- ماذا تريدني أفعل له ؟ قال فريدريك .

- لا شيء ! أعرف أن لا مال لك . لكن هذا لا يمنعك من أن تجد له مكاناً ، إمّا بواسطة السيّد دمبروز وإما بواسطة أرنو .

قد يكون هذا بحاجة الى مهندسين في مؤسسته . أُلهم فريدريك شيئاً : يمكن سينيكال ان يعلمه بتغيّب الزوج ، ان يحمل الرسائل ، أن يساعده في الف مناسبة تطرأ . نتبادل هذه الخدمات بين رجل ورجل . ومن جهة اخرى يجد له عملاً دون ان يرتاب بشيء . تقدّم له الصدفة مساعداً ، إنه فأل حسن ، يجب اقتناصه . أجاب ، متظاهراً باللامبالاة ، بأنه قد يستطيع ذلك ، وبأنه سيهتمّ بالأمر .

مباشرة ، بدأ بالاهتمام . لكن أرنو يعاني صعوبات كثيرة في مصنعه . يبحث عن الأحمر النحاسي الصيني ، لكنّ ألوانه تتبخّر في الطبخ . لتلافي الصدوع في خزفياته ، راح يمزج خزفه بالكلس . انما

ظلت القطع ، بعالبيها ، تتكسّر ، طلاء رسومه يفور قبل طبخه ، قطعه الكبيرة تنتفخ ، واذ يرد خيبات أمله للآلات السيّئة ، أراد أن يأتي بطواحين جديدة ، ومجفّفات أخرى . تذكّر فريدريك شيئاً من هذا ؛ فذهب اليه مشيراً انه اكتشف رجلاً قوياً ، قديراً على ايجاد الأحمر المطلوب . فقفز أرنو فرحاً ، وإذ سمعه ، أجاب انه ليس بحاجة لأحد .

امتدح فريدريك معارف سينيكال المتقدّمة ، فهو مهندس ، كيميائي ومحاسب معاً بالاضافة الى أنه رياضي من الطراز الأوّل .

فوافق الخزفيّ أن يراه .

اختلفا على الراتب . تدخّل فريدريك وتوصّل خلال أسبوع ، إلى عقد اتفاق بينهما .

ولكن بما أنّ المصنع في كراي ، ما كان سينيكال يستطيع مساعدته في شيء . هذه الفكرة البسيطة أحبطت آماله .

وظنّ انه بمقدار ما ينفصل أرنو عن امرأته يزيد حظه معها . فراح يمتدح روزانيت باستمرار . وروى له كل اخطائه تجاهها ، وأخبره بتهديداتها المبهمة ذلك اليوم ، وحتى ، تحدّث عن الكشمير من غير أن يخفي شكواها من بخله .

جُرح أرنو للكلمة (وكان لاحظ اكتئابها) ، فأتاها بكشمير ، لكنه وبّخها لكونها بثّت شكواها الى فريدريك .. فقالت انّها ذكّرته مئة مرة بوعده ، فادّعى انه كان ينسى لكثرة مشاغله .

في الغد ذهب فريدريك اليها . كانت لا تزال نائمة برغم أنّ الساعة صارت الثانية ، وبجانبها دلمار أمام إسْكمْلة يأكل شريحة

كبديّة * . من بعيد هتفت : « حصلت عليه ، حصلت عليه » ، ثم أخذته من أذنيه ، قبّلته في جبينه ، شكرته كثيراً ، رفعت الكلفة بينهما حتى انها أرادت أن تجلسه على سريرها . تبرق عيناها الجميلتان الحنونتان ، يبتسم فمها الرطب ، ذراعاها المدوّرتان تخرجان من قميصها الذي بلا أكمام ، وبين وقت وآخر ، كان يحسّ عبر الباتيستا حدود جسدها . في هذه الأثناء راح دلمار يجول ببؤبؤي عينيه .

- ولكن ، حقاً يا صديقتي ، يا صديقتي العزيزة !

وهكذا في المرات التاليات . مذ يدخل فريدريك ، تقف على طنفستها ليقبّلها بطريقة أفضل ، تسمّيه صغيرها ، حبيبها ، تضع زهرة في عروته ، تسوّي ربطة عنقه ، وهذه المداعبات تتضاعف كل مرة يكون دلمار موجوداً .

أهذه مقدّمات ؟ ظنّ الأمر هكذا فريدريك . أما بالنسبة الى خيانة صديق ، أرنو ، فما همّه الأمر ! ومعه حق كان في ألا يكون عفيفاً مع عشيقته ، طالما أنه عفيف مع زوجته ؟ لأنه يظن أنه كان ، بالأحرى أراد أن يخدعه متعمداً ، تبريراً لجبانته الاستثنائية . مع ذلك رأى نفسه أحمق وقرّر ان يباشر ، صراحة ، مع « المارشالة » .

وعلى هذا الأساس ، مرة بعد ظهر ذات يوم ، وهي منحنية أمام خزانتها الصغيرة ، اقترب منها وقام بحركة تنمّ عن بعض وقاحة . فانتصبت محمرّة . أعاد الكرّة ، فبكت قائلة ، انها شقيّة وإن هذا ليس سبباً لاحتقارها .

---

* معجنة من الكبد والتوابل .

كرّر محاولاته . تصرّفت بنسق آخر ، هو الضحك الدائم . ظنّ من الذكاء مبادلتها بالنبرة ذاتها ، وبشكل مبالغ فيه . لكنه بدا كثير المرح لتظنه صادقاً . ورفقتها كانت عائقاً للبوح بأي عاطفة جدية . أخيراً ، ذات يوم ، أجابته أنها لا تقبل ببقايا أخرى .

ـ أيّة أخرى ؟

ـ إيه نعم ! إذهب وراء السيّدة أرنو !

لأنه كان كثير التحدث عنها . من جهته أرنو ، عنده العادة نفسها ، نفد صبرها ، آخر الأمر ، لسماعها دوماً امتداح هذه المرأة ، واتّهامها هذا كان نوعاً من الانتقام .

حقد عليها فريدريك .

بدأت تستثيره بقوة . تتصرّف ، مرات ، كمختبرة ، فتتحدّث عن ضرر الحبّ بضحكة متشكّكة تجعله يلتهب لصفعها . وبعد ربع ساعة ، يصبح الحبُّ الوحيد في العالم ، وتضم ذراعيها على صدرها كأنها تضمّ أحداً ، وتهمس : « أوه ! بلى ، إنه لذيذ ! لذيذ جداً ! » وجفونها نصف مطبقة مرتعشة نشوى . مستحيلة معرفتها ، معرفة ، مثلاً ، إذا كانت تحبّ أرنو ، لأنها تهزأ منه وتبدو ، غيورة عليه . الأمر نفسه بالنسبة الى فاتناز التي كانت تسمّيها تعيسة ، ومرات أخرى صديقتها المفضّلة . أخيراً ، إنّ لها في كلّ شخصها ، وحتى في ارتفاع شعرها الملتفّ في مؤخرة رأسها ، شيئاً لا يعبّر عنه يشبه التحدّي ؛ ـ ويشتهيها للذة وبخاصة ليغلبها ويسيطر عليها .

كيف العمل ؟ لأنها غالباً ما راحت تردّه على أعقابه ، تظهر ، للحظة ، وتهمس له : « انني مشغولة ! إلى اللقاء هذا المساء ! » أوهو

يجدها وسط اثني عشر رجلاً ، وحين هما وحدهما تتتابع الاهتمامات والانشغالات بكثرة . يدعوها للعشاء فترفض دائماً ، مرة قبلت لكنّها أخلفت .

طرأت على باله فكرة انتهازيّة .

وهو يعرف بواسطة ديسّردييه ، مآخذ بيلّران عليه ، فرأى أن يطلب اليه أن يرسمها لوحة كبيرة تتطلّب جلسات عديدة ، لن يتغيّب عن واحدة ؛ وان عدم تقيّد الفنّان المعهود بمواعيده يسهّل عليه عملية المواجهة . فاتفق مع روزانيت على هذا ليهدي وجهها للعزيز أرنو . قبلت ، هي ، لأنها ستجد نفسها وسط الصالون الكبير ، في مكان الشرف ، والجموع أمامها ، وستتحدّث عنها الجرائد ، مما « يطلقها » سريعاً .

وبالنسبة لبيلّران فإنّه قبل العرض بلهفة . قد تجعله ، هذه اللوحة ، رجلاً مهماً ، فسيحاول جعلها تحفة فنية .

استعاد في ذاكرته كل اللوحات المهمّة التي يعرفها ، وقر رأيه في الأخير ، على واحدة على شاكلة تيتيان ، مزينة بزخارف على طريقة فيرونيز . إذن ، فسينفّذ مشروعه بلا ظلال اصطناعيّة ، باضاءة واضحة تنير الأقسام العارية بالقدر نفسه ، وتجعل اللواحق تتألّق .

فكّر في ذاته : « لو ألْبسُها ثوب حرير ورديّاً مع بُرْنُس شرقي؟ لا ! البرنس حقير ! وبالأحرى لو الْبِسُها مخملاً أزرق فوق خلفيّة رماديّة زاهية ؟ نستطيع جعل ياقتها من التخريم الأبيض ونجعل مروحتها سوداء ونضع ستاراً قرمزياً في الوراء ؟ » .

وهكذا يروح كلّ يوم يوسّع تصوّره ويعجب به .

قفز قلبه حين وصلت روزانيت ، يرافقها فريدريك . للجلسة الأولى . أوقفها على شبه منبر وسط الشقّة ، وإذ شكا النور وأسف على محترفه القديم ، جعلها ، أولاً تتكىء الى قاعدة تمثال ، ثم تجلس على كرسيّ مريح واسع ، ويبتعد عنها قليلاً قليلاً ، ثم يقترب ليصلح ، بنقرة ، ثنايا ثوبها ، ينظر اليها وجفونه نصف مطبقة ، واستشار فريدريك بكلمة .

ـ لا ! صرخ . أعود الى فكرتي !

سيكون ثوبها من مخمل أحمر ورديّ وزنّار صياغة ، وكمّها الواسع المبطّن بفرو القاقم يظهر ذراعها العارية التي تلامس دربزين مرتفعاً وراءها . وإلى يسارها عمود كبير يصل حتى أعلى اللوحة ليتصل بالزخارف التي على شكل قنطرة . ويلاحظ من تحت ، بابهام ، مجموعة أشجار برتقال تكاد تكون سوداء ، حيث تتقاطع سماء زرقاء موشحة بغيوم بيضاء . على عمود الدربزين المغطّى بسجّادة ، سيكون في وعاء من الفضّة ، باقة أزهار ، سبحة عنبر ، خنجر وعلبة حلى من عاج قديم ، أصفر قليلاً ، طافحة بنقود ذهبية إيطالية قديمة ، بعض هذه النقود ، الواقعة أرضاً ، كأنها الطخات لامعة بطريقة تقود العين الى مقدّم قدمها ، لأنها ستكون موضوعة على الدرجة ما قبل الأخيرة ، بحركة طبيعية وفي وضح النهار .

ذهب يجلب صندوق لوحات وضعه على المنبر ليكون كدرجة ، ثم جهّز اللوازم على مقعد بمثابة دربزين ، درّاعته ، ترساً ، علبة سردين ، رزمة ريشات ، سكّيناً ، وبعدما رمى أمام روزانيت ما يقارب الاثني عشر فلساً ، جعلها تتّخذ وضعها .

ـ تصوّري أن هذه الأشياء هي ثروة ، هدايا رائعة . أميلي رأسك إلى اليمين قليلاً ! ممتاز ! ولا تتحرّكي ! هذه الجلسة الجليلة تناسب نوع جمالك .

ثوبها من قماش شطرنجي ، فوقه غطاء طويل مكسوّ بالفراء لتدفئة اليدين ، وتمسك نفسها عن الضحك .

ـ وبالنسبة إلى التسريحة فسنجعل فيها جديلة لؤلؤ : هذا يؤثّر تأثيراً حسناً في الشعر الأحمر .

صرخت « المارشالة » قائلة ان شعرها ليس أحمر .

ـ دعكِ من هذا ! أحمر الرسّامين ليس أحمر البورجوازيين .

ابتدأ يصمّم وضعيّة الأجسام ، مأخوذاً كان بفنّاني النهضة الكبار ، راح يتحدّث عنهم . وحلم ، خلال ساعة ، بصوت عالٍ ، بهؤلاء العظماء العباقرة ، ذوي المجد والبذخ ، ودخولهم المنتصر إلى المدن ، والاحتفالات على ضوء القناديل ، وسط نساء نصف عاريات ، جميلات كإلهات .

ـ مخلوقة أنتِ لتعيشي في ذاك الزمان . واحدة من وزنك كانت استحقّت سيّداً عظيماً !

كانت روزانيت مسرورة بهذا المديح . تحدّد موعد الجلسة التالية ، واهتمّ فريدريك بتأمين اللوازم .

وبما أن لهيب النار جعلها دائخة إلى حدّ ما ، عادا مشياً عبر شارع البارك ووصلا إلى « البور رويّال » .

كان الطقس جميلاً ، لاذعاً وساطعاً . تنحدر الشمس ، يلمع زجاج المنازل ، في المدينة ، كصفائح ذهبيّة ، بينما في

الخلف ، إلى اليمين ، ترتسم جانبياً بأسود على زرقة السماء ، أسوار نوتردام المستحمّة عند الأفق بضباب رماديّ . هبّ الهواء ، وإذ أعلنت روزانيت جوعها ، دخلا « الباتيسري انكليز » .

وجدا ، هناك ، نساء صبايا وأولادهن ، يأكلون أمام مقصف من المرمر ، حيث تتدافع صحون الحلوى تحت أجراس زجاجيّة . أكلت روزانيت كعكتي فاكهة بالقشرة . رسم سكّر البودرة على زاويتي فمها شاربين أبيضين . وكانت ، لتمسح السكّر ، بين وقت وآخر ، تسحب محرمتها من غطائها الطويل الذي من فراء . ويبدو وجهها ، تحت معطفها الحريريّ الأخضر ، وردة متفتّحة بين أوراقها .

عادا إلى المسير . توقّفت ، في شارع « السلام » ، أمام محل صائغ لترى إسوارة . أراد فريدريك أن يهديها إياها .

ـ لا ، قالت . احتفظ بمالك .

جرحته الكلمة .

ـ ما بها القطة ؟ هل هي حزينة ؟

وإذ استأنفا الحديث ، عاد ، كما العادة ، إلى توكيد الحب .

ـ تعرف جيّداً أن الأمر مستحيل !

ـ لماذا ؟

ـ آه ! لأن . . .

كانا جنباً إلى جنب ، هي مستندة إلى ذراعه ، ودوائر ثوبها تلامس ساقيه . ذكّره هذا غروباً شتائياً ، فيه ، على الرصيف

ذاته ، مشت بجانبه السيّدة أرنو . استغرقته هذه الذكرى كلياً ، فما عاد يرى روزانيت أو يفكّر فيها .

تلتفت أمامها كيفما اتفق ، تجرّ نفسها كولد كسول . كانت ساعة العودة من النزهة ، وطواقم رجال السفن يتتابعون بسرعة على البلاط الجاف . انها تستعيد ، ولا شك ، مديح بيلّران ، فصعّدت نهدة .

ـ آه ! هنالك من هنّ سعيدات ! أنا ، بالتأكيد ، مخلوقة لرجل غنيّ .

أجاب بنبرة عنيفة :

ـ تملكين واحداً ! لأن السيّد أودري أكثر من مليونير .

ما كانت تتمنى أكثر من التخلّص منه .

ـ من يمنعك ؟

وأظهر سخرية لاذعة تجاه هذا البورجوازي الهرم ذي الشعر المستعار ، مؤكّداً أن هكذا علاقة غير جديرة بها ، وانه عليها قطعها !

ـ نعم ، أجابت « المارشالة » ، كمن يحدّث نفسه . هذا ما سأنتهي إليه ، ولا شك !

سُرَّ فريدريك لهذه اللامبالاة . راحت تتباطأ ، ظنها متعبة . أصرّت على رفضها عربة ، وصرفته أمام بابها ، مرسلة له قبلة على أطراف أصابعها .

« آه ! يا للخسارة ! وتصوّروا أن أغبياء يجدونني غنيّة ! »

حين وصل كان الظلام قد خيّم .

وهيسّونّيه وديلورييه ينتظرانه .

يرسم البوهيمي الجالس إلى طاولته ، رؤوس أتراك ، والمحامي ، بجزمته الملوثة بالوحل ، يرقد على الأريكة .

ـ آه ! أخيراً ! هتف . إنما أي مظهر قاس ! أتستطيع أن تصغي إليّ ؟

رواجه ، كمعلّم ، بدأ يخف ، هو يحشو رؤوس تلاميذه نظريّات غير ملائمة لامتحاناتهم . كان ترافع مرتين أو ثلاثاً وخسر ، وكل خيبة جديدة كانت تدفع به ، أكثر من سابقتها ، نحو حلمه القديم : جريدة بها يفاخر ، ينتقم ، يقذف غضبه ويجاهر بأفكاره . ثروة وشهرة ، على كل حال ، هما تتتاليان . انه ، بهذا الأمل ، وارب البوهيمي ، إذ انه يمتلك صحيفة .

هو يطبعها الآن ، على ورق زهريّ ، يخترع إشاعات ، يؤلّف ألغازاً رمزيّة ، يحاول الدخول في حروب كلامية ، وحتى يريد اعداد حفلات موسيقيّة ! اشتراك سنة « يعطي حقاً بمكان في الصالة في واحد من أهم مسارح باريس ، أكثر ، فالادارة تهتم بأن تمنح السادة الغرباء كل التعليمات التي يبغون ، فنية وسواها » . لكن القيّم على المطبعة يتوعّد ، عليهم ثلاثة أقساط للمالك ، وكل أنواع العقبات بدأت تظهر . كان هيسّونّيه ليترك الفنّ وشأنه لولا نصائح المحامي الذي كان يحرّضه يومياً . ضمّه إليه ، لتكون انطلاقته أقوى .

ـ آتيان نحن بخصوص الجريدة ، قال .

ـ عجباً ، ما زلت تفكّر فيها ! أجاب فريدريك شارد

الذهن .

ـ طبعاً أفكّر فيها !

ومن جديد ، عرض تصميمه . من التعاملّ مع البورصة ، يرتبطان بعلاقات مع رجال مال ، ويحصلان ، هكذا ، على المئة ألف فرنك ككفالة ضروريّة . إنما ، لتتحوّل النشرة إلى جريدة سياسيّة ، يجب أن يكون هنالك ، مسبقاً ، مجال انتشار واسع ، وهناك نفقات كثيرة من ثمن ورق وطباعة أو مكتب ، بالاختصار مبلغ خمسة عشر ألف فرنك .

ـ لا مال لديّ ، قال فريدريك .

ـ فكم بالحريّ نحن ! قال ديلورييه شابكاً يديه .

أجاب فريدريك وقد جُرح للحركة :

ـ هل هو ذنبي ؟ . . .

ـ آه ! حسن جداً ! عندهم حطب في المدفأة ، فطور لذيذ على المائدة ، سرير ناعم ، مكتبة ، عربة ، عندهم كل الضروريات الكمالية ، إنما ان يرزح آخر تحت الديون ، يتعشّى بعشرين فلساً ، يعمل كمحكوم بالأشغال الشاقة ، ويتخبّط في الفقر ! هل هو ذنبهم ؟

وراح يكرّر : « هل هو ذنبهم ؟ » بسخرية شيشرونيّة مرهفة . أراد فريدريك أن يتكلّم .

ـ ومع ذلك ، أفهم ، هناك حاجات . . . أرستقراطية ، إذ ولا شك . . . امرأة ما . . .

ـ وبعد ، ألست حراً ؟ . . .

ـ أوه ! كل الحرية !

وبعد دقيقة صمت :

ـ الوعود سهلة جدا !

ـ يا الهي ! انني لا أنكرها ! قال فريدريك .

تابع المحامي :

ـ نقسم اليمين ، في المعهد ، نؤسّس كتيبة ، نقلّد الثلاثة عشر لبلزاك ! ثم ، بعدما نتلاقى : طبت مساء ، يا عزيزي ، اذهب تنزّه ! لأن من يستطيع خدمة الآخر ، يحتفظ بكل شيء له وحده .

ـ كيف ؟

ـ نعم ، فأنت لم تقدّمنا ، حتى ، عند آل دمبروز !

التفت إليه فريدريك بسترته السَّيِّئة ، بنظاراته المخشّنة ووجهه الكامد ، بدا له المحامي كخادم مدرسة ، فما استطاع أن يخفي ابتسامة ساخرة ظهرت على شفتيه . ديلورييه لاحظه واحمرّ .

تناول قبّعته مستعداً للخروج . حاول هيسّونّيه أن يلاطفه بنظرات متوسّلة ، وبما أن فريدريك يدير له ظهره ، قال له :

ـ هيّا ، يا عزيزي ! كن نصيري ! إحمِ الفنون !

وبحركة قبول مفاجئة ، أخذ فريدريك ورقة ، وبعدما خربش بضعة أسطر ، أعطاه إياها ، أشرق وجه البوهيمي ، ثم مرّرها إلى ديلورييه قائلاً له :

ـ اعتذر ، يا سيّد !

كان صديقهما قد طلب إلى كاتب عدله أن يرسل إليه ، على

جناح السرعة ، خمسة عشر ألف فرنك .

ـ هكذا أعرفك ! قال ديلورييه .

ـ قسماً بشرفي ، أضاف البوهيميّ ، أنت رجل طيّب .

تابع المحامي :

ـ لن تخسر شيئاً ، المضاربة ممتازة .

ـ قسماً ، هتف هيسّونّيه ، أقدّم رأسي للمقصلة .

وابتدأ بحماقات ووعد بعجائب (ربما هو يؤمن بها) ، بحيث لم يعرف فريدريك هل هذا ليهزأ بالآخرين أم بنفسه .

في المساء ذاته ، وصلته رسالة من أمه .

كانت تعجب كيف لم تره ، بعد ، وزيراً ، وهي تمزح بعض الشيء . ثم تحدّثت عن صحتها ، وأخبرته أن السيّد روك صار يزورها . « منذ ترمّله ، ما عدت أخشى استقباله . ولقد تغيّرت لويز كثيراً في صالحه » . وفي الحاشية : « لم تقل لي شيئاً عن معرفتك الجديدة بالسيد دمبروز ، لو كنت مكانك ، لاستفدت منه » .

لم لا ؟ كانت هجرته طموحاته الثقافية ، وثروته (هو يعي ذلك) غير كافية ، إذ ، بعد دفعه ديونه ، وتقديمه المبلغ المتّفق عليه ، سيكون دخله قد نقص ، أقلّه ، أربعة آلاف فرنك ! على كل حال ، بات يشعر بالحاجة للخروج من جوّه ، وبضرورة التعلق بعمل ما . وفي الغد كذلك ، وهو يتعشى عند السيّدة أرنو ، ذكر أن أمّه تريده أن يقوم بمهنة .

ـ لكني كنت أظن أن السيد دمبروز سيدخلك مجلس

مستشاري الدولة . هذا يناسبك تماماً .

هي تريد ذلك ، إذن . فأطاع .

كان صاحب المصرف جالساً ، كما في المرة الأولى ، إلى مكتبه ، فاستمهله بإشارة بضع لحظات ، لأن رجلاً ما ، ظهره إلى الباب ، يحدّثه بأمور مهمّة . عن فحم وعن دمج شركات مختلفة يجب أن يتمّ .

رسما الجنرال فوا ولويس ـ فيليب موضوعان ، كل إلى جانب من المرآة ، أدراج ملفّات على الحائط تصل حتى السقف ، وهناك ست كراسي قشّ ، ما كان السيّد دمبروز يحتاج لشقة أجمل لأعمال ، انه مكان معتّم كتلك المطابخ حيث تحضّر مآدب كبيرة . لاحظ فريدريك ، بخاصة ، خزنتين ضخمتين موضوعتين في زاويتين . تساءل كم من الملايين تحويان . فتح صاحب المصرف واحدة ، فاستدارت صفيحة الحديد وما تركته يرى ، في الداخل ، سوى دفاتر أوراق زرق .

أخيراً مر الرجل أمام فريدريك . انه السيّد أودري . تصافحا واحمرّا ، فبدا السيّد دمبروز مدهوشاً . وفي ما بقي ، كان لطيفاً جداً . ما كان شيء أسهل من أن يزكي صديقه الشاب عند وزير العدل . يكونون مسرورين به بينهم . وأنهى ملاطفاته بأن دعاه إلى سهرة يقيمها خلال أيام .

كان فريدريك يصعد عربة خفيفة ليذهب إليه ، حين وصلته رسالة من « المارشالة » . قرأ على ضوء الفوانيس :

« أيها العزيز ، اتبعت نصائحك وها هي الحرية تعود إليّ

غداً اقل انني لست شجاعة » .

إنما كان هذا دعوة له إلى المركز الشاغر . تنهّد مرتاحاً ، دفع الرسالة إلى جيبه وذهب .

في الشارع اثنان من المجلس البلدي على حصانين . سلسلة فوانيس ملوّنة تشتعل عند رتاجي البابين ؛ وخدم في الساحة يصرخون لتتقدّم العربات حتى أسفل درج المدخل تحت مظلة الباب . ثم ، فجأة ، هدأت الضجّة في الرواق .

تملأ بئر السلّم أشجار كبيرة ، تسكب كرات البورسلين نوراً يتموّج كتموّج الساتان الأبيض على الجدران العالية . صعد فريدريك الدرج بنشاط . هتف حاجب باسمه ، صافحه السيّد دمبروز ، وفي الوقت نفسه تقريباً ، ظهرت السيدة دمبروز .

ثوبها ليلكيّ موشّى بالدانتيلا ، خصلات شعرها كانت أكثر غزارة من المعتاد ، من دون أية حلية .

راحت تشكو زياراته النادرة ، فوجد وسيلة لقول شيء . كان المدعوّون يتوافدون . وكطريقة للسلام ، يرمون جذوعهم جانباً ، أو ينحنون انحناءة عميقة ، أو ، فقط ، هم يخفضون الرأس . ثم مرّ زوجان ، وتفرّق الجميع في الصالون الممتلىء .

في الوسط ، تحت الثريا ، محسبة ضخمة عليها حوض ، زهوره المحنية كما ريش الزينة في القبّعات ، تميل رأس النساء الجالسات في شكل دائرة ، حولها ، بينما أخريات يشغلن مقاعد في خطين مستقيمين تفصلهما ، بتناسق ، ستائر النوافذ التي من مخمل

صدفيّ اللون ، وكوى الأبواب العالية المذهّبة السّاكف *

جماعة الرجال الواقفين ، وقبّعاتهم في أيديهم ، تبدو ، من بعيد ، كتلة واحدة سوداء ، حيث أشرطة العرى تجعل هنا وهناك نقاطاً حمراء ، وتجعلها أكثر عتمة الرتابة البيضاء التي لربطات العنق . بعض شباب لحاهم ما تزال طريّة يبدون ، جميعاً ، ضجرين ، وبعض متأنّقين ، بوجوه عابسة ، يتمايلون في أمكنتهم . الشعور المستعارة كثيرة كانت ، فالرؤوس رماديّة . وبين مكان وآخر ، تلمع جمجمة صلعاء ، والوجوه ، إما ارجوانيّة أوكثيرة الشحوب، تجعلك ترى في تجعّداتها ملامح تعب كبير ، الناس الموجودون هنا ، هم سياسيّون أو رجال أعمال . وكان السيّد دمبروز دعا أيضاً بضعة علماء ، قضاة ، طبيبين أو ثلاثة مشهورين ، وراح يردّ ، بأوضاع متواضعة ، المدائح التي تطلق على سهرته ، والتلميحات إلى غناه .

يدور ، أينما كان ، خدم كثيرون بشرائط ذهبيّة . وتتفتّح على الستائر شماعدين كبيرة كباقات من نار . هي تتراءى ، أيضاً ، في المرايا ، وفي آخر غرفة الطعام ، يزيّنها الياسمين ، يبدو صوان السفرة كمذبح رئيسي في كاتدرائية ، أو كمعرض مجوهرات ، ـ لكثرة ما هناك من أطباق ، وأجراس ، ومفارش ، وملاعق فضيّة وذهبيّة ، وسط كريستال متعدّد المظاهر وهو يتقاطع ، فضلاً عن النجومات والأضواء القوس قزحيّة الألوان .

---

* أعلى الباب الذي يقابل العتبة .

أما الصالونات الثلاثة الأخرى ، فتكاد تضيق بالآثار الفنية ، مناظر لأسياد الرسم معلّقة في الجدران ، عاج وبورسلان على أطراف الطاولات ، طُرف صينية على المناضد المزخرفة ، وتمتد حواجز واقية مبرنقة أمام النوافذ ، وفي المدفئات باقات كاميليا ، ومن بعيد ، تتهادى موسيقى خفيفة كطنين نحل .

الرقصات المربّعة لم تكن كثيرة ، والراقصون بدوا ، بتثاقلهم ، كمن يتمّم واجباً .

كان يسمع فريدريك عبارات مثل هذه :

ـ هل كنتِ ، آنستي ، في آخر مهرجان لفندق لامبرت ؟

ـ لا ، يا سيدي !

ـ سوف يصير الجو قائظاً !

ـ نعم ، كثيراً ،

ـ لمن موسيقى البولكا هذه ؟

ـ لا أعرف ، يا سيدتي !

وراءه ثلاثة مهارشين يتوشوشون بكلام بذيء . آخرون يتحدّثون عن السكك الحديد ، عن التجارة الحرة ، رجل رياضي يروي حكاية صيد ، ملكي وجمهوري يتناقشان .

وهو يهيم من جماعة إلى أخرى ، وصل إلى صالون المقامرين ، حيث ، في دائرة من رجال وقورين ، عرف مارتينون ، « هو ، الآن ، ملحق بشركة وكلاء بورصة العاصمة » .

عنقه الضخم الذي بلون الشمع يملأ تماماً عقده الذي هو

تحفة ، معه يبدو شعر صدره الأسود متساوياً . وليحافظ على حدود الأناقة التي تتطلّبها سنّه ، وعلى الرفعة التي يفرضها مركزه ، راح يعلّق إبهامه بإبطه حسب استعمال المتأنّقين ، ثم يعود فيضع يده في صداره على طريقة العقائديين . وبالرغم من كون جزمته لامعة جداً ، فهو حلق صدغيه ، ليجعل من نفسه مفكراً .

بعد بضع كلمات ببرود بدأت ، استدار صوب حديث مشبوه . كان ملاك يقول :

- إنها طبقة من الرجال الذين يحلمون بقلب المجتمع !

- يطالبون بتنظيم العمل ! أجاب آخر . أتدرك ما يعني هذا ؟

- ماذا تريد ! قال ثالث ، حين نرى السيّد دو غينو يمدّ يده إلى « العصر » !

- إنهم ، أنفسهم ، محافظون ، يجعلون ذواتهم تقدميّين ، ليؤمّنوا لنا أي شيء ؟ الجمهورية ! كما لو هي ممكنة في فرنسا ! جميعهم أعلنوا أن الجمهورية مستحيلة في فرنسا .

- مهما يكن ، قال عالياً رجل ما يهتمون كثيراً بالثورة ، ينشرون عنها قصصاً ، كتباً ! . . .

- دون أن يحسبوا ، ربما ، أن هناك مواضيع للدرس أكثر أهمية ، قال مارتينون .

تحمّس موظف رسمي ضدّ فضائح المسرح :

- هكذا ، مثلاً ، هذه الدراما الجديدة ، « الملكة مارغو » ، هي تجاوز الحدود فعلاً ! أين هي الحاجة التي حدّثونا

بها عن الفالوا ؟ كل هذا يظهر المَلَكيّة المتناقضة ! انه كصحافتكم ! كثيراً تحدّثوا عن قوانين أيلول ، زعموها جيّدة ! أبغي أنا محاضرات المحاكم العرفية لأسكت الصحافيّين ! عند أقل وقاحة أسوقهم أمام مجلس عسكري ! وتأمّل !

- أوه ! احذر يا سيدي ، احذر ! قال أستاذ ، لا تهاجم استفتاءاتنا الثمينة للعام ١٨٣٠ ! لنحترم حرياتنا !

كان الأجدر إبطال المركزيّة ، توزيع فائض المدن في الأرياف .

- إلا أنهم منحلّون ! قال كاثوليكي . اعملوا على تعميق الدين !

استعجل مارتينون إلى القول :

- فعلاً ، انه كابح !

كل الشر يكمن في هذه الرغبة الحديثة ، الارتفاع فوق الطبقة ، الحصول على الترف .

- مع هذا ، اعترض صناعي ، ان الترف يشجّع التجارة . أيضاً استحسن أن يفرض دوق دو نيمور السروال القصير في سهراته .

- حضرها السيّد تيار بالبنطلون أتعرف كلمته ؟

- نعم ، هو لطيف ! لكنه يصبح ديماغوجيّاً ، وحديثه عن مسألة المضادات لم يكن بلا تأثير على اعتداء ١٢ نوّار .

- آه عجباً !

- إيه ! إيه !

اضطرت الحلقة للانفراج قليلاً ليمرّ خادم حاملاً صينية ، يريد الدخول إلى صالون المقامرين .

تغطي الطاولة ، تحت الأضواء الخضراء ، أوراق وقطع ذهبيّة . توقّف فريدريك أمام واحدة منها ، خسر النابوليونيّات الخمس عشرة التي كانت معه ، استدار على قدم واحدة ووحد نفسه على عتبة صالون السيّدات حيث السيّدة دمبروز .

الصالون مليء بالنساء ، منقاربات على مقاعد بدون مساند . تبدو تنانيرهن الطويلة المنتفخة حواليهن ، موجات تظهر فيها قاماتهن ، وتتراءى نهودهنّ من تقويرة الصدور . جميعهن يحملن باقة بنفسج بالبد . وقفازاتهن الكامدة اللون تبدى بياض أذرعهنّ ، تتدلّى ، فوق أكتافهنّ ، تنسّلات خيوط وأعشاب عطرية ، وتظن ، مرات ، عند بعض الارتعاشات ، أن الثوب يكاد يقع . لكن احتشام الأوجه يلطّف من إثارة الأثواب ، الكثيرات منهن ، تكاد مسالمتهن تكون بهيميّة ، ويذكّر هذا التشابه لنساء نصف عاريات ، بداخل « حريم » . وتناهى إلى ذهن الشابّ شَبَه أكثر مجوناً . في الواقع ، كل أنواع الجمال كانت هناك : انكليزيات مزخرفات ، إيطاليّة عيناها تشعّان كبركان فيزوف ، ثلاث أخوات بالأزرق ، ثلاث نورمانديّات طريّات كشجرات تفاح نيسانيّات ، شقراء ضخمة مثقلة بالمجوهرات ، والايماضات البيض التي للألماس ، وتهتزّ في الشعور ، كذلك بقع الأحجار الكريمة المضيئة والمعلّقة على الصدور ، وبريق اللؤلؤ المرافق للأوجه ، كل هذا يمتزج بلمعان المحابس الذهبيّة ،

بالدانتيلا ، بالبودرة ، بالريش ، بأحمر الأفواه الصغيرة ، بصدف الأسنان . والسقف ، المدوّر كقبّة ، يجعل صالون النساء هذا كحوض أزهار ، وينتشر هواء عطر بفعل خفقان المراوح .

فريدريك المرابض وراءهن ، ما رأى كل الأكتاف بغير عيب ، راح يفكر في « المارشالة » ، مما دفع عنه الاغراء أو سلّاه .

مع ذلك انسكب يتأمّل السيّدة دمبروز ، وجدها جميلة بالرغم من فمها الطويل إلى حد ما ومنخريها العريضين . لكن جمالها كان خاصاً . خصل شعرها كما لو فيها ذبول قشه ، وجبينها العقيقيّ بدا مملوءاً بالكثير من الأشياء ويشير إلى جبين سيّد .

كانت أجلست قربها ابنة أخ زوجها ، وهي صبيّة على جانب من البشاعة . وتتململ ، بين وقت وآخر ، لاستقبال الآتيات ، وتسمع جلبة أصوات النساء المتزايدة كنقنقة عصافير .

كان الحديث عن السفراء التونسيّين وأثوابهم . سيّدة كانت حضرت الاستقبال الأخير في الأكاديمية ، أخرى تحدّثت عن « دون جوان » موليار ، قدّمت حديثاً أمام الفرنسيينّ . وإذ التفتت السيدة دمبروز إلى ابنة أخ زوجها واضعة إصبعها على فمها ، قفزت إلى شفتيها ابتسامة كذّبت سلطتها .

وفجأة ، ظهر مارتينون ، في الجهة المقابلة ، تحت الباب الآخر . وقفت . قدّم إليها ذراعه . ولكي يراه فريدريك يكمل ملاطفاته ، اخترق طاولات اللعب ولحق بهما في الصالون الكبير ، ابتعدت السيدة دمبروز عن مرافقها وأتت تحدّثه بودّ .

فهمت أنه لم يلعب ولم يرقص .

ـ زمن الشباب نكون حزانى ! ثم ، رامقة الحفل بنظرة واحدة :

ـ مع ذلك ، كل هذا ليس غريباً ! أقلّه لبعض الطبائع !

وتوقفت أمام صف الكراسي المريحة ، موزّعة ، هنا وهناك ، كلمات لطيفة ، بينما أتى مسنّون بمنظارهم المزدوج يتودّدون إليها وبها يتغزّلون . قدّمت فريدريك إلى بعضهم . لمسه السيّد دمبروز من كوعه ، برقة ، واصطحبه خارجاً إلى الشرفة .

كان رأى الوزير . ما كان الأمر سهلاً . قبل أن يكون المرء مندوباً في مجلس الدولة ، عليه أن يخضع لامتحان ، أجاب فريدريك ، وقد أخذته ثقة لا تفسير لها ، بأنه يعرف المواد .

لم يفاجأ الرأسمالي بعد كل ثناء السيّد روك عليه .

عند سماعه هذا الاسم ، تذكّر فريدريك لويز الصغيرة ، بيته ، غرفته . وتذكّر أيضاً الليالي المشابهة حيث كان يبقى إلى نافذته ، مصغياً إلى سائقي العجلات يمرّون . تذكّر هذه الكآبات أدّى به إلى تصوّر السيّدة أرنو ، فصمت متابعاً المشي على الشرفة . فتحات النوافذ ترسل ، وسط الظلمات ، أنواراً حمراء مستطيلة ، راح يضعف صخب الحفل ، وابتدأت العربات بالذهاب .

ـ لماذا تصرّ على مجلس الدولة ؟ قال السيّد دمبروز .

وأكّد له بنبرة ليبراليّة ، أن الوظائف العامة لا تؤدّي إلى شيء ، يعرف بعض أشياء عنها ، تفضلها الأعمال . فاعترض فريدريك على صعوبة تعلّمها .

ـ لا يهمّك ! في وقت قصير أضعك في أجوائها .

أكان يريد مشاركته في مشاريعه ؟

وكما في رؤيا ، لمح الشاب أن ثروة هائلة سوف تأتيه .

ـ فلندخل ، قال المصرفيّ . ستتعشى معنا ، أليس كذلك ؟

كانت الساعة الثالثة ، بدأوا يذهبون . وطاولة جاهزة في غرفة الطعام تنتظر الخاصّة .

رأى السيد دمبروز مارتينون ، فتقدّم إلى امرأته وسألها بصوت خافت :

ـ هل أنتِ دعوته ؟

بخشونة أجابت :

ـ طبعاً !

ما كانت ابنة الآخر هنا . شربوا جيداً وضحكوا عالياً ، تجرّأوا في الدعابات ، كلّهم أحسّوا بهذه الرشاقة التي تلي الواجبات الطويلة إلى حدّ ما . وحده ، مارتينون ، بدا رصيناً ، رفض شرب الشمبانيا تهذيباً ، هو دمث ، على كل حال ، ومفرط التهذيب ، لأن السيد دمبروز ، إذ راح يشكو من إحساس بالاختناق ، لكونه ضيّق الصدر ، صار هو يسأله عن صحته مرة بعد مرة ، ثم يوجّه عينيه الزرقاوين ناحية السيّدة دمبروز .

هي طفقت تسأل فريدريك عمّن أعجبه من الشخصيات الشابة . ما كان انتبه إلى أحد منهم ، وهو يفضّل ، على كل حال ، النساء الثلاثينيّات .

ـ ليس هذا سيّئاً ! أجابته .

ثم ، إذ راحوا يرتدون ستراتهم المبطّنة بالفرو ، قال له السيّد دمبروز :

ـ تعال إليّ في صباح ما نتحدث !

عند أسفل الدرج ، أشعل مارتينون سيجاراً ، وبدا ، وهو يمتصّه ، ثقيل الرأس ، فقال رفيقه :

ـ والله ، إن رأسك لجميل !

ـ وقد أمال إليه رؤوساً كثيرة ! أجاب المأمور القضائي الشاب ، بنبرة ، هي في الآن ذاته ، واثقة ومغتاظة .

قبيل النوم استعرض فريدريك السهرة . أوّلاً زينته (كان نظر إلى ذاته مرات كثيرة في المرايا) ، من قصة الثوب حتى عقدة الحذاء ، تحدّث إلى رجال محترمين ، رأى عن قرب ، نساء ثريّات ، وبدا السيد دمبروز ممتازاً والسيّدة دمبروز تكاد تكون جذابة . زان كلماتها ، كلمة كلمة ، نظراتها ، ألف أمر غير قابل للتحليل ومع ذلك معبّر . سيكون فخوراً إن حصل على عشيقة مماثلة ! لمَ لا ، بعد كل شيء ! انه يوازي أي شخص آخر ! لربما هي ليست صعبة ! بعدها ، عاد مارتينون إلى ذاكرته ، وهو يغفو ، ابتسم شفقة على هذا الشاب الطيّب .

أيقظته فكرة « المارشالة » ، كلمات رسالتها هذه : « ابتداءً من مساء الغد » ، هي ، حتماً ، موعد للنهار ذاته . انتظر حتى التاسعة ، وركض إليها .

شخص ما ، أمامه ، وكان يصعد الدرج ، أغلق الباب .

هو دقّ الجرس . أتت دلفين تفتح ، وأكدت أن السيّدة ليست هنا .

أصرّ فريدريك . توسّل فال عليه أن يوصل إليها أمراً مهماً ، كلمة بسيطة . أخيراً ، نجحت حجة المئة فلس ، وتركته الخادمة وحيداً في غرفة الانتطار .

ظهرت روزانيت . كانت في القميص ، وشعرها مفكوك . وهي تحرّك رأسها من بعيد ، قامت بحركة كبيرة في يديها بمعنى لا تستطيع استقباله .

على مهل ، نزل فريدريك الدرج . فاق هذا التقلّب كل ما سبقه . ما فهم شيئاً من ذلك .

وأمام مأوى البوّاب ، أوقفته الآنسة فاتناز .

ـ هل استقبلتك ؟

ـ لا !

ـ طردتك ؟

ـ كيف عرفت ؟

ـ الأمر واضح ! إنما تعال ! لنخرج ! أكاد أختنق !

اصطحبته إلى الشارع وكانت تلهث . أحسّ ذراعها الضعيفة ترتجف على ذراعه . وفجأة انفجرت :

ـ آه ! يا للمسكين !

ـ مَن ؟

ـ إنما إنه هو ! هو ! دلمار !

هذا الكشف أغضب فريدريك ، أجاب :

ـ متأكدة أنت ؟

ـ لكني تبعته ! أقول لك ، قالت الآنسة فاتناز ، رأيته يدخل ! أتفهم الآن ؟ كان عليّ أن أنتظر هذا . أنا ، ببلاهتي ، جئت به إليها . ولو كنت تعرف ، آه ، يا إلهي ، فقد لممته ، أطعمته ، كسوته ، ويا ما عملت له في الصحف ! أحببته كأمّ ! ـ وبسخرية : ـ آه ! السيد تلزمه ملابسه المخمليّة ! مضاربة من قبله ، فكّر ملياً ! وهي ! عرفتها مجهّزة بياضات ! بدوني ، كادت تتضوّر جوعاً ، أكثر من عشرين مرة . لسوف أدفعها إلى ذلك ! أوه طبعاً ! أريدها أن تموت في المستشفى ! سنعرف كل شيء !

وراح غضبها ، كشلّال ماء يجرف أقذاراً ، يُظهر لفريدريك بصخب ، عار منافستها .

ـ لقد ضاجعت جوميلاّك ، فلاكور ، ألاّر ، برتينو ، سان فاليري ، المجدور . لا ! الآخر ! هما اخوان ، ما يهمّ ! وحين يحدث لها مشاكل ، أسوّيها لها . ماذا كنت أستفيد ؟ هي في منتهى البخل ! ثم ، وأنت توافقني الرأي ، كانت مسايرة لطيفة ان أراها ، لأننا ، في الأخير ، لسنا من مستوى واحد ! أأنا عاهرة ؟ هل أبيع نفسي ؟ بصرف النظر عن أنها خرقاء كملفوفة ! فهي تكتب فئة بهمزة على الألف . وفي الأخير ، هما متساويان ، هما زوجان ، مهما تسمّي فنّاناً وحسب ذاته موهوباً ! إنما ، يا إلهي ! لو يملك بعض ذكاء لما أقدم على عمل شائن كهذا ! لا نهجر امرأة رفيعة الشأن بسبب نذلة ! أستخف بهما ، بعد كل شيء . يتحوّل بشعاً ! بت أكرهه ! لو التقيته لبصقت في وجهه . ـ بَصَقَتْ . ـ

نعم ، هذا ما سأفعله الآن ! وأرنو ؟ هل هو كريه ؟ لقد غفر لها مرات كثيرة ! لا يمكننا تصوّر تضحياته ! كان عليها تقبيل قدميه ! إنه كريم ، وطيّب جداً !

كان فريدريك مسروراً لسماعه اغتياب دلمار . كان قبل أرنو . بدا له مكر روزانيت أمراً غير مألوف ، غير عادل ، وصار ، متعاطفاً مع هذه العانس ، يحس نوعاً من الحنان تجاهها . وفجأة ، وجد نفسه أمام بابه ، كانت الآنسة فاتناز ، على غفلة منه أنزلته حي بواسّونّيير .

ـ ها نحن هنا ، قالت . أنا ، لا أستطيع الصعود . إنما أنت ، فلا شيء يمنعك .

ـ لماذا إذن ؟

ـ لتقول له كل شيء !

وكمن يستيقظ قافزاً ، فهم فريدريك إلى أي عمل معيب قادته .

ـ وبعد ؟ قالت له .

رفع عينيه إلى الطابق الثاني . قنديل السيّدة أرنو مضاء . في الواقع ، لا شيء يمنعه من الصعود .

ـ أنتظرك هنا . اصعد !

هذا الأمر ثبّط عزيمته ، فقال :

ـ سأبقى ، فوق ، طويلاً . يكون من الأفضل لو تعودين . أذهب إليك في الغد . قالت فاتناز ، خابطة بقدمها :

ـ لا ، لا ! خذه ! اصطحبه إلى هناك ! دعه يفاجئهما !

ـ لكن دلمار يكون ذهب !

خفضت رأسها .

ـ نعم ، قد يكون هذا صحيحاً .

وبقيت صامتة ، وسط الشارع ، بين العربات ، ثم قالت ، مركّزة عليه عينيها كعيني هرة متوحّشة :

ـ يمكنني الاعتماد عليك ، أليس كذلك ؟ حلّ الأمر بيننا ، هو جليل ! تصرّف إلى الغد !

سمع فريدريك وهو يجتاز الممشى ، صوتين يتجاوبان . صوت السيّدة أرنو يقول :

ـ لا تكذب ! لا تكذب !

دخل فصمتا .

كان أرنو يتمشى طولاً وعرضاً ، والسيّدة جالسة على الكرسي الصغيرة قرب النار ، شاحبة الوجه ، جامدة النظرة . أراد فريدريك الانسحاب . أخذ أرنو من يده ، سعيداً بالنجدة الواصلة .

ـ لكني أخشى . . .

ـ إبقَ ! همس أرنو في أذنه .

قالت السيّدة :

ـ يجب أن نكون متساهلين ، سيّد مورو ! هذه من الأمور التي نصادفها أحياناً في العائلات .

ـ هذا لأن هناك من يضعها هنا ، قال أرنو بجرأة . النساء هنّ لك نزوات . هكذا ، هذه الآن ، مثلاً ، ليست سيّئة . لا .

على العكس ! ومذ ساعة وهي تتسلّى بأن تضايقني بكدسة قصص .

ـ هي حقيقيّة ! أجابت السيّدة أرنو ، نافدة الصبر لأنك ، أخيراً ، اشتريته .

ـ أنا ؟

ـ نعم ، أنت نفسك ! من محل « برسان » !

فكّر فريدريك : « الكشمير » !

شعر بنفسه مذنباً وخاف .

وتابعت :

ـ كان هذا الشهر الماضي ، السبت ١٤

ـ آه ! في هذا اليوم بالذات كنت في « كراي » ! ترين ؟

ـ أبداً ! فنحن تعشّينا عند آل برتان ، في ١٤

ـ ١٤ ؟ . . . قال أرنو رافعاً عينيه كمن يبحث عن تاريخ .

ـ والموظف الذي باعك إياه كان أشقر !

ـ هل أستطيع تذكّر الموظف !

ـ وقد كتب ، بإملاء منك ، العنوان : ١٨ ، شارع دي لافال .

ـ كيف عرفت ؟ قال أرنو مدهوشاً .

هزّت كتفيها .

ـ أوه ! الأمر في غاية البساطة : كنت هناك لأصلح خماري الكشميري ، فأخبرني مسؤول عن جانح أنهم أرسلوا واحداً مشابهاً إلى السيّدة أرنو .

ـ هل ذنبي إذا كان هناك ، في الشارع نفسه ، سيّدة أرنو أخرى ؟

ـ طبعاً ! إنما ليس جاك أرنو ، أجابت .

حينها ، راح يهذي متمسكاً ببراءته . انها غلطة ، صدفة ، واحدة من هذه الأمور التي تحصل ولا تفسير لها . يجب ألا نحاكم الناس بناء على الشكوك ، والاشارات المبهمة ، وأعطى مثلاً عن السيّء الحظ لوسورك * .

ـ أؤكد أنّك على خطأ ! تريدين أن أقسم لك بشرفي ؟

ـ لا ضرورة لذلك ·

ـ لماذا ؟

نظرت إليه في وجهه ولم تقل شيئاً ، ثم مدّت يدها ، أخذت علبة الحلى من على المدفأة ، وناولته فاتورة كبيرة .

احمرّ أرنو حتى أذنيه ، وانتفخت أوداجه المتشنّجة .

ـ وبعد ؟

بهدوء أجاب : ـ إنما . . . ما تثبت هذه ؟

ـ آه ! قالت بنبرة خاصة فيها الألم والسخرية معاً . آه .

احتفظ أرنو بورقة الحساب بين يديه ، طواها ولم يمل بنظره عنها كأنه اكتشف فيها حلاً لمشكلة معقّدة . قال أخيراً :

ـ أوه ! نعم ، نعم ، أتذكّر ، إنها تكليف . . . يجب أن تعرف هذا أنت يا فريدريك . ـ صمت فريدريك . ـ تكليف من

---

* أعدم سنة ١٧٩٦ بتهمة قتل ساعي بريد ليون ، ثم تبيّن ، في ما بعد ، أنه بريء .

قبل . . . من قبل السيّد أودري .

- ولمن ؟

- لعشيقته !

- لعشيقتك أنت ! صرخت السيّدة أرنو ، ناهضة بقوة .

- أقسم لك . . .

- لا تعد ! أعرف كلّ شيء !

- آه ! حسناً ! هكذا يتجسّسون عليّ !

ببرود أجابت :

- ربما هذا يجرح شعورك ؟

- طالما انك تغضبين ولا وسيلة للتفاهم ! أجاب أرنو آخذاً قبّعته .

وبعد تنهّد عميق :

- لا تتزوّج أنت ، يا صديقي المسكين ، لا تتزوّج ، صدّقني !

وخرج فجأة .

خيّم صمت ثقيل . وبدا ، كل شيء في المنزل إنه في حاجة إلى الهواء . أكثر جموداً . دائرة نور ، فوق مصباح الزيت ، ترتسم على السقف ، بينما يمتدّ ، في الزوايا ، ظل ستائر شفّافة . . . كنت تسمع تكتكة الساعة وزفير النار .

جلست السيّدة أرنو في الزاوية الأخرى للمدفأة . كانت تعضّ شفتيها مرتجفة ، رفعت يديها إلى عينيها ، بدت تنحب باكية .

جلس هو على كرسي صغير ، وبصوت ناعم به نتوجه إلى مريض ، همس :

ـ تعتقدين اني أقدر أن أشاركك ؟

لم تجب بشيء . إنما ، قالت مكملة تفكيرها بصوت مرتفع :

ـ أتركه حراً ! لم يكن بحاجة ليكذب !

ـ بالطبع ! قال فريدريك .

إنها ، ولا شك ، عاقبة عاداته ، ما فكّر فيها ، وربما هو في أمور أهمّ . . .

ـ أترى أموراً أكثر أهمية من هذه ؟

ـ أوه ! لا ! لا شيء !

أحنى فريدريك رأسه وبسمة موافقة على شفتيه . مع ذلك ، فأرنو يمتلك بعض صفات ، هو يحبّ ولديه .

-آه ! لقد فعل كل شيء لخرابهما !

-هذا متأتّ من سهولة طبعه ، هو إنسان طيّب .

صرخت :

ـ ماذا يعني أن يكون إنساناً طيّباً ؟

وهكذا ، راح يدافع عنه بالطريقة الأكثر غموضاً التي استطاع أن يجدها ، وكان مسروراً ، في قرارة نفسه ، وهو يؤاسيها . فكّر : ستلجأ إليه ، إما انتقاماً وإما لاحتياجها إلى العاطفة . أمله ، وقد كبر بلا حدود ، راح يقوّي حبّه .

ولا مرة بدت له آسرة هكذا ، وجميلة إلى هذا الحدّ . ترفع

صدرها ، بين وقت وآخر ، نهدة ، تبدو عيناها تتوسّعان بفعل رؤيا نفسيّة ، وبقي فمها نصف مطبق كما لحظة الموت . أحياناً ، ترفع محرمتها إلى وجهها وتضغط بها بقوّة ، هو اشتهى تلك القماشة التي من الباتيستا المبلّلة بالدموع . وبالرغم منه ، يختلس النظر إلى السّرير في طرف المخدع ، متخيّلاً رأسها على المخدّة ، ويتراءى له ذلك بوضوح ، إلى حد هو يمسك نفسه عن ضمها بذراعيه . أطبقت جفونها ساكنة ، ثابتة . حينها ، اقترب منها أكثر ، وراح منحنياً صوبها ، يتأمّل وجهها بلهفة . سمع صوت جزمة في الممشى ، كان الآخر . سمعاه يقفل باب غرفته . بالاشارة ، سألها فريدريك إن كان عليه أن يخرج .

بالاشارة أجابته « نعم » ، وهذا التبادل الأخرس للأفكار ، رآه نوعاً من الموافقة ، بداية لخيانة زوجيّة .

كان أرنو ، وهو يتحضّر للنوم ، يخلع سترته الطويلة ، سأله :

ـ وبعد ، كيف هي الآن ؟

ـ أوه ! أحسن ! قال فريدريك . سينتهي الأمر !

لكنّ أرنو كان قلقاً .

ـ لا تعرفها أنت ! هي ، الآن ، على أعصابها ! . . . يا للموظف الأبله ! هوذا ما يعني أن يكون الانسان طيّباً ! لو لم أعطِ روزانيت هذا الخمار السحس

ـ لا تأسف على شيء ! إنها ممتنّة لك فوق أي حد !

ـ أو تظن ؟

ما كان فريدريك يشكّ . البرهان أنها طـردت السيّد أودري .

- آه ! يا للمسكين !

وفي قمة انفعاله ، أراد أرنو الاسراع إليها .

- لا ضرورة لهذا ! إني آت من عندها . هي مريضة !

- وهذا سبب مهمّ للذهاب إليها !

ارتدى ، من جديد ، سترته الطويلة ، وتناول شمعدانه الصغير . لعن فريدريك نفسه لغباوته ، وقال له إن من اللياقة البقاء الليلة مع امرأته . يجب ألا يتركها ، يكون الأمر سيّئاً تماماً .

- بصـراحة ! تخـطىء إن فعلت ! لا شيء يستـدعي العجلة ! تذهب في الغد ! هيّا ! إفعل هذا من أجلي .

وضع أرنو شمعدانه ، وقال له وهو يقبّله :

- كم أنت انسان طيّب ، أنت !

III

وابتدأت ، بالنسبة لفريدريك ، مرحلة صعبة . صار طفيليّ البيت .

إن مرض أحد ، بعوده ثلاث مرات ، في النهار الواحد ، ليعرف أحواله ، يذهب عند مصلّح البيانو ، يخترع ألف مجاملة ، ويعاني ، بمظهر سعيد ، حرد الآنسة مارت ومداعبات أوجين الصغير ، الذي كان ، باستمرار ، يداعب لـه وجهه بيـديه الوسختين . يكون حاضراً في العشاء ، حيث السيد والسيّدة متواجهان ، ولا يتبادلان كلمة ، أو يزعج أرنو زوجته بملاحظات سخيفة . ويلعب ، بعد انتهاء الطعام ، في غرفته مع ابنه ، يختبىء خلف الأثاث ، أو يحمله على ظهره ، دابّاً على يديه ورجليه . بعدها يخرج ، فتبدأ هي مباشرة موضوع شكواها الدائم : أرنو .

لم يكن سوء سيرته ما يزعجها . لكنها تتألّم في كبريائها ، وتظهر اشمئزازها من هذا الرجل غير المرهف ، والذي بلا كرامة ولا عزّة .

- أو ، بالأحرى ، هو مجنون ! كانت تقول .

وراح فريدريك بمهارة يغريها بالمسارّة . وسريعاً ما عرف كلّ

حياتها

ذووها من البورجوازيين الصغار في شارتر . ويوماً ، إذ كان أرنو يرسم على ضفة النهر (في ذلك الزمن كان يحسب نفسه رساماً) ، رآها وهي تخرج من الكنيسة وطلبها للزواج ، وبسبب ثروته ، لم يمانع أهلها . على كل حال ، كان يحبها بـوله .

أضافت : يا إلهي ! ما يزال يحبّني ! على طريقته !

سافرا ، في الأشهر الأولى ، إلى إيطاليا .

وبالرغم من غرام أرنو بالمناظر والروائع ، ما اهتمّ إلا بالخمر ، وطفق ينظّم نزهات إلى البراري مع انكليز ليتسلّى . حضّته على التجارة في الفنون ، لوحات باعها بثمن مرتفع . ثم أولع بمصنع خزف . والآن ، مضاربات أخرى تغريه ، وصار يتخذ عادات ماجنة وباهظة الثمن . كانت تلومه على منكراته أكثر من أي أمر آخر . لم يتغيّر شيء ، وها تعاستها لا تعوّض .

من جهته ، أكّد فريدريك أن حياته ناقصة .

مع أنه شـاب ، فلماذا اليأس ؟ وراحت تنصحـه : « اعمل ! تزوّج ! » يجيبها بابتسامات مُرّة ، إذ انه ، بدلاً من أن يعبّر عن سبب حزنه الحقيقي ، يختلق آخر ، أشد نبلاً ، ويجعل نفسه أنطوني ، المنكود الحظ ، وهذا كله ، في النهاية ، لا يغيّر شيئاً مهماً في أفكاره .

بالنسبة إلى بعض الرجال ، إن العمل مستحيل التنفيذ بمقدار ما تكون الرغبة قويّة . عدم الثقة بأنفسهم يقلقهم ، الخوف من ألّا يرضوا يؤرّقهم ، على كل حال ، إن التعلّق العميق

يشبه النساء الفاضلات ، هنّ يخفن افتضاح أمرهن ، فيقضين الحياة حافضات العيون .

وبالرغم من كونه عرف السيّدة أرنو أكثر (وربما بسبب هذا) ، صار أجبن ممّا سبق . يقسم لنفسه ، كل صباح ، أن سيكونٍ جسوراً . ويمنعه حياء لا يُقْهر ، وما كان بإمكانه أن يتصرّف وفق أي مثل ، لأن هذه تختلف عن الأخريات . وبقوّة أحلامه ، جعلها فوق الحدود الانسانيّة ، يشعر ، إلى جانبها ، أنه أقلّ أهمية على الأرض ، من نُتف الحرير التي تهملها بمقصّها .

ثم يروح يفكّر في أشياء هائلة ، لا معقولة ، كالمفاجآت ، ليلاً ، بمنوّم ومفاتيح مزوّرة . ـ كل شيء ، يبدو له أسهل من أن يعرّض حاله للاحتقار .

وهكذا يرى الولدين ، الخادمتين ، ترتيب الغُرف ، صعوبات لا تُغلَب . إذن ، يقرّر أن يمتلكها وحده ، والذهاب بعيداً ، للحياة معاً في قلب وحدة ، وحتى ، فهو يبحث على أية بحيرة صافية الزرقة ، على ضفة أي شاطىء جميل سيكونان ، في اسبانيا ، في سويسرا ، أو في الشرق ، ويختار الأيّام التي هي فيها أكثر سخطاً ، ويقول لها انه عليها الخروج من هنا ، تَصَوُّر طريقة ما ، ولا يجد هو أفضل من الانفصال . ولكن ، لن تتوصّل إلى هكذا نهاية حباً بأولادها . وهكذا فضيلة تزيد من احترامه .

يقضي بعد ظهر أيامه يتذكّر زيارته ليلة أمس ، وباشتهائه زيارة الليلة . وحين لا يتعشى معهم ، يرابط ، في التاسعة ، في زاوية الشارع ، وفور إقفال أرنو الباب وراءه ، يصعد فريدريك ،

بنشاط ، الدرج وبسأل الخادمة بمظهر ساذج :

ـ هل السيّد هنا ؟

فـ « يفاجأ » بأنه لم يجده .

وغالباً ما كان يعود أرنو بغتة . فيتحتّم لحاقه إلى مقهى صغير في شارع القديسة حنّه ، حيث يكون ريجمبار

يبدأ « المدبي » بالكلام ضد العرش . يذكر تطلمات جديدة . ثم يدور الحديث شتائم ، لأن صاحب المصنع يحسب ريجمبار مفكّراً من طبقة رفيعه ، ولكونه حزين لرؤ يته وسائل كثيرة ضائعة ، يروح يؤنّبه على كسله . ويظن « المديني » أن أرنو رجل شجاع وصاحب خيال ، لكنه ، بالطبع ، خليع ، ولا يتساهل في معاملته معه ويرفض ، حتى ، العشاء عنده لأنّ « الرسميات تزعجه » .

أحياناً ، لحظة الوداع ، يشعر أرنو بجوع شديد . يكون في حاجة لأن يأكل عجة بيض أو تفاحاً مطبوخاً . وبما أن المأكولات لا توجد حيث هو ، فانه يرسل يطلبها . لا يذهب ريجمبار ، وينتهي الأمر بأن يأكل شيئاً معه . إلا أنه يبقى كئيباً . فهو يظل ، لساعات ، أمام الكأس نصف الملأى نفسها . وبما أن العناية لا تدير ، أبداً ، الأمور حسب مشتهاه ، يقع في السوداويّة ، ولا يريد أن يقرأ الجرائد ، بعد ، ويطلق زمجرات لمجرّد سماعه اسم انكلترا . صرخ مرة بسبب خادم المقهى ، وقد أساء خدمته :

ـ أليس عندنا ما يكفينا من العار من الخارج !

وعدا هذه النوبات ، يبقى سكوتاً ، متأمّلاً « ضربة أكيدة النجاح تفجّر كلّ المحل » .

وفيما يكون مأخوذاً في هذه الأفكار ، يروح أرنو ، بصوت رتيب ونظرة سكرى ، يروي حكايات لا تصدّق ، برع فيها دائماً ، بسبب ثقته بنفسه · ويبدي فريدريك (لتشابه عميق) تعاطفاً معه . ويلوم نفسه على ضعفه هذا واجداً أنه ، على العكس ، عليه أن يكرهه .

تألم أرنو أمامه لمزاج زوجته ، عنادها ، أحكامها المسبقة غير العادلة . ما هكذا كانت من زمان .

ـ لو كنت مكانك ، قال فريدريك ، لأعطيتها نفقة وعشت وحيداً .

ما أجاب أرنو بشيء ، ثم شرع في مديحها . فهي طيّبة ، مخلصة ، ذكية ، فاضلة ، وإذ انتقل إلى مزاياها الجسديّة ، راح يغالي في الكشف عنها ، بخفّة ،هؤلاء الناس الذين يعرضون كنوزهم في الفنادق .

كارثة أخلّت بتوازنه .

كان دخل ، كعضو في مجلس المراقبة في شركة صلصال . إنما ، بما أنه يثق بكل ما يقال له ، وقّع على تقارير خاطئة ، وصدّق ، بدون تدقيق ، البيانات السنويّة المرفوعة ، من الوكيل ، بخداع . وبما أن الشركة انهارت ، وهو قانوناً المسؤول ، فقد حُكم عليه ، مع الآخرين ، بضمان التعويضات ، مما جعله يخسر حوالى الثلاثين ألف فرنك ، مزيدة عليها نفقات الحكم .

عرف فريدريك بهذا من جريدة ، فأسرع إلى شارع « الفردوس » .

استقبل في غرفة السيّدة . كان الوقت حين فطور الصباح . تزدحم الاسكملة ، قرب النار ، بأقداح القهوة بالحليب . وتتاثر على السجادة أحذية قديمة ، وثياب على الكراسي . كانت عينا أرنو ، الذي لا يزال بثياب النوم ، حمراوين وشعره مشعّثاً ، أوجين الصغير يبكي بسبب « أبو كعيب » ، وهو يقضم « عروسة » صغيرة ، أخته ، بهدوء ، تأكل ، تخدم الثلاثة ، السيّدة أرنو الأكثر شحوباً من المعتاد .

زفر أرنو نهدة عميقة وقال : ـ وبعد ، لقد عرفت ! ـ وإذ قام فريدريك بحركة شفقه ، أضاف : ـ هكذا ! لقد كنت ضحيّة ثقتي !

ثم صمت . كان إرهاقه عظيماً إلى حد رفض الطعام . رفعت السيّدة أرنو عينيها هازّة كتفيها . مرّ يديه على جبينه .

ـ لست مذنباً . لا أؤاخذ نفسي على أمر . انها مصيبة ! أستقيل منها ! آه ! ماذا تريد !

وشرع يأكل فطيرة حلوى ، مستجيباً في ما تبقّى ، لتوسّلات امرأته .

في المساء ، أراد أن يتعشيا معاً ، وحدهما ، في غرفة خاصة في « البيت الذهبي » . لم تفهم السيّدة أرنو شيئاً من هذا الأمر ، مغتاظة حتى لكونها ظنّته يعاملها كغادة ماجنة ؟ ـ لكن أرنو ، على العكس ، أراده برهاناً على عاطفته . وإذ رأى نفسه يكاد يضجر ،

توجّه يتسلّى عند « المارشالة » .

حتى الآن ، هم تغاضوا له عن أمور كثيرة بسبب طيبته . دعواه صنّفته بين المصابين بعاهات . وأحاطت الوحدة بمنزله .

حسب فريدريك ، بنخوته ، أنه من الضروري مخالطتهما أكثر . فحجز مقصورة في المسرح ، إليها يذهبون كلّ أسبوع . غير أنهما كانا في تلك الفترة التي فيها الزواج المتنافر ينتج منه ملل لا يُقهر يجعل الحياة لا تطاق . تمسك السيّدة أرنو نفسها لئلا تنفجر ، وأرنو يكتئب ، ومرأى هذين الكائنين الناسيين يُحزن فريدريك .

هي ، عهدت إليه ، بما أنه حظي بثقتها ، في أن يتحرّى عن أعماله . لكنه يخجل ، يتألم ، كان ، لكونه يتعشى عنده وهو يطمع بامرأته . إلا أنه ثابر على ذلك واجداً لنفسه عذراً هو أنه يدافع عنها وأنّ كلّ مناسبة تقرّبها إليه تنفعه .

بعد ثمانية أيام من الحفل قام بزيارة للسيّد دمبروز . قدّم إليه هذا التحوّل أعمالاً عدة ، في مشروعه المتعلق بالفحم الحجري ، ما رجع إليه فريدريك . كتب إليه ديلورييه رسائل ، أبقاها من دون ردود . دعاه بيلّران لرؤية الرسم ، كان يُبعده دوماً . غير أنه ماشى سيزي ، الذي كان أزعجه بالالحاح ليعرّفه إلى روزانيت .

استقبلته بالترحاب ، إنما من دون أن تقفز إلى عنقه ، كما من زمان . كان رفيقه سعيداً ، لأنه حظي باستقبال فاحشة ، وبخاصة لكونه تحدث مع ممثّل ، دلمار كان هناك .

كانت دراما لعب فيها دور قرويّ يوجّه لويس الرابع عشر ويتنبأ بسنة ٨٩ ، قد أبرزته إلى أحد انهم باتوا يكتبون له أدواراً مشابهة ، وتقوم وظيفته ، حالياً ، على السخرية من ملوك كلّ البلدان . صانع جعة انكليزي يذم شارل الأوّل ، طالب في سلمنكا يلعن فيليب الثاني ، أو هو والد مرهف يسخط على السيّدة بومبادور ، وهذا هو الدور الأجمل ! بات ينتظره المراهقون ، ليروه ، على أبواب المسرح الخلفيّة ، وتباع سيرة حياته أوقات الاستراحة وهي ترسمه كمعتنٍ بأمّه المسنة ، قارىء الانجيل ، مساعد الفقراء ، تقرّبه من مزايا قدّيس شبيه بالقديس منصور دو بول على شيء من بروتس وميرابو . صاروا يقولون : « دلمارنا » . باتت له رسالة ، يشبّهونه بالمسيح .

كل هذا فتن روزانيت ، فتخلّصت من السيّد أودري غير مهتمّة بشيء لأنها ليست طمّاعة .

وأرنو ، كان يعرفها ، استمتع بها لزمنٍ ما ، وإذ تقدّم الرجل الآخر ، اهتمّ الثلاثة بألّا يتصارحوا . وإذ تصوّر أنها صرفت الآخر لأجله وحده ، زاد أرنو من الانفاق عليها . لكن طلباتها تتجدّد بكثرة لا مبرّر لها ، فهي تعيش حياة أقل كلفة ، حتى أنها باعت خمار الكشمير ، مصرّة على أن تفي ديونها القديمة ، كما قالت ، وهو يعطي باستمرار ، فهي تسحره ، وتفرّط به من غير شفقة . وهكذا الفواتير والأوراق المدفوعة تمطر في البيت . شعر فريدريك بكارثة وشيكة .

حضر ، يوماً ، لرؤية السيّدة أرنو . كانت خرجت .

والسيد يعمل ، تحت ، في المخزن .

في الواقع ، كان أرنو وسط آنيته الصينية الكبيرة ، يحاول استمالة أزواج جدد من بورجوازيي الريف . يتحدّث ، كان ، عن الخرط ، عن المجزَّع والمصقول ، ما أراد الآخرون الظهور مظهر من لا يفهم ، فراحوا يومئون موافقين ويشترون .

حين خرج الزبائن من عنده ، أخبره أنه تخانق ، في الصباح ، مع زوجته . وانه ، استباقاً لملاحظاتها حول الانفاق ، أكّد لها أن « المارشالة » لم تصبح بعد عشيقته .

- قلت لها ، حتى ، انها عشيقتك أنت .

زعل فريدريك ، لكن أي توبيخ منه قد يفضحه . لذلك همس :

- آه ! لقد أخطأت خطأً كبيراً !

ماذا يمكن أن يحدث ؟ وتابع أرنو : أين العار في أن تكون عشيقها ؟ طالما أني كذلك ، ألا يسرّك أن تكون أنت كذلك ؟

أتراها باحت بشيء ؟ هل هذا تلميح ؟ استعجل فريدريك للاجابة :

- لا ! أبداً ! بالعكس !

- إذن ؟

- نعم ، صحيح ! لا يهم !

قال أرنو :

- لماذا بتّ لا تأتي إلى هناك ؟

وعد فريدريك بالعودة .

ـ آه ! كدت أنسى ! عليك . . . وأنت تتحدّث عن روزانيت . . . أن تجعل امرأتي . . . كيف أقول . . . ستجد قولاً يجعلها تلمس أنك عشيقها . أطلب إليك هذا كخدمة !

قطّب الشاب وجهه ولم يجب . أفقدته هذه النميمة صوابه . وفي المساء ذاته ذهب إليها يقسم أن ادّعاء أرنو ليس صحيحاً .

ـ صحيح ؟

رأته صادقاً ، وبعدما تنهّدت عميقاً ، قالت : « أصدّقك » ، مع ابتسامة جميلة . ثم خفضت رأسها ، ومن دون أن تنظر إليه :

ـ وفوق ذلك ، ليس لأحد عليك أيّ حقّ !

ما عرفت شيئاً إذن ، واحتقرته ، رأته لا يحبّها بما فيه الكفاية ليكون لها مخلصاً ! نسي فريدريك مبادراته عند الأخرى ، ووجد الاذن مهيناً .

التمست منه ، بعد هذا ، أن يذهب أحياناً « عند هذه المرأة » ليرى ما يحدث هناك .

ودخل فجأة أرنو ، وبعد خمس دقائق أراد أن يصحبه عند روزانيت .

صار الوضع لا يطاق .

انتهى عن ذلك برسالة من الكاتب العدل تنبئه بتسلم خمسة عشر ألف فرنك ، غداً . وليعوّض إهماله تجاه ديلورييه ، ذهب مباشرة إليه يخبره بالحدث .

يسكن المحامي في شارع « المريمات الثلاث » ، في طابق خامس يشرف على الساحة . مقرّه ، غرفة صغيرة مرصوفة بلاطاً ، باردة ، ومزيّنة بورق رمادي ، ديكورها الأساسيّ مدالية ذهبية ، هي جائزته في الدكتوراه ، موضوعة في إطار آبنسي قرب المرآة . ومكتبة من خشب الأكاجو تضم ، خلف الزجاج ، مئة كتاب تقريباً . المكتب مغطى بجلد ناعم ، وهو يشغل وسط المكان . كراس مخملية أربع موزّعة في الزوايا ، وفي المدفأة تشتعل نشارة حيث ، دائماً ، حزمة حطب حاضرة للاشتعال عند قرع الجرس . إنها ساعة الاستشارات ، كان المحامي بربطة عنق بيضاء .

خبر الخمسة عشر ألف فرنك (ما كان يعتقد ان المبلغ أكبر) أحدث فيه ضحك لذة ، أفرحه .

ـ هذا حسن ، يا صديقي ، هذا حسن ، حسن جداً !

رمى حطباً في النار ، عاد للجلوس ، وتحدّث مباشرة عن الجريدة . أوّل عمل عليهما أن ينفّذاه هو التخلّص من هيسّونّيه .

ـ يتعبني هذا الوغد ! وحين تريد الاضرار برأي ، فالأكثر عدلاً ، حسب رأيي ، والأكثر قوة ، هو ألاّ يكون لك أي رأي .

تعجّب فريدريك .

ـ أكيد ! حان الوقت لمعالجة السياسة بطريقة علميّة . كان شيوخ القرن الثامن عشر قد بدأوا يفعلون ذلك ، حين أدخل روسّو ورجال الأدب ، التجرّد ، الشعر ، وتوافه أخرى على السياسة ، وذلك لمتعة الكاثوليك . هذا تحالف طبيعي ، فوق

ذلك ، بما أن المصلحين المعاصرين (أؤكّد هذا) ، يؤمنون ، جميعاً ، بالوحي . إنما ، إذا كنت تقيم قداديس لأجل بولونيا ، وإذا ، بدلاً من اله الدومينيكان ، الذي هو سفّاح ، أخذت إله الرومنطيقيين ، الذي هو صانع نجود ؛ وإذا ، أخيراً ، لم يكن عندك ، عن المطلق ، إدراك أشمل من إدراك آبائك ، ستخترق المَلكيّة أنظمتك الجمهوريّة ، ولن تكون قبّعتك الحمراء سوى قلنسوة كهنوتيّة ! فقط ، يكون حلّ نظام السجن الانفرادي بدل التنكيل ، وشتيمة الدين بدل التدنيس ، والانسجام الأوروبي بدل التحالف المقدّس . وفي هذا النظام المصنوع من بقايا المتشيّعين للويس الرابع عشر ، من آثار الفولتيريّين ، مع معجون امبراطوري واجزاء من تشريع انكليزي ، ترى المجالس البلديّة تهتم بإغاظة حاكم المدينة ، والمجالس العامة مديرها ، والصحافة السلطة ، والهيئة الادارية كلّ الناس ! لكن النفوس الطيّبة تفرح بالنظام المدني ، وقد صنعته ، مهما قيل في ذلك ، ذهنيّة تافهة ، طاغية ، لأن المشترع ، بدلاً من أن يحقق هدفه ، وهو تنظيم العرف ، ادّعى تغيير المجتمع على غرار ليكورغ * لماذا يثقل الشرع على ربّ العائلة في قضية الوصية ؟ لماذا يعطّل البيع الجبري للأثاث ؟ لماذا يعاقب ، كجريمة ، التشرّد ، وهو يجب ألّا يكون ، حتى ، مجرّد مخالفة ؟ وهناك أمور أخرى ! أعرفها ! سوف أكتب رواية قصيرة عنوانها « حكاية فكرة العدالة » ، ستكون غريبة !

---

* خطيب أثيني ورجل سياسة (حوالى ٣٩٦ ـ ٣٢٣ ق. م.) أدار ماليّة أثينا .

لكن بي عطشاً لا يرتوي ! وأنت ؟

انحنى من النافذة ، وطلب إلى البوّاب أن يشتري مشروباً ساخناً من الحانة .

ـ باختصار ، أرى ثلاثة أحزاب . . . ، لا ! ثلاث جماعات ! ـ ولا واحدة تهمّني ، منها : مَن معهم ، من لم يبق معهم ، ومن يعملون ليحصلوا . لكنهم ، جميعاً ، يتفقون على عبادة بلهاء للسلطة ! والأمثلة كثيرة : مابلي يوصي بألا يمنع الفلاسفة من نشر عقائدهم ، السيّد ورونسكي ، المهندس ، يطلق على الرقابة اسم « ردع العفويّة النظريّة » ، والأب أنفونتان يبارك آل هابسبورغ « لكونهم اخترقوا جبال الألب لقهر إيطاليا » ، بيار لورو يريد إرغامك على سماع خطيب ، ولويس بلان يميل إلى عبادة الدولة ، طالما أن هذا الشعب التابع مهووس بالسلطة ! مع ذلك ، ولا واحد منهم شرعي ، برغم مبادئهم السرمديّة . وبما أن « المبدأ » يعني « الأصل » ، فيجب الاتكال على ثورة ، على عمل عنيف ، على عمل انتقالي ، تغييري . هكذا ، فمبدأنا هو السيادة القوميّة ، مفهومة بالشكل البرلماني ، مهما كان البرلمان غير موافق ! إنما ، بمَ سلطة الشعب هي أكثر احتراماً من الحق الالهي ؟ كلاهما وهم ! انتهينا من الماورائيات ، ومن الأشباح ! لا لزوم للعقائد من أجل تنظيف الشوارع ! سيقولون اني أقلب المجتمع ! وماذا بعد ؟ أين الضرر ؟ في الواقع ، نظيف مجتمعك !

كان فريدريك يستطيع مناقشته . إنما ، إذ رآه بعيداً عن

نظريّات سينيكال ، تساهل . اكتفى بأن اعترض بالقول إن هكذا نظاماً يجعلهما مكروهين بعامة .

ـ على العكس ، بما أننا نكون شحنّا كل فئة كرهاً للأخرى ، يعتمدون ، كلّهم ، علينا . تكون أنت معنا ، تكون الناقد المترفّع !

تجب مجابهة الأفكار الجاهزة ، الأكاديمية ، معهد المعلّمين ، المعهد الفنّي ، الكوميدي فرانسيز ، كل ما هو يشبه مؤسّسة . من هنا يمدّون بالعقيدة مجلتهم . ثم ، حين تصبح متمكّنة ، تتحوّل يوميّة ، حينها تتمّ مهاجمة الشخصيات .

ـ وتأكّد من أننا نكون محترمين !

يريد ديلورييه تحقيق حلمه القديم : رئاسة تحرير جريدة ، أعني لذة قيادة الآخرين ، قطع مقالاتهم ، وأن يأمر ويرفض . عيناها راحتا تشعّان تحت نظارتيه ، تحمّس وراح يشرب ، دون توقّف ، آلياً .

ـ يجب أن تدعو للعشاء مرة في الأسبوع . هذا ضروري ولو أنفقت نصف دخلك ! سيكون هذا مركزاً للآخرين ، دافعاً لك ، ومقلّباً الرأي من وجهتين : الأدبيّة والسياسية ، سترى ، بعد أشهر ستّة ، نتصدّر باريس .

كان فريدريك وهو يصغي إليه يحس بتجدّد شبابه ، كرجل بعد إقامة طويلة في غرفته ، نقلوه إلى الهواء الطلق . أخذته الحماسة .

ـ نعم ، كنت كسولاً ، أحمق ، الحق بجانبك !

الحمد لله ! هتف ديلورييه ، هكذا أعرف فريدريك ! وأضاف واضعاً قبضته على ذقنه .

ـ آه ! لقد آلمتني . لا يهمّ ! أحبّك كيفما كنت .

كانا واقفين ينظر واحدهما إلى الآخر ، رقيقي القلب ، يكادان يتعانقان .

ظهرت قبّعة امرأة عند عتبة غرفة الانتظار .

ـ من أتى بكِ ؟ قال ديلورييه .

إنها الآنسة كليمنس ، عشيقته .

أجابت أنها ، وهي تمرّ ، صدفة ، أمام بيته ، ما استطاعت مقاومة رغبتها لرؤيته ، وليأكلا معاً وجبة خفيفة ، جلبت معها بعض حلوى وضعتها على الطاولة .

ـ انتبهي لأوراقيَ ! قال المحامي بخشونة . على كل حال ، هي المرة الثالثة التي بها أمنعك من المجيء أثناء الاستشارات .

أرادت أن تقبّله .

ـ حسناً ! هيا ! حلّ ربطة عنقك !

دفعها عنه ، فتنهّدت نهدة عميقة .

ـ آه ! إنك تضايقينني!

ـ لأنّي أحبّك !

ـ لا أطلب حباً بلا طاعة !

أوقفت ، هذه الكلمة القاسية دموع كليمنس . انزرعت أمام النافذة بلا حراك ، جبينها إلى الزجاج .

وقفتها وصمتها أزعجا ديلوربيه .

ـ حينما تنتهين ، ستطلبين عربتك ، أليس كذلك ؟

استدارت غاضبة :

ـ أتطردني ؟

ـ تماماً !

ركّزت عليه عينيها الزرقاوين الكبيرتين ، في ترجّ أخير ، ولا شك ، شبكت طرفي قميصها ، انتظرت لحظة ثم خرجت .

قال فريدريك :

ـ عليك أن تناديها !

ـ لا بأس عليها !

وبما أنه عليه الخروج ، دخل ديلوربيه مطبخه الذي كان أيضاً غرفة زينته . كان هناك ، على بلاطة ، قرب جزمة ، بقايا غداء بسيط ، فراش وغطاء في زاوية .

ـ هذا يدلك على أنني قليلاً ما أستقبل مركيزات ! هي لا تهمّني ! ولا سواهن . تأخذ وقتك من لا تكلفك شيئاً . هذا توفير ومن وجهة أخرى ، فأنا لست غنياً ! ثم ، هنّ جميعاً حمقاوات ! حمقاوات تماماً ! أتستطيع ، أنت ، الحديث إلى امرأة .

افترقا عند زاوية « الجسر الجديد » .

ـ إذن ، اتفقنا ! ستأتيني بالمال غداً ، فور حصولك عليه .

ـ اتفقنا ! قال فريدريك .

ومع نهوضه من النوم ، صباح اليوم التالي ، حصل من البريد على قسيمة بخمسة عشر ألف فرنك ، من المصرف .

مثّلت له هذه الورقة البسيطة خمسة عشر كيساً كبيراً من المال ، وقال في ذاته انه ، مع مبلغ كهذا ، يستطيع أولاً ، الاحتفاظ بعربته لثلاث سنوات ، بدل أن يبيعها كما كان سيضطر قريباً ، أو أن يشتري شقتين جميلتين مزخرفتين كان رآهما على رصيف فولتير ، وأشياء أخرى ، لوحات ، كتباً ، باقات زهر ، وهدايا للسيّدة أرنو ! كل شيء ، في نهاية المطاف ، أفضل من المجازفة ، من فقدان المال في هذه الجريدة ! بدا له ديلورييه مدّعياً ، برودته ، الليلة الماضية ، شلّته مكانه ، واستسلم فريدريك يتأسّف حين ، بعد هنيهات ، فوجىء كلياً بدخول أرنو الذي جلس ، بتثاقل ، على حافة السرير ، كرجل مثقل بالهموم .

ـ ماذا هناك ؟

ـ لقد انتهيت !

كان عليه أن يدفع ، في النهار ذاته ، في مكتب السيّدة بومينيه ، وهي كاتبة عدل في شارع القديسة حنة ، مبلغ ثمانية عشر ألف فرنك ، استدانها من رجل اسمه فانّيروي .

ـ هي كارثة لا تفسير لها ! كنت قدّمت إليه رهناً عقارياً يجب أن يهدّئه ، لكنه يتهدّدني بإنذار ، إن لم أدفع له بعد ظهر اليوم . . .

ـ ماذا يحدث ؟

ـ الأمر بسيط ! يستملك منزلي . الاعلان الأول يخربني ، هذا كل شيء ! آه ! لو كنت أجد مَن يقرضني هذا المبلغ

المشؤوم ، يحلّ محلّ فانيروي وأكون أُنقذت ! أليس عندك أحد ؟

الحوالة ، كانت لا تزال على الطاولة ، قرب كتاب . أخذ فريدريك الكتاب ووضعه عليها قائلاً :

ـ يا إلهي ! لا ، يا صديقي العزيز !

إنما يكلّفه رفض طلب أرنو .

ـ كيف ؟ ألا تجد أحداً يستطيع ؟

ـ أبداً ! إنما ، خلال ثمانية أيام ، سأحصل على مبالغ ! ربما خمسون ألفاً آخر الشهر !

ـ ألا تستطيع الطلب إلى مَن سيدفعون لك أن يدفعوا قبل ذلك ! . . .

ـ آه ! حسناً ! بلى !

ـ أمعك مبلغ ما ، أوراق ؟

ـ لا شيء !

قال فريدريك :

ـ ما العمل ؟

ـ هذا ما أتساءل بشأنه ، أجاب أرنو .

سكت ، وراح يقطع الغرفة طولاً وعرضاً .

ـ ليست لأجلي ، يا إلهي ! إنما لأولادي ، لزوجتي المسكينة !

ثم ، وهو يلفظ كلمة كلمة :

ـ أخيراً . . . سأكون قويّاً . . . أحزم كل أمتعتي . . . وأذهب أعمل . . . في مكانٍ ما !

ـ مستحيل ! صرخ فريدريك .

أجاب أرنو بهدوء :

ـ كيف تريدني ، الآن ، أن أحيا في باريس ؟

وخيّم صمت طويل .

بعدها ، قال فريدريك : متى تردّه ، هذا المبلغ ؟

ليس لأنه يمتلك هذا المبلغ ، على العكس ! لكن لا شيء يمنعه من رؤية أصدقاء ، أن يحاول . وطلب خادمه ليرتدي ملابسه . شكره أرنو .

ـ تريد ثمانية عشر ألف فرنك ، أليس كذلك ؟

ـ أوه ! تكفيني ستة عشر ألفاً ! أستطيع تحصيل ألفين وخمسمئة إلى ثلاثة آلاف ، إذا أمهلني فانّيـروي إلى الغد ، وتستطيع أن تؤكّد للمدين ، أكرّر لك هذا ، أنني أردّ المبلغ خلال ثمانية أيام ، أو ربما ، حتى ، خلال خمسة أو ستة . على كل حال ، الرهن العقاري يقوم بدلاً منه . هكذا لا خطر . . . أتفهم ؟

جزم فريدريك أنه فهم ، وسيخرج للحال .

بقي في بيته لاعناً ديلوربيه ، هو يريد تنفيذ وعده ، وفي الآن ذاته ، خدمة أرنو .

« لو أتوجه إلى السيّد دمبروز ؟ إنما بأية حجة أطلب إليه مالاً ؟ على العكس ، عليّ أنا أن أتوجّه إليه بخصوص الفحم الحجري ! آه ! ليتسلّ وأعماله ! لن أعملها ! » .

وصفّق فريدريك فرحاً لاستقلاله ، كما لو أنه رفض خدمة

للسيّد دمبروز .

« حسناً ، قال في ذاته بعد ذلك ، بما أنني أخسر من هذه الناحية . . . لأنني أستطيع ، بخمسة عشر ألف فرنك ، أن أربح مئة ألف ! هذا يحصل ، مرات ، في البورصة . . . إذن ، بما أنني أتراجع مع واحد ، ألست حراً ؟ . . . على كل حال ، متى ينتظر ديلورييه ـ لا ، لا ، هذا عاطل ، هيا بنا ! » .

التفت إلى الساعة .

« آه ! لا شيء يستدعي العجلة ! لا يقفل المصرف قبل الخامسة » .

وحين قبض ماله في الرابعة والنصف :

« غير مجد الآن ! لن أجده ، أذهب هذا المساء ! » معطياً نفسه ، هكذا ، فرصة للتراجع ، لأنه يبقى ، في عمق الضمير ، شيئاً من سفسطات سكبناها فيه ، يحتفظ بشيء كريه كما بعد شراب رديء .

راح يتنزّه في الشوارع العريضة ، وتعشّى وحده في المطعم ، ثم استمع إلى فصل من مسرحية هزلية ليتسلّى . لكن أمواله باتت تزعجه كأنه اختلسها . لم يكن ذلك خوفاً من ضياعها .

ووجد ، وهو يدخل بيته ، رسالة فيها هذه الكلمات :

« هل من جديد ؟

« زوجتي تنضمّ إليّ ، صديقي العزيز ، في أمل . . .

« واسلم »

ويلي الامضاء :

« زوجته ! تلتمسني ! »

وفي الوقت نفسه ، ظهر أرنو ، ليعرف هل وجد المبلغ الضروري .

ـ هاكه ، خذه ! قال فريدريك .

وبعد أربع وعشرين ساعة ، أجاب ديلوريه : لم أحصل على شيء !

عاد المحامي طوال ثلاثة أيام متتالية . كان يحثه على الكتابة للكاتب العدل . عرض ، حتى ، السفر إلى هافر .

ـ لا ! هذا لا يجدي ! سأذهب أنا !

وفي نهاية الأسبوع طلب فريدريك بخجل من السيّد أرنو الخمسة عشر ألفاً .

أرجأه أرنو إلى الغد ، ثم إلى ما بعد الغد . فصار فريدريك يتسكع خارجاً مع الليل ليتحاشى ديلوريه .

وذات مساء ، اصطدم به أحدهم في زاوية « المادلين » . كان هو .

ـ سآتي بها ، قال .

رافقه ديلوريه إلى باب بيت في ضاحية « بواسّونيير » .

ـ انتظرني !

انتظر . وبعد ثلاث وأربعين دقيقة ، خرج فريدريك مع أرنو ، وأشار إليه أن يصبر ، بعد ، قليلاً . كانا يصعدان متخاصرين ، تاجر الخزف ورفيقه ، شارع « هوتفيل » ، بعده

راحا في شارع « شابرول » .

كان الليل مظلماً مع نسمات هواء فاترة . طفق أرنو يتحدّث عن خفايا التجارة ودهاليزها ، وهو يسير ببطء : تتابع ممرّات مشجّرة قادهما من بولفار « سان دني » إلى « الشاتليه » ، حيث أخذته رغبة ملحة بالدخول ، وبين وقت وآخر كان يتوقف ليرى ، من خلال زجاج المحلاّت ، وجه الشابات المرحات ، ثم يتابع حديثه .

كان فريدريك يسمع خطوات ديلورييه وراءه ، كتأنيبات ، كضربات تجلد ضميره . لكنه لا يجرؤ على المطالبة خجلاً وخوفاً من أن تكون بلا طائل . اقترب الآخر . حزم أمره ، هو ، وقرّر .

فقال أرنو ، بنبرة طليقة ، إن تغطياته لم تحصل ، فلا يستطيع ، الآن ، دفع الخمسة عشر ألف فرنك .

ـ أتصوّرك لست بحاجة إليها .

في هذه اللحظة ، اقترب ديلورييه من فريدريك ، وإذ انتحى به جانباً ، قال :

ـ كن صريحاً ، أمعك المال ، نعم أم لا ؟

ـ حسناً ، لا ! فقدته !

ـ آه ! وكيف ؟

ـ في القمار !

لم يجب ديلورييه بكلمة ، ودّعه ، بصوت منخفض جداً ، وذهب . استفاد أرنو من هذه الفرصة ليدخّن سيجاراً في دكّان تبغ . عاد وسأل من يكون هذا الشاب ؟

ـ مجرّد صديق !

وأمام باب روزانيت ، بعد دقائق ثلاث :

ـ اصعد اذن ، قال أرنو ، تكون سعيدة لرؤ يتك . كم تبدو إنساناً متوحّداً ، الآن !

فانوس مواجهه كان ينير وجهه . وبسيجارة بين أسنانه البيضاء ومزاجه السعيد ، كان به شيء لا يطاق .

ـ آه ! للمناسبة ، زار كاتب عدلي هذا الصباح كاتبك أنت ، بخصوص ذلك الرهن العقاريّ . انها زوجتي من ذكّرني بالأمر .

ـ انها امرأة ذات رأي ! قال فريدريك آليّاً .

ـ أظنّ هذا !

وأعاد أرنو ثناءه . ليس من يضاهيها ، روحاً ، قلباً ، اقتصاداً ، وأضاف بصوت هامس ، لامعة عيناه : ـ وكجسد امرأة !

ـ الوداع ! قال فريدريك .

تراجع أرنو : عجباً ! لماذا ؟

ويده نصف ممدودة صوبه ، تفحّصه ، محتاراً لهذا الغضب في وجهه .

تابع فريدريك بخشونة : الوداع !

نزل شارع « بريدا » ، كحجر يتدحرج ، حانقاً من أرنو ، واعداً نفسه بألّا يراه من بعد ، ولا هي أيضاً ، دامي الفؤاد ، آسفاً . بدلاً من الانفصال الذي كان ينتظره ، وهاكه ، على

العكس ، يستغرق في حبها ، كلياً ، من أطراف شعرها حتى اعماق روحها . تزعج فريدريك فظاظة هذا الرجل . كل شيء يخصه إذن ! سيجده ثانية على عتبة الغادة الماجنة ؛ وعلى كل حال ، ان شرف أرنو مقدّماً ضمانات لضمان ماله يسحطه . كان أراد حنقه ؛ ومن فوق كآبته ، حوّم ، في ضميره ، كما ضباب ، شعور بجبانته تجاه صديقه . كادت الدموع تخنقه .

انحدر ديلورييه في سارع الشهداء ، وهو يشتم ، من غضب ، بصوت مرتفع ، ذلك بأن مشروعه ، كمسلّة تهدّمت ، بدا له الآن ذا ارتفاع عجيب . اعتبر نفسه مسروقاً ، كما لو انه عانى كارثة كبرى . ماتت صداقته لفريدريك ، وشعر نفسه ، لذلك ، فرحاً ، إنه تعويض ! أخذه حقد على الأغنياء . مال الى آرا سينيكال وتعهّد بالعمل لها .

في هذه الأثناء كان أرنو جالساً براحة على مثواه قرب النار ، يرشف شايه ، آخذاً « المارشالة » على ركبتيه .

ما عاد فريدريك إلى عائلة أرنـو ؛ وليتعزّى عن ألمه الفاجع ، قبل أوّل موضوع تبادر الى ذهنه ، فقرّر كتابة « تاريخ النهضة » . وراح يضع على طاولته ، كيفما اتفق ، كتب الآداب القديمة ، وكتب الفلاسفة والشعراء ؛ طفق يذهب الى أي مكان يساعده على ذلك ، يرى محفورات مارك ـ أنطوان ، يهتمّ بسماع ماكيافلي . وشيئاً فشيئاً سكّنه هدوء العمل ونسي الاستغراقة في شخصيّات الآخرين ، شخصيّته ، وهذه ، ربما ، في الطريقة الوحيدة لعدم التألّم منها .

يوماً ، وهو يبحث بهدوء ، ويسجّل ملاحظات ، فُتح الباب وأعلن الخادم وصول السيّدة أرنو .

إنها ، فعلاً ، هي ! وحيدة ؟ لا ! هي تمسك بيدها ابنها الصغير أوجين ، تتبعه خادمتها بمريولها الأبيض . جلست ، وبعد سعال :

ـ من زمان لم تذهب الينا .

إذ لم يجد فريدريك عذراً ، أضافت ·

ـ إنه لطف منك !

أجاب :

ـ أيّ لطف ؟

ـ ما عملته لأرنو ! قالت .

قام فريدريك بحركة ذات معنى ، وقال : « لا أهتمّ به ! كان ذلك لأجلك ! »

أرسلت ابنها يلعب ، مع الخادمة ، في الصالون . تبادلا كلمتين أو ثلاث حول صحتها ، ثم انتهى الحديث .

كانت ترتدي ثوب حرير اسمر ، كنبيذ اسبانيا ، مع سترة مخمل أسود ، مزخرفة بفراء ثمين ؛ هذا الفراء يغري بمد اليد اليه ودغدغته ، وخصل شعرها الطويلة المالسة تجذب الشفاه . لكنّ انفعالاً يرجفها ، وقالت مديرة عينيها صوب الباب :

ـ الطقس حار هنا !

فهم فريدريك قصدها المحترس :

ـ عفواً ! ليس المصراعان إلّا مدفوعين .

ـ آه ! فعلاً !
وابتسمت كما لتقول : « لا أخشى شيئاً » .
سألها سبب مجيئها .
ـ زوجي ، أجابت بجهد ، دفعني للمجيء إليك ، هو لا يجرؤ على هذا بنفسه .
ـ ولماذا ؟
ـ انت تعرف السيّد دمبروز ، أليس كذلك ؟
ـ نعم ، إلى حد ما !
ـ آه ! إلى حدٍّ ما .
صمتت .
ـ لا يهمّ ! أكملي .
حينها ، أخبرته أن أرنو ، ما قبل ليلة أمس ، لم يستطع دفع أربع أوراق من فئة الألف لصاحب المصرف ، وكان وقّع على ذلك . وراحت تتأسّف لكونها جازفت بثروة ولديها . لكن كل ذلك يهون أمام العار ؛ وإذا ما ارفق السيّد دمبروز الملاحقة سيدفعون له ذلك قريباً حتماً ؛ هي ستبيع ، في شارتر ، بيتاً لها صغيراً .
ـ يا للمرأة المسكينة ! همس فريدريك .
ـ سأذهب ! اعتمدي عليّ .
ـ شكراً !
وقامت لتذهب .
ـ أوه ! لا شيء يدعوك للعجلة !

بقيت واقفة ، متأمِّلة تذكار صيد من نبال مونغولية في السقف ، المكتبة ، غلافات الكتب ، كل ادوات الكتابة ؛ رفعت وعاءً برونزيّاً فيه الريش ؛ وقعت قدماها على أمكنة مختلفة من السجّادة . كانت مرات عديدة زارت فريدريك ، إنما مع أرنو . الآن ، هما وحدهما ، - وحدهما في بيته هو ؛ - إنه حدث غير عاديّ ، يكاد يكون ثروة لا بأس بها .

أرادت ان تشاهد جنينته ، أمسك بيدها ، وراح يطوف بها في عوالمه ، بستان يبلغ ثلاثين قدماً ، تحيط به بيوت ، تزينها شجيرات ، وفي الوسط مسكبة .

الزمن : أوائل نيسان . أوراق الليلك بدت خضراء ، نسيم لطيف يعطر الهواء ، وعصافير صغيرة تزقزق مردّدة أغنياتها مع ضجيج مصهر صانع المركبات البعيد .

وبينما هما يتنزّهان ، جنباً إلى جنب ، كان الصبي ، يجمع أكوام رمل في الممرّ . تعتقد السيّدة أرنو أنه لن يكون ، مستقبلاً ، صاحب خيال واسع ، لكنه ذو مزاج لطيف . على العكس أخته تمتاز بخشونة طبيعيّة تجرحها أحياناً .

- هذا يتبدّل ، قال فريدريك . يجب ألّا تيأسي .

ردّدت :

- يجب ألّا نيأس !

بدا له هذا التكرار العفوي لعبارته ، نوعاً من الحثّ ؛ قطف وردة هي الوحيدة في الحديقة .

- أتذكرين . . . ذات مساء ، باقة وردٍ ما ، في العربة ؟

احمرّت إلى حدٍّ ما ، وقالت بنبرة شفقة ساخرة :
ـ آه ! كنت ما أزال صغيرة .
ـ وهذه الوردة ، تابع بصوت مهموس ، أتلاقي المصير نفسه ؟

أجابت وهي تبرم عنقها بين أصابعها كخيط مغزل :
ـ لا ، سأحتفظ بها !

وبإشارة منها ، أقبلت الخادمة والصبي على يديها ، ثم ، على عتبة الباب ، في الشارع ، تنشّقت السيّدة أرنو الوردة ، مميلة رأسها إلى كتفه مع ابتسامة تعادل القبلة حناناً .

حين عاد الى غرفته ، راح يتأمّل الكرسيّ حيث جلست ، وكل الأشياء التي كانت لامستها . شيء منها يحوّم حواليه ، يلفّ عالمه . لطافة حضورها لا تزال حاضرة .

« هي ، إذن ، أتت هنا ! » قال في نفسه .

وغمرته أمواج عذوبة لا متناهية .

في الحادية عشرة من صباح الغد ، حضر عند أرنو . استقبلوه في غرفة الطعام . كان المصرفي يتغدّى في مواجهة امرأته ، وابنة أخيه الى جانبها ، وفي الجهة الأخرى المعلّمة ، انكليزيّة طبعها الجدري ، في وجهها .

دعاه السيّد دمبروز للجلوس بينهم ، وإذ رفض :
ـ بمَ يمكنني أن أخدمك ؟ إني أستمع اليك .

قال فريدريك ، مظهراً لا مبالاة ، إنه أتى يلتمس طلباً لواحد اسمه أرنو .

ـ آه ! آه ! ناجر اللوحات القديم ، قال المصرفي ، مظهراً أسنانه البيضاء من خلال ضحكة صامتة . من زمان ، يكفله ، كان ، أودري ؟ لقد تخاصما .

وراح يتصفّح الرسائل والجرائد الموصوعة قربه .

يخدمهم خادمان بلا ضجة على البلاط ، كل ما في الغرفة من كماليات مترفة ، من علوّها وأبوابها الثلاثـة المزخـرفة ، ومغسلتيها المرمريتين ، ولمعان المواقد ، وترتيب المقبّلات ، وحتى ، طيّة الفوط ، كل هذا جعل فريدريك يلاحظ التناقض مع غداء آخر عند أرنو .

لم يجرؤ على مقاطعة السيّد دمبروز . لكنّ السيّدة لاحظت قلقه :

ـ هل ترى أحياناً صديقنا مارتينون ؟

ـ سيأتي هذا المساء ، قالت الفتاة بحيويّة .

ـ آه ! تعرفينه ؟ قالت خالتها وهي تحدجها بنظرة باردة .

وإذ همس خادم في أذنها :

ـ هيّا ، يا ابنتي ، لقد أتت خيّاطتك ! . . . الآنسة جونسون ! ومطيعة ، اختفت المعلّمة مع تلميذتها .

انزعج السيّد دمبروز لضجيج الكراسي ، فسـأل ماذا يجري .

ـ انها السيّدة ريجمبار .

ـ عجباً ! ريجمبار ! أعرف هذا الاسم . صادفت توقيعه .

دخـل فريـدريك في صلب مـوضوعـه . يستحق أرنو

الاهتمام ، وهو ، في محاولته لدفع ديونه سيصل ، حتى ، إلى بيع زوجته بيتاً .

ـ إنه بيت جميل ، قالت السيّدة دمبروز .

أضاف المصرفي بمظهر طيّب :

ـ هل انت صديقهم ... الحميم ؟

من دون ان يجيب فريدريك بوضوح ، قال انه مضطر للأخذ في الاعتبار ...

ـ حسناً ، بما ان هذا يسرّك ، فليكن ! ننتظر ! ما يزال لديّ وقت لو ننزل إلى مكتبي ، تريد ؟

انتهى الغداء ، انحنت السيّدة دمبروز قليلاً ، مبتسمة ابتسامة مميّزة مليئة بالتهذيب والسخرية . ما استطاع فريدريك التفكير ، إذ ما ان صارا وحيدين :

ـ لم تأت بحثاً عن أعمالك .

ومن دون ان يسمح له بالاعتذار :

ـ حسناً ! حسناً ! إنه من الحقّ ان تعرف طبيعة العمل بطريقة أفضل .

قدّم له سيجاره وبدأ الكلام .

تأسسّت شركة الاتحاد العام للفحم الحجري الفرنسي .لم يعد هناك إلا إصدار الأمر . عملية الاتحاد تخفض نفقات المراقبة واليد العاملة ، وتزيد الأرباح . أكثر ، تأمل الشركة أمراً جديداً هو أن يهتمّ العمال بشأنها ستبني لهم بيوتاً ، شققاً صحيّة ، وأخيراً ستكون المورّد لعمّالها ، تسلّمهم كل شيء بسعر الكلفة .

وسيَربحون ، يا سيّدي . انه تقدُّم حقيقيّ ، إنه إفحام بعض تخرصات الجمهوريين ! وعندنا ، في مجلس لادارة (أظهر البيان التمهيديّ) شريف فرنسي ، عالم من المجمع ، ضابط مهندس متقاعد ، أسماء معروفة ! هكذا عناصر ، تطمئن رؤ وس الأموال الخائفة وتستدعي رؤوس الأموال الذكيـة ! ـ تضمن الشركة طلبات الدولة ثم طرقات الحديد ، البحرية العاملة على البخار ، المؤسّسات المعدنيّة ، الغاز ، المطابخ البورجوازيّة . ـ هكذا ، ندفىء نحن ، ننير ، ندخـل حتى ، البيوت الأكـثر تواضعاً . إنما ، قد تسألني ، كيف نؤمِّن المبيع ؟ بفضل حقوق الحماية ، يا سيّدي ، وسنحصل عليها ؛ هذا من اختصاصنا ! وفوق ذلك ، أنا ، بصراحة ، تحريمي ! البلد قبل كل شيء !

جعلوه مـديراً ! لكن الـوقت ينقصه لـلاهتمام ببعض التفاصيل ، بينها الكتابة . « انني متلبّك بعض الشيء ، نسيت اليونانيَّة ! محتاج أنا لأحد . . . يستطيع ترجمة أفكاري » . ومرة واحدة : « أتريد أن تكون ، أنت ، هذا الرجل مع وظيفة الأمين العام » ؟

لم يدر ، فريدريك ، جواباً .

ـ وبعد ، ما يمنعك ؟

وظيفته محدودة بكتابة تقرير ، كلّ سنة ، للمساهمين . سيجد نفسه على علاقات يوميَّة مع رجال باريس الأكثر أهميّة . وكممثّل للشركة تجاه العمّال ، سيحبّونه ، طبيعي هذا أن يقوده ، في ما بعد ، إلى المجلس العام ، إلى النيابة .

طنّت أذنا فريدريك ، من أين تأتّى هذا الرِفق ؟ وغالى في شكره .

ولكن ، قال المصرفي ، يجب ألاّ يكون متأثراً بأحد . والسبيل الأفضل أن يشتري أسهماً ، وهذا « تدبير ممتاز ، لأن رأسمالك يضمن ضعك ووضعك رأسمالك » .

ـ بكم ، تقريباً ؟ قال فريدريك .

ـ بقدر ما تشاء ، من أربعين إلى ستين ألف فرنك .

هذا المبلغ كان زهيداً بالنسبة الى السيّد دمبروز الذي كانت سطوته مميّزة إلى حدّ دفعت الشاب ، مباشرة ، إلى ان يقرر بيع مزرعة . وافق . سيعينّ السيّد دمبروز يومـاً لانهاء الترتيبـات لذلك .

ـ هكذا ، يمكنني القول لجاك أرنو . . . ؟

ـ كل ما تريده ! يا للرجل المسكين ! كل ما تريد !

فكتب فريدريك إلى أرنو بأن يطمئن ، وأرسل الرسالة مع خادمه الذي أجيب :

ـ حسن جداً !

مسعاه كان يستأهل أكثر من « حسن جداً » . راح ينتظر زيارة . أو رسالة في الأقلّ . لم يتلقّ أية زيارة . وما وصلت أية رسالة .

هل كان هذا نسياناً أم ذلك متعمّد ؟ وبما انّ السيّدة أرنو زارته مرة ، فمن يمنعها عن المجيء ؟ ما فعلته إذن من أمر مضمر ، من اقرار ، لم يكن إلاّ بدافع المصلحة ؟ « هل تلاعبا بي

؟ أهي متواطئة ؟ » وبالرغم من رغبته الذهاب الى هناك ، فإن نوعاً من الحياء يمنعه .

ذات يوم (لثلاثة أسابيع بعد لقائهما) ، وصلته رسالة من السيّد دمبروز يعلمه فيها أنه ينتظره خلال ساعة .

اقتحمت ذهنه ، في الطريق ، فكرة آل أرنو . وإذ لم يكتشف أية حجة لتعرّفهما ، غمرته كآبة ، شعور مسبق حزين . ولكي يتخلص من هذا الوضع ، طلب عربة صغيرة وسأل الحوذيّ الانتقال به الى شارع الفردوس .

أرنو في رحلة .

- والسيّدة ؟

- في الريف ، في المصنع !

- متى يعود السيّد ؟

- غداً ، حتماً !

سيجدها وحيدة ، انها المناسبة . وراح شيء ما ، مُلِحٌّ ، يصرخ في باله : « اذهب اليها » !

والسيّد دمبروز ؟ « حسناً ، لينتظر ! أقول له : كنت مريضاً » ركض الى المحطة وفي الحافلة : « ربما انني أخطأت ، ما همّ ! » .

تمتد ، إلى اليمين وإلى اليسار ، حقول خضراء ، القطار بسير ، تظهر البيوت الصغيرة في المحطّات كديكور ، ودخان القاطرة يسكب ، من الجهة ذاتها دائماً ، ندائفه الكبيرة ، تتراقص على العشب ثم تختفي .

وحده فريدريك في مقعده ينظر إلى هذا ضجراً ، ذاهلاً في هذا التراخي الذي يدفع إلى قمة نفاد الصبر . بدت طيور عظيمة ، ومستودعات . إنها « كراي » .

بدت له المدينة فَرِحة ، فيها شيء خفيّ وطيّب ، لكونها تقوم بين تلّتين منخفضتين (أولاهما جرداء والثانية تتوّجها غابة) ، وببرج كنيستها وبيوتها غير المتساوية وجسرها الحجريّ . تجري ، مع المياه المبقبقة يلفحها الهواء ، سفينة كبيرة هادئة ، على أقدام تمثال للمسيح المصلوب بضع دجاجات تنقد في التبن ، مرّت امرأة تحمل غسيلاً على رأسها .

وجد نفسه ، بعد الجسر ، في جزيرة حيث رأى إلى يمينه آثار دير . هناك طاحونة تدور ، حاجبة على كل امتدادها ، ضفة « الواز » الأخرى ، التي يشرف عليها المصنع . أدهشت أهمية هذا البناء فريدريك . بدأ يحترم أرنو أكثر . وبعد ثلاث خطوات ، دخل في شارع صغير ينتهي ، عند طرفه ، بسياج . كان دخل . نادته البوّابة صارخةً :

ـ هل معك إذن ؟

ـ لماذا ؟

ـ لتزورالمؤسسة ؟

قال فريدريك بنبرة خشنة أنه آتٍ يزور السيّد أرنو :

ـ من هذا السيّد أرنو ؟

ـ الرئيس ، السيّد ، المالك ؟

ـ لا ، يا سيّد ، هنا مصنع السادة لوبوف وميلييه !

إنها تمزح ولا شك . رأى عمالاً قادمين اقترب من اثنين أو ثلاثة وسألهم . كانت إجابتهم هي نفسها .

ومتهادياً كما سكران ، خرج فريدريك من الساحة ، وكان مندهشاً إلى حدّ أن سأله بورجوازي يدخّن غليونه على جسر « البوشّري » ، هل هو يبحث عن شيء . هذا ، يعرف كان ، مصنع السيّد أرنو . إنه في مونتاتير .

سأل عن عربة ، فما وجد إلا في المحطّة . عاد إليها . رأى ، وحيدة أمام مكتب الحوائج ، عربة مخلّعة مقرونة إلى حصان هرم ، رحله المفكّك يتدلّى على عريش العربة .

تطوّع صبيّ للبحث عن « السيّد بيلون » . بعد عشر دقائق عاد ليقول أن السيّد بيلون يتغذّى . ما استطاع فريدريك الانتظار ، فذهب . كان حاجز الممرّ مقفلاً . انتظر ليمر موكبا جنازة . وأخيراً أسرع نحو الريف .

الخضرة الرتيبة جعلته يشبه سجّادة بليار هائل . بقايا حديد على جانبي الطريق كَكُوم حصى . أبعد قليلاً ، مداخن مصنع ترسل دخانها الواحدة قرب الأخرى . وبالقرب منه ، على تلة مستديرة ، يقوم قصر صغير ذو بُرَيجات ، مع قبّة مربّعة الزوايا لكنيسة . وفي الأسفل ، جدران طويلة تؤلّف خطوطاً غير متناسقة بين الأشجار ، وفي الأسفل الأسفل ، تنتشر بيوت القرية .

إنها من طابق واحد ، وأدراج من ثلاث درجات من حجارة بلا باطون . وبين فترة وأخرى ، يُسمَع جرس بقّال . تغوص في الوحل الأسود خطى ثقيلة ، ويهطل رذاذ قاطعاً ، بألف حزّة ،

السماء الشاحبة .

تابع فريدريك وسط البلاط ، ثم صادف ، إلى يساره ، عند مدخل طريق ، قوساً كبيراً من خشب ، عليه بأحرف ذهبيّة : خزفيّات مزخرفة .

ليس بغير هدف اختار جاك أرنو جيرة كراي . ان ذلك يثير في الجمهور ارتباكاً لمصلحته ، إذ هو أقام مصنعه أقرب ما يمكن من الآخر (الموثوق به من زمان) .

أهمّ جزء من البناء يقوم على ضفة نهر يخترق المرج . ينميّز بيت السيّد المحاط بحديقة ، بمدخله المزيّن بأربعة آنية ينتصب فيها صبّار . كومات تراب أبيض تجف في العنابر ، وكومات أخرى في الهواء الطلق ؟ ووسط الساحة ، يقف سينيكال بسترته الزرقاء الخالدة ، المبطّنة بالأحمر .

صافحه أستاذ الرياضيّات القديم بيده الباردة .

ـ آتٍ أنت من أجلِ صاحب المصنع ؟ ليس هنا .

قال فريدريك مقطباً وبغباء :

ـ أعرف هذا . لكنه ، متداركاً الأمر ، قال : أتيت بخصوص قضيّة تتعلّق بالسيّدة أرنو . أتستطيع استقبالي ؟

ـ آه ! لم أرها منذ ثلاثة أيّام .

وشرع بسلسلة من الشكاوى . حين قبل بشروط صاحب المصنع ، كان فهم أنه سيسكن في باريس ، وليس التنسّك في هذه المقاطعة ، بعيداً عن أصدقائه ، محروماً من الجرائد . ومع هذا فقد تغاضى عن الأمر ! لكن أرنو يبدو لا يعيره أي اهتمام . لقد

صار محدوداً ، متقهقراً ، جاهلاً كما ولا واحد . بدلاً من العمل على التحسينات الفنية ، كان من الأجدى له لو أدخل التدفئة إلى الفحم الحجري وإلى الغاز . البورجوازي سائر إلى الافلاس : شدّد سينيكال على الكلمة . وباختصار : اهتماماته لا تعجبه ؛ ويكاد يكون أنذر فريدريك للتحدّث بشأنه علّه يرفع له راتبه .

- إطمئن ! قال الآخر .

ما صادف أحداً على الدرج . في الطابق الأوّل ، مدّ رأسه إلى غرفة ، بدت فارغة ، إنه الصالون . نادى بصوت عالٍ . لم يجب أحد . لا شكّ أن الطاهية خرجت ، كذلك الخادمة . وحين وصل إلى الطابق الثاني ، دفع باباً . وحدها ، السيّدة أرنو ، كانت أمام المرآة . زنّار مبذلها المشقوق يتدلّى على خصرها . جانب من شعرها كان كموجة سوداء على كتفها اليمنى ، ويداها مرتفعتان ، بيد تُمسك بخصلة شعر ، وبالأخرى تغرز فيها دبّوساً . صرخت واختفت .

ثم عادت مرتدية ثيابها . كل ما فيها أعجبه : قامتها ، عيناها ، هديل ثوبها . أمسك نفسه لئلا يغمرها بالقبلات .

- أستميحك عذراً ، قالت ، إنما لم أكن أقدر . . .

جرؤ على مقاطعتها :

- مع ذلك . . . ، كنت حسنة المظهر . . .

رأت المديح مبالغاً به ولا شك ، احمرّ خداها . حشي أن يكون أساء إليها . قالت :

- أية صدفة جميلة قادتك إلينا ؟

لم يحر جواباً . وبعد أحّة أعطته مجالاً للتفكير ، قال :

ـ لو قلت ، هل تصدقين ؟

ـ لَمَ لا ؟

قال فريدريك انه رأى الليلة الماضية حلماً مخيفاً :

ـ حلمت أنك مريضة ، وبخطر ، وأنك مشرفة على الموت .

ـ أوه ! لا أنا مريضة ولا زوجي !

قال : ما حلمت إلا بك !

نظرت إليه بهدوء .

ـ لا تتحقّق الأحلام دائماً .

تلعثم فريدريك ، باحثاً عن كلماته ، أخيراً استرسل ، لفترة طويلة ، يتحدّث عن تعاطف الأرواح . هناك قوة تستطيع ، عبر المسافات ، جعل شخصين يتصلان بعضهما ببعض ، تخطرهما بما يشعران وتعمل على تلاقيهما .

راحت تستمع إليه ، خافضة الرأس ، مبتسمة ابتسامتها الجميلة . كان يراقبها بطرف عينه ، فرحاً ، معبّراً بحرية ، عن حبّه ، لتسهيلات هذا المكان المشترك . عرضت أن تريه المصنع ، وإذ ألحّت ، قَبِل .

ولتسلّيه ، أوّل الأمر ، بشيء طريف ، أرته نوعاً من المتحف يزيّن الدرج . النماذج المعلّقة على الجدران أو الموضوعة علي لوحات ، تؤكد جهود أرنو المتتابعة . بعدما توصّل إلى أحمر

النحـاس الصيني ، أراد أن يحقّق عجائب ، فـاينزيّـات* أترورِيّات** ، شرقيّات ، يجرّب بعضاً من تحسينات ستحقّق آنفاً . يلاحظ أيضاً ، في هذه الأنماط ، آنية كبيرة مطلية باللون الليموني ، وقصع سمراء مذهّبة لمّاعة ، وآنية تعلوها كتابات عربية ، وأباريق من طراز عصر النهضة ، وصحون واسعة مرسوماً عليها شخصان كما باللون الأحمر القاني ، بطريقة كثيرة اللطف ، دقيقة . هو ، الآن ، يصنع حروفاً للافتات ، وبطاقات للخمر ، لكن ذكاءه ليس خارقاً ليتوصّل إلى الفنّ ، ولا بورجوازياً بما فيه الكفاية لينتفع به ، كان يسير نحو الهاوية من دون أن يُرضي أحداً . كلاهما لحظ ذلك ، حين مرّت الآنسة مارت .

ـ ألم تعرفيه ؟ قالت لها أمّها .

ـ بلى ! قالت وهي تحيّيه ، بينما نظرتها الصافية والمرتابة ، نظرتها الملائكية ، بدت تقول : « ما أتيت تفعل ، أنت ، هنا ؟ » وصعدت الدرج ، مائلة برأسها إلى كتفها .

اصطحبت السيِّدة أرنو فريدريك إلى الساحة ، ثم طفقت تشرح بنبرة رصينة كيف تُسحق التربة ، وتُنقّى وتُغَرْبل .

ـ المهم هو تحضير العجين .

وأدخلته غرفة تملأها دنان ، فيها يدور ، على ذاته ، مدار

---

* مدينة إيطالية ، عُرفت كمركز مهم للسيراميك وللخزفيات . أعطتها اسمها .

** قديماً كانت تقع غربي إيطاليا .

عمودي له ذراعان أفقيّتان . بدا فريدريك كمن حقد على ذاته حين لم يرفض عرضها بوضوح .

ـ إنها سفن بطيئة ، قالت .

رأى الكلمة مضحكة ، وكأنها غير ملائمة لفمها .

أحزمة عريضة تمرّ ، في السقف ، من طرف إلى آخر ، لتلتف على اسطوانات ، وكلّها تتحرّك بطريقة غير متوقفة ، دقيقة ، مثيرة .

خرجا من هنا ، ومرّا إلى كوخ متهدّم ، كان ، من زمان ، مكاناً لوضع أدوات البَسْتَنة .

ـ بات لا ينفع ، قالت السيّدة أرنو .

أجاب بصوت مرتجف :

ـ يمكن السعادة أن تبقى مقيمة فيه !

ضجيج مطفأة النار غطّى كلماته ، ودخلا محترف وضع التصاميم .

كان رجال يجلسون إلى طاولة ضيّقة ، واضعين أمامهم ، على أطباق متحركة ، كتلة عجين ، أيديهم اليسرى تكشط داخلها ، واليمنى تلامس الخارج ، ونراها تصير آنية كزهور تتفتّح .

قالت السيّدة أرنو إن هذه النماذج هي للأعمال الأكثر صعوبة .

في غرفة أخرى ، كانوا يصنعون زخارف هندسيّة على شكل خيطان ، حلقاً ، خطوطاً بارزة . في الطابق الأعلى ، يزيلون

الروائد ، ويسدّون بالجصّ الثقوب الصغيرة التي كانت تركتها العمليّات السابقة .

وكنت ترى فخّاريات أينما كان ، في الكوى ، في الزوايا ، ووسط الممرات .

كان فريدريك بدأ يضجر .

ـ لربما يتعبك هذا ؟ قالت .

خشي أن تنتهي زيارته هنا ، أظهر ، على العكس ، حماسة كبيرة . ندم ، حتى ، لكونه لم يتكرّس لهذه الصناعة .

بدت متعجبة .

ـ بكل تأكيد ! كنت استطعت العيش قربك !

وإذ راح يبحث عن نظرتها ، تحاشته السيّدة أرنو ، آخذة عن منضدة مزخرفة كريات عجين ناتجة من إصلاح ناقص ، سطّحتها وطبعت فوقها كفها .

ـ أيمكنني أخذها ؟ قال فريدريك .

ـ إلى هذا الحدّ ولد أنت ؟ يا إلهي !

كان سيجيب ، إلاّ أن سينيكال دخل .

لاحظ نائب المدير ، وهو ، بعد ، على العتبة ، خرقاً للنظام . يجب أن تُكنس المحترفات كل أسبوع ، اليوم السّبت ، وبما أن العمال لم يكونوا فعلوا شيئاً ، أنذرهم بوجوب البقاء ساعة بعد انتهاء الدوام .

« إنها غلطتكم ! » .

فمالوا إلى أماكنهم من دون أنيتمتمواشيئاً ، إنما كنت تعرف

غضبهم من تنفّس صدورهم الخانقة . مع ذلك ، لم تكن قيادتهم سهلة كلياً ، إذ كانوا ، جميعاً ، طُردوا من المصنع الكبير . كان يحكمهم الجمهوري بقسوة . كرجل نظريّات ، لم يكن يقدّر إلاّ المجموعات ويبدو قاسي القلب مع الأفراد .

وبما أن فريدريك تضايق منه ، سأل السيّدة أرنو ، همساً ، إذا كان بستطيع مشاهدة الأفران . نزلا الطابق السفليّ ، وكانت تشرح استعمال المواد الخام حين وقف بينهما سينيكال الكان لحق بهما

أكمل ، هو ، الشرح ، وأفاض في الحديث على مختلف أنواع الوقود ، الخبز ، أفران الآجر المتعدّدة البؤر ، دهانات الفخار ، الثريّات والمعادن ، مُكثراً من استعمال الألفاظ الكيميائية : كلورور ، سلفور ، بورق ، كربونات . فريدريك ، ما كان بفهم شيئاً ، ويلتفت كلّ لحظة صوب السيّدة أرنو .

ـ أنت لا تنصت ، قالت ، مع أن سينيكال واضح جداً . يعرف كل هذه الأمور أفضل مني بكثير .

عرض الرياضي ، وقد سُرّ للثناء ، أن يريه كيف يتمّ التلوين . سأل فريدريك السيّدة أرنو ، بنظرة كئيبة . بقيت ساكنة ، حتماً ، هي لا تريد البقاء وحدها معه ، كما لا تريد أن تفارقه . قدّم لها ذراعه .

ـ لا ! شكراً جزيلاً ! يضيق بنا الدرج !

وحين وصلوا إلى فوق ، فتح سينيكال باب شقة ملأى بالنساء .

إنّهن يحرّكن رِيشاً ، فارورات ، صَدَفاً ، صفائح زجاجيّة .

وعلى امتداد الافريز ، الذي على الحائط ، تمتدّ ألواح محفورة ؛ تتطاير أطراف ورق رفيعة ، وموقد من حديد مصبوب ينشر حرارة منفّرة ، تمتزج برائحة التربنتين .

ثياب كلِ العاملات ، تقريباً ، وسخة . ومع هذا فهناك واحدة ترتدي مدراساً * وأقراطاً طويلة . هي نحيفة وممتلئة في آن معاً ، لها عينان سوداوان كبيرتان ، وشفتان شهوانيّتان كشفتي عبدة . يبرز نهدها العامر تحت قميصها المحصورة على قامتها بزنّار تنّورتها ، تنظر ، بشرود ، إلى البعيد في الريف ، يد على منضدة العمل ، والأخرى متدلية . قربها ، قنينة خمر وبعض لحومات .

كان القانون يحظّر الأكل في المحترفات ، نظراً لنظافة العمل ولصحّة العمّال .

صرخ سينيكال ، يدفعه ، إما إحساسه بالواجب أو الاستبداد ، مشيراً إلى إعلان في إطار :

ـ هيه ! هناك ، يا البُردوية ** ! إقرئي ، عالياً ، المادة ٩ .

ـ إيه . . . وبعد ؟

ـ وبعد ، يا آنسة ؟ ستدفعين غرامة ثلاثة فرنكات !

تطلّعت إليه بوقاحة :

ـ ماذا يضيرني ؟ عند عودة السيّد ، سيدفع عني غرامتك !

---

* نسيج خفيف من الحرير والقطن .

** برميل كبير يستعمل لخزن النبيذ في بوردو .

لا أهتم لك يا سيّد !

اكتفى سينيكال ، ويداه وراء ظهره ، كناظر في غرفة دراسة ، بالابتسام .

ـ المادة ١٣ ، عصيان ، عشرة فرنكات !

عادت البُروديّة إلى عملها . ولم تقل السيّدة أرنو أية كلمة ، لياقة ، لكنّ حاجبيها تغضّنا . تمتم فريدريك :

ـ آه ! كديموقراطي ، أنت قاسٍ جداً !

أجاب الآخر بحزم :

ـ ليست الديموقراطية فجور الفرديّة . إنها المساواة بالقانون ، توزيع العمل ، النظام !

ـ أنت تنسى الانسانية ! قال فريدريك .

أخذت السيّدة أرنو ذراعه ، وكأنّ سينيكال اغتاظ لهذه الموافقة الصامتة ، فخرج .

شعر فريدريك براحة عميقة . هو يبحث منذ الصباح عن مناسبة للافصاح عن مكنوناته ، ها هي أتت . حركة السيّدة أرنو العفويّة ، بدت تحمل إليه وعوداً ، وكأنّه أراد أن يدفىء قدميه ، سألها الصعود إلى غرفتها . وابتدأ تلبّكه حين صار جالساً قربها ، تخونه نقطة الانطلاق . ولحسن حظّه تذكّر سينيكال .

ـ بلهاء هذه العقوبة !

أجابت السيّدة أرنو :

ـ هنالك عقوبات ضروريّة !

ـ كيف ، أنتِ الطيبة ! أوه ! أخطأت ! لأنك ، أحياناً ،

تتسلّين بأن تعذّبي !

- لا أفهم الألغاز ، يا صديقي .

أوقفته عند هذا الحدّ نظرتها السلطوية ككلمتها . كان أراد أن يُكمل . وُجد ، صدفة ، على طاولة صغيرة ، كتاب لموسّيه . قلّب بضع صفحات فيه ، ثم راح يتحدّث عن الحب ، عن خيباته وعن نزقه .

رأت ، السيّدة أرنو ، كل هذا إجراماً أو تصنّعاً .

أحسّ نفسه وقد جُرح لهذه السلبيّة ، وليواجهها ، ذكر ، كمثل ، الانتحار الذي يقرأون عنه في الصحف ، أثار النماذج الأدبية الكبيرة : فيدر ، ديدون ، روميو ، دي غريو . وارتبك .

انطفأت النار في المدفأة . والمطر لايزال يقرع زجاج النوافذ . لم تكن السيّدة أرنو تتحرّك ، تاركة يديها على ذراعي كرسيّها ، رُبُط قبّعتها تتدلّى كعُصيبات سفنكس ، برز جانب وجهها النقي شاحباً في الظلّ .

كان يرغب أن يرتمي على ركبتيها . سمع قرقعة في الممشى فما جرؤ .

يمنعه ، على كل حال ، نوع من الخجل الديني . هذا الثوب ، الشبيه بالظلمات ، يبدو له بغير حدود ، لا متناهياً ، لا يمكن رفعه . وتماماً ، لهذا السبب ، تتضاعف رغبته . لكن الخوف من أن يتجرّأ كثيراً ، ومن ألّا يفعل بقدر كافٍ ، كان ينزع منه كل بصيرة .

« إذا كنت لا أعجبها ، يقول في ذاته ، لتطردني ! وإذا هي ترغب بي ، فَلْتشجّعني ! » وقال متنهّداً :

- إذن ، أنت لا توافقين أنه بالامكان حبّ . . . امرأة ؟

أجابت السيّدة أرنو :
حين هي برسم الزواج ، نتزوّجها ، وحين هي لآخر ، نبتعد عنها
- هكذا فالسعادة ، إذن ، مستحيلة ؟
- لا ! إنما لا نجدها ، أبداً ، في الكذب ، والكآبات والندم .
- لا يهمّ ! إذا كانت نتيجتها الأفراح السامية .
- التجربة باهظة الثمن !
أراد أن يهاجمها بسخرية .
- ليست الفضيلة ، إذن ، إلاّ جُبناً ؟
- قلها ، بالأحرى ، بُعد نظر . بالسبة إلى من ينسين الواجب أو الدين ، تكفي الفطرة السليمة . الأنانيّة أساس ثابت للحكمة !
- آه ! يا لها من أمثلة بورجوازية ، هذه التي تعرفين !
- لكني لا ادّعي اني سيّدة مهمة !
حينها ، ركض ابنها الصغير :
- ماما ، أتأتين للغداء ؟
- نعم ، حالاً !
نهض فريدريك ، وفي اللحظة نفسها ظهرت مارت .
لا يستطيع أن يقرّر الذهاب ، وبنظرة مليئة توسّلاً قال :
- هؤلاء النساء اللواتي تتحدثين عنهنّ ، هنّ ، إذن ، عديمات الشعور ؟
- لا ! إنما هنّ صمّاوات حين يجب ذلك .
وظلّت واقفة على عتبة غرفتها ، ولداها إلى جانبيها . انحنى من

دون أية كلمة . وأجابت هي تحييه بصمت مماثل .

دُهش . حطّمته هذه الطريقة لافهامه بطلان أمله . أحسّ ذاته ضائعاً كرجل واقع في عمق هوّة ويعرف أن أحداً لن ينجده ، وأنه سيموت .

وراح يمشي ، لا يرى شيئاً . يجري مع الصدفة . اصطدم بحجارة . ضلّ الطريق . سمع وقع أقدام ، كانوا عمّالاً يخرجون من المسبك . فانتبه إلى ذاته .

في الأفق ، قناديل خط الحديد ترسم خطاً نارياً . وصل إذ كان يغادرها قطار ، وجد لجسده مكاناً في حافلة ، ونام .

بعد ساعة ، كان صار في شوارع باريس الواسعة ، والأفراح ، هناك ، جعلت رحلته كأنها تمّت من زمان . أراد أن يكون قوياً ، وكذّب قلبه ذاماً السيّدة أرنو بألفاظ مهينة :

« إنها بلهاء ، حمقاء ، فظّة ، فلا نفكّر فيها ، بعد ! » .

وإذ دخل بيته ، وجد في غرفته رسالة من ثماني صفحات على ورق أزرق مصقول وحرفي ر . أ .

تبدأ الرسالة بمعاتبات رقيقة :

« ماذا حلّ بك ، يا صديقي ؟ أضجر أنا » .

كان الخط سيّئاً إلى درجة أراد معها فريدريك رمي الرسالة كلّها ، حين لاحظ ، في الحاشية : « أعوّل عليك ، غداً ، لتصحبني إلى سباق الخيل » .

ما تعني هذه الدعوة ؟ هل هو ، بعد ، مقلب من « المارشالة » ؟ لكن لا يمكن الهزء مرتين برجل واحد ، لا لشيء ، ومدفوعاً بالحشريّة ،

قرأ الرسالة ، ثانية ، وبتأن .

قرأ فريدريك : « سوء تفاهم . . . ضلال . . . خيبات . . . يا لنا من أولاد مساكين ! الخ » .

يتعارض هذا الأسلوب مع لغة الفاسقة العادية . ما هذا التغيّر الطارىء ، إذن ؟

احتفظ طويلاً بالأوراق في يديه . تضوع منها رائحة السوسن ، ورأى في شكل الأحرف ، وفي تباعد الأسطر غير المتناسق ، كفوضى وعدم ترتيب أقلقاه .

لم لا أذهب إليها ؟ قال أخيراً في ذاته . ولكن . إن عرفت السيّدة أرنو ؟ آه ! فلْتعرف ! هذا أفضل ! ولتحسدها ! سيكون ذلك انتقاماً لي ! » .

IV

« المارشالة » كانت حاضرة تنتظره .

ـ لطيف هذا ! قالت مركّزة عليه عينيها الجميلتين ، الحنونتين الفرحتين أيضاً .

حين عقدت معطفها ، عادت فجلست على الأريكة ، وبقيت صامتة .

ـ أنذهب ؟ سأل فريدريك .

تطلّعت إلى الساعة .

ـ أوه ! لا ! ليس قبل ساعة ونصف ، ـ كأنها وضعت ، بينها وبين ذاتها ، هذه الحدود لشكّها .

وإذ دقّت الساعة ـ الموعد :

ـ إيه حسناً الآن .

وسوّت ، لمرة أخيرة ، عصابات رأسها ، وأصدرت أوامر لدلفين .

ـ أتعود سيدتي للعشاء ؟

ـ لماذا أعود ؟ سنتعشى معاً في مكان ما ، في المقهى الانكليزي ، في أي مكان !

ـ فليكن !

نبح كلباها الصغيران حواليها .

ـ نستطيع الاتيان بهما ، أليس كذلك ؟

حملهما فريدريك ، بنفسه ، إلى العربة . إنها « برليسه » للايجار بجوادين وحوذيّ مساعد . وقد أجلس فريدريك كلبه في المقعد الخلفي . بدت « المارشالة » مغتبطة من مجاملاته ، وفور أن جلست ، سألته إذا كان زار أرنو أخيراً ، فأجاب :

ـ لم أره منذ شهر .

ـ التقيته أنا قبل أمس ، يكون اليوم عاد . لكنه يعاني مشاكل كثيرة ، بعد لا أدري أية قضية . يا له من رجل غريب الأطوار !

ـ نعم ! غريب فعلاً !

أضاف فريدريك بغير مبالاة :

ـ للمناسبة ، أما زلت ترين . . . ماذا تسمينه ؟ . . . هذا المغنّي القديم . . . ، دلمار ؟

أجابت بخشونة :

ـ لا ! لقد انتهينا !

إذن ، فقطيعتهما أكيدة . رأى فريدريك في ذلك أملاً .

نزلا حي بريدا . وبما ان النهار أحد ، كانت الشوارع مقفرة ، وخلف النوافذ تبدو وجوه بورجوازيينّ . أسرعت العربة ، فصار المارة يلتفتون لضجة الدواليب ، يلمع غطاء السيارة المخفوض ، يقوّس الخادم قامته ، والهافانيّان ، وأحدهما قرب الآخر ، يبدوان كفروتين من فرو القاقم ، موضوعتين على تكيّتين . استسلم فريدريك لهدهدة

العربة . أما « المارشالة » فكانت تتلفّت يمنة ويسرة ، مبتسمة . قبّعتها التي من القش الصدفي اللون ، كانت مزخرفة بدانتيلاّ سوداء . قلنسوة برنسها تطير في الهواء ، وتحتمي من الشمس بمظلة من الساتان الليلكّي مروّسة وفي أعلاها مثل « باغود » .

- يا للأصابع النحيلة اللطيفة ! قال فريدريك ، آخذاً ، بلطف ، يدها اليسرى ، تزيّنها أسوارة ذهبيّة بشكل سلسال . هه ! إنها ناعمة ؟ من أين هي ؟

ما اعترض بشيء ، على هذا الجوَاب الماكر . فضًل « الاستفادة من المناسبة » . اذ كان لا يزال ممسكاً بيدها ، طبع فوقها شفتيه ، بين القفّاز والكم .

- أنهِ ! سيروننا !

- وإذا ما رأونا !؟

بعد ساحة الكونكورد ، ذهبا في شارع الكونفيرانس ثم بيلّي ، حيث أرزة في حديقة . روزانيت كانت تظنّ لبنان في الصين . ضحكت لجهلها وسألت فريدريك ان يعطيها دروساً في الجغرافيا . ثم ، بعدما تركا ، الى اليمين « التروكاديرو » تجاوزا جسر إينيا ، وتوقّفا أخيراً ، وسط « شان دي مارس » قرب العربات الأخرى التي كانت مصطفّة في ميدان الخيل .

الأكمات الخضر كانت ممتلئة بأناس من الطبقة الدنيا . كنت ترى بعضاً من الفضوليين على شرفة المدرسة الحربيّة . والجناحان ، خارج الموْزِن ، والمنصتّان اللتان في حرمه ، وثالثة ، أمام التي للملك . جميعها كانت ملأى بأناس متأنّقين ، تشهد أناقتهمُ على احترام هذه

التسلية التي لا تزال جديدة . جمهور سباق الخيل ، وكان استثنائياً في ذلك الزمن ، كان أقلّ خشونة . انه زمن سير الران ، والياقات المخمليّة والقفّازات البيضاء . كانت النساء يرتدين أثواباً طويلة ، ذات الوان زاهية ويجلسن على درجات المدرج كباقات زهور كثيفة يتبعها بالأسود ، هنا وهناك ، لباس الرجال المعتم . إنما كل الأنظار صوب الجزائري الشهير بومازا الذي كان هادئاً ، بين ضابطين من مجلس القيادة ، في واحدة من المقصورات الخاصة . تلك التي لنادي الفروسيّة يملأ ها أناس خطرون .

من هم أكثر حماسة كانوا جالسين في الأسفل في جهة الحلبة ، يفصلها صفّان من عصيّ تحمل حبالاً ، في الشكل البيضوي الكبير الذي يرسمه هذا الممرّ ، بائعو سوس يحرّكون خشخشياتهم ، آخرون يبيعون برنامج السباق ، آخرون ينادون على السيجار، فيرتفع طنين كثير : الحراس يمرون ويعاودون المرور ؛ دقّت جرسة معلّقة بعمود مغطّى بالأرقام . ظهرت جياد خمسة ، واتخذ الناس أماكنهم .

في هذه الأثناء ، ظهرت غيوم كبيرة فوق رؤوس شجر الدردار المقابل . خشيت روزانيت المطر .

ـ معي مظلّات ، قال فريدريك . وكل ما يلزم للتسلية ، أضاف ، رافعاً صندوقة فيها مأكولات .

ـ برافو ! نحن متفاهمان .

ـ ونتفاهم أكثر ، أليس كذلك ؟

ـ معقول ! واحمرّت .

راح يهتم فرسان السباق ، معتمرين خوذاتهم ، بصفّ جيادهم

ويمسكونهم بكلتا اليدين . أنزل رجل علماً أحمر . حينها ، انحنى الخمسة معاً صوب عُرف الجياد ، وانطلقوا . ظلّوا أوّل الأمر ، كتلة واحدة ، سريعاً ما استطالت ، ثم تجزّأت . كاد يقع الفارس ذو الخوذة الصفراء ، في منتصف الدورة الأولى ، طويلاً استمرّ الشك بين فيلّي وتيبي ، ثم بدا توم بوس في المقدّمة ، لكن كلوستيك ، وهو ، منذ الانطلاق ، في الوراء ، لحق بهما ، ووصل أوّلاً ، غالباً سير شارل بطولين ، راحوا يصرخون : انها مفاجأة صارت تهتزّ أكواخ الخشب بتأثير خبط الأرجل .

ـ نتسلّى نحن ! قالت « المارشالة » . أحبّك يا عزيزي !

ما عاد فريدريك يشكّ في السعادة . كلمة روزانيت الأخيرة طمأنته .

على مئة قدم منه ، ظهرت امرأة في عربة ميلورديّة . تنحني إلى خارج بوّابة العربة ، ثم ترتدّ بسرعة : دام هذا مرات عديدة ، ما استطاع فريدريك تبيّن وجهها . استبدّ به هاجس ، بدت له كأنها السيدة أرنو . مع ذلك ، مستحيل هذا ! لماذا أتت !؟ نزل من العربة بحجة التسلية في الموزن .

ـ لست ظريفاً ! قالت روزانيت .

لم يسمع شيئاً وظل يتقدّم . استدارت الميلورديّة وذهبت .

في اللحظة نفسها تلقّفه سيزي .

ـ مرحبا أيها العزيز ، كيف الحال ! هيسّونّيه موجود هناك ! إسمع !

يحاول فريدريك التخلّص منه للحاق الميلورديّة . أشارت الله

« المارشالة » بالعودة الى قربها . رآها سيزي ، فرغب ، باصرار ، في القاء التحيّة عليها .

منذ انتهاء الحداد على جدّته ، راح يحقّق مثاله ، صار ذا طابع مميّز . سترة اسكتلندية ، ثوب قصير ، شرابات عريضة على خفّه ، وبطاقة دخول في بريم قبّعته ، لا شيء ينقصه ، فعلياً ، لما يسمّيه هو « اناقة » ، أناقة مقلّد الانكليز والفارس الملكي . بالتذمّر من « شان دي مارس » سباق خيل رديء جداً ، ثم تحدّث عن سباق « شنتيلي » والألاعيب التي تجري هناك ، أقسم أنه يستطيع شرب اثني عشر كأساً من خمرة الشمبانيا خلال دقات نصف الليل الاثنتي عشرة ، عرض على « المارشالة » ان تراهن ، داعب كلبيها بلطف ، وراح يسرد بلاهات أخرى ، ومقبض عصاه في فمه ، ورجلاه منفرجتان ، متطاولاً ، ويدٌ له مستندة على بوّابة إلى العربة . فريدريك قربه ، يدخّن ، باحثاً عن الميلورديّة .

إذ دقّ الجرس ، ذهب سيزي ، وسرّت روزانيت ، انه مسئم كثيراً ، كما قالت .

لم كن في الشوط الثاني شيء خصوصي ، ولا في الثالث ، سوى ان رجلا حملوه على نقالة . الشوط الرابع كان الأهمّ ، فالجياد الثمانية تتنافس على جائزة المدينة .

تسلّق مشاهدو المدارج المقاعد. الآخرون واقفون في العربات ، يتابعون والمنظار في أيديهم ؟ كنت ترى الفرسان يمرّون كبقع حمراء ، صفراء ، بيضاء ورزقاء على امتداد الجماعة الذين كان يضيق بهم الميدان . من بعيد لم تكن تُرى سرعتهم مفرطة ، وفي الطرف الآخر

تحسبهم يتباطأون لا يتقدّمون إلاّ انزلاقاً ، حيث بطون الجياد تلامس الأرض متهادون أن تطوى قوائمها الممدودة . انما ، اذ يعودون بسرعة ، هم يكبرون مرورهم يقطع الهواء ، ترتجف الأرض ، تتطاير الحصى ، ويندفع الهواء في قبعات الفرسان ، فيجعلها تخفق كما اشرعة ؛ وبضرب سياط متتابع ، يحثّون الجياد للوصول الى العمود ، إنه الهدف . تُحذف أرقام ، ويبقى رقم ، ووسط التصفيق ، يتقدّم الجواد الفائز الى الموزن ، مبلَّلاً بالعرق ، رُكبه مشدودة ، عنقه منحنية ، بينما فارسه يمسك بخصره ، كأنه محشرج فوق السرج .

اعتراض آخر الانطلاقة الأخيرة . تدفقت الجماعة التي كانت تضحر جماعات من الرجال يتحدّثون عند أسفل المدرجات الأحاديث كانت متنوّعة . غادرت سيّدات مجتمع صدمتهن مجاورتهن للفاجرات .

كانت هناك أيضاً ملصقات عن احتفالات شعبية ، صور لممّثلات هزليّات ، ـ ولم تكن الأجمل من تنال أكثر ثناء . . . جورجين أوبير ، من كان يسميها مؤلّف هزلي ، لويس الحادي عشر التعهُّر ، المكيجة بشكل يثير الخوف ، والمطلقة ، بين وقت وآخر ، نوعاً من ضحكة شبيهة بالتذمّر ، بقيت ممدّدة ، باسترخاء في عربتها الطويلة ، مرتدية سترة من فرو ثمين كما في قلب الشتاء . السيّدة ريموسّو ، وقد أخرجها مشروعها الى النور ، تتبختر على مقعد عربة بريك برفقة أميركييْن ، وتريز باشلو ، في مظهرها كعذراء قوطية ، تملأ بزينتها الكريهة داخل عربة لها ، بدل حاجز فاصل ، حوضاً مليئاً وروداً . انحسدت « المارشالة » من هذا المجد ، ولكي يشعروا بوجودها ،

راحت تقوم بحركات ملحوظة وتتحدّث وبصوت عالٍ جد . عرفها بعض السادة ، فحيّوها من بعيد . أجابتهم وهي تذكر أسماءهم لفريدريك . جميعهم كونت أو فيكونت أو دوق أو مركيز . وراح ينتفخ ، لأنّ كلّ العيون كانت تعبّر بشيء ، من التقدير ، عن ثروته الطائلة .

لم يكن يبدو أقلّ سعادة وسط الرجال الناضجين المحيطين به يبتسمون ، كانوا متعالين ، كأنما يضحكون منه ، أخيراً خبط يد الأكبر سناً وأقبل صوب « المارشالة » .

كانت تأكل بشراهة مصطنعة ، شريحة كبد دسم ، فريدريك مطيعاً لها ، راح يقلّدها ممسكاً قنّينة نبيذ على ركبتيه .

الميلورديّة ظهرت ثانية ، انها السيّدة أرنو . لقد شحبت بشكل عجيب .

ـ أعطني شمبانيا ! قالت روزانيت .

رفعت كأسها المليئة أقصى ما يمكن ، وهتفت :

ـ أوه ! هناك أيتها النساء الشريفات ، يا زوجة عشيقي ومعيلي !

تعالى الضحك حولها ، واختفت الملورديَّة . جذبها فريدريك من ثوبها ، كان سيغضب . لكن سيزي كان لا يزال هناك ، في وضعيّته الأولى ، وبثقة زائدة ، دعا روزانيت الى العشاء في المساء ذاته .

ـ مستحيل ! قالت . سنذهب معاً الى المقهى الانكليزي .

بقي فريدريك صامتاً ، كأنه لم يسمع شيئاً ، وعاد سيزي بمظهر خائب .

وبينما هو يحدّثها ، واقفاً إلى بوّابة الجهة اليمنى ، فاجأهما هيسّونيّه من الجهة الشماليّة ، واذ سمع اسم المقهى الانكليزي :

ـ انه مكان جميل ! نتناول فيه طعاماً خفيفاً !

ـ كما تريد ، قال فريدريك مجمّعاً ذاته في زاوية عربته البرلينيّة ، ناظراً ، في الأفق ، الميلورديّة تختفي ، شاعراً أنّ شيئاً ما لا يعوّض قد حصل ، وانه فقد حبّه الكبير . وبالقرب منه ، حبّه الآخر ، الحب الفرح والسهل ! لكنه متعب ، مليء بالرغبات المتناقضة ، لا يعرف ، حتى ، ما يريد ، فاستغرق في كآبة لا محدودة ، أراد الموت .

ضجة خطوات وصوت جعلته يرفع رأسه ، فقد أتى الصبيان ، محاذين حبال الحلبة ، يشاهدون المنصّات ، قرّر الذهاب . سقطت بضع نقاط من المطر . ازداد ضجيج العربات . وضاع هيسّونيّه .

ـ ايه . . . هذا أفضل ! قال فريدريك .

ـ تفضّل أن نبقى وحدنا ؟ أجابت « المارشالة » واضعة يدها على يده .

حينها مرّت أمامهما عربة لاندو رائعة يجرها أربعة جياد ، يقودها ، على طريقة دومون ، فارسا سباق بسترة مخملية وأهداب مذهّبة . كانت السيّدة دمبروز قرب زوجها ، مارتينون على المقعد الآخر ، جميعهم بدوا مندهشين .

قال فريدريك لذاته : « لقد عرفوني ! » .

أرادت روزانيت التوقف ، لترى الاستعراض بشكل افضل . انّما يمكن السيدة أرنو أن تظهر مجدّداً . فصرخ بالحوذيّ :

ـ هيّا ! هيّا ! إلى الأمام !

وانطلقت البرلينيّة نحو الشانزيلزه وسط العربات الأخرى التي

من كل نوع . وفي عربات مكشوفة مكتظّة بالناس . ولدٌ جالس على أقدام الآخرين ، تاركاً رجليه تتدلّيان خارجاً . وعربات كبيرة تجول بسيّدات مسنّات قريبات من أن ينمن . في هذه الأثناء ، تضاعف هطول المطر . فرأيتهم يأخذون المظلّات ؛ صغيرة وكبيرة ، والمعاطف المشمّعة ، ومن بعيد يهتفون بعضهم لبعض : « مرحبا ! - هل انت بخير ؟ - نعم ! - لا ! - إلى اللقاء ! » وراحت الوجوه تتابع بسرعة الظلال الصينيّة . فريدريك وروزانيت استنكفا عن كل حديث ، شاعرين ببلادة لرؤ يتهما كل هذه الدواليب تدور ، باستمرار قربهما .

كنت ترى أحياناً أن أرتال العربات المعجّلة جداً ، تتوقّف دفعة واحدة في صفوف عديدة . في هذه الحالة يروح الناس يتفحّص بعضهم بعضاً . وينظرون الى الشعب بلا مبالاة من المقطورات المزيّنة بالشعارات ؛ تلمع في عمق العربات عيون مليئة رغبة ، وتجيب هزات الرأس المتكبّر ابتسامات تحقيريّة ؛ وأفواه كبيرة مفتوحة تعبّر عن إعجاب أبله ، وهنا وهناك ، متسكع ما ، وسط الطريق ، يقفز الى الوراء اتقاء لفارس يسرع بين العربات وينجح في الخروج من بينها . ثم تعود جميعها الى الحركة ، يرخي الحوذيّون الزمام ، يهوون بسياطهم على الجياد ، فتسرع هازة سلسلة اللجام ، زافرة حواليها زبداً ، وتصعّد أكفالها وأرحالها الرطبة بخاراً تخترقه الشمس الغاربة . وإذ تمر تحت قوس النصر ، يمتدعلى طول رجل ، ضوء أصهب يلمع ثقوب الدواليب ، مسكة الأبواب ،طرف مجر العربات ، حلقات المقاعد الخشبية الصغيرة؟ وعلى جانبي الجادة الواسعة ، - الشبيهة بنهر حيث تتماوج أعراف الجياد ، والثياب والرؤوس البشرية - تنتصب الأشجار لامعة بالمطر ،

كجدارين أخضرين . وزرقة السماء البادية في بعض أمكنة ، تمتاز بعذوبة الساتان .

وتذكّر فريدريك أياماً بعيدة ، يا ما اشتهى فيها سعادة لا توصف : ان يجد نفسه الى جانب امرأة في واحدة من هذه العربات . هو الآن يمتلك تلك السعادة ، لكنّه غير سعيد بها .

توقّف المطر . فانطلق المارة الذين كانوا لجأوا بين أعمدة « الغارد ـ موبل » . بعض متنزهين في الشارع الملكي ، يصّعدون نحو البولفار . وأمام فندق « الشؤون الخارجية » جماعة متسكّعين على الأدراج .

عند طلعة « الحمّامات الصينية » تمهّلت العربة البرلينية ، لوجود بعض الحفر . رجل بسترة ذات لون رمادي أحمر ، يمشي على حافة الرصيف . طرطشته في ظهره دواليب العربة . استدار الرجل غاضباً . شحب وجه فريدريك ، انه ديلورييه .

سرّح العربة عند باب « المقهى الانكليزي » سبقته روزانيت في الصعود بينما هو يدفع للحوذيّ .

لحق بها في الدرج وهي تتكلّم مع احد الرجال أخذ فريديك ذراعها انما استوقفها رجل آخر ، في وسط الممشى .

ـ لا تهتم ! قالت . لك أنا ! أكمل !

ودخل وحده . من خلال النافذتين المفتوحتين ، يلاحظ أناساً في نوافذ البيوت المواجهة . التماعات عريضة تبدو في الطرقات التي كانت تجفّ ، وزهرة مانيوليا على طرف الشرفة تنشر عطرها في المكان . أرخت أعصابه هذه الرائحة العطرة وهذه النداوة ، فاستلقى على

الأريكة الحمراء ، تحت المرآة .

وصلت « المارشالة » قالت وهي تقبّل جبينه :

ـ أعندك هموم ، يا « قطّي » المسكين ؟

ـ لربما ! أجابها .

ـ لست الوحيدة دعك منها ! مما يعني : « لينسى كل احد منّا همومه ، في سعادة مشتركة » !

ثم أخذت بَتَلة زهرة في شفتيها ، وقدّمتها له لينقرها . رقّقت قلب فريدريك ، هذه الحركة اللطيفة ، والتي تكاد تكون ذات وداعة شهوانية .

قال مفكّراً في السيّدة أرنو :

ـ لماذا تزعلينني ؟

ـ أزعلك ، أنا ؟

وراحت تنظر اليه ، واقفة أمامه ، جفناها متقاربان واليدان على كتفيه .

بسالته كلها ، وكل حقده ، غرقا في جبن بلا قرار .

أكمل ، وهو يجذبها فوق ركبتيه :

ـ لأنك لا تريدين أن تحبيني !

تركته يفعل ذلك ؛ طوّق خصرها بذراعيه ؛ أثاره حفيف ثوبها الحريّري .

ـ أينهما ؟ قال صوت هيسّونيّه في الممشى .

قالت « المارشالة » فجأة وجلست وظهرها الى بباب .

طلبت محاراً ، وجلسا الى الطعام .

ما كان هيسّونّيه فَكِهاً . لفرط ما هو يكتب ، يومياً ، في كل الموضوعات ، ويقرأ كثيراً من الجرائد ، ويسمع كثيراً من المناقشات وينشر متناقضات ليبهر ، فقد انتهى بأن فقد المفهوم الصحيح للأمور ، متعامياً بمفرقعاته البسيطة . مشاكل الحياة ، السهلة في ما مضى ، القاسية الآن ، جعلته في حركة دائمة ، وعجزه ، الذي لا يريد الاقرار به ، جعله شكِساً تهكّمياً . بخصوص « أوزاي » وهي باليه جديدة ، شنّ هجوماً شديداً على الرقص ، وبخصوص الرقص على « الأوبرا » ، ثم بشأن « الأوبرا » ، ضد الايطاليّين ، وقد حلّت محلهم ، الآن ، فرقة ممثّلين إسبان ، « كأننا لم نشبع من الكاستيلّيين ! » جُرح فريدريك بحبّه الرومنطيقي لاسبانيا ، ويقصد أن يقطع الحديث ، استخبر عن « معهد فرنسا » الذي منه طردوا إدغار كينيه ومبكافيتس . لكنّ هيسّونّيه ، كمعجب بالسيّد دوميتر ، راح يناصر السلطة والروحانيّة . مع ذلك ، يشكّ هو في الأمور المقامة البراهين حولها كأفضل ما يمكن ، ينكر التاريخ ، ويعترض على الأشياء الأكثر إيجابيّة ، إلى حد أنه صرخ عند كلمة هندسة : « إنها مزحة هذه الهندسة ! » مازجاً كل أقواله بحركات ممثّلين . بالأخص سانفيل الذي كان مثاله .

أرهق فريدريك هذا الكلام الفارغ . وبحركة نفاد صبر ، صدم كلباً من الاثنين ، بقدمه ، تحت الطاولة .

أخذا ينبحان معاً بطريقة مزعجة .

- عليك أن ترافقهما ! قال بخشونة .

شكّت روزانيت بهما معاً .

حينها ، استدار صوب البوهيميّ :

ـ هيّا ، هيسّونّيه ، تقدّم لذلك !

ـ أوه ! نعم ، يا عزيزي ! يكون عملاً لطيفاً منك !

خرج هيسّونّيه بلا إلحاح .

بأية طريقة تكافأ كياسته ؟ ما عاد فكر فريدريك في الأمر . راح يبتهج بكونه وجهاً لوجه معها ، حين دخل صبيّ المقهى :

ـ سيّدتي ، هنالك من يطلبك !

ـ كيف ذلك ؟

ـ يجب أن أرى ! قالت روزانيت .

هو في عطش إليها ، يحتاجها . بدا له هذا الانسحاب خيانة ، عملاً فظاً . ماذا تريد إذن ؟ ألم يكفها أنها أغضبت السيّدة أرنو ؟ مع ذلك ، إنها غلطتها هذه ! الآن ، كره كل النساء ، نبعت دموع تكاد تخنقه ، حبّه لم يقدّر وشهوته خُدعت .

عادت « المارشالة » ، قالت وهي تقدّم سيزي :

ـ لقد دعوته . حسناً فعلت ، أليس كذلك ؟

ـ كيف لا ؟ طبعاً !

أشار فريدريك إلى الرجل بالجلوس ، وبدت على شفتيه بسمة إنسان معذّب .

طفقت « المارشالة » تسرح بصرها في اللائحة متوقّفة عند الأسماء الغريبة .

ـ أرى لو نأكل أرانب على طريقة ريشليو ونشرب بودنغ على طريقة أورليان ؟

ـ أوه ! من دون أورلياد ! صرخ سيزي الذي كان ملكباً وحسب نفسه قال شيئاً .

ـ أتفضّل سمكة ترس بطريقة شامبور ؟ قالت .

صدمت هذه الملاطفة فريدريك .

قرّرت « المارشالة » شريحة من خاصرة بقرة ، سلاطعين ، فطوراً ، سلطة أناناس ، شراباً معطّراً بالونيلية .

ـ بعد هذا نرى . إبدآ . آه ! كدت أنسى ! هات لي سُجقاً بلا ثوم !

وراحت تنادي الصبي « شاباً » ، تدق ، بسكّينها كأسها ، رمي إلى السقف لبّ خبزها . أرادت أن تشرب حالاً نبيذ بورغونيا .

ـ لا نشرب منذ البداية ، قال فريدريك .

رأى الفيكونت أن هذا قد يحصل أحياناً .

ـ إيه لا ! أبداً !

ـ بلى ، أؤكّد لك !

ـ آه ! رأيت !

رافقت كلمتها هذه نظرة تعني :

« إنه رجل غنيّ ، هذا ، إسمع له ! » .

في هذه الأثناء كان الباب يُفتح كل لحظة ، يصرخ صبيان المقهى صراخاً كريهاً شبيهاً بالعواء ، وأحدهم ، في الغرفة المجاورة ، يلعب موسيقى فالس على بيانو لا يطاق . ثم إن سباق الخيل أدّى إلى حديث عن الفروسية ، وعن المذهبين العدوّين . راح سيزي يدافع عن بوشير وفريدريك عن الكونت دور ، حين رفعت روزانيت كتفيها .

ـ كفى ، يا إلهي ! يعرف أحسن منك ، رُحْ !

كوعها موضوع إلى الطاولة ، هي تعضّ رمّانة . ترتجف ، في الهواء ، شموع الشمعدان أمامها ، يخترق هذا النور الأبيض جلدها بلون صَدَفيّ ، يُلقي لوناً زهرياً على رموشها ، يجعل واقي عينيها يلمع ، احمرار الرمّانة يمتزج ، كان ، باحمرار شفتيها ، وأنفها الناعم يخفق . كل كيانها ينفّر فريدريك بما فيه من سفاهة ، ومع هذا تسكب في قلبه لذات مجنونة .

ثم سألت ، بصوت هادىء ، لمن هذه العربة اللاندو الكبيرة مع هذه الخلعة الكستنائية .

أجاب سيزي : للكونتيسة دمبروز .

ـ هم أثرياء جداً ، أليس كذلك ؟

ـ أوه ! جدّ أثرياء ! بالرغم من أن السيّدة هي ابنة والي مقاطعة من آل بوترون ، ليست غنية .

زوجها ، على العكس ، كان ليرث ميراثاً وفيراً ، من أكثر من اتجاه . عدّها سيزي . بما أنه يخالط آل دمبروز ، فهو يعرف قصّتهم .

راح فريدريك يصر على معارضته ، هكذا يعود لا يعجبه . أصرّ على أن السيّدة دمبروز هي من أصل نبيل .

ـ ما همّ ! أريد أن يكون لي مثل ما لها ! قالت « المارشالة » ، قالبة نفسها على الكرسي الواسع والمريح .

وإذزلق طرف كمّها قليلاً ، كشف ، في معصمها ، عن إسوارة تزينها ثلاثة أحجار كريمة متغيّرة الألوان .

رآها فريدريك .

ـ عجباً ! لكن . . .

تفحّصوا بعضهم واحمرّوا .

فُتح الباب قليلاً ، بخفر ، ظهر طرف قبّعة ، ثم جانب وجه هيسّونيه .

ـ أعذراني أيّها العاشقان إن كنت أزعجكما !

لكنه توقّف مدهوشاً لرؤيته سيزي ولكون هذا أخذ مكانه .

أتوا له بطعام ، وبما أنه كان كثير الجوع ، راح يفتّش ، كيفما اتفق ، في بقايا الأطعمة ، وجد لحماً في صحن ، وفي سلّة ثمراً ، فراح يشرب بيد ويأكل بالأخرى ، وهو يخبر عن إتمامه عمله ، أوصل الكلبين الصغيرين . لا جديد في المنزل . وجد الطاهية مع جندي ، اختلاق كاذب ، اخترعه فقط للاثارة .

أخذت « المارشالة » معطفها من المشجب . أسرع فريدريك إلى الجرس صارخاً ، من بعيد ، للصبي :

ـ عربة !

ـ معي عربتي ، قال الفيكونت .

ـ إنما ، سيدى !

ـ مع ذلك ، سيّدي !

ونظرا إلى بعضهما البعض في ملء العينين ، شاحبين ، مرتجفي الأيدي .

أخيراً ، أخذت « المارشالة » ذراع سيزي ، وإذ دلّت على البوهيمي الجالس إلى المائدة ، قالت :

ـ إعتنِ به ! يكاد يختنق . لا أريده أن يموت بسبب كلبيّ .

انغلق الباب .

ـ وبعد ؟ قال هيسّونّيه .

ـ وبعد ، ماذا ؟

ـ كنت أعتقد . . .

ـ ماذا كنت تعتقد ؟

ـ هل أنت . . . ؟

أكمل عبارته بحركة .

ـ إيه لا ! هيهات !

لم يصرّ هيسّونّيه .

كان يهدف إلى أمرحين دعا نفسه إلى العشاء . يريد تحويل جريدته إلى مجلّة أسبوعية ، وحده ، بدون معونة ديلورييه . هي لم تنجح وأبدل اسمها : « الفنّ » باسم آخر هو : « المتعجرف » مع هذه العبارة التوجيهيّة : « أيها المدفعيّون ، إلى سلاحكم ! » عاد فتحدّث عن مشروعه القديم ، وعرض تصميمه الجديد .

أجاب فريدريك بأشياء غامضة ، هو ، ولا شك ، لم يفهم . أمسك هيسّونّيه بأكثر من سيجار عن الطاولة قال : « الوداع ، يا صديقي الطيّب ! » واختفى .

طلب فريدريك ورقة الحساب . لويلة هي ، كان الصبي ينتظر المال ، والفوطة على ذراعه ، حين أتى رجل ما ، باهت ، يشبه مارتينون وقال له :

ـ اعذرنا يا سيّدي ، نسينا أن نضيف على الحساب عربة الخيل .

ـ أي عربة ؟

ـ التي أخذها هذا السيّد لارجاع الكلبين الصغيرين .

واستطلع وجهه ، كأنه أشفق عليه . رغب فريدريك لو يصفعه . أعطى حلواناً العشرين فرنكاً التي أرجعوها له .

ـ شكراً ، يا سيدي ! قال الصبي الذي معه الفوطة ، مع تحيّة عظيمة .

أمضى فريدريك اليوم التالي في اجترار غضبه وخزيه . لام نفسه لكونه لم يصفع سيزي . أما « المارشالة » ، فقد أقسم ألّا يراها من بعد . سواها ، ممن يعادلنها جمالاً ، موجودات ، وبكثرة . وبما أن المال ضروري لامتلاك مثل هؤلاء النساء ، فلسوف يضارب في البورصة بثمن مزرعته ، يصير غنياً ، ويحطّم ، بترفه ، « المارشالة » وكلّ الناس . وإذ حلّ المساء ، عجب كيف لم يفكّر في السيدة أرنو .

« هذا أفضل ! ماذا ينفع التفكّر فيها ؟ » .

وفي الثامنة من بعد الغد ، أتى بيلّران يزوره . بدأ بذكر إعجابه بالأثاث ، ثم بملاطفات تَزَلّف . وفجأة :

ـ هل كنت في سباق الخيل ، الأحد ؟

ـ نعم ، للأسف !

راح الرسام يهاجم بنية الجياد الانكليزية ، يثني على جياد جيريكو وكذلك جياد بارتينون . « هل كانت روزانيت معك ؟ » وشرع يمتدحها بلباقة .

حيّرته برودة فريدريك . بات لا يعرف كيف يأتي إلى الحديث عن اللوحة . رغبته الأولى كانت أن ينفّذ واحدة تشبه لوحات تيتيان .

إنما ، شيئاً فشيئاً ، أغراه تلوين نموذجه المتغيّر. وراح يعمل بلا تردّد ، مكدّساً معجونة فوق معجونة ونوراً فوق نور . روزانيت كانت مسرورة أوّل الأمر ، مواعيدها ودلمار قطعت جلساتها وتركت لبيلّران كل الوقت لينبهر . وإذ تزايد إعجابه ، تساءل إذا لم يكن رسمه مهماً . عاد يرى لوحات تيتيان ، تبيّن الفرق ، عرف خطأه ، وأكب يعيد حدوده ببساطة . ثم عمل ، وهو يرتّبها ، على أن يضيّع فيها ، وأن يمزج فوارق درجات لون الرأس وخلفيّات اللوحة ، واتخذ الوجه قوة ، والظلال عنفواناً ، كل شيء بدأ أكثر حزماً . عادت « المارشالة » أخيراً . سمحت لنفسها ، حتى ، باعتراضات ، اعترض الفنان ، بالطبع . وبعد غضب كبير بسبب غباوتها ، قال في ذاته انها قد تكون على حق . وبدأ ، حينها ، عهد الشكّ ، وتمزّق الأفكار وتشتّتها ، مما يُحدث مغص المعدة ، الأرق ، الحمّى ، الاشمئزاز من الذات ، تجرّأ على أن يقوم بإصلاحات ، إنما من غير اندفاع وشاعراً أنّ عمله سيّء .

أسف ، فقط ، لكونه رُفض في الصالون ، ثم لام فريدريك لأنه لم يأتِ كي يرى رسم « المارشالة » .

ـ أسخر منها ، هذه « المارشالة » !

شجّعه مثل هذا القول .

ـ أتظنّ أن هذه الخرقاء باتت الآن لا تريده ؟

ما لم يقله هو أنه طلب إليها ألف ريال . والحال أنها ما كانت تهتمّ بمن سيدفع ، وتفضل أن تنال من أرنو أشياء أكثر ضرورة . وما عادت حدّثته عن الرسم .

ـ إيه ، وأرنو ؟ قال فريديك .

كانت وجّهته إليه . لكن تاجر اللوحات القديم لم يهتم للأمر .
- يصرّ على أنّ اللوحة لروزانيت .
- في الواقع هي لها .
- كيف ذلك ؟ هي أرسلتني إليك ! أجاب بيلرّان .
لو كان يؤمن بجودة عمله ، ما كان فكّر ، ربما ، في الافادة منه .
لكنّ مبلغاً (ومبلغاً محترماً) يكون تكذيباً للنقد وتقوية للذات .
وليتخلّص منه فريدريك ، سأله ، بلباقة ، عن شروطه .
أثاره المبلغ المرتفع ، أجاب :
- لا ، آه ! لا !
- مع ذلك ، فأنت عشيقها ، أنت من طلب إليّ اللوحة !
- من فضلك ، كنت أنا الوسيط !
- لكنني لا يمكن أن أبقى هكذا !
غضب الفنّان .
- آه ! ما كنت أعهدك جشعاً إلى هذه الدرجة .
- ولا عهدتك بهذا البخل !
وإذ هو يغادر ، وصل سينيكال .
ولأنه مضطرب ، قام فريدريك بحركة تدل على السأم .
- ماذا هناك ؟
أخبر سينيكال قصته .
- حوالى التاسعة من نهار السبت ، تلقّت السيّدة أرنو رسالة تدعوها إلى باريس . وصدفة ، لم يكن هناك أحد يمكنه الذهاب إلى كراي للمجيء بعربة ، فرغبت في إرسالي أنا . رفضت ، لأن هذا ليس

من ضمن أعمالي . ذهبت وعادت مساء الأحد . وأمس صباحاً ، وُجد أرنوفي المصنع . اشتكت البردوية . لا أدري أنا ما يجري بينهما ، لكنه رفع العقوبة أمام الجميع . تبادلنا كلاماً قاسياً . باختصار : دفع لي حسابي وها أنذا !

ثم ، بوضوح ، فاصلاً الكلمة عن الأخرى ، أضاف :

- مع ذلك ، لست أندم ، قمت بواجبي . مهما كان الأمر ، انه بسببك .

- ماذا ؟ صرخ فريدريك وقد خشي أن يكون سينيكال كشفه .

ما كان سينيكال اكتشف شيئاً ، لأنه أجاب :

- هذا يعني ، أنه ، لولاك ، لربما كنت وجدت عملاً أفضل .

أصيب فريدريك كما بتبكيت ضمير .

- بماذا يمكنني الآن أن أساعدك ؟

سأله سينيكال وظيفة ما ، مركزاً .

- هذا سهل عليك . تعرف ، أنت ، كثيرين ، بينهم السيّد دمبروز كما أخبرني ديلورييه .

كان ذكر ديلورييه بغيضاً بالنسبة إليه . وما كان يحلم بالعودة عند آل دمبروز منذ لقاء « شان دي مارس » .

- لست حميماً بما يكفي ، معهم ، لأستطيع أن أوصي بأحد .

تحمّل الديموقراطي هذا الرفض برباطة جأش ، وبعد هنيهة صمت :

- أكيد أنا ، أنّ كلّ هذا ، بسبب البردوية وسيّدتك أرنو .

« سيّدتك » ، هذه ، انتزعت من قلب فريدريك ما بقي فيه من

إرادة طيّبة . ومع ذلك ، قدّم إليه فريدريك ، لباقة ، مفتاح مكتبه .

شكره سينيكال على جميله .

ـ شكراً .

ثم طفق يتحدّث ، ناسياً مشاكله ، عن أمور الوطن ، عن الأوسمة التي يسرفون في توزيعها في عيد الملك ، عن تغيير الوزارة ، شؤون دروييّار وبينييه ، فضائح العصر ، هاجم البورجوازيين وتنبأ بثورة .

استوقف نظره خنجر ياباني ملتوٍ معلّق في الحائط . أخذه ، جرّب قبضته ثم رماه على الأريكة بمظهر اشمئزاز .

ـ هيّا ، الوداع ! يجب أن أذهب إلى نوتر ـ دام ـ دي لوريت .

ـ عجباً ! لماذا ؟

ـ تصادف اليوم الذكرى السنويّة لغودفروا كافينياك . لقد مات في العمل ! إنما ، ما انتهى كل شيء . . . من يَدري ؟

ومدّ سينيكال يده بشجاعة .

ـ لربما عدنا التقينا ! الوداع !

هذه الكلمة ! الوداع ! وقد أعادها سينيكال مرتين ، تقطيبة حاجبيه وهو يتأمل الخنجر ، عناده ومظهره ، بخاصة ، كلها جعلت فريدريك يحلم ، لكنه سريعاً ما نسي الأمر .

الأسبوع ذاته ، أرسل إليه الكاتب العدل من هافر ، ثمن مزرعته مئة وأربعة وسبعين ألف فرنك . جعلها قسمين : ترك الأول ، وحمل الآخر إلى عميل صرافة ليضارب بها في البورصة .

راح يأكل في الحانات المشهورة ، يتردّد إلى المسارح ويهتم بالترفيه حين وجه إليه هيسّونّيه رسالة يخبره فيها بفرح أن « المارشالة » طردت سيزي منذ اليوم الثاني لسباق الخيل . سعد فريدريك من دون أن يحاول معرفة لماذا يخبره البوهيمي بهذا .

وشاء القدر أن يلتقي بسيزي ، بعد ذلك بثلاثة أيام . أظهر الرجل رباطة جأش ودعاه ، حتى ، للعشاء الأربعاء القادم .

صباح ذلك اليوم ، وصل فريدريك تبليغ يعلمه فيه السيّد شارل ـ جان ـ باتيست أودري ، أنه ، بناء على حكم المحكمة ، قد صار صاحب ملكية في بلّفيل تخص السيّد جاك أرنو ، وأنه مستعد لدفع المئتين وثلاثة وعشرين ألف فرنك ، حصيلة ثمن المبيع . لكنه يخلص إلى القول إنه بما أن قيمة الرهونات التي تثقل البيت ، تفوق ثمن التملّك ، فقد ضاع ، كلياً ، دَين فريدريك .

سبب هذا يعود إلى أنه لم يجدّد الرهن في الوقت المناسب . كان تكلّف أرنو بالأمر ، ونسيه في ما بعد . نقم عليه فريدريك ، وحين هدأ غضبه :

« وماذا بعد ؟ . . . ماذا ؟ إذا كان هذا ينقذه ، فلا بأس ! لن أموت ! ولأنصرف عن التفكير فيه ! » .

لكنه ! وهو يقلّب أوراقه على طاولته ، لمح رسالة هيسّونّيه ولحظ الحاشية التي ما كان انتبه إليها في المرة الأولى . يطلب البوهيمي خمسة آلاف فرنك لينطلق بالجريدة .

« آه ! هذا يضايقني ! » .

وبعنف رفض إعطاءه ، في رسالة مختصرة . بعدها ، ارتدى

ثيابه ليذهب إلى « البيت الذهبي » .

قدّم سيزي مدعوّيه بادئاً بالأهم : سيّد ضخم أبيض الشعر .

ـ المركيز جيلبير دي أولناي ، عرّابي . السيّد أنسلم دي فورشمبو ، قال بعد ذلك ! كان شاباً أشقر ونحيفاً ، أصلع ، ثم ، مشيراً إلى رجل مربوع في مظهر بسيط : « جوزف بوفّرو ، فريبي » ، شخص نصف سائق عجلات ، نصف طالب مدرسة إكليريكية ، في لحية كثة وسترة طويلة ، مزرّرة في الأسفل بزرّ واحد بطريقة تؤلّف معها شالاً على الصدر .

ظل سيزي ينتظر أحداً ما ، البارون دو كومينغ ، « هو ربما أتى ، لست أكيداً » . يخرج كل دقيقة ، يبدو كئيباً ، أخيراً ، في الثامنة ، انتقلوا إلى غرفة مضاءة بطريقة ممتازة وواسعة جداً بالنسبة إلى عدد المدعوّين . كان سيزي انتقاها ، عمداً ، كدليل أبّهة .

يملأ وسط الطاولة ، سرتوت * قرمزي مملوء زهراً وثماراً . والطاولة مليئة بصحون فضية حسب الطريقة الفرنسيّة القديمة ، صحائف ملأى بالقديد والتوابل تحيط بها ، بين مسافة وأخرى ، أباريق خمر مورّد ممزوج ثلجاً ، وقد صُفّت خمسة أقداح متفاوتة الحجم أمام كل صحن ، مع أشياء لا نعرف وجهة استعمالها ، أصناف مأكولات كثيرة ، ـ وهناك ، فقط لبداية الوليمة ، طعام من رؤوس الحفش**

---

* سُرتوت : صينية للزينة توضع على المائدة .

** جنس من الأسماك .

مبلّل بالشمبانيا ، جانبون من يورك مغموس بالتوكاي * ، سمنة مع بَريشة ، سمانى مشويّة ، حجال حمراء مقليّة بسرعة ، وعلى طرفي كل هذا ، بطاطا ممزوجة بفطور لذيذة الطعم . تنير المكان ، وهو مفروش بقماش أحمر مزركش ، ثريّا وشماعدين مشعّبة . يقوم على خدمتهم ، أربعة خدم بلباس أسود يقفون وراء الكراسي الجلدية الملوّنة . صرخ المدعوّون ، عند هذا المشهد ، وبخاصة المربي :

- قسماً بشرفي ، إنّ مضيفنا قد قام بجنون فعليّ ! هذا جميل جداً !

- هذا ؟ قال الفيكونت دو سيزي . هيّا بنا !

ومنذ اللقمة الأولى :

- وبعد ، عزيزي دو أولناي ، هل ذهبت إلى المسرح الملكي تشاهد « الأب والبوّاب » ؟

- تعرف أن لا وقت لديّ ! قال المركيز .

صباحاته مأخوذة بمحاضرات عن الغراسة ، أمسياته بالحلقة الزراعيّة ، وكل بعد ظهره بدروس في مصانع آلات الحراثة . بما أنه يسكن ثلاثة أرباع السّنة في « سانتونج » فهو يستفيد من رحلاته هذه إلى العاصمة للتثقّف ، وها قبّعته الفضفاضة أطرافها ، والموضوعة على منضدة مزخرفة ، مملوءة نشرات .

وإذ لاحظ سيزي أن السيد دو فورشمبو يرفض الخمر ، قال :

- إشرب ! كن جسوراً في وقعتك الأخيرة كصبيّ عازب !

---

* خمر مجرية من مقاطعة توكاي .

عند هذه الكلمة ، مالوا جميعاً وهنّأوه .

قال المربي :

ـ بالطبع ، فالعروس لطيفة ، أليس كذلك ؟

ـ تباً له ! صرخ سيزي . مهما كان الأمر ، فهو على خطأ فالزواج أمر أخرق !

ـ تتكلم بخفة ، يا عزيزي ، أجاب السيّد دو أولناي ، والدمعة تتلألأ في عينيه ، لتذكّره فقيدته .

وكرّر فورشمبو ، مراراً القول ساخراً :

ـ ستصل إليه أنت ذاتك ، ستصل إليه !

اعترض سيزي . يفضّل ، هو ، التسلية ، أن يكون في « غاية الأناقة » . يريد أن يتعلّم التضارب ليزور حانات الأشرار في المدينة ، كما الأمير رودولف في رواية « أسرار باريس » * ، أخذ من جيبه غليوناً قصيراً ، خاشن الخدم ، شرب بكثرة ، وكي يجعلهم يكوّنون عنه فكرة ، ذمّ كل الأطباق . حتى أنه أعاد الفطور اللذيذة ، وقال المربي ، وهو يتلذّذ ، بدناءة :

ـ هذا لا يوازي ، أبداً ، البيض المضروب الذي كانت تعدّه جدّتك !

ثم راح يتحدّث مع جاره المهندس الزراعي الذي كان يرى في الاقامة في الريف الكثير من الحسنات ، ليس أقلّها المقدرة على تربية

---

* رواية لأوجين سو ، كانت ما تزال تنتشر في الأوساط ، وقد بدأت تظهر في ١٨٤٢ ، « جورنال دو ديبا » .

الفتيات كما هي الرغبة الحقيقية . كان المربّ يصفّق لأفكاره ويتملّقه ، مفترضاً له التأثير على تلميذه الذي يرغب في أن يكون مدير أعماله .

كان امتلأ فريدريك غضباً ضد سيزي ، بلاهته كشفت أمره . لكن حركاته ، وجهه ، كلّه ، جعله يتمزق غضباً أكثر فأكثر ، إذ تذكّر عشاء المقهى الانكليزي ، ويصغي ، كان ، إلى الملاحظات الفظّة التي يبديها ، بصوت هامس ، قريبه جوزف ، وهو شاب طيّب فقير ، هاوي صيد ومضارب في البورصة ، ليمزح ، سيزي ، كان ناداه ، مرات عدة بـ « السارق » ، ثم فجأة :

- آه ! البارون !

حينها ، دخل ثلاثيني جسور ، قاسي الملامح ، لينّ الأطراف ، قبّعته فوق أذنه ، وزهرة في عروته . إنه مثال الفيكونت . كان سعيداً في انضمامه إليه ، .

وطفق يسأل السيد دو كومينغ أسئلة كثيرة عن أشخاص مجهولين في المجتمع ، ثم ، كمن تذكّر أمراً :

- قل لي ، هل فكّرت بي ؟

هزّ الرجل كتفيه .

- ما تزال صغيراً ، مستحيل !

كان سيزي ألحّ عليه ليقبله في ناديه . وبما أن البارون مالأ غرور سيزي ، قال له :

- آه ! كدت أنسى ! ألف تهنئة على شرطك يا عزيزي !

- أي شرط !

- الذي شارطته في سباق الخيل ، في أن تذهب ، المساء ذاته ،

عند تلك المرآة .

هنا ، كأنما أحسّ فريدريك بلسعة سوط . وسريعاً ما هدأ إذ رأى وجه سيزي المقطّب .

في الواقع ، كانت « المارشالة » منذ الغد ، ندمت ، حين جاء ، في اليوم ذاته ، أرنو عشيقها الأول ، رجلها . معاً أفهما الفيكونت أن وجوده « يزعج » ، وصرفاه بلا احترام .

تغاضى عن السماع ، فأضاف البارون :

ـ ما حلّ بها ، هذه الطيّبة روز ؟ . . . أما تزال جميلة الساقين ؟ مظهراً ، هكذا ، انه يعرفها تماماً .

اغتاظ فريدريك لهذه المعرفة .

ـ لماذا الاحمرار ، تابع البارون ؟ انه عمل حسن !

فرقع سيزي بلسانه .

ـ تبّاً له من عمل ! ليس بتلك الجودة !

ـ آه !

ـ بلى ! فأنا لا أجد فيها شيئاً غير عادي ، ثم إننا نحصد الكثيرات مثلها ساعة نشاء ، لأنها أخيراً . . . تعرض نفسها للبيع !

ـ ليس لكل الناس ! قال فريدريك بخشونة .

ـ يحسب نفسه مختلفاً عن الآخرين ! أجاب سيزي . يا للنكتة !

وسرت ضحكة على المائدة .

شعر فريديك بضربات قلبه تخنقه . ابتلع كأسي ماء ، دفعة واحدة .

لكن البارون يحتفظ ، كان ، بذكرى طيبة من روزانيت .

ـ أما تزال مع واحد اسمه أرنو ؟

فقال سيزي :

ـ لا أعرف عنها شيئاً ، لا أعرف هذا الرجل .

ومع ذلك ذكر أنه غشاش .

ـ إسمعْ ! صرخ فريدريك .

ـ مع ذلك فالأمر واضح ! أقيمت عليه دعوى .

ـ غير صحيح !

وراح فريدريك يدافع عن أرنو . هو يضمن نزاهته ، انتهى بأن آمن بها ، اخترع أرقاماً ، أدلّة . لكن الفيكونت أصر على تأكيداته ، يملأه الحقد ، بحيث أن فريدريك قال بتوعّد :

ـ أهذا لتغيظني يا سيّد ؟

ونظر إليه بعينين ملتهبتين كسيجارة .

ـ أوه ! لا ، أبداً ! أؤكّد لك حتى أن عنده شيئاً ممتازاً : زوجته .

ـ تعرفها ؟

ـ يا لك من غبي ! صوفي أرنو ، الجميع يعرفونها .

ـ تقول ؟

كرّر سيزي القول ، وكان نهض :

ـ الجميع يعرفونها !

ـ أسكت ، ليست من هؤلاء اللواتي تعاشر !

ـ وهذا من دواعي فخري !

قذفه فريدريك بصحن على وجهه .

كالبرق مرّ الصحن فوق الطاولة ، أوقع قنّينتين ، هدّ طاولة شراب ، أصاب بطن الفيكونت .

كلهم هبّوا لتهدئته . تخلص منهم صارخاً ، وقد أخذه نوع من الهيجان . راح السيّد دو أولناي يردّد :

- إهدأ ! هيّا اهدأ يا عزيزي !

فزعق المربي :

- إنه لشيء فظيع !

صار فورشمبو ادكن كالبرقوق ، وراح يرتجف ، ضحك جوزف عالياً بينما كان الخدم يمسحون النبيذ ، ويلمّون الحطام من الأرض ، وذهب البارون وأقفل النافذة لأن المخاصمة وصلت إلى البولفار بالرغم من ضجيج العربات .

وبما أن الجميع كانوا يتحدثون ، مرة واحدة ، حين قُذف الصحن ، كان من المستحيل معرفة سبب هذه الاساءة ، هل هي بسبب أرنو ، بسبب السيّدة أرنو ، بسبب روزانيت أو لسبب آخر ! ما هو حقيقيّ ، هو عنف فريدريك الذي لا يوصف ، وقد رفض رفضاً قاطعاً أن يعتذر .

حاول السيّد دو أولناي تهدئته ، وهكذا جوزف والمربي ، حتى فورشمبو نفسه . في هذا الوقت ، كان البارون يشدّد عزم سيزي ، الذي راح يبكي ، مستسلماً لضعف عصبي . فريدريك ، على العكس ، غضب أكثر فأكثر . وكان الأمر ليدوم أكثر لو لم يقل البارون لينهي الأمر :

- سيرسل الفيكونت غداً ، يا سيدي ، شهوده إليك .

ـ في أية ساعة ؟
ـ ظهراً إذا شئت .
ـ اتفقنا سيدي .

وإذ صار فريدريك في الخارج ، تنفّس ملء رئتيه . من زمان وهو يكبت قلبه . وها هو أخيراً يروي غليله . وانه يشعر كما بكبرياء الرجولة ، أسكرته قوى غزيرة حميمة . فكّر أولاً ، بريجمبار ، وللوقت اتجه ناحية حانة في شارع سان دني . كانت الواجهة مقفلة . لكن نوراً يلتمع على زجاج فوق الباب . دخل ، بعدما فُتح الباب ، كثير الانحناء تحت الافريز .

ينير الغرفة شمعدان على طرف طاولة التاجر . كل الكراسي على الطاولات ، وأرجلها في الهواء . والسيّد والسيّدة ، مع ابنهما ، يتعشّون في الزاوية قرب المطبخ ، ويشاركهم الطعام ريجمبار ، وقبّعته على رأسه ، وهويزعج الصبي الذي كان مضطراً ، عند كل لقمة ، لأن يلتفت قليلاً جانباً . أخبره فريدريك بالأمر وطلب حضوره . ما أجاب « المديني » بشيء أوّل الأمر ، راح يتلفّت كمن يفكّر ، دار دورات عديدة في الغرفة ، وأخيراً قال :

ـ نعم ، بكل طيبة خاطر !

وفرّحته ابتسامة مجرمة ، حين عرف أن الخصم نبيل .

ـ سنسوقه بخشونة ، كن مطمئناً ! أولاً . . . بالسين . . .

ـ إنما ، اعترض فريدريك ، لربما لم يكن لي الحق . . .

ـ أقول لك يجب اعتماد السيف ! قال « المواطن » بخشونة . هل تعرف كيف تصوّب ؟

ـ قليلاً !

ـ آه ! قليلاً ! هكذا هم جميعا ! ويحنقون إلى حدّ المسايفة ! علام تشهد غرفة السلاح ؟ اسمعني : قف جيداً على مسافة ساجناً نفسك ضمن دوائر ، وابتعد ! ابتعد ! هذا مسموح . أنهكْه ! ثم هاجمه بلا تردّد ! ومن دون مكر ، لا تعتمد ضربات على طريقة لافوجير ! كلا ! فقط : واحد اثنان ، تم تحرير . هاك ، أتنتبه ؟ وأنت تدير قبضة يدك كما لتفتح قفلاً . ـ سيد فوتييه ، أعطني عصاك ! آه ! هذا يكفي !

أخذ العود الذي كان يُستعمَل لاشعال الغاز ، كوّر ذراعه اليسرى ، ثنى اليمنى ، وراح يهاجم الفاصل فجأة . كان يضرب بالقدم ، يتحمّس ، يصوّر نفسه كمن يلاقي صعوبات ، وهو يصرخ : « أأنت هنا ؟ أأنت هنا ؟ » وانطرح شبحه الضخم على الحائط مع قبّعته التي بدت تلامس السقف . بائع شراب الليمون يقول بين لحظة وأخرى : « برافو ! جيّد جداً ! » زوجته ، أيضاً ! أعجبت ولومندهشة ، والجندي القديم ، تيودور ، بقي مسمّراً من الدهشة ، فضلاً عن أنه منعصّب لريجمبار .

صباح الغد الباكر ، أسرع فريدريك إلى محل ديسّردييه . بعد سلسلة غرف ، ملأى كلها بالأقمشة المالئة أجنحة أو الموضوعة ، عرضاً ، على طاولات ، بينما ، هنا وهناك ، أشخاص خشب يحملون شالات ، رآه في غرفة كقفص مسوّر ، وسط سجلّات يكتب واقفاً أمام مكتب . ترك الفتى الطيب عمله بسرعة .

وصل الشهود قبل الظهر . حسب فريديك أنه ، من الذوق

السليم ، عدم حضوره المداولة .

أعلن البارون وجوزف أنهما يقبلان مجرّد الاعتذار البسيط . لكن ريجمبار ، الذي كان مبدأه عدم التراجع ، والذي كان يتمسّك بالدفاع عن شرف أرنو (ما كان فريدريك حدّثه عن سوى هذا) ، طلب أن يعتذر الفيكونت . ثار السيّد دوكومينغ للتكبّر . ما غيّر ريجمبار رأيه . كل مصالحة مستحيلة ، وسوف يتبارزان .

طرأت صعوبات أخرى ، فان اختيار السلاح ، قانوناً ، هو من حق سيزي المهان . لكنّ ريجمبار احتجّ أنّه بطلب التحدي للمبارزة صار ذلك الحق له . مع ذلك قال شهوده ان الصفعة هي أقسى أنواع الاهانات . اختتم « المواطن » ، ملخّصاً ، أن الضربة ليست صفعة . تقرّر ، أخيراً ، الرجوع إلى عسكريّين . وخرج الأربعة الشهود ليستشيروا ضبّاطاً في إحدى الثكنات .

توقّفوا عند ثكنة شارع أورساي . تقدّم السيّد دو كومينغ إلى عقيدين ، شرح لهما النزاع .

ما فهما شيئاً ، اختلط عليهما الأمر لأقوال ريجمبار الاعتراضيّة . باختصار طلبا إلى هؤلاء السادة أن يكتبوا محضراً رسميّاً ؛ على ضوئه يقرّران . حينها ، انتقلوا إلى مقهى ! وليكون الأمر في غاية السرية ، مثّلوا سيزي بحرف « هـ » وفريدريك بحرف « ك » .

ثم عادوا إلى الثكنة . كان الضابطان قد خرجا . ظهرا ، مجدداً ، وأعلنا أن حقّ اختيار السلاح يعود إلى السيّد « هـ » . عادوا ، جميعاً ، إلى سيزي . بقي ريجمبار وديسّرديبه على الرصيف .

حين علم الفيكونت بالحل ، أخذه اضطراب كبير ، حتى انه

سألها عنه مرات عديدة ؟ وإذ تطرّق السيّد دو كومينغ إلى ادّعاءات ريجمبار ، همس « مع ذلك » ، إذ لم يكن بعيداً ، هو نفسه ، عن الاذعان لها . ثم ترك نفسه يغرق في كرسيّ مريح وأعلن أنه لن يبارز .

ـ إيه ؟ ماذا ؟ قال البارون .

. استسلم سيزي ، حينذاك ، لثرثرة لا معنى لها . يريد التبارز بالطبنجة ، عن كثب ، بمسدّس واحد .

ـ أو نضع زرنيخاً في كأس ، ونقترع عليه بالقرعة . هذا يجري ، أحياناً ، قرأت عنه !

عنّفه البارون ، وهو ، عادة ، قليل الصبر .

ـ هذان السيّدان ينتظران جوابك . هذا غير لائق منك ! ماذا تقرّر ؟ هل هو السيف ؟

أجاب الفيكونت « نعم » بحركة من رأسه ، وتعيّن الموعد في اليوم التالي عند بوّابة مايّو ، تمام السابعة .

وإذ كان ديسّردييه مضطراً للعودة إلى أعماله ، ذهب ريجمبار يُعلم فريدريك .

كان تُرك طوال النهار من دون أخبار ، نفاد صبره صار لا يطاق .

ـ هذا أفضل ! هتف .

سُرّ « المواطن » لرباطة جأشه .

ـ طلبوا إلينا أن نعتذر ، أتصدّق هذا ؟ لم يكن الأمر شيئاً ، مجرّد كلمة ! لكني رددتهم كاسفين ! حسناً فعلت ، أليس كذلك ؟

ـ من دون شكّ ، قال فريدريك ، مفكّراً أنه كان حسناً فعل هو ، لو اختار شاهداً آخر .

وحين صار وحده ، راح يردّد ، عالياً ، مرات كثيرة :

« سوف أبارز . عجباً ، سوف أبارز ! إنه لأمر غريب ! » .

وإد راح يمشي في غرفته ، ماراً أمام المرآة ، رأى نفسه شاحباً .

« هل سأخاف ؟ »

استبد به قلق بغيض لفكرة أنه سيخاف أثناء المبارزة .

« لو قُتلت ؟ مات أبي بالطريقة نفسها . نعم ، سوف أُقتل ! » .

وفجأة رأى أمه بثياب الحداد ، دارت في رأسه صور مشوشة . أغاظه جُبنه . أخذته نوبة شجاعة ، عطش ضارٍ . كتيبة لا تستطيع ردّه . وإذ هدأت هذه الحمّى ، شعر بفرح أكيد الرسوخ . ذهب إلى الأوبرا بقصد أن يتسلّى ، تُقدّم ، هناك ، باليه . استمع إلى الموسيقى ، رغب بالراقصات ، وشرب كأس بنش خلال الاستراحة . لكنه ، وهو يدخل بيته ، أحسّ بضعف : ظن يرى عرفنه ، أثاثه ، للمرة الأخيرة .

نزل إلى حديقته . كانت النجوم تلمع ، راح يتأمّلها . فكرة المبارزة من أجل امرأة سترفعه في عينيها ، تعظّمه . ثم ذهب ينام هادئا .

لم يجرِ الأمر على المنوال ذاته بالنسبة إلى سيزي . بعد ذهاب البارون ، اهتمّ جوزف برفع معنوياته ، وإذ بقي الفيكونت على بروده :

ـ مع ذلك ، يا عزيزي ، إذا كنت تفضّل البقاء هنا ، فاني أذهب لأبلّغه .

ما جرؤ سيزي أن تجيبه : « طبعاً » ، لكنه يريد إلى قريبه أن لا يقدم له هذه الخدمة من دون أن يحدّثه عنها .

تمنى لو يموت فريدريك ، خلال الليل ، بانفجار في الدماغ ، أو أن تحدث فتنة ، فتقوم حواجز ، في الغد ، تقطع كل المعابر إلى غابة بولونيا ، أو أن يحدث طارىء يمنع واحداً من الشهود عن الحضور ، لأنه ، إن تغيّب أحد الشهود ، فلا تجري المبارزة . رغب لو يهرب بالقطار السريع إلى مكان ما ، أيّ مكان . تأسّف لكونه لا يعرف بالطب ليتناول شيئاً ما يجعله كالميت من دون أن يعرّض حياته للخطر . توصّل ، حتى ، إلى أن تمنّى لنفسه لو يكون مصاباً بمرض خطر .

وبقصد أن يحصل على نصيحة أو نجدة ، أرسل بطلب السيّد دو أولناي . لكن الرجل الطيّب كان عاد إلى سانتونج بناء لخبر سريع عن توعّك إحدى بناته . بدا له الأمر نذير شؤم . إنما من حسن حظه أن أتاه السيّد فيزو أستاذه . فأسرّ إليه بما يؤرّقه .

ـ كيف العمل ، يا إلهي ! كيف العمل ؟

ـ لو كنت مكانك ، سيّدي الفيكونت ، لدفعت إلى واحد من الرعاع ، قويّ ، فيطعنه طعنات متتابعة .

أجاب سيزي : يعرف ، هكذا ، من يكون الدافع الحقيقي !

وراح ، وبين لحظة وأخرى ، يرسل أنيناً ، ثم قال :

ـ إنما أمعقول أن نقتتل في مبارزة ؟

ـ ماذا تريد ! هذا من بقايا البربرية !

ومجاملة ، دعا المربّي نفسه إلى العشاء . ما أكل تلميذه شيئاً ، وبعد الطعام شعر أنه في حاجة إلى نزهة .

قال وهو يمرّ أمام كنيسة :

ـ لو ندخل قليلاً . . . لنرى .

سرّ السيّد فيزو بذلك ، وقدّم له ، حتى ، مياهاً مقدّسة .

كان شهر مريم ، فالأزهار تغطّي المذبح ، أصوات ترتّل ، والأرغن يعزف . لكنه استحال عليه أن يصلّي ، فخفخة الديانة أوحت إليه أفكاراً جنائزيّة ، سمع مثل طنين صلاة « من الأعماق صرخت إليك يا الله » .

ـ لنذهب من هنا ! لا أحسّني مرتاحاً !

أمضيا كل الليل بلعب الورق . عمل الفيكونت على أن يخسر ليظهر حظّه السيّء ، رآها فيزو مناسبة استفاد منها . ومع الفجر الباكر ، ما كان يستطيع سيزي أن يتحمّل أكثر ، فتمدّد على السجادة الخضراء ونام يحلم أحلاماً كريهة .

مع هذا ، لو كانت الشجاعة في تملّك الضعف ، لكان الفيكونت شجاعاً ، لأنه ، عند مرأى شاهديه آتيين ليذهبا معه ، تشدّد ، وتملّك كل قواه ، فهم أن أيّ تراجع يجعله يهلك . وهنّأه السيّد دو كومينغ على بشاشته .

لكنّ تأرجح عربة الخيل في الطريق ، وحرارة الشمس الصباحيّة أثاراه . تراجعت طاقته . بات لا يميّز أين كانوا .

راح البارون يتسلّى بأن يزيد خوفه ، إذ طفق يتحدّث عن « الجثة » ، وعن طريقة إعادته إلى المدينة ، بموكب فخم . شارك جوزف في الحديث ، وكلاهما ، وقد تبيّنا سخافة الأمر ، اعتقدا أنه سيتدبّر .

احتفظ سيزي برأسه متدلياً على صدره ، رفعه بهدوء ونبّه إلى أنهم لم يحضروا معهم طبيباً .

ـ هذا لا يجدي ، قال البارون .

ـ إذن فلا خطر ؟

أجاب جوزف بنبرة مهيبة :

ـ لنتمنّ ذلك !

وما عاد أحد تحدّث في العربة .

وصلوا أمام بوّابة « مايّو » في السابعة والدقيقة العاشرة . كان فريدريك هناك مع شاهديه ، جميعاً في ثياب سوداء . ريجمبار ، بدلاً من ربطة العنق ، تزيّا بياقة من هُلب إكما عسكري ، وكان يحمل نوعاً من علبة كمان طويلة خاصة بهذا النوع من المغامرات . تبادلوا تحيّة باردة . ثم تواروا جميعهم في غابة بولونيا عن طريق مدريد بحثاً عن مكان مناسب .

قال ريجمبار لفريدريك الذي كان يمشي بينه وبين ديسّردييه :

ـ وبعد ، لم كل هذا الخوف ؟ إذا كنت في حاجة لأي شيء ، فلا تقلق ، أعرف هذا ! الخوف أمر طبيعي في الناس .

ثم ، بصوت منخفض :

ـ لا تدخّن بعد ، هذا يوهن !

رمى فريدريك سيكاره الذي كان يزعجه ، وأكمل بخطى واثقة . إلى الوراء ، يتقدّم الفيكونت مستنداً إلى ذراعي شاهديه .

يصادفون بعض المارة . السماء زرقاء ويُسمَع ، بين حين وآخر ، قفز أرانب . على لفتة درب ، امرأة بمدراس تتحدّث إلى رجل بقميص

فضفاضة ، وفي الممر الكبير تحت أشجار الكستناء ، خدم بسترات كتّانيّة ينزّهون جيادهم . طفق سيزي يتذكّر الأيّام السعيدة ، حين كان ، ممتطياً جواده الأشقر ، يخيّل عند بوابة العربات ، ذكرياته تعمّق قلقه ، أحرقه عطش لا يرتوي ، يختلط هسيس الذباب بنبض شروشه ، قدماه تغرقان في الرمل ، بدا له أنه ، من زمن لا بداية له ، وهو يسير .

كان الشهود يبحثون على جانبي الطريق عن مكان ملائم . تداولوا في أمر الذهاب إلى « كروا كاتلان » أو عند جدران « باغاتيل » . أخيراً ، راحوا يميناً ، وتوقّفوا في تخميسة ماء بين الصنوبر .

اختير المكان على اساس أن يقسّم بطريقة متساوية . عيّنوا مكان الخصمين . ثم فتح ريجمبار علبته . كانت تحتوي على تبطين من جلد أحمر ناعم ، وعلى سيوف أربعة جميلة ، مجوّفة الوسط ، مقابضها مزخرفة بخيوط ذهبيّة . وقع عليهم شعاع ، مخترقاً الأوراق ، وقد بدت لسيزي تلمع وكأنها أفاع فضيّة في بحيرة دم .

أظهر ريجمبار أن السيوف موحّدة الطول، أخذ الثالث لنفسه ، ليفصل بين المتبارزين إذا دعت الحاجة . السيّد دو كومينغ يمسك عصا . خيّم صمت . تواجها . كلّ الأوجه فيها أمرٌ ما مخيف أو شرس .

حينها ، اهتمّ السيّد دو كومينغ بمماحكات (هو يريد لفريدريك ، بعد ، وقتاً للتفكير) . أعلن حقّه في وضع قفّاز يمسك به سيف الخصم باليد اليسرى ، ما رفض ريجمبار الذي كان مستعجلاً متحمّساً . وفي الأخير ، توجّه البارون بالحديث إلى فريدريك ، قال :

ـ كل شيء يعود إليك ، يا سيّدي ! لا عار أبداً في أن يعترف المرء بخطئه

وافقه ديسَرديبه بالاشارة . غضب ريجمبار .

ـ عجباً ! أو تظن أننا ، هنا ، لنتف ريش البط ؟ انتبها !

كان الخصمان متواجهين ، شهودهما في كل جانب . هتف بإشارة البدء :

ـ هيّا !

شحب سيزي بشكل عجيب . يرتجف طرف سيفه كسوط . رأسه يهتزّ ، ذراعاه يبتعدان ، وقع على ظهره ، غائباً عن الوعي . أنهضه جوزف ، راح يهزّه بقوّة وهو يقرّب إلى أنفه أنبوباً . فتح الفيكونت عينيه ، ثم ، فجأة ، وثب إلى سيفه كأنه غاضب . كان احتفظ فريدريك بسيفه ، وراح ينتظره ، ثابت النظرة ، عالي اليد .

ـ توقّفا ، توقّفا ! هتف صوت من صوب الطريق مع ضجّة حصان يخبّ ، وسقف العربة يكسر الأغصان ! كان رجل يمد رأسه خارجاً ويلوّح بمحرمة ، ويهتف دائماً : « توقّفا ، توقّفا ! »

رفع السيد دو كومينغ عصاه ، ظاناً تدخّلاً من الشرطة .

ـ توقّفا ! الفيكونت ينزف !

ـ أنا ؟ قال سيزي .

كان قد وقع وجَلَفَ إبهام يده اليسرى في سقوطه .

ـ لكنّ هذا حصل في وقوعه ، قال ريجمبار .

إلا أن البارون بدا كأنه لم يسمع .

كان أرنو قفز من مركبته .

ـ وصلت متأخراً ! لا ! ليتمجّد الله !

أخذ فريدريك بجماع يديه ، يتحسّسه ، يمطر وجنته قبلات .

ـ أنا هو السبب ، أردت أن تدافع عن صديقك القديم ! حسن هذا ، حسن ! لن أنساه أبداً ! كم أنت طيّب ! آه ! يا ولدي الحبيب !

راح يتأمّله ملياً ويسكب الدموع ، هاذياً فرحاً . استدار البارون ناحية جوزف .

ـ أظنّ أننا سعداء في هذا العيد العائلي البسيط . انتهى كل شيء ، أليس هكذا أيها السادة ؟ ـ فيكونت ، ضمّد يدك ، هاك منديل رقبتي . وبحركة حاسمة : هيّا ! بدون ضغينة ! لينته الأمر هكذا !

تصافح المتبارزان برخاوة . ذهب الفيكونت والسيّد دو كومينغ وجوزيف في اتجاه ، وفريدريك وأصدقاؤه في الاتجاه الآخر .

وبما أنّ مطعم مدريد لم يكن بعيداً ، اقترح أرنو أن يعرّجوا عليه ليشربوا كأس بيرة .

ـ بل نستطيع أن نتغدّى ، قال ريجمبار .

ـ لكن لا وقت ، قال ديسّردييه . لذلك اكتفوا بمرطب في البستان . كلّهم سعدوا بهذه الغبطة التي تلي النهايات السعيدة . مع ذلك ، كان ريجمبار غاضباً فالمبارزة توقّفت في اللحظة الحاسمة .

أرنو كان علم بهذا بواسطة رجل اسمه كومبان ، وهو صديق لريجمبار . ركض ، في انطلاقة عاطفيّة ، ليمنع حصوله ، حاسباً ، فوق ذلك ، أنه السبب . توسّل إلى فريدريك ليخبره ببعض التفاصيل . فريدريك ، وقد أخذ ببراهين عاطفته ، اهتمّ بأن يضاعف

توهّمه :

ـ بربك ، دعنا من هذا !

وجد أرنو هذا التحفّظ في غاية اللطافة . ثم قال ، منتقلاً إلى فكرة أخرى ، حسب خفّته المعهودة :

ـ ما الجديد ، أيها «المواطن» ؟

وراحا يتحدّثان عن الكمبيالات وآجال الاستحقاق . وليكونا في مزيد من الرقة ، ذهبا يتهامسان إلى طاولة أخرى .

استطاع فريدريك تمييز هذه الكلمات : « سوف تجيّر لي . . . ـ طبعاً ! هذا أمر متّفق عليه . . . ـ فاوضنه ، أخيراً ، على ثلاثمائة ! ـ مهمة حسنة ، والله ! » بالاختصار كان واضحاً أن أرنو يتلاعب وريجمبار بأمور كثيرة .

فكّر فريدريك أن يذكّره بالخمسة عشر ألف فرنك . لكن مسعاه الأخير كان يمنعه من اللوم ، والمعاتبة ، حتى الأكثر لطافة . على كل حال هو يحسّ نفسه متعباً . ما كان المكان ملائماً . أجل الأمر إلى يوم آخر .

راح أرنو يدخّن جالساً في ظل جنبات للتزيين ، ببسمة جذلانة . رفع عينيه صوب أبواب الغرف المطلّة كلّها على الحديقة ، وقال انه جاء إلى هذا المكان من زمان مراراً .

ـ لم تكن ، ولا شك ، وحيداً ! أردف ريجمبار .

ـ أقسم بذلك !

ـ يا للسوقي ! أنت رجل متزوج !

ـ وبعد ، وأنت ؟ أجاب أرنو ، وببسمة متساهلة : واثق أنا أنّ

هذا النذل يمتلك غرفة في مكانٍ ما ، يقود إليها فتيات صغيرات .

اعترف ريجمبار بهزة خفيفة لحاجبيه أن هذا صحيح . حينها راحا يعرضان أذواقهما : أرنوبات يفضّل ، الآن ، الشابات ، العاملات ، ريجمبار يكره المتصنّعات ويتمسك قبل أي شيء بالواقعيّة . طلع تاجر الزخارف بنتيجة أنه يجب ألاّ تعامَل النساء بجديّة .

فكّر فريدريك : « مع ذلك ، هو يحب امرأته ! » ، واستدار عنه ، ووجده إنساناً غير شريف . يريده كان أن يقوم بالمبارزة ، كما لو لأجله هو ، منذ هنيهات ، وصل إلى حدّ المجازفة بحياته .

لكنه كان مقدّراً لديسّردييه على اندفاعه . وصار الموظف ، على إلحاح منه ، يزوره كل يوم .

راح فريدريك يعيره كتباً : تيار ، ديلور ، بارانت ، « لي جيروندين » للامرتين . يصغي إليه الشاب الطيّب بخشوع ويتقبّل آراءه كأنها آراء أستاذ .

وذات مساء وصل مذعوراً .

في الصباح ، على البولفار ، كان رجل يركض بكلِ زخم اصطدم به ، وإذ عرفه صديقاً لسينيكال ، قال له :

ـ ها هم يأسرونه ، وقد نجوت !

أمر ثابت . فقد أمضى ديسّردييه نهاره في الاستعلامات . سينيكال في السجن كمتهم بمؤامرة سياسيّة .

إنه ابن رئيس عمّال ولد في ليون . وبما أن أستاذه كان تلميذاً قديماً لشالييه ، منذ وصوله باريس ، جعلهم يقبلونه في جمعيّة العائلات . عُرفت عاداته ، صارت الشرطة تراقبه . كان

ضُرب في عمليّة أيار ١٨٣٩ ، ومن حينها ، جعل نفسه في الظل ، إنما ناقماً أكثر فأكثر ، متعصّباً لألبيو ، مازجا شكاواه ضدّ المجتمع بشكاوى الشعب ضد السلطة ، ومستيقظاً كل صباح على أمل أن تقوم ثورة تغيّر العالم بخمسة عشر يوماً أو شهراً . أخيراً ، إذ نفّره تراضي إخوانه ، وغضب للتأخيرات التي كانت تعترض أحلامه ، ويئس من الوطن ، دخل ككيميائي في مؤامرة القنابل المحرقة ، وضبطوه حاملاً باروداً ذاهباً يختبره في مونمارتر ، محاولة قصوى لتأسيس الجمهوريّة .

ما كان ديسّردييه يحب الجمهورية أقل ، يظنها تعني تحرراً وسعادة كونيّة . يوماً ، في الخامسة عشرة ، في شارع « ترانسنونان » ، أمام محل بقّال ، كان رأى جنوداً حرابهم حمراء من الدم ، وشعر لاصق بقندق بواريدهم ، منذ تلك اللحظة ، أغاظه الحكم ، رآه تجسيداً حقيقياً للظلم . طفق يخلط بين المجرمين والجنود ، كل فرد من جهاز المراقبة براه كقاتل أبيه أو أمّه . بنسب كل شر في الأرض إلى الحكم ، ويكرهه كرهاً عظيماً ، دائماً ، يمتلك عليه كلّ لبّه وينقّي إحساسه . خطابات سينيكال بهرته . مجرماً كان أم لا ، ومحاولته قبيحة ، كل هذا لا يهمّ ! بما أنه شهيد السلطة ، فمساعدته واجب .

ـ سيحكمه المسؤولون ، ولا شكّ ! ثم يجلبونه بعربة مساجين كمحكوم بالأشغال الشاقة ، ويلقونه في « مون ـ سان ـ ميشال » حيث تتركهم الحكومة يموتون ! أوستن جُنّ ! ستوبن قتل نفسه ! شدّوا باريس من قدميه ، من شعره ، لنقله إلى زنزانة !

داسوا جسمه ، ورأسه يقفز من درجة لدرجة على امتداد الدرج .
يا للرجس ! يا لهم من مساكين !

أخذته نوبات غضب ، راح يدور في الغرفة كمن يخنقه قلق كبير .

ـ يجب عمل شيء ! هيّا ! لا أدري أنا ! لو نحاول تخليصه ، أليس كذلك ؟ وهم يسوقونه إلى اللوكسمبور ، يمكن الانكباب على الحرس في الممرّ ! دزينة رجال مصمّمين ، هذا يحصل أينما كان .

شعلة تلهب عينيه ، جعلت فريدريك يرتعش .

بدا له سينيكال أكبر مما يظنه . تذكّر آلامه ، حياته القاسية ، بدون أن يتحمّس لأجله كما ديسّردييه ، يشعر ، فقط ، بهذا الاعجاب يثيره كل إنسان يضحّي من أجل فكرة . قال في ذاته ، لو أنجده ، لن يكون سينيكال هنا ، وراح الصديقان يبحثان ، بجدّ ، عن طريقة لانقاذه .

كان من المستحيل الوصول إليه .

انقلب فريدريك يبحث عن مصيره في الجرائد ، وتردّد إلى غرف المطالعة خلال أسابيع ثلاثة .

يوماً ، وقعت في يده أعداد كثيرة من الـ « فلمبار » . لاحظ أن المقال الأساسي ، دائماً ، مكرّس لتحطيم رجل مشهور . بعده أخبار العالم ، النمائم . بعدها ممازحة الأوديون ، كرينتراس ، تربية الأسماك ، والمحكومون بالموت حين يكون موجوداً منهم . اختفاء سفينة أمدّت مادة مزاح طوال سنة . بريد فنون ، في

العمود الثالث ، يقدّم ، بشكل نكتة أو نصيحة ، إعلانات خيّاطين مع أخبار السهرات ، إعلانات بيع ، تحاليل مؤلّفات ، تعامل ، بالأسلوب نفسه كتاب شعر أو حذاء . القسم الجدي الوحيد كان نقد المسارح الصغيرة ، حيث تهجّم على مديرَين أو ثلاثة .

كاد فريدريك يلقي بها إذ صادفت عيناه مقالاً بعنوان : امرأة بين ثلاثة أشخاص . هي قصة مبارزته مرويّة بأسلوب حيويّ ، ماجن . بدون شقاءٍ ، عرف نفسه ، إذ أشير إليه مراراً بطريقة ساخرة . صُوِّر ، حتى ، كرجل قروي مسكين ، أبله تماماً ، يحاول مخالطة الأسياد الكبار . وبالنسبة للفيكونت ، فله الدور الحسن ، أولاً في العشاء ، فيظهر قويّاً ، ثم في المراهنة إذ اصطحب الفتاة ، وأخيراً في ساحة المبارزة حيث تصرّف بلباقة . ما أنكرت شجاعة فريدريك ، تحديداً ، لكن يُلمَح تدخّل الوسيط ، العشيق نفسه والعائل ، في الوقت المناسب . وينتهي المقال بهذه العبارة الملأى مكراً :

« من أين ينبع حنانها ؟ إنها لمسألة ! وكما يقول بازيل : يا للشيطان ، من يُخَان هنا ؟ » .

هذا ، بدون أدنى شك ، انتقام هيسّونيه من فريدريك ، لرفضه إعطاءه الخمسة آلاف فرنك .

ما العمل ؟ إذا ما سأله السبب ، يدّعي البوهيمي بالبراءة ، ولن يستفيد بشيء . فالأفضل السكوت . ولا أحد ، على كل حال ، يقرأ الـ « فلمبار » .

وهو خارج من غرفة المطالعة ، رأى أناساً أمام محل تاجر لوحات . كانوا ينظرون إلى رسم امرأة ، وفي الأسفل هذه العبارة بأحرف سوداء : « الآنسة روزانيت ـ برون ، تخصّ السيّد فريدريك مورو من نوجان » .

إنها ، فعلاً ، هي ـ أو تكاد ، ـ بمنظر جانبي ، نهداها حاسران ، شعرها مرخي ، وبيديها كيس نقود مخمليّ أحمر ، بينما ، إلى الوراء ، طاووس ومنقاره إلى كتفها ، مغطياً الخلفيّة بريشه الكبير الذي على شكل مروحة .

قام بيلّران بهذا العرض ليلزم فريدريك بالدفع ، مقتنعاً بأنه مشهور وبأن باريس كلّها متحمّسة له ستهتمّ بهذه القضيّة .

أهي مؤامرة ؟ هل حضّر الرسّام والصحافيّ مكيدتهما معاً ؟

مبارزته لم تمنع شيئاً . طار هزأة ، فالجميع يسخرون منه .

بعد ثلاثة أيام ، في آخر حزيران ، إذ ارتفعت أسهم « الشمال » خمسة عشر فرنكاً ، وبما أنه كان اشترى ألفين الشهر المنصرم ، وجد نفسه وقد ربح ثلاثين ألف فرنك . أعطته هذه الثروة ثقة . قال في ذاته انه ليس في حاجة لأحد ، إن كل اضطراباته متأتية من حيائه ، من تأرجحاته . كان عليه أن يبدأ بقسوة مع « المارشالة » ، أن يرفض هيسّونيه منذ اليوم الأول ، أن لا يجازف مع بيلّران ، وليُظهر أن لا شيء يضايقه ، ذهب عند آل دمبروز ، إلى واحدة من السهرات المعتادة .

وسط غرفة الانتظار ، استدار مارتينون الواصل في الوقت ، نفسه ، معه .

- كيف ؟ اتجيء إلى هنا ؟
- لَمَ لا ؟

وتقدّم فريدريك نحو الصالون ، وهو يبحث عن سبب لمثل هذا الوصول .

خافتاً كان النور ، بالرغم من القناديل الموضوعة في الزوايا ، لأن الثلاث نوافذ ، المشرّعة ، ترسم ، كانت ، ثلاثة مربعات ظل أسود ، عريضة . أحواض زهور ، تحت اللوحات ، في فُرجات الجدران ، بقامة رجل ، وابريق شاي فضي مع سماور ، ينعكس ، في الطرف ، بمرآة . ترتفع همسات أصوات رزينة . وكنت تسمع أخفافاً تطقطق على السجّادة .

رأى ثياباً سوداً ، ثم طاولة مستديرة مضاءه بعاكس نور كبير ، سبع أو ثماني نساء بأزياء صيفيّة ، وأبعد قليلاً ، السيّدة دمبروز في كرسيّ قلاّب . لثوبها المن تفتا ليلكيّة أكمام متشقوقة ، منها تخرج ثنايا موسّلين ، أسلوب ثوبها الهادىء يتراوج مع لون شعرها . جالسة هي ، مائلة بعض الميل إلى الخلف ، وطرف قدمها على تكيّة ، - هادئة كلوحة فنية مليئة رشاقه ، زهرة فائق الاعتناء بها .

السيّد دمبروز يتمشى وعجوز أبيض الشعر في طول الصالون . بعضهم يتحادثون على أطراف أرائك صغيرة منثورة هنا وهناك ، الآخرون واقفون ، حلقة في الوسط .

يتبادلون أحاديث انتخابات ، إصلاحات ، تعديل إصلاحات ، يتحدثون عن خطبة السيّد غراندان ، عن جمهوريّة

السيّد بنوا . العامة ، أكيداً ، ذهبوا بعيداً ! كان على اليسار أن يتذكر أحد له أفضل من ذلك ! تلقّت الوزارة طعنات خطيرة ! مع ذلك ، فما يطمئن هو انهم لم يجدوا لها خلفاً . باختصار ، الوضع هو نفسه الذي كان في ١٨٣٤ .

فريدريك الذي تسئمه هذه الأمور ، اقترب من النساء . بالقرب منهن مارتينون ، يقف وقبّعته تحت ذراعه ، يشبه تماماً « بورسلين سيفر » . تناول ، هو ، « مجلة العالَمين » المتروكة على الطاولة ، بين صورة لوحة فنية ودليل « غوتا » السنويّ ، أبدى رأيه في شاعر شهير ، قال انه يحضر محاضرات سان فرنسوا ، اشتكى من حنجرته ، بين وقت وآخر ، يبتلع كرة صمغ ، وأثناء ذلك ، راح يتحدّث موسيقى ، يتظاهر بالخفّة . قريبة السيّدة دمبروز ، الآنسة سيسيل ، التي كانت تطرّز زوج أردان ، بدت تنظر إليه ، خلسة ، بعينين شاحبتي الزرقة ، والآنسة جونسون ، المعلمة ذات الأنف الأفطس ، تركت نجودها ، كلتاهما بدت تصرخ في أعماقها :

« كم هو جميل ! » .

استدارت السيّدة دمبروز صوبه .

- أعطني مروحتي عن هذه المنضدة المزخرفة ، هناك . لا ! الأخرى !

قامت ، وإذ هو عائد ، التقيا وسط الصالون وجهاً لوجه ، وجّهت إليه بضع كلمات ، بحميّا ، لا شك أنها توبيخات . يُعْرف هذا من سمة وجهها المتكبّر ، همّ مارتينون بالضحك ، ثم

راح يختلط في اجتماع الرجال الوقورين غير القانوني . عادت السيّدة دمبروز إلى مكانها ، قالت لفريدريك وهي تنحني على ذراع كرسيها :

- رأيت شخصاً ، قبل أمس ، حدّثني عنك ، السيد دو سيزي ، تعرفه أنت ، أليس كذلك ؟

- بلى . . . نوعاً ما .

فجأة هتفت السيّدة دمبروز :

- أيتها الدوقة ، آه ! يا للسعادة !

وتقدمت حتى الباب أمام امرأة قصيرة متقدّمة السن ، ترتدي ثوباً من التفتا الكرملية ، وقبعة من التخريم ، أطرافها عريضة . هي ابنة رفيق المنفى للكونت أرتوا ، وأرملة مارشال من الامبراطورية ، تتمسّك بالبلاط القديم كما بالجديد ، وتستطيع أن تحظى بأشياء كثيرة . تفرّق من كانوا يتحدثون واقفين ، ثم عادوا إلى أحاديثهم .

هي ، الآن ، تتحدث حول الفقر الذي كان ، حسب هؤلاء السادة ، مبالغاً فيه في لوحات الرسم .

- مع ذلك ، فالفقر موجود ، لنعترف بهذا ، اعترض مارتينون . لكن الدواء لا يتعلّق لا بالعلم ولا بالسلطة . إنها قضية محض شخصيّة . حين تريد الطبقات الدنيا التخلّص من نقائصها ، فهي تتحرّر من حاجاتها . ليكن الشعب أكثر أخلاقية ، يكن أقلّ تعاسة !

حسب السيّد دمبروز ، لا يمكن الوصول إلى وضع أفضل

من دون زيادة عن الحاجة في رأس المال . إذن ، فالوسيلة الوحيدة الممكنة هي أن نعهد ، « كما يريد السان سيمونيّون (يا الهي ، كانوا على بعض حق ! لنكن عادلين مع الجميع) ، أن نعهد ، كنت أقول ، بقضية التقدم إلى القادرين على زيادة الثروة الشعبيّة » . ومن دون أن يدروا اقتحموا باب الاستثمارات الصناعيّة ، خطوط الحديد ، الفحم الحجري . واتجه السيّد دمبروز صوب فريدريك وقال بصوت خافت :

ـ لم تأتِ ، بعد ، بخصوص مسألتنا .

اعتذر فريدريك بمرض ، وإذ أحسّ العذر سخيفاً :

ـ على كل حال ، فقد احتجت إلى نقودي .

ـ لشراء عربة . أجابت السيّدة دمبروز التي كانت مارة قربه وفي يدها فنجان شاي ؟ وتأملته لدقيقة ورأسها مائل نوعاً إلى كتفها .

كانت تظنه عشيق روزانيت ، فالتورية واضحة . وبدا حتى لفريدريك أن جميع النساء ينظرنه من بعيد وهن يتهامسن . ولكي يعرف ما يفكّرن اقترب منهن ، مرة بعد .

إلى الجانب الآخر من الطاولة ، يقلّب مارتينون ألبوماً قرب سيسيل . إنها طباعات حجريّة تمثّل أثواباً إسبانيّة . يقرأ الشروح عالياً : « امرأة من سيفيل ، ـ بستانيّ من فالنس ، ـ بيكادور أندلسيّ » ؛ وإذ وصل ، مرة ، حتى أسفل الصفحة ، أكمل بلا توقّف :

ـ جاك أرنو ، ناشر ـ . واحد من أصدقائك ، أليس

كذلك ؟

ـ بلى ، قال فريدريك ، وقد جُرح لمظهره .

قالت السيّدة دمبروز :

ـ لقد جئت ، في الواقع ، ذات صباح . . . من أجل . . . بيت ، فيما أظن ؟ أجل ، بيت يخصّ زوجته . (هذا كان يعني : « أنها عشيقتك ») .

احمرّ حتى أذنيه ، وأضاف السيّد دمبروز ، وقد وصل في اللحظة عينها :

ـ كنت تبدو في غاية الاهتمام بهما .

هذه الكلمات الأخيرة أفقدت فريدريك رباطة جأشه . فكّر أنّ ارتباكه الذي يرونه ، سوف يؤكّد الشكوك حين قال له السيّد دمبروز عن قرب بصوت خفيض :

ـ أظنّ أنكما لا تقومان بأعمال مشتركة ؟

بحركات كثيرة من رأسه أجاب أن لا ، من دون أن يفهم نيّة الرأسمالي الذي كان يريد أن ينصحه .

رغب في الذهاب . أمسكه الخوف من أن يبدو ضعيفاً . كان خادم يرفع كؤوس الشاي ، السيّدة دمبروز تتحدّث مع ديبلوماسي في ثياب زرقاء ، فتاتان متقاربتا الجبهتين تتفرّجان على محبس ، الأخريات ، الجالسات على كراسٍ بشكل نصف دائرة ، يحرّكن بلطف وجوههن البيضاء ، يزيّنها شعر أسود أو أشقر ، لا أحد يهتمّ به . استدار فريديك على أعقابه ، وعلى أثر تعرّجات طويلة ، كاد يصل إلى الباب ، حين رأى ، وهو يمرّ قرب

منضدة مزخرفة ، فوقها ، بين إناء صينيّ والتلبيس الخشبي ، جريدة مطويّة . سحبها قليلاً وقرأ : « لو فلمبار » .

من جاء بها ؟ سيزي ! لا أحد سواه بالتأكيد . وما يهمّه ! سوف يصدّقون ، أو هم ، الآن ، يصدّقون المقال . لمَ هذا التركيز غلّفته سخرية صامتة . أحسّ نفسه كشريد في صحراء . لكنّ صوت مارتينون ارتفع :

ـ بخصوص أرنو ، لقد قرأت ، بين أسماء موقوفي القنابل المحرقة إسم واحد من موظفيه ، سينيكال . هل هو الذي نعرف ؟

ـ هو نفسه ، قال فريدريك .

ردّد مارتينون صارخاً عالياً جداً :

ـ كيف ، سينيكالنا ، سينيكالنا !

حينها ، سألوه عن المؤامرة ، وظيفته كملحق في النيابة العامة لا بد أنها تسهل الاطلاع على المعلومات .

اعترف بأنه لا يعرف شيئاً . فضلاً عن أنه يكاد لا يعرف الرجل ، رآه مرتين أو ثلاث ، فقط ، حسبه ، ني النهاية ، كظريف فاشل ! غضب فريدريك فصرخ :

ـ أبداً ! إنه رجل كثير الاستقامة !

ـ مع ذلك ، سيّدي ، قال متملّك ، لا نكون شرفاء حين نتآمر .

غالبيّة الرجال الذين هنا ، خدموا ، في الأقلّ ، أربع حكومات ، وكانوا ليبيعوا فرنسا أو الجنس البشريّ لضمان

ثروتهم . لتجنب ضيق ، أو ارتباك ، أو حتى عن مجرد دناءة ، في عبادتهم الغريزية للقوة . جميعهم يقولون ان الجرائم السياسيّة ذنب لا يغتفر ، يجب ، فقط ، مسامحة الجرائم المتأتية عن حاجة ! وما نسوا أن يستشهدوا بالمثل الخالد عن رب العائلة الذي سرق قطعة الخبز الخالدة من عند الخبّاز الخالد .

محافظ ، حتى ، هتف .

ـ أنا ، يا سيّدي ، لو عرفت أنّ أخي يتآمر ، لوشيت به !

ادّعى فريدريك بحقّ المقاومة ، وإذ تذكّر بضع عبارات كان ديلورييه قالها له ، استشهد بديلوم ، بلاكستون ، مشروع قانون الحقوق في انكلترا ، والمادة ٢ من دستور ٩١ . وبحسب هذا القانون عينه أعلن سقوط نابوليون ، جرى اقراره عام ١٨٣٠ وجُعل في رأس الميثاق .

ـ من جهة أخرى ، فالملك حين ينقض العهد ، تفرض العدالة قَلْبَهُ .

ـ لكن هذا شيء فظيع ! علّقت زوجة أحد كبار المديرين .

صمتت الأخريات كلّهن ، بغموض روّعن ، كما لو أنهنّ سمعن طلقات الرصاص . كانت السيّدة دمبروز تتمرجح في كرسيّها ، وتستمع إليه يتحدّث وهي باسمة .

اهتم صناعيّ ، وهو فحام قديم ، في أن يبرهن له أن آل أورليان عائلة طيّبة ، هناك تجاوزات ، ولا شك . . .

ـ إذن ، وبعد ؟

ـ يجب ألا نقولها ، سيّدي العزيز ! لو كنت تعرف أن كل صياح المعارضة يضرّ بالأعمال !
ـ لا تهمني الأعمال ! أجاب فريدريك .

يثيره تهرّؤ هؤلاء المسنّين ، وراح ، مدفوعاً بشجاعة تصيب ، أحياناً ، الأكثر خجلاً ، يهاجم رجال المال ، النوّاب ، الحكومة ، الملك ، يدافع عن العرب ، يذكر سخافات كثيرة . بعضهم حمّسه بسخرية : « هيّا ! أكمل ! » بينما توشوش آخرون : « يا للشيطان ! يا لها من إثارة ! » أخيراً رأى من المناسب الانسحاب ، وإذ هو ينسحب ، قال له السيّد دمبروز ، ملمّحاً إلى مركزه كسكرتير :

ـ لم ينته شيء بعد ! إنما أسرع !
وقالت السيّدة دمبروز :
ـ إلى اللقاء قريباً ، أليس كذلك ؟

حسب فريدريك وداعهما سخرية أخيرة . قرّر ألّا يعود أبداً إلى هذا البيت ، ألّا يخالط ، بعد ، كل هذه الجماعة . ظن أنه جرحهم ، غير عالمٍ أيّ أساس متين من اللامبالاة يمتلك العالم ! أسخطته ، بخاصةً ، تلك النسوة . ولا واحدة ساندته ولو بالنظر . أراد ألا يكون أذهلهنّ . وبالنسبة إلى السيدة دمبروز وجد فيها شيئاً دَنِفاً وقاسياً في الوقت عينه ، يمنعه من أن يحدّدها بصيغة . ألها عشيق ؟ أيّهم ؟ أهو الديبلوماسي أم سواه ؟ لربما

مارتينون ؟ مستحيل ! ومع ذلك ، شعر بنوع من الحسد منه ، وبنوع من العدوانية لا تفسير لها .

كان ديسّردييه ، ككل مساء جاء ، وينتظره . قلب فريدريك مثقل ، فرّغه ، وشكاواه ، بالرغم من كونها مبهمة وصعبة الفهم ، أحزنت الموظف الطيّب ، راح يشكو حتى من وحدته . عرض ديسّردييه ، وهو متأرجح نوعاً ، الذهاب عند ديلورييه .

وإذ سمع فريدريك إسم المحامي ، تملّكته رغبة قصوى برؤ يته ثانية . وحدته الفكرية عميقة كانت ، ورفقة ديسّردييه غير كافية . أجابه ليرتّب الأمور كما يرغب .

كان ديلورييه كذلك ، منذ خصامهما ، أحسّ نقصاً في حياته . فاستسلم بلا عناء إلى تمهيدات وديّة .

تعانقا ، ثم طفقا يتحدّثان عن أشياء غير مهمّة .

تحفّظ ديلورييه رقّق قلب فريدريك ، وليقوم تجاهه بنوع من التعويض ، باح له في الغد بخسارته الخمسة عشر ألف فرنك ، من دون أن يذكر له أنها كانت سلفاً معروفة المصير . بعد ذلك ، ما عاد المحامي شك في شيء . هذه المغامرة السيئة ، وهي تثبت آراءه المسبقة حول أرنو ، أوقعت حقده ، كلياً ، وما تحدّث من بعد ، أبداً ، عن الوعد القديم .

ظنه فريدريك ، وقد خانه صمته ، نسي ذلك . سأله ، بعد أيّام ، إذا ليس هناك من طريقة لاسترداد ماله .

بالامكان مناقشة الرهونات السابقة ، الشكوى على أرنو

كراهن ملك لبضعة أشخاص ، إقامة ملاحقات في المنزل ضدّ المرأة .

ـ لا ! لا ! ليس ضدّها ، هتف فريدريك ، ومستسلماً إلى أسئلة كاتب المحامي القديم ، أقرّ بالحقيقة .

كان ديلورييه مقتنعاً أنه لم يبح بها كاملة ، لطفاً ولا شك . هذا النقص في الثقة جرحه .

كانا ، مع ذلك ، متقاربين كما من زمان ، وحتى هما يجدان لذة في التلاقي إلى حدّ بات حضور ديسّردييه يزعجهما . وبحجة المواعيد ، توصّلا إلى التخلّص منه شيئاً فشيئاً . هنالك أناس لا ضرورة لهم بين الآخرين إلاّ أن يكونـوا وسطاء ، نتسلقهم كجسور ، ونذهب أبعد منهم .

لا يخفي فريدريك شيئاً عن صديقه القديم . أخبره بمسألة الفحم الحجري ، مع عرض السيد دمبروز . صار المحامي حالماً .

ـ غريب ! ينبغي لهذا المركز شخص متضلّع بالحقوق !

ـ إنما ستساعدني ، قال فريدريك .

ـ أجل . . . هه . . . يا للعنة ! بالطبع .

وصلته ، في الأسبوع نفسه ، رسالة من أمّه .

تشكو السيّدة مورو من كونها كانت تظنّ سوءاً بالسيّد روكّ ، وقد برّر سلوكه بشكل مرضٍ . ثم هي تذكر ثروته وإمكان الزواج ، في ما بعد ، من لويز .

ـ لن يكون هذا غباء ! قال ديلورييه .

عاد فريدريك بعيداً إلى الوراء ، فالسيّد روك كان غشاشاً قديماً . هذا لن يضير بشيء ، حسب المحامي .

حصل ، في آخر تموز ، هبوط لا تفسير له في أسعار أسهم « الشمال » . ما كان فريدريك باع أسهمه ، فخسر ، دفعة واحدة ، ستين ألف فرنك . وجد عائداته انخفضت بشكل ملحوظ . فكان عليه إما حصر نفقاته ، أو إيجاد وظيفة ، أو زواج سعيد .

حينها ، أخذ ديلورييه يحدّثه عن الآنسة روك . لا شيء يمنعه من الذهاب شخصياً لرؤية الأمور بنفسه . وبما أنه متعب ، فالريف والبيت الوالدي يريحانه . فذهب .

طبيعة شوارع نوجان ، وقد اجتازها في ضوء القمر ، أعادته إلى ذكريات قديمة ، وأحسّ بنوع من القلق كالعائدين بعد سفر طويل .

رأى عند أمه كل من كان يراهم قديماً ! السّادة جمبلان ، هيدراس وشامبريون ، عائلة لوبرين ، « الآنسات أوجيه » ، يزيد عليهم السيّد روك ، ومقابل السيّدة مورو ، أمام طاولة لعب ، الآنسة لويز . هي ، الآن ، امرأة . نهضت مصدرة صرخة . كلهم تحرّكوا . وحدها ، بقيت جامدة ، واقفة ، وزادت شحوبها القناديل الفضيّة الأربعة الموضوعة على الطاولة . حين أكبّت ، مجدّداً ، على اللعب ، راحت يدها ترتجف . إنفعالها هذا ، أرضى فريدريك ، فوق أي حدّ ، وكان زهوه مريضاً ، قال في نفسه : « ستحبّينني أنتِ ! » وليثأر من خيباته هناك راح يتصرف

كباريسيّ ، كأسد ، يخبر عن المسارح ، يروي نكات ، كان قرأها في جرائد قليلة الأهمية ، بهر مواطنيه .

أفاضت السيّدة مورو ، في الغد ، بكلامها على خلال لويز ، ثم عدّدت الغابات ، المزارع التي ستملكها . فقد كانت ثروة السيّد روك محترمة .

لقد حصّلها في توظيف عند السيد دمبروز ، كان يقرض أشخاصاً يستطيعون تقديم رهونات جيّدة ، مما يسمح له بطلب إضافات أو عمولات . رأسماله مضمون ، نظراً لرقابة فعّالة . زد على ذلك أن السيد روك كان لا يتردد أمام مصادرة ، ثم يشتري ، ثانية ، بسعر متدنٍ الأملاك المرهونة . وهكذا يجد السيّد دمبروز أمواله تتدفّق ، فيحسب أن أعماله تسير سيراً حسناً .

لكن هذه المناورة التجارية غير الشرعيّة ، كانت لتعرّضه للخطر تجاه مديره . فما يرفض له شيئاً . وبناء على إلحاحه استقبل فريدريك استقبالاً حسناً .

كان السيّد روك ، في الواقع ، يخفي طموحاً ما . يريد ابنته أن تصير كونتيسة ، وليتوصل إلى هذا ، من دون أن يعرّض للخطر سعادة ابنته ، ما كان يعرف شاباً غير هذا .

بدعم السيّد دمبروز ، يكسبونه لقب جدّه ، فالسيدة مورو هي ابنة كونت من آل فوفان ، يضاف إلى هذا ، أنها نسيبة أعرق العائلات مثل آل لافرناد ، آل إتريني . وبالنسبة لآل مورو ، فإن نقشاً قوطيّاً قرب طواحين « فيلّنوف ـ لرشفيك » ، يتحدّث عن جاكوب مورو الذي أعاد بناءها في ١٥٩٦ ، ويشاهد قبر ابنه بيار

موررو ، أوّل معلّم فروسيّة للملك عهد لويس الرابع عشر ، في كنيسة مار نقولا الخاصة .

كثير من مثل هذه « الشرفيّات » تجذب السيّد روك ، ابن الخادم القديم . فإذا لم يحصل على تاج الكونتيّة ، يظل له عزاء آخر ، لأن فريدريك يمكنه أن يصير نائباً حين يصبح السيد دمبروز أمير إقطاع ، فيساعده في أعماله ، فيحصل على تموين وتنازلات . يعجبه الشاب شخصياً . أخيراً ، هو يريده صهراً له ، لأنه ، من زمان ، كان صار مغرماً بهذه الفكرة التي ما كانت تفعل إلّا أن تتعاظم في باله .

الآن هو يتردّد إلى الكنيسة ، وكان أغرى السيّدة موررو بذلك ، بخاصة على أمل اللقب . تحفّظت على كل حال قبل أن تجيبه نهائياً .

هكذا ، وبعد أيام ثمانية ، ومن دون أي وعد أو ارتباط ، صار فريدريك يُحسب زوج المستقبل للآنسة لويز ، وصار السيّد روك ، القليل التشكك ، يتركهما منفردين أحياناً كثيرة .

V

استحصل ديلورييه من فريدريك على نسخة قرار الاستبدال مع تفويض يمنحه سلطات تامة ؛ لكنه ما إن صعد طوابقه الخمسة ، وصار وحيداً وسط غرفته الحزينة ، في كرسيّه الجلدي ، حتى قزّزه مرأى الورقة التي عليها الطابع .

كان متعباً من هذه الأمور ، ومن المطاعم ذات الدرجة الدنيا ، من رحلاتٍ في عربات النقل العام ، من فقره ، من نشاطاته . استعاد أوراقه القديمة ، سواها إلى جانبه ، كانت البيانات التمهيديّه لشركة الفحم الحجري مع لائحة المناجم وتفصيل محتواها . ترك له فريدريك كل هذا ليعرف رأيه حول هذا الأمر .

طرأت له فكرة : الحضور عند السيّد دمبروز وطلب مركز السكرتير . وهذا المركز ، بالطبع ، لا يمكن الحصول عليه من دون شراء عدد من الأسهم . عرف تهوّر مشروعه وقال لنفسه :

« أوه ! كلا ! لن يكون هذا حسنا » .

عندئذ راح يبحث كيف التصرف لنغطية الخمسة عشر ألف فرنك . مبلغ كهذا ليس شيئاً بالنسبة لفريدريك ! إنما لو حصل عليه ، هو ، فيا للمؤثر ! وغضب كاتب المحامي القديم لأن للآخر ثروة وافرة .

« يستعملها بطريقة تدعو للرثاء . إنه أناني . إيه ! أهزأ تماماً بفرنكاته الخمسة عشر ألفاً ! » .

لماذا هو أقرضها ؟ لعيني السيّدة أرنو الجميلتين . هي عشيقته ! لا يشك دبلوريه في هذا . « هوذا أمر يسهّله المال ! » وتدفّقت فيه أفكار حاقدة .

ثم فكّر في شخصية فريدريك . هي ، دوماً ، فرضت عليه سحراً يكاد يكون أنثوياً ، وتوصّل إلى الاعجاب به لنجاح يعرف أنه هو غير قادر عليه .

مع هذا ، أليست الارادة هي العامل الأساسيّ للمشاريع ؟ ثم ، بما أننا ، بها ، نحقّق كلّ . . .

« آه ! يكون أمراً غريباً ! » .

ثم خجل لهذه الخيانة ، وبعد دقيقة فكّر :

« عجباً ! هل أنا خائف ؟ » .

انتهت السيّدة أرنو (لكثرة ما سمع أحاديث عنها) ، بأن صارت في خياله صورة عجيبة . إصرار هذا الحب يثيره كما مسألة زد على هذا أن سيّدة المجتمع (أو ما كان يراه هكذا) ، تبهر المحامي فشل رمز وموجز ألف لذة مجهولة . يا للمسكين ، كم

تشهّى الترف بشكله الأكثر إغراء .

« بعد كل شيء ، حين يغضب ، فلا بأس ! لقد أساء إليّ لأنزعج ! لا شيء يثبت لي أنها عشيقته ! لقد أنكر ذلك . إذن فأنا حرّ ! » .

لم تعد تفارقه لذة السعي . هذا أراده اختباراً لقواه ؛ ـ حتى أنه ، ذات صباح ، فجأة ، مسح حذاءه بنفسه ، اشترى قفازات بيضاً ، وأخذ في الطريق ، متصوّراً ذاته بدل فـريدريـك ، ومتصوراً ، تقريباً ، أنه يكاد يكون له ، بتطور ثقافي فرديّ حيث ، معاً ، الانتقام واللطف ، التقليد والحماسة .

أعلن نفسه « الدكتور ديلورييه » .

فوجئت السيّدة أرنو ، هي لم تطلب أيّ طبيب .

ـ آه ألف عذر ! دكتور في الحقوق . جئت بخصوص مصالح السيّد مورو .

بدا الاسم وقد أربكها .

« هذا أحسن ! فكّر كاتب المحامي القديم ، بما أنها رغبت به ، فهي ترغب بي ! » مشجعاً نفسه بفكرة إيجاد عشيق أسهل من إيجاد زوج .

كان سعد بلقائها ، مرة ، في القصر . وحتى فقد عيّن التاريخ . هكذا ذاكرة أدهشت السيّدة أرنو . تـابع بلهجـة متملّقة :

ـ كان عندك ، حينهـا . . . بعض ارتباكـات . . . في أعمالك !

لم تجب بشيء ، فالأمر ، إذاً ، حقيقي .

راح يتحدّث في موضوعات شتّى ، عن مسكنه ، عن المصنع ، وإذ لاحظ حلى بيضوية في أطراف المرآة ، قال :

ـ آه ! إنها ، ولا شك ، صور عائلية ؟

انتبه لرسم امرأة مسنّة ، هي أمّ السيّدة أرنو .

ـ تبدو شخصية ممتازة ، نموذجاً للجنوبي .

وعلى اعتراضها بأنها من شارتر ، قال :

ـ شارتر ! مدينة جميلة .

أثنى من كاتدرائيّتها ومجموعة بيوتها ، وإذ عاد إلى الرسم ، وجد فيه ملامح إلى السيّدة أرنو ، وامتدحها بطريقة غير مباشرة . ما صُدمت . تشجّع وقال انه ، من زمان ، يعرف أرنو .

ـ هو إنسان طيّب ! لكنّه يتورط ! فمثلاً ، لهذه الرهنيّة ، لا نتصوّر طيشاً . . .

ـ نعم ! أعرف . قالت هازة كتفيها .

هذا الازدراء العفويّ دفع ديلورييه إلى المتابعة .

ـ قصته في الصلصال ، لـربما تجهلينهـا أنتِ ، انتهت عاطلة ، وحتى سُمعته . . .

تقطيب حواجب أوقفه .

ارتد ، حينها ، إلى العموميات ، رثى السيّدات اللواتي يبذر أزواجهن الثروة . . .

ـ لكنها له ، يا سيّدي ، أنا لا أملك شيئاً !

لا يهمّ ! لا ندري . . . إنسان مجرّب يمكنه الخدمة . قدّم

نفسه لذلك ، امتدح مزايا ذاته ، ونظر إليها ، جانبيّاً ، عبر نظاراته التي كانت تلمع .

أخذها حَذَر غامض ، ثم ، فجأة :

ـ لنر في الأمر ، أرجوك !

عَرَض الملفّ .

ـ هذا تفويض فريدريك . مع مستند مشابه بين يدي حاجب يكون تنبيهاً رسميّاً ، لا شيء أكثر بساطة : خلال الأربع والعشرين ساعة . . . بقيت هادئة الأعصاب ، أبدل هو مناورته ، مع ذلك ، لا أفهم أنا ، ما يدفعه لطلب هذا المبلغ ، لأنه لا يحتاج إليه ، أبداً !

ـ كيف ! بدا السيّد مورو طيّباً للغاية . . .

ـ أوه ! متفقان !

وشرع ديلورييه يمدحه ، ثم بدأ يذمّه بتروّ ناعتاً إيّاه بالنسيّ ، الأنانيّ ، البخيل .

ـ كنت أحسبه صديقك يا سيّد ؟

ـ هذا لا يمنعني من رؤية نقائصه . هكذا هو لا يحسن . . . كيف أقول ؟ اللياقة . . .

قلّبت السيّدة أرنو أوراق الدفتر الضخم . قاطعته ، ليشرح لها كلمة .

انحنى على كتفها ، قريباً منها إلى حد لامس معه خدّها . احمرّت ، أثار . هذا الاحمرار ديلورييه ، وبنهم قبّل يدها .

ـ ماذا تفعل سيّدي !

وتركته ، وهي واقفة إلى الجدار ، جامداً تحت عينيها السوداوين الكبيرتين الساخطتين .

- اسمعيني ! أحبّك !

ذهبت ضاحكة بقوة ، ضحكة عالية ، مثبّطة الهمّة ، فظيعة . أحسّ ديلورييه غضباً يكاد يخنقه . تملّك نفسه ، وبمظهر خاسر يطلب رأفة :

- آه ! إنك لمخطئة ! لا أتصرّف مثله ، أنا . . .

- عمّن أنت تتكلّم ؟

- عن فريدريك !

- إيه ! قلت لك ، لا أبالي به السيّد مورو !

- آه ! عذراً ! . . عذراً !

ثم ، وبصوت نفّاذ ، متمهّل العبارات :

- كنت أظنّ أنك تهتمّين بـه بشكل كـافٍ لتعلمي ، بسرور . . .

لفّها الشحوب جميعها . أضاف كاتب المحامي القديم :

- سيتزوّج !

- هو !

- خلال شهر على الأكثر ، من الآنسة روكّ ، ابنة مدير أعمال السيّد دمبروز . لقد ذهب إلى نوجان بسبب هذا الأمر .

وكما أمام صدمة قويّة ، رفعت يدها إلى قلبها ، لكنها ، فجأة ، قرعت الجرس . ما انتظر ديلورييه ليخرجوه . حين استدارت كان اختفى .

غصّت السيّدة أرنو . اقتربت من النافذة تتنشّق هواء .

إلى الجهة الأخرى من الشارع ، على الرصيف ، رزّام بقميص واسعة يسمّر صندوقاً . عربات تمرّ . أغلقت النافذة وعادت تجلس . وبما أن البيوت العالية المجاورة كانت تحجب الشمس ، كان نور بارد ينزل على البيت . ولداها في الخارج ولا شيء يتحرّك حولها . ذلك كان كهجر مرعب .

« سيتزوّج ! أمعقول ! »

وأخذتها رجفة عصبيّة .

« لِمَ هذه الرجفة ؟ أأحبّه ؟ » .

وفجأة :

« ولكن بلى ، أحبّه ! . . . أحبّه ! » .

بدا لها أنها تغرق في شيء ما عميق ، لا ينتهي . دقت الساعة الثالثة . استمعت إلى تموّجات صوت الساعة تموت . وعلى طرف كرسيها بقيت ، بؤبؤا عينيها ثابتان ، ومبتسمة دائماً .

بعد الظهر نفسه ، وفي الوقت عينه ، كان فريدريك يتنزّه والآنسة لويز في البستان الذي كان السيّد روك يملكه في آخر الجزيرة .من بعيد،تراقبهما كاترين الهرمة ، جنباً إلى جنب يمشيان ، وفريدريك يقول :

- أتذكرين حين كنت أصطحبك إلى الريف ؟

- كم كنت طيّباً معي ! أجابت كنت تساعدني في صنع حلويات بالرمل ، في ملء مرشتي ، في تمرجحي بالأرجوحة !

- ماذا حلّ بكل ألعابك التي كانت تحمل أسماء ملكات

ومركيزات ؟

ـ قسماً ، لا أعرف عنها شيئاً !

ـ وكُلَيْبُك موريكو ؟

ـ غرق العزيز المسكين !

ـ ودون كيشوت ، الذي كنا معاً نلوّن رسومه ؟

ـ ما زلت أحتفظ به !

ذكّرها بيوم قربانتها الأولى ، وكم كانت جميلة في أثناء الصلاة ، بطرحتها البيضاء ، وشمعتها العسليّة الكبيرة ، أثناء مرورهن حول المذبح ، والجرس يقرع .

ما كانت هذه الذكريات مهمّة للآنسة روكّ ، فما حارت جواباً .

وبعد لحظة :

ـ أيها القاسي ! يا من قطع عني أخباره !

ادّعى فريدريك أن ذلك عائد لكثرة أعماله .

ـ ماذا تفعل ؟

حيّره السؤال ، ثم قال إنه يدرس السياسة .

ـ آه !

ومن دون أن تسأله أكثر :

ـ هذا يشغلك ، أمّا أنا ! . . .

وطفقت تخبره عن جفاف عالمها ، إذ لا أحد تراه ، لا لذّة ، ولو ضئيلة ، لا تسلية بسيطة ! كانت ترغب في ركوب الخيل .

ـ يدّعي الكاهن أن هذا غير لائق بفتاة ، من زمان كانوا يتركونني أفعل ما يحلو لي ؛ الآن ، لا شيء ! ما أسخف التقاليد !

ـ مع ذلك ، والدك يحبّك !

ـ نعم ؛ ولكن . . .

زفرت نهدة كانت تعني : « هذا لا يكفي لسعادتي » .

بعدها ، خيّم صمت . كانا لا يسمعان سوى صوت الرمل تحت أقدامهما ، مع صوت شلّال الماء ، فنهر السين ، فوق نوجان ، مشطور شعبتين . التي تدير الطواحين تصب في هذا المكان فيض موجهاً ، لتلحق في أسفل مجرى النهر الطبيعي ، وأنت عائد من الجسور ، تلاحظ على الجانب الآخر إلى اليمين منحدراً مُعْشِباً يشرف عليه بيت أبيض . إلى الشمال ، في الحقل ، يمتد شجر حور ، والأفق المقابل ، يحدّه خطّ النهر المقوّس ؛ كان مصقولاً كمرآة ، تتزحلق على المياه الهادئة حشرات كبيرة . باقات قصب وأسل تحيط به بطريقة متساوية ، كل أنواع النباتات التي هنا تتفتّح أزرار ذهب ، ترخي عثاكيل صفراء ، تمدّ عرانيس زهور قطيفة ، ترسل ، كيفما اتفق ، صواريخ خضراء . في جُوَين صغير من النهر ، ينتشر نيلوفر كثير ، وصفّ صفصافات عجوزة يخفي فخاخ ذئب ، إلى هذه الجهة من الجزيرة ، هي كل سور الحديقة .

من جانب آخر ، في الداخل ، تضم جدران أربعة ذات غطاء أردوازيّ مبقلة ، حيث تؤلّف مربّعات الأرض ، الحديثة الحراثة ، لطخات بنيّة . تلمع أزهار الشمّام على طبقتها الضيّقة ،

وتتابع الأرضي الشوكي واللوبياء والسبانخ ، والجزر والبندورة حتى مسكبة هليون تبدو ، كانت ، كغابة ريش صغيرة .

كل هذه الحديقة كانت ، أيام حكومة المديرين ، ما يمكن تسميته تبذيراً . ومنذ ذلك الوقت كبرت الأشجار كثيراً . يربك ياسمين البر الشّرم البتولي ، تغطّي الممرات الطحالب ، ينمو ، غزيراً ، أينما كان العلّيق . قطع تمثال فتّتت جصّها تحت الأعشاب . كنت تحسب نفسك في بقايا ما لعمل بسلك حديدي . ما كان بقي من الرواق سوى غرفتين من الطابق الأرضيّ مع قصاصات ورق أزرق . ويمتد كرم معترش ، أمام الواجهة ، على الطريقة الايطاليّة ، حيث يحمل تسييج من عصي ، عريشة ، على ركائز من قرميد .

جاء إلى هناك . وراح فريدريك ، متحدثاً إلى لويز ، يتأمّل ظل الأوراق على وجهها ، بما أن الضوء ينسكب ، كان ، من ثقوب الخضر غير المتساوية .

في كعيكة شعرها الأشقر دبّوس ينتهي بكرة زجاج تقليد الزمرّد ، وبرغم حدادها ، كانت ترتدي (نصوّر كم ذوقها ساذج) ، خفّ قشّ مزركشاً بساتان زهري ، طرفة غريبة ، اشترتها ، ولا شك ، من معرضٍ ما .

لاحظه وبسخرية امتدحه . قالت له :

ـ لا تسخر مني !

ثمّ ، بعدما تأملته كلّه . من قبّعته التي من لبد بني ، حتى جواربه الحريرية ، قالت :

ـ كم أنت متأنّق !

بعدها ، توسّلت إليه أن يعينّ لها مؤلّفات تقرأها . عدّد لها الكثير . فقالت :

ـ أوه ! كم أنت عالم !

كانت ، وهي صغيرة ، قد انجرفت في حبّ صبياني ، يتميّز ، في وقت معاً ، بقداسة الدين وعنف الحاجة . كان رفيقها ، أخاها ، أستاذها ، علّل نفسها ، جعل قلبها يدقّ ، ولا شعورياً ، سكب ، حتى أعماق نفسها ، نشوة مستترة مستمرّة . ثم هجرها في قمة نوبة مأساويّة ، وإذ ماتت أمّها ، امتزج اليأسان . غيابه عنها جعله مثالياً في تذكّرها له ، بهالة عاد فاستسلمت ، ببساطة ، لسعادة أن تراه .

فريدريك ، للمرة الأولى في حياته ، شعر أنه محبوب ، وهذا السرور الجديد ، الذي ما كان يجاوز نظام الأحاسيس المستحبّة ، راح يسبّب له انتفاخاً داخلياً ، بحيث انه أبعد يديه وهو يردّ رأسه إلى الوراء .

كانت غيمة كبيرة تمرّ في السّماء .

ـ هي تذهب ناحية باريس ، قالت لويز ، تريد أن تتبعها ، أليس كذلك ؟

ـ أنا ؟ لماذا ؟

ـ مَن يدري ؟

وأضافت وهي تتفحّصه بنظرة حادة :

ـ قد يكون لك هناك . . . (راحت تبحث عن الكلمة)

تعلق ما .

ـ ايه ! لا تعلّق لي !

ـ أكيد ؟

ـ نعم ، آنستي ، أكيد !

وحدث ، خلال أقلّ من سنة ، تحـوّل غريب أدهش فريدريك . أضاف بعد هنيهة صمت :

ـ يجدر بنا التخاطب بلهجة وديـة ، كما من زمـان ، تريدين ؟

ـ لا .

ـ لماذا ؟

ـ لأن !

أصرّ . أجابت خافضة الرأس :

ـ لا أجرؤ !

كانا وصلا إلى آخر البستان ، على ساحل ليفون الرملي . راح فريدريك يلاعب ، بقدمه ، حصاة . أمرته بالجلوس ، فأطاع . ثم ، قال ، وهو ينظر إلى شلال المياه :

ـ إنه مثل نياغارا !

طفق يتحدّث عن الأماكن البعيدة والرحلات الطويلة . دغدغتها فكرة القيام برحلة من مثل هذه . لن تخشى شيئاً ، لا عواصف لا أسوداً .

راحا يذرّيان حفنات من الرمل ، وهما يجلس واحدهما قرب الآخر ، ويتحدثان . ويأتيهما الهواء الحارّ الذي كان يصل من

السهول ، دفعات من روائح الخزامى ، مع عطر الزفت النافذ من سفينة خلف هويس النهر . كانت الشمس تصفق الشلال ، كتلات الحائط المخضوضرة ، حيث الماء يسيل ، تبدو مثل ستر فضي شفّاف منبسط دوماً . خطّ زبد طويل يبرز عند قدمه بطريقة منتظمة . يحدث هذا ، كان ، غلياناً ، أعاصير ، وألف مجرى متواجه ، كلها تنتهي بالذوبان في سحابة صافية .

همست لويز بأنها تحسد وجود السمك .

ـ يجب أن يكون لذيذاً جداً التقلّب داخلها ، حسب المزاج ، والشعور بأنك مداعب من كل مكان .

وارتجفت بحركات مداعبة شهوانية .

لكنّ صوتاً هتف :

ـ أين أنتِ ؟

ـ تناديك خادمتك ، قال فريدريك .

ـ حسناً ! حسناً !

ما أزعجت نفسها لويز بشيء .

ـ سوف تغضب ، قال .

ـ لا يهمني هذا ! ومع ذلك . . فالآنسة روك طلبت إليه إبقاء الأمر سراً .

مع هذا ، فقد نهضت ، ثم شكت ألم رأسها . وبما أنهما يمران كانا أمام مرآب واسع يضمّ حزمة قضبان :

ـ لو نقف تحت !

تظاهر بعدم الفهم ، وحتى فهو عذّبها بسبب لكنتها .

انفرجت قليلاً قليلاً زوايا فمها ، تعضّ شفتيها ، تخلّصت منه لتقاطع حردة .

لحق بها فريدريك ، أقسم أنه لم يكن يريد الاساءة إليها وانه يحبها كثيراً .

ـ أصحيح هذا ؟ هتفت ، وهي تنظر إليه ببسمة تضيء وجهها المزروع ببقع نمش .

ما قاوم شجاعة عاطفته ، ولا نداوة شبابه ، وأجاب :

ـ لماذا أكذب عليك ؟ . . أنت تشكين ، أليس كذلك ؟

قال هذا ومرّر ذراعه اليسرى وطوّق خصرها .

خرج من حلقها صوت عذب كما هديل ، انقلب رأسها إلى الخلف ، خارت فأمسكها . والوساوس حول أمانتها غير مجدية صارت ، أخذه خوف أمام هذه العذراء المتألمة . أعانها ، من بعد ، لتقوم ببضع خطوات ، برفق . توقّفت ملاطفاته الكلامية ، وإذ بات لا يريد إلا أشياء بلا معنى ، راح يحدّثها عن أشخاص من المجتمع النوجاني .

فجأة أبعدته ، وبصوت محزن :

ـ لن تجرؤ فتأخذني !

بقي جامداً كثير الانبهار . انفجرت شهقات ، ومغرقة رأسها في صدره :

ـ أيمكنني العيش بدونك !؟

حاول تهدئتها . رفعت له يديه وضعتهما على كتفيها لتراه وجهاً لوجه ، وراشقة بؤبؤيها صوب عينيه الخضراوين ، بنداوة

شبه مفترسة :

ـ أتريد أن تكون زوجاً لي ؟

ـ إنما . . . ، تمتم فريدريك باحثاً عن إجابة ما . بدون شكّ . . . لا أطلب أفضل من هذا .

في هذه اللحظة ، ظهرت كاسكيت السيد روك خلف ليلكة .

اصطحب « صديقه الشاب » ليومين يتجوّل قليلاً في الأنحاء القريبة ، في أملاكه ، وحين عاد فريدريك ، وجد ، عند أمّه ، رسائل ثلاثاً .

كانت الأولى من السيّد دمبروز يدعوه فيها للعشاء الثلاثاء السابق . بخصوص أيّ أمر هذه الالتفاتة ؟

الثانية من روزانيت . تشكره على مجازفته بحياته لأجلها ، ما فهم ، فريدريك ، أول الأمر ما تعني . وبعد كثير مراوغة ، تلتمس منه ، مثيرة صداقته ، معتمدة على لطافته ، على الركبتين كما تقول ، بسبب الضرورة الملحّة ، وكما يُطْلَب الخبز ، معونة بسيطة من خمسمائة فرنك . قرّر فوراً مدّها بها .

ومن ديلورييه الرسالة الثالثة ، وتتحدّث عن الوكالة . وهي طويلة مبهمة . ما كان اتخذ المحامي بعد أيّة خطوة . يطلب إليه ألّا يزعج نفسه : « عودتك لن تفيدك في شيء ! » مشدّداً على هذا بإلحاح غريب .

وقع فريدريك في أنواع من الظنون ، ورغب العودة إلى هناك ، أثاره هذا الطموح للسيطرة على سلوكه .

من جهة أخرى ، بدأ يأخذه الحنين إلى البولفار ، ثم إن أمّه تحته، والسيّد روك يحيطه بكبيرِ عناية ، والآنسة لويز تحبّه كثيراً ، فما كان يستطيع البقاء طويلاً من دون إعلان زواجه . كان في حاجة إلى التفكير ، في الابتعاد سيرى الأمور أوضح . واخترع قصة كي يبرر رحلته . وذهب ، واعداً الجميع ومصدّقاً نفسه بأنه سيعود قريباً .

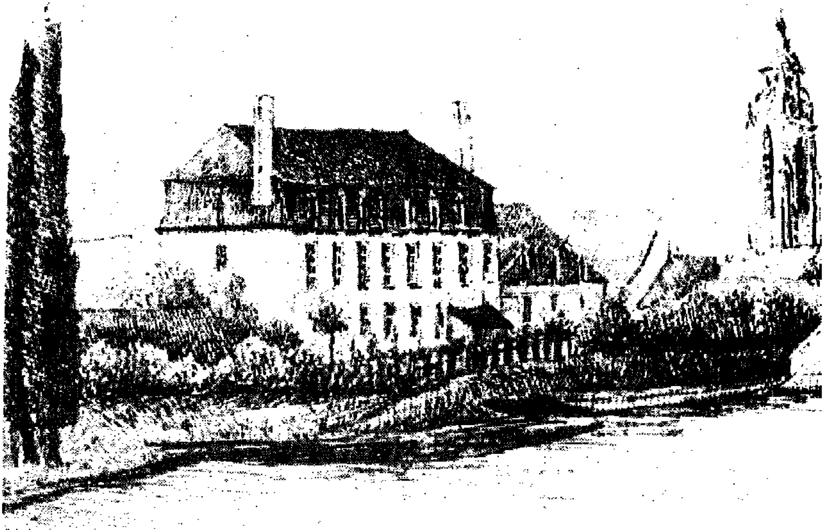

بيت التركية : ذكريات الولدنة . . . والتلبك الأول

VI

رجوعه إلى باريس لم يُحدث فيه أي سرور ، كان المساء في أواخر آب ، البولفار شبه فارغ ، يتتابع المارة بوجوه عابسة ، هنا وهناك مرجل زفت يدخّن ، بيوت كثيرة مغلقة شبابيكها كلياً . وصل إلى مقره . الغبار يغطّي النُسُط . شعر باستسلام غريب ، وهو يتعشى وحيداً ، فراح يفكّر في الآنسة روك .

ما عادت فكرة الزواج تبدو له غير مألوفة . سيسافران ، يذهبان إلى إيطاليا ، إلى الشرق ! وسيكتشفها واقفةً على أكمة ، متأملاً منظراً ، أو مستندة إلى ذراعه في صالة عرض فلورنسية ، متوقّفة أمام اللوحات . يا للفرح يغمره وهو يرى هذا الكائن الصغير الحبيب يستغرق في روائع الفن والطبيعة ! ستكون رفيقة لطيفة بعد خروجها من وسطها بقليل . زد على ذلك أن ثروة السيّد روكْ تغريه . مع ذلك ، قرار مثل هذا ، هو ينفر منه كما ضعف ، أو خزي .

لكنّه كان قرّر (مهما عليه أن يفعل) أن يغيّر نمط حياته ، أي أن لا يسلم قلبه للآلام غير المثمرة ، وها هو ، حتى ، يتأرجح

في إتمام المهمة التي أوكلتها إليه لويز . طلبت إليه أن يشتري لها ، من عند جاك أرنو ، تمثالين كبيرين لعبدَين مثل التماثيل الموجودة في مديرية شرطة « تروا » . تعرف هي طريقة أرنو ، لا تريد من عند سواه . خشي فريدريك ان عاد « عندهم » ، من أن يقع ، مرة بعد ، في حبّه القديم .

شغلته هذه التأمّلات السهرة كلها ؛ وكان يستعدّ للنوم حين دخلت امرأة .

ـ هذا أنا ، قالت الآنسة فاتناز وهي تضحك . جئت من قبل روزانيت .

ـ إذن ، تصالحتما ؟

ـ نعم ! نعرفني لست خبيثة . فوق ذلك ، فالمسكينة . . . يطول الحديث لو حكيت لك .

باختصار ، فـ « المارشالة » تريد أن تراه ، انتظرت رسالة ، بعدما مَشْورت رسالتها من باريس إلى نوجان ، ما كانت الآنسة فاتناز تعرف مضمونها . فاستخبر فريدريك عن « المارشالة » .

هي ، الآن ، مع رجل كثير الغنى ، روسي ، إنه الأمير تزرنوكوف ، كان رآها في حفلات سباق الخيل الصيف الماضي .

ـ عندها ثلاث مركبات ، بيت في الريف ، خليّة مجون للايطاليين ، وأشياء أخرى كثيرة . هكذا يا عزيزي .

وهي ، الفاتناز ، كأنها استفادت من تبدّل الثروة هذه، فبدت أكثر مرحاً ، وهي سعيدة . خلعت قفّازاتها وتفحّصت ، في الغرفة ، الأثاث والتحف . تحدّدها بسعرها الحقيقي ، كتاجر

السقط . أوشك أن يسألها في مسألة بيعها بأفضل ثمن ، وأثنت على ذوقه الماهر :

ـ آه ! هذا لطيف ، ممتاز للغاية ! ليس إلّاك لهذه المسائل .

ثم ، إذ لاحظت باباً بجانب المضجع :

ـ من هنا تخرج النساء ، أليس كذلك ؟

وأمسكت ذقنه ، وديا . ارتجف لملامسة يديها الطويلتين ، الضعيفتين والجميلتين معاً . كان حول معصميها تخريم دانتيلا ، وعلى صدار ثوبها الأخضر زركشات قيطانيّة كهوصار* . قبّعتها التي من تول أسود ، وذات أطراف نازلة . تحتها ، عيناها تلمعان ، تفوح من شعرها روائح عطر البتشولي ، أبرز فكّها مصباح الزيت الموضوع على اسكملة ، إذ هو يضيئها من أسفل كصف أنوار في المسرح ، وفجأة ، أحسّ فريدريك ، أمام هذه المرأة البشعة التي كان في قامتها تموجات نمر ، برغبة عظيمة ، رغبة شهوة حسيّة حيوانيّة .

قالت له بصوت عذب ، ساحبة من حافظة نقودها بطاقات ثلاثاً :

ـ ستشتري مني هذه !

هي لمقاعد ثلاثة لمسرحيّة ريعها لدلمار .

ـ كيف ! هو ؟

ـ طبعاً !

---

* جندي من الخيّالة .

وبدون أن توضح أكثر ، أضافت الآنسة ڤاتناز أنها تعبده أكثر من أي وقت . وإذا ما صدّقها ، فالكوميديّ يحسب ، نهائياً ، بين « أقطاب العصر » . وهو ، فريدريك ، ليس مطلق شخصية ، لكنه عبقرية فرنسا ، يمثل الشعب ! إنه صاحب « روح إنسانويّة ، يفهم قدسيّة الفن ! » وليتحرّر من هذه المدائح ، دفع لها فريدريك ثمن البطاقات الثلاث .

ـ لا يجدي التحدث بهذا هناك ! ـ كم الوقت متأخر ، يا إلهي ! يجب أن أغادرك . آه ! كدت أنسى العنوان : شارع غرانج ـ باتلير ١٤٢ .

وعلى العتبة :

ـ وداعاً ، أيها الرجل المحبوب !

« محبوب ممّن ؟ تساءل فريدريك . يا للانسانة الغريبة ! » .

وتذكّر أن ديسّردييه كان قال له ، يوماً ، بشأنها : « أوه ! إنها لا تساوي شيئاً ! » كأنّه يلمّح ، كان ، إلى أمور غير ذات نبل .

في الغد ، ذهب عند « المارشالة » . كانت تسكن بيتاً جديداً ، ستاراته تتقدّم إلى الشارع . على كل قرص درج مرآة إلى الحائط ، حوض زهور بسيط أمام النوافذ ، وعلى امتداد الأدراج بساط كتّاني . وحين تصل من الخارج ، فإن طراوة الدرج تريحك .

جاء خادم فتح الباب . يرتدي سترة حمراء . على المقعد ،

في غرفة الانتظار ، امرأة ورجلان ، هم ، ولا شكّ ، موردون ينتظرون كما في رواق وزير . إلى الشمال ، أنت ترى ، من باب غرفة الطعام المشقوق ، قناني فارغة على المقاصف ، فوطا على الكراسي ، وبشكل مواز يمتدّ رواق ، حيث عصيّ بلون ذهبيّ تسند تعريشة ورود . عند الأسفل ، في الساحة ، صبيّان عاريا الذراعين يحفّان عربة لاندو . صوتهما يصل إلى أعلى مع الضجّة المتناوبة لمحسّة يخبطانها على حجر .

عاد الخادم « ستستقبل السيّدة السيّد » ! وأدخله غرفة انتظار ثانية ، ثم صالوناً كبيراً ممدوداً بسندس مزخرف أصفر ، وجدائل زخرفية في الزوايا تلتقي في السقف وتبدو تكملها غضبّات ثريّا بشكل مَرَس . هم ، ولا شك ، أولموا ليلة أمس . وقد بقي على المناضد المزخرفة رماد سيجار .

دخل أخيراً نوعاً من صالون نسائي تضيئه بارتباك زجاجيّات ملوّنة . تزخرف أعلى الأبواب نفليّات من خشب ، خلف حاجز مفرّع ، ثلاث فرش أرجوانية تؤلف أريكة ، ينسحب فوقها نربيش أركيلة بلاتينية . بدل المرآة ، المدفأة لها خزانة رفوف هرميّة ، مظهره على درجاتها مجموعة طُرف : ساعات قديمة من فضة ، مشابك من أحجار كريمة ، أزرار من جواهر ، خزفيّات ، تماثيل ، عذراء بيزنطية صغيرة بغطاء من قرمز ، وكل هذا يمتزج بشفق مذهّب ، مع لون السجادة المائلة إلى الزرقة ، وانعكاس لؤلؤ المقاعد ، وطابع الجدران المتوحّش ، الجدران المغطاة بجلد كستنائي . على قويعدات صغيرة في الزوايا ، آنية

برونزية فيها باقات أزهار تثقل الجوّ .

ظهرت روزانيت مرتدية سترة وردية مع بنطلون كشمير أبيض ، وعقد قروش ، وطاقيّة حمراء يحيطها غصن ياسمين .

بدا فريدريك وقد فوجىء ، ثم قال إنه يحمل « الأمر المطلوب » ، وهو يقدّم لها ورقة النقد .

نظرت إليه مذهولة ، وبما أن الورقة بقيت في يده ولا يعرف أين يضعها ، قال :

ـ خذيها !

تناولتها ، وبعدما رمتها على الأريكة :

ـ أنت لطيف جداً .

كان المال لتسديد ثمن أرض في بيلّفو ، تدفعه أقساطاً سنوية . جُرح فريدريك لكونها بدت بلا كلفة . مع ذلكَ ، فهذا أفضل ! هذا يثأر له من الماضي .

ـ إجلس ! قالت . هنا ، أقرب . وبنبرة رصينة : أولاً ، عليّ أن أشكرك ، عزيزي ، لكونك جازفت بحياتك .

ـ أوه ! ليس هذا مهمّاً !

ـ كيف ! لكنّه أمر جميل جداً !

وأظهرت له « المارشالة » امتناناً محرجاً . ذلك أنها كانت ، دون ريب ، تفكّر أنه قاتل ، فقط ، لأجل أرنو .

« لربما هي تسخر مني » ، فكّر فريدريك .

ما بقي عليه شيء يفعله ، نهض ليذهب متذرعاً بموعد .

ـ إيه لا ! إبقَ !

عاد فجلس وامتدحها على ثيابها .

أجابته وهي تتظاهر بالتعب والسأم :

ـ إنّه الأمير ، يجبّني هكذا ! ويجب التدخين بمثل هذه الآلات ! أضافت روزانيت وهي تدل على النارجيلة . لو نذوقها ؟ تريد ؟

جيء بنار ، وإذ راح التنباك يشتعل بصعوبة ، صارت تخبط الأرض بقدمها لنفاد صبرها . ثم أخذها خدر ، وبقيت جامدة على الأريكة ، تكية تحت إبطها ، جسدها ملويّ قليلاً ، ركبة مثنيّة ، الأخرى مستقيمة . الحية الطويلة المن جلد أحمر ، الكانت تشكّل حلقات على الأرض ، التفّت على ذراعها . وضعت لها سنها المن عنبر على شفتيها وراحت تنظر فريدريك ، غامزة العينين عبر الدخان الذي كانت نفثاته تلفّها . تنفّس صدرها يجعل المياه تقرقر ، وبين وقت وآخر تتمتم :

ـ هذا المسكين اللطيف ! هذا المسكين العزيز !

حاول أن يجد موضوعاً لمحادثة مستحبّة ، جاءته فكرة القانناز .

قال إنها بدت له شديدة لأناقة .

ـ قسماً ! قالت « المارشالة » . سعيدة هي هذه لكوني لها ! ـ من دون أن تضيف كلمة ، لفرط ما في أحاديثهما من تحديد .

كان كلّ منهما يحسّ ضغطاً ، عائقاً . في الواقع ، إن المبارزة التي كانت روزانيت تحسب نفسها سبباً لها ، أطرت كبرياءها . ثم

هي تعجّبت كثيراً كيف أنه لم يتراكض ليفتخر بعمله ، ولتجبره على الرجوع ، اخترعت هذه الحاجة إلى الخمسمئة فرنك . كيف يحدث أن فريدريك لا يطلب ، في العودة ، شيئاً من حب ! إنه التهذيب ما يبهرها ، وفي فورة اعتراف قالت له :

ـ أتريد المجيء معنا إلى حمّامات البحر ؟

ـ من « نحن » ؟

ـ أنا وعصفوري ، أقدمك على أنك قريبي ، كما في الهزليات القديمة .

ـ ألف شكر !

ـ إذن تأخذ شقة قرب شقتنا .

أذلّته فكرة الاختباء من رجل غنيّ .

ـ لا ! مستحيل .

ـ كما تريد !

وإذ أطلّت دمعة في عيني روزانيت ، استدارت . لحظها فريدريك ، وليسجّل اهتمامه بها ، قال انه سعيد لرؤيتها ، أخيراً ، في وضع ممتاز .

هزّت كتفيها . ما يحزنها إذن ؟ هل ، صدفة ، أنهم لا يحبّونها ؟

ـ أوه ! أنا ، يحبّونني دائماً !

أضافت :

ـ يبقى أن نعرف بأية طريقة !

واشتكت « المارشالة » « الاختناق من الحرارة » ، فخلعت

سترتها ، وبدون أيّ لباس آخر حول حَقوَيها سوى قميصها الحريرية ، أحنت رأسها على كتفه ، بهيئة أمة ملأى إثارات .

إن أي رجل ، أنانيّة أقلّ تفكيراً ، ما كان ليظنّ أن الفيكونت ، أو السيّد كومينغ ، أو أيّ آخر ، يمكن أن يطرأ . لكنّ فريدريك غالباً ما كان يُخْدَع بمثل هذه النظرات ليجازف في خزي جديد .

أرادت أن تعرف علاقاته ، تسلياته ، توصلت حتى إلى الاستعلام عن أعماله وعرضت أن تقرضه المال ، فيما لو كان بحاجة إليه . ما استطاع فريدريك أن يحتمل بعد . تناول قبّعته .

ـ هيّا ، يا عزيزتي ، الكثير من السرور هناك ، إلى اللقاء !

حملقت ، ثم بنبرة قاسية :

ـ إلى اللقاء !

عاد عبر الصالون الأصفر وعبر غرفة الانتظار الثانية . وجد على الطاولة ، بين إناء مليء بطاقات دعوة ومحبرة ، علبة حليّ فضيّة مرصّعة . إنها التي للسيّدة أرنو ! شعر ، حينها ، بحنان ، وفي الوقت نفسه كما بفضيحة الخيانة . رغب أن يرفع إليها يديه ، أن يفتحها . خاف أن يُرى ، فذهب .

كان فريدريك شجاعاً . لم يعد على الاطلاق عند أرنو .

أرسل خادمه يشتري العبدين ، بعدما زوّده بالتعليمات الضروريّة ؛ وأُرسلت الصندوقة ، في الليلة نفسها ، إلى نوجان في الغد ، وهو ذاهب عند ديلورييه ، في مفترق شارع فيفيانَ والبولفار ، بدت السيّدة أرنو أمامه ، وجهاً لوجه .

أولى حركاتهما كان التراجع . ثم علت الابتسامة نفسها شفتيهما واقتربا ، واحدهما من الآخر . لهنيهة ، ما تكلّم أحدهما .

تحيطها الشمس ؛ كل ما فيها بدا له غريب الاشراق : وجهها البيضوي الشكل ، حاجباها الطويلان ، شالها الذي من دانتيل أسود مقولباً شكل كتفيها ، ثوبها الحريري المتموّج اللون ، باقة البنفسج في زاوية معطفها . نفيض من عينيها الجميلتين عذوبة لامتناهية ، قال ، متلعثماً ، كيفما اتفق ، بأولى الكلمات التي جاءت على لسانه :

ـ كيف حال أرنو ؟

ـ أشكرك !

ـ وولداك ؟

ـ بصحة جيّدة !

ـ آه ! . . . آه ! . . . ـ يا له من طقس جميل نتمتّع به ، أليس كذلك ؟

ـ بلى . انه رائع !

ـ هل أنت تتمشين ؟

ـ نعم .

وبانحناءة رأس بطيئة :

ـ وداعاً !

لم تمد له يدها ، لم تقل كلمة مُحبّة ، حتى لم تدعه للمجيء إليها ، ما همّ ! ما كان ليفرّط بهذا اللقاء مقابل أجمل المغامرات ، وراح يستعيد حلاوته مكملاً طريقه .

فوجيء ديلورييه برؤيته ، كظم غيظه ، ـ فهو يحتفظ ، بعد ، بتصلّب رأي ، ببعض أمل من جهة السيّدة أرنو ، وكان كتب إلى فريدريك ليبقى هناك ، هكذا يكون أكثر حرية في تحرّكاته .

أخبر ، مع ذلك ، أنه حضر عندها ليعرف إذا العقد يوضح التجمّع : حينها يمكن ملاحقة المرأة ؛ « وأبدت سحنة غريبة حين أخبرتها بزواجك » .

ـ عجباً ! يا للاختراع !

ـ كان يقتضي ذلك للبرهان على أنك بحاجة إلى أموالك ! الانسان اللامبالي ما كان ليصاب بهذا النوع من الاغماء الذي أصابها .

ـ حقاً ؟ هتف فريدريك .

ـ آه ! أيها الشجاع ، تفضح نفسك ! كن صريحاً ، هيّا !

اعترى عاشق السيّدة أرنو خور رهيب .

ـ إنما لا ! . . . أؤكّد لك ! . . . أقسم بشرفي !

هذا الانكار المائع انتهى بديلورييه إلى الاقتناع . جامله سأله « تفاصيل » . ما باح فريدريك بشيء ، وحتى قاوم رغبة في اختراعها .

أما بالنسبة للرهنيّة ، فقال له أن لا يفعل شيئاً ، لينتظر . رآه ديلورييه على خطأ ، وكان عنيفاً في توبيخاته .

من جهة أخرى ، كان أكثر اكتئاباً ، عدوانيّة ونزقاً من أيّ وقت مضى . وإذا لم تتبدّل الثروة ، خلال سنة ، لسوف يبحر إلى

أميركا أو ينتحر . أخيراً ، كان يبدو غاضباً على كل شيء ، وبراديكالية مطلقة ، إلى حد لم يستطع فريدريك معه إلا أن يقول له :

ـ ها أنت مثل سينيكال .

للمناسبة ، أخبره ديلورييه أنه خرج من « سانت ـ بيلاجي » لأن التحقيقات لم تقم أدلّة مقنعة لوضعه في المحاكمة .

أراد ديسّردييه ، لمناسبة هذا الخلاص ، تقديم كأس من « البنش » ، وتوسّل إلى فريدريك ليحضر ، معلناً له أنه سيجد نفسه مع هيسّونّيه الذي كان ممتازاً بالنسبة إلى سينيكال .

في الواقع كان « الفلمبار » قد ضمّ إليه غرفة أعمال ، عمل في إعلاناتها : « متجر خمور . ـ إدارة إعلانات . ـ مكتب تحصيل واستعلامات ، الخ » . لكن البوهيمي كان يخاف أن تسيء مصلحته إلى اعتباره الأدبي ، فأتى بسينيكال يمسك الحسابات . بالرغم من أنها وظيفة ذات مردود زهيد ، فبدونها كان سينيكال قضى جوعاً . لم يرد فريدريك أن يحزن الموظف الطيّب ، فقبل دعوته .

قبل ثلاثة أيام ، لمّع ديسّردييه بنفسه بلاطات سقيفته الحمر ، اعتنى بمجلسه ، ونفض الغبار من مدفأته ، حيث كنت ترى ، تحت كرة ، ساعة مرمر بين هابطة * ونارجيلة . استعار من البوّاب شمعدانين لأن مشكاتيه وشمعدانه الصغير لا تكفي

* راسب كلسيّ متحجّر في سقوف المغاور .

للانارة . ويلمع جهاز تنويره هذا على الصوان ، تغطّيه فوط ثلاث ، ليحمل ، بلياقة أكثر ، معكروناً ، بسكويتاً ، فطيرة حلوى واثنتي عشرة قنينة جعة . وفي المقابل ، حيال حائط ممدود فوقه ورق أصفر ، مكتبة صغيرة من خشب الأكابو فيها « حكايات » لاشامبودي ، « أسرار باريس » ، « نابوليون » لنورفينس ـ ووسط المخدع ، في إطار من خشب البليسّاندر الفاخر ، يبتسم وجه بيرنجيه !

المدعوون (بالاضافة إلى ديلوربيه وسينيكال) كانوا صيدلياً حديث النجاح ، لكن لا مال له لتركيز نفسه ، وشاباً من « عائلته » ، وموزّع خمور ، ومهندساً معمارياً وموظّفاً في شركة تأمين . ما استطاع ريجمبار المجيء . أسفوا لغيابه . استقبلوا فريدريك بحفاوة بالغة ، جميعهم علموا ، بواسطة ديسّردييه ، خطبته عند السيد دمبروز . اكتفى سينيكال بأن مدّ إليه يده متظاهراً بالوقار .

بقي واقفاً قرب المدفأة . والآخرون جالسون والغليون في الشفاه ، يستمعون إليه يطنب في حديث عن الاقتراع العالمي ، الذي منه يجب أن يتأتّى انتصار الديموقراطية ، وتطبيق مبادىء الانجيل . وفضلاً عن ذلك ، فالوقت يقترب ، تتزايد ، بكثرة ، المآدب الاصلاحية في المقاطعات ، بيامون ، نابولي ، توسكانا . . .

ـ صحيح ، قال ديلوربيه مقاطعاً ، لا يمكن هذا أن يدوم مدة أطول !

وراح يرسم صورة للوضع .

لقد ضحّينا بهولندا للحصول من انكلترا على الاعتراف بلويس ـ فيليب ، وضاع هذا التحالف الانكليزي الشهير بسبب حفلات الزواج الاسبانيّة ! في سويسرا ، يدافع السيّد غيزو ، ماشياً في ركاب النمسوي ، عن معاهدات ١٨١٥ . تحضّر لنا بروسيا ، بوحدتها الجمركية ، اضطرابات . المسألة الشرقية لا تزال معلّقة .

ـ ليست هذه حجة لأن الغراندوق قسطنطين يرسل هدايا إلى السيّد أومال ليعتمد على روسيّا . وبالنسبة إلى الداخل ، ولا مرة كنت ترى مثل هذه العماوة والغباوة ! حتى أكثريتهم باتت غير متماسكة ! أخيراً ، في كل مكان ، حسب الكلمة المعروفة ، لا شيء ! لا شيء ! لا شيء !

وتابع المحامي ، واضعاً يديه على خصره : أمام مثل هذه الأعمال المخزية ، يظهرون مسرورين !

أحدثت هذه الاشارة إلى تصويت شهير تصفيقات . فتح ديسّردييه قنينة بيرة . طرطشت الرغوة الستائر ، فهو لم يتنبّه لهذا ، راح يحشو كل غليون ، يقطع فطيرة الحلوى ، يقدّم منها ، نزل مراراً ليرى هل وصل « البنش » ، وما لبثوا أن تحمّسوا ، إذ لكلّهم السخط ذاته ضدّ السلطة . عنيفة هي ، من دون أي سبب آخر إلّا بغض الظلم ، ومزجوا ، إلى الاعتراضات العادلة ، المآخذ الأكثر تفاهة .

تحسّر الصيدليّ على حالة أسطولنا البائسة . وسيط شركات

التأمين ، كان يتساهل مع خفيري المارشال سولت . وديلوربيه ومشى باليسوعيّين الذين جاؤوا ، جهاراً ، وتركّزوا في « ليل » . وراح سينيكال يلعن السيد كوزان لأنّ الانتقائيّة ، إذ هي تعلم فصل اليقين عن العقل ، تنشر الأنانية ، تهدم الوحدة ، وبما أنّ موزّع الخمور يفهم بهذه الأمور ، فهو قال عالياً انه غالباً ما ينسى هذه الفضائح .

ـ الحافلة الملكية التي على خط الشمال تكلّف ثمانين ألف فرنك ! فمن يدفع ؟

ـ نعم ، من يدفعها ؟ ردّد موظّف التجارة ، غاضباً كأنه من جيبه هو سيدفع .

نشأ عن ذلك اعتراضات ضدّ طمّاعي البورصة ورشوة الموظفين . كان عليهم الارتفاع أكثر ، حسب سينيكال واشتكى أول الأمر الأمراء ، مَن كانوا ينعشون عادات الوصاية .

ـ ألم ترَ أصدقاء دوق مونتبسيير ، يعودون من فنسان ، سكارى ويقلقون بأغانيهم عمّال ضاحية سانت أنطوان ؟

ـ بل ان البعض صرخ : « ليسقط اللصوص ! » أنا كنت هناك ، وكنت أحد الصارخين .

ـ أحسن ! حتى الشعب ، أخيراً ، بدأ يفهم منذ دعوى « تاست ـ كوبيير » .

ـ لكن هذه الدعوى نفسها آلمتني ، قال ديسّردييه ، لأن هذا يعيب جندياً قديماً !

أكمل سينيكال : أتعرفون أنـه اكتشف عند دوقـة دو

براسلان . . . ؟

لكن خبطة قدم فتحت الباب . دخل هيسّونيه .

ـ مرحباً أيها السادة ! قال وهو يجلس على السرير .

ما ألمح أحد إلى موضوعه الذي كان ندم عليه ، زد على ذلك أن « المارشالة » كانت وبّخته ، بسببه ، بعنف .

كان قد حضر ، لتوّه ، في « مسرح ديماس » ، « فارس البيت الأحمر » ، ووجدها مسرحيّة مسئمة .

رأي كهذا أدهش الديموقراطيّين ، ـ إذ ان هذه الدراما ، بميولها ، بالأحرى ببيئاتها ، تدغدغ أهواءهم . اعترضوا . وحسماً للموضوع سأل سينيكال إذا كانت تخدم الديمقراطيّة .

ـ نعم . . . ، لربما ؛ لكنها بأسلوب . . .

ـ وبعد ، هي جيّدة ، ما هو الأسلوب ؟ إنه الفكرة !

ومن دون أن يفسح لفريدريك بالكلام :

ـ كنت أقول ، في قضيّة براسلان . . . قاطعه هيسّونيه .

ـ آه ! هوذا ، بعد ، لازمة مبتذلة ! هي تضجرني !

ـ وسواك أيضاً ! أردف ديلورييه . فقد استقطبت خمس جرائد ! إسمع هذه الملاحظة .

وإذ أخرج مفكّرته ، قرأ :

« لقد قاسينا ، منذ تأسيس فضلى الجمهوريّات ، ألف ومئتي وتسع وعشرين دعوى صحافية ، نجم عنها للكتّاب : ثلاثة آلاف ومئة واحدى وأربعون سنة سجناً ، مع المبلغ البسيط وهو سبعة ملايين ومئة وعشرة آلاف وخمسمئة فرنك غرامة » . ـ لطيف

هذا ، أليس كذلك ؟

كلّهم بمرارة سخروا . وقال فريدريك متحمساً كما الآخرين :

ـ إن جريدة « الديموقراطية الهادئة » تعدّ رواية عنوانها « حصة النساء » .

ـ جيّدٌ هذا ! قال هيسّونيه ، إذا كانوا يمنعون عنا حصتنا بالنساء !

ـ ولكن ما هو غير الممنوع؟ صرخ ديلورييه . ممنوع التدخين في اللوكسمبور ، ممنوع غناء نشيد بيّوس التاسع !

ـ وقد منعوا مأدبة عمّال المطابع ! قال ، بوضوح ، صوت بهيم .

إنه صوت المهندس المعماري ، المحجوب بظل المخدع ، والذي بقي صامتاً حتى الآن . أضاف انهم ، في الأسبوع الماضي ، قد حكموا على المدعوّ روجيه بتهمة إهانة الملك

قال هيسّونيه : روجيه مقليّ .

بدت هذه الدعابة في غاية الوقاحة ، لسينيكال الذي أخذ عليه المدافعة عن « مشعوذ دار البلديّة ، صديق الخائن ديمورييه » .

ـ أنا ؟ بالعكس !

هو يرى لويس ـ فيليب تافهاً ، حقيراً قومياً ، إلى ما هنالك من أوصاف تحقيرية . وشرع البوهيميّ في العبارات السرية ، واضعاً يده على قلبه : ـ « انه دائماً بلذة جديدة . . . ـ القومية

البولونية لن تنقرض . . . ـ أعمالنا العظيمة سنتتابع . . . أعطوني مالاً لعائلتي الصغيرة . . . » جميعهم ضحكوا كثيراً ، معلنينه جسوراً لذيذاً ، متوقّد الذهن ، تضاعف الفرح عند مرأى وعاء « البنش » يحمله بائع شراب .

لهب الشراب والشموع ، بسرعة أدفأ المنزل ، ونور السقيفة ، مخترقاً الساحة ، كان ينير ، في المقابل ، طرف سقف مع قسطل المدخنة المنتصب أسود في وجه الليل . راحوا يتحدثون عالياً ، جميعاً معاً ، كانوا خلعوا ستراتهم الطويلة ، يصطدمون بالأثاث ، يصدمون الكؤوس .

هتف هيسّونيه :

ـ أصعدوا سيّدات مسنّات ، ليكون هذا برج « نيل » .

وطفق الصيدليّ ، الذي كانت الخمر تدور في رأسه إلى ما لانهاية ، يهدج بملء صدره :

عندي ثوران كبيران في اصطبلي

ثوران كبيران أبيضان . . .

وضع له سينيكال يده على فمه ، ما كان يحب الفوضى ، وبدا المستأجرون على نوافذهم ، مفاجَئين بالصخب الغريب الذي كان يدور في شقة ديسّردييه .

الشاب الطيب كان سعيداً ، وقال ان هذا يذكّره مجالسهم القديمة الصغيرة ، في شارع نابوليون ، مع ذلك ينقص الكثيرون ، منهم بيلّران . . .

ـ نستطيع التخلّي عنه ، قال فريدريك .

واستخبر ديلورييه عن مارتينون .

ـ ما حلّ به هذا السيّد المثير للاهتمام ؟

سريعاً ما باح فريدريك بسرّه ، بنيّته السّيّئة تجاهه ، هاجم روحيّته ، طبعه ، أناقته المزوّرة ، وكلّ ما فيه . انه مثال القرويّ الطارىء ! فالأرستوقراطية الجديدة ، البورجوازية ، لا توازي القديمة ، طبقة الأشراف . دافع عن هذا ؟ ووافقه الديموقراطيّون ، ـ كما لو انه جزء من واحدة وهم خالطوا الأخرى . كانوا مسرورين به . قارنه الصيدلي ، حتى ، السيّد ألتون . شيء ، الذي ، مع كونه ، صاحب إقطاعة ، هو يدافع عن قضيّة الشعب .

أزفت ساعة الرحيل . جميعهم تفرّقوا بعد مصافحات قويّة ، وحبّاً منه ، رافق ديسّردييه فريدريك وديلورييه في عودتهما . ومنذ وصولهما إلى الشارع ، بدا المحامي كأنّه يفكّر ، وبعد صمت ، قال لفريدريك :

ـ إذن ، فأنت لديك مآخذ على بيلّران ؟

فلم يخفِ فريدريك حقده .

مع ذلك ، كان الرسّام سحب لوحته الشهيرة من الواجهة . يجب ألّا نتخاصم بسبب ترّهات ! ماذا يفيد أن نربح عدواً ؟

ـ لقد خضع لمبادرة مزاجيّة ، مبرّرة هي عند رجل لا يملك فلساً . لا يمكنك أن تفهم هذا ، أنت !

وإذ صعد ديلورييه إلى مسكنه ، لم يترك الموظف

فريدريك ، فقد ألزمه ، حتى ، على شراء الرسم . واقعاً ، إذ كان بيلّران يئس من إخجاله ، فقد خدعهما بالقول إنه لأجلهما قبل بالمهمّة .

حدّثه ديلورييه بهذا ، أصرّ . معقولة كانت ادّعاءات الفنان .

ـ أكيد أنا ، أنه ، لربما ، بخمسمائة فرنك . . .

ـ آه ! أعطها له ! خذ ، هاكها ، قال فريدريك .

حُملت اللوحة في المساء ذاته . بدت له أشنع مما كانت عليه في المرة الأولى . كانت أنصاف الظلال والظلال قد اكمدّت بتأثير اللمسات الأخيرة ، وبدت معتمة بالنسبة إلى الأضواء التي بقيت مشرقة هنا وهناك ، ناشزة على الجملة .

ثأر فريدريك من كونه اشتراها ، بذمّها بمرارة . صدّقه ديلورييه من دون دليل ، وأقرّ تصرّفه ، لأنه يطمح ، دائماً ، إلى تأليف كتيبة يكون رئيسها ، بعض الرجال يعتزّون بأن يعهدوا إلى أصدقائهم بأمور هي ، إليهم ، كريهة .

في هذه الأثناء ، لم يكن فريدريك عاد إلى آل دمبروز . رؤوس الأموال تعوزه . ستكون شروحات لا تنتهي ، تأرجح ليقرّر . لربما معه حق ؟ لا شيء ثابتاً ، الآن ، لا قضية الفحم الحجري ولا سواها ، عليه التخلّي عن مثل هذا الجو . في الأخير ، أبعده ديلورييه عن المشروع . صار مفضالاً لكثرة الحقد ، وبالتالي ، هو يحبّ فريدريك في وضعيّة سيّئة . يبقى موازياً له ، بهذه الطريقة ، وأكثر حميمية معه في وحدة الشعور .

ولقد نُفِّذت طلبيّة الآنسة روكَ بطريقة سيِّئة للغاية . كتب إليه والدها ، مزوّداً إياه بالشروح الدقيقة جداً ، وأنهى رسالته بهذه الدعابة : « مع المجازفة بإصابتك بدوخة . . . العبيد ! » .

ما كان فريدريك يستطيع إلا العودة عند أرنو . صعد إلى المحلّ ، ولم يرَ أحداً . متهدّم بيت التجارة ، يقلّد الموظفون إهمال سيّدهم .

حاذى خزانة الرفوف الطويلة ، المحمّلة خزفيّات ، تُشغل ، من طرف حتى الآخر ، وسط المكان ، وإذ وصل إلى الآخر ، أمام المكتب ، مشى بخطوات أقوى ، لعلّ أحداً يسمعه .

إذ رفع السجف ، بدت السيدة أرنو .

- ماذا ، أنتِ هنا ! أنتِ !

- نعم ، همست على بعض اضطراب . كنت أبحث . . .

لحظ محرمتها قرب المكتب ، وظنّ أنها نزلت عند زوجها لتفهم ، لتتوضّح ، ولا شكّ ، قلقاً ما .

- إنما . . . بحاجة أنتَ ، ربما ، لغرض ما ؟

- لا شيء ذا بال ، سيّدتي .

- هؤلاء الموظفون لا يطاقون ! يتخلّفون دائماً .

يجب ألّا نلومهم . على العكس ، هو يهنّىء نفسه على المناسبة .

بسخرية نظرت إليه .

- وبعد ، وهذا الزواج ؟

ـ أيّ زواج ؟
ـ زواجك !
ـ أنا ؟ أبداً مطلقاً !
قامت بحركة إنكار .
ـ متى سيحدث هذا ؟ نلجأ إلى ما هو دون المتوسّط يأساً من الجميل الذي كان حلمنا !
ـ مع ذلك ، لم تكن كلّ أحلامك بهذه . . . البراءة !
ـ ماذا تريدين أن تقولي ؟
ـ حين كنت تتنزّه في حفلات السباق مع . . . أشخاص !
لعن « المارشالة » . تذكّر أمراً .
ـ لكنكِ ، أنتِ ، من طلب إليّ ، من زمان ، أن أراها ، اهتماماً بأرنو !
أجابت هازّة رأسها :
ـ وتستفيد من هذا الأمر لتتسلّى .
ـ يا ربي ! لننسَ كل هذه الحماقات!
ـ صحيح ، بما أنك ستتزوّج !
وخنقت غصّتها عاضة شفتيها .
حينها صرخ :
ـ لكنّني أكرّر لك أن لا ! تعتقدين أنّني أذهب أدفن نفسي في الريف لألعب الورق ، أراقب البنّائين ، وأتنزّه بالقبقاب ! لأي غاية ؟ أخبروك أنها غنية ، أليس كذلك ؟ آه ! أهزأ تماماً بالمال ! هل بعد أن تمنّيت كلّ ما هو أجمل ، وأكثر حناناً ، وأكثر سحراً ،

نوعاً من الفردوس بشكل إنساني ، وحين وجدته ، أخيراً ، هذا المثال ، حين تخفي عني هذه الرؤ يا كل ما عداها . . .

واخذ رأسها بيديه ، وراح يقبّل جفونها ، مردّداً :

ـ كلا ! كلا ! كلا ! لن أتزوّج أبداً ! أبداً ! أبداً ! أبداً !

تقبّلت مداعباته مسمّرة من المفاجأة والنشوة .

صفق باب المحل على الدرج . قفزت . وبقيت باسطة اليد كأنما لتأمره بالصمت . اقتربت خطوات . ثم قال أحدهم في الخارج :

ـ هل سيّدتي هنا ؟

ـ أدخل !

كوعها كان على المكتب وهي تدير ريشة بين أصابعها ، هادئة ، حين فتح المحاسب الباب .

قام فريدريك .

ـ سيّدتي ، أتشرّف بأن أحيّيك . الغرض يكون جاهزاً ، أليس كذلك ؟ أيمكنني الاعتماد على هذا ؟

لم تجب بشيء . لكنّ هذا التواطؤ الصامت ألهب وجهها بكل احمرار الزنى .

عاد إليها في الغد ، فاستقبلته . ابتدأ فريدريك ، بلا مقدّمات ، يبرر اللقاء في حفلات السباق . وحدها الصدفة جعلته يكون مع تلك المرأة . ومع التسليم بكونها جميلة (وهو أمر ليس صحيحاً) ، كيف يمكنها تعطيل فكرها ، ولو لحظة ، طالما هو يحبّ أخرى .

ـ تعرفين هذا جيّداً ، قلته لكِ .

خفضت السيّدة أرنو رأسها .

ـ لقد غضبت لكونك قلته لي .

ـ لماذا ؟

ـ أبسط اللياقات تفرض الآن ألّا أراك بعد !

دافع عن براءة حبّه . يجب أن يصرّح الماضي بالمستقبل ، وعد نفسه ، كان ، بعدم تكدير حياتها ، بعدم إزعاجها بشكاواه .

ـ لكن أمس كان قلبي يطفح .

ـ يجب ألّا نفكّر ، بعد ، بذلك ، يا صديقي !

-مع ذلك، أين الشرّ حين شقيّان يمزجان تعاستهما ؟

ـ لأنك ، أنت أيضاً ، لست سعيدة ! أوه ! أعرفك ، ولا أحد يجيب حاجات المحبّة عندكِ ، أو الاخلاص . سأفعل كلّ ما تشائين ! لن أغضبك ! . . . أقسم لك بهذا .

وترك نفسه يسقط على الركبتين ، بالرغم منه ، خائراً بفعل ثقل داخليّ ثقيل جداً .

قالت : إنهض ! أريد ذلك !

وأعلنت له ، بإلحاح ، أنه لن يعود يراها إذا لم يكن طائعاً .

ـ آه ! أتحدّاك بهذا ! أجاب فريدريك . ماذا عندي لأهتمّ به في العالم؟ الآخرون يكدّون في سبيل الثروة ، الشهرة ، السلطة ! أنا ، لا مهنة لي ، أنتِ اهتمامي الأوحد ، كل ثروتي ، هدفي ، مركز وجودي ، أفكاري . من دونك لا أستطيع الحياة كما

لا من دون الهواء ! ألا تشعرين بتسامي روحي يصعد نحو روحك ، وأنهما تمتزجان ، وأنني أموت دون هذا ؟

طفقت السيدة أرنو ترتجف بكل أطرافها .

ـ أوه ! إذهب من هنا ! أرجوك !

أوقفه تعبير وجهها المضطرب . ثم تقدّم خطوة . لكنها تراجعت ضامّة يديها .

ـ دعني ! بحقّ السماء !

وكان فريدريك يحبّها حباً عظيماً ، فخرج .

وسرعان ما غضب من نفسه ، واعترف بأنه غبيّ ، وبعد أربع وعشرين ساعة عاد .

لم تكن السيدة موجودة . بقي ، ضائعاً من حب جنوني وسخط ، على قرص الدرج . ظهر أرنو وأعلمه أنّ امرأته ذهبت ، هذا الصباح ، لتسكن في بيت ريفيّ صغير يستأجرونه في « أوتوي » ، بعد أن لم يعد لهم بيت « سان كلو » .

ـ إنها ، أيضاً ، واحدة من نزواتها ! أخيراً ، بما أن هذا يلائمها ! وأنا أيضاً ، هذا أفضل ! هل نتعشى معاً هذا المساء ؟

ادّعى فريدريك عملاً عاجلاً ، ثم أسرع إلى أوتوي .

صرخت السيّدة أرنو صرخة فرح . حينها ، تلاشى كل حقده .

ما تحدّث أبداً عن حبه . وبالغ في تحفّظه ، ليوحي لها بالثقة . وحين سأل إن كان بإمكانه الرجوع ، أجابت : « بلا شك » ، مقدمة يدها التي سريعاً ما سحبتها .

منذئذٍ ، ضاعف فريدريك زياراته.كان يعد الحوذي بحلوان وفير . إنما ، غالباً ما بطء الحصان ويجعل صبره ينفد ، فينزل . ثم ، على عجل ، يصعد سيارة نقل عام . ويروح يتفحّص ، باشمئزاز ، وجوه الناس الجالسين أمامه ، غير الذاهبين إليها .

يعرف بيتها من زهرة العسل الضخمة المغطية ، من جانب واحد ، أخشاب السقف . نوع من شاليه سويسريّة مدهونة بالأحمر ، مع شرفة خارجيّة . في الحديقة ، ثلاث شجرات كستنا مسنّة ، وعلى أكمة ، في الوسط ، مظلّة قشّ يحملها جذع شجرة . عريشة ضخمة سيّئة التعليق ، تمتد من مكان إلى آخر ، كحبل مهترىء ، تحت اردواز الحيطان . يطول صوت الجرس القاسي دقّه ، وينتظر طويلاً ، دائماً ، قبل أن يأتي أحد . كل مرة يحسّ باختناق ، بخوف لا محدّد .

ثم يسمع ، على الرمل ، طرطقة قبقاب الخادمة ، أو هي السيّدة أرنو نفسها من تأتي . ذات يوم ، وصل وراء ظهرها إذ كانت مقرفصة أمام مرجة مخضوضرة بحثاً عن البنفسج .

أرغمها مزاج ابنتها على وضعها في الدير . أما ابنها فكان يقضي بعد ظهره في مدرسة . ويقيم أرنو حفلات غداء طويلة في البالية رويّال ، مع ريجمبار والصديق كومبان . فلن يفاجئهما أيّ متطفّل .

كان الاتفاق تاماً على ألّا يملكا نفسيهما . هذا الاتفاق ، وكان يضمنهما ضد المجازفة ؛ هو يسهل تسارّهما .

أخبرته حياتها الماضية ، في شارتر ، عند أمّها ، تقاها في

حوالى الثانية عشرة ، ثم حبّها الجنوني للموسيقى ، حين كانت تغني حتى الليل ، في غرفتها الصغيرة ، حيث كُشفت الأسوار . أخبرها أحزانه في المعهد ، وكيف ، في سمائه الشعرية ، يتلألأ ، كان ، وجه امرأة ، وإذ ، لأوّل مرة رآها ، عرفها امرأة الرؤ يا .

كانت ، عادة ، لا تدور هذه الأحاديث ، إلاّ على سنوات تخالطهما . يذكّرها بتفاصيل لا معنى لها ، لون ثوبها في فترة معينة ، أي شخص وصل ذات يوم طارئاً ، ما قالت مرة ، وتجيب مذهولة :

ـ نعم ، أذكر هذا !

ذوقهما ، أحكامهما ، هي ذاتها . وغالباً ما كان يهتف المستمع للآخر :

ـ وأنا أيضاً !

فيجيب الآخر بدوره :

ـ وأنا أيضاً !

وتكرج ، بعد هذا ، شكاوى كثيرة على العناية الالهية :

ـ لماذا لم تشأ ذلك السماء ؟ آه لو كنّا التقينا ! . . .

ـ آه ! لو كنت صبيّة أكثر ! تنهّدت .

ـ لا ! لو كنت أنا أكبر قليلاً !

ويتصوّران حياة عاشقة فقط ، كثيرة الغنى لملء الوحدة الأكثر وساعة ، فائضة بالأفراح ، مزدرية كل الشقاء ، وتنقضي الساعات في مسارّة طويلة ، كان بالامكان عمل أي شيء متألّق ورفيع كما اختلاج النجوم .

يكادان ، دائماً ، يكونان في الهواء الطلق في أعلى الدرج . تتطاول أمامهما ، رؤوس الأشجار ، وقد أرهقها الخريف ، بغير تساوٍ ، حتى طرف السماء الشاحبة ، أو يذهبان إلى طرف الجادة عبر سرادق كلّ أثاثه كنبة من كتّان رماديّ . تبقّع المرآة نقاط سود ، تنثر الجدران رائحة عفنة ، ـ ويبقيان هناك يتحدثان عن حالهما ، عن الآخرين ، عن أي شيء ، بانشراح أحياناً ، تبدو أشعة الشمس ، المخترقة حصيرة النافذة ، من السقف إلى البلاط ، كأوتار قيثارة ، فتدور ، في هذه القضبان النورانيّة ، ذرّات غبار . تروح تتسلّى في أن تخرقها بيدها . ـ يمسكها فريدريك ، بلطف ، ويتأمل تشبيك عروقها ، بَرْغَلات جلدها ، شكل أناملها . كلاً من أصابعها ، لوحده كان أكثر من شيء ، يكاد يكون إنساناً .

أعطته قفّازاتها بعد محرمتها بأسبوع . صارت تناديه « فريدريك » ، يناديها « ماري » ، وإذ هو يعبد هذا الاسم ، يقول إنه يتقصّد أن يتنفّسه في ذهوله ، الذي يبدو يحوي غيوم بخور ، نثير ورود .

توصّلا إلى تحديد مسبق ليوم زياراته ؛ وإذ تخرج ، كما في صدفة ، تمشي أمامه في الطريق .

لم تكن تفعل شيئاً لتثير حبه ، ضائعة هي في هذه اللامبالاة التي تطبع السعادات الكبرى . ظلت ترتدي ، طوال الفصل ، مبذلاً من حرير داكن ، مزخرفاً بمخمل مشابه ، إنه ثوب واسع ملائم ليونة حركاتها ورزانة مظهرها . من جهة أخرى ، هي

تلامس مرحلة نضج النساء ، مرحلة التفكير والحنان معاً ، حيث انّ النضج الذي يبدأ ، يلوّن النظر بشعلة أعمق ، حين تمتزج قوة القلب بتجربة الحياة ، وفي نهاية التألّق ، يفيض المرء كلّه بغنى في تناسق جماله . ولا مرة كانت ألطف ، ولا أكثر حلماً . تستسلم إلى شعور يبدو لها حقاً مكتسباً بسبب آلامها ، واثقة من أنها لن تضعف . زد على أن هذا ، طيّباً كان وجديداً للغاية ! يا للهوّة بين فظاظة أرنو وولع فريدريك !

كان يخشى من أن يفقد ، بكلمة ، كل ما كان يظن نفسه ربحه ، قائلاً لذاته إنه يمكن تملّك مناسبة ، ثانيةً ، ولا نقع ثانيةً في بلاهة . أرادها تهب نفسها ، ولم يُرد أخذها . يبهجه حبّها اليقيني كتذوّق قبلي للامتلاك ، وسحر شخصيّتها يقلق قلبه أكثر من حواسّه . كانت غبطة لا محدودة ، نشوة عظيمة ، فنسي ، حتى ، إمكان سعادة مطلقة . بعيداً عنها ، تفترسه شهـواته المتفجّرة .

ويا لسرعة ما صار يحدث في محاوراتهما مسافات صمت شاسعة . نوع من الحياء الجنسي ، يجعلهما ، مرات ، يحمرّان واحدهما أمام الآخر . كلّ عناية لاخفاء حبهما هي تفضحه ، ثم صار رهيباً ، لكثرة ما تملّكا سلوكهما . سخط إحساسهما بسبب التدرّب على هكذا كذبة . بلذّة يتنعّمان برائحة الأوراق الرطبة ، يتألمان من هواء الشرق ، يغشاهما غضب لا مبرّر له ، هواجس مأتميّة . يسبّب لهما ، وقع الأقدام ، وطرطقة إطار النافذة ، هلعاً كما لو أنهما مذنبان . يشعران نفسيهما مدفوعين نحو هاوية ، يحيط

بها جو عاصف ، وحين تصدر شكاوى ، من فريدريك ، وتظلمات ، تروح تقرّ بذنبها هي .

ـ نعم ! لقد عملت سوءاً ! إن لي مظهر غنجة ! لا تعد أبداً !

حينها ، يكرّر العهود نفسها ، ـ التي كانت كل مرة ، تستمع إليها بلذة .

أوقفت مواجهاتهما عودتها إلى باريس وهموم السنة الجديدة . حين عاد ، كان يبدو على ملامحه شيء ، أكثر جسارة . تخرج ، كانت ، كلّ هنيهة ، لتلقي أوامر ، وتستقبل ، بالرغم من توسّلاته ، كل البورجوازيين الذين يأتون لرؤيتها . فتسمعهم ينقادون للحديث عن ليوتاد ، السيّد غيزو ، البابا ، فتنة بالرم ومأدبة الدائرة الثانية عشرة الكانت توحي إليهم بانشغالات بال . يتعزّى فريدريك ، كان ، حين يروح يطعن بالسلطة ، لأنه ، كما ديلورييه ، يتمنّى ثورة عالمية . هو ساخط الآن إلى هذا الحدّ . من جهتها ، السيّدة أرنو تكمد .

كان زوجها غارقاً في الهوس ، ينفق على عاملة في المصنع ، تلك التي يدعونها البُرْدَويَّة .السيّدة أرنو بنفسها أخبرت فريديك بهذا . أراد أن يرى ، في هذا ، حجة « لأنه يخونك » .

ـ أوه ! بتّ لا أقلق أبداً ! قالت .

بدا له هذا التصريح تأكيداً كاملاً لحميميّتهما . هل هذا يريب أرنو ؟

ـ لا ! حتى الآن !

روت له ، أنه ، ذات مساء ، تركهما وحيدين ثم عاد ، بعد ان استرق السمع من وراء الباب ، وبما انهما يتحدّثان كانا ، على أمور مختلفة ، لا أهمية لها ، صار ، من حينها يحيا بثقة تامة .

ـ وعن حق ، اليس كذلك ؟ قال فريدريك بمرارة .

ـ بلى ، بدون شكّ !

كان الأجدر ألاّ تجازف بمثل هذه الكلمة .

ذات يوم ، لم تكن في البيت ، في الساعة المعهودة لمجيئه ، كان الأمر ، بالنسبة اليه ، خيانة .

وغضب فيما بعد لرؤيته الأزهار الكان يحملها ، موجودة دائماً في كأس ماء .

ـ أين تريد ، إذن ، أن تكون ؟

ـ أوه ! ليس هنا ! فضلاً عن انها ، هنا ، ببرودة أقل مما هي على قلبك .

بعد فترة ، لامها لكونها ذهبت الى المسرح بدون أن تقول له . لربما رآه سواه وأعجبوا بها وأحبّوها . كان فريدريك يصرّ على هواجسه فقط ليخاصمها ، ليؤرقها ، هو بدأ يكرهها ، وهذا ، أكيداً ، الأقلّ الذي لحق بها من آلامه !

فاجأها ، بعد ظهر يوم ما (حوالى منتصف شباط) شديدة التأثّر . كان أوجين يشكو من مرض في حلقه . مع ان الطبيب طمأنها ، كان ، إلى أن الأمر بسيط ، زكام ، عجب فريدريك لمظهر الصبي الذاهل . مع ذلك طمأن أمّه ، ذكر ، كمثل ،

أطفالاً كثيرين من عمره ، مثله أصيبوا وبسرعة شفوا .

ـ حقاً ؟

ـ طبعاً بالتأكيد !

ـ أوه ! كم أنت طيِّب !

وأخذت يده . حضنتها .

ـ أوه ! أترك يدي .

ـ لا عليك ، طالما أنك تعطينها للمؤاسي ! . . . تصدّقيي تماماً في هذه الأمور ، وتشكّين بي . . . حين أحدّثك عن حبّي !

ـ لا أشكّ أبداً ، يا عزيزي المسكين !

ـ لِمَ هذا الارتياب كما لو انني شقيّ يريد الافراط ! . . .

ـ أوه ! لا ! . . .

ـ لو كان لي ، فقط ، برهان ! . . .

ـ أيّ برهان ؟

ـ الذي نقدّمه لأوّل قادم ، ذلك الذي وهبتنيه أنا .

وذكّرها أنهما خرجا ، ذات مساء ، في غروب شتائي ، والطقس ضباب . كل هذا كان مضى من زمان ! فمن يمنعها ، اذن ، من أن تظهر متأبّطة ذراعه ، أمام الجميع ، بلا خوف منها ، بلا ظنّ منه هو ، ولا أحد حولهما يزعجهما ؟

ـ فليكن ! قال بشجاعة في التقرير أدهشت ، أوّل الأمر ، فريدريك لكنه بحيويّة أجاب :

ـ تريدين أن أنتظرك في زاوية شارع « برونشية » وشارع « دي لافيرم » ؟

ـ يا الهي ! يا صديقي . . . تمتمت السيّدة أرنو .
أضاف بدون أن يفسح لها مجال التفكير :
ـ أفترض الثلاثاء القادم ؟
ـ الثلثاء ؟
ـ نعم بين الثانية والثالثة !
ـ سأكون حاضرة !
وبحركة خجل ، أدارت وجهها . قبّل فريدريك عنقها .
ـ أوه ! ليس هذا حسناً ، قالت . تجعلني أندم .
انفصل عنها ، إذ خشي تقلُّب النساء المعتاد . ثم همس ، على العتبة ، بلطف ، كشيء متفّقٍ عليه تماماً :
ـ إلى الثلاثاء !
خفضت عينيها الجميلتين بطريقة محتشمة ومستسلمة .
كان فريدريك صمّم على أمر .
يأمل ، أنه ، بفضل المطر أو الشمس ، سيمكنه أن يوقفها تحت باب وحين هي هكذا ، ستدخل البيت الصعب ، هو اكتشاف بيت مناسب .
راح يبحث ، وحوالى منتصف شارع « ترونشيه » ، قرأ ، من بعيد ، على لافتة : « شقق مفروشة » .
اذ فهم الصبي قصده ، أراه ، للحال ، في « الدور المسروق »*، غرفة وغرفةمنفصلة مع مخرجين . حجز فريدريك

---

* دور منحفض فوق الدور الأرضي .

لشهر ودفع سلفاً .

ثم ذهب الى محلّات ثلاثة يشتري العطر الأكثر ندرة . تزوّد بقطعة تخريم مقلّد ليبدل غطاء السرير المقيت المن قطن أحمر ، انتقى زوج خفّ من ساتان أزرق . وحده ، الخوف من أن يبدو فظاً جعله يتروّى في مشترياته ، عاد بها : - وبورع يفوق تقوى محضري المذابح لزيّاح القربان ، بدّل أمكنة الأثاث ، ثنّى بنفسه ، الستائر ، وضع خَلَنْجاً على المدفأة ، بنفسجاً على الصوان ؟ أراد لو يستطيع يبلّط الأرض بالذهب . « غداً ، قال في نفسه ، نعم ، غداً ! لاأحلم أنا » . وأحسّ قلبه يخفق بضربات قوية بتأثير هذيان أمله ، وإذا تمّ كلّ شيء ، وضع المفتاح في جيبه ، كما لو ان السعادة التي تنام هنا يمكنها ان تهرب .

حين عاد ، كانت تنتظره رسالة من أمّه .

« لمَ هذا الغياب الطويل ؟ بدأ سلوكك يظهر شاذاً . أفهم أن تكون ، إلى حدٍّ ما ، تردّدت أوّل الأمر أمام هذا الزواج ، مع ذلك ، فكّر ! » .

وكانت تحدّد الأشياء : دَخْلُ خمسة وأربعين الف ليرة . وفوق ذلك ، سيُحكى فيه . والسيّد روكّ ينتظر جواباً نهائياً . وبالنسبة للصبيّة ، فوضعها ، فعلاً ، مقلق . « هي تحبّك كثيراً » .

رمى فريدريك الرسالة من دون ان ينهيها ، وفضّ أخرى ، إنها من ديلورييه .

« عزيزي ،

« الاجاصّة نضجت ، وبحسب وعدك ، نعوّل عليك نجمع عليك . نجتمع غداً عند طلوع الشمس ، في ساحة البانتيون . أدخل مقهى سوفلو . عليّ أن أتحدّث اليك قبل المظاهرة » .

« أوه ! أعرفها ، مظاهراتهم . الف شكر ! عندي موعد ألطف » .

ومنذ الحادية عشرة ، من الغد ، كان فريدريك خرج . يريد يلقي نظرة أخيرة على الاستعدادات ، ثم ، من يدري ، يمكن ان تكون ، صدفة ، قد أتت مسبقاً ؟ » وهو يخرج من شارع ترونشيه ، سمع ، وراءه « المادلين » ، جلبةً كبيرة ؛ تقدّم فلاحظ في آخر الساحة الى الشمال ، أناساً بقمصان فضفاضة وبورجوازيين .

في الواقع ، كان بيان نشر في الصحف دعا ، إلى هذا المكان ، كل المكتتبين في الوليمة الاصلاحيّة . لكنّ الوزارة سارعت في بلاغ وأعلنت منع ذلك . والمعارضة النيابيّة عدلت في المساء عن موقفها ؛ لكنّ المواطنين والذين كانوا يجهلون قرار الرؤساء هذا ، جاؤوا الى الموعد يتبعهم عدد كبير من الفضوليّين . وفد من المدارس حمل نفسه ، بعد قليل ، عند أوديلون بارّو . هو ، الآن ، في الشؤون الخارجيّة ؛ ويجهلون ان كانت المأدبة ستقام ، ان كان الحكم سينّفذ تهديده ، إذا كان الحرّاس الوطنيّون سيحضرون . غاضبون هم ضد النوّاب كما ضد السلطة . كانت الجموع تتزايد أكثر فأكثر حين ، فجأة ، ارتجّ في

الفضاء نشيد « المارسيّاز » .

إنهم الطلاّب وصلوا . يمشون ، على صفين منتظمين ، ساخطي المظهر ، عراة الأيدي جميعهم يهتفون :

ـ عاش الاصلاح ! ليسقط غيزو !

أصدقاء فريدريك هم ، طبعاً ، هنا . سيرونه ويأخذونه معهم . بنشاط مال الى شارع « الأركاد » .

بعدما دار الطلاب دورتين حول « المادلين » ، نزلوا صوب ساحة الكونكورد . كانت ملأى بالناس . تبدو فيها الجموع ، من بعيد ، حقل سنابل سوداء تترجّح .

في الوقت نفسه ، اصطف جنود من الجيش في وضع قتالي ، الى شمال الكنيسة .

مع هذا ، توقفت الجماعات . وينتهي الأمر ، راح رجال الشرطة يوقفون الأكثر تمرّداً ويصحبونهم ، بعنف ، الى مكتب الشرطة . ظل فريدريك صامتاً ، بالرغم من غضبه، يأخذونه مع الآخرين ويخسر السيّدة أرنو .

بعد قليل ، ظهرت خوذ موظفي المجلس البلدي . راحوا يضربون حوليهم مهدّدين بالسيف . وقع حصان ، خفّوا يسعفونه ، وحين صار الفارس على السرج ، هربوا جميعاً .

ساد صمت طويل . توقف الرذاذ الذي كان بلّل الطريق . اسرعت غيوم راح يكنسها بفتور هواءُ الغرب .

طفق فريدريك يطوف شارع « ترونشيه » ، متطلعاً أمامه ووراءه .

صارت الثانية .

ـ آه ! قال في نفسه ، «الآن هي تخرج من بيتها ، انها تقترب » ، وبعد هنيهة : « كان لديها الوقت لتصل » . حتى الثالثة ، ظل يحاول تهدئة نفسه . « كلا ، لم تتأخر ؛ قليلاً من الصبر » !

ولأن لا عمل لديه ، راح يتأمل المحلّات القليلة : مكتبة ، سرّاج ، مخزن ثياب حزن . سريعاً ما عرف كل أسماء المؤلفات ، كلّ عدّة الرحل ، كل أنواع الأقمشة . عجب التجّار ، أوّل الأمر ، لكثرة ما رأوه يمرّ ويعود ، ثم خافوا ، فأقفلوا واجهاتهم .

لقد أخّرها ، ولا شك ، عائقٌ ما ، وهي تتألم منه . إنما ، يا للفرح بعد لحظة ! ـ لأنها سوف تأتي ، هذا أكيد ! « هي وعدتني بذلك ! » مع ذلك ، استبدّ به قلق لا يطاق .

عاد الى الفندق ، لا يعرف لماذا ، كأنها يمكن ان تكون فيه . لربما هي ، في اللحظة نفسها ، وصلت الى الشارع . قذف نفسه خارجاً . لا أحد ! وراح يقرع الرصيف من جديد .

صار يراقب ثقوب البلاط ، فم الميازيب ، الشماعدين ، الأرقام فوق الأبواب . وصارت الأشياء ، الأصغر رفاقاًله ، بالأحرى مشاهدين ساخرين ، وبدت له واجهات البيوت المتشابهة ، لا تُحْتَمَل . تألّم من البرد في قدميه . أحسّ أنه يذوب ضنى . صوت خطواته يرجّ له دماغه .

حين رآها صارت الرابعة في ساعته ، شعر بدوخة ، برعب . حاول ان يردّد أشعاراً ، يحسب مطلق شيء ، يخترع

حكاية . انه لمستحيل ! فصورة السيّدة أرنو تمتلكه . ودّ لو يركض للقائها . إنما أي طريق يسير فيه ، خوف ألّا يتلاقيا ؟

اقترب من عميل ، نقده خمسة فرنكات ، وسأله الذهاب الى شارع الفردوس ، عند جاك أرنو ، والاستعلام من البوّاب « إذا السيّدة في البيت » . ثم انزرع في زاوية شارعي « دي لا فيرم » و« ترونشيه » ، بطريقة يرى فيها ، بتتابع ، في الشارعين . عند آخر ما يراه ، على البولفار ، تمشي جموع غير واضحة كأنها تزلق . أحياناً يرى عفرة خوذة جندي خيّال كأنها قبّعة امرأة . ويوسّع حدقتيه ليعرفها . تقدم منه ولد رثّ الثياب يحمل مرموطاً * في صندوقه ، وسأله صدقة وهو يبتسم .

عاد رجل السترة المخملية . « لم يرها البواب تخرج » . من يؤخّرها ؟ لو أنها مريضة لقال ! هل هي زيارة ؟ ليس أسهل من أن لا تستقبل . خبط جبهته .

ـ « آه ! غبي أنا ! هو الهياج الشعبي ! . . . هذا التفسير الطبيعي هدّأه . ثم ، فجأة ، لكنّ حيّها هادىء » . وأرهقه شكّ رهيب مقيت . « لو هي لن تأتي ؟ لو ان وعدها لم يكن سوى كلمة لتبعدني ؟ لا ! لا ! » ما يمنعها ، حتماً ، صدفة غريبة ، حادث يحبط كل احتراس . انما ، في هذه الحالة ، كانت كتبت . وأرسل خادم الفندق الى مسكنه ، شارع ريمفور ، ليعرف هل هناك رسالة .

---

* حيوان لبون قاضم ينام طول الشتاء .

لا رسالة . سكّن روعه غياب الأخبار .

راح من عددقطع النقود،من مظهرالمارّة،من لون الشّعر . وحين يكون التنبؤ منافيا يحاول ان لا يصدقه في غضبه المتزايد على السيّد أرنو ، شتمها بصوت خافت . ثم أصابه ضعف حتى الغثيان ، وفجأة ملامح أمل . سوف تظهر . هي هنا ، وراءه يستدير : لا شيء ! رأى ، مرة ، على بعد حوالى ثلاثين خطوة ، امرأة بالقامة نفسها ، بالثوب نفسه . لحقها ، لم تكن هي !

صارت الخامسة ! الخامسة والنصف ! السادسة ! أضيئت المصابيح ولم تحضر السيّدة أرنو .

حلمت ، في الليلة السابقة ، انها كانت على رصيف شارع ترونشيه من زمان . تنتظر هناك أمراً ما غير محدّد ، إلا أنه مهمّ ، وبدون أن تدري لماذا ، تخاف أن تُرى . لكنّ كلباً صغيراً لعيناً ، مستبسلاً ضدها ، راح يعض أطراف ثوبها . بعناد يعود وينبح أعلى . استيقظت السيّدة أرنو . استمرّ النباح . أصغت سمعها ، ينبعث ،كان ، من غرفة ابنها . ركضت اليه حافية . كان الولد نفسه يسعل . يداه مشتعلتان ، وجهه احمر ، وصوته غريب البحّة شاذّها . يتزايد اضطراب تنفّسه من لحظة لأخرى ، حتى الصباح ، منحنية على فراشه تراقبه .

في الثامنة جاء ضارب طبل الحرس الوطني يعلم السيّد أرنو ان رفاقه ينتظرونه، بسرعة ارتدى ملابسه وذهب ، واعداً بأنه سيمرّ ، للتوّ ، على الطبيب ، السيّد كولو . وإذ لم يصل السيّد كولو حتى العاشرة ، أرسلت السيّدة أرنو وصيفتها تستعلم .

الطبيب في رحلة الى الريف ، والشاب الحالّ مكانه غير موجود .

يحتفظ أوجين برأسه على طرف المخدّة ، فاركاً ، دائماً ، حواجبه ، موسّعاً منخاريه . تحوّل وجهه الصغير التعيس أكثر شحوباً من شراشفه . ويخرج من حنجرته صفير يحدثه كل شهيق وهو يقصر شيئاً فشيئاً ، ييبس ، وقد أصبح كأنه آلي . صار سعاله يشبه ضجّة الآلات الوحشيّة التي تجعل الكلاب الكرتونية تنبح .

سيطر على السيّدة أرنو هلع . ارتمت على الأجراس ، طالبة النجدة ، صارخة :

ـ طبيب ! طبيب !

خلال دقائق عشر ، وصل سيّد بربطة عنق بيضاء وعوارض رمادية ، حسن الهندام . وجّه أسئلة كثيرة عن عادات المريض الصغير ، وعمره وطبعه ، ثم فحص حلقه . أكبّ على أوراقه وكتب وصفة طبيّة . كان مظهر هذا الرجل الهادىء كريهاً . يوحي انه محنّط . أرادت ان تضربه . قال انه يعود في المساء .

سريعاً ما عادت نوبات السعال المخيفة . أحياناً ، كان الولد يثب واقفاً ، بشكل مفاجىء . حركات تشنّجية تزعزع له عضلات الصدر ، ويتجوّف بطنه ، في زفيره ، كأنه يكاد يختنق لكونه ركض . ثم يقع ، رأسه الى الخلف وفمه واسع الانفراجة . تحاول السيّدة أرنو أن تجعله يبتلع محتوى قوارير ، شراب عرق الذهب* ،جرعة إثمدية** .لكنه يُبعد الملعقة منتحباً بصوت

* جذر يقيّء .

** دواء للتفّ مركّب بخاصة من ملح الاثمد .

ضعيف . تحسبه ينفث كلماته .

بين وقت وآخر ، تعاود قراءة الوصفة . كانت تخيفها ملاحظات الصيغة . لربما أخطأ الصيدلي ! يوقعها عجزها في يأس . وصل تلميذ السيّد كولو .

إنه شابٌ ذو ملامح متواضعة ، جديد في المهنة ، وهو لم يخف ، أبداً ، شعوره ، لبث متأرجحاً ، أوّل الأمر ، خوف المجازفة ، ثم أشار بوضع قطع ثلج على رأس الولد . طويلاً بحثوا حتى وجدوا ثلجاً . انشق جراب الثلج . وجب ابدال القميص . كل هذا أحدث له نوبة سعال جديدة مرعبة الازعاج .

طفق الولد ينزع البياضات عن عنقه ، كما لو هو يريد ازاحة العائق الذي يخنقه ، ويخرمش الجدار ، يمسك بستائر مرقده الصغير ، باحثاً عن نقطة ارتكاز للتنفّس . ازرقّ وجهه ، الآن وبدا يهزل كل جسمه ، المبلّل عرقاً بارداً ، عيناه الزائغتان تتعلّقان بأمّه ، بخوف رمى بذراعيه حول عنقها ، تعلّق بها بطريقة يائسة ، همست ، وهي تدفع شهقاتها ، بكلمات حنونة :

ـ نعم يا حبي ، يا ملاكي ، يا كنزي !

ثم خيمت لحظات صمت .

ذهبت وأتت بألعاب ، دمية بحدبتين ، مجموعة رسوم ، نثرتها على سريره لتسلّيه ، حاولت ، حتى ، الغناء .

بدأت بأغنية كانت تقولها له من زمان ، حين كانت تمرجحه وهي تقمّطه على هذه الكرسي الصغيرة المنجدة ذاتها . لكنه ارتجف جسده كله كموجة بتأثير تيّار هواء ، جحظت عيناه ؛

حسبته سيموت، وأشاحت كي لا تراه .

بعد لحظة ، كانت لها الجرأةلأن تنظر اليه . لا يزال يحيا . تتابعت الساعات ، ثقيلة ، كئيبة ، لامتناهية يائسة . وما عادت تحسب الدقائق إلا بمقدار تقدم هذه الحشرجة . ارتجاجات صدره تقذفه الى الأمام كأنما لتحطّمه ؛ تقيأ ، في الأخير ، شيئاً غريباً يشبه الورق الأصفر . ما كان ؟ تصورت أنه قطعة من أحشائه . لكنه تنفّس بانتظام . أخافها مظهر الراحة هذا أكثر من أيّ أمرٍ آخر . كانت ذاهلة ، متدلية الذراعين ، ثابتة العينين ، حين وصل السيّد كولو . رأيه ان الولد نجا من الموت .

مافهمت أوّل الأمر ، وطلبت تكرار العبارة . ألم يكن الأمر واحداً من تطمينات الأطباء ؟ ذهب الطبيب بمظهر هادىء . ارتاحت ، حينها ، كأن الحبال التي كانت تضغط قد فُكّت .

ـ نجا ! معقول !؟

وفجأة ، بدت لها فكرة فريدريك بطريقة واضحة قاسية . إنه إنذارمن العنايةالالهيّة . لكن الرب برحمته، لم يردأن يعاقبهاتماماً! يا للتفكيرفي ما بعد، لو هي استمرّت في هذا الحبّ! سيشتمون ابنها ، ولا شك ، بسببها . ولمحته السيّدة أرنو ، شاباً ، جريحاً في مبارزة ، محمولاً على نقّالة ، ميتاً . فقفزت قفزة واحدة الى الكرسي الصغيرة ؛ وقدّمت الى الله ، من كلّ قواها، متسامية بروحها الى الأعالي ، كمحترقة ، تضحية حبها الأوّل ؛ ضعفها الوحيد .

كان فريدريك قد عاد الى مسكنه . لا يزال في كرسيّه

المريح ، ولا قدرة عنده ، حتى ، على لعنها . أخذته سنّة من النوم ، وعبر كابوسه ، سمع هطول المطر ، ظانّاً ، دائماً ، أنه لا يزال هناك ، على الرصيف .

في الغد أرسل ـ بنوبة ضعف وتخاذل أخيرة ـ وسيطاً عند السيّدة أرنو .

حصل على الجواب نفسه ، إما لأن الرسول لم يقم بمهمته ، أو لأن عندها الكثير تقوله ولا تستطيع بكلمة . كانت الاهانة كبيرة . أخذه غضب كبرياء . أقسم ، في نفسه ، أنه لن يكون له ولا رغبة . واختفى حبّه كورقة حملها اعصار . أحسّ براحة ، بفرح واثق ، ثم بحاجة لأعمال عنف . فانطلق في الشوارع بغير هدف .

كان رجال من الأرباض يمرّون ، مسلّمين بالبنادق ، بسيوف قديمة ، بعضهم حاملاً قبعات حمراء ، وكلهم ينشدون « المارسيّاز » أو « الجيرونديين » . هنا وهناك حارس وطني يستعجل ليلتحق بمقرّه . في البعيد طبول ترنّ . يتقاتلون عند بوّابة سان مارتان . في الأجواء بعض مظاهر شجاعة وشراسة . لا يزال فريدريك يمشي فقد جعلته حركة المدينة الكبيرة سعيداً .

عند اعلى خراسكاتي ، رأى نوافذ « المارشالة » . طرأت له فكرة مجنونة ، نزق شباب ، فاجتاز البولفار .

كاد باب العربات يُقفَل ، ودلفين ، الوصيفة ، تكتب فوقه بالفحم : « السلاح مسلّم » ، فقالت له بحيوية :

ـ آه ! سيّدتي في حالة سيئة ! فقد طردت هذا الصباح

خادمها الذي كان يهينها . هي تظن أنهم سينهبون أينما كان . تكاد تموت خوفاً ! وفوق هذا ، فقد فارقها السيّد !

ـ أيُّ سيّد ؟

ـ الأمير !

دخل فريدريك صالون النساء الصغير . ظهرت « المارشالة » بتنورة داخليّة ، وشعرها مسترسل على ظهرها ، مشوشة .

ـ آه ! شكراً ، جئت تنقذني ! هي المرة الثانية ! لا تطلب الثمن ، أنت !

ـ الف عذر ! قال فريدريك ، مطوقاً خصرها بيديه .

ـ كيف ؟ ماذا تفعل ؟ تمتمت « المارشالة » ، مفاجأة ، وفرحة معاً لهذا الأسلوب .

أجاب :

ـ أتبع الدرجة ، أغيّر سيرتي .

تركت نفسها تنقلب على الأريكة ، وأكملت الضحك تحت وابل قبلاته .

أمضيا بعد الظهر ينظران ، من نافذتها ، الناس في الشارع . ثم صحبها للعشاء في « التروا- فرير- بروفنسو » . طالت المأدبة ، ولذيذة كانت . عادا سيراً على الأقدام لعدم وجود عربة .

مع اعلان تغيير الحكومة ، تغيّرت باريس . الكلّ فرحون ؛ متنزّهون يطوفون ، وأضواء في كلّ شقّة تحوّل الليل

نهاراً . يعود الجنود متمهّلين الى ثكناتهم ، متعبين ، متكوّم الحزن في وجوههم . كنت تسمع الناس يحيّونهم صارخين : « يحيا الجيش! » يكملون لا يجيبون . على العكس ، في الحرس الوطني ، يلوّح الضباط بسيوفهم متحمّسين صارخين : « يحيا الاصلاح » ! وتضحك هذه الكلمة ، كل مرة ، العاشقين . فريدريك كان يمزح . انه فرح جداً .

وصلا عبر شارع ديفو الى الشوارع العريضة . كانت القناديل البندقية ، المعلقة في البيوت ، تؤلف زخارف ناريّة . يتحرّك ، في أسفل ، تجمهر غامض ؛ وتلمع وسط هذا العتم في أماكن مختلفة ، رؤوس حراب . تقوم جلبة كبيرة ، فالجمهور كثير الازدحام ، العودة المباشرة مستحيلة ؛ دخلا شارع كومارتان ، وفجأة ، انفجرت وراءهما ضجّة شبيهة بقرقعة قطعة حرير كبيرة جداً يمزّقونها . انه التراشق بالرصاص في شارع « الكابوسين » .

ـ أوه ! إنهم يحطّمون بعض البورجوازيين ، قال فريدريك بهدوء . هناك حالات يصبح فيها الانسان الأقل شراسة ، منفصلاً تماماً عن الآخرين ، إلى حدٍّ انه مستعدّ لرؤية انقراض الجنس البشري بدون خفقة قلب .

كانت تصطك اسنان « المارشالة » وهي متشبّثة بذراعه . اعلنت انها باتت عاجزة عن السير ولو عشرين خطوة . حينها ، وبلباقة حاقدة وليحقّر السيّدة أرنو في نفسه ، اصطحبهاالى فندق شارع ترونشيه ، الى الشقة التي كانت محضّرة للأخرى .

لم تكن ذبلت الأزهار . والتخريم قائم على السّرير . أخذ

من الدرج الصغير الخفّ الصغير . رأت روزانيت هذه المجاملات لطيفة جداً .

استيقظت نحو الأولى على فرقعات بعيدة ، رأته يشهق ورأسه في الوسادة .

- ما بكَ ، يا حبّي الغالي ؟

همس فريدريك :

- إنّه فيض السّعادة . من زمان بعيد وأنا أرغب بكِ .

فوصى ٢٣ شباط ١٨٤٨ .

القسم الثالث

I

فجأة ، أيقظه من رقاده ضجيج تراشق بالرصاص . وبرغم توسّلات روزانيت ، ظل ملحّا على الذهاب لمعرفة ما يحدث . نزل ناحية « الشانزيلزه » من حيث انطلق الرصاص . وعند زاوية شارع « سان أونوريه » ، التقاه رجال بقمصان فضفاضة يصرخون :

ـ لا ! ليس من هنا ! إلى القصر الملكي !

تبعهم فريدريك . كانت انتزعت أسوار كنيسة « الصعود » . لحظ ، في مكان أبعد قليلاً ، ثلاث بلاطات وسط الطريق . إنها ، ولا شك ، بداية ثورة أهليّة . كذلك رأى شقف قناني ، ورزم أسلاك حديديّة لعرقلة سلاح الفرسان . وفي الهنيهة ذاتها ، انطلق ، من شارع ضيّق ، شاب شاحب ، شعره الأسود المتناثر على كتفيه ، مضمومٌ بنوع من قماط حمّصيّ . يمسك بندقيّة جنديّ ، ويركض على رؤوس أصابعه كأنه مُرَوْبص ، ويبدو

رشيقاً كفهد . كان يُسمع ، بين حين وآخر ، دويّ انفجارات .

مساء البارحة غيّر الشعب تنظيماته بسبب مرأى الحمّالة الحاملة خمس جثث لُمّت من بين جثث بولفار « الكابوسين » . وفي حين كانت مساعدات المعسكر تتتابع في « التويلّري » ، وكان السيّد موليه منهمكاً في تشكيل حكومة جديدة ، والسيّد تيير يحاول تأليف أخرى ، وفي حين كان الملك يماحك ، يتأرجح ، ثم يسلّم بوغو القيادة العامّة ليمنعه من استخدامها ، كانت الثورة ، وتديرها ذراع واحدة ، تتنظّم بشكل رائع . راح خطباء مهتاجو الأسلوب يخطبون بالشعب في زوايا الشوارع ، آخرون يدقون ناقوس الخطر في الكنائس في وقت واحد ؛ يذيبون الرصاص ، يحضّرون الخرطوش ، لقد اقتلعوا وقلبوا كلّ شيء : أشجار الشوارع ، المبولات العامة ، المقاعد ، الأسوار ، مصابيح الطرق . . . وصارت باريس ، في الصباح ، ملأى بالمتاريس . لم تطل المقاومة ، تدخّل الحرس الوطني أينما كان ؛ - حتى أن الشعب ، في الثامنة ، كان صار يمتلك ، طوعاً أو كُرهاً ، خمس ثكنات ، وتقريباً كل دور الحكّام ، والنقاط الاستراتيجية الأكثر أماناً . انهارت الملكية ، تلقائياً ، في انحلال سريع ، وكانوا يهاجمون مركز « قصر الماء » لتحرير خمسين سجيناً ما عادوا موجودين فيه .

توقّف فريدريك ، قسراً ، عند مدخل الساحة . كانت تملأها جماعات مسلّحة . تحتلّ سرايا من الجيش شارعَي « سان توماس » و « فرومانتو » . حاجز هائل يسدّ شارع فالوا . انفتح

الدخان الذي كان يتأرجح في أعلاه ، تراكض رجال فوقه قائمين بحركات كبيرة ثم اختفوا . ثم عاد التراشق بالرصاص . ردّ على الرصاص المركز من دون أن يُلْمَح أحد في الداخل . كانت شبابيكه المحميّة بمصاريع من سنديان ، فيها كوى مرمى . وابتدأ البناء ، بطابقيه ، بجانحيه ، بينبوعه في الأوّل ، وبابه الصغير في الوسط ، يتبقّع بلطخات بيض بتأثير الرصاص . بقي فارغاً مدخله المثلّث الدرجات .

إلى جانب فريدريك ، رجل بقبّعة يونانيّة حاملاً جعبة فوق سترته الصوفيّة ، هو يتخاصم مع امرأة مغطّاة بمدراس . كانت تقول له :

ـ إرجع ! إرجع !

ـ دعيني وشأني ! أجاب الزوج . يمكنك ، وحدك ، مراقبة البيت . أيها المواطن ، إنني أسألك ، أمعقول ؟ قمت بواجبي في كلّ مكان ، في ١٨٣٠ ، في ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٩ ! اليوم قتال ، فيجب أن أقاتل ! إذهبي أنتِ !

وخضعت البوّابة لتحذيراته ولتحذيرات حارس وطني قربهم ، أربعينيّ ، وجهه ساذج يزينه طوق لحية شقراء . يحشو سلاحه ويطلق النار ، متحدّثاً مع فريدريك . وهو هادىء وسط الفتنة كبستاني في حديقته . أخذ يتملّقه شاب لابس جنفيصاً ليحصل على كبسولات ليستعمل بندقيّته ، غدّارة صيد جميلة أعطاه إياها « سيّد ما » .

ـ تمسّك بظهري أنت ، قال البورجوازي ، واحتمِ !

ستُقْتَل !

تدق الطبول للحشد . ترتفع صرخات حادّة ، صيحات الانتصار . هيجان دائم يهزّ الجمهور . لم يكن فريدريك يتحرّك ، مأخوذاً بين جماعتين غامضتين ، زد على أنه مفتون ولاهٍ إلى حدّ فائق . لم يكن للجرحى الذين يقعون ولا للموتى الممدّدين ، شكل جرحى حقيقيّين أو موتى . بدا له أنه يحضر مسرحيّة .

شوهد ، وسط هذا التموّج الهائل ، فوق الرؤوس ، شيخ في ملابس سوداء على حصان أبيض وسرجٍ مخملي . هو يحمل ، بيد ، غصناً صغيراً أخضر ، وبالأخرى ورقة ، ويهزّهما بعناد . وإذ يئس من جعلهم يستمعون إليه ، انسحب .

كانت انسحبت فرقة الجيش وبقي البلديّون ، وحدهم ، يدافعون عن الموقع . انقضّت على المدخل موجة من أصحاب البسالة ، هُزموا ، وصل سواهم . وتخلخل الباب ، مرتجّاً تحت ضرب قضبان الحديد . ما استسلم المدافعون . لكنّ مركبه محشوّة حشيشاً تشتعل كمشعال هائل ، جُرّت صوب الجدران . وبسرعة جيء بحزم حطب ، وقش ، وبرميل . التهمت النار كل الحجارة ، صار يتصاعد الدخان من كل البناء كأنه منجم كبريت . تصاعد لهب هائل بصوت حارّ ، في أعلى ، من بين أعمدة الدربزين . كان يسكن الطبقة الأولى من القصر الملكي حراس وطنيّون . تُطْلَق النيران من كل نوافذ المكان ؟ تصفر الرصاصات ، اختلطت مياه الينبوع المشقوق بالدماء ، وراحت تؤلّف بِرَكاً في الأرض . كنت تراهم يزلقون في الوحل ، يطرطش

الثياب ، قبّعات الجنود ، السلاح . شعر فريدريك بشيء رَخْو تحت قدمه ، كانت يد رقيب بمعطف رمادي ، ملقى ووجهه في المياه والوحل . ظلت تصل زمر جديدة من الشعب ، دافعة المقاتلين إلى المركز . صار التراشق بالرصاص أسرع . محلّات بائعي الخمور مفتوحة كانت . فهم يذهبون ، بين وقت وآخر إليها ، يدخّنون غليوناً ، يشربون كأس بيرة ، ثم يعودون للقتال . سُمِع كلب ضائعٍ يعوي . وهذا مما أثار الضحك .

اهتزّ فريدريك ، صُدم برجل أصابته رصاصة ووقع على كتفه محشرجاً . أحسّ حينها بالنقمة ، لكأن هذه الرصاصة موجّهة إليه . واندفع إلى الأمام ، أوقفه حارس ، قال :

- هذا غير مجدٍ ! لقد خرج الملك منذ هنيهة . آه ! إذا لم تصدقني فاذهب وانظر !

مثل هذا التأكيد طمأن فريدريك . كانت ساحة الكاروسيل هادئة . لا يزال قائماً فيها ، منفرداً ، فندق « نانت » . والبيوت إلى الوراء ، وقبّة اللوفر المواجهة ، ممرّ الغابة الطويل إلى اليمين ، وهكذا الأرض البور التي كانت تتموّج حتى أكواخ عارضي السّلع ، جميعها كانت غارقة في لون الهواء الرماديّ ، حيث تمتزج هينمات بعيدة من الضباب ، - بينما ، في طرف الساحة الآخر ، يقطّع ، بدقة ، الضوء الساطع الهابط عبر انفراج الغيوم على واجهة التويلّري ، إلى بياض ، كل النوافذ . قرب قوس النصر حصان ميت ، ممدّد . وخلف الأسوار ، جماعات من خمسة أو ستّة أشخاص يتحدّثون . كانت أبواب القصر مفتوحة ، والخدام على

الأبواب يفسحون في المجال للدخول .

في غرفة صغيرة في الأسفل ، قُدّمت قهوة بالحليب . جلس بعض الفضوليين إلى الطاولات وهم يمزحون ، بقي الآخرون واقفين وبينهم حوذي ومركبة خيل . أخذ ، بيديه كلتيهما ، قمقماً مليئاً سكّراً ، تلفّت يمنة ويسرة بنظرة حائرة ، ثم راح يأكل بشهيّة متعاظمة ، وأنفه غارق في الوعاء . عند أسفل الدرج الكبير ، رجل يسجّل اسمه في سجل . عرفه فريدريك من الوراء .

ـ عجباً ، هيسّونّيه !

ـ أجل ، أجاب البوهيمي . أُدخل نفسي في البلاط . أليست مزحة جيّدة ؟

ـ أتريدنا أن نصعد ؟

ووصلا إلى قاعة الجنرالات . جميع رسومهم لم تُصَب بأذى ، باستثناء رسم بوغو وقد أصيب ببطنه . تراهم متكئين إلى سيوفهم ، ووراءهم ركيزة مدفع ، وفي وضعيّات رائعة يُقسمون مع المناسبة . كانت الساعة الأولى والدقيقة العشرون كما تشير ساعة حائط كبيرة .

فجأة ، دوّى نشيد المارسيّاز . انحنى هيسّونّيه وفريدريك على الدرابزون . إنه الشعب ، أسرع في الدرج ، هازّاً بحركات مدوخة ، رؤوساً عارية ، خوذاً قبّعات حمراء ، رماحاً وأكتافاً ، باندفاع إلى حدّ أن منهم مَن كانوا يختفون في هذه الكتلة المتحرّكة ، التي كانت تصعد ، دائماً ، كنهرٍ يدفعه مدّ الاعتدال ، بخوار طويل بتأثير اندفاع لا يُغْلَب . انتشر الشعب في عل ،

وسقط النشيد .

ما عاد يُسمع سوى وقع الأقدام وصخب الأصوات . اكتفى الجمع المسالم بالنظر . إنما ، بين وقت وآخر ، يحطّم مرفق زجاجاً ، أو إناءً ، أو هو يوقع ، عن منضدة مزخرفة ، تمثالاً صغيراً . يطقطق خشب التغطية وقد ضغِط . كل الأوجه حمراء ، ومنها يتصبّب العرق نقاطاً كبيرة . أسرّ هيسّونيه بهذه الملاحظة :

- لا يشمّ الأبطال جيّداً !

- آه ! قال فريدريك ، مزعج أنتَ .

ودخلا ، مدفوعين بالرغم منهما ، شقّة في سقفها قبّة مخملية حمراء . يجلس ، على العرش ، في الأسفل ، بروليتاريّ ذو لحية سوداء ، قميصه مفتوحة ، مظهره جذلان وأبله كما تمثال . يصعد آخرون السلّم ليجلسوا مكانه .

- يا للوهم ! قال هيسّونيه . هكذا الشعب السيّد !

رُفع الكرسيّ المريح على امتداد الأيدي ، واخترق كل الغرفة متأرجحاً .

- تبّاً له ! كيف يترنّح ! مركب سفينة الدولة موّار فوق بحر عاصف ! إنه يُبَطْبِط . إنه ينطبط !

اقتربوا به من نافذة ، وقذفوه ، وسط الصفير .

- يا للشيخ المسكين ! قال هيسّونيه إذ رآه يقع في الحديقة ، حيث حُمل ، من جديد ، بحيويّة ، ليتنزّه حتى الباستيل ويُحْرَق .

حِينها ، تفجّر فرح جنوني ، كما لو أنه ، بدلاً من العرش ، ظهر مستقبل لا محدود من السعادة ، وكسر الشعب ، ومزّق المرايا

والستائر ، الثريّات ، الشماعدين ، الطاولات ، الكراسي ، المقاعد ، الأثاث كله ، حتى ألبومات الرسوم وسلال الجنود . كل هذا تأكيداً لتملّكه أكثر منه انتقاماً . بما أن الانتصار قد حصل ، فيمكن أن يتسلّوا ! لبس الأوباش زيّاً غريباً ساخراً من الدانتيلا والكشمير . لُفّت أهداب الزينة الذهبيّة على أكمام القمصان الواسعة ، زيّنت قبّعات ريش النعام رؤوس الحدادين ، وجُعلت أوسمة جيش الشرف أحزمة للبغايا . كلّ راح يرضي نزوته ، بعضهم يرقص ، ويشرب بعض آخر . تلمّع امرأة ، في غرفة الملكة ، عصابات رأسها بالمرهم ، هاويان يلعبان الورق خلف ستار ، أشار هيسّونيه إلى فريدريك يدلّه على شخص يدخّن غليونه القصير متكئاً على شرفة ، وضاعف الهيجان الضجة المستمرة للبورسلان المحطّم ، وقطع الكريستال التي تردّد صداها طافرة كصفائح الهرمونيكا .

ثم تكدّر الهيجان . فضولية داعرة جعلتهم ينقّبون في كلّ الغرف ، في كلّ خلوة ، يفتحون كلّ الأدراج . أغرق محكومون بالأشغال الشاقة أيديهم في مضاجع الملكات ، وراحوا يتقلّبون فوقها ، عزاءً لهم ، لكونهم ما استطاعوا اغتصابهنّ . آخرون ، راحوا يتسكعون ، بوجوه أكثر عبوساً ، صامتين ، باحثين عن سرقة أي شيء ، لكن الجموع كثيرين كانوا . ما كنت تلاحظ ، من فتحات الأبواب ، في صفّ الشقق المتتالية ، إلاّ كتلة الناس الداكنة بين الأشياء المذهّبة ، تحت غيمة من غبار . كل الصدور لاهثة كانت ، تصير الحرارة خانقة أكثر فأكثر ، وإذ خاف

الصديقان الاختناق ، خرجا .

كانت تنتصب في غرفة الانتظار ، عاهرة ، مقلّدة تمثال الحرية ، جامدة ، مفتوحة العينين ، مخيفة .

ما إن تقدما ثلاث خطوات في الخارج ، حتى وصلت فصيلة من الحرّاس البلديين بمعاطفهم ، تقدموا نحوهما ، وخلعوا قبّعات رجال الشرطة ، كاشفين ، معاً ، عن صلع جماجمهم ، وحيّوا الشعب باحترام كبير . تغطرس المنتصرون ذوو الثياب الرثة عند شهادة الاحترام هذه . فرح بهذا أيضاً هيسّونيه وفريدريك .

لقد أثارتها حماسة . فعادا إلى القصر الملكي . كانت تكدّست جثث جنود على القش في شارع فرومنتو . مرّا قربها هادئي الأعصاب ، فخورين حتى بأنهما أظهرا رباطة جأش .

كان القصر مكتظاً بالناس . في الساحة الداخلية سبع محرقات تشتعل . كانوا يرمون عبر النوافذ ، بيانوات ، صوانات وساعات جدران . كانت مطافىء تضخ المياه حتى السطوح . يحاول أوغاد قطع قساطل بسيوفهم . جعل فريدريك بوليتكنيكيّاً يتدخّل . بدا هذا غبيّاً ، لم يفهم . واستسلم الرعاع ، في الرواقين ، وهم أسياد الأقبية ، إلى شراهة مخيفة . سال الخمر سواقي ، غطّى الأقدام ، راح السوقة يشربون من قعر القناني ويصرخون مترنحين .

قال هيسّونيه :

ـ فلنخرج من هنا ، يقرفني هذا الشعب .

وعلى امتداد ممرّ أورليانز ، جرحى ممدّدون أرضاً على فرش ،

أغطيتهم ستائر قرمزيّة . وتجلب لهم بورجوازيات صغيرات من الحي حساءً ، ثياباً .

قال فريدريك :

ـ لا بأس ! أنا أجد الشعب رائعاً .

كان الدهليز الكبير مليئاً بأناس غاضبين . رجال يريدون الصعود إلى الطوابق العليا للاجهاز على كل شيء ، وحراس وطنيون ، على الدرج ، يحاولون جاهدين منعهم عن ذلك . أجرأهم كان صيّاداً ، حاسر الرأس ، شائك الشعر ، متناثر حمّالات السلاح . قميصه كانت ناتئة بين بطلونه وثوبه ، ويقاتل مستبسلاً وسط الآخرين . عرف هيسّونيه ، وهو ثاقب البصر ، من بعيد ، أرنو .

بعدها انتقلا إلى حديقة التويلّري ليكونا بحرّيتهما أكثر . جلسا على مقعد ، وظلا ، لدقائق ، مغمّضي الجفون ، ضائعين ، إلى حد لم يكونا قادرين على الكلام . كان المارة يتصادمون من حولهما . سُمّيت دوقة أورليانز وصيّة ، انتهى كل شيء ، ورأيتهم يشعرون بهذه النشوة التي تلي النهايات السريعة ، في حين ظهر خدم ، في كلّ سقيفة من القصر ، ممزّقين بذلات الخدم عليهم . يرمونها في الحديقة علامة التوسّل . صاح الشعب بهم ساخراً ، فانسحبوا .

لفت انتباه فريدريك وهيسّونيه قبضاي يمشي بحيويّة بين الأشجار ، وبندقية على الكتف . تحزم سترته الحمراء على خصره ، جعبة خرطوش ، تلتفّ على جبينه ، تحت كاسكيته ،

محرمة . أدار رأسه . إنه ديسّردييه ، وقال ، مرتمياً في أحضانهما :

ـ آه ! يا للسعادة ، يا صديقيّ العزيزين !

وعجز عن قول أيّ شيء آخر ، لكثرة ما هو يلهث فرحاً وتعباً .

لا يزال واقفاً منذ ثمان وأربعين ساعة . كان عمل في الحيّ اللاتيني ، قاتل في شارع رامبوتو ، أنقذ ثلاثة جنود خيّالة ، دخل التويلّري مع رتل دونوبي ، بعدها إلى مقرّ الوزارة ثم إلى دار البلديّة .

ـ ها أنذا آت من هناك ، للتو ! كلّ شيء على ما يرام ! الشعب ينتصر ! العمّال والبورجوازيّون يقبّلون بعضهم بعضاً ! آه ! لو كنتما تعرفان ماذا رأيت ! يا للناس الطيّبين ! يا له من أمر جميل !

وبدون أن يلحظ أنهما من غير سلاح :

ـ كنت واثقاً أنني سأجدكما هنا ! كان الأمر صعباً في وقتٍ ما ، لا بأس !

سالت على خده نقطة دم ، وردّ على سؤالهما ، قال :

ـ أوه ! لا شيء ! خدش رمح !

ـ مع ذلك يجب أن تعتني بنفسك .

ـ باه ! قوي أنا ! ماذا يؤثّر هذا ؟ لقد أُعلنت الجمهوريّة ! سنكون سعداء بعد اليوم . كان يتحدّث صحفيّون أمامي ، من لحظة ، قالوا إنناسنحرربولونيا وإيطاليا ! لا ملوك من بعد ! كلّ الأرض حرة ! كلّ الأرض حرّة !

وفتح ذراعيه بوضعيّة منتصر ، وملتفتاً إلى الأفق ، لكنّ صفّ رجال كانوا يركضون على الرصيف قرب الماء .

ـ آه ! يا للشيطان ! كدت أنسى ! الأقوياء مشغولون . عليّ أن أذهب ! الوداع !

استدار ليهتف إليهما ، وهو يلوّح ببندقيّته :

ـ فلتحيا الجمهوريّة !

كانت ترتفع من مداخن القصر أعاصير من دخان أسود تخالطها شرارات . ويبدو صوت الأجراس ، في البعد ، كتأوّهات مذعورة . وفي كلّ مكان ، يميناً وشمالاً ، يطلق المتصرون النار . وبالرغم من كون فريدريك ليس محارباً ، فقد أحسّ بثورة دمه الغالي . أخذته مغناطيسيّة الجماهير المتحمّسة . راح يتنشّق ، بلذة حسيّة ، الهواء العاصف مليئاً بروائح البارود ، وفي هذا الوقت كان يرتعش بتأثير دفقات حبّ كبير ، حنان فائق وشامل ، كما لو أن قلب الانسانية كلّها ينبض في صدره .

قال هيسّونيه متثائباً :

ـ ربما آن الأوان ، للذهاب لتثقيف السكّان !

تبعه فريدريك إلى مكتبه ، في ساحة البورصة . هو ، راح يكتب لجريدة « تروا » عن الأحداث بأسلوب غنائيّ ، كانت مقالة جيّدة وقّعها . ثم تعشيا معاً في مطعم . كان هيسّونيه ، مطرقاً . فاقت غرائب الثورة غرائبه هو .

حين عادا ، بعد القهوة ، إلى دار البلديّة لمعرفة الجديد ، كان الخادم المعتاد قد عاد إلى الأعلى . تسلّق الحواجز كما ظبي

الجبل ، واستجاب إلى الحرّاس بدعابات وطنيّة .

وعلى ضوء المشاعل ، سمعا إعلان تشكيل الحكومة المؤقتة . أخيراً ، عند منتصف الليل ، عاد فريدريك إلى بيته وقد أنهكه التعب .

- وبعد ، قال لخادمه وهو يساعده في خلع ملابسه ، هل أنت مسرور ؟

- نعم ، بلا شك يا سيّدي ! لكن ما لا أحبّه هو هذا الشعب المنتظم !

حين استيقظ فريدريك ، صباح اليوم التالي ، فكّر في ديلورييه . أسرع إليه . كان قد ذهب المحامي منذ قليل وقت بعدما عُيِّن مندوباً في مقاطعة . كان وصل مساء أمس إلى وزير الداخلية في الحكومة المؤقتة « لادرو - رولاّن » ، وظل يلحّ عليه حتى أعطاه مركزاً ، رسالة . عدا ذلك ، قال البوّاب ، ينبغي أن يكتب الأسبوع المقبل ، ليعطي عنوانه .

بعد هذا ، ذهب فريدريك يرى « المارشالة » استقبلته بخشونه ، رأته أهملها . ذهب حقدها بسبب تأكيدات عودة السلام . كلّ شيء هادىء ، الآن ، ولا سبب للخوف ، أخذ يقبّلها ؛ وأعلنت أنها مع الجمهوريّة - كما كان فعل سيادة مطران باريس ، وكما ينبغي أن تصرّح ، برشاقة رائعة الحماسة ، هيئة القضاء ، مجلس الدولة ، الجمعيّة ، جنرالات فرنسا ، سانغرنييه ، السيّد دو فلّو ، كل البونابرتيّين ، كل الملكيّين ، وعدد كبير من الأورليانيّين .

سريعاً كان سقوط الملكيّـة ، إذ ، بعد زوال الـدهشة الأولى ، عجب البورجوازيّون من كونهم لا يزالون أحياء . بدا الاعدام بلا محاكمة لبعض اللصوص ، وقد رموا بالرصاص بدون تقديم إلى المحاكمة ، شيئاً عادلاً تماماً . وراحوا يردّدون ، لفترة شهر ، عبارة « لامارتين » عن العَلَم الأحمر ، من « أنّه لم يقم إلاّ بدوره (شان دي مـارس) ، بينما العَلَم المثلّث الألـوان » ، الخ . . . وانتظموا ، كلهم ، تحت ظلّه ، لا يرى في ألوانه الثلاثة ، كل حزب ، إلا لونه هو ـ واعداً نفسه ، أكيداً ، بأنه ، حين يصبح الأقوى ، سينزع منه اللونين الآخرين .

ولقد دفع الحزن والتسكع الجميع للخروج من وحدتهم ، لكون الأعمال متوقّفة . وقلّل إهمال الملابس الفرق بين الطبقات الاجتماعية ، راح الكره ، انتشرت الآمال ، وامتلأت الجماهير عذوبة . بدا واضحاً على الوجوه ، تكبّر الحقّ المنتزَع . وكانوا بفرحة عيد شعبي ، لم يكن شيء ، أكثر مرحاً من طابع باريس في الأيام الأولى .

كـان فريـدريـك يـأخـذ « المـارشـالـة » من ذراعهـا ، ويتسكّعان ، معاً ، في الشوارع . تتسلّى ، كانت ، بوريدات تزيّن العُروات ، برايات معلّقة في كل النوافذ ، بملصقات ، من كل لون ، ملصوقة على الجدران ، وترمي ، بين مكان وآخر ، بعض مالٍ في صندوق الاعانات للجرحى ، ومركّز ، هو ، على كرسيّ وسط الطريق . ثم تروح تتوقّف أمام رسوم كاريكاتوريّة تمثل لويس ـ فيليب حلوانياً ، بهلواناً ، كلباً ، مصّاص دماء .

لكن رجال « كوسّيديير » ، كانوا يخيفونها ، إلى حدّ ما ، بسيوفهم وحمّالاتهم . أحياناً أخرى ، تراهم يزرعون شجرة الحرية . والسادة رجال الاكليروس يسهمون بالاحتفال ، مباركين الجمهورية ، يرافقهم خدم ذوو شرائط من ذهب ، والجمهور يرى هذا حسناً جداً . والمنظر الشائع كان رؤ ية وفود ذاهبة إلى دار البلدية تطلب أمراً ما ، لأن كل مهنة ، كل مصنع ، ينتظر كان ، من الحكومة ، النهاية الجذرية لشقائه ، كذلك صحيح أن بعضهم كان يأتي لتقديم النصح ، أو التهنئة ؛ أو فقط لمجرّد زيارة قصيرة ورؤ ية دوران الآلة .

ذات يوم ، نحو منتصف آذار ، وفريدريك يجتاز جسر الأركول لينفّذ مهمّة لروزانيت في الحيّ اللاتيني ، رأى صفاً من أناس بقبّعات غريبة ، ولحى طويلة ، يتقدّم . في الطليعة يمشي زنجي ضارباً الطبل ، وهو موديل قديم في محترف ، والرجل الذي يحمل راية تخفق عليها في الهواء هذه الكتابة : « الرسّامون الفنّانون » ، لم يكن سوى بيلّران .

أشار إلى فريدريك لينتظره ، ثم عاد بعد خمس دقائق ، لأن لديه الوقت الآن ، إذ ان الحكومة تستقبل ، في هذه الأثناء ، قصّابي الصخور . هو ذاهب مع زملائه لطلب تأسيس ميدان للفن ، شكل من سوق يناقشون فيه مواضيع الفن . تنتج عن هذا أعمال رائعة ، إذ الجميع يفيدون من مواهب بعضهم البعض . وقريباً تصبح باريس مغطّاة بتماثيل رائعة يزخرفها ، ولقد بدأ ، حتى ، بواحد يمثّل الجمهورية . جاء واحد من رفاقه يأخذه ، إذ

تتّبعهم وفد من تجار الدواجن .

ـ يا للسخرية ! دمدم صوت من الجماعة . دوماً هناك دعابات ! لا شيء رسمياً !

إنه ريجمبار . لم يصافح فريدريك ، لكنه اقتنصها مناسبة لينثر كآبته .

كان يمضي أيّامه متسكعاً في الشوارع ، مداعباً شاربه ، مبحلقاً بعينيه ، قابلاً ومعمّماً أخباراً محزنة ، وليس لديه سوى عبارتين : « احذروا ، سوف يُطْغى علينا ! » ، أو : « يا للشيطان ! إنهم يوارون الجمهوريّة ! » ما كان راضياً من شيء ، وبخاصّة من كونهم لم يستعيدوا الحدود الطبيعية . فقط ، إسم لامارتين يجعله يهزّ كتفيه . وحين سأله فريدريك عمّا كان يجب أن يحصل ، أجاب ضاغطاً له يده حتى ليسحقها :

ـ استعادة الرين ، أقول لك ، استعادة الرين ! يا للعجب !

ثم شكا ردّ الفعل .

انكشفت حقيقتهم . نهب قصور « نويي » و« سوريسن » حريق « الباتينيول » ، اضطرابات ليون ، كل التطرفات ، كل الشكاوى ، هم يضخّمونها الآن ، مضيفين إليها نشرة « لادرو-رولّان » ، سعر أوراق النقد الالزامي ، الدخل المتراجع ستين فرنكاً ، أخيراً ، كجَوْر أقصى ، كضربة أخيرة ، كرعب فريد ، ضريبة الخمسة والأربعين سنتيماً ! ـ وفوق هذا كله ، هناك الاشتراكية ! بالرغم من أن هذه النظريّات ، الجديدة كلعبة

الاوز ، كانت نوقشت كفاية ، ومن أربعين سنه ، بما يملأ مكتبات ، فقد ظلّت تروّع البورجوازيّين كوابل من النيازك الجويّة . صاروا غاضبين بموجب هذا الكره الذي يحدثه مجيء أية فكرة لأنها فكرة لعينة منها تستمد ، في ما بعد ، مجدها ، وينتج عنها أن يصبح كل خصومها أدنى منها ، مهما بلغ بها التأخّر .

إذن ، فلقد سمت الملكية إلى مستوى الدين وامتزجت بالله . والتشنيعات التي وجّهت إليها ، بدت كأنها تدنيس المقدّسات ، تكاد تكون كأكل لحم البشر . وبالرغم من التشريع الأكثر إنسانيّة ، والممكن حصوله ، فقد عاد للظهور شبح سنة ٩٣ ، واهتزّت قطّاعة المقصلة في كل مقاطع لفظة « جمهوريّة » ؛ — ما لم يكن يمنع احتقارها لضعفها . راحت فرنسا تصرخ ذعراً ، كأعمى بدون عصا ، كطفل فقد مربيته ، إذ شعرت أنها بلا سيد .

والذي ، من الفرنسيّين ، يرتجف الأكثر ، كان السيّد دمبروز . فالوضع الجديد يتهدّد ثروته ، وبخاصة يحتال على خبرته . نظام بهذه الجودة ، ملك بهذه الحكمة ! هل هذا ممكن ؟ ستتصدّع الأرض ! منذ الغد ، سرّح خدماً ثلاثة ، باع أحصنته ، واشترى ، للخروج في الشوارع ، قبّعة هشّة ، فكّر ، حتى ، بإرخاء لحيته . وبقي في منزله ، واهن القوى ، متعلّلاً ، بمرارة ، بالجرائد الأكثر عداء لأفكاره ، وصار كئيباً إلى حدّ ان الدعابات على غليون « فلوكون » ، ما استطاعت أن تنتزع من شفتيه بسمة .

كان يخشى ، كمناصر للنظام القديم ، انتقام الشعب من ممتلكاته في « شمبانيا » . وتذكر وهو يفكر في هذا هذيان فريدريك . فظنّ أن صديقه الشاب رجل ذو تأثير كبير ، وان لم يكن في إمكانه خدمته ، فعلى الأقل يستطيع حمايته ، بحيث انه ، في صباح ما ، ذهب إليه يرافقه مارتينون .

قال ان ليس لهذه الزيارة من هدف سوى رؤيته قليلاً والتحدّث اليه . وبعد مجاملات ، أكبَّ يظهر سروره من الأحداث ، وكان يتمسّك ، من كلّ قلبه ، بـ « شعارنا الرائع : حرية ، مساواة ، أخوة ، وأنه طوال عمره ، جمهوريّ في الصميم » . وان كان يصوّت ، في النظام الماضي ، للوزارة ، فذلك ، بكل بساطة ، ليعجّل سقوطاً لا مفر منه . وغضب ، حتى ، على « غيزو » « الذي أوقعنا في ورطة لا نحسد عليها ، فلنعترف بهذا ! » وبالمقابل ، فهو كثير الاعجاب بلامارتين الذي بدا « رائعاً ، بشرفي ، أما بالنسبة إلى العلم الأحمر . . . » .

ـ نعم ! أعرف ، قال فريدريك .

بعد هذا أعلن تعاطفه مع العمّال .

« لأننا ، أخيراً ، بطريقة أو بأخرى ، كلّنا عمّال ! » وبالغ في التجرُّد حتى الاقرار بأنّ « برودون » على حق . « أوه ! حقّ كثير ! » ثم تحدّث عن معرض الرسم ، حيث رأى لوحة بيلّران رأى هذا طريفاً ، وتأثّر به .

دعم مارتينون كلّ هذه الكلمات بملاحظات استحسانيّة ؛ هو أيضاً يفكّر « في الانضمام بصراحة الى الجمهوريّة » ، وتكلّم

على ابيه الفلاح ، مظهراً أنه قرويّ ، رجل من الشعب . وسرعان ما آل الحديث الى انتخابات مجلس النوّاب ، وإلى المرشَّحين في دائرة « فورتيل » . ورأوا أن لا حظ لمرشّح المعارضة .

ـ يجب أن تحلّ مكانه ! قال السيد دمبروز :

احتجّ فريدريك .

ـ إيه ! لماذا إذن ؟

رأى أنه سينال أصوات المتطرّفين ، لآرائه الشخصيّة ، والمحافظين بسبب انتمائه العائليّ . وأضاف المصرفيّ مبتسماً :

ـ لربما أيضاً ، وإلى حدٍّ ما ، بسبب تأثيري .

اعترض فريدريك أنه لن يعرف كيف يتصرّف .

ـ لا شيء أسهل ، تجعل سكّان « الأوب » يزكّونك عبر نادٍ في العاصمة . ليس المطلوب الجهر بالرأي السياسي كما يحدث يومياً ، بل يجب عرض رصين للمبادىء .

ـ أنقل إليّ هذا ؟ أعرف ما يتوافق وتلك الناحية ! وستقدر ، أكرّر لك القول ، على تقديم مساعدات كبيرة للبلاد ، لنا جميعاً ، لي أنا .

في ظروف كهذه يجب التعاون ، وإذا كان فريدريك في حاجة الى شيء ، هو أو أصدقاؤه . . .

ـ أوه ! شكراً جزيلاً ، سيّدي العزيز !

ـ شرط المعاملة بالمثل ، طبعاً !

كان المصرفيّ ، بالطبع ، رجلاً طيّباً .

ما استطاع فريديك ان يمنع نفسه عن التفكير في

نصيحته ؛ وسرعان ما بهره نوع من النشوة عرض وجوه المؤتمر الكبيرة . بدا له أن فجراً رائعاً سيبرز . روما ، فيينّا ، برلين كلّها في ثورة ، بعد طرد النمساويّين من البندقيّة ؛ أوروبا كلّها تتحرّك . انها ساعة الاسراع بالتحرك ، ولربما دفْعه ؛ ثم أغرّه ثوب النوّاب الذي سيرتدونه . منذ الآن هو يرى نفسه في الصدار المقلوب مع حزام مثلت الألوان ؛ وصارت الرغبة شديدة ، كذلك التخيُّل ، فصارح ديسّردييه .

تحمّس الشاب الطيّب .

ـ طبعاً ، بالتأكيد ! ترشّح !

مع ذلك فقد استشار فريدريك ديلورييه ، الذي كانت المعارضة التي اعاقته في مقاطعته زادت ليبراليّته . فأرسل اليه ، على جناح السرعة ، إرشادات مهمة .

لكنّ فريدريك في حاجة لعدد أوفر من المؤيّدين ، فأسرّ بالأمر إلى روزانيت ، يوماً ، بوجود الآنسة فاتناز .

كانت واحدة من هؤلاء العازبات الباريسيّات اللواتي ، بعد إعطائهنّ الدروس كل مساء ، أو محاولة بيع رسوم صغيرة ، أو ترتيب مخطوطات بسيطة ، يعدن إلى غرفهن والوحل عالق بتنانيرهن الداخليّة ، يحضّرن العشاء ، ووحدهن يأكلنه . ثم إذ يضعن أرجلهن على مدفأة القدمين ، في ضوء قنديل وسخ ، يرحن يحلمن بحبّ ، بعائلة ، ببيت ، بثروة ، بكل ما يعوزهن . وكسواها ، كانت حلمت ، عبر الثورة ، بالانتقام : ـ فاندفعت في دعاية اشتراكيّة جامحة .

ان تحرُّر البروليتاري ، حسب الفاتناز ، غير ممكن إلّا بتحرّر المرأة . تطالب بقبولها في كل الوظائف ، التفتيش عن الأبوّة ، بشريعة أخرى ، بالنقض ، أو ، أقلّه ، « بتنظيم أزكى للزواج » . حينئذ تتزوج كل فرنسيّة من فرنسي أو تتبنّى هَرِماً . يجب ان تكون المرضعات والمولّدات موظّفات يقبضن معاشات من الدولة . ان يكون هناك لجنة لامتحان مؤلفات النساء ، ناشرون خاصون للنساء ، مدرسة بوليتكنيكية للنساء ، حرس وطني للنساء ، كل شيء للنساء! وبما أن الحكم لا يقرّ بحقوقهن، عليهن الانتصار على القوة بالقوة . عشرة آلاف مواطنة ، ببنادق جيّدة ، في وسعهن إرعاب دار البلديّة !

بدا لها ترشيح فريدريك ملائماً لأفكارها . شجّعته مظهرة له المجد يلوح في الأفق . سرّت روزانيت بأن يكون لها رجل يتحدّث في مجلس النواب .

ـ ثم ، لربما سلموك مركزاً جيّداً .

وأصيب فريدريك ، رجل كل النقائص ، بجنون عام . كتب خطاباً وراح يعرضه على السيّد دمبروز .

على ضجة الباب الكبير الذي أغلق ، انشقّ ستار خلف نافذة ، ظهرت امرأة ما سمح له الوقت بمعرفتها ، لكن لوحة ، في غرفة الانتظار ، استوقفته ، انها لوحة بيلّران وقد وضعت على كرسيّ ، مؤقتاً ولا شك .

هي تمثّل الجمهوريّة أو التقدُّم ، بصورة السيّد المسيح قائداً قاطرة ، تخترق غابة استوائية كثيفة . صرخ فريدريك بعد هنيهة تأمّل :

ـ يا للدناءة !

ـ اليس كذلك ؟ قال السيّد دمبروز ، وقد ظهر فجأة على هذه الكلمة ، ومتصوِّراً أنها لا تتعلّق باللوحة بل بالعقيدة المعظّمة عبر اللوحة . وصل مارتينون في اللحظة نفسها . انتقلوا الى الغرفة . وكان فريدريك يسحب من جيبه ورقة حين أطلّت الآنسة سيسيد ، فجأة وقالت بمظهر ساذج :

ـ هل خالتي هنا ؟

قال المصرفي :

ـ تعرفين جيّداً أن لا . لا يهمّ ! اعتبري كأنك في بيتك يا آنستي .

ـ أوه ! شكراً ! سأذهب .

ما كادت تخرج ، حتى بدأ مارتينون يبحث عن محرمته .

ـ نسيتها في سترتي ، أعذراني !

ـ حسناً ! قال السيّد دمبروز .

في الواقع ، لم يكن مخدوعاً بهذه الحيلة ، بل وبدا كأنه يُشجّعها . لماذا ؟ لكن مارتينون عاد بسرعة ، وابتدأ فريدريك بخطابه . قطّب المصرفيّ جبينه ، منذ الصفحة الثانية التي تذكر ، كعيب ، تفوّق المصالح الماليّة ، ثم راح فريدريك يطالب بحرية

التجارة .

- كيف . . . ؟ عفوك !

لم يسمع فريدريك ، وأكمل . يطالب ، هو ، بضريبة الدخل ، بالضريبة التصاعديّة ، بالاتحاد الفيدرالي الأوروبي ، وبتثقيف الشعب ، وتشجيع الفنون الجميلة .

- أين الضرر حين يدخل البلد ، من أشخاص مثل ديلاكروا وهيغو ، مئة الف فرنك كدخل ؟

وينتهي الخطاب بنصائح الى الطبقات العليا .

- لا تبذّروا شيئاً أيها الأغنياء ! أعطوا ! أعطوا !

توقف وبقي واقفاً . مستمعاه الجالسان بقيا صامتين ؛ حملق مارتينون ، والسيّد دمبروز شاحب الوجه . أخيراً ، بدّد عجبه بابتسامة هزيلة ، قال :

- رائع خطابك ! وامتدح كثيراً مبناه لئلا يتحدّث عن المعنى .

أخافته هذه الحدّة من جانب شاب مسالم ، كدلالةٍ خاصة . حاول مارتينون تهدئته . فالحزب المحافظ سيثأر قريباً ، ولا شك ؛ لقد طردوا مندوبي الحكومة المؤقتة من مدن كثيرة : وتعيّنت الانتخابات في الثالث والعشرين من نيسان ، إذن فالوقت كافٍ ، باختصار ، يجب ان يترشّح السيّد دمبروز نفسه في منطقة « أوب » ومن لحظتها ، ما عاد مارتينون فارقه . أضحى سكرتيره وأحاطه باعتناءات بنويّة .

وصل فريدريك عند روزانيت شديد السرور من نفسه .

دلمار كان هناك ، وأخبره أنه يعمل « نهائياً » على أساس أنه مرشّح للانتخابات عن السّين . وفي اعلان منه « الى الشعب » بلهجة رفع الكلفة ، كان الممثل يمتدح نفسه فهو يفهمه ، وهو ، إنّما كوّن لأجل خلاصه ، « معذّباً بالفن » ، الى حد أنه تجسيد له ، مثاله ، ـ ظاناً ، فعلاً ، أنه ذو تأثير عظيم على الجموع ، حتى انه سيقترح ، في ما بعد ، في مجلس وزاريّ ، ان في وسعه إخضاع فتنة وحده ؛ وبالنسبة للوسائل التي سيستعملها ، أجاب :

ـ لا تخف ! أبدي لهم رأسي !

ولكي يذله فريدريك ، أعلمه بترشيح نفسه . وإذ رأى الممثّل الفاشل ان زميله العتيد يطلب الريف ، أعلن انه خادمه وتبرع بأن يرشده في الأندية .

زارا الأندية كلّها ، أو كادا ، الحمر والزرق ، الغاضبون والهادئون ، المتزمّتون والوقحون ، الزاهدون والسّكارى ، من قرّروا موت الملوك ، من ابلغوا بغش البقالة ؛ وحيثما كان ، راح المستأجرون يكرهون المالكين ، يهاجم الشيوعيّون الرهبان ، والأغنياء يتآمرون على الفقراء . كثيرون يريدون ، كانوا ، تعويضات كشهداء الشرطة القدامى ، آخرون يطلبون مالاً للاستفادة من اختراعات لهم ، أو هي تصاميم لأكثر من مشترك*، مشاريع لأسواق إقليميّة ، نظم سعادة عامة . ـ ثم ، هنا وهناك ،

* تجمّع إنتاجي دعا إلى إقامته الفيلسوف الاشتراكي فورييه ، وفيه يعيش العمّال عيشة مشتركة .

بريق ذهن في هذه الغيوم من البلاهة ، نداءات مباغتةكلطخات ، الحقّ المصوغ بتجديف ، وزهور بلاغة على شفتي نذل يحمل ، مباشرة ، حمّالة سيف على صدره العاري . أحياناً أخرى ، يحضر سيّد ، أرستقراطي بسيط السمّات ، يتحدّث عن أمور شعبيّة ، ولا يكون غسل يديه ليُظهرهما خشنتين . يعرفه مواطن ، يوسعه الأكثر تُقى اهانات ، فيخرج والغضب في أعماقه تعاطفاً مع الذوق السّليم ، يجب ذمّ المحامين دائماً ، وخدمة صيغ ، أكثر الأحيان ، مثل هذه : « جلب حجره الى البناء ، ـ مشكلة اجتماعيّة ، ـ محترف » .

ما كان دلمار يهمل المناسبات حيث يمكنه التكلّم ، وحين يعود لا يجد شيئاً ليقوله ، يكون معينه في ان يستقرّ ، ويده على خصره ، ويده الأخرى في سترته ، مستديراً ، فجأة بطريقة يُظهر فيها رأسه جيّداً ، حينها يرتفع التصفيق ، وتصفيق الآنسة فانتاز في عمق الصالة .

ماجرؤ فريدريك على المجازفة برغم ضعف الخطباء بدا له كل هؤلاءالناس إماشديدي الجهل ، أو شديدي العداء .

لكن ديسّردييه طفق يبحث ، وأخبره بوجود نادٍ في شارع سان جاك ، إسمه « نادي الذكاء » . اسم كهذا يثير أملاً ، وفوق ذلك ، سيأخذ هناك أصدقاء .

اصطحب الذين كان دعاهم الى شراب « البنش » . المحاسب ، موزّع الخمور ، المهندس المعماريّ ، بيلّران نفسه

كان جاء ، ولربما أتى هيسّونيّه ؛ ويقف على الرصيف ، أمام الباب ، ريجمبار مع شخصين ، أولهما صديقه كومبان ، رجل يكاد يكون قصيراً ، موسوم بالزّهريّ ، عيناه حمراوان ؛ والثاني نوع من قرد أسود ، كثيف الشّعر ، يعرفه ، فقط ، « كمواطن من برشلونة » .

مرّوا عبر ممرّ ، ثم أدخلوا غرفة كبيرة ، يستعملها ، بلا شك ، نجّار ، وجدرانها التي لا تزال جديدة ، يُشتمّ منها الجص . أربع مسارج معلّقة أفقياً ، تعكس نوراً ضئيلاً . على منبر في آخر الغرفة ، مكتب وجرس صغير ، في الأسفل طاولة تمثّل المحكمة ، ومن الجانبين ، مكتبان أدنى لأمناء السرّ . وكان المستمعون الجالسون إلى المقاعد ، مؤلّفين من رسّامين فاشلين مسنّين ، من معلّمي مدارس ، من رجال أدب غير مطبوع . كنت تجد في صفوف سترات ذات قبّات سميكة ، بين مكان وآخر ، قبّعة امرأة أو بذلة عامل . حتى أن طرف القاعة ، كان مليئاً بالعمّال ، حاولوا ، أكيداً ، لكونهم عاطلين عن العمل ، أو أن خطباء قد أدخلوهم للتصفيق .

اهتمّ فريدريك ليجلس بين ديسّردييه وريجمبار ، الذي ما كاد يجلس حتى وضع يديه على عصاه وأغمض جفنيه ، بينما ، في الطرف الأخير ، يقف دلمار مشرفاً على القاعة كلّها .

ظهر سينيكال على مكتب الرئيس .

ظنّ الموظف الطيّب أن هذه المفاجأة سترضي فريدريك .

هي أغاظته .

كان الجمع يحتفظ باحترام كبير لرئيسه . انه من هؤلاء الذين أرادوا ، في الخامس والعشرين من شباط ، تنظيماً سريعاً للعمل ، كان قرّر ، في الغد ، مهاجمة دار البلديّة . وبما أن كلّ شخص كان يقتدي بمثال ، الواحد ينقل سان جوست ، الآخر دانتون ، الآخر مارا كان هو يحاول أن يتشبّه ببلانكي ، الذي كان يقلّد روبسبير . يجعله قفازاه السوداوان وشعره الواقف ، ذا طابع صلبٍ ، شديد الملاءمة .

افتتح الجلسة بإعلان حقوق الانسان والمواطن ، فعل إيمان عاديّ . ثم بدأ صوت جهوري بإنشاد « ذكريات الشعب » لبيرانجيه .

ارتفعت أصوات أخرى :

ـ لا ! لا ! ليس هذا !

راح المواطنون يزأرون في الطرف :

ـ الكاسكيت * !

وأنشدوا كجوقة :

« ارفع قبّعتك أمام الكاسكيت اركع أمام العامل ! » .

وعلى إشارة من الرئيس ، صمت الجمهور . واحد من أمناء السر ، باشر فرز الرسائل .

---

* رمز البروليتاريا .

ـ يعلن بعض الشباب أنهم يحرقون ، كل ليلة ، أمام البانتيون ، عدداً من جريدة « الجمعية الوطنية » ، ويطلبون إلى كل المواطنين أن يقتدوا بهم .

ـ برافو ! هذا أمر نعتمده ! أجاب الجمهور .

ـ المواطن جان ـ جاك لانغرينو ، طبّاع ، شارع دوفين ، يريد إقامة نصب تخليداً لشهداء ترميدور * .

ـ ميشال ـ إيفاريست ـ نيبوميسين فنسان ، أستاذ سابق ، ينقل أمنية أن تتبنّى الديموقراطية الاوروبيّة وحدة اللغة . يمكن استخدام لغة ميتة كمثل اللاتينية المتطوّرة .

ـ لا ! ليس اللاتينية ! هتف المهندس المعماريّ .

ـ لماذا ؟ أجاب أستاذ .

وشرع هذان السيّدان بمناقشة ، تدخّل فيها آخرون ، يدلي كل برأيه ليبهر ، وما لبثت أن صارت مضجرة للغاية ، فذهب كثيرون .

لكن رجلاً متقدماً في السن يحمل عند أسفل جبهته العالية نظارات خضراء ، طلب الكلمة لنقل خبر عاجل .

كان بحثاً عن توزيع الضرائب . تتتابع الأرقام إلى ما لانهاية ! انفجر نفاد الصبر ، أوّل الأمر ، همساً ، محادثات ، لم يزعجه شيء . ثم راحوا يصفرون ، ينادون « أزور » ؛ أنّب سينيكال الجمهور ، وظل الخطيب يتابع كآلة . واستوجب اسكاته

---

* الشهر الحادي عشر من السنة الجمهوريّة الفرنسيّة .

سحبه من مرفقه . بدا الرجل كخارج من حلم ، وإذ رفع نظاراته بهدوء :

ـ معذرة أيها المواطنون ! معذرة ! أنا أنسحب ! ألف عذر !

فشل هذه القراءة بلبل فريدريك . خطابه كان في جيبه لكن الارتجال أفضل .

أعلن الرئيس أخيراً أنه يجب الانتقال إلى المسألة المهمّة ؛ قضيّة الانتخاب ، ما نوقشت اللوائح الجمهوريّة الكبرى . فضلاً عن ذلك ، فإن « نادي الذكاء » له ملء الحقّ ، كغيره ، في أن يؤلّف واحدة ، « تزعج الباشوات في دار البلديّة » ، والمواطنون المتحايلون على التفويض الشعبي ، يمكنهم تقديم مستنداتهم .

ـ إذن ، هيّا ! قال ديسّردييه .

كان رجل بثوب كاهن ، جعد الشعر ، ذي مظهر نَزِق ، قد رفع يده . أعلن ، متلجلجاً ، أن اسمه « ديكريتو » ، كاهن ومهندس زراعي ، ووضع مؤلفاً عنوانه : « أسمدة » . أرسل إلى دائرة بَسْتَنَة .

ثم ارتقى المنبر مواطن بقميص فضفاض . إنه رجل من عامة الشعب ، عريض الكتفين ، وجهه ضخم وفي غاية اللطف ، وشعره أسود طويل . اخترق الجماعة بنظرة تكاد تكون حسيّة ، أعلى رأسه ، وإذ رفع يديه ، أخيراً ، قال :

ـ أيها الاخوة ! لقد أبعدتم « ديكريتو » ، وحسناً فعلتم ، إنما ليس هذا إلحاداً ، لأننا ، جميعاً ، مؤمنون .

كثيرون استمعوا فاغري الفم ، بهيئة مبتدىء في التعليم ، وبأوضاع ذاهلة .

- وليس أيضاً لأنه كاهن ، فنحن أيضاً كهنة . العامل كاهن ، على غرار مؤسّس الاشتراكيّة ، سيّدنا كلّنا ، يسوع المسيح !

فالوقت كان حلّ لافتتاح ملكوت الله ، يقود الانجيل ، تماماً ، إلى ٨٩ ! بعد هدم العبودية ، تقويض البروليتاريا . فقد انقضى عمر الكره ، ولسوف يبدأ عمر الحبّ .

- المسيحيّة هي مفتاح السماء وأساس البناء الجديد . . .

- هل تدعنا وشأننا ؟ صرخ موزّع الكحول . من أرسل إلينا رجل دين كهذا !

أحدثت هذه المقاطعة فضيحة كبرى . فالجميع ، تقريباً ، صعدوا على المقاعد ، راحوا يصرخون - مهدّدين بقبصاتهم : « ملحد ! أرستقراطيّ ! سافل ! » في حين كان جرس الرئيس يدق بلا انقطاع وصرخات مثل : « النظام ! النظام ! » تتضاعف . إنما ، بما أنه جريء ، ومسنود بثلاثة « فناجين قهوة » شربها قبل المجيء ، راح يقاتل وسط الآخرين .

- كيف ؟ أنا أرستقراطي ! يا للسخف !

وإذ سُمح له بالافصاح ، أعلن أنه لن يكون هدوء مع الكهنة ، ولأن الحديث كان ، للحظات ، عن الاقتصاد ، يكون الأمر في غاية الروعة ، لو تُحذَف الكنائس ، وتُحقّ القرابين ، وكل أنواع العبادات .

اعترض أحدهم مدّعياً أنه ذهب بعيداً .

ـ نعم ! لقد ذهبت بعيداً ! ولكن ، حين يفاجأ مركب صغير بالعاصفة . . .

أجابه آخر دون أن ينتظر انتهاء التشبيه :

ـ موافق ! إنما الهدم مرة واحدة كبنّاء بلا بصيرة .

ـ أنت تهين البنّائين ! زمجر مواطن مغطى بالجص ؛ وراح ، مصراً على الظن أنهم تحدوه ، يقذف شتائم ، يريد القتال ، يتركّز في مقعده . يشق ثلاثة رجال كثيراً ليلقوه خارجاً .

مع ذلك ، ظل العامل يتمسّك بالمنبر .

أخطره السكرتيران بوجوب النزول . اعترض على عدم الحق بإنزاله .

ـ لن تمنعوني عن الصراخ : حب خالد لحبيبتنا فرنسا ! حب خالد أيضاً للجمهوريّة !

حينها ، قال كومبان :

ـ أيها المواطنون ! أيها المواطنون !

وإذ حصل على شيء من الصمت ، لكثرة ما ردّد : « أيها المواطنون » ، ركّز يديه الحمراوين الشبيهتين بجدعة على المنصة ، أمال جسده إلى الأمام ، وقال غامزاً بعينيه :

ـ أظن أنه يجب الافساح في المجال أكثر لرأس العجل .

جميعهم صمتوا ، ظنوا أنهم لم يسمعوا جيّداً .

ـ نعم ! رأس العجل !

انفجرت ثلاثمئة ضحكة دفعة واحدة . ارتجّ السقف . أمام كل هذه الوجوه المهتاجة بالفرح ، تراجع كومبان . أعاد الكرة بلهجة غضبى :

ـ ماذا ! لا تعرفون رأس العجل !

وحدثت حدّة ، جنون . أسرفوا في الضحك ، حتى أن بعضهم وقع أرضاً ، تحت المقاعد .

لم يعد في إمكان كومبان الصمود ، فلجأ إلى ريجمبار وأراد جرّه .

ـ لا ! قال . سأبقى حتى النهاية .

هذه الاجابة جعلت فريدزيك يحزم أمره . وراح يتلفّت يميناً وشمالاً ليستمدّ العون من أصدقائه ، رأى بيلّران على المنصّة أمامه . رآه الفنان بين الجموع .

ـ أريد أن أعرف أين مرشّح الفنّ في كل هذا ؟ أنا ، أنهيت . . .

ـ ليس علينا إلا صنع لوحات ! قال ، بعنف ، رجل هزيل ، وجنتاه ملطّختان بالأحمر .

صرخ بيلّران ليسكتوه .

لكن الآخر تابع بنبرة مأساوية :

ـ ألم يكن في إمكان الحكم ، حتى الآن ، إلغاء البغاء والفقر بمرسوم ؟

وإذ نال ثقة الناس من خلال هذه الكلمة ، تابع مندّداً بفساد المدن الكبيرة .

ـ عار وخيانة ! كان يجب تلقّف البورجوازيين عند الخروج من البيت الذهبي وأن نبصق في وجوههم ! أقلّه إذا لم يكن الحكم يشجّع التعهّر ! لكن موظفي الجمرك ، هم ، تجاه بناتنا وشقيقاتنا ، على بذاءة . . .

لكنّ صوتاً من بعيد ، قال :

ـ هذا غريب !

ـ إدفعوه خارجاً !

ـ ينتزعون منا ضرائب ليسددوا حساب الدعارة ! هكذا ، فإنّ مرتّبات الممثّل المرتفعة . . .

ـ إليّ ! صرخ دلمار .

قفز إلى المنصّة ، أبْعَدَ كل الناس ، واستوى مكانه . وراح يستفيض في شرح الرسالة الحضارية التي للممثل ، معلناً أنه يحتقر مثل تلك التشكيات السخيفة . ولكون المسرح هو مقرّ التثقيف الوطني ، فسيقترع لاصلاح المسرح ، وأوّلاً ، لا إدارات ، لا امتيازات .

ـ أجل ! من أيّ نوع كانت !

ألهب الممثّل بحركاته الجماهير ، وتلاقت الاقتراحات المخرّبة .

ـ لا أكاديميات ! لامؤسسات!

ـ لا رسالات !

ـ لا بكالوريا !

ـ فلتسقط الألقاب الجامعيّة !

ـ لنحافظ عليها ، قال سينيكال ، إنما فلتكن ممنوحة بالانتخاب العام ، بالشّعب ، القاضي الحقيقي الوحيد !

والأكثر أهمية ، ليس هذا . يجب ، أول الأمر ، تجاوز المستوى فوق رؤوس الأغنياء ! وصوّرهم مفعمين بالجرائم تحت سقوفهم الذهبيّة ، بينما الفقراء يتضوّرون جوعاً في أكواخهم ، يعتنون بكلّ الفضائل .

ضجّ المكان بالتصفيق إلى حدّ أنه توقّف . بقي ، للحظات ، مغمض الجفنين ، رأسه إلى الوراء كمن يتمرجح على هذا الغضب الذي يُحدثه .

ثم طفق يتحدث بطريقة عقائدية ، بعبارات حاسمة كالقوانين . على الدولة أن تستولي على المصرف وشركات التأمين . يُلغي نظام الوراثة . يتأسّس رأس مال شركة لمصلحة العمّال . وأمور أخرى كثيرة هي مفيدة للمستقبل . هذه ، الآن ، تكفي . وقال عائداً إلى موضوع الانتخابات :

ـ يلزمنا مواطنون أنقياء ، رجال جدد كليّاً ! هل مَن يتقدّم ؟

نهض فريدريك . حصلت جلبة موافقة ، أحدثها أصدقاؤه . لكن سينيكال ، آخذاً وجهاً على غرار فوكييه ـ تنفيل ، راح يسأله عن اسمه واسم عائلته وآبائه ، وعن حياته وتقاليده .

أخذ فريدريك يجيبه بإيجاز ويعضّ شفتيه . سأل سينيكال إذا ما كان أحد يرى عائقاً لهذا الترشيح .

ـ كلا ! كلا !

لكنه ، هو ، كان يرى . كلهم انحنوا وراحوا يسترقون السمع . ما كان الرفيق المترشح أسهم بمبلغ لمؤسسة ديموقراطية : جريدة . أكثر ، إنه ، في الثاني والعشرين من شباط ، وبالرغم من أنه كان على علم ، فقد تخلّف عن موعد في شارع البانتيون .

ـ أقسم أنه كان في التويلّري ! هتف ديسّردييه .

ـ أتستطيع أن تُقسم أنك رأيته في البانتيون ؟

خفض ديسّردييه رأسه ، صمت فريدريك ، راح أصدقاؤه يتطلّعون إليه بأسى ، مصدومين .

تابع سينيكال :

ـ أقلّه ، هل تعرف مواطناً يخبرنا بمبادئك ؟

ـ أنا ! قال ديسّردييه .

ـ أوه ! هذا لا يكفي ! هل هناك آخر ؟

استدار فريدريك صوب بيلّران . أجابه الفنّان بحركات كثيرة تعني :

« آه ! يا عزيزي ، لقد رفضوني ! يا للشيطان ! ماذا تريد ! »

حينها لكزَ فريدريك ريجمبار .

ـ أجل ! صحيح ! حان الوقت ، فلأذهب !

وحاذى ريجمبار المنبر ، ثم ، دالاً على الاسباني الذي لحق به :

ـ اسمحوا لي أيها الرفاق ، بأن أقدّم لكم وطنياً من

برشلونة .

حيّا الوطنيّ تحيّة كبيرة ، أدار ، كـإنسان آليّ ، عينيه الفضيتين ، وواضعاً يده على قلبه ، انطلق في عبارات طويلة بالاسبانية .

وهتف فريدريك :

ـ أطلب الكلام !

لكن الاسباني تابع كلمته بلغته .

مرة ، بعد ، أراد فريدريك أن يُسمع صوته :

ـ ولكن ، أيها الرفاق . . .

أكمل الاسباني .

فقال فريدريك :

ـ هذا مضحك ! لا أحد يفهم !

هذه الملاحظة أغاظت الجمهور .

ـ أُخرج ! أُخرج !

ـ مَن ؟ أنا ؟ سأل فريدريك .

ـ أنت ذاتك ! قال سينيكال بمهابة : أخرج !

نهض لينصرف . وظل صوت الايبيري يلاحقه بخطابه .

ـ أرسطو ! صرخ سوقي مظهراً قبضة يده لفريدريك الذي كان منطلقاً غاضباً .

لام نفسه على تفانيه من دون أن يفكّر أنّ الشكاوى ضدّه صحيحة . يا للفكرة المشؤومة! فكرة هذا الترشيح ! ولكن يا لهم من حمير ، يا لهم من أوغاد ! راح يقارن نفسه مع هؤلاء الرجال

ويبلسم جرح كبريائه بالمقارنة مع بلاهتهم .

بعدها ، أحسّ بالحاجة لرؤية روزانيت . ستكون راحة هذه الانسانة اللطيفة بعد كل هذه البشاعات والتفاصح . تعرف ، كانت ، انه سيحضر في المساء إلى نادٍ . مع هذا ، لم تسأل حتى ولا سؤال ، حين دخل .

قرب النار كانت تخيط بطانة الثوب . فاجأه عمل كهذا .

ـ عجباً ، ماذا تفعلين ؟

ـ أنت ترى ، قالتها بخشونة . انني أصلح أسمالي ! هذه هي جمهوريّتك .

ـ لماذا جمهوريتي ؟

ـ هل هي جمهوريتي أنا ؟

وراحت تلومه على كل ما يحصل في فرنسا منذ شهرين ، تشتكيه لكونه قام بالثورة ، لكونه سبب الانهيار ، لكون الناس الأغنياء يتركون باريس وهي ستموت في ما بعد في المستشفى .

ـ تتحدّث عنها على مزاجك أنت ومداخيلك ! وإذا سارت الأمور على هذا النحو ، فلن تدوم طويلاً مداخيلك .

قال فريدريك :

ـ معقول ، فالأكثر تفانياً هم ، دائماً ، غير مقدّرين ؛ وإذا لم يحافظوا على ضمائرهم ، فالمتوحّشون الذين يجازفون معهم يدفعونهم للقرف من التفاني .

تطلّعت اليه روزانيت ورموشها متقاربة .

ـ هه ؟ ماذا ؟ أيّ تفانٍ ؟ الظاهر انك لم تنجح ؟ هذا

افضـل ! سيعلمك هـذا ان تقوم بـأعطيـات وطنيّة . أوه ! لا تكذب ! أعرف أنك أعطيتهم ثلاثمئة فرنك ، لأن جمهوريتك تحبّ الانفاق عليها ! إمرح معها أيها الرجل الطيّب !

انتقل فريدريك ، تحت هذا الوابل من الحماقات ، من خيبة الى خيبة أكثر ثقلاً .

انسحب الى آخر الغرفة . ذهبت اليه .

ـ هيّا ! فكّر قليلاً ! في الوطن كما في البيت لا بد من سيّد . بطريقة أخرى ، كلٌ يجعل مقبض السلّة يرقص . أوّلاً ، كلُّ الناس يعرفون ان ليدرو ـ رولّان غارق بالديون ! وبالنسبة للامارتين ، كيف تريد أن يتأقلم شاعر مع السياسة ! آه ! لقد اعليت رأسك ، وظننت نفسك أذكى من الآخرين ، على ايّ حال ، هذا صحيح ! لكنك تناقش دائماً ؛ لا يمكن القاء كلمة معك ! هاك ! مثلاً ، فورنييه ـ فونتين ، محلّات سان روك ؛ اتعرف كم ينقص ! ثمانمائة الف فرنك ! و « غومر » الحزّام ، وفي المقابل ، هو جمهوري آخر ، يكسر ، كان ، ملاقط صغيرة على رأس زوجته ، ولقد شرب كثيراً من الابسنت الى حدٍّ سينقلوه الى دار صحّة . هكذا ، هم جميعاً ، الجمهوريّون ! جمهورية بنسبة خمس وعشرين في المئة ! آه نعم ! تبجَّح أنت !

خرج فريدريك . دفعته للقرف غبـاوة هذه الفتـاة اذ انكشفت ، فجأة ، بلغة سوقيّة . شعر انه عاد وطنيّاً .

تفاقم مزاج روزانيت السيّء . تغضبها الآنسة ڤانتاز بحماسها . كانت ظنّت ذلك رسـالة ، فخـطبت باطنـاب ،

وغطت ، واذ هي أقدر من صديقتها في هذه المواضيع ، فقد أثقلتها بالبراهين .

وصلت ذات يوم غاضبة من هيسّونيّه الذي كان أجاز لنفسه خلاعات في جمعيّة النساء . سُرَّت روزانيت بهذا السلوك معلنة ، حتى ، انها ستتنكّر بثياب رجل لتذهب « تخبرهن بواقعهن وتجلدهن جميعاً » . وفي اللحظة ذاتها ، دخل فريدريك .

- سترافقني ، أليس كذلك ؟

وبالرغم من وجوده ، راحتا تتخاصمان ، متصرّفة الواحدة كبورجوازية والثانية كفيلسوفة .

النساء ، بحسب رأي روزانيت ، مخلوقات ، قَطْعاً ، للحبّ أو لتربية الأولاد ، لادارة بيت .

وبحسب الآنسة فانتاز ، يجب ان تجد المرأة مركزاً لها في الدولة . قديماً ، كانت الفرنسيات تشترعن ، والانكلوساكسونيّات أيضاً ، وزوجات « الهورون » كنّ جزءاً من المجلس . فالعمل الحضاري كان موحّداً . عليهن ، جميعهن ، الاسهام فيه ، وإبدال الأنانية بالأخوّة ، الفرديّة بالجماعيّة ، وبالتجزئة الثقافة الواسعة .

- حسناً ، كفى ! أصبحت تتحدّثين بالثقافة أنتِ !

- لِمَ لا ، على كل حال ، فالأمر متعلّق بالانسانيّة ، بمستقبلها !

- اهتمّي بمستقبلك أنتِ !

- هذا يخصّني وحدي !

غضبتا . تدخّل فريدريك . حنقت فانتاز وتوصلت ، حتى للمدافعة عن الشيوعيّة .

ـ يا للحماقة ! قالت روزانيت . أيمكن ان تتحقق في وقتٍ ما ؟

ذكرت الأخرى ، كمثال ، « الاسينيين » ، الاخوة موراف ، يسوعيّي الباراغواي ، عائلة البنغون ، في أوفيرن قرب تيير ؛ وبما انها كانت تقوم بحركات كثيرة ، فقد أخذ سلسال ساعتها بعلبة حليّها ، بخروف ذهبي صغير متدلٍّ .

وفجأة ، شحبت روزانيت شحوباً شديداً .

تابعت الآنسة فاتناز تخليص علبتها .

ـ لا تزعجي نفسك لهذه الدرجة ، قالت روزانيت . بتُّ اعرف ، الآن ، آراءك السياسيّة .

ـ ماذا ؟ أجابت فاتناز ، وقد احمرّت كعذراء .

ـ أوه ! أوه ! إنكِ تفهمينني !

لم يفهم فريدريك . فبينهما ، أكيداً ، طرأ أمر اهمّ وأكثر حميميّة من الاشتراكيّة .

ـ ومتى يحدث هذا ؟ قالت الفاتناز وقد وقفت باقدام . إنه قرْض يا عزيزتي ، دَيْن لقاء ديْن . !

ـ نباً لكِ ، لا أنكر ديوني ! لبضعة آلاف فرنك ، قصّة والله ! على الأقل أقترض أنا ، لا أسرق أحداً .

جهدت الآنسة فاتناز لتضحك .

ـ أوه ! أضع يدي في النار .

ـ إحذري ! هي يابسة تماماً ، تحترق .

قدّمت لها العانس اليد اليمنى ، وقالت وهي محتفظة بها مرفوعة في وجهها :

ـ لكن هناك كثيرين من أصدقائك يجدونها كما يشتهون !

ـ أندلسيّون إذن ؟ كصنّاجات !

ـ عاهرة !

حيّتها « المارشالة » تحيّة كبرى ، قالت :

ـ ليس هناك أكثر فتنة !

لم تجب الآنسة فاتناز بشيء . ظهرت نقاط عرق على صدغيها . تجمّدت عيناها على السجّادة . كانت تلهث . توجّهت ، أخيراً ، نحو الباب ، قالت وهي تصفقه بقوة :

ـ بونسوار ! ستصلك أخباري !

ـ بالتوفيق ! قالت روزانيت .

هدّها ارهاقها . تراخت على الأريكة ، مرتجفة ، هامسة شتائم ، ساكبة دموعاً . أكان وعيد فاتناز ما يؤرّقها ؟ لا ! فهي تهزأ به تماماً ! في النهاية ، الأخرى مدينة لها ، ربما ! وانسلّ اسم دلمار وسط دموعها . اذن ، فهي تحبّ الممثّل !

وتساءل فريدريك : « اذن ، لماذا أخذتني ؟ من أين عاد ؟ من يضغط عليها لتحتفظ بي ؟ ما معنى كلّ هذا ؟ »

تتابعت شهقات روزانيت القصيرة . ما تزال على طرف الأريكة ، ممدّدة على جنبها ، خدّها الأيمن على يديها الاثنتين ، ـ وبدت كائناً لطيفاً ، غير واعٍ ومتألماً ، فاقترب منها ، وبرفق قبّلها

على جبينها .

حينها ، أكّدت له حنانها ، سيكونان حُرّين بعد ذهاب الأمير . لكنها تجد نفسها ، حاليّاً ، منزعجة . «رأيتني بنفسك ، أنت ، ذلك اليوم ، حين كنت استعمل بطاناتي العتيقة » . لا عربات الآن ! وليس هذا كلّ شيء . فالمنجّد يهدّد باستعادة أثاث الغرفة والصالون الكبير . هي لا تدري ماذا تفعل .

رغب فريدريك لو يجيب : « لا تحزني أبداً ! سأدفع ! » لكن ، ربما هي تكذب . علّمته التجربة . فتوقف ، فقط ، عند التعزيات .

ما كانت مخاوف روزانيت بلا طائل . وجب ردّ الأثاث ومغادرة الشقة الجميلة في شارع دروّو . أخذت أخرى ، على بولفار « بواسّونيير » ، في الطابق الرابع . طُرَف صالونها القديم كانت كافية لتسبغ على الغرف الثلاث طابعاً مغناجاً . ركّبت ستائر صينيّة ، خيمة على الشرفة ، وفي الصالون سجّادة من البازار لا تزال جديدة كليّاً ، مع طنافس من حرير زهريّ . ساعدها فريدريك كثيراً بمشترياتها هذه ، كان يشعر بفرحة متزوّج حديث العهد ، يمتلك بيتاً له ، وامرأة . ولكونه يستقر هنا كثيراً ، هو يأتي ، كل مساءٍ تقريباً ، ينام .

ذات صباح ، وهو خارج من غرفة الانتظار ، لمح في الطابق الثالث ، على الدرج ، قلنسوة جندي صاعد من الحرس الوطني . إلى أين هو ذاهب ؟ انتظر فريدريك . لا يزال الرجل يصعد ، والرأس محنيّ قليلاً . رفع عينيه . انّه السيّد أرنو . فالوضع

واضح . احمرّا معاً ، وقد اعتراهما الارتباك نفسه .

وجد ارنو وسيلة ، قبل الآخر ، للخروج من حيرته .

- هي أحسن ، اليس صحيحاً ؟ كما لو انّ روزانيت مريضة وجاء ليعودها .

استفاد فريدريك من هذه الوسيلة .

- أجل ، طبعاً ! خادمتها اعلمتني بهذا . يريد القول انها لم تستقبله .

ثم بقيا متواجهين ، غير مقرّرين ، وناظرين واحدهما الى الآخر ، يريد ، كل منهما ، ألاّ يخرج . بتّ أرنو المسألة مرة بعد .

- آه ! أعود في ما بعد ! أين تريد الذهاب ؟ أرافقك ؟

وحين صارا في الشارع ، تحدّث بصورة طبيعيّة كالمعتاد . لا يملك طبعاً حسوداً أو هو رجل طيّب جداً فلا يغضب .

على كل حال ، فالوطن يشغله . لقدبـات لا يتخلّى ، الآن ، عن اللباس العسكريّ . في التاسع والعشرين من آذار ، كان دافع عن مكاتب جريدة « الصحافة » . عندما هاجموا مجلس النوّاب ، امتاز بشجاعته ، وكان واحداً من المأدبة الكبرى التي أقيمت لحرس « أميانس » الوطنيّ .

وهيسونيّه هو الأكثر استفادة من مطرته وعلب سيجاره ، فهو دائم الخدمة معه . انما ، لكونه وقح الطبع ، يروح يتسلّى بمعـارضته ، ذامّـا أسلوب المـراسيم الـركيـك ، محـاضـرات اللوكسمبور ، التيروليّين ، كل شيء ، حتى عربة نقل الفلاحة

التي تجرّها جياد بدلاً من الثيران ، ومرافقة فتيات بشعات . أرنو ، على العكس ، يدافع عن السُّلطة ويحلم بحل الأحزاب . مع ذلك ، فأعماله تأخذ وجهة سيّئة . وما كان كثير الأسف عليها .

لم تحْزنه قط علاقات فريدريك و«المارشالة» . لأنّ هذا الاكتشاف أباح له (في سريرته) ، قطع النفقة التي كان اعادها لها بعد رحيل الأمير . تذرع بعائق المناسبات ، انتحب كثيراً ، وكانت روزانيت كريمة . ولأنه لا يشكّ بأن فريدريك لا يدفع للمارشالة ، تراءى له ان « يقوم بمقلب » ، توصّل ، حتى ، الى ان يختبىء ويخلي له الجو ، حين يلتقيان .

هذه الشراكة كانت تجرح فريدريك . وبدت له ملاطفات منازعه سخرية طالت كثيراً . ولكن ، حين يأخذه الحنق ، يحذف كل خط للعودة الى الأخرى ، وهذه هي الوسيلة الوحيدة لسماع شيء عنها . وكان تاجر الخزفيّات ، حسب عادته ، أو ربما فكراً ، يذكرها طوعاً في محادثاته ، ويسأله ، حتى ، لماذا هو بات لا يأتي لرؤيتها .

وإذا استنفد فريدريك كلّ حججه ، أكّد انه ذهب عند السيّدة أرنو مرات عدة بدون طائل . اقتنع أرنو ، لأنه ، غالباً ما كان يشكو أمامها غياب صديقهما ، وتجيب دائماً أنه لم يأت بطريقة ما تجعل هاتين الكذبتين ، بدلاً من ان تنفضحا ، هما تتأيّدان .

صار أرنو يحبّه أكثر للطافته وللفرح بكونه مخدوعاً ، ويدفع الالفة حتى آخر الحدود ، لا احتقاراً ، انما ثقة . كتب اليه ، ذات

يوم ، انّ عملاً سريعاً يمسكه في الريف لأربع وعشرين ساعة ، ويتوسّل اليه أن يحرس بدلاً منه . لم يجرؤ فريدريك حتى الرفض ، وحضرالى مخفر كارّوسيل .

كان عليه ان يحتمل مجتمع الحراس الوطنيّين ! بدوا له ، جميعاً ، أكثر بهيمية من جعبتهم ، باستثناء مطهّر ، هورجل ظريف يشرب بطريقة مفرطة . كان الحديث الرئيسي يتعلق بابدال حمالة السلاح بالنطاق . آخرون حنقون ضد المحترفات الوطنيّة . كنت تسمعهم يقولون : « الى أين نحن ذاهبون ؟ » ومن يسمع يُجب ، فاتحاً عينيه كما لو هو على شفير هاوية : « إلى أين نحن ذاهبون ؟ » حينها يهتف انسان أكثر جسارة : « لا يمكن ان يدوم هذا ! يجب التخلّص من هذا ! » وضجر فريدريك حتى الموت : كانت الأحاديث نفسها تتكرّر كلّ مساء .

مفاجأته كانت كبيرة ، حين رأى أرنو ، في الحادية عشرة ، وقد جاء قائلاً : انه اقبل مسرعاً ليحرّره بعدما أنهى عمله .

لم يكن له عمل ، انه اختراع ليُمضي ، وحيداً ، أربعاً وعشرين ساعة مع روزانيت . لكنّ أرنو الطيّب كان كثير الظنون ، بحيث انه ، وهو في عياء ، سيطر عليه تبكيت . جاء يشكر فريدريك ويدعوه للعشاء .

ـ الف شكر ! لست جائعاً ! لا أريد سوى أن أنام !

ـ هذا سبب آخر لنتعشى معاً ، باكراً ! يا لك من فاتر الهمّة ! لا نعود الى بيتنا الآن ! الوقت متأخر ! وهناك خَطَر !

استسلم فريدريك ، مرة بعد . جامل أرنو إخوته بالسلاح

وبشكل خاص المطهّر : ما كانوا ينتظرون رؤيتـه . جميعهم يحبّونه . ولقد كان فتى طيّباً حتى انه أسف لعدم وجود هيسّونيّه . لكنه بحاجة ليُغمض عينيه دقيقة لا أكثر .

- تمدّد قربي ، قال لفريدريك ، وهو ينطرح بطوله على سرير المخيّم ، بدون ان ينزع عنه حمّالات السلاح .

رغماً عن النظام ، أحتفظ ببندقيّته خوفا من انذار بغارة ، بعدها ، تمتم بضع كلمات : « حبيبتي ! يا ملاكي الصغير ! » وما لبث ان غفا .

صمت من كانوا يتكلّمون . منزعجاً من البراغيث ، أخذ فريدريك ينظر حواليه . وسط الجدار الأصفر العالي ، لوح طويل تشكّل فيه الأكياس سلسلة من حدبـات صغيرة ، بينـما في الأسفل ، قائمة البنادق ، ذات اللون الرصاصي ، الواحدةقرب الأخرى . يرتفع غطيط الحراس ، وقد ارتسمت بطونهم بغير وضوح في الظل . تغطّي الموقد قنينة فارغة وصحون . تحيط بالطاولة المتناثر عليها ورق لعب ثلاث كراسي قشّ . وسط المقعد طبلٍ متدلّية قدّته . والهواء الساخن النافذ عبر الباب يجعل السراج يدخّن . كان أرنو ينام فاتح الذراعين ، وبما ان قندق بندقيّته الى اسفل وبشكل منحرفٍ نوعاً ، كانت الفوهة تصل تحت ابطه . لحظ ذلك فريدريك وخاف .

« إنما لا ! مخطىءأنـا ! لا شيء يُخْشى ! مع ذلـك لو يموت . . . » .

وفجأة ، راحت لوحات كثيرة لا تُحصى تمرّ بباله . رأى

نفسه معها ، ليلاً ، في محطة للمسافرين ، ثم على ضفّة نهر في مساء صيفي ، وتحت انعكاس قنديل « عندهم » ، في « بيتهم » . ولقد توقّف ، حتى ، عند حسابات الأسرة ، وعند ترتيبات الخدم ، متأملاً ، لامساً ، منذ الآن ، سعادته ؟ - وليحقّق ذلك ، فما عليه إلاّ ان يضغط ديك البندقيّة ! بالمستطاع دفعه بواسطة إصبع الرجل ، تنطلق الطلقة ويكون الأمر صدفة ، لا أكثر !

توسّع فريدريك بهذه الفكرة ككاتب مسرحّي يؤلّف . بدا له ، فجأة ، انها ليست بعيدة التحقيق ، وانه سيفعل ، أحسّ رغبة تدفعه الى هذا . فاستبدّ به خوف كبير شعر بلذّة ، وسط هذا القلق . واستغرق في الفكرة ، أكثر فأكثر ، شاعراً ، بخوف ، انّ وساوسه تختفي . في رعب رؤ ياه ، امحى سائر الكون ، وما عاد وعى نفسه إلاّ عبر ضيق لا يطاق ، في الصدر .

- نشرب نبيذاً أبيض ؟ قال مطهّر الهواء الذي استيقظ .

قفز ارنو مسرعاً ، وإذ شرب نبيذاً أبيض أراد القيام بدور فريدريك في الحراسة .

ثم اصطحبه للغداء في شارع شارتر ، عند بارلي . ولأنه بحاجة لاستعادة قواه طلب لنفسه صحنين من اللحم ، سرطان بحرٍ ، عجّة بيض بالروم ، سلطة ، الخ ، مرويّة كلّها بالنبيذ المعتّق ، بالاضافة الى الشامبانيا والتحلية والمشروبات الروحيّة .

لم يعترضه فريدريك ، إطلاقاً . منزعجاً كان ، كما لو ان

الآخر اكتشف ملامح فكر على وجهه .

كوعا ارنو على طرف الطاولة ، وهو جدٌّ منحنٍ . وإذ يرهقه أرنو بنظره ، يبوح له بتصوّراته .

يرغب ، كان ، باستئجار كل ردْميّات جبهة الشمال ليزرعها بطاطا ، أو بتنظيم موكب هائل على الشوارع العريضة ، يكون فيه « عظماء العصر » . يستأجر كل النوافذ ، بمتوسط ثلاثة فرنكات ، مما يضمن له ربحاً معقولاً . وباختصار ، يحلم ، كان بثروة كبيرة عن طريق الاحتكار . مع ذلك ، فقد كان أخلاقيّاً ، يستنكر الانحراف ، سوء السّيرة ، يتحدّث عن « أبيه المسكين » ، ويفحص ضميره ، كما يقول ، كل ليلة ، قبل ان يسلّم روحه لله .

ـ قليلاً من الكوراسّو*، اليس كذلك ؟

ـ كما تشاء .

أمّا بالنسبة للجمهورية ، فستتنظّم الأمور ؛ وسيكون الرجل الأسعد في الأرض ، وناسياً نفسه ، راح يمتدح صفات روزانيت ، وحتى قارنها بزوجته . انها لشيء آخر ،! لا تتصوّر افخاذاً بهذا الجمال .

نخبك ! :

دق فريدريك كأسه بكأس أرنو . مسايرة ، كان أكثر من الشراب إلى حدٍّ ما . وبالاضافة الى هذا فالشمس تبهره . وحين

* شراب مسكر منكّه بقشر نوع من البرتقال المجفّف .

صارا ، معاً ، في شارع فيفيانّ ، كانت كتفاهما تتلامسان بأخوّة .

وإذ دخل فريدريك بيته ، نام حتى السّابعة . بعدها ذهب عند « المارشالة » . كانت خرجت مع أحدهم . لربما مع أرنو؟ وبما انه لم يدر ما يفعل ، أكمل نزهته على البولفار ، لكنه ما استطاع تجاوز بوّابة سان مرتان ، لكثرة الازدحام .

كان الفقر يهمل عدداً كبيراً من العمّال ، يتركهم وشأنهم ، فيجتمعون ، هنا ، كلّ مساء ، يعرضون وضعهم ، ولا شك ، وينتظرون اشارة . « اندية اليأس » هذه ، تتزايد بشكل مخيف ، بالرغم من وجود قانون يحرّم التجمهرات ، والكثيرون من البورجوازيين يتوجّهون ، يوماً اليها ، تبجّحاً ، دُرجةً .

رأى فريدريك ، فجأة ، وعلى خطوات ثلاث منه ، السيّد دمبروز ومارتينون ، أدار رأسه ، لأن السيّد دمبروز كان نجح في ان يعينّ مندوباً ، فضمر له الحقد . انما أوقفه الرأسمالي .

ـ كلمة واحدة ، سيّدي العزيز . لديّ أمور أوضحها لك .

ـ لا أسألك شيئاً .

ـ أكون ممتناً لك ! اسمعني .

ما هذا خطأه ، كان ، اطلاقاً . هم توسّلوا اليه ، إنّه مجبرٌ الى حدٍّ ما . ساند أقواله مارتينون : قدمت اليه وفود كثيرة من نوجان .

ـ على كل حال ، ظننتني أكون حراً ، طالما . . .

دفعة من الناس على الرصيف الزمت السيّد دمبروز على

الابتعاد . عاد بعد هنيهة ، ليقول لمارتينون :

ـ ان هذا خدمة حقيقيّة ! لن تأسف عليها أبداً . . .

أسند الثلاثة ظهورهم الى حائط محل ، قصد التحدّث بحريّة .

يُسمع ، بين وقت وآخر ، صراخ : « ليحيا نابوليون ! ليحيا باربيس ، ليسقط ماري ! » . يتحدث الجمع اللايُحصى بصوت عالٍ جداً : ـ وكل هذه الأصوات ، معكوسة بالبيوت ، تؤلّف ، كانت ، شبه ضجيج الأمواج الدائم في مرفأ . ويسكتون أحياناً ، فتسمع نشيد المارسيّاز يرتفع . وتحت ارتاج ، يعرض رجال ، بملامح غامضة ، عصياً بنبال . وإذ يمرّ أحياناً كائنان ، الواحد أمام الآخر ، يغمزان ويبتعدان بمهارة . تشغل الأرصفة جماعات من المتسكّعين ، يتحرّك ، على البلاط ، جمهور مزدحم . تطل من شوارع ضيّقة زمر كاملة من رجال الشرطة وتختفي ما ان تظهر . أعلام حمراء صغيرة ، هنا وهناك ، تبدو كلهب ، يقوم الحوذيّون ، من على مقاعدهم العالية ، بحركات كبيرة ثم يعودون . إنه حركة ، مشهد من الأكثر غرابة .

قال مارتينون :

ـ كم كان هذا سلّى الآنسة سيسيل !

ـ تعرف تماماً انت ، أن زوجتي لا تحبّ أن تأتي قريبتي معنا ، أجاب السيّد دمبروز ضاحكاً .

يكاد لا يعرف . لثلاثة أشهر كان يصرخ : « فلتحيا الجمهوريّة ! » وحتى كان صوّت لنفي الأورليانيين لكنّ التساهلات

يجب ان تنتهي . يبدو غاضباً إلى حدّ يحمل ، في جيبه ، دبّوساً*.

مارتينون كذلك ، يملك مثله . كان انسحب من النيابة العامة ، بما ان هيئة القضاء لم تعد ثابتة ، وصار انف من السيّد دمبروز .

يكره المصرفيّ ، بخاصة ، لامارتين (لكونه دعم لادرو-رولّان) ، ومعه بيار لورو ، برودون ، كونسيداران ، لاوزيه ، كل المغامرين ، كل الاشتراكيّين .

- فماذا يريدون ؟ الغي رسم الدخول على اللحم وسجن المَدين ؛ والآن يُدرَس مشروع مصرف للرهن العقاري ذلك اليوم ، كان مصرفاً وطنياً ! وهاك خمسة ملايين في الموازنة للعمّال ! إنما ، لحسن الحظ ، انتهى ، بفضل السيّد دو «فلّو» ! رحلة سعيدة ! فليذهبوا !

في الواقع ، كان وزير الاشغال العامة ، وقّع في هذا اليوم ، إذ هو احتار كيف يعيل المئة وثلاثين الفاً من رجال الوُرش الوطنيّة ، قراراً يدعو فيه كل المواطنين بين الثامنة عشرة والعشرين للخدمة كجنود أو للذهاب الى الريف وفلاحة الأرض .

أغضبهم هذا الخيار ، فهم كانوا مقتنعين بأن هناك إرادة ما لتقويض الجمهوريّة . تفجعهم الحياة بعيداً عن العاصمة كمنفى . تصوّروا أنفسهم يموتون بالحمّى في مناطق وحشيّة . زد على ذلك ، أنّ الكثيرين من المعتادين الأعمال السّهلة رأوا الزراعة

---

* عصا محدّدة الرأس .

إذلالاً لهم ، رأوا الأمر خديعة ، تافهاً ، إنه الرفض القطعي لكلّ التعهُّدات . يقاومون ؟ تُستَعمَل القوّة . ما شكّوا في ذلك وراحوا يتأهّبون للتحذير منها .

ارتدّت التجمهرات الصاخبة التي تشكّلت في الباستيل وفي الشاتليه الى البولفار ، في حوالى التاسعة . من بوّابة سان دني الى بوّابة سان مارتان ، تجمهر هائل ، كتلة واحدة بأزرق غامق يكاد يكون أسود . عيون الرجال التي كانت تراهم ملتهبة ، لونهم شاحب ، وجوههم هزيلة بفعل الجوع ، ساخطة بسبب الظلم . في هذا الوقت كانت تتكدّس غيوم . صارت الجماهير ، بسبب السماء العاصفة التي ألهبت حماسها ، تدور على ذاتها ، غير مقرّرة ، متأرجحة كأمواج صاخبة ، تشعر ، كنت ، في أعماقها ، بقوّة عظيمة ، وشبه طاقة عنصر . ثم طفقوا ، جميعاً ، يغنّون : « مصابيح ! مصابيح ! » نوافذ كثيرة لم تُضأ ، رشقوها بالحصى . رأى السيّد دمبروز أن من الحكمة الذهاب . رافقه الشابان .

كان يتوقّع مصائب كبيرة . يستطيع الشعب ، مرة بعد ، اقتحام المجلس ، وبهذا الخصوص ، روى كيف كان ليموت في الخامس عشر من نوّار لولا تضحية أحد أفراد الحرس الوطني .

ـ لكنه صديقك ، كدت أنسى ! صديقك صانع الخزفيّات ، جاك أرنو ! ـ كاد رجال الثورة يخنقونه ، أنقذه هذا المواطن الطيّب : حمله بيديه وأخذه جانباً . من حينها ، توثّقت بينهما علاقة ما . ـ يجب ان نتعشّى معاً ، في مرةٍ ما ، وبما انك كثيراً ما تراه ، أكّد له انني أحبّه . انه رجل ممتاز ، مفترى عليه ،

برأيي . هو نبيه ! تحيّاتي اليه ، مرة بعد ! طبت مساءً ! . . .

بعدما غادر فريدريك السيّد دمبروز عاد عند « المارشالة » ؛ وبمظهر كامد جداً قال انّ عليها الاختيار بينه وبين أرنو . أجابت بعذوبة أنها لا تفهم هؤلاء « القصار ذوي السّمنة » ، لا تحبّ أرنو ، لا تتعلّق به إطلاقاً . كان فريدريك عطشاً لترك باريس ما اعترضت وغادرا ، في الغد ، إلى فونتينبلو.

يتميّز الفندق الذي فيه نزلا ، عن الفنادق الأخرى ، بنافورة مياه مسقسقة وسط ساحة . تنفتح أبواب الغرف على ممشى ، كما في الأديار . غرفتهما ، كبيرة كانت ، فيها أثاث جيّد ، مفروشة بالهندي*. وهادئة نسبة لندرة المسافرين . أمام البيوت ، يمرّ بورجوازيّون لا عمل لهم . وحين تطلع الشمس ، يلعب تحت نوافذهم ، في الشارع ، أولاد لعبة الحواجز ؛ ـ وهذا الهدوء ، بعد ضجيج باريس ، أحدث لهما مفاجأة ، راحة .

ذهبا ، في الصباح الباكر ، يزوران القصر . وبما انهما دخلا عبر السور ، فقد رأيا واجهته كلّها ، مع الأجنحة الخمسة ذات السقوف العالية ، ودرجه الهلالي الممتد حتى طرف السّاحة ، يُزخرفه ، من اليمين ومن الشمال ، بناءان أدنى علواً في البعيد ، يمتزج بهق الحجر على البلاط بأسلوب القرميد المتوحّش . وكل القصر ، الصديء اللون كلأمة عتيقة ، يميّزه شيء ، ذو فخامة هادئة ، نوع من عظمة عسكريّة وحزينة .

---

* نسيج قطني مطبّع ومشجّر كان يُصنع في الهند .

ظهر ، أخيراً ، خادم يحمل علبة مفاتيح . أطلعهما ، أوّلاً ، على أجنحة الملكات ، فمصلّى الباب ، فمقصورة فرنسوا الأوّل ، بعدها طاولة الأكاجو الصغيرة التي عليها وقّع الأمبراطور استسلامه ، وفي واحدة من الغرف التي تقسم قاعة عرض الأيائل العتيقة ، المكان الذي قتلت فيه كريستين مونالديتشي . استمعت روزانيت الى هذه القصة باهتمام ، ثم التفتت الى فريدريك ، قالت :

ـ كان هذا حسداً ، ولا شك ؟ إحذر !

بعد هذا ، انتقلا الى قاعة المجلس ، فقاعة الحرس ، فقاعة العرش ، وصالون لويس الثالث عشر . يصل من النوافذ العالية ، والتي هي بلا ستائر ، نور أبيض ، يعلو غبار خفيف مسكات غلّاقات النوافذ ، والقدم النحاسيّة للمنافذ المزخرفة ، تغطّي شراشف سميكة الكراسي المريحة الوسيعة ، وهنا وهناك نجود تمثّل آلهة الأولمب ، بسيشيه أو معارك الاسكندر .

تتوقف روزانيت ، كانت ، كل مرّة تمر أمام المرايا ، لتسوّي عُصابات شعرها .

وصلا ، بعد الساحة ومُصلّى سان ساتورنان ، الى قاعة الأعياد .

دُهشا لروعة السقف المقسّم قطعاً مثمّنة الزوايا ، مطلية بالذهب والفضة ، ثم مرصّعة بدقة تفوق دقة التحفة ، وكذلك أخذا بوفرة اللوحات التي تغطّي الجدران في المدفأة العملاقة ، حيث يحيط بأسلحة فرنسا مناجل وجعبات ، الى منصة الموسيقيّين

المنشأة في الطرف الآخر في عرض القاعة . العشر النوافذ ذات القناطر مشرّعة كلّها ، لامعة اللوحات في الشمس ، والسماء الزرقاء تكمل ، إلى ما لا نهاية ، لارورد الأقواس ، ويبدو يجيء ، من عمق الغابات التي تملأ الأفق قمّاتها الضبابيّة ، صدى صيحات الهجوم عبر الأبواق العاجيّة ، ومشاهد الباليه الميتولوجيّة ، جامعة تحت اوراق الأشجار ، أميراتٍ وأسياداً متنكّرين بلباس حوريّات وربّات غابات ، ـ زمن العلم البري ، والأهواء العنيفة ، والفن الفخم ، حين كان المثال في حَمل الناس في الحلم ، وحين كانت عشيقات الملوك تختلط بالكواكب . أجمل هذه الجميلات كانت طلبت رسمها ، الى اليمين ، بصورة « ديانّ » القنّاصة ، وحتى ديّان الجهنمية ، لتؤكّد ، بلا شك ، قدرتها حتى من وراء القبر . كل هذه الرموز تؤكّد مجدها ؛ ويبقى ، هنا ، شيء منها ، صوت لا يتميّز ، إشعاع يتواصل .

أخذ فريدريك بشبقٍ مرتدٍّ إلى الماضي وغير واضح . وليُلهي رغبته ، بدأ ينظر الى روزانيت بحنان ، وقد سألها إذا لم ترد أن تكون تلك المرأة .

ـ أيّة امرأة ؟

ـ ديان دو بواتييه !

كرّر :

ـ ديان دو بواتييه ، عشيقة هنري الثاني .

صدرت عنها «آه» قصيرة . كان هذا كل شيء .

أكّد صمتها ، بوضوح ، أنها لا تعرف شيئاً ، لا تفهم شيئاً ، حتى انه قال لها ملاطفة :

ـ لربما ضجرت ؟

ـ لا ، لا ، بالعكس !

كان يلاحظ على وجهها اجتهاداً ، نية احترام . واذ جعلتها هذه الهيئة الرضية أجمل ، عذرها فريدريك .

بحيرة السبّوط*أبهجتها أكثر . رمت ، خلال ربع ساعة ، قصاع خبز في المياه ، لترى السمك يقفز .

فريدريك كان جالساً قربها ، تحت الزيزفون . هو يفكّر بكل الأشخاص الكانوا تردّدوا على هذه المدينة ، شارل كيت ، آل فالوا ، هنري الرابع ، بيار لـوغران ، جان ـ جاك روسّـو و « نادبات الأروقة الأولى الجميلات » ، فولتير ، نابوليـون ، بيوس السّابع ، لويس فيليب ؛ أحسّ نفسه محاطاً ، مجانباً لهؤلاء الموتى الصاخبين ، جعله يشرد هذا الالتباس بالصور ، بالرغم من أنه وجد فيه سحراً .

نزلا أخيراً ، إلى الروضة .

انها مستطيل واسع ، تريك ، من النظرة الأولى ، ممرّاتها الصفراء العريضة ، مربّعاتها المخضّرة الاعشيشاب ، شـرائط شمشادها ** ، أشجارها الهرمية النريينية ،اخضرارها الكثيف ،

---

* أو الشبّوط هو نوع من السمك يعيش في ا لمياه الحلوة .

** جنس حنية للتزيين من الفصيلة البقسيّة يستخدم في الحائن لتحديد التحوم

ومساكبها الضيّقة ، حيث تترك زهور منثورة بقعاً على الأرض الرمّادية . في آخر الحديقة منتزه يمتدّ ، تخترقه كلّه قناة طويلة .

انّ للمراكز الملكيّة ، في حدّ ذاتها ، كآبة مميزة ، تتعلق ، ولا شكّ ، بمسافاتها الشاسعة بالنسبة لنزلائها القلّة ، كذلك بالصمت الذي نفاجأ به بعد كل ذلك الصخب ، وبالترف الجامد الدالّ ، بشيخوخته ، على زوال سلالات مالكة ، وعلى البؤس الخالد لكل شيء ؛ ـ وإنّ انبعاث العصورهذا ، المتخدِّر والحزين كما عطر مومياء ، يجعل ، حتى الرؤ وس السّاذجة تشمّه . تثاءبت روزانيت كثيراً . عادا الى الفندق .

تأمّنت لهما ، بعد الغداء عربة مكشوفة . خرجا من فونتينبلو عبر مستديرة عريضة ، ثم صعدا في طريق رملي في غابة صنوبر صغيرة . صارت الشجرات أكبر ، وكان الحوذي ، بين وقت وآخر ، يقول : « هوذا الاخوة سياموا ، فارامون ، بوكيه دوروا . . . » ، غير ناسٍ أيًّا من المواقع الشهيرة . وحتى متوقفاً مرات ، ليفسح لهما مجال التأمّل .

دخلا غابة فرانشار . تزلق العربة ، كانت ، على العشب الأخضركزلّاجة . تهدل حمامات غير مرئيّة . وفجأة ، ظهر خادم مقهى . فنزلا أمام سور حديقة فيها طاولات مستديرة . وراحا يمشيان على صخور كبيرة ، ووصلا ، سريعاً ، إلى آخر المضيق ، بعدما تركا ، الى الشمال ، أسوار دير متهدّم .

هذا المضيق ، مغطّى من جانب ، بمزيج من صلصال رملي وعرعر ، بينما ، في الجهة الأخرى ، ينحدر المرتع شبه الأجرد

صوب قعر الوادي ، حيث يرسم ممرّ خطاً شاحباً بين الخلنج ، وتلمح في البعيد ، قمة قمعيّة مسطحة مع برج لمبنى إدارة البرق ، الى الوراء .

بعد نصف ساعة ، نزلا ، مرة بعد ، لتسلّق مرتفعات أسبريمون .

ترسم الطريق منعرجات بين الصنوبرات القصيرة والكثيفة ، تحت صخور جانبية بارزة النتوءات . تتميّز هذه الزاوية من الغابة بشيء مخنوق ، يكاد يكون وحشيًّا ومتأمِّلاً . تتذكّر النسّاك رفاق الوعول الكبيرة الحاملة صليب نارٍ بين قرونها ، وهم يستقبلون بابتسامات أبويّة ، ملوك فرنسا الطيّبين ، راكعين أمام مغارتهم . تملأ الجو الحار رائحة صمغيّة تتلاقى جذور على مستوى الأرض ، مثل عروق . تعثّرت بها روزانيت ، حزنت ورغبت في البكاء .

لكنها سريعاً ما استعادت فرحها عالياً ، إذ رأت ، تحت سقف من الأغصان ، نوعاً من حانة ، وفيها تباع أخشاب محفورة . شربت قنّينة شراب ليمون ، اشترت عصا من خشب بهشيّة * . وبدون أن تعير انتباهاً للمنظر الذي نكتشفه من على الهضبة ، دخلت « مغارة قطّاع الطرق » ، يسبقها صبي يحمل مشعلاً .

كانت تنتظرهما العربة في « با ـ برايو » .

---

* جنس شجر وجنبة حرجيّة .

رسّام بقميص زرقاء رفع نظره وتطلّع اليهما يمرّان . كان يرسم عند جذع سنديانة ، وعلبة الوانه على ركبتيه .

فجأة ، أمطرت غيمة ، وسط منحدر « شايلّي » ، جعلتهما يردّان غطاء السيّارة . سريعاً ما توقّف المطر ، وبدت الشوارع تلمع في الشمس ، حين دخولهما المدينة .

أخبرهما مسافرون وافدون حديثاً انّ معركة رهيبة أدمت باريس . لم تفاجأ روزانيت ولا عشيقها . ثم ذهب الجميع ، وعاد النزل هادئاً ، أطفىء الضوء ، وناما على خرير نافورة المياه في الساحة .

ذهبا ، في الغد ، لرؤية « غورج-أو-لو » ، « بحيرة الجنيات » « لون - روشيه » و« مارلوت » . وبعد غد توجّها كيفما اتفق ، كيفما أراد حوذيّهما ، بدون ان يسألا أين يكونان ، وغالباً ما كان يهملان المواقع الرائعة .

يجدان أنفسهما مرتاحين في عربتهما اللاندو العتيقة ، الواطئة مثل أريكة ، والمغطّاة بقماشة مقلّمة حائلة الألوان ! تمرّ أمام أعينهما الحفر ملأى بأشواك الغابات ، بحركة لطيفة ومستمرة . تخترق الخنشار كالأسهم ، أشعّة بيضاء ، ويبدو لهما ، أحياناً ، طريق غير مطروق ، بخطّ مستقيم ، وعليه أعشاب نابتة هنا وهناك ، باسترخاء . وسط المفارق ينشر صليب اذرعه الأربع ، في مكان آخر ، تنحني أعمدة كأشجار ميتة ، وتغريك باللحاق بهما ، دروب ضيّقة ملتوية ، ضائعة تحت الأوراق . حينها ، كان الجواد يستدير ، دخلاها ، غاصا في الأوحال . أبعد قليلاً ، كان نما

الطحلب على حدود الأخاديد العميقة .

كانا يحسبان انهما بعيدان عن الآخرين ، وحدهما . لكن يمرّ فجأة ، ناطور صيد ومعه بندقيّة ، أو زمرة نساء رثّة الثياب تجرّ على الظهر رزمات قصبان طويلة .

حين توقّفت المركبة ، كان يخيّم صمت عام . فقط ، كنت تسمع نفس الجواد ، وصوت عصفور ضعيفاً ، مكرراً .

النور الذي كان يضيء ، في أمكنة ، حدود الغابة ، كان يترك أعماقها في الظلّ ، أو ملطّفة في الخطوط الأولى بنوع من غروب ، هي تنشر في أبعاد الأبخرة البنفسجية ، ضوءا أبيض . وسط النهار ، تروح الشمس ، الهابطة عموديّاً على الوساعات الخضراء ، تلطّخها ، تعلّق نقاطاً فضيّة على رؤوس الأغصان ، تضلّع البقع المخضوضرة العشب بسحابات شديدة الخضرة ، ترمي بقعاً ذهبيّة على طبقات الأوراق الميتة . تلمح ، وأنت ترفع رأسك ، السماء خَلَل رؤوس الشجر . بعضه المرتفع بلا-نهاية ، يبدو بسمات بطاركة وأباطرة ، أو ، هو متجاور الأطراف ، يؤلف كان بجذوعه الطويلة ما يشبه أقواس النصر : شجرات اخرى ، نابتة من الأرض بشكل منحنٍ ، كانت تبدو كأعمدة وشيكة السقوط .

انفتحت هذه الكثرة الضخمة من الخطوط العموديّة . حينها ، تجلّت للعيان موجات خضر هائلة بحدبات متفاوتة حتى مسافة الأودية حيث تتقدّم تلال أخرى تشرف على سهول شقراء تنتهي بأن تضيع في شحوب غامض .

كانا ، وهما واقفان الواحد خلف الآخر ، على هضبة ، يتنشّقان الهواء ، ويشعران أن روحها يدخلها شبه عنجهية حياة أكثر حريّة مع غزارة في القوى ، فرح لا سبب له .

تنوع الأشجار يجعل المنظر متغيّراً . شجر الزان ذو القشرة البيضاء والناعمة تختلط تيجانه . الدراد يقوّس ، برخاوة ، فناداته ذات الاخضرار المزرقّ . تنتصب بهشيّات شبيهة بالبرونز في الفراخ النيريّة * . تم تأتي جماعة من البتولات ** النحيفات ، محنيّة بأوضاع رثائية . والصنوبر التناسقي كقصبات الأورغ ، يبدو كأنه يغني في تمرجحه الدائم . وكان هناك سنديان خشن ، ضخم ، يرتعش ، يتمطّى على الأرض ، يعانق بعضه بعضاً ، ولأنه صلب الجذوع كجذع الانسان ، كان ينطلق بأذرعه العارية نداءات يأس ، تهديدات غضوبة كجماعة جبابرة تجمّدت في غضبها . يهوّم فوق البحيرات ، شيء أكثر ثقلاً ، ارتخاء محموم ، مقطعاً صفحة مياهها بين أدغال الشوك . لون نباتات صخور الممرات الضيّقة ، حيث تأتي الذئاب لتشرب ، كبريتيّ ، محروقة كما بأقدام الساحرات ، ونقيق الضفادع المتواصل يجيب صراخ طيور الزاغ ***المحوّمة. بعد ذلك ، اخترقا الفرجات الرتيبة

---

* جنس شحر حرجيّ من الفصيلة الملوفيّة .

** أشجار حرجيّة من الفصيلة البتوليّة .

*** طيور من الغربان

للغابة ، مزروعة بأشجار منتقاة هنا وهناك . تصاعد ضجيج حديد ، ضَرْب قويّ وكثير : إنها ، في جانب التلّة ، جماعة من قلّاعي الحجارة تنقر الصخور . تضاعفت المقالع أكثر فأكثر ، وانتهت بأن كوّنت كلّ المنظر ، تكعيبيّة كيوت ، مسطّحة كبلاط ، متساندة ، مائلة ، مختلطة كأنها آثار متغيّرة المعالم ومشوّهة لمدينة اختفت . لكنّ هيجان أصدائها تجعلك تحلم ببراكين ، بطوفانات ، بالكوارث الأرضيّة الكبيرة المجهولة . قال فريدريك بأنها هنا منذ بدء الخليقة وستبقى حتى النهاية ، أدارت روزانيت رأسها مؤكّدة أن « هذا سيجعلها مجنونة » ، ودهمت تقطف خلنج . أزهاره البنفسجية الصغيرة ، الواحدة فوق الأخرى ، تؤلّف ، كانت ، أوسمة غير متوازية ، والأرض ، تحتها ، كأنها شرابات سود في طرف الرمال المبرّقة بالميكا * .

وصلا ، يوماً ، إلى نصف تلّة رمليّة . أرضها ، وهي لم تعرف قدماً ، مضلّعة بتموّجات متناسقة ، يقوم ، هنا وهناك ، كشناخ ** على سرير محيط جاف ، صخور ذوات أشكال مبهمة لحيوانات ، سلاحف مقدّمة رأسها ، عجول بحر تدبّ ، أفراس نهر ودببة . لا أحد هناك . لا صوت . تبهر الرمال التي تصفعها الشمس ، وفجأة ، في هذا التموّج النوراني ، بدت الحيوانات

---

* حجر لامع ذو صفائح .

** أنف الجبل الخارج منه والداخل في البحر .

تتحرّك . بسرعة عادا ، هاربين من الدوار ، إلى حد ما مذعورين .

بلغا رصانة الغابة . وكانا يصمتا لساعات ، تاركين نفسهما لتمرجحات النوابض ، فيلبثان كمأخوذين في نشوة هادئة . مطوّقا خصرها ، يروح يستمع إليها تتحدّث بينما تزقزق العصافير ، ويراقب ، في لمحة واحدة ، العنب الأسود لمعطفها وكوى الخلنج ، جوخة ؟ وشاحها ، لولبيّات الغيوم ، وحين يميل إليها ، تمتزج عذوبة جسدها بعطر الغابات الفوّاح . يسرّهما كل شيء ، يظهران لبعضهما ، كما شيء طريف ، أسلاك العذراء معلّقة في الأدغال ، ثقوباً ملأى بالماء وسط الحجارة ، سنجاباً على الأغصان ، طيران فراشتين تتبعانهما ، أو ظبية ، على عشرين خطوة منهما ، تمشي ، بهدوء تحت الأشجار . بمظهر كريم ولطيف ، ومعها الشادن جنباً إلى جنب . كادت روزانيت تركض وراءهما تريد لو تقبّلها .

خافت ذات مرة ، حين قدم رجل ، فجأة ، وأراها ثلاث أفاع في علبة . بقوّة ارتمت على صدر فريدريك ، كان سعيداً لضعفها ولاحساسه بأنه قوي ليحميها .

ذلك المساء ، تعشّيا في نُزُل على ضفة السّين . كانت الطاولة قرب النافذة ، وروزانيت قبالته ، راح يتأمّل أنفها الصغير الدقيق والأبيض ، شفتيها المضمومتين ، عينيها الصافيتين ، عصائب شعرها الكستنائيّة الكان ينفخها الهواء ، ووجهها البيضاوي الجميل . ثوبها الحريري الجديد يلتصق ، كان ،

بكنفيها النازلتين إلى حدّ ما ، ويداها ، الظاهرتان من كميها الواسعتين تقطّعان ، تسكبان الشراب ، تتقدّمان على الشرشف . قدّمت لهم دجاجة كاملة ، سمكيّة أنقليس ، خمرة حامزة ، خبزاً قاسياً ، سكاكين مثلّمة . كل هذا زاد فرحهما ، وهمهما . كادا يظنّان نفسهما في رحلة في إيطاليا ، في « شهر عسلهما » .

خرجا يتنزهان ، قبل عودتهما ، على طول حافة النهر .

السماء بزرقة حنونة ، مكوّرة كما قبّة ، تتكىء ، عند الأفق ، على تخريم الغابات في طرف الحقل المواجه ، كانت تظهر قبّة جرس في قرية ، وأبعد ، إلى الشمال ، يكوّن ، سقف بيت ، لطخة حمراء على النهر الكان يبدو جامداً على امتداد انعطافه . مع ذلك ، فقضبان الأسل تتلوّى ، وتهزّ المياه ، برقّة ، عصوات مغروزة على الضفة للامساك بالشباك ، وهناك ، كذلك ، قفّة سوْحر * ، وزورقا إنقاذ أو ثلاثة . وقرب النزل ، فتاة بقبّعة قش تنشل دلاء من بئر ، كل مرة تنشلها ، يروح فريدريك يستمع ، بفرحة لا توصف ، إلى صرير السّلسلة .

ما يشك ، كان ، في أن سعادته ستدوم حتى نهاية حياته ، بهذا المقدار بدت له سعادته طبيعيّة ، ملازمة لحياته ، ولشخصيّة هذه المرأة . دفعته حاجة لملاطفتها . أجابته بكلمات عذبة ، وبتربيت لطيف على كتفه ، وبمجاملات فتنته مفاجأتها . كشف لها ، أخيراً ، جمالاً كلي الجدّة ، لم يكن ، ربما ، سوى انعكاس

---

* نوع من الصفصاف تُستَعمل أغصانه الليّنة في صناعة السلال .

الأشياء المحيطة ، إلّا إذا جعلتها تتفتّح إمكانيات سريّة .

يستريحان في قلب الريف ؟ يتمدّد ، رأسه على ركبتيها ، في ظلّ شمسيّة كبيرة ، أو هما يبقيان ، نائمين على بطنهما في وسط العشب ، واحدهما بمواجهة الآخر ، يتأمّلان بعضهما ، مستغرقين في عيني بعضهما ، متعطّشين إلى بعضهما ، راويين غليلهما ، ثم يمكثان صامتين جفونهما نصف مطبقة .

أحياناً ، كانا يسمعان في البعيد قرع الطبول . تكون دقّة الانذار يدقّوها في القرى ، للذهاب والدفاع عن باريس .

ـ آه ! عجباً ! الفتنة ! يقول فريدريك بشفقة مزدرية ، يبدو له كل هذا التحرّك بائساً بجانب حبّهما ومقابل الطبيعة الخالدة .

ويروحان يتحدّثان عن أي شيء ، عن أمور يعرفانها تماماً ، عن أشخاص لا يهمّانهما أبداً ، عن ألف أمر لا معنى له . تحدّثه عن وصيفتها وعن مزيّنها . يوماً ، رأت نفسها وقد ذكرت عمرها : تسعة وعشرون عاماً ، إنها تشيخ .

ومن دون إرادة منها، كانت تخبره في مرات كثيرة تفاصيل عنها . كانت بائعة في محل ، قامت برحلة إلى انكلترا ، بدأت دراسات لتكون ممثّلة ، كل هذا بدون تمهيد ، ولم يكن ليقدر أن يؤلف منها وحدة متكاملة . ذات يوم ، وهما جالسان تحت دلبة ، في مقلب حقل ، روت له أكثر من هذا . وفي الأسفل ، على حدود الطريق ، فتاة صغيرة ، حافية القدمين ، ترعى بقرة . مذ رأتها ، أتتها طالبة صدقة ، وممسكة بيد تنّورتها الداخلية

المزّقة ، كانت تحكّ ، بالأخرى ، شعرها الأسود الذي يغمر ، كشعر مستعار للويس الرابع عشر ، كل رأسها الأسمر ، المشعّ بعينيها الرائعتين .

قال فريدريك :

ـ ستكون جميلة جداً فيما بعد .

ـ كم تكون محظوظة لو كانت بغير أمّ ! أجابت روزانيت .

ـ ماذا ؟

ـ بلى ، أنا ، لولا أمي . . .

تنهّدت ، وطفقت تتحدّث عن طفولتها . كان أهلها نسّاجين . كانت تخدم أباها كتلميذة . فالرجل الطيّب المسكين ياما كان يرزح ، زوجته تسبّه وتبيع كل شيء لتذهب تشرب . كانت روزانيت تراقب غرفتها : النول مصفوف ، طولاً ، في مقابل النوافذ ، القدر على الموقد ، السرير مدهون بلون الأكاجو ، درج في المقابل ، وحجرة السلّم المعتمة حيث نامت حتى الخامسة عشرة . أخيراً ، قدم سيّد ، وهو رجل سمين ، وجهه بلون الشمشاد ، يبدو متديّناً ، ويرتدي الأسود . تحدّث وأمها ، مرة ، إلى حدّ أنه ، بعد ثلاثة أيام . . . توقّفت روزانيت ، وبنظرة مليئة وقاحة وخشونة أضافت :

ـ كانت تمّت الصفقه !

ثم ، مجيبة حركة فريدريك :

ـ بما أنه كان متزوّجاً (كاد يخشى المجازفة في بيته) ، أُخذت إلى غرفة صاحب مطعم ، وقيل لي انني سأكون سعيدة

وسأتلقّى هديّة جميلة .

« أوّل ما صفعني ، وأنا بالباب ، كان شمعداناً من فضّة مذهّبة ، على طاولة عليها طعام لشخصين . في السقف مرآة تعكسه ، وستائر الجدران الحريريّة الزرقاء ، كانت تجعل الشقة كلّها تشبه مضجعاً . دهمتني مفاجأة . تفهم أنت ، كائناً شقياً لم يكن رأى شيئاً ! أخذني خوف بالرغم من انبهاري . رغبت في الخروج . مع ذلك فقد بقيت .

« المقعد الوحيد كان أريكة قرب الطاولة . ارتخت تحتي . فم جهاز التدفئة يرسل نحوي نسمة حارة ، وكنت بقيت هنا لم آخذ شيئاً . دفعني الصبي الكان واقفاً إلى الأكل بسرعة صبّ لي كأس خمر كبيرة ، دار رأسي ، أردت أفتح النافذة ، قال لي : « كلا ، يا آنسة ، هذا ممنوع » . وغادرني ، كانت الطاولة ملآنة بأشياء كثيرة ما كنت أعرفها . لا شيء بدا لي حسناً . فارتدّيت إلى مجمع مربّى ، ورحت أنتظر . لم أكن أدري ما يؤخّره عن المجيء . فالوقت متأخّر ، نصف الليل أو أقل قليلاً ، ما عدت أستطيع الصمود إرهاقاً ، وفيما أنا أدفع واحدة من الوسادتين لأتمدّد بطريقة أفضل ، رأيت تحت يدي ، نوعاً من ألبوم ، دفتراً ، كانت صوراً فاحشة . كنت أنام فوقها ، حين دخل » .

خفضت رأسها ، ولبثت مفكرة .

كانت الأوراق قربهما تهسّ في ركام من الأعشاب ،

وقمعيّة* كبيرة تتمايل ، ويفيض النور كموجة على المرجة الخضراء ، ويقطع الصمت ، من حين لآخر ، رعي البقر التي لم تكن ترى ، بعد .

أطرقت روزانيت تراقب نقطة في الأرض ، على خطوات ثلاث منها ، بثبات ، منخاراها خافقان ، مأخوذة . أخذ فريدريك يدها .

ـ كم قاسَيْتِ ، يا حبيبتي المسكينة !

ـ نعم ، قالت ، أكثر مما تظنّ !... حتى اني أردت الموت ، منعوني .

ـ كيف ؟

ـ آه ! لا نفكّر بذلك ، بعد !... أحبّك ، سعيدة أنا ! قبّلني . ونزعت نُتَف شوك علقت بأسفل ثوبها ، واحدة فواحدة .

فكّر فريدريك ، بخاصة ، بما لم تقله . كيف استطاعت أن تخرج من التعاسة ؟ إلى أي عشيق مدينة هي بتربيتها ، ماذا كان جرى في حياتها حتى يوم مجيئه الأول إليها ؟ رغبتها الأخيرة تمنع الأسئلة . فقط ، سألها كيف تعرّفت إلى أرنو .

ـ عن طريق فاتناز .

ـ ألستِ أنتِ من رأيتها مرة في «الباليه ـ رويال» معهما كليهما ؟

ذكر التاريخ بالتحديد . حاولت روزانيت التذكّر ،

* جنس زهر .

ذلك .

هذا صحيح ! . . . ما كنت فرحة في تلك الأثناء !

ـو كان بدا ممتازاً . لا يشك فريدريك بهذا . مع يقهما رجل غريب الأطوار ، مليء عيوباً ، اجتهد في بها . وافقته .

ـ ما همّ ! . . . مع ذلك نحبّه ، هذا الجَمَل !

ـ حتى الآن ؟ قال فريدريك .

احمرّت ، نصف مبتسمة ، نصف غاضبة .

ـ إيه كلاّ ! إنه من الذكرى القديمة . لا أخفي عنك شيئاً . حتى لو حدث هذا ، فهو أمر مختلف ! على كلّ حال ، لا أجدك لطيفاً بسبب ضحيّتك .

ـ ضحيّتي ؟

أخذت روزانيت ذقنه :

ـ بلا شك !

ومُزَأْزِئَةً مثل الأطفال :

ـ ما كنا ، دوماً ، عُقلاء ! لقد نمنا مع زوجته !

ـ أنا ! أبداً !

تبسّمت روزانيت . جرحته ابتسامتها ، بدت له دليل لا مبالاة . لكنها ، بلطفٍ ، أجابت ، وبنظرة من نظراتها التي تتوسّل الكذب :

ـ أكيد أنت ؟

ـ طبعاً !

أقسم فريدريك بشرفه أنه لم يفكّر ، أبداً ، بالسيّدة أرنو لكونه يعشق أخرى عشقاً كبيراً .

ـ مَن هي هذه ؟

ـ هي أنتِ ، يا كليّة الجمال !

ـ آه ! لا تسخر مني ! تغيظني !

وجد من الفطنة اختراع حكاية ، تعلّق . وجد تفاصيل بمناسبات معيّنة . مع ذلك ، فقد جعلته ، تلك ، تعيساً جداً .

ـ طبعاً ! لا حظّ لك !

ـ أوه ! أوه ! ربما ، يريد أن يجعلها تعرف ، من خلال هذا ، حظوظه السعيدة الكثيرة ، لتكوّن عنه رأياً أفضل . وهكذا روزانيت ما ذكرت جميع عشّاقها ليحترمها أكثر ، لأنه ، وسط الاعترافات الأكثر حميميّة ، هناك دائماً قيود ، خجلاً ، لطافة أو شفقةً . نكتشف ، عند الآخر ، أو في الذات ،ورطات أوحماقات تمنع المتابعة ، فضلاً عن ذلك ، نشعر أننا لن نكون مفهومين ، فالتعبير الدقيق صعب مهما كان الموضوع ، والذوبان الكامل ، نادر .

لم تكن « المارشالة » المسكينة عرفت أحسن من هذا . غالباً ، وهي تنظر إلى فريدريك ، تتمرجح دموع في جفونها ، ثم ترفع عينيها ، أو تمدّهما صوب الأفق كما لو هي لمحت فجراً ما ، عظيماً ، آفاق سعادة لامحدودة . أخيراً ، في يوم ما ، أعلنت أنها ترغب في الذهاب إلى القدّاس ، « ليحمل هذا سعادة حبّنا » .

من أين ، إذن ، قاومته كل تلك المدّة الطويلة ؟ هي

لا تعرف ، ولا لماذا . مرّات كثيرة أعاد سؤاله ؟ أجابت وهي تضمّه بين ذراعيها بقوّة :

ـ لأني كنت أخشى أن أحبّك كثيراً يا حبيبي !

صباح الأحد ، قرأ فريدريك في جريدة ، اسم ديسّردييه في لائحة أسماء الجرحى . صرخ مظهراً الجريدة لروزانيت ، أعلن أنه سيذهب للحال .

ـ لماذا ؟ ماذا ستفعل ؟

ـ لأراه ، لأعتني به !

ـ إنما لن تتركني وحدي ، أليس كذلك ؟

ـ تعالي معي .

ـ آه ! شكراً جزيلاً ! أذهب أتورّط في شغب كهذا ! شكراً !

ـ لكن لا يمكنني . . .

ـ يه يه يه ! كأن ليس في المستشفيات ممرضون ! ثم ، كان ما يخصّه هذا ، بعد ؟ كلّ لنفسه !

غضب لهذه الأنانيّة ، وراح يلوم نفسه لكونه لم يكن هناك مع الآخرين . لامبالاة بهذا المقدار تجاه مصائب الوطن ، بدت له حقيرة وبورجوازيّة . وفجأة ، أثقل عليه حبّه كجريمة . حَرَدا لساعة .

ثم توسّلت إليه ليصبر ، ولا يعرّض نفسه .

ـ لو ، صدفة ، قُتلت !

ـ إيه ! أكون قمت بواجبي !

ثارت روزانيت . فواجبه ، قبل كلّ شيء ، أن يحبّها . فهو ، إذن ، بات لا يريدها . هذا ليس حسّاً مشتركاً . يا لها فكرة ، يا إلهي !

طلب فريدريك كشفاً بالحساب . إنما لم يكن الرجوع إلى باريس ، بالأمر السهل . فعربةمكتبسفريّات(ليلوار) ، ذهبت منـــذ قليـل ، و« بــرلينيّـــات » (ليكــونت) لم تــذهب ، والـ « ديليجنس » التي لـ (بوردونّيه) لن تمر قبل الليل ، ولربما كانت مليئة ، لا يعرف عنها شيئاً . بعد أن أضاع وقتاً طويلاً في هذه الاستعلامات ، أتته فكرة الذهاب إلى المحطة . لكنّ مدير المحطّة رفض إعطاءه جوادين ، إذ لم يكن يحمل جواز سفره . استأجر ، أخيراً ، عربة (هي نفسها الكانا تنزّها بها) وحوالى الخامسة وصلا أمام فندق التجارة في ملين .

كانت ساحة السّوق مغطّاة بأهرام البنادق . فقد رفض المدير توجّه الحرس الوطني إلى باريس . لكنّ الذين لم يكونوا من مقاطعته ، كانوا يريدون متابعة طريقهم . إنهم يصرخـون . والنُزُل مليء ضوضاء .

أعلنت روزانيت ، وقد أخذها الخوف ، أنها لن تذهب أبعد من هنا ، وتوسّلت إليه أن يبقى . وهكذا صاحب النزُل وزوجته . تدخّل شاب كان يتعشّى ، مؤكّداً أن المعركة ستنتهي قريباً ، ومع ذلك يجب إتمام الواجب . حينها تضاعفت شهقات « المارشالة » . غضب فريدريك . أعطاها ثروته ، قبّلها بحيويّة ، واختفى .

فور وصوله إلى كورباي ، أخبروه ، في المحطة ، أنّ الثوّار قطعوا خطوط الحديد بين مسافة وأخرى ، ورفض الحوذيّ أن يبتعد به أكثر . قال إنّ جواديه مرهقان .

ومع هذا ، فقد حصل فريدريك بمعاونته ، على عربة « كبريولة » في حالة سيّئة ، قَبِل صاحبها بأن يوصله إلى « باب إيطاليا » بمبلغ ستّين فرنكاً عدا الحلوان . إنما أنزله سائقه ، على مئة خطوة من الباب ، وعاد . كان فريدريك يسير في الطريق ، حين ، فجأة ، قابله خفير بحربة . أوقفه أربعة رجال صارخين :

ـ هوذا واحد منهم ! احذروا ! فتّشوه ! إنّه شرير ! وغد !

عظيمة كانت دهشته ، إلى درجة تركهم يقودونه إلى المركز العسكري في المستديرة نفسها حيث يتلاقى بولفارا غوبلين والمستشفى ، وشارعا غودفروي وموفتار .

على مفارق الطرقات الأربعة ، كانت متاريس أربعة تؤلّف كُوَم بلاط هائلة . مشاعل تنشّ هنا وهناك ، وبالرغم من الغبار الكان يرتفع لاحظ جنوداً مشاةً وحراساً وطنيّين ، كلهم سود الوجوه ، وقحون ، وحشيّون . منذ قليل كانوا استولوا على الموقع ، أطلقوا النار على رجال كثيرين ، ما يزال خوفهم قائماً . قال فريدريك إنّه آتٍ من فونتينبلو لاغاثة رفيق له جريح يسكن شارع بيلّغون ، أوّل الأمر ، ما أراد أحد تصديقه ، تفحّصوا يديه ، حتى أنّهم شمّوا أذنيه ليتأكّدوا من أنّ لا رائحة بارود فيه .

لكثرة ما كرّر القول نفسه ، انتهى بأن أقنع نقيباً أَمَرَ رامين باصطحابه إلى مركز حديقة النباتات .

نزلوا بولفار المستشفى . هبّ نسيم قوي ، أحياه .

استداروا ، بعدها ، عبر شارع سوق الجياد . كانت حديقة النباتات ، إلى اليمين ، تؤلّف كتلةً سوداء كبيرة ، بينما ، إلى اليسار ، تشعّ كحريقة واجهة كنيسة سيّدة الرحمة ، المضاءة نوافذها كلّها ، وظلال سريعة تمرّ على زجاجها .

ذهب رجُلا فريدريك . رافقه آخر حتى مدرسة البوليتكنيك .

شارع سان فيكتور معتّماً ، كان ، لا مصباح ولا ضوء في المنازل . يُسْمع كل عشر دقائق :

ـ أيها الحرس ! إحذروا ! وتمتدّ هذه الصرخة ، وسط السكون ، كصدى حجر يقع في هوّة .

يقترب ، أحياناً ، وقع أقدام ثقيلة . تكون دوريّة من مئة رجل على الأقل ، يتسرّب من هذه الكتلة الغامضة ، وشوشات ، صليل حديد مبهَم ، وإذ تبتعد بتمايل إيقاعي ، يتلاشى كل صوت في الظلمة .

في قلب المفارق جندي خيّال ، ثابت . يمرّ ، بين وقت وآخر ، ساعٍ ، مسرعاً ، ثم يعود الصمت . يسمع للمدافع المتنقّلة على البلاط دحرجة هائلة . ينقبض القلب لهذا الصخب المغاير لكلّ ضجيج آخر . يبدو ، حتى ، كأنه يوسع الصمت الكان عميقاً ، مطلقاً ، ـ صمتاً أسود . يقترب رجال بقمصان بيضاء من الجنود ، يقولون لهم كلمة ، ويختفون كما أشباح .

كان مركز مدرسة البوليتكنيك يضيق بالناس . نساء يسدُدْن

العتبة يطلبن رؤ ية أبنائهنّ أو أزواجهنّ . يحوّلونهنّ إلى البانتيون وقد حوّلوه مستودع جثث ، ـ وما كانوا يستمعون إلى فريدريك . عاند ، مقسماً ، أن صديقه ديسّردييه ينتظره ، هو مشرف على الموت . أعطوه ، في الأخير ، عريفاً ليقوده إلى أعلى شارع سان جاك ، عند عمديّة الدائرة الثانية عشرة .

ساحة البانتيون كانت ملأى بجنود نائمين على القشّ . يبزغ النهار . تنطفىء أنوار المعسكر .

لقد خلّفت الثورة في هذا الحيّ آثاراً رهيبة . أرض الشوارع ، من طرف لآخر ، محدّبة بتفاوت . يبقى على المتاريس ، وهي آثار ، عربات نقل عام ، قساطل غاز ، دواليب مركبات ، وفي أماكن مختلفة ، بقع سوداء صغيرة ، يجب أن تكون دماً . محرّقة البيوت ، كانت ، بشظايا ، وتبدو هياكلها كقشارة الجفصين . بسمار واحد ، ما تزال عالقة بعض مشربيّات النوافذ ، وكأنها خِرَق . الأبواب مفتوحة على الفراغ ، بعد أن انهدّت الأدراج . كنت ترى داخل الغرف بأوراقها المملّعة ، ترى ، مرات ، أن بقيت فيها أشياء منمنمة . لاحظ فريدريك ساعة حائط ، عود ببغاء ، صوراً .

حين دخل دار العمديّة ، كان الحراس الوطنيّون يتحدّثون باستفاضة عن قتلى بريا ونيفربيه ، عن المندوب شر بونَيل وعن مطران باريس . يقولون إن الدوق أومال ذهب إلى بولونيا ، باربيس هرب من فنسانّ ، ان سلاح المدفعيّة وصل من بورعيس وأنّ نجدات الريف تتوافد . حوالى الثالثة ، أعلن أحدهم أخباراً

سارّة ، ممثّلون عن الثورة كانوا عند رئيس مجلس النوّاب .

فرِحوا ، وبما أنه كان لا يزال معه اثنا عشر فرنكاً ، طلب فريدريك اثنتي عشرة قنّينة نبيذ ، آملاً بهذه الطريقة الاسراع في الافراج عنه . وفجأة ، بدا كأنهم سمعوا تراشق رصاص . توقّف شرب الخمر ، نظروا إلى المجهول بعيون حذرة ، قد يكون هنري الخامس .

ولئلا ما يتحمّلوا مسؤولية ، نقلوه إلى عمديّة الدائرة الحادية عشرة ، حيث لم يسمحوا له بالخروج قبل التاسعة صباحاً .

خرج راكضاً حتى شارع فولتير . رأى هرماً يبكي ، على نافذة ، وعيناه مرفوعتان . كان نهر السّين يجري بهدوء . السّماء زرقاء صافية ، وفي أشجار التويلّري ، بعض عصافير تزقزق .

كان فريدريك يجتاز ميدان الفروسيّة حين مرّت نقّالة . قدّم المركز العسكريّ السلاح ، بسرعة ، وقال الضابط متلمّساً قبّعته : « المجد للشجاعة العاثرة الحظ ! » . كانت هذه العبارة قد صارت شبه إلزاميّة ، مَن يتلفّظ بها ، يبدو دائماً منفعلاً بأبّهة . جماعة من شباب غاضب تواكب النقّالة صارخة :

ـ سنثأر لكم ! سنثأر لكم !

تدور السيّارات على البولفار ، ونساء أمام الأبواب تحضّرن الضمادات . في هذه الأثناء ، كانت الثورة انكسرت أو تكاد . يعلن ذلك بيان من كافانياك وقد ظهر للتوّ . ظهرت ، في طرف شارع فيفيانّ مفرزة من جنود الحرس الوطني . حينها ، أطلق

البورجوازيّون صيحات الحماسة . رفعوا قبّعاتهم ، صفقوا ، رقصوا ، أرادوا أن يقبّلوهم ، يقدّموا لهم المشروب ، وراحت تقع زهور من الشرفات ، ترميها النساء .

أخيراً ، وصل فريدريك عند ديسّردييه في العاشرة والمدفع يدوّي لاحتلال ناحية سان أنطوان . وجده في سقيفته ، ممدّداً على ظهره ونائماً . خرجت امرأة من الغرفة المجاورة ، بخطوات صامتة : إنها الآنسة فاتناز .

انتحت بفريدريك جانباً ، وأخبرته كيف جُرح ديسّردييه .

السبت ، في شارع لافاييت ، كان شاب ملتفّ بعلم مثلّث الألوان ، يصيح بالحرس الوطني من على حاجز : « إذهبوا أطلقوا النار على إخوانكم ! » وبما أنهم كانوا يتقدّمون ، فقد رمى ديسّردييه بندقيّته ، أبعد الآخرين ، قفز إلى الحاجز ، وبلطمة من حذائه ، جندل المتمرّد وانتزع منه العلم . وُجِدَ ، فيما بعد ، تحت الأنقاض ، وقد اخترقت فخذه شظيّة نحاس . اقتضى توسيع الجرح لانتزاع الشظيّة . هي ، الآنسة فاتناز ، وصلت في المساء عينه ، ومد ذاك ، لم تفارقه .

بذكاء ، كانت تحضّر كل يوم ما يلزم للتضميد ، تساعده ليشرب ، تلاحظ ، بدقّة ، أقل رغائبه ، تروح وتأتي ، أكثر خفّة من جاسوس ، تتأمّله بعينين حنونتين .

خلال أسبوعين ، ما تغيّب فريدريك عن الحضور كلّ صباح . يوماً ، وهو يتحدّث عن تفاني الفاتناز ، هزّ ديسّردييه كتفيه .

ـ إيه كلاّ ! ذلك لمصلحة !
ـ أو تظنّ ؟
أجاب : « متأكّد أنا ! » ولم يرد أن يفسّر أكثر .

تبالغ في تقديم الخدمات له ، حتى لتأتيه بالجرائد الكانت تمتدح فعله الجميل . بدت تزعجه هذه المدائح . حتى انه اعترف لفريدريك بقلق ضميره .

لربما كاد يكون في الطرف الآخر مع ذوي القمصان الفضفاضة ، لأنهم وعدوهم بأمور كثيرة لم يفوا بها . زعماؤهم يكرهون الجمهوريّة ، ولقد بدوا شديدي القساوة معهم ! كانوا مخطئين ، ولا شكّ ، إنما ليس كليّاً . وطفق الشاب الطيّب تعذّبه هذه الفكرة : انه قد يكون صارع العدالة .

سينيكال ، المسجون في التويلّري تحت الشرفة التي على حدود الماء ، ما كان يعرف هذه الهواجس .

هناك كانوا تسعمئة رجل ، مكوّمين في الوساخة ، بلا نظام ، سوداً من البارود والدم المخثّر ، مرتجفين حرارة ، صارخين حنقاً ، وما كانوا يسحبون من يموتون من بين الآخرين . يظنون ، أحياناً ، أنهم يطلقون النار عليهم جميعاً ، يشعرون بهذا مع دوي انفجار مفاجىء ، فيتسارعون إلى الجدران ، ثم يتهاوون في أمكنتهم ، أغبياء جعلهم الألم ، حتى ليبدو لهم أنهم يعيشون في كابوس ، في وهم مأتمي . بشبه القنديل المعلّق في عقد القبّة بقعة دم ، وترفرف أشعّة صغيرة خضراء وصفراء تسبّبها انبعاثات القبو الصغير . وخوفاً من الأوبئة ، تشكّلت لجنة . تراجع رئيسها ،

منذ الخطوات الأولى ، مذعوراً من رائحة البراز والجنث . حين يتقدّم السّجناء من منفذ ، يروح الحراس الوطنيون الذين هم في الوظيفة ـ ليمنعوهم من زعزعة السياج ـ ينكبّون عليهم ضرباً بالحراب ، كيفما أتى الضرب .

إجمالاً ، ما كانوا يطاقون . هؤلاء الذين ما كانوا شاركوا في القتال ، أرادوا الظهور . يكون فيضاً من الخوف . ينتقمون ، مرة واحدة ، من المحلاّت ، الأندية ، التجمّعات ؛ العقائد ، من كل مَن كان ساخطاً من ثلاثة أشهر ، ورغماً عن النصر ، فالمساواة (كما لعقاب المدافعين عنها وسخرية بأعدائها) كانت تبدو ، بازدهاء ، عدالة حيوانات فظّة ، بمستوى الثورات الدموية نفسها ، إذ ان التحمّس للمصالح وازى هذيان الحاجة ، كان للأرستقراطية هيجان الفسق ، وما بدت قبّعة القطن أقلّ شناعة من القبّعة الحمراء . وحكمة الشعب مضطربة كانت ، كما بعد ثورات الطبيعة الكبرى . إن رجال فكر كثيرين لبثوا بلهاء مدى الحياة .

السيّد روك كان صار فائق الشجاعة ، إلى حدّ ما مجازفاً . بعدما وصل مع النوجانيّين إلى باريس في السادس والعشرين ، التحق بالحرس الوطني الكان يخيّم في التويلّري ، بدلاً من أن يرجع مع مواطنيه . وسعيداً جداً كان إذ جُعل في الحراسة أمام الشرفة التي على حدود الماء . على الأقلّ ، هنا ، هم تحت أمرته هؤلاء اللصوص المتسكّعون ! منتشياً ، كان ، بهزيمتهم ، بحقارتهم ، ولم يكن يستطيع إمساك نفسه عن ذمّهم .

واحد منهم ، مراهق ذو شعر أشقر طويل ، وضع وجهه على القضبان سائلاً خبزاً . أمره السيّد روك بالصمت . لكنّ الشاب راح يكرّر بصوت مثير للشفقة .

ـ خبزاً !

ـ أمعي أنا ؟

ظهر سجناء آخرون في النافذة ، بلحاهم السائكة ، وعيونهم المشعّة ، متناكبين صائحين :

ـ نريد خبزاً .

سحط السيّد روك إذ رأى سلطته غير مقدّرة . سدّد إليهم ، ليخيفهم ، لكنّ الشاب ، رافعاً رأسه ، صرخ ، مرّة بعد :

ـ خبزاً !

ـ خذ ! إليكه ! قال السيّد روك مطلقاً النار .

صدر ضجيج هائل ، ثم لا شيء.بقي شيء أبيض قرب الدلو .

بعد هذا ، عاد السيّد روك إلى بيته ، إذ هو يملك ، في شارع سان مارتان ، بيتاً يحتفظ به للاستراحة . والأضرار التي كانت أحدثتها الثورة في واجهة مسكنه ، ما تلكأت في جعله يغضب . لكن بدا له ، وهو ينظر إليه ثانية ، أنه قد ضخّم الضرر . وإنّ عمله ، منذ لحظات ، هدّأه كتعويض .

كانت ابنته نفسها من فتح له الباب . قالت له ، مباشرة ، إن غيابه الطويل أقلقها . ختشيت سوءاً ، جرحاً .

رقّق قلب السيّد روك هذا التأكيد على الحبّ البنوي .

عجب كيف جاءت بلا كاترين .

ـ لقد أرسلتها بمهمّة ، أجابت لويز .

واستخبرت عن صحته ، عن أمور وسواها ، ثم ، بمظهر غير مبالٍ ، سألته إن كان التقى فريدريك صدفة .

ـ لا ! أبداً !

لأجله وحده ، قامت برحلتها .

خطوات شخص في الممشى .

ـ آه ! معذرة . . .

واختفت .

ما وجدت كاترين فريدريك . إنه غائب منذ أيـام ، وصديقه الحميم ، السيّد ديلورييه ، يسكن ، الآن ، في الريف .

ظهرت لويز ، من جديد ، مرتجفة ، لا تستطيع الكلام . استندت إلى الأثاث .

ـ ما بكِ ؟ ماذا حلّ بكِ ؟ صرخ والدها .

أشارت أن لا شيء ، وقامت بعد جهد مضنٍ .

صاحب المطعم المقابل ، أتى بالحساء . لكنّ السيّد روك كان ألمّ به انفعال كبير . « الأمر خطير » ، وأصيب ، وقت التحلية ، بنوع من الغشيان . بسرعة طلبوا طبيباً ، وصف جروعاً . ثم ، حين صار في سريره ، طلب السيّد روك ، أكبر عدد ممكن من الأغطية ، ليعرق . كان يتنهّد ، يتأوّه .

ـ شكراً يا كاترين العزيزة ! ـ قبّلي أباكِ المسكين يا حبيبتي ! آه ! هذه الثورات !

وبما أن ابنته راحت تعنّفه لأنه مرض وهو يتعذّب لأجلها ، أجاب :

ـ نعم ! معكِ حق ! لكن الأمر يفوق طاقتي ! أنا حسّاس جداً !

إليرا شليسنجر الواقع . . مدام أرنو « التربية العاطفية »

II

تستمع السيّدة دمبروز ، في صالونها ، بين قريبتها والآنسة جونسون ، إلى السيد روك يخبر عن متاعبه العسكريّة .

تعضّ شفتيها ، تبدو تتوجّع .

ـ أوه ! ليس هذا بشيء ! سوف يمرّ !

وبنبرة أنيقة :

ـ عندنا ، على العشاء ، واحد من معارفك ، السيّد مورو .

ارتعشت لويز .

ـ ثم ، فقط ، بعض أصدقاء حميمين ، بينهم ألفرد دو سيزي .

وامتدحت أساليبه ، وجهه ، وبخاصه طبائعه .

تكذب ، كانت ، السيّدة دمبروز ، أقلّ مما كانت تظن ، يحلم الفيكونت بالزواج . أسرّ بذلك إلى مارتينون ، مضيفاً أنه واثق من أنه يعجب الآنسة سيسيل وأن أهلها سيوافقون .

لا بد أن يعرف عن البائنة معلومات مشجّعة لكي يجازف بمهارة كهذه . والحال أن مارتينون يرتاب بأن تكون سيسيل الابنة

الطبيعيّة للسيّد دمبروز ، وفي هذه الحالة ، من المغالاة طلب يدها . هذه الجرأة فيها مخاطر ، وكان مارتينون ، حتى الآن ، تصرّف بطريقة لا مجازفة فيها ، على كل حال ، هو لا يعرف كيف يتخلّص من الحالة . كلام سيزي حتّم عليه ، وكان تقدم بطلبه إلى صاحب المصرف الذي ، إذ لم يجد مانعاً ، أعلم السيّدة دمبروز بالأمر .

ظهر سيزي . وقفت ، قالت :

ـ إنك تنسانا . . . سيسيل .

وفي اللحظة عينها ، دخل فريدريك .

هتف السيّد روك :

ـ آه ! أخيراً ! ها نحن نجدك ! ذهبت إليك مع لويز ، ثلاث مرات ، هذا الأسبوع ! إن أموراً كثيرة تشغله ، وراح يجد أعذاراً أخرى . ولحسن الحظ ، بدأ المدعوون يفدون : أوّل الأمر السيّد بول دي غريمونفيل ، الديبلوماسي الكان لمحه في الحفلة ، ثم فوميشون ، هذا الصناعي الذي كان مدحه ، ذات مساء ، تفانيه المحافظ ، تتبعهما دوقة دو مونتروي ـ نانتوا المسنّة .

لكن صوتين ارتفعا في غرفة الانتظار .

قال صوت :

ـ متأكدة أنا .

أجاب الصوت الآخر :

ـ يا سيدتي الحبيبة ، يا سيّدتي الحبيبة ! لطفاً ، إهدئي ! إنه السيد دو نونانكور ، عجوز جميل ، محنّط السحنة بمرهم

بارد ، والسيّدة دولارسيلّوا ، زوجة مدير من قبل لويس - فيليب . ترتجف ، كانت ، بذعر ، هي سمعت ، من لحظات ، لحن بولكا على ارغن ، وهذا علامة بين الثوّار . كثير من البورجوازيين كانت لهم تصوّرات مماثلة ، يحسبون أن رجالاً ، في سراديب الأموات ، سوف يقتحمون ناحية سان جرمان ، تنطلق من الأقبية شائعات ، وتحدث ، في الخفايا ، أمور مشبوهة .

في ذلك الوقت ، اجتهد الجميع في تهدئة السيّدة دي لارسيلّوا . عاد الهدوء . لا شيء يخشى منه « كافينياك أنقذنا ! » كأن مخاوف الثورة ما كانت كافية ، يضاعفونها . كان هناك ثلاثة وعشرون ألف محكوم بالأشغال الشاقة من جانب الاشتراكيين ، - لا أقلّ ! -

ما كانوا يشكون ، أبداً ، بكون الأطعمة مسمّمة ، بأن بعضاً من جنود الحرس الوطني قد نُشِروا بين لوحتين ، وبالتطوع في الجيش الذي كان يعلن النهب ، الحريق .

- وشيء ما فوق ذلك ! أضافت المديرة السّابقة .

- آه ! أيتها العزيزة ! قالت بخفر السبّدة دمبروز مشيرة بنظرها إلى الفتيات الثلاث .

خرج السيّد دمبروز من غرفنه مع مارتينون . أدارت رأسها وأجابت على تحيّات بيلّران الكان يتقدّم . نظر الفنّان إلى الجدران نظرة كئيبة . انتحى به ، صاحب المصرف ، وأفهمه أنه ، حتى الآن ، عمل على إخفاء لوحته الثوريّة .

- بلا شك ، قال بيلّران ، سقوطه في نادي الذكاء غيّر من

آرائه .

أسرّ إليه السيّد دمبروز ، في غاية التهذيب ، انه سيكلّفه بأعمال أخرى .

ـ ولكن معذرة ! . . . ـ آه ! أيها الصديق العزيز ! يا للسعادة !

ـ أرنو والسيّدة أرنو كانا أمام فريدريك .

أصيب كما بدوار . كانت أزعجته روزانيت طوال بعد الظهر بإعجابها بالجنود ، فاستفاق حبّه القديم .

جاء مدير الخدم ، أعلن للسيّدة أن المائدة جاهزة . أمرت الفيكونت ، بنظرة ، ليلزم سيسيل ، قالت بصوت منخفض لمارتينون : « يا له من مسكين ! » وانتقلوا إلى غرفة الطعام .

وسط السماط ، تحت أوراق أناناس خضر ، يقوم مرجان * يمتد خطمه صوب شقة يحمور** ، وملامساً بذنبه هرم سلطعون . وتقوم في سلال هرمية من خزف سكسوني قديم ثمار تين ، كرز ، إجاص وعنب (هي من بواكير الزراعة الباريسيّة) ؛ من وقت لآخر ، تختلط باقة زهر بأوان فضيّة نيّرة ، تملأ المسكن نوراً لطيفاً ستائر حريريّة بيضاء مسدلة على النوافذ ، يرطّبه منهلان فيهما قطع ثلج ، ويقوم بالخدمة خدم كبار بسراويل قصيرة . كل هذا يبدو أفضل بعد تأثر الأيّام الماضية . يستعيدن فرح الأمور التي

---

* نوع من السمك .

** حيوان لبون مجترّ من فصيلة الأيايل .

خافوا يفقدونها . وعبّر نونانكور عن هذا الشعور العام بالقول :

ـ آه ! فلنأمل أن يسمح لنا السادة الجمهوريّون بالعشاء !

ـ بالرغم من أخوتهم ! أضاف السيّد روك بذكاء .

كان هذان المحترمان إلى يمين السيّدة دمبروز وإلى يسارها ، أمامها زوجها ، بين السيّدة دي لارسيلّوا وبجانبها الديبلوماسي ، وبين الدوقة المسنّة التي يحتك بها فوميشون . ثم بعدهم الرسّام ، تاجر الخزفيّات ، الآنسة لويز ، وبفضل مارتينون الكان خطف مكانه ليكون قرب سيسيل ، وجد فريدريك نفسه إلى جانب السيّدة أرنو .

ترتدي ، كانت ، ثوب بارِج * أسود ، في رسغ يدها سوار ذهبي ، وكما في أوّل عشاء له عندها ، شيء ما أحمر في شعرها ، غصن فوشيه فاتنة في كعيكتها . ما استطاع أن يمسك نفسه عن القول لها :

ـ ها نحن ، من زمان ، لم نلتقِ !

ـ آه ! أجابت ببرود .

أضاف بعذوبة صوت لطّفت وقاحة سؤاله :

ـ هل فكّرت بي ، في مرة ما ؟

ـ لماذا أفكّر بك ؟

جُرح فريدريك لهذه الكلمة .

ـ لربما ، بعد كل شيء ، معك حقّ .

---

* نسيج صوفي رقيق مصنوع في مدينة بارج الفرنسية .

إنما ، نادماً بسرعة ، أقسم أنه لم يعش ، أيّ يوم ، بدون أن يفتك به ذكرها .

ـ لا أصدق شيئاً مما تقول ، يا سيّد .

ـ تعرفين ، مع ذلك ، أنني أحبّكِ !

لم تجب السيّدة أرنو .

ـ تعرفين أنني أحبّكِ .

ظلّت صامتة .

« إيه . دعك منها ! » قال فريدريك في ذاته .

وإذ رفع عينيه ، لحظ الآنسة روك إلى الجهة الأخرى من المائدة .

كانت ظنّت أنه من المثير ارتداء ثياب خضر ، وهو اللون الذي لا يأتلف مع لون شعرها الأحمر . وبما أن عقدة حزامها عالية جداً ، فقد كان عقدها يغرقها . هذا السوء في الأناقة ، أدّى ، ولا شكّ ، إلى برودة سلام فريدريك . راحت تراقبه من بعيد ، بحشريّة . وأرنو ، قربها ، بالغ في غزله وما استطاع أن ينتزع منها كلمات ثلاثاً ، إلى حدّ أنه ما عاد يعمل ليُعجب ، بل طفق يستمع إلى الحديث . كان ، يدور على عصير الأناناس المركز في لوكسمبور .

لويس بلان ، بعد فوميشون ، يمتلك فندقاً في شارع سان دومينيك ويرفض تأجير العمّال .

ـ ما أجده غريباً ، أنا ، قال نونانكور ، هو لادرو-رولّان الذي يصطاد في أملاك السّلطة !

ـ هو مدين بعشرين الف فرنك لأحد الصاغة ! أضاف سيزي ؛ وحتى ليطمح . . .

أسكتته السيّدة دمبروز

ـ آه ! من السافر الاندفاع في سبيل السياسة ! أيها الشاب ! اهتمّ ، بالأحرى ، بجارتك !

بعدها شرع الرجال الرزينون ينتقدون الجرائد .

أرنو دافع عنها ؛ تدخّل فريدريك سمّاها بيوت تجارة شبيهة بالأخرى . كتابها ، اجمالاً ، حسب رأيه ، بلهاء ، أو مزّاحون ؛ عرض ان يسمّيهم ، وقابل بسخريّة عواطف صديقه السخيّة . ما رأت السيّدة أرنو في ذلك انتقاماً منها .

في هذه الأثناء ، كان الفيكونت يعذّب نفسه ، جاهداً ، ليعجب الآنسة سيسيل . تبسّط ، أوّلاً ، في الحديث لاظهار ميوله الفنيّة ، مستنكراً شكل القناني وحفر السكاكين . ثم تكلّم على خيول اصطبله ، على خيّاطه وصانع قمصانه ؛ أخيراً اقتحم باب الدين ، ووجد وسيلة لاسماعها أنّه يتمّم كلَّ واجباته .

مارتينون كان يتصرف بطريقة أفضل ، بنمط رتيب ، ناظراً اليها باستمرار ، شرع يمتدح مظهرها الذي يشبه مظهر الطائر ، شعرها الأشقر الباهت ، يديها القصيرتين جداً ، كانت تلتذّ هذه الفتاة البشعة لهذا الوابل من الاطراءات .

ما عاد يُسمع شيء ، جميعهم يتكلّمون معاً عالياً . يريد ، السيّد روك ، لحكم فرنسا « ذراعاً حديديّة » . أسف نونانكور حتى ، لزوال المقصلة السياسيّة . كان يُقتل كل هؤلاء الأوغاد .

ـ انهم ، حتى ، جبناء ، قال فوميشون . لا أرى شجاعة في التلطّي وراء المتاريس .

ـ على فكرة ، قالت السيدة دمبروز ملتفتة الى فريدريك ، حدّثنا عن ديسًرديبه .

كان الموظّف الطيّب ، صار بطلاً ، كما سالّيس ، الاخوة جينسون ، المرأة بيكيّيه ، الخ .

بدأ فريدريك يروي قصة صديقه . عاد اليه نوع من الهالة .

وانتهوا ، بشكل طبيعي ، الى رواية قصص بطولة مختلفة . لم يكن صعباً ، حسب رأي الديبلوماسي ، مواجهة الموت ، الدليل ؟ من يقتتلون بالمبارزة .

ـ يمكننا الاستعلام عن هذا من الفيكونت ، قال مارتينون :

احمرّ الفيكونت احمراراً شديداً .

نظر اليه المدعوّون . همست لويز ، التي كانت أكثر تعجّباً من الآخرين :

ـ ماذا هناك ؟

ـ لقد تقهقر أمام فريدريك ، أجاب ارنو بصوت خفيض :

ـ أتعرفين شيئاً ، يا آنستي ؟ سأل ، سريعاً ، نونانكو ؛ وذكر جوابه للسيّدة دمبروز ، التي راحت ، منحنية نوعاً ، تنظر الى فريديك .

لم ينتظر مارتينون أسئلة سيسيل. أخبرها انهذاالأمر كان يتعلّق بشخص كثير العيوب . تراجعت الفتاة ، بهدوء على كرسيّها ، كأنما لتهرب من ملامسة هذا الفاسق .

عادت المحادثة . دارت الخمور الطيّبة ، انتعشوا . تحمّس بيلّران للثورة بسبب المتحف الاسباني الذي ضاع نهائيّاً . هذا ما كان يثيره بالأكثر . كرسّام . عند هذه الكلمة سأله السيّد روك :

ـ ألست أنت صاحب لوحة مهمّة ؟

ـ ربما ! أيّة لوحة ؟

ـ انها لوحة تمثّل سيّدة بثوب . . . للحقيقة ! . . . شفّاف ، مع محفظة نقود وطاووس الى خلفها .

احمرّ فريدريك بدوره . تظاهر بيلّران بعدم السماع .

ـ مع ذلك انه ، فعلاً ، من رسمك ! هو يحمل توقيعك ، وعليه عبارة تذكر انه ملك السيّد مورو .

ذات يوم ، والسيّد روك وابنته ينتظرانه عنده ، رأيا رسم « المارشالة » . اعتبر حينها انه « رسم قوطيّ » .

ـ لا ! قال بيلّران بعنف . انه رسم امرأة .

أضاف مارتينون :

ـ رسم امرأة حيّة تماماً ! أليس كذلك ، يا سيزي ؟

ـ إيه ! لا اعرف عنه شيئاً .

ـ ظننتك تعرفها . انما ، بما انّ هذا يثير لك المتاعب ، الف معذرة !

خفض سيزي عينيه ، مظهراً ، بتلبّكه ، انّه لعب دوراً

يدعو للرثاء لمناسبة هذه اللوحة . بالنسبة لفريدريك ، لا يمكن للمثال إلّا أن تكون عشيقته . صار هـذا واحداً من هـذه الاقتناعات التي تتكوّن بسرعة ، ووجوه الحضور تؤكّد الأمر بوضوح .

ـ « كم كان يكذب عليّ ! » قالت السيّدة أرنو في نفسها .

ـ « اذن لأجل هذا تركني ! » فكّرت لويز .

تصوّر فريدريك ان هاتين القضيّتين تضران به . وحين صاروا في الحديقة ، عاتب مارتينون .

انفجر عاشق الأنسة سيسيل ضاحكاً في وجهه .

ـ إيه ! أبداً ! هذا ينفعك ! هيّا تقدّم !

ماذا يريد أن يقول ؟ من جهة أخرى ، لم كلّ حسن الالتفات هذا المغاير كثيراً لعادته . من دون ان يفصح بشيء ، ذهب الى الطرف ، حيث تجلس النساء ، كانوا الرجال واقفين ، وبيلّران في الوسط يبشّر بأفكاره . أفضل ما كان لصالح الفنون ، كانت الملكيّة ولا شكّ بات يشمئز من الأزمنة الحديثة ، « حين لا تكون إلّا بسبب الحرس الـوطني » ، تأسف عـلى القرون الوسطى ، على لويس الرابع عشر ؛ هنّأه السيّد روك على آرائه ، مصرّحاً حتى ، بأنها تقلب كل أفكاره المسبقة عن الفنّانين . لكنه سرعان ما ابتعد ، وقد جذبه صوت فوميشون . ارنو كان يحاول التأكيد على وجود اشتراكيّتين ، الواحدة حسنة ، الأخرى سيّئة . الصناعي ما كان يجد فرقاً ، يصاب بالدوار غضباً حين سماعه كلمة مُلكيّة .

ـ انه حقّ تكرّسه الطبيعة ! يتمسّك الأطفال بألعابهم ، كل البشر يشاطرونني الرأي ، كل الحيوانات ؛ حتى الأسد ، لو يستطيع الكلام لأعلن نفسه مالكاً ! هكذا أنا ، أيها السّادة ، بدأت برأسمال خمسة عشر الف فرنك ! كنت أنهض ، خلال ثلاثين سنة ، وبانتظام ، في الرابعة صباحاً ! قاسيت شتى اصناف العذابات حتى حصلت ثروتي ! وجاؤوا يؤكّدون لي انني لست صاحبها ، أن مالي ليس مالي ، أن المُلكية ، في النتيجة ، هي السرقة !

ـ لكن برودون . . .

ـ دعني وشأني بلا برودون ! لو كان هنا ، أظن انني كنت خنقته !

كان ليخنقه . بعد الكحول بخاصة ! ، فوميشون لا يعود يعرف ذاته ؛ قريباً من الانفجار كقنبلة ، كان وجهه المعرّض للانفجار .

ـ مرحبا ، أرنو ، قال هيسّونيّه ، الذي مرّ ، برشاقة ، على العشب الأخضر .

كان آتياً للسيّد دمبروز بالنسخة الأولى من نشرة اسمها « الخطر المتجدّد » يدافع فيها البوهيمي عن مصالح جمعية رجعيّة ، وقدّمه المصرفي لمدعوّيه على هذا الأساس .

سلّاهم هيسّونيّه ، ذاكراً ، اوّلاً ، انّ تجّار الشحم يدفعون ثلاثمئة واثنين وتسعين صبياً ليصرفوا كلّ مساء : « مصابيح ! » ثم ، وهو يهزأ بمبادىء سنة ٨٩ ، بتحرّر العبيد ، بخطباء

اليسار ، اندفع حتى لجعل نفسه قاضياً على حاجز ربما حسداً للبورجوازيين الذين كانوا تعشّوا جيّداً . لم تعجب الحملة أحداً .

ما كان الوقت وقت مزاح . قال ذلك نونانكور مذكّراً بموت المطران « آفّر » ، والجنرال « بريا » . دائماً يتذكرونهما ؛ يحتجّون بهما . أعلن السيّد روك وفاة المطران : « كل ما هناك من مجد » ؛ أعطى فوميشون الوسام للعسكريّ ؛ وبدلاً من البكاء ، ببساطة ، على هذين الفقيدين ، تناقشوا لمعرفة أيّهما سيثير غضباً أكثر . ولقد حصلت مقابلة ثانية بين لامورسيير . لا أحد من الشركة ، باستثناء أرنو ، استطاع رؤيتهما يعملان . الى ان ذلك لم يمنعهم من اصدار حكم قاطع عليهما . فريدريك أنكر معترفاً بأنه لم يحمل السّلاح . استحسن هذا ، بحركة منهما ، الديبلوماسّي والسيّد دمبروز . في الواقع ، محاربة الثورة كانت تعني الدفاع عن الجمهوريّة . مع كون النتيجة سعيدة ، فقد وطّدتها . والآن ، اذ تخلّصوا من المهزومين تمنّوا لو يتخلصون أيضاً من المنتصرين .

ما إن وصلت السيّدة دمبروز إلى الحديقة ، مصطحبة سيزي ، حتى راحت توبّخه لرعونته . واذ رأت مارتينون ، صرفته ، ثم ارادت ان تعرف من قريبها الجديد سبب سخريّته من الفيكونت .

ـ ليس هناك سبب .

ـ وكل ذلك كأنه لصالح السيّد مورو ! فبأيّ هدف ؟

ـ ولا هدف . فريدريك شاب لطيف . إحبّه كثيراً .

ـ وأنا أيضاً ! ليأتِ ! اذهب وأتِ به !

بدأت تغض من شأن مدعوّيها ، برقة ، بعد عبارتين لا معنى لهما أو ثلاث ، وهذا يعني انها ترفعه فوقهم . ما تأخّر عن ذمّ النساء الأخريات قليلاً ، وهي طريقة لبقة لملاطفتها . لكنها كانت تتركه ، بين وقت وآخر ، كان مساء استقبال ، تصل نساء . ثم تعود الى مكانها ، والترتيب الفجائي لمقعديهما يسمح لهما بأن لا يسمعهما أحد .

بدت بشوشة ، رصينة ، حزينة ومفكّرة . لم تكن تهمّها انشغالات النهار . كان هناك نسق كامل لعواطف ليست عابرة . طفقت تشتكي من الشعراء الذين يشوّهون الحقيقة ، ثم رفعت عينيها صوب السماء ، سألته اسم نجمة .

كان في الشجر فانوسان صينيّان أو ثلاثة ، يحرّكها الهواء ، فترتعش منها اشعّة على ثوبها الأبيض . تجلس ، كانت ، كما على عادتها مرتدة قليلاً الى الوراء على كرسيّها الواسع المريح ، ومقدم أمامها . كنت ترى مقدّم حذاء ساتانيّ أسود . وبين وقت وآخر ، تطلق السيّدة دمبروز كلمة بنبرة عالية ، وأحياناً ضحكة .

ما كانت هذه الأمور المغناجة لتصل الى مارتينون المهتم بسيسيل ، لكنها تتجه لتصدم روكْ الصغيرة التي كانت تتحدّث مع السيّدة أرنو . هي الوحيدة ، بين هذه النسوة ، التي ما بدت حركاتها ، بالنسبة اليها كريهة . جاءت جلست قربها ، ومستسلمة لحاجة المارّة ، سألتها :

ـ فريدريك مورو يحسن التحدّث ، أليس كذلك ؟

ـ تعرفينه ؟

ـ أوه ! جيّداً ! نحن جيران ، ولقد لاعبني وأنا صغيرة .

رمقتها السيّدة أرنو بنظرة طويلة تعني : « أتصوّر أنكِ لا تحبّينه ؟ »

لكن نظرة الفتاة وبلا تردّد ، أجابتها : « بلى » !

ـ أترينه كثيراً ؟

ـ أوه ! لا ! فقط عندما يأتي إلى أمّه . منذ عشرة أشهر ولم يزرها ! ومع ذلك كان تعهّد بأن يكون أكثر دقّة .

ـ يجب ألّا تثقي كثيراً بوعود الرجال يا ابنتي !

ـ لكنّه لم يخدعني ، أنا !

ـ كما لم يخدع سواكِ !

ارتعشت لويز : « هل يكون صدفة ، وعدها بشيء ، هي ؟ » وانقبض وجهها ريبةً وكرهاً .

تكاد تكون خافت من كلمتها السيّدة أرنو . ارادت تستعيدها ثم صمتتا .

وبما انه كان موجوداً قبالتهما ، على كرسيّ يُطوى ، راحتا تنظران عليه ، الواحدة بخفر ، من تحت جفونها ، الأخرى صراحة ،مفتوحة الفم ، إلى حدّ أن قالت له السيّدة دمبروز :

ـ إستدر لتراك !

ـ من هذه ؟

إبنة السيّد روك !

ومازحته على حب هذه الريفيّة . رفع التهمة عن نفسه ، محاولاً الضحك .

ـ أمعقول هذا ! أسألك ! فتاة قبيحة مثل هذه !

راح يشعر ، حينها ، بلذة خيلاء كبيرة . تـذكّر تلك الليلة ، الكان فيها خرج وقلبه مليء خزياً ، وتنفّس ملء رئتيه . أحسّ نفسه تماماً في مكانه الحقيقي ، تقريباً في بيته ، كما لو ان كل هذا ، بما فيه فندق دمبروز يخصّه . تستمع اليه النساء في نصف دائرة . وليتألّق ، أعلن أنّه مع إعادة الطلاق اليجب ان يكون سهلاً إلى حدّ الافتراق والعودة الى ما لا نهاية ، بقدر ما نشاء . صرخن ؛ بعضهن تهامسن ، تعالى بريق أصوات خافتـة في الظل ، عند اسفل حائط مغطّى بالزراوند *.مثل قوقأة دجاجات فرحات . وراح يوسّع نظريّته بثقة يسبّبها الشعور بالنجاح . حمل خادم طبقاً مليئاً بالبوظة . تقدّم نحوه الرجال . كانوا يتحدّثون عن أعمال التوقيف .

حينها انتقم فريدريك من الفيكونت حين أوهمه بأنه ربما سيلاحق لكونه مَلَكيًّا . يعترض الآخر ، يذكر انّه لم يبارح غرفته ؛ يروح خصمه يزيد الفرص السيّئة . السيّدان دمبروز ودوغريمونفيل كانا مسرورين . ثم لاطفا فريدريك متأسّفين لكونه لم يستفد من مؤهّلاته لمساندة النظام . وسلّما عليه ، بودّ ، منذ الآن ، يمكنه الاعتماد عليهما . وأخيراً ، بما انّ الجميع كانوا يذهبون ، انحنى الفيكونت طويلاً أمام سيسيل .

ـ أتشرّف كثيراً ، آنستي ، بأن أتمنى لك مساءً سعيداً .

---

* نبات متعرّش يُستعمل بعضه للتزيين .

أجابت بنبرة جافة :

ـ بونسوار ! لكنها ابتسمت لمارتينون .

ولكي يتابع السيّد روك محادثته مع ارنو ، عرض عليه ان يرافقه والسيّدة أرنو ، باعتبار الطريق واحدة . لويز وفريدريك مشيا في الامام . أمسكت بذراعه ، وحين صارت بعيدة ، إلى حدٍّ ما ، عن الآخرين :

ـ آه ! أخيراً ! أخيراً ! كم عانيت طوال السّهرة ! كم هؤلاء النساء خبيثات ! كم هنّ متكبّرات !

أراد ان يدافع عنهن .

ـ أوّلاً ، كان في إمكانك محادثتي وأنت تدخل . منذ سنة ولم تأتِ !

ـ لا ، ليس من سنة ، قال فريدريك ، سعيداً في ارجاعها الى هذا التفصيل ليتلافى ما عدا ذلك .

ـ ليكن ! فقد بدا لي الزمن طويلاً ، هذا كل شيء ! إنما ، أثناء هذا العشاء الكريه ، كنت أظنّك تخجل بي ! آه ! أفهم ، لا أملك ما يعجب . مثلهن .

ـ أنت مخطئة ، قال فريدريك .

ـ حقاً ! أقسمْ أنك لا تحب واحدة منهن .

ـ أقسم .

ـ وأنا وحدي من تحبّ ؟

ـ طبعاً !

جعلها هذا التأكيد سعيدة . أرادت تضيع في الشوارع

ليتنزّها ، معاً ، طوال الليل .

ـ كنت كثيرة القلق هناك ! ما كانوا يتحدّثون سوى عن الحواجز ! رأيتك تقع على ظهرك ، مغطى بالدم ! أمّك في فراشها مع روماتيزمها . لم تكن تعرف شيئاً . كان عليّ السكوت ! ما عدت استطيع ! فاصطحبت كاترين .

وأخبرته برحيلها ، كل الطريق ، والكذبة التي واجهت بها أباها .

ـ يعيدني خلال يومين . تعال غداً مساء ، كما لو الأمر صدفة ، واستفد من الفرصة لتطلب يدي للزواج .

ولا مرة كان فريدريك بعيداً هكذا عن الزواج . فضلاً عن انّ الآنسة روكْ بدت له انسانة صغيرة مثيرة للضحك . يا له من فرق بينها وبين السيّدة دمبروز ! ينتظره غد آخر غير هذا ! متأكّد من هذا ، صار اليوم . أيضاً ، ليس هذا هو الوقت المناسب للارتباط ، بقرار بهذه الأهمية . الآن تلزمه الأيجابية ؛ ـ ثم ، فقد رأى السيّدة أرنو . أقلقته صراحة لويز .

أجاب :

هل فكّرت جيّداً في هذه الخطوة ؟

ـ ماذا ؟ صرخت ، وقد جمّدتها المفاجأة وأخذها الغضب .

قال ان الزواج الآن ضرب من الجنون .

ـ هكذا أنت لا تريدني ؟

ـ أنت لا تفهمينني !

وانطلق في هذر متلبّك ، ليخبرها انه انشغل بأمور قاهرة ،

وأن له أعمالاً لا حصر لها ، وأن ثروته نفسها مهدّدة (قطعت لويز كل شيء بكلمة واحدة) ، وأخيراً أن الظروف السياسيّة تعترضه . اذاً ، فالأكثر عقلانيّة ، هو بعض تريّث ستتدبّر الأمور ولا شكّ ؛ أقلّه ، هو يأمل هذا ؛ وإذ لم يجد سبباً آخر ، تظاهر ، فجأة ؛ بأنه كان يجب ان يكون صار عند ديسّردييه منذ ساعتين .

وإذ حيّا الآخرين ، انقذف في شارع هوتفيل ، استدار حول الملعب ، عاد الى البولفار وصعد راكضاً الطبقات الاربع الى روزانيت .

غادر السيّد أرنو وزوجته السيّد روك وابنته عند مدخل شارع سان دمي . عائدان صامتين . هو ، لا يستطيع الكلام لفرط ما ثرثر ، وهي لأنها تشعر بتعب ، حتى أنها لتستند على كتفه . انه الرجل الوحيد الكان ، خلال السّهرة ، أظهر عواطف نبيلة . أحسّت نفسها تجاهه مليئة تسامحاً . وكانت تحتفظ بنوع من الحقد ضد فريدريك .

ـ أرأيت سحنته أثناء الحديث عن الرسم ؟ حين أخبرتك أنه عشيقها لم تكوني لتصدقيني !

ـ أوه ! نعم ، كنت مخطئة !

ركّز أرنو على هذا ، فقد سرّ لانتصاره .

ـ أراهن ، حتى ، أنه تركنا ، قبل قليل ، للذهاب إليها ! هو الآن عندها ! يمضي الليلة هناك .

أنزلت ، السيدة أرنو ، رأسيّتها كثيراً .

ـ لكنّكِ ترتجفين !

ـ لأنني بردانة قالت .

أمّا لويز ، فمذ نام أبوها دخلت غرفة كاترين ، هزّتها من كتفها ، قالت لها :

ـ إنهضي ! . . . بسرعة !أسرعي ! واتيني بعربة الخيل .

أجابتها كاترين ان لا عربات في مثل هذه الساعة .

ـ إذن فستأخذينني بنفسك .

ـ إلى أين ؟

ـ عند فريدريك !

ـ مستحيل ! ماذا ؟

تريد أن تتحدث إليه . لا تستطيع الانتظار . تريد أن تراه للحال .

ـ أو تعتقدين ! التقدّم ، هكذا ، وسط الليل إلى بيت ! أضيفي إلى هذا أنه يكون نام الآن .

ـ أوقظه !

ـ لكن هذا لا يليق بآنسة !

ـ لست آنسة ! أنا زوجته ! أحبّه ! هيّا بنا ، تدثّري بشالك .

وقفت كاترين عند طرف سريرها وطفقت تفكّر . أخيراً قالت :

ـ لا ! لا أريد !

ـ إذن ابقي ! أذهب أنا !

انسلّت لويز ، كما حَنَش ، في الدرج . انطلقت كاترين

وراءها ، أدركتها على الرصيف . لم تنفع نصائحها ، فتبعتها وهي تنهي عقد قميص نومها . بدت لها الطريق طويلة جداً . راحت تشتكي من رجليها الهرمتين .

- ثم ليس لي ما يشدّني مثلك ، يا سيّدة !

ثم رقّ قلبها .

- يا للقلب الشقي ! ترين ، لم يبق لك سوى كاترينك !

هي ، بين وقت وآخر ، تعاودها الهواجس .

- آه ! جعلتني أقوم بعمل طائش ! لو استيقظ والدك ! يا إلهي ! ردّ غضبك عنّا !

أوقفتهما ، أمام مسرح « فارييتي » ، فصيلة من الحرس الوطني . ذكرت لهم لويز ، بسرعة ، أنها ، وخادمتها ، ذاهبتان إلى الطبيب في شارع ريمفور . تركوهما تمرّان .

عند زاوية المادلين ، التقتا بفصيلة ثانية ، وإذ قدّمت لويز الحجّة نفسها ، قال لها واحد منهم :

- هل هذا لمرض تسعة أشهر ، يا قطتي الصغيرة ؟

- غوغيبو ! صرخ النقيب ، بلا بذاءات وأنت في الخدمة !

- انصرفا يا سيّدتي !

استمرّت النكات برغم الأمر :

- تمتّعي جيّداً !

- احتراماتي للطبيب !

- احذري الذئب !

- يحبّان المزاح ، قالت كاترين ، عالياً . إنهم شباب !

وصلتا ، أخيراً ، عند فريدريك . دقت لويز الجرس بقوّة مراراً . انشقّ الباب ، وأجاب البوّاب عن سؤالها :

ـ لا !

ـ إنما لا بد أن يكون نائماً !

ـ لا ، أقول لكِ ، منذ ثلاثة أشهر وهو لا ينام في بيته !

وسقط زجاج نافذة حجرة البواب بوجهها كمقصلة . بقيتا في الظلمة تحت عقد القنطرة . صرخ بهما صوت خانق :

ـ أخرجا !

انفتح الباب ثانية ، فخرجتا .

وجدت لويز نفسها ملزمة بالجلوس على حافة الطريق ، وبكت ، من كل قلبها ، مستسلمة ، ورأسها بين يديها . راح يبزغ النهار ، طفقات مركبات تمرّ .

أعادتها كاترين وهي تسندها ، تقبّلها ، تقول لها كلاماً عذباً معزياً من خلال تجربتها . يجب ألّا يسيء العشاق إلى ذواتهم بهذا القدر . إذا ما فُقد هذا ، فستجدين كثيرين سواه !

III

بعدما هدأت حماسة روزانيت للحرس الوطني ، عادت أكثر فتنة من أي وقت ، واعتاد فريدريك ، لا شعورياً ، الحياة عندها .

أفضل أوقات النهار هو الصباح على الشرفة . تروح وتجيء حوله ، بقميصها الفضفاض الذي من الباتيستا ، وقدماها العاريتان في خفّها ، تنظّف قفص عصافيرها ، تسكب الماء لسمكاتها الحمر ، وتعمل في صندوقة ملأى بالتراب ، منها ترتفع سلبوتيّات * تزيّن جداراً . ثم ، مستندين إلى شرفتها ، ينظران ، معاً ، العربات والمارّة . ويتدفآن في الشمس ، يرسمان مشاريع للسهرة . يتغيّب لساعتين على الأكثر ، بعدها يخرجان إلى مسرح ما ، يجلسان في مقصورات المسارح ، تستمع روزانيت إلى الآلات ، وباقة زهر كبيرة في يدها ، بينما يروي لها فريدريك ، همساً في أذنها ، أخباراً فَرِحة أو غَزِلة . مرات أخرى ، يأخذان

---

* مفردها سلبوت وهو جنس نباتات عشبيّة من فصيلة السلبوتيّات أوراقها وأزهارها مأكولة .

مركبة توصلهما إلى غابة بولونيا ، حتى وقت متأخّر يتنزّهان ، حتى منتصف الليل . يعودان ، أخيراً ، عبر قوس النصر والممرّ الكبير ، متنشّقين الهواء والنجوم فوق رأسيهما ، وتبدو كل مصابيح الغاز ، حتى آخر الجادة الكبيرة ، كعقد لؤلؤ مشعّ .

دائماً ينتظرها فريدريك حين يريدان الخروج . تطيل الوقت كثيراً لتجعل حول ذقنها شريطتي معطفها ، ولحالها تبتسم ، أمام درجها ذي المرآة . ثم تأخذ به من ذراعه ، ترغمه على التمرّي قربها :

ـ نحن في وضع حسن هكذا ، معاً ، جنباً إلى جنب ! آه ! يا حبّي المسكين ، سأفترسك !

هو ، الآن ، تابعها ، ملكها . على وجهها ، منه ، إشعاع دائم ، في الوقت ذاته الذي تبدو مرتخية أكثر في تصرّفاتها ، مكوّرة أكثر في أشكالها . ومتغيّرة يراها ، ومع ذلك ، هو لا يعرف أن يقول كيف .

أخبرته ، يوماً ، كخبر مهم ، أن السيّد أرنو قد جهّز محلّ نبيذ أبيض لعاملة قديمة في مصنعه ، يأتي إليه كل مساء ، « يصرف كثيراً ، أسبوعيّاً ، وحتى فهو قد أعطاها أثاثاً من خشب البليسّاندر » .

ـ كيف عرفت هذا ؟ سألها فريدريك .

ـ أوه ! متأكّدة أنا !

كانت دلفين ، تنفيذاً لأوامرها ، قد استعملت . هي تحبّ ، إذن ، أرنو ، لتهتمّ به بهذا القدر ! اكتفى بأن أجابها :

ـ ما ضرّك من هذا ؟

فوجئت روزانيت بالسؤال :

ـ لكنّ الوغد مدين لي ! أليس من المستكره رؤيته ينفق على بغايا ؟

ثم ، وبأسلوب حقد ظاهر :

ـ فضلاً عن ذلك ، هي تسخر منه تماماً ! لديها عشاق ثلاثة أخر ،هذا افضل اولتستنفيذه على آخر فلس،أكون سعيدة!

في الواقع ، كان أرنو يترك نفسه تستغلّه البردويّة في مقابل تساهلات حبّ شيخوخي .

توقّف مصنعه . أعماله يرثى لها . حتى أنه ، ليعاودها ناشطة ، فكّر ، أوّل ما فكر ، في تأسيس مقهى غناء حيث لا يقدّمون سوى الأغاني الوطنيّة ، إذ يقدم له الوزير إعانة ماليّة ، تصبح هذه المؤسسة ، في آن معاً ، مركز دعاوة ومنبع أرباح . ولكن ، بما أنّ السلطة تغيّرت ، استحال كل شيء . الآن ، يفكّر هو ، بمتجر قبّعات عسكريّة كبير . إنما يعوزه رأس المال للانطلاق فيه .

لم يكن ، بعد ، سعيداً داخل بيته . لا تبدو لطيفة معه السيّدة أرنو ، بل هي ، أحياناً ، فظّة . مارت هي ، دائماً ، إلى جانب أبيها . وهذا مما كان يزيد الخلاف ، وصار البيت لا يطاق . كان يخرج غالب الأحيان صباحاً ، يمضي نهاره متسكعاً ، ممشوراً لينسى ، ثم يتعشّى في حانة مستسلماً لأفكاره .

غياب فريدريك المتواصل ، يقلق عاداته . فبعد ظهر يوم ، أتاه ، توسّل إليه يعود لزيارته كما من زمان ، فوعده فريدريك بذلك .

ما كان يجرؤ ، فريدريك ، على العودة عند السيّدة أرنو . يبدو له أنه قد خانها . لكن رأى عدم عودته إلى أرنو جبناً . تعوزه الحجج . فيجب الحسم ! وذات مساء ، سرى إليه .

التجأ إلى ممرّ جوفروي ، لأن السماء تمطر ، هناك اقترب منه ، على ضوء الواجهات ، رجل قصير ضخم . ما تلكّأ فريدريك لمعرفته : انه « كومبان » ، الخطيب الذي أثار كثيراً من الضحك في النادي بسبب اقتراحه . كان يتّكىء إلى ذراع شخص متزيّ بقبّعة زواويّ حمراء ، شفته العليا طويلة جداً ، سحنته صفراء كبرتقالة ، فكّه الأسفل تغطّيه لحية خفيفة ، ويتأمّله بعينين كبيرتين مليئتين إعجاباً .

كان « كومبان » فخوراً به ، ولا شك ، لأنه قال :

- أقدّم لك هذا الجريء ! انه واحد من الحذّائين ، أصدقائي ، إنه وطني ! هل نتناول شيئاً ؟

وإذ شكره فريدريك ، ندّد ، مباشرة ، باقتراح « راتو » ، هو مناورة للارستقراطيّين . للتخلّص منهم ، إعادة سنة ٩٣ واجبة ! ثم استعلم عن ريجمبار وعن بعض آخرين يضاهونه شهرة ، أمثال « ماسّلان » ، « سانسون » ، « ليكورنو » ، « مارِشال » ، وامرىء اسمه ديلورييه ، مجازفٍ في قضية الغدّارات التي احتجزت مؤخراً في « تروا » .

كل هذا كان جديداً على فريدريك . « كومبان » يعرف شيئاً أكثر ، تركه قائلاً :

ـ إلى اللقاء قريباً ، أليس كذلك ، فأنت منهم ؟

ـ ممّن ؟

ـ من رأس العجل !

ـ أيّ رأس عجل ؟

ـ آه ! إنك مزّاح ! قال « كومبان » وربّت له على بطنه .

واختفى الارهابيان في مقهى .

بعد عشر دقائق ، لم يعد فريدريك يفكّر في ديلورييه . كان صار على رصيف شارع الفردوس أمام منزل ينظر في طابقه الثاني ، وراء الستائر ، ضوء مصباح .

أخيراً صعد الدرج .

ـ هل أرنو هنا ؟

أجابت الوصيفة : ـ لا ! إنما أدخل .

وفاتحة ، فجأة ، باباً :

ـ سيّدتي ، إنه السيّد مورو !

قامت أكثر شحوباً من عقدها . ترتجف .

ـ شرّفتنا بهذه الزيارة المفاجئة التي لا نعرف لها سبباً .

ـ لا شيء ! شوق لرؤية أصحاب قدامى ! تابع ، وهو يجلس :

ـ كيف حال هذا الـ « أرنو » الطيّب ؟

ـ ممتاز ! لقد خرج .

- آه ! إني لأفهم ! دائماً عاداته المسائيّة القديمة ، قليلاً من التسلية !

- لِمَ لا ؟ بعد نهار حسابات الانسان بحاجة إلى الراحة !

شرعت تمتدح زوجها كعامل . اغضب هذا الثناء فريدريك . وملاحظاً على ركبتيها قطعة قماش سوداء وشرائط مضفورة زرقاء ، سألها :

- ماذا تفعلين ؟

- أسوّي سترة لابنتي .

- على فكرة ، أين هي ، إني لا أراها ؟

- في مدرسة داخليّة ، أجابت السيّدة أرنو .

تلألأت دموع في عينيها ، لم تتركها تنسكب ، وغرزت إبرتها بسرعة . تناول ، بثقة ، عدداً من مجلّة كاريكاتوريّة ، عن طاولة قربها .

- غريبة رسوم « شام » الكاريكاتوريّة هذه ، أليس كذلك ؟

- بلى .

ثم ، من جديد ، استغرقا في صمتهما .

ألهبت ، فجأة ، زخة مطر ، زجاج النوافذ .

- يا للطقس السيّء ! قال فريدريك .

- فعلاً ، لطيف منك أن تأتي في مثل هذا المطر الغزير !

- أوه ! لا يهمّني أنا ! لست مثل مَن يمنعهم من الذهاب إلى مواعيدهم !

سألته بسذاجة :

- أيّ موعد ؟

- ألا تتذكّرين ؟

ارتعشت ، وخفضت رأسها .

برفق ، وضع يده على ذراعها .

- أؤكد لكِ أنك جعلتني أتألّم كثيراً .

أجابت متلجلجة الصوت :

- لكنّي كنت خائفة على ابني !

وأخبرته قصة مرض أوجين الصغير وكل مخاوفها ذلك النهار .

- شكراً ! شكراً ! لا أشكّ ! ما زلت أحبّك كما دائماً !

- إيه ! لا ! ليس صحيحاً !

- لماذا ؟

ببرود نظرت إليه .

- أنت تنسى الأخرى ! هذه التي كنت تنزّهها في حفلة السباق ! المرأة التي رسمتها في بيتك ، عشيقتك !

- حسناً ، بلى ! أعلن فريدريك . لا أنكر شيئاً ! بائس أنا ! اسمعيني !

إذا ما حصل عليها ، فيأساً ، كما الانتحار . فضلاً عن ذلك ، فقد جعلها شقيّة ، لينتقم بها من خجله . « يا للتنكيل ! ألا تفهمين ؟ » .

أدارت السيّدة أرنو وجهها الجميل ، مادّة إليه يدها ،

وأغمضا عيونهما مأخوذين بنشوة كتمايل عذب ولامتناهٍ . وبقيا يتأمّلان بعضهما ، متواجهين ، قريبين .

- هل أمكنك التصديق أني لم أكن أحبكِ ؟

بصوت خفيض أجابت ، مليءٍ عذوبة :

- لا ! برغم كل شيء ، كنت أشعر ، في عمق قلبي ، أن هذا مستحيل ، وأن سيأتي يوم يختفي فيه العائق الذي بيننا .

- أنا أيضاً ! وكنت أرغب برؤيتك حتى الموت !

- ذات مرة ، في « الباليه - رويّال » ، مررت بجانبك !

- حقاً ؟

وأخبرها بسعادته يوم رآها مجدّداً عند آل دمبروز .

- لكن كم كنت أكرهك في المساء ، ونحن نعود من عندهم !

- يا للشاب الشقيّ !

- حياتي تاعسة جدّاً !

- كذلك حياتي ! ... إذا لم يكن سوى الهموم ، والكآبات ، والاهانات ، كلّ ما أعانيه كزوجة وكأمّ ، لن أشكو منه ما دمنا سنموت ، ما هو مخيف ، هو وحدتي ، من دون أي شخص ...

- لكنني هنا ، أنا !

- أوه ! نعم !

تملّكتها موجة حنان . انفتح ذراعاها ، وغابا ، واقفين ، في قبلة طويلة .

سُمِعَت طرطقة على البلاط . امرأة قربهما ، إنها روزانيت .

، عرفتها السيّدة أرنو . كانت عيناهـا مفتوحتـين بلا حـدود ، تتفحّصها ، مليئتَين مفاجأة وغضباً . أخيراً قالت لها روزانيت :

ـ أتيت أتحدّث إلى السيّد أرنو ، بخصوص أعمال .

ـ ليس هنا ، كما ترين .

ـ آه ! هذا صحيح ! قالت « المارشالة » ، كان معها حقّ خادمتك ! ألف عذر !

ومستديرة صوب فريدريك :

ـ يبدو أنك هنا ، أنت !

احمرّت السيّدة أرنو لهذه اللهجة غير المتكلّفة أمامها ، كأنها صفعة في ملء وجهها .

ـ ليس هنا ، أكرّر لك القول .

عندئذ قالت « المارشالة » بهدوء ، وكانت تتطلّع هنا وهناك :

ـ أنعود ؟ معي عربة .

حاول أن يظهر كمن لم يسمع .

ـ هيّا ، تعال !

ـ آه ! بلى ! إنها مناسبة ! إذهب ! إذهب ! قالت السيّدة أرنو .

خرجا . انحنت على درابزين الدرج لتراهما . ونزلت عليهما ، من أعلى الدرج ، ضحكة عالية ممزّقة . دفع فريدريك روزانيت إلى العربة ، جلس قربها ، وطوال الطريق لم يتفوّه

بكلمة .

كان هو نفسه سبب العار الذي يحقّره تدفّقه . يشعر ، معاً ، بخجل ذلّ محطّم وبتأسّف على سعادته . حين كاد يتملّكها ، صارت مستحيلة ، نهائياً ! ـ وبسبب غلطة هذه ، هذه الفتاة ، هذه العاهرة ! أراد يخنقها . كان يختنق . وإذ دخلا المنزل ، رمى قبّعته كيفما اتفق ، وانتزع ربطة عنقه بحنق .

ـ آه ! لقد قمت بعمل مُسْتنكر ، أقرّي بهذا !

وقفت ، بفخر ، في وجهه .

ـ وماذا بعد ؟ أين الضرر ؟

ـ كيف ؟ هل تتجسّسين عليّ ؟

ـ أهي غلطتي ؟ لماذا تذهب تتسلّى عند النساء الشريفات ؟

ـ لا يهمّ ! لا أريدك تشتمينهنّ .

ـ بماذا أهنتها ؟

لم يقدر أن يجيب . وبنبرة حقودة أكثر :

ـ إنما ، تلك المرة ، في « شان ـ دي ـ مارس » . . .

ـ آه ! إنك تسئمني بقصصك القديمة !

ـ حقيرة !

رفع قبضة يده .

ـ لا تقتلني ! حبلى أنا !

تراجع فريدريك .

ـ تكذبين !

ـ أنظر إليّ !

تناولت مشعلاً قرّبته من وجهها ، قالت :

ـ أتعرف هذا الوجه ؟

مبقعاً ، كانه ، ببقع صفراء صغيرة ، منتفخة بتميّز . لم يُنكر فريدريك وضوح ما رأى . ذهب فتح النافذة ، تمشى قليلاً طولاً وعرضاً ، ثم تهاوى على كرسيّ .

تهدئة ، كان ، هذا الحدث ، هو يؤجّل ، أوّلاً ، انفصالها ، ثم هو يقلب كلّ مشاريعه . مع ذلك ، فقد بدت له فكرة أن يصير أباً غريبة ، غير مقبولة . إنما لماذا ؟ إذا ، لو بدلاً من « المارشالة ؟ . . . وصار حلمه عميقاً جداً ، إلى حدّ التخيّل . بات يرى ، على السجّادة ، أمام المدفأة ، طفلة صغيرة . تشبه السيدة أرنو وتشبهه ، إلى حدّ ما ، ـ سمراء وبيضاء ، عينان سوداوان ، رموش طويلة جداً ، شريطة ورديّة في شعرها المشبوك ! (أوه ! كم كان ليحبّها !) وبدا له أنه يسمع صوتها : « بابا ! بابا » .

اقتربت منه روزانيت ، وقد تعرّت ، لمحت دمعة في جفونه ، قبّلته ، طويلاً ، على جبهته . نهض قائلاً :

ـ تباً له ! لن نقتله هذا الطفل !

طفقت تثرثر طويلاً . بالتأكيد سيكون صبياً ! سيسمّيانه فريدريك . يجب البدء بتحضير جهازه ؛ ـ وإذ رآها سعيدة بهذا المقدار ، تملّكته شفقة . وبما أنه ، الآن ، غير غاضب ، أراد يعرف سبب تصرّفها ذاك تلك الساعة .

ذلك يعود إلى أن الآنسة فاتناز أرسلت إليها ، أثناء النهار ،

سنداً مستحقاً من زمان ، فأسرعت إلى أرنو تطلب مالاً .

ـ كنت أعطيتك ! قال فريدريك .

ـ كان أسهل عليّ أن آخذ منه ما هو لي وأردّ للأخرى ألفها من الفرنكات .

ـ أهذا ، فقط ، كل ما عليك لها ؟

أجابت :

ـ طبعاً !

في التاسعة من مساء الغد (وهي الساعة المعيّنة من الحاجب) ، حضر فريدريك عند الآنسة فاتناز .

اصطدم ، في غرفة الانتظار ، بقطع أثاث مكدّسة . لكن صخب أصوات وموسيقى قاده . فتح باباً فلقي نفسه وسط حفلة . كان دلمار واقفاً أمام بيانو ، تعزف عليه فتاة ذات نظارات ، وقوراً كمغرور ، ينشد قصيدة « انسانية » عن البغاء ، يدور صوته الأجشّ يسانده تساوق مموّه . إلى جانب الجدار صف نساء مرتديات ، بعامة ، ثياباً قاتمة بدون قبّة قميص ولا أردان . خمسة أو ستّة رجال ، كلّهم مفكّرون ، موزّعين هنا وهناك على كراسٍ . وفي كرسيّ مريح أساطيري قديم ، كهيكل عظميّ ؛ ـ وتمتزج برائحة مصباحين قوية بشذا الشوكولا الكائنت تملأ أكؤساً تزدحم فوق طاولة قمار .

كانت الآنسة فاتناز قائمة عند زاوية من زوايا المدفأة ، ووشاح شرقي حول خصرها . ديسّردييه إلى الجهة الأخرى المقابلة . يبدو منزعجاً ، إلى حدّ ما ، من موقعه . على كلّ حال ،

فالوسط الفني يُخجله .

هل كانت انتهت علاقة فاتناز مع دلمار؟ لا ، ربما . مع ذلك ، تبدو مهتمّة بالموظف الطيّب . وإذ طلب إليها فريدريك حديثاً على انفراد ، أشارت إليه لأن يدخل ، معها ، غرفتها . وحين سدّدت الألف فرنك ، سألته ، بعد ، الفوائد .

ـ ليست مهمة ، قال ديسّردييه .

ـ أسكت أنت !

كان هذا الضعف محبّباً إلى فريدريك كتصحيح لضعفه . حمل السند وما عاد تحدّث ، مطلقاً ، عن الفضيحة عند السيّدة أرنو . ولكن ، ظهرت له ، مذذاك ، كل عيوب « المارشالة » .

كان لها ذوق رديء لا يعدّل ، كسل غير مفهوم ، جهل متخلّف ، إلى حدّ اعتبار الدكتور ديروجيه شهيراً جداً ، وكانت فخورة بأن تراه ، ثانية ، وزوجته ، لأنهما « متزوّجان » . وهي تلقّن بمظهر متحذلق ، الآنسة إيرما ، أشياء الحياة ، وهذه إنسانة بسيطة وُهبت صوتاً معقولاً ، يعشقها سيد « جيّد جداً » ، هو موظّف سابق في الجمارك ، وبارع في لعب الورق . كانت تدعوه روزانيت « لولويّ الضخم » . لم يعد فريدريك يستطيع التحمّل ، ولا كذلك ، ترداد تلك الكلمات السخيفة مثل : « قليلاً من الغُرنيّة ! إلى شايّو ! ما أمكن ، أبداً ، معرفة ، الخ » . وراحت تعاند ، في الصباح ، لنفْض الغبار عن طرائفها بزوج قفّازات بيضاء قديمة ! ثار ، بخاصة ، لأجل تصرّفاتها تجاه خادمتها ، التي كانت مهمّاتها ، باستمرار ، متأخّرة ، والتي

كانت ، حتى ، تقرضها مالاً . وحين تتحاسبان ، تتشاجران كامرأتين سوقيّتين ، ثم تتصالحان مقبّلتين بعضهما بعضاً . صارت جلساتهما ، متقابلين ، حزينة . كان نوعاً من الانفراج ، بالنسبة إليه ، حين عادت ، مجدّداً ، سهرات السيّدة دمبروز .

هذه ، على الأقل ، تسلّيه ! تعرف ، هي ، مكائد الناس ، تبدّل السفراء ، شخصيّة الخيّاطات ، وإذا ما كان يتحاشاها في الأمكنة العامة ، يكون ذلك بطريقة مؤاتية تماماً ، معها يمكن اعتبار العبارة احتراماً أو سخرية . فيراها ، كان ، وسط عشرين شخصاً يتحدّثون ، لا تنسى واحداً ، تستدرجهم إلى الأجوبة التي تريدها ، متحاشية المحفوفة بالمخاطر ! تبدو حميميّات ، أشياء عاديّة ترويها ؛ مطلق ابتسامة من ابتساماتها تسبّب حلماً ، سحرها ، أخيراً ، لا يحلّل ولا يحدّد . حين يكون فريدريك برفقتها ، يشعر ، كلّ مرّة ، بلذّة الاكتشاف ؛ ومع هذا ، هو يجدها ، دائماً ، على هدوئها ذاته ، الشبيه ببريق المياه الشفّافة . إنّما ، لماذا تصرّفاتها ، تجاه قريبتها ، هي بهذه البرودة ؟ وحتى انها ، أحياناً ، تحدجها بنظرات غريبة .

مذ بدأ حديث الزواج ، راحت تعترض ، عند السيّد دمبروز ، على صحة « الابنة الحبيبة » ، وأخذتها ، في ما بعد ، إلى حمّامات بالاروك . عند العودة ، برزت ذرائع جديدة : فالشاب لا مركز اجتماعياً رفيعاً له ، ولا يبدو هذا الحب الكبير جديًّا ، وإنّ الانتظار لا مجازفة فيه . أجاب مارتينون انه ينتظر . كان سلوكه ممتازاً . طفق يعظّم فريدريك . أكثر : أخبره عن

الوسائل التي تسرّ السيّدة دمبروز ، ملمّحاً إلى انه يعرف ، من قريبتها ، عواطفها .

وبالنسبة الى السيّد دمبروز ، وبعيداً عن الغيرة ، فقد راح يحوط صديقه الشاب بالتقدير ، يستشيره بأمور مختلفة ، قلقاً ، حتى ، على مستقبله ، إلى حدّ أنه ، يوماً ، وهما يتحدّثان عن السيّد روك ، همس بأذنه ، بدهاء :

ـ حسناً فعلت !

وجميعهم في هذا البيت ، سيسيل ، الآنسة جونسون ، الخدم ، البوّاب ، جميعهم يلاطفونه . يأتي كلّ مساء ، تاركاً روزانيت . فقد جعلها حملها أكثر رصانة ، وحتى ، حزينة الى حدٍّ ما ، كما لو أنّ انشغالات بال اقلقتها . تجيب عن كل الأسئلة :

ـ تخطىء أنت ! أنا في صحّة جيّدة !

كانت مهتمة بسندات خمسة وقّعتها من زمان . وهي ، اذ لم تجرؤ على اخبار فريدريك بالأمر ، عادت إلى ارنو الذي وعدها ، خطيًّا ، بربع أرباحه من إنارة مدن لانغدوك بالغاز (مشروع ممتاز !) ، طالباً اليها ألاّ تستخدم هذه الرسالة قبل اجتماع مجلس المساهمين . وراح يؤجّل هذا الاجتماع ، من اسبوع إلى أسبوع .

و « المارشالة » في حاجة الى المال . تموت ولا تطلب من فريدريك . لا تريد منه . هذا يفسد حبّها . هو يؤمن ، بطريقة حسنة ، مصاريف المنزل . لكن ما يؤخّره عن تقديم الأفضل لعشيقته ، فمركبة صغيرة يستأجرها شهريًّا ، ومصاريف أخرى لا غنى عنها ، منذ ان راح يتردّد على آل دمبروز . مرتين أو ثلاث

مرات ظن نفسه وهو يعود قبل المعتاد ، يرى ظهور رجال تختفي بين الأبواب ! وكانت تخرج ، مراراً ، بدون ان تقول أين تذهب . ما أراد فريدريك إثارة الأمور . سيتّخذ يوماً ، موقفاً نهائياً . يحلم ، هو ، بحياة أخرى ، أكثر مرحاً وأكثر رفعة . هكذا مثال ، يجعله متساهلاً تجاه فندق دمبروز .

إنه فرع حميم من شارع بواتييه . التقى ، هناك ، م . ا . المتنفّذ ، ب . الشهير ، س . الغامض ، ز . الفصيح ، ي . الهائل ، الشخصيات المرموقة القديمة لقاعدة اليسار ، مغامري اليمين ، عمدة المدن المعتدلين ، ممثّلي الكوميديا الدائمين . دُهش للهجتهم الحقيرة ، صغاراتهم ، أحقادهم ، عدم ايمانهم - كل هؤلاء الذين كانوا صوّتوا إلى جانب الدستور ، يكدّون لتقويضه ؛ - ويتحرّكون كثيراً ، يذيعون بياناتٍ ، نقداً ، ينشرون سير حياة ، حياة فوميشون لهيسّونيّه اعتبرت رائعة أدبيّة . نونانكور يهتم بالدّعاوات في الارياف ، السيّد دو غريمونفيل يثير الاكليروس ، مارتينون يؤلّب بورجوازيينّ شباباً . كل ، حسب وسائله ، وظّف نفسه ، حتى سيزي نفسه وهو يروح الآن ، مفكّراً في الأمور الجديّة ، يتجول كل النهار في عربته لأجل الحزب .

السيّد دمبروز ، كما باروميتر ، حدّد التغيُّر الأخير . ما يتكلّمون على لامارتين ، إلاّ يذكر هذه الكلمة لرجل من عامة الشعب : « كفانا عبقرية شعريّة ! » صار كافينياك ، في عينيه ، خائناً . والرئيس الذي كان أظهر اعجابه به خلال أشهر ثلاثة ،

بدأ احترامه له يخفّ (هو لم يجده « الدافع الضروريّ ») ؟ وبما ان الحاجة الى منقذ دائمة ، طفق يحلم ، منذ قضية المعهد الفني ، بشانفرنييه : « شكراً ، يا ربّ ، على شانفرنييه . لنأمل أن شانفرنييه . . . أوه ! لا يُخشى شيء طالما أنّ شانفرنييه . . . » .

قبل أيّ أمر ، كانوا يمتدحون السيّد « تيير » على كتابه ضد الاشتراكيّة ، وفيه برز مفكّراً وأديباً معاً . يسخرون ، كليًّا ، من بيار ليزو الذي كان يستشهد في المجلس بمقاطع من الفلاسفة . يلقون النكات على المشروع المشتركيّ . يصفّقون لـ « معرض الأفكار » ؛ ويقارنون الكتّاب بأريستوفان . ذهب فريدريك الى هناك ، كما الآخرون .

انّ الثرثرة السياسيّة والحبيبة الغالية دغدغتا خياله . ومهما بدا له هؤلاء الأشخاص سخفاء ، فهو فخور بمعرفتهم ، ويتمنّى في نفسه ، تقدير الطبقة البورجوازيّة . إنّ عشيقة كالسيّدة دمبروز تحقّق له هذا .

وراح يعمل كل ما يلزم .

يتواجد في طريق نزهتها ، لا يتأخّر عن إلقاء التحيّة عليها في مقصورتها في المسرح ، وبما انه كان يعرف ساعات ذهابها الى الكنيسة ، يروح يرابط خلف ركن بوضع كئيب . يتبادل وإيّاها رسائل قصيرة بحجّة تعليمات فضوليّة ، استعلامات عن حفلة موسيقيّة أو استعارة كتب ومجلّات . وبخلاف زيارته المسائيّة لها ، يزورها ، أحياناً ، زيارة أخرى أواخر النهار . ويروح فرحه يتدرّج ، صُعُداً ، وهو يجتاز بالتتابع ، البوّابة الكبيرة ، السّاحة ،

غرفة الانتظار ، الصالونين ، يصل ، أخيراً ، إلى صالونها الصغير ، سرّي كقبر ، فاتر كمخدع ، حيث يمكن الاصطدام بغرزات الأثاث بين كل الأنواع هنا وهناك : خزانات بياض ، درئيّات ، كؤوس وصوانٍ مُبرنقة ، مثلّمة ، عاجيّة ، دهنجيّة،* تفاهات ، باهظة الثمن ، غالباً ما هي مجدّدة . هناك ، أيضاً ؛ أشياء بسيطة ، ثلاث حصبات ملساوات من ايتريتا لثقّالة الورق ، قبّعة فريزون|معلّقة بحجاب صينيّ ، مع ذلك ؟ فكل هذه الأشياء تتناسق . وحتى لتؤخذ بنبل المجموعة ، وتنتبه لعلوّ السّقف ، لوفرة البوّابات ، ولطول الأهداب الحريريّة ، طائرة على ركائز المقاعد المذهّبة .

تكاد تكون ، دائماً ، على أريكة لشخصين ، قرب حوض الزهور المزخرف فتحة النافذة . يروح يوجّه اليها المديح الأكثر صحّة ، من على طرف بوفة بدواليب . وتنظر اليه ، رأسها مائل نوعاً ، والفم مبتسم .

يقرأ لها ، كان ، صفحات شعر ، مضمّناً إيّاها روحه ، ليثير اعجابها ، ويصل الى تقدير الآخرين . تُخرسه بملاحظة محقّرة أو عمليّة . ويعود حديثهم الى الموضوع الخالد : الحبّ ! يتساءلان من يسبّبه ، أهي النساء تشعر به أحسن من الرجال . وهل من فوارق بينهم في النظرة اليه . يحاول ، فريدريك ، إيضاح رأيه ، متحاشياً المغالاة والتملّق . صار هذا الأمر نوعاً من صراع ، لذيذٍ

---

* من الدهنج وهو كربونات النحاس الطبيعي المهدرت .

أحياناً ، متسئم أحياناً أخرى .

لم يكن يشعر ، قربها بحيويّة كل وجوده الذي كانت تدفعه نحو السيّدة أرنو ، ولا بالفساد الفرح حيث كانت وضعته روزانيت . لكنه يشتهيها كشيء غير عادي وصعب ، لأنها نبيلة ، لأنها غنيّة ، لأنها تقيّة ، متصوّراً أنّ لها ملاطفات عاطفية نادرة كما تخاريمها ، مع تعاويذ على الجسد وطهارات في الفساد .

استخدم حبّه القديم . أخبرها ، وكأنها الهمته بذلك ، كل ما كانت السيّدة أرنو ، قديماً ، جعلته يشعر به ، ذبوله ، تخوّفاته ، أحلامه ، وكامرأة معتادة هذه الأمور ، تستمع اليه ، ومن دون ان تدفعه لا تستسلم لشيء . وما استطاع إغراءها كما استطاع مارتينون الزواج . لتنهي الأمر مع عاشق قريبتها ، اتهمته بأنه يقصد مالها ، حتى انها توسلت الى زوجها ليختبر هذا بنفسه . فأعلن السيّد دمبروز لمارتينون ، ان سيسيل ، بما هي يتيمة ، فلاأمل له ، إطلاقاً ، بأية ثروة .

إذ لم يصدّق مارتينون هذا الأمر ، أو لئلا يخطّىء نفسه بعد فوات الأوان ، أو لواحد من تلك المعاندات الحمقاء التي هي اعمال عبقريّة ، أجاب أنّ إرثه ، وهو دخل خمسة عشر الف ليرة ، يكفيه . أثر في المصرفي ، هذا اللااهتمام غير المتوقّع . وعده بمركز جابٍ مع تأمين الكفالة اللازمة ، وفي نوّار ١٨٥٠ ، تزوّج مارتينون الآنسة سيسيل . لم تقم حفلة . سافر العروسان في المساء ذاته إلى ايطاليا . في الغد ، زار فريدريك السيّدة دمبروز . بدت له أكثر شحوباً من المعتاد . ناقضته ، بخشونة ، حول موضوعين

أو ثلاثة ، من غير أهمّية . عدا هذا ، فكل الرجال أنانيّون .

مع ذلك ، فهناك بعض المخلصين ، أمثاله .

ـ آه عجباً ، ! مثل الآخرين !

كانت عيناها حمراوين ! إنها تبكي . ثم قالت وهي تحاول الكلام :

ـ اعذرني ! أنا مخطئة ! انها فكرة حزينة انتابتني !

ما فهم شيئاً .

همّ !«إنها أقلّ قوّة ممّا تصوّرت » فكّر في ذاته .

دقت الجرس تريد كأس ماءٍ ، شربت جرعة ، أرجعت الكأس ، وتشكّت من أنّ أحداً لا يخدمها كما يجب . وليسلّيها ، عرض نفسه كخادمها ، مدّعياً أنّ باستطاعته تقديم الصحون ، نفض الغبار ، مناداة الناس ، وعرض ، أخيراً ، أن يكون وصيفها ، أو بالأحرى ، خادماً ملازماً ، بالرغم من انقضاء هذه الدرجة . يريد الوقوف ، وراء سيّارتها ، بقبّعة من ريش الديك .

ـ وكم سأتبعك ، سيراً ، بفخامة ، حاملاً على ذراعي كلباًصغيراً !

ـ أنت مرح ، قالت السيّدة دمبروز .

ـ اليس جنوناً ، تابع ، ان يحمَل كلّ شيء ، محمل الجدّ ! هناك الكثير من المتاعب ولا حاجة لاختلاقها . لا شيء يستأهل الألم . رفعت السيّدة دمبروز حاجبيها ، علامة موافقة مبهمة .

هذا التكافؤ في العواطف دفع فريدريك الى المزيد من الجرأة . بات الآن ، يفيد من تعثراته السابقة ، أكمل :

ـ أجدادنا عاشوا أفضل منّا . لماذا لا نطيع تحريضاً يدفعنا ؟ ليس الحبّ في ذاته ، بعد كلّ شيء ، أمراً بهذه الأهمّية !

ـ لكن ما تقوله منافٍ للأخلاق !

كانت عادت الى أريكتها . جلس على طرفها ، في مقابل قدميها .

ـ لا تظنّي انّني أكذب ! لأنه ، لارضاء النساء يجب التصرّف بلامبالاة مهرّج ، أو باندفاع تراجيدّي ! تسخرن بنا حين نصرّح لهن بحبّنا ، ببساطة ! أرى ، انا ، هذه المبالغات البها تتلاعبن نوعاً من خيانة الحبّ الحقيقيّ . حتى اننا بتنا لا نعرف كيف نبوح بخاصة أمامهنّ . . . من يملكن . . . روحاً عجباً .

نظرت اليه ورموشها نصف مطبقة . خفض صوته ، منحنياً صوب وجهها .

ـ نعم ! أنت تخيفينني ! لربما اسأت اليك ؟ . . . معذرة ! . . . ما كنت أريد قول كلّ ما قلته ! ليس هذا ذنبي ! أنت جميلة جداً !

أغمضت السيّدة دمبروز عينيها ، وفوجىء بنصره السّهل . توقّفت أشجار الحديقة التي كانت ترتعش برخاوة . توشّح السماء غيوم ثابتة بأسراب حمراء ، وحصل ، كما وقف عامّ للأشياء وبغموض ، عادت الى ذهنه مساءات متشابهة وصمت مشابه . أين تمّ ذلك ؟

ركع ، أخذ يدها ، وأقسم لها حبًّا خالداً ، ثم ، وهو ذاهب ، اشارت اليه يعود وهمست له بصوت مخفوض :

- إرجع للعشاء ! سنكون وحيدين !

بدا لفريدريك ، وهو ينزل الدرج ، أنه صار رجلاً آخر ، ان الحرارة المنتشرة للدفيئات الحامية تحيطه ، انه يدخلُ ، نهائياً العالم السامي للزناة النبلاء والمغامرات العاطفية الكبيرة . للثبات في المركز المتقدّم ، يكفي الاحتفاظ بامرأة كهذه . لكونها شرهة ، هي ، أكيداً ، للقدر ، والحركة ، ولكونها ، كذلك ، زوّجت الى رجل قليل الذكاء خدمته بشكل مدهش ، هي تريد كائناً قويّاً تقوده . لا شيء مستحيل الآن ! أحسّ نفسه بقادر على اجتياز مئتي فرسخ على الحصان ، على العمل ليالٍ متتابعة من دون تعب ، طفح قلبه تكبّراً .

على الرصيف ، أمامه ، كان رجل يرتدي سترة قديمة يمشي خافض الرأس ، وبمظهر رزوح ، فاستدار فريدريك ليراه . رفع الآخر وجهه . انه ديلورييه . يتلعثم . قفز فريدريك الى عنقه .

- آه ! يا صديقي المسكين ! ماذا ! هذا انت !

واصطحبه الى بيته وهو يسأله أسئلة كثيرة معاً .

منـدوب لادرو-رولاّن السّـابق روى ، أوّل الأمـر ، الصعوبات التي لقيها . بما انه أخذ يعظ المحافظين بالأخوّة والاشتراكيين باحترام القوانين ، فقد أطلق هؤلاء عليه النار ، وأولئك أتوا بحبل لشنقه . ولقد خلعوه ، بالعنف بعد حزيران . كان اشترك في مؤامرة ، انها مؤامرة السلاح الذي صودر في تروا . اعتقوه لعدم وجود الأدلّة . ثم ارسلته لجنة العمل الى لندن حيث اصطدم بالصفع مع رفاقه وسط مأدبة . وفي العودة الى

باريس . . .

ـ لمَ لم تأتِ إليّ ؟

ـ كنت غائباً باستمرار ! كانت لحاجبك مظاهر غامضة ، ما عرفت ماذا أفكّر ؛ بالاضافة الى انني ما رغبت في الظهور مجدّداً بمظهر الفاشل .

كان طرق أبواب الديمقراطية عارضاً ان يخدمها بقلمه ، بكلمته ، بانطلاقاته ؛ أقفلت في وجهه الأبواب ، يتخلّصون منه . باع ساعته ، مكتبته ، بياضه .

ـ كان الموت جوعاً فوق جسور « بل - إيل » مع سينيكال ، أفضل .

لم يُدهش كثيراً فريدريك الذي كان يسوّي ربطة عنقه ، لهذا الخبر .

ـ آه ، هل نفي هذا السينيكال الطيّب ؟

أجاب ديلورييه وهو يجول بنظره فوق الجدران العالية ، بمظهر حسود :

ـ الجميع ليس لهم حظّك !

ـ أعذرني ، قال فريدريك ، دون ان ينتبه للتلميح ، سأتعشّى في المدينة . ستأكل هنا ، أطلب ما تشاء ! وحتى ، نم في سريري .

اختفت مرارة ديلورييه أمام محبّة بهذا الكمال .

ـ سريرك ؟ لكن . . . أزعجك ؟!

ـ كلّا ، أبداً ! عندي سواه !

ـ آه حسناً جداً ، قال المحامي مبتسماً . أين ستتعشّى ؟
ـ عند السيّدة دمبروز .
ـ هل . . . صدفة . . . أنّ . . . ؟
قال فريدريك :
ـ أنت كثير الفضول ،مبتسماً ابتسامة تؤكّد هذا الاعتقاد .
واذ التفت الى الساعة ، عاد فجلس .
ـ الأمر هكذا ! ويجب ألّا تيأس ، أيها المدافع القديم عن الشعب !
ـ عجباً ! ليختلط بهذا الآخرون !
كان المحامي يكره العمّال لكونه عانى منهم في مقاطعته وهي منطقة فحم حجرّي . كل بئر استخراج كانت انشأت حكومة مؤقّتة تبلغها أوامرها .
ـ مع ذلك ، فسلوكهم كان حسناً في كلّ مكان . في ليون ، في ليل ، في باريس ! لأنهم ، على غرار اصحاب المصانع الذين أرادوا اقصاء المنتوجات غير الوطنيّة ، أراد هؤلاء السّادة ابعدا العمّال الانكليز ، الألمان ، البلجيكيّين ، وأهل « سافوا » ! أمّا بالنسبة إلى ذكائهم ، فإلى أيّ أمر أدّت، في كلّ ثورة الملكية ، رابطتهم الشهيرة ؟ دخلوا ، العام ١٨٣٠ ، في الحرس الوطني ، من دون ان يتميّزوا ، حتى بالحسّ الفطري للسيطرة . ألم يظهر ، مجدّداً ، بُعيد الـ ٤٨ ، الجسم المهني مع اعلامهم الخاصّة بهم ! راجوا يطالبون ، حتى ، بممثّلين عنهم ، لا يتحدّثون إلا لأجلهم ! تماماً كما نوّاب الشمندر ، لا يهتمون إلّا بالشمندر ! ـ

آه ! يكفيني ما عانيت من هؤلاء الشيوعيّين ، صاغرين الواحد بعد الآخر ، أمام مقصلة روبسبيار ، وتحت نعال الأمبراطور ، ومظلّة لويس فيليب ، أوباش دائمو التفاني لمن يرمي في أفواههم خبزاً ! يحتجّون دائماً ضدّ رشوة تالّيران وميرابو ، لكن الموظّف البسيط يبيع الوطن مقابل خمسين سنتيماً ، إذا وعدوه بتعرفة شوط السباق بفرنكات ثلاثة . آه ! يا للخطأ ! كنا استطعنا اشعال أوربا في زواياه الأربع !

أجاب فريدريك :

ـ كانت تنقص الشرارة ! كنتم ، فقط ، بورجوازيّين صغاراً ، والأفضل بينكم مدّعون حمقى ! أما العمّال فبامكانهم التشكّي ، لأنه ، إذا ما استثنيت مليون مكتتب في اللائحة المدنيّة ، وانعمت عليهم بالطريقة الأكثر تملّقاً ، لا تكون عملت لهم إلّا كلاماً ! فالسجلّ يبقى بأيدي ربّ العمل ، والأجير ، (حتى أمام العدالة) يبقى ادنى من سيّده ، لأنهم لا يصدّقونه . أخيراً ، فقد بدت لي الجمهورية هرمة . من يدري ؟ فربما ان التقدّم لا يتحقّق إلا عبر الأرستقراطيّة أو عبر رجل ؟ المبادرة تبدأ ، دوماً ، من أعلى ! والشعب قاصر برغم كل الادّعاءات !

قال ديلورييه :

ـ قد يكون معك حق .

فجمهور المواطنين ، حسب فريدريك ، لا يطمح إلّا للراحة (كان استفاد في فندق دمبروز) ، وكل الحظوظ للمحافظين . مع هذا ، فهذا الحزب ينقصه رجال جدد .

ـ لو تتقدّم ، واثق أنا . . .

لم يُكمل فهم ديلورييه ، مرّر يديه فوق جبينه، ثم فجأة :

ـ ولكن أنت ؟ لا شيء ، يمنعك . لم لا تصير نائباً ؟ ـ على اثر انتخاب ثانٍ ، فقد بقي في منطقة (الأوب) ترشيح شاغر . اذ انتخب مجدّداً السيّد دمبروز للمجلس التشريعي ، فهو ينتمي الى دائرة أخرى . « أتريد أن أهتمّ بالأمر ؟ » كان يعرف الكثير من أصحـاب الحانات ، المعلّمـين ، الأطبّـاء ، كتّـاب المحـامـين والمحامين . « من جهة أخرى ، نجعل القرويّين يصدّقون كل ما نريده ! » .

شعر فريدريك بطموحه يتجدّد .

أضاف ديلورييه :

ـ عليك ان تجد لي وظيفة في باريس .

ـ أوه ! ليس الأمر صعباً بواسطة السيّد دمبروز .

ـ بما اننا تحدّثنا عن الفحم الحجري ، قال المحامي ، ماذا حلّ بشركته الكبرى ؟ انها وظيفة من هذا النوع تلزمني ! ـ وأكون نافعاً لهم ، وأنا أحافظ على استقلاليّتي .

وعد فريدريك باصطحابه الى صاحب المصرف خلال أيّام ثلاثة .

كان شهيّاً عشاؤه مع السيّدة دمبروز ، وجهاً لوجه . تبتسم في مواجهته ، الى الجانب الآخر من الطاولة ، من فوق ازهار في سلّة ، في ضوء مصباح معلّق . ومن النافذة المفتوحة ، كانا يشاهدان النجوم . قليلاً تحدّثا ، يـداخلهما الشـك من

نفسيهما ، واذ يدير الخدم ظهورهم ، يرسلان لبعضهما قبلة بأطراف الشفاه . أخبرها بفكرة ترشّحه . استحسنتها ، متطوّعة بأن تجعل السيّد دمبروز يعمل له .

في المساء ، حضر بعض الأصدقاء ، لتهنئتها وتسليتها ، قد تكون كئيبة لفقدها قريبتها ؟ على كل حال ، فحسناً فعل الزوجان بالسّفر ، في ما بعد يطرأ الأولاد ، والعقبات ! لكنّ إيطاليا ليست كما يُحلم بها . وهما ، ما يزالان في عمر الأوهام ، ثم ان رحلة الزواج تبذّر كلّ شيء ! والأخيران اللذان بقيا كانا السيّد دي غريمونفيل وفريدريك . ما أراد الديبلوماسيّ الذهاب . أخيراً ، نهض في نصف الليل . أشارت السيّدة دمبروز الى فريدريك بالذهاب معه ، وشكرته لتلبيتها هذه ، بضغط على اليد ، أكثر عذوبة من أيّ أمر آخر .

هتفت « المارشالة » فرحاً حين رأته مجدّداً . هي انتظرته من الخامسة . احتجّ بمسعى ضروري لأجل ديلورييه . كان لوجهه مظهر نصر ، هالة ، بهرت به روزانيت .

ـ لربما كان هذا بسبب ثوبك الأسود الذي يناسبك تماماً . لكنني ما وجدتك ، أبداً ، بهذا الجمال ! كم أنت جميل !

أقسمت في ذاتها ، في انطلاقة حنان ، انها لن تستسلم لآخرين مهما حدث ، ولو تناتشها الشقاء !

تلألأت عيناها الجميلتان بشهوة عظيمة ، جعلت فريدريك يجذبها فوق ركبتيه ، وقال في ذاته : « يا لي من وغد » ! متفاخراً بفسقه .

IV

كان السيّد دمبروز ، حين قدم عليه ديلورييه ، يفكّر في احياء مشروعه الكبير في الفحم الحجري . لكنّ هذا الدّمْج للشركات كلّها في واحدة كان عمليّة سيّئة . صار احتجاج ضد الاحتكار ، كما لو أنّ مثل هذه الاستثمارات لا يلزمها رؤوس أموال طائلة !

لكنّ ديلورييه ، الذي كان قرأ ، عمداً ، كتاب غوبيه ومقالات السيّد شابّ في « جورنال دي مين » ، يعرف المسألة تماماً . برهن أنّ قانون ١٨١٠ يحقّق ، لمصلحة صاحب الامتياز حقاً لا يتزعزع . زد على هذا ، أنه في الامكان إعطاء المشروع صبغة ديموقراطية : منع اجتماعات مناجم الفحم الحجري يُعْتَبر تعدّياً حتى على مبدأ الرابطة .

أسرّ إليه السيّد دمبروز بملاحظات لكتابة بحث . ووعده ، بخصوص تعويض أتعابه ، وعوداً لا يوازيها سخاءً سوى غموض حجمها .

عاد ديلورييه إلى فريدريك وعرض عليه نتيجة المداولة . أكثر ، فقد رأى السيّدة دمبروز عند أسفل الدرج وهو عائد .

ـ أهنّئك عليها !

ثم تحدّثا عن الانتخابات . كان ثمة مجال لاختراع شيء ما .

عاد ديلورييه بعد ثلاثة أيّام ومعه ورقة محضّرة للجرائد وهي رسالة يستحسن فيها السيّد دمبروز ترشيح صديقه. يدعمه محافظ ويمتدحه شيوعي ، فيجب أن ينجح . كيف وقّع الرأسمالي على مثل هذا الهذيان ؟ وبدون أي اضطراب منه ، كان المحامي أطلع عليها السيّدة دمبروز ، وإذ وجدتها جيّدة تكفّلت بالباقي .

فاجأت فريدريك هذه الانطلاقة . مع ذلك فقد استحسنها . ثم ، بما أنّ ديلورييه سيفاوض السيّد روك ، فقد أخبره بوضعه تجاه لويز .

- قل لهم ما تشاء ، إن أعمالي مضطربة ، سأهتمّ بترتيبها ، تستطيع الانتظار ، فهي صبيّة !

ذهب ديلورييه ، ورأى فريدريك نفسه كرجل فعّال جداً . إلى هذا ، فهو يشعر بإرواء غليل ، بلذة عميقة . فرحه بامتلاك سيّدة غنيّة لا يلجمه أيّ عائق . فالشعور يتوافق والمحيط . وحياته ، الآن ، فيها حلاوات أينما كان .

وربما أن الحلاوة الأشهى هي تأمّل السيّدة دمبروز ، بين كثيرين ، في صالونها . لياقة حركاتها تجعله يحلم بجلسات أخرى ، في حين تتكلّم بنبرة باردة ، يروح يتذكّر كلمات حب همستها ، كل التقدير لفضيلتها ، يلجمه كساحر يعود إليه . وكان بودّه ، مرات ، أن يهتف : « أفضل منكم أعرفها ! إنها لي ! » .

ما تأخّرت علاقتها في أن تصير شيئاً متفقاً عليه ، مقبولاً . وراحت السيّدة دمبروز ، طوال الشتاء ، تصطحب فريدريك في

كل الأنحاء .

يكاد ، كل مرة ، يصل قبلها . ويراها تدخل ، عارية الذراعين ، المروحة في اليد ، وحبّات اللؤلؤ في شعرها . تقف ، كانت ، على العتبة (يحيطها حاجب الباب كإطار) ، وتكون عندها حركة تردّد بسيطة ، غامزة الجفنين ، لتكتشف هل هو هنا . تأخذه في عربتها ، يجلد المطر كوى النوافذ ، يتحرّك المارّة ، كما الظلال ، في الوحل ، يلاحظان ، كل هذا ، بغموض ، مشدوداً واحدهما إلى الآخر . وبأعذار شتى ، يبقى ساعة طويلة في غرفتها .

استسلمت السيّدة دمبروز ، بعامل الضجر خصوصاً ، لكن هذه التجربة الأخيرة يجب ألا تضيع . تريد ، هي ، حباً كبيراً ، وراحت تغدق عليه الدلال والملاطفات .

أرسلت له زهوراً ، صنعت له كرسيّاً منجّدة ، أعطته علبة سيجار، ظرف أدوات كتابة ، ألف شيء صغير يوميّ الاستعمال لئلا يقوم بعمل ما من دون أن يذكرها . أبهجته هذه الملاطفات أوّلاً ثم بدت له أموراً عاديّة .

كانت تصعد في مركبة خيل ترسلها عند مدخل ممرّ ، تخرج من الطرف الآخر ، ثم ، منسلة على امتداد الجدران ، بوشاح ، على الوجه ، مزدوج ، تصل إلى الشارع حيث فريدريك المنتظر كحارس ، يأخذ بذراعها ، بحيويّة ، ليقودها إلى بيته . يكون خادمه في النزهة ، والحاجب يتسوّق ، ترمي نظرة حواليها ، لا شيء يخشى ! وتصعد نهدة كمنفيّ يرى وطنه من جديد . يجعلهما الحظ جسورين . تتضاعف مواعيدهما . ذات مساء ، حضرت

فجأة بزي حفلة . يمكن أن تكون هذه المفاجآت خطرة . لامها لتهوّرها ، وفوق ذلك لم تعجبه ، فصدارها المفتوح كثيراً ، يكشف عن صدرها الهزيل .

اكتشف ما كان أخفاه : خيبة حواسّه . لكن ذلك لم يمنعه من التظاهر بالأشواق الكبيرة ، إنما ، ليشعر بها ، كان عليه أن يستحضر صورة روزانيت أو السيّدة أرنو .

هذا الضمور العاطفي أطلق لرأسه كامل الحريّة ، وأكثر من أيّ وقت ، راح يحلم بمركز مهمّ في الحياة . بما أن عنده مرقاة كهذه ، على الأقلّ ، فليستفد منها .

ذات صباح ، حوالى منتصف كانون الثاني ، دخل سينيكال غرفته . وعلى دهشته العجبى أجاب أنه سكرتير ديلوربيه . وهو آت إليه برسالة . تتضمّن أخباراً حسنة ، وتلومه ، مع ذلك ، على إهماله . عليه الذهاب إلى هناك .

قال نائب المستقبل انه ، في الغد ، سيكون في الطريق .

لم يعبّر سينيكال عن رأيه في هذا الترشيح . تحدّث عن ذاته وأعمال البلاد .

هي تعجبه ، مهما كانت تدعو للرثاء ، فالمسيرة ، واضحة ، نحو الشيوعية . الادارة سائرة ، من تلقائها ، إليها ، على أساس أن الشؤون التي ترعاها الحكومة تزداد كل يوم . أما بالنسبة للمُلكية ، فدستور سنة ٤٨ ، بالرغم من نقائصه ، لم يكن يصونها . فباسم المصلحة العامة ، كانت الدولة تستطيع أخذ ما يلائمها . أعلن سينيكال أنه مع السلطة ، ولحظ فريدريك ؛ في هذه الأحاديث ،

مبالغة في كلماته التي كان قالها لديلورييه . ندّد الجمهوري حتى بتقصير طبقات العمّال .

ـ ان روبسبيار ،عندما دافع عن حق العدد القليل ، أتى بلويس السّادس عشر أمام الجمعيّة التأسيسيّة الوطنيّة ، وأنقذ الشعب . نهاية الأمور تجعلها مشروعة . والديكتاتوريّة ، أحياناً ، لا غنى عنها . فليحيا الظلم ، إذا كان الظالم يعمل الخير !

استمرت مناقشتها طويلاً جداً ، وإذ قام ليذهب ، باح سينيكال (وكان هذا سبب زيارته) بأن ديلورييه يبدو نافد الصبر لصمت السيّد دمبروز .

لكن السيّد دمبروز مريض . يراه فريدريك كلّ يوم ، فبصفته صديقاً حميماً هو يظلّ قربه .

دهش الرأسمالي كثيراً لنقض الجنرال شانفرنييه . في المساء ذاته ، أصيب بحرارة كبيرة في الصدر مع إحساس بالاختناق فلم يعد يستطيع البقاء في السرير . عَلَقٌ جلب له الراحة السريعة . اختفى السّعال الناشف ، وصار التنفس اهدأ . وبعد ثمانية أيام ، قال وهو يتناول حساءً :

ـ آه ! تحسّنت ! لكنّني خسرت الرحلة الكبرى !

ـ ليس بدوني ! صرخت السيّدة دمبروز ، ملمّحة بهذه الكلمة إلى أنها لا تحتمل العيش من دونه .

بدلاً من أن يجيب ، التفت إليها وإلى عشيقها ببسمة ذات مغزى ، فيها ، في الوقت نفسه ، استسلام ، تساهل ، سخرية ، وحتى نكتة ، مُضمراً يكاد يكون فرِحاً .

أراد فريدريك أن يذهب إلى نوجان ، اعترضت السيّدة دمبروز . وصار يحزم ويفك حقائبه حسب تعاقب المرض .

فجأة ، بصق السيّد دمبروز الدم بغزارة . وإذ استشير « أمراء العلم » ، لم يقولوا جديداً . راح فخذاه ينتفخان ، ويزداد الضعف . أراد ، أكثر من مرة ، رؤية سيسيل التي كانت في الطرف الآخر من فرنسا مع زوجها وقد جُعِل جابياً منذ شهر . أمر ، بحزم ، بإحضارها . كتبت السيّدة دمبروز رسائل ثلاثاً وأظهرتها له .

ما عادت تفارقه لحظة ، باتت لا تنام ، غير متّكلة على الراهبة . صار الرجال الذين يأتون عند الحاجب يستعلمون عنها بإعجاب . وأخذ المارة بالاحترام أمام كمية التبن الكبيرة المنثورة في الشارع تحت النوافذ ، لئلا يصل ضجيج عجلات المركبات إليه .

وفي الخامسة من الثاني عشر من شباط ، بدأ نزف مخيف . أعلن الطبيب الحاضر أن الحالة خطرة . وبسرعة ركضوا عند كاهن .

خلال اعتراف السيد دمبروز ، راحت زوجته تنظر إليه من بعيد، بفضول. بعدذلك وضع الطبيب الشاب دواءً منفّطاًوانتظر.

لم تكن الغرفة مضاءة بالقدر ذاته ، فالأثاث كان يحجب ضوء القناديل . عند أقدام السرير ، فريدريك والسيّدة دمبروز يراقبان المحتضر . الكاهن والطبيب يتحادثان بصوت خفيض . والراهبة تهمهم ، راكعة ، بصلوات .

أخيراً ارتفعت حشرجة . بردت اليدان ، بدأ الوجه

يشحب . يتنفّس ، أحياناً ، نَفَساً عجيباً ، صار التنفّس اندر ، تمتم كلمتين مبهمتين أو ثلاثاً ، زفر نفثة صغيرة في الوقت الذي أغمض عينيه ، ومال رأسه إلى المخدّة .

ظلّوا ، جميعاً ، للحظة ، جامدين .

اقتربت السيّدة دمبروز . وببساطة من يقوم بواجب ، ودون جهد ، أغمضت له جفنيه .

ثم أبعدت يديها حانية قامتها كما في انقباض يأس ، وخرجت من الغرفة ، مستندة إلى الطبيب والراهبة . بعد ربع ساعة ، صعد فريدريك إلى غرفتها .

كنت تشمّ فيها رائحة لا تحدّد ، فوح أشياء لطيفة يملأها . يمتدّ ، وسط السرير ، ثوب أسود ، متبايناً على غطاء السرير الزهري .

كانت السيّدة دمبروز واقفة عند زاوية المدفأة . حسبها حزينة إلى حدّ ما بدون أن يفترض عندها آلاماً كبيرة . وبصوت مكتئب سألها :

- تتألمين ؟

- أنا ؟ لا ، أبداً .

وإذ هي تستدير ، لمحت الثوب ، تفحّصته ، ثم قالت له ألاّ يتضايق .

- دخّن إذا شئت ! أنت عندي !

وبنهدة كبيرة :

- آه ! أيتها العذراء ! يا له من انعتاق !

دُهش فريدريك لهتافها . ردّد مقبّلاً يدها :

ـ مع ذلك فقد كنّا حزّين !

بدا هذا التلميح إلى سهولة مغامراتها وكأنه جرح السيّدة دمبروز .

ـ إيه ! أنت لا تعرف الخدمات التي كنت أقدّمها له ، ولا في أيّ قلق كنت أحيا !

ـ كيف ؟

ـ بالتأكيد ! هل كانت هناك ضمانة في أن تبقى قربك ابنة الزنى تلك ، ابنة أُدخلت إلى البيت خلال خمس سنوات ، وهي ، بدوني ، لكانت وقعت ، طبعاً ، في حماقة ما .

وشرحت أعمالها . كانا تزوّجا بحسب نظام الافتراق . إرثها كان ثلاثمئة ألف فرنك . حسب الاتفاق ، أمّن لها السيد دمبروز في حال بقائها بعد موته، خمسة عشر ألف ليرة دخلاً مع مُلكيّة الفندق . إنما ، بعد وقت قليل ، أوصى لها بكل ثروته . وراحت تقدّرها ، بمقدار ما هو ممكن أن تعرف الآن ، بأكثر من ثلاثة ملايين .

فتح فريدريك عينين كبيرتين .

ـ كان الأمر جديراً بالاهتمام ، أليس كذلك ؟ مع ذلك ، فقد أسهمت في مساعدتها ! عن ثروتي كنت أدافع . كانت سيسيل لتسلبني بغير عدل .

ـ لِمَ لمْ تأتي لرؤ ية والدها ؟ قال فريدريك .

عند هذا السؤ ال ، حملقت فيه السيّدة دمبروز ، ثم ، بنبرة قاسية :

ـ لا أعرف ! هي ، ولا شك ، بلا عاطفة ! أوه ! أعرفها أنا ! لن تحظى مني بفلس !

ـ لم تكن مزعجة ، أقلّه منذ زواجها .

ـ آه ! زواجها ! قالت ، ساخرة .

ولامت نفسها على معاملتها الحسنة لهذه البلهاء ، التي كانت حسودة ، انتهازيّة ، خبيثة . « كل نقائص والدها ! » راحت تذمّه أكثر فأكثر . إنه إنسان عميق الزيف ، لا يطاق ، قاس كحصاة ، « رجل سيء ، رجل سيء ! » .

يقع في أخطاء ، وحتى البسيطة منها . وها السيّدة دمبروز تقع في واحدة منها ، بهذا الفيض من الحقد . فريدريك ، بمواجهتها ، يطرق مصدوماً .

نهضت ، وعلى مهل ، استلقت على ركبتيه .

ـ وحدك طيّب ! وحدك أحبّك !

رقّ قلبها ، وهي تنظر إليه ، وانفعال عصبيّ دفق دموعاً إلى عينيها ، فهمست :

ـ أتتزوّجني ؟

ظن أنه لم يفهمها ، أولاً . أذهله هذا الغنى .

أخيراً ، قال ، وهو يتنهّد :

ـ أوتشكّين ؟

ثم سيطر عليه نوع من الطهر ، وليعوّض على المتوفي ، تقدّم بأن يسهر عليه طوال الليل . وبما أنه يخجل ، كان ، من هذه العاطفة الورعة ، أضاف بنبرة طلقة :

ـ لربما كان هذا أفضل .

ـ نعم ، قالت ، بسبب الخدَم !

كان أُخرج السرير ، كلياً ، خارج المضجع . الراهبة عند أقدامه . وبجانبه يقوم كاهن ، وآخر ، طويل هزيل ، ذو مظهر إسبانيّ ومتعصّب . وعلى خزانة صغيرة تغطّيها فوطة بيضاء ، تشتعل مشاعل ثلاثة .

جلس فريدريك على كرسيّ ، وطفق ينظر إلى الميت .

أصفر وجهه كالتبن . قليل من الريق الدامي يطبع زاويتي شفتيه . كان وشاح يلف رأسه ، سترة صوفية ، وصليب فضي على صدره ، بين ذراعيه المشبوكين .

كان انتهى هذا الكائن المليء حركة ! كم عمل في المكاتب ، صفّ أرقاماً ، سَمْسَر بأعمال ، سمع تقارير ! كم من كلام معسول ، ابتسامات ، انحناءات تبجيل ! لأنه كان هلّل لنابوليون ، للقوزاقيّين ، للويس الثامن عشر ، للعام ١٨٣٠ ، للعمّال ، لكل الأنظمة ، متعلّقاً بالسلطة بحبّ كبير إلى حد أنه كان مستعداً ، لكي يبيع نفسه ، أن يدفع .

لكنه ترك أملاك فورتيل ، ثلاثة مصانع في بيكاردي ، غابة كرانسيه في منطقة اليونّ ، مزرعة قرب أورليان ، ثروات مالية محترمة .

هكذا ، راجع فريدريك ثروته ، وهي ستؤول إليه ! فكّر ، أوّل الأمر ، في ما « سوف يقولون » ، في هديّة لأمّه ، في مرابطه المستقبلية ، في حوذي عائلته الهرم الذي كان يريد أن يكون

حاجباً . . . فالخلعة لن تبقى ذاتها ، وهذا أمر طبيعيّ . سيجعل من الصالون الكبير غرفة العمل . ولا شيء يؤخره في أن يجعل ، في الطابق الثاني ، قاعة عرض للوحات ، بعد هدم ثلاثة جدران . ولربما هناك إمكان ، في الأسفل ، لتنظيم قاعة حمّامات تركيّة . أما بالنسبة إلى مكتبي السيّد دمبروز ، وهو غرفة لا تعجبه ، فما يمكنه أن يجعل منها ؟

لم يكن يقطع تصوّراته سوى الكاهن الذي يمخط ، أو الراهبة التي تهتمّ بالنار . لكن الحقيقة تؤكّدها ، فالجثة قائمة ، دائماً ، هنا . جفونها كانت تفتّحت من جديد ، وللبؤبؤين الغارقين في الظلمات اللزجة تعبير غامض ، لا يطاق . ظنّ فريدريك أنه يرى فيهما كحجة ضدّه ، وشعر بتوبيخ ضمير ، لأنه لم يكن له ما يشكوه ضد هذا الرجل ، الذي كان ، على العكس . . . « هيّا بنا ! عجوز مسكين ! » وراح يراقبه من مكان أكثر قرباً ، ليتأكّد مجدّداً ، هاتفاً له بباطنه :

« وماذا بعد ؟ هل قتلتك ؟ »

في هذه الأثناء ، كان الكاهن يصلّي شحيمته ، والراهبة ، تسهر ، جامدة ، وفتيلة المشاعل الثلاثة تمتدّ .

خلال ساعتين ، كنت تسمع دوران مركبات سائرة نحو السوق « الهال » . ابيضّ زجاج النوافذ ، مرت عربة ، ثم جماعة دوابّ تكردح على البلاط ، وضربات قدّوم ، صراخ باعة جوّالين ، صيحات بوق . كل شيء غدا يختلط بضجيج باريس الكبير وهي تستيقظ .

راح فريدريك لينظّم الأمور . حمل نفسه ، أوّلاً ، إلى دار المختاريّة ليصرّح بالوفاة . ثم ، عندما أعطى طبيب الموتى شهادة وفاة ، عاد الى المختاريّة يصرح أية مقبرة تريد العائلة ، وليتفق مع مكتب مواكب الدفن .

عرض الموظف رسماً وبرنامجاً ، يشير الأول إلى أنواع الدفن المختلفة ، والثاني إلى تفصيل الديكور الكامل . أيريدون مركبة بمقصورة أم مركبة مزيّنة ، جياداً كثيرة ، عفرة خوذ للخدم ، حروفاً أولى أم شعار النسب ، مصابيح جنائزية ، رجلاً لحمل شعائر الشرف ، وكم من السيّارات ؟ تبسط فريدريك ، أصرّت السيّدة دمبروز على أن لا تهتمّ بأمر .

بعدها ، عاد إلى الكنيسة .

راح كاهن موكب الجنازات يستنكر استغلال مواكب الدفن ، من هنا فالرجل الذي يحمل شعائر الشرف لا لزوم له ، الكثير من الشموع العسلية أفضل ! وتم الاتفاق على قداس غير صارخ ترتفع فيه الموسيقى . وقّع فريدريك ما تمّ الاتفاق عليه ، مع إلزام بدفع كل المصاريف .

اتجه ، من ثم ، إلى دار البلدية لشراء الأرض . تكلّف حكرة الأرض ، التي من مترين طولاً وبعرض متر ، خمسمئة فرنك . أتكون حفرة متبدّلة أم دائمة ؟

- أوه ! دائمة ! قال فريدريك .

بجديّة كان يهتمّ ، يُتعب نفسه . ينتظره رخّام في ساحة الفندق ليعرض عليه مقاييس وتصاميم قبور يونانيّة ، مصريّة ،

عربية . لكن مهندس البيت كان تفاوض مع السيّدة وفي الدهليز ، على الطاولة ، كل أنواع الاعلانات المتعلّقة بتنظيف الفُرش ، بتطهير الغرف ، بمختلف أساليب التحنيط .

عاد ، بعد الغداء ، عند الخياط لأجل ثياب حداد الخدم . وكان عليه بعد ، أن يقوم بآخر مشترياته ، فقد أوصى على قفّازات من فرو القُندُس ، وكان يناسب قفازات من خيط مشاقة الحرير .

في العاشرة من اليوم التالي ، حين وصل ، وُجد الصالون مليئاً بالناس ، وكلّهم ، تقريباً ، يقولون بمظهر كئيب مقتربين من بعضهم بعضاً :

ـ أنا الذي رآه من شهر ! يا إلهي ! هذا قدرنا جميعاً .

ـ نعم ، ولكن فلنحاول أن يكون أبعد ما يمكن !

حينها ، أطلقوا ضحكة رضى صغيرة وانخرطوا في أحاديث لا علاقة لها بالمناسبة .

أخيراً ، قال رئيس التشريفات (ويرتدي ثوباً أسود على الطريقة الفرنسيّة وسروالاً قصيراً ، شيش إلى خصره وتحت إبطه قبّعة مثلّثة الزوايا) ، محيّياً ، الكلمات المعتادة : « أيها السادة ، حين ترون الأمر مناسباً » . فذهبوا .

كان يوم سوق الأزهار في ساحة « المادلين » . الطقس صاف وجميل ـ والنسيم الذي كان يهزّ البيوت القماشيّة ، راح ينفخ ، من الطرفين ، القماشة السوداء الهائلة المعلّقة على الباب . يتكرّر شعار السيّد دمبروز ، وهو على قماشة مخمليّة مربّعة ، ثلاث مرات . وهو يقول : « عبر كل طريق » .

اصعد الحمّالون التابوت إلى قمة الدرج ، ودخلوا .

مفروشة بالأسود المصليات الست والدائرة النصفية والكراسي . عند أسفل الخورس تؤلّف منصّة النعش وشموعها العسليّة ، بؤرة أنوار صفراء . وفي الزاويتين شماعدين تشتعل عليها نيران .

جلست الشخصيات الأبرز في الحرم ، الأخرى في جناح الكنيسة ؛ وابتدأت الرتبة .

كان الجهل بالأمور الدينيّة عميقاً ، إلا عند القلّة ، حتى أن رئيس الاحتفال اضطر ، بين وقت وآخر ، لأن يشير إليهم بالوقوف ، بالركوع أو بالجلوس . يتناوب مع الأصوات ارغن وكونترو باسان. وفي لحظات السكون ، كنت تسمع دندنة الكاهن على المذبح . ثم تعود الموسيقى والتراتيل .

ينزل نور كامد من القبب الثلاث ، لكن الباب المفتوح يرسل ، أفقياً ، نوراً كنهر صفاء أبيض يلامس كلّ الرؤوس العارية ، ويحوّم ظلّ ، وسط فضاء قلب الكنيسة ، آتٍ عبر انعكاس الذهب المزركش تعاريق مثلّث القبّة وورقية تيجان الأعمدة .

راح فريدريك ، ليتسلّى ، يستمع إلى الصلاة . يتأمّل الحضور ، يهتمّ برؤية الرسوم المرتفعة جداً والتي تمثّل حياة « المادلين » . ولحسن الحظّ جاء بيلّران يجلس قربه ، وبدأ ، للحال ، تحليلاً طويلاً للجدرانيّات . قرع الجرس . خرجوا من الكنيسة .

توجّهت عربة الموتى ، المزيّنة بأعلام متدلّية وبقنزعات عالية ، نحو مقبرة « بير - لاشيز » ، تجرها أربعة جياد سود بجدائل في الأعراض ، وقنزعات على الرأس ، يغطيها ، حتى الحوافر ، جُلّ مزركش عريض مطرّز بالفضة . يحمل الحوذيّ ، وهو بجزمة فروسيّة ، علماً بثلاثة قرون بعرف طويل متدلّ . يمسك الحبال أربعة أشخاص : مراقب مالي في مجلس النواب ، عضو في مجلس منطقة « الأوب » ، مندوب عن شركات الفحم الحجري ، - وفوميشون كصديق . بعد هذا تأتي عربة الفقيد واثنتا عشرة سيارة حداد . إلى الخلف ، يملأ المدعوون وسط البولفار .

توقف المارّة ليروا كل هذا ، صدى نساء ، وطفلهن بين أذرعهن ، على كراسي ، وبدأ محتسو البيرة في المقاهي يظهرون في النوافذ ، وبأيديهم عصي البليار .

كانت الطريق طويلة ، وكما في المآدب الرسميّة ، ترى التحفّظ أولاً ، ثم انفتاح القلب ، أهمل الوضع العام . لم يكن لأحد حديث إلا عن رفض تخصيص الرئيس ، وقد أقرّه المجلس . كان السيّد بيسكاتوري قد ظهر فظاً للغاية ، ومونتالمبير « رائع كما هي العادة » ، وفي الأخير فان السادة شامبول ، بيدو ، كريتون ، وكل المجلس ، تبعوا رأي السيّدين كوانتام ، بوشار وديفور .

تتابعت هذه الأحاديث في شارع روكيت ، المطرّز بالمحلات ، حيث لا نرى سوى سلاسل زجاج ملوّن ، وحلقات سوداء صغيرة عليها رسوم وأحرف ذهبيّة ، - مما يجعلها تشبه مغاور ملأى بالرواسب الكلسيّة ، ومحلّات خزف مزخرف . إنما صمت

الجميع ، تلقائياً ، أمام سور المقبرة .

تنتصب القبور وسط أشجار ، أعمدة مكسّرة ، أهراماً ، هياكل ، دُلْمَن ، مسلاّت ، سراديب بأبواب برونزية . كنت تلاحظ ، في بعضها ، ما يشبه الصالونات الصغيرة المعتّمة ، وفيها كراس مريحة بسيطة وكراس أخرى تُطْوى . تتدلّى خيوط عنكبوت كخرق في سلاسل المرامد ، ويغطّي الغبار باقات بشرائط ساتانيّة ، وصلباناً . وأينما كان : بين أعمدة الدربزين ، على القبور ، تيجان متبقّية ، وشماعدين ، آنية ، أزهار ، أطباق سوداء تعلوها أحرف ذهبيّة ، شخوص جصّ : صبيان صغار وبنات صغيرات ، أو ملائكة صغار يمسكها في الفضاء سلك : والكثير له سقف توتياء . تنزل من أعلى المسلاّت حتى أقدام البلاط ، حبال من زجاج مفتول ، أسود ، أبيض وأزرق ، بثنيات طويلة كأنها أفاع . والشمس عليها ، تجعلها تتلألأ بين صلبان من خشب أسودَ ، وتتقدّم عربة الموتى في الدروب الكبيرة . المبلّطة كشوارع مدينة . بين وقت وآخر ، يصفق جازع . وهناك نساء جاثيات يتحدّثن بهدوء إلى الأموات ، وأثوابهن إنها تقدمات على العشب . يخرج من خضرة الطقسوس * .

متروكة ، بقايا يحرقونها .

كانت حفرة السيّد دمبروز في جوار مانويل وبنجمان كونستان . تنحدر الأرض ، في هذا المكان ، بمنحدر وعر . فتحت

---

* شجر للزينة .

الأقدام رؤوس أشجار خضراء ، أبعد ، مدافىء بمطافىء ، ثم تمتدّ المدينة كلها .

استطاع فريدريك تأمل المنظر وقت إلقاء الخطب .

الخطاب الأول كان باسم مجلس النوّاب ، الثاني باسم مجلس منطقة الأوب العام ، الثالث باسم شركة الفحم الحجري في ساون ـ اي ـ لوار ، الرابع باسم الشركة الزراعية في يونّ ، وهناك آخر باسم جمعيّة خيريّة . أخيراً ، ها هم يعودون ، حين بدأ رجل مجهول يقرأ خطاباً سادساً باسم جمعيّة تجار عاديات أميانس .

وكلهم استغلّوا المناسبة للتشنيع بالاشتراكية التي مات السيّد دمبروز ضحيّتها . ان ما قصر في عمره هو منظر الفوضى وتفانيه هو في سبيل النظام ، امتدحوا مزاياه ، استقامته ، كرمه وحتى صمته كممثّل للشعب ، لأنه ، وإن لم يكن خطيباً ، فهو يمتلك ، في المقابل ، صفاته الصلبة ، وهي ألف مرة أفضل ، الخ ، مع كل الكلمات الواجب قولها . « نهاية قبل أوانها ، حزن أبديّ ، الوطن الآخر ، وداعاً ، بالأحرى لا ، إلى اللقاء ! » .

أهيل التراب الممزوج حصى ، وما عاد ليكون موضوع حديث بين الناس .

فقط تحدّثوا عنه وهم يعودون . وما تأخّروا في تقديره . هيسّونّيه ، الذي كان عليه أن ينقل وقائع الدفن إلى الصحف ، استعاد الخطب بشكل ساخر ، لأن السيّد دمبروز كان واحداً من أبرز دافعي « البرطيل » في العهد الماضي ثم عادت سيّارات الحداد بالبورجوازيين إلى أعمالهم ، لم يدم الاحتفال طويلاً ، فراحوا

يهنئون أنفسهم بذلك .

ومتعباً ، فريدريك ، دخل منزله .

حين عاد ، في الغد ، إلى فندق دمبروز ، أخبروه أن السيّدة تعمل في المكتب ، تحت . كانت الملفّات والأدراج مفتوحة بشكل فوضوي ، دفاتر الحسابات مرميّة يميناً وشمالاً ، وهناك ملفّ من ورق قديم عنوانه : « تغطيات ميثوس منها » كان مرمياً أرضاً ، فاته أن ينتبه إليه ويلمّه . كانت السيدة دمبروز مختفية ، مدفونة في الكرسي الكبير .

ـ وبعد ؟ أين أنتِ ؟ ماذا هناك ؟

قامت بقفزة واحدة .

ـ ماذا هناك ؟ لقد انهرت ، انهرت ! أتسمع ؟

استدعاها الكاتب العدل ، السيّد أدولف لانغلوا ، إلى مكتبه ، وأعطاها وصيّة كتبها زوجها قبل زواجهما . بها يوصي بكل شيء لسيسيل ، ولقد ضاعت الوصية الأخرى . شحب فريدريك . لا شك أنك لم تعرفي كيف تفتّشين ؟

ـ ولكن انظر ! قالت السيّدة دمبروز ، مظهرة له المكان .

الخزنتان مفتوحتان ، محطمتان بضربات بلطة ، وكانت قلبت المكتب ، نقّبت خزانات الحائط ، هزّت مماسح الأرجل ، حين ، فجأة ، أسرعت ، صارخة صرخة حادة ، إلى زاوية لمحت فيها علبة صغيرة لها قفل نحاسي . فتحتها فإذا فيها الفراغ !

ـ آه الشقي ! أنا مَن اعتنت به بكل تفانٍ !

ثم انفجرت شهقات .

ـ لربما في مكان آخر ؟ قال فريدريك .

ـ إيه كلا ! كانت هنا ! في هذه الخزنة . رأيتها حديثاً . لقد احترقت ! متأكدة أنا !

ذات يوم ، في بداية مرضه ، نزل السيّد دمبروز ليوقّع بعض معاملات .

ـ لا شك أنه فعل ذلك حينها !

ووقعت ، خائرة ، على كرسيّ . لا تكون أمّ في ثياب الحداد أمام مهد فارغ بهذه الحالة التي كانت فيها السيّدة دمبروز أمام الخزنتين المشرّعتين . ثم بدأ ألمها ـ برغم دناءة السبب ـ عميقاً جداً لدرجة أنه راح يحاول تعزيتها على أساس أنها ، بعد كل شيء ، ما آلت إلى الفقر .

ـ هذا هو الفقر لأنني لا أستطيع أن أهبك ثروة كبيرة !

لم يكن بقي لها سوى ثلاثين ألف ليرة كدخل ، من دون الفندق الذي يساوي ، ربما ، بين ثمانية عشر إلى عشرين ألفاً .

بالرغم من أنها كادت تكون ثروة لفريدريك ، فهو لم يشعر بأية خيبة . وداعاً لأحلامه وللحياة الحلوة التي كان سيحياها ! فالنبل يدفعه للزواج من السيّدة دمبروز . فكّر لحظة ، ثم قال بصوت حنون :

ـ لكنني سأحصل عليك !

ارتمت بين ذراعيه ، فضمّها إلى صدره بحنوّ فيه إعجاب بذاته . رفعت وجهها ، وكانت كفّت عن البكاء ، مشرقة سعادة ، وآخذة يده ، همست :

ـ آه ! ما شككت بك أبداً ! حسبت هذا !

لم يعجبه هذا التأكيد المسبق .

ثم اصطحبته إلى غرفتها ، وراحا يرسمان مشاريع . فعلى فريدريك أن يُقدم ، فيحسّن وضعه . وقدّمت له ، بخصوص ترشيحه ، نصائح مذهلة .

كانت النقطة الأولى أن يعرف جملتين أو ثلاثاً في الاقتصاد السياسيّ . عليه التخصّص بأمر ما ، كمرابط الخيل مثلاً ، كتابة رسائل عدة حول مسألة ذات منفعة محلية ، أن يكون بتصرفه ، دائماً ، مكاتب بريد أو تبغ ، تقديم الكثير من الخدمات البسيطة . والسيّد دمبروز ، بهذا الخصوص ، مثال جيّد . فهو ، مرة ، أوقف في الريف مركبته ، الملأى بالأصدقاء ، أمام حانوت إسكافيّ واشترى لضيوفه اثنتي عشر زوج حذاء ، وله حذاء فظيع القبح ـ وكانت له الجرأة على انتعاله خلال خمسة عشر يوماً . جعلتهما هذه النكتة فرحَين . روت له سواها بدفق رضى ، وشباب ، وظرف .

شجّعت فكرته على رحلة سريعة إلى نوجان . وداعهما كان حنوناً ، ثم ، مرة بعد ، على العتبة ، همست :

ـ تحبّني ، أليس كذلك ؟

أجاب فريدريك :

ـ إلى الأبد !

كان ينتظره في بيته رسول معه رسالة تعلمه أن روزانيت ستنجب . انشغل كثيراً ، في الأيام الأخيرة ، فما عاد فكّر بها . هي ، الآن ، في مؤسّسة خاصة في شايّو .

أخذ فريدريك عربة خيل وانطلق .

قرأ ، في زاوية من شارع ماربوف ، على لوحة وبأحرف عريضة : « دار صحة وتوليد بإدارة السيّدة أليسّندري ، قابلة قانونيّة من الدرجة الأولى ، خرّيجة دار التوليد ، مؤلّفة كتب مختلفة ، الخ » . ثم ، وسط الشارع ، على باب مستدير ، يكرّر الاعلان (بدون كلمة توليد) : « دار السيّدة أليسّندري للصحة » مع كل ألقابها .

طرق فريدريك الباب .

أدخلته وصيفة ، بمظهر جارية ، إلى صالون فيه طاولة أكاجو ، وكراسٍ مخملية ذات لون أحمر رمّاني ، وساعة جدار تحت زجاج .

بعد لحظات ، ظهرت السيّدة أربعينيّة سمراء ، نحيلة القامة ، ذات عينين جميلتين ، وتبدو عليها خبرة التقاليد . أخبرت فريدريك بخلاص الأم في سلام ، وأصعدته إلى غرفتها .

راحت روزانيت تضحك بما يفوق الوصف . وقالت بصوت خفيض ، كمغمورة بدفقات الحب الذي يكاد يخنقها :

ـ على رسلك ، إنه صبي ! مشيرة إلى طفل قرب سريرها .

أزاح الستائر ، ورأى ، وسط الثياب ، شيئاً أحمر على أصفر ، كثير التجاعيد ، كريه الرائحة وهو يصرخ .

ـ قبّله !

أجاب ليخفي اشمئزازه :

لكني أخاف أن أؤذيه !

- لا ! لا !

فقبّل ولده بطرف شفتيه .

- كم يشبهك !

وتعلّقت في عنقه ، بذراعيها الضعيفتين ، بفيض عاطفة لم تعرفها من قبل .

عاودته ذكرى السيّدة دمبروز . رأى من الفظاعة خيانة هذا الكائن المسكين ، الذي يحبّ ويتألّم بكل عفويّة طبيعته . بقي قربها ، أياماً عديدة ، حتى المساء .

سعيدة ، كانت ، في هذه الدار النائية . دُرَف الواجهة تبقى مقفلة باستمرار . تطلّ غرفتها ، المفروشة بالفارسيّ * ، على حديقة كبيرة . تحيطها ، بكثير عناية ، السيّدة أليسّندري التي خطأها الوحيد هو استشهادها بمشاهير الأطباء على أنهم أصدقاؤ ها الحميمون . تضجر كثيراً هي ورفيقاتها اللواتي هنّ في الغالب من الريف ، فلا أحد يأتي لزيارتهن . لحظت روزانيت أنهن يحسدنها ، وأخبرت فريدريك بذلك ، متفاخرة . لذلك لزم التحدث بصوت خفيض . الفواصل رقيقة ، والجميع يسترقون السمع ، بالرغم من ضجيج البيانو الدائم .

كان ، أخيراً ، يستعدّ للذهاب إلى نوجان ، حين تسلّم رسالة من ديلورييه .

يخبره بأن مرشحين جديدين برزا . أحدهما محافظ ، والآخر

* نوع من القماش المدهون مصدره فارس .

شيوعي . فمهما يكن الثالث ، لن يكون له الحظ . ذلك خطأ فريدريك . لم يستفد من الوقت الملائم ، كان عليه أن يجيء من قبل للتحرّك . « لم يروك ، حتى ، في جمعيّات المزارعين ! » ويلومه المحامي لكونه لا علاقة له ، أبداً ، بالجرائد ، « آه ! لو عملت ، قديماً ، بنصائحي ! لو كان لنا جريدة رائجة ! » وكان يلحّ على هذا . بالاضافة إلى هذا ، فكثير من الأشخاص الذين كانوا سيصوّتون إلى جانبه ، كرمى للسيّد دمبروز ، سيتخلّون عنه ، الآن . ديلورييه منهم . إذ بات لا ينتظر شيئاً من الرأسمالي .

حمل فريدريك رسالته إلى السيّدة دمبروز .

قالت : ألم تذهب ، إذن ، إلى نوجان ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنني ، من ثلاثة أيام ، رأيت ديلورييه .

فهو ، إذ عرف بموت زوجها ، جاء يقدم لها ملاحظات عن الفحم الحجري ، ويعرض عليها خدماته كرجل أعمال . بدا هذا غريباً على فريدريك . وما كان يعمل صديقه هناك ؟

رغبت السيدة دمبروز بمعرفة كيف أمضى وقته منذ افتراقهما .

أجاب :

ـ كنت مريضاً .

ـ كان عليك ، على الأقل ، أن تعلمني .

ـ أوه ! لا ضرورة لذلك . وعلى أية حال كان هناك الكثير من المتاعب ، والمواعيد ، والزيارات .

من حينها ، راح يمضي حياة مزدوجة ، ينام ، بورع ، عند

« المارشالة » ويمضي بعد ظهره عند السيّدة دمبروز ، فلم يكن له ، هكذا ، سوى ساعة حرة وسط النهار .

وضعا الطفل في الريف ، في أنديلّي . يذهبان لرؤيته كل أسبوع .

كان بيت المرضعة في أعلى القرية ، في عمق ساحة صغيرة معتّمة كبئر ، أرضها يعلوها التبن ، دجاج هنا وهناك ، عجلة خضار تحت السقيفة . تبتدىء روزانيت تقبّل ابنها بجنون ، تروح وتجيء ، تحاول حلب العنزة ، تأكل رغيفاً ضخماً ، تتنشق رائحة الزبل ، تريد أن تضع شيئاً منه في محرمتها .

ثم يروحان في نزهات طويلة . تدخل عند أصحاب المشاتل ، تنزع أغصان الليلك المتدلّية خارج الجدران ، تصرخ بالحمير التي تجر عربة : « حا ! دي ! » ، تقف تتأمّل ، عبر السياج ، داخل الحدائق الجميلة ، أو تأخذ المرضعة الولد ، يضعونه في ظل جوزة ، وتروح المرأتان ، في سذاجات مضجرة ، خلال ساعات .

قربهما فريدريك ، يتأمّل مربّعات الكروم في منحدرات الحقل ، مع أوراق شجرة من مكان لآخر ، الدروب الترابيّة الشبيهة بشرائط مزرّقة ، البيوت المنتشرة في اخضرار بقع بيضاء وحمراء . ويمتد ، أحياناً ، أفقياً ، دخان قاطرة ، عند أقدام التلال المغطاة بالأوراق ، كأنه ريشة نعامة كبيرة ، يطير طرفها الخفيف .

ومن بعد ، تقع عيناه ، مجدّداً ، على ابنه . يتصوّره شاباً ، سيجعله رفيقه ، لكن لربما كان غبيّاً ، سيكون شقياً بالتأكيد .

لا شرعية ميلاده تطغى عليه دائماً . سيكون أفضل له لو لم يولد ، ويهمس فريدريك : « يا للولد المسكين ! » وقلبه منتفخ بكآبة لا تفسير لها .

غالباً ما يتأخران عن الانطلاق الأخير . فتوبّخه السيّدة دمبروز لعدم دقته في مواعيده . يخترع لها قصّة . .

عليه ، بالمقابل ، اختراع أخرى لروزانيت . لم تكن تفهم بما يقضي سهراته ، وحين ترسل بطلبه لا تجده إطلاقاً ! يوماً ، وهو في بيته ، ظهرتا ، تقريباً ، معاً . أخرج « المارشالة » وخبّأ السيّدة دمبروز متذرعاً بأن أمّه ستصل .

وسريعاً ما سلّته كذباته . يردّد على الواحدة الوعد الذي يكون ، من لحظات ، قطعه للأخرى ، يرسل إليهما باقات زهر متشابهة ، كاتبا إليهما في الوقت نفسه ، ثم يقيم بينهما مقارنات : وهنالك ثالثة موجودة ، باستمرار ، في باله . استحالة حصوله عليها ، تبرّر خياناته التي كانت تلهب شهوته بشكل متتالٍ ، وبقدر ما يخون الواحدة منهما يزداد حبّها له ، كما لو أن حبهما له يتأجج بالتساوي ، وكأن الواحدة منهما ، بنوع من المزاحمة ، تريد أن تنسيه الأخرى .

يوماً ، قالت له السيّدة دمبروز : أعجب بثقتي ! وهي تفضّ رسالة يعلمونها بها أن السيّد مورو يعيش حياة زوجيّة مع واحدة اسمها روز برون .

ـ أهي فتاة سباق الخيل ؟

وأضاف :

- يا للهذيان ! دعيني أرى .

لم تكن الرسالة موقّعة ، وهي بحروف رومانية كبيرة . في البدء تساهلت السيّدة دمبروز مع هذه العشيقة التي كانت تغطّي زناهما . ولكن ، إذ صار حبها أقوى ، طلبت إليه قطيعة نهائية ، وهذا أمر ، حسب فريدريك ، منتهٍ من زمان . وإذ أنهى احتجاجاته ، قالت غامزة بجفنيها حيث تشرق نظرة شبيهة برأس خنجر تحت الموسّلين :

- وبعد ، والأخرى ؟

- أيّة أخرى ؟

- زوجة تاجر الخزفيّات !

رفع كتفيه باستخفاف . لم تصرّ .

وإذ هما يتحدّثات ، بعد شهر ، عن الشرف والاستقامة ، وفريدريك يمتدح أمانته (بطريقة عرضيّة ، احتياطاً) ، قالت له :

- صحيح ، شريف أنت ، إنك لا تعود إلى هناك .

تمتم فريدريك مفكّراً في المارشالة :

- إلى أين ؟

- عند السيّدة أرنو .

توسّل إليها أن تبوح له من أين هذا الاستعلام . كان عن طريق خيّاطتها ، في الطابق الثاني ، السيّدة ريجمبار .

هكذا ، تعرف هي حياته ، وهو لا يعرف شيئاً عنها .

في هذه الأثناء ، كان وجد ، في غرفة زينتها ، رسماً مصغراً لسيّد بشاربين طويلين : أهو نفسه ، مَن عنه أخبروه ، من

زمان ، قصة انتحار غامضة ، إنما ، ولا وسيلة ممكنة ليعرف عنها أكثر ! وماذا يفيده ؟ فقلوب النساء كما هذا الأثاث ، ملأى بالأدراج ، الواحد في قلب الآخر. نتعذّب ، نكسر أظافرنا ، فلا نجد فيها سوى زهرة يابسة ، نُتَف غبار ، أو الفراغ ! ثم ، لربما هو يخشى أن يعرف عنها الكثير .

كانت تجعله يرفض الدعوات التي لا تستطيع تلبيتها معه ، تحتفظ به إلى جانبها ، تخاف أن تفتقده . وبالرغم من هذا الاتحاد ، وهو كل يوم يتزايد ، انكشفت بينهما ، فجأة ، هاويات بخصوص أشياء لا أهمية لها : رأي بشخص ، بعمل فنّي .

تلعب البيانو ، كانت ، بطريقة صحيحة وقاسية . وما تمنعها روحانيّتها (هي تعتقد بارتحال الأرواح إلى النجوم) ، من الامساك ، جيّداً ، بصندوقها . متعالية ، هي ، مع هؤلاء الأشخاص ، تبقى عيناها قاسيتين أمام أسمال الفقراء . تنفجر أنانيّة ساذجة في عباراتها العادية : « ماذا يضيرني ؟ سأكون حسنة جداً ! هل أنا بحاجة ! » وألف عمل صغير غير قابل للتحليل ، كريه . كان عليها التنصّت خلف الأبواب ، والكذب على معرّفها . وأرادت من فريدريك ، حباً منها للسيطرة ، أن يرافقها الأحد إلى الكنيسة . أطاع ، وحمل الكتاب .

خسارة ميراثها غيرتها بطريقة ملحوظة . وعلامات الحزن ينسبونها الى موت السيد دمبروز جعلتها أكثر جاذبية .

وكما من زمان ، راحت تستقبل كثيرا من الناس . ومنذ سقوط فريدريك في الانتخابات ؛ صارت تطمح لهما بقصادة في ألمانيا .

وأوّل شيء يجب عمله هو الخضوع للأفكار السّائدة .

بعضهم يفضل الامبراطورية ، آخرون الاورليانيين ، آخرون الكونت دوشامبور . لكنهم ، جميعاً ، متفقون على ضرورة اللامركزية ، وعُرضت ، في هذا السبيل ، طرق كثيرة منها هذه : تقسيم باريس شوارع كثيرة قصد تأسيس قرى فيها ، نقل مقرّ الحكومة إلى فرساي ، جعل المدارس في بورج ، إلغاء المكتبات ، تسليم كل شيء إلى جنرالات الأقسام ، وكانوا يمتدحون الريف ، فالرجل الأمّي أكثر حسّاً من الآخرين ! كثر الحقد : ضد المعلّمين الابتدائيين وضد تجّار الخمر ، ضد صفوف الفلسفة ، ضد دروس التاريخ ، ضد الروايات ، السترات الحمراء ، اللحى الطويلة ؛ ضد كل استقلالية ، كل مبادرة فرديّة ، لأنه يجب « إعلاء مبدأ السلطة » ، لتكن باسم مَن تكون ، فلتأتِ من حيثما تريد ، المهم أن تكون القوّة ، السّلطة ! يتكلّم المحافظون ، الآن ، كما سينيكال . ما عاد فريدريك يفهم شيئاً ، ويجد ، من جديد ، عند عشيقته القديمة ، الأحاديث نفسها ، يتحدّث فيها الأشخاص أنفسهم !

عقيمة ، صالونات الفتيات (إنها من هذه الفترة أخذت أهميتها) ، حيث يلتقي المصلحون من شتى الاتجاهات . ولقد أوحى هيسّونِّيه ، الذي كان نذر نفسه لذمّ الأمجاد المعاصرة (أمر مهم لبعث النظام) ، إلى روزانيت رغبة أن يكون لها كما لغيرها ، سهراتها . قدّم فيها تقارير ، وجلب ، أوّل الأمر ، رجلاً رصيناً ، فوميشون ، ثم ظهر نونانكور ، السيّد دوغريمونفيل ، السيّد

دو لارسيلّوا ، مدير سابق ، وسيزي ، الذي كان ، الآن ، رجل زراعة ومسيحياً أكثر من أيّ وقت .

سوى هؤلاء ، يأتي ، كان ، عشاق قدماء للمارشالة ، مثال البارون دو كومينغ ، الكونت دو جوميّاك وآخرون . صراحة مظهرهم جرحت فريدريك .

وبغاية أن يثبت وجوده ، زاد خدم البيت . فاتخذ وصيفاً ، غيّر المسكن ، وجدّد الأثاث . كانت هذه المصاريف ضرورية لإظهار زواجه أقل تفاوتاً عن ثروته ، وهي تنقص بشكل مخيف ، وما فهمت روزانيت من كل هذا شيئاً !

هي تعبد ، كبورجوازيّة مُسْقطة ، حياة المنزل ، منزل صغير هادىء . مع ذلك ، فقد كانت سعيدة بأن يكون لها « وجود » . تقول : « هؤلاء النساء ! » متحدّثة عن شبيهاتها . تريد أن تكون « سيّدة مجتمع » ، تظن نفسها واحدة منهنّ . توسّلت إليه لا يدخّن ، بعد ، في الصالون ، حاولت أن تجعله ينحف ، ليكون من الطراز الحسن .

أخيراً ، فهي تكذب على دورها ، فهي صارت رصينة ، وقبل أن تنام ، حتى ، تبدي ، دائماً نوعاً من الكآبة ، بما أنه يوجد على باب حانة شجر سرو .

اكتشف السّبب : تحلم بالزواج ، هي أيضاً ! حنق فريدريك . زد على ذلك أنه راح يتذكّر ظهوره عند السيّدة أرنو ثم هو يضمر لها حقداً لمقاومتها الطويلة .

ما عاد يبحث عمّن كان عشاقها . أنكرتهم جميعاً . هاجمه

نوع من الحسد . ثار للهدايا التي كانت تلقّتها ، التي هي تتلقّاها ، وبمقدار ما كان شخصها يثيره ، راح انشداد حسي عنيف وشهوانيّ يقوده إليها ، توهمات لحظة انقلبت كرهاً .

كلماتها ، صوتها ، بسمتها ، كل شيء فيها صار يكدّره ، بخاصة نظراتها ، التفاتة المرأة الصافية دوماً والخرقاء . يجد نفسه ، أحياناً كثيرة ، أنه كثير الارهاق منها ، إلى حدّ يتمنى لو يراها تموت ولن يعجب . إنما كيف يغضب ؟ انها على عذوبة مثبطة للهمّة .

عاد ديلورييه وعرض إقامته في نوجان قائلاً إنه كان يساوم لشراء مكتب وكيل دعاوى . سعد فريدريك برؤ يته ثانية ، مهمّ هو ! جعله الشخص الثالث برفقتهما .

يتعشى ، عندهما المحامي ، بين وقت وآخر ، وحين تقوم اعتراضات ، يتدخّل دوماً لمصلحة روزانيت ، حتى ان فريدريك قال له مرة :

ـ إيه ! نم معها إذا كان هذا يسلّيك ! بهذا القدر ، يرجو هو ، صدفة ما تحرّره منها .

تلقت ، حوالى منتصف حزيران ، إنذاراً يبلغها فيه الأستاذ أتاناس غوتِرو ، وهو محضّر دعوى ، بلزوم دفع أربعة آلاف فرنك خاصة الآنسة كليمنس فاتناز ، وإلاّ فلسوف يضطر إلى توقيفها في الغد .

في الواقع ، وقّعت كانت سندات أربعة من زمان ، ولم تدفع سوى واحد ، فالمال الذي كانت ادّخرته أنفقته على حاجات أخرى .

ركضت عند أرنو . يسكن ، كان ، ضاحية سان جيرمان ، والبوّاب يجهل الشارع . حملت نفسها عند أصدقاء كُثُر ، فلم تجد أحداً ، وخائبة عادت . ما أرادت أن تقول شيئاً لفريدريك ، خائفة من أن يسيء هذا الخبر الجديد إلى زواجها .

صباح الغد ، حضر الأستاذ أتاناس وبرفقته مساعدان ، أحدهما شاحب ، ذو وجه مراوغ ، ومظهر تفترسه الشهوة ، الآخر يرتدي ياقة اصطناعية وسيورة ران طويلة جداً ، مع غلاف اصبع من تفتا سوداء في سبّابته ، وكلاهما وسخ بدناءة ، وبعنق ضخم ، واكمام قصيرة جداً .

رب عملهما ، رجل باهر الجمال ، على عكسهما ، شرع يعتذر لمهمّته الشاقة وهو ينظر الشقة ، « ملأى بأشياء جميلة ، بشرفي ! » أضاف : « غير تلك التي يسهل الحصول عليها » . وبإشارة ، اختفى المعاونان .

حينها ، تضاعفت ملاطفاته . أيمكن التصديق أن شخصاً ساحراً بهذا المقدار ليس له صديق رصين ! فإن بيعاً بأمر القضاء لهو شر حقيقيّ ! لا يقوم المرء منه أبداً . حاول إخافتها ، وإذ رآها ذاهلة ، أخذ ، بسرعة ، مظهراً أبويّاً . كان يعرف هؤلاء الناس ، كان له عمل مع كل هؤلاء النساء ، وإذ هو يسمّيهن ، راح يتفحّص الاطارات على الجدران . إنها لوحات قديمة من أرنو الطيّب ، مخططات لسومباز ، مائيّات لبوريو ، ثلاثة مناظر لديتمر . هي ، بالطبع ، لا تعرف ثمنها . استدار صوبها الأستاذ غويترو ، قال :

ـ عجباً ! هاكِ . لأظهر لك أنني إنسان طيب ، فلنعمل هذا الأمر : أعطيني لوحات ديتمر هذا ! وأدفع كل شيء . هل اتفقنا ؟

في هذه اللحظة ، دخل فريدريك بمظهر عنيف ، وقبّعته على رأسه . كانت دلفين أعلمته بالأمر في غرفة الانتظار ورأى المتمرّسين . استعاد الأستاذ غوترو هـدوءه ، وإذ بقي الباب مفتوحاً :

ـ هيّا ، سيدي ، اكتبا ! في الغرفة الثانية : طاولة من خشب السنديان ، مع لوحيها الاضافيّين ، صوانا سفرة . . .

أوقفه فريدريك يسأله إذا هناك طريقة لمنع الحجز .

ـ أوه ! ممتاز ! من دفع ثمن الأثاث ؟

ـ أنا .

ـ حسناً ، قدّم اعتراضاً ، يصبح لديك متسع من الوقت .

أنهى الأستاذ غوترو ، بنشاط ، مهمته ، وعيّن ، لاجراء مستعجل ، الآنسة برون ، ثم انسحب .

لم يوجّه فريدريك أي لوم . راح يتأمل ، على السجادة ، آثار الوحل تركتها أقدام هؤلاء المنفّذين ، ومحدّثاً نفسه قال :

ـ يجب تدبّر المال .

ـ آه ! يا الهي ، كم أنا غبيّة ! قالت « المارشالة » .

نقّبت في دُرج ، أخذت رسالة ، وبحيويّة اتجهت إلى شركة الانارة في « لانغدوك » لتحوّل أسهمها .

عادت بعد ساعة . (لقد بيعت الأسهم من شخص آخر)

أجابها الموظف متفحّصاً رسالتها ، الوعد الذي كتبه أرنو : « هذا الأمر لا يجعلك ، مطلقاً ، مالكة . فالشركة لا تعترف بهذا » . باختصار ، فقد صرفها ، كادت تختنق . وكان على فريدريك التوجّه حالاً إلى أرنو ليستوضح الأمر .

لكن ، لربما ظنّ أرنو أنه آت لاستعادة الخمسة عشر ألف فرنك التي له ، بطريقة غير مباشرة ، في رهنيّته التي ضاعت . ثم ، إن هذا الطلب ، إلى رجل كان عشيق عشيقته ، بدا له دناءة . وإذ اختار حلاًّ وسطاً ، ذهب إلى فندق دمبروز ليعرف عنوان السيّدة ريجمبار ، أرسل إليها رسولاً ، وهكذا عرف المقهى الذي كان يتردّد اليه ، الآن ، زوجها .

إنه مقهى صغير في ساحة الباستيل ، فيه يبقى طوال النهار ، في عمق الزاوية اليمنى ، لا يتحرّك إلا ليُظهر أنه ليس جزءاً من الأثاث .

وبعد الانتقال ، تتابعياً ، من النصف كأس ، إلى الجرعة ، إلى النبيذ الحار ، وحتى المياه المحمرة ، عاد إلى الجعة ، وبين نصف ساعة وآخر ، تخرج من فمه هذه الكلمة : « كأس جعة ! » فقد اقتصر في كلامه على الضروريّ . سأله فريدريك إن كان يرى أرنو .

ـ لا !

ـ عجباً ، لماذا ؟

ـ غبيّ !

لربما تفرّقهما السياسة ، وحسب فريدريك أنه من الأفضل

الاستعلام عن كومبان .

ـ يا له من فظ ! قال ريجمبار .

ـ كيف ذلك ؟

ـ رأس عجل !

ـ آه ! أعلمني ما هو رأس العجل هذا ؟

ابتسم ريجمبار ابتسامة مشفق :

ـ سخافات !

قال فريدريك بعد صمت طويل :

ـ إذن فهو غيّر منزله !

ـ مَن ؟

ـ أرنو !

ـ نعم : شارع فلوروس !

ـ أي رقم ؟

ـ هل أخالط اليسوعيّين ؟

ـ كيف ! يسوعيّون ؟

أجاب « المواطن » غاضباً :

ـ بمال مواطن عرّفته عليه ، عمل هذا الخنزير تاجر سبحات !

ـ مستحيل !

ـ إذهب تأكّد !

الأمر صحيح . فقد تحوّل أرنو إلى الديانة بعدما أصيب بوعكة صحيّة أنهكته . على كل حال ، « فهو يحتفظ ، دائماً ،

بأساس دينيّ » ، و « بمزيج من مركنتيليّة وبساطة هي فيه طبيعيّة) لينقذ نفسه وثروته ، فقد دخل تجارة الأشياء الدينيّة .

لم يتعذب فريدريك في الاهتداء إلى مؤسّسته ، يحمل عنوانها : « في الفنون القوطيّة ـ إحياء العبادة ـ زخارف كنسيّة ـ صنع تماثيل متعدّدة الألوان ـ بخور الملوك المجوس ، الخ . الخ » .

يقوم ، في زاويتي الواجهة ، تمثالان خشبيّان ، مبقّعان بالذهب ، بالأحمر القرمزي وبالأزرق السماوي ، الواحد شخص القديس يوحنا المعمدان مع جلد خروفه ، والآخر يمثل القدّيسة جنفياف ، ورد في مريولها ومغزال تحت إبطها ، ثم جماعات من جصّ : راهبة تعلّم فتاة صغيرة ، أم راكعة قرب مضجع صغير ، ثلاثة فتيان أمام الطاولة المقدّسة . الأجمل كان نوعاً من دارة تمثل داخل المغارة مع الحمار ، الثور ، والطفل يسوع ممدداً على التبن ، التبن الحقيقي . من أعلى إلى أسفل الرفوف ، كنت ترى ميداليّات كثيرة ، سبحات من كل نوع ، أجران ماء مقدّس بشكل صدفة ، ورسوم الأسياد الكنسيّين بينها يشرق رسم المطران أفرّ ورسم غبطة البابا ، كلاهما يبتسم .

كان أرنو ساحراً إلى مكتبه ، خافض الرأس . كان شاخ بشكل عجيب ، وحوالى صدغيه بثور زهريّة اللون يقع فوقها انعكاس الصلبان الذهبيّة تحت وهج الشمس .

سيطرت على فريدريك كآبة أمام هذا الانحطاط . مع ذلك ، فقد حزم أمره إخلاصاً منه للمارشالة ، وتقدّم . في آخر

المحل بدت السيّدة أرنو ، فعاد على عقبيه .

ـ لم أجده ، قال وهو يدخل .

وذكر أنه سيكتب إلى كاتب عدله في هافر ليحصل على مال ، غضبت روزانيت . لم تر رجلاً بهذا الضعف ، بهذه الرخاوة ، في حين هي تكابد الحرمان غيرها يتنعّم .

راح فريدريك يفكّر في السيّدة أرنو المسكينة ، متصوّراً كفافها المحزن داخل بيتها . كان جلس إلى المكتب ، وبما أن صوت روزانيت الحاد ما زال يلعلع ، قال :

ـ آه ! وحقّ السماء ، أسكتي !

ـ ستدافع عنهم ؟

ـ نعم ! صرخ ، إذ من أين هذه الشراسة ؟

ـ ولكن أنت ، لماذا لا تريدهم يدفعون ؟ ذلك خوفاً من أن تبتلي عشيقتك القديمة ، اعترف بهذا !

ودّ لو يصرعها بساعة الحائط ، خانه الكلام . صَمَتَ . أضافت روزانيت وهي تتمشى في الغرفة :

ـ لسوف أواجهه بدعوى ، صاحبك أرنو . أوه ! لست بحاجة إليك ! ـ وزامّة شفتيها ، قالت : ـ سوف أستشير .

بعد ثلاثة أيام ، دخلت دلفين فجأة .

ـ سيّدتي ، سيّدتي ، هناك رجل ومعه وعاء صمغ يخيفني .

انتقلت روزانيت إلى المطبخ ، فرأت وغداً ، وجهه مبقع بالجدري ، بذراع مشلولة ، يكاد يكون منطفئاً سكراً ، يتلجلج .

إنه ملصق إعلانات الأستاذ غوترو . إذ ردّ الاعتراض على

الرهان ، فالبيع حتماً سيتبع .

لأنه تعب من صعوده الدرج ، طلب ، أولاً ، كأساً صغيرة ، ثم التمس أمراً آخر ، الاستعلام عن أوراق المسرح ، ظاناً أن السيّدة ممثّلة . بعدها ، طفق لدقائق عديدة ، يغمز غمزات غير مفهومة ، أخيراً أعلن أنه ، بأربعين فلساً ، يمزّق زوايا الاعلان الذي كان ألصقه تحت على الباب . فيه روزانيت مسمّاة باسمها. قسوة استثنائية تمثّل كل حقد « الفاتناز » .

حسّاسة كانت من زمان ، وحتى ، انها في محنة قلب ، كتبت إلى بيرانجيه تستشيره . لكنها غاضبة صارت بفعل زوابع الحياة ، فهي ، مرة بعد مرة ، اعطت دروساً في البيانو ، ترأست مآدب ، شاركت في جرائد أزياء ، أجرت شققاً مؤجرة ، هرّبت دانتيلا في عالم النساء اللعوبات ، حيث سمحت لها علاقاتها بخدمة كثير من الرجال ، بينهم أرنو . ومن قبل كانت عملت في محلّ تجاري .

كانت تدفع للعاملات ، ولكل منهن دفتران واحد منهما يبقى دائماً بين يديها . ديسّردييه الذي كان يحمل مرغماً دفتر المدعوّة أورتنس بازلان ، تقدّم يوماً من الصندوق لحظة كانت الآنسة فاتناز تحمل حساب هذه الفتاة ١٦٨٢٢ فرنكاً ، دفعها أمين الصندوق . والحال أن ديسّردييه ، في الليلة نفسها ، ما كان سجّل سوى ١٠٨٢ على دفتر بازلان . أعاد طلبه متحجّجاً ، ثم إذ أراد أن طَمر قصة هذه السرقة ، أخبرها أنه أضاع المبلغ . أخبرت العاملة ، ببساطة ، كذبته للآنسة فاتناز ، ليكون قلبها

مرتاحاً ، هذه ، تحدّثت بذلك إليه ، بمظهر لا مبالٍ . اكتفى بأن أجاب : « أحرقته » ، كان هذا كل شيء . تركت المحل بعد ذلك بقليل ، من دون أن تكون صدّقت اتلاف الدفتر ومتصورة انّ ديسّردييه يحتفظ به .

عند سماعها خبر جرحه ، ركضت إليه بقصد أن تستعيده . وإذ لم تكتشف شيئاً ، برغم التنقيبات الدقيقة ، أخذها الاحترام ، ثم الحب لهذا الشاب المستقيم ، اللطيف ، البطل والقويّ ! ثروة مثل هذه ، كانت حلماً بالنسبة لعمرها . فأكبّت عليه بنهم شره ، وتركت لأجله الأدب ، الاشتراكيّة ، « النظريات المعزّية والمثاليّات السخيّة » ، البحث الذي كانت تبشّر به عن تحرير المرأة ، كل شيء ، حتى دلمار نفسه ، أخيراً عرضت على ديسّردييه الاتحاد بالزواج .

بالرغم من أنها صارت عشيقته ، لم يكن يحبها ، إطلاقاً على كل حال ، لم يكن ، بعد ، نسي السرقة . ثم انها غنية جداً . رفضها . حينها ، قالت له باكية ، الأحلام التي كانت بها حلمت : أن يكون لهما محل ملابس جاهزة . تمتلك هي الرأسمال الأوّلي اللازم ، ولسوف يزيد أربعة آلاف فرنك في الأسبوع المقبل ، وروت ملاحقاتها للمارشالة .

حزن ديسّردييه بسبب صديقه . تذكّر علبة السيجار الهدية إلى الحرس ، أمسيات شارع نابوليون ، والكثير من الأحاديث الممتعة ، الكتب التي استعارها ، الملاطفات الكثيرة التي أظهرها له فريدريك . فتوسّل إلى الفاتناز لتكف عن ذلك .

سخرت من طيبته ، مبدية كرهاً كبيراً لروزانيت . هي لا ترجو الثروة الا لتحطيمها في ما بعد بعربتها الفاخرة .

أخافت ديسّردييه هذه الهاويات الحالكة . وحين عرف ، بالتحديد ، نهار البيع ، خرج . في الصباح الباكر ، دخل على فريدريك مرتبكاً :

- لدي اعتذارات أقدّمها لك .

- عن أي أمر ؟

- لا بد أنك تعتبرني جاحداً ، أنا التي هي ... صار يتمتم . « أوه ! لن أعود فأراها ، لن أكون شريكها ! » وإذ كان فريدريك يلتفت إليه وقد أخذته المفاجأة ، أضاف : « أليس ، بعد ثلاثة أيام ، سيباع أثاث عشيقتك ؟ » .

- من أخبرك بهذا ؟

- هي نفسها ، فاتناز ! لكني أخشى إغضابك ...

- مستحيل يا صديقي !

- آه ! هذا صحيح ، فانت طيّب !

وبيد خجولة ، قدّم إليه محفظة من جلد ناعم . فيها أربعة آلاف فرنك ، كلّ مدّخراته .

- كيف ! آه ! لا ! ... لا ! ...

- كنت أعرف جيداً أنني سأجرحك ، قال ديسّردييه ، ودمعة في حدود عينيه .

ضغط فريديك على يده ، فقال الشاب الطيّب بصوت منتحب :

ـ إقبلها ! اجعلني مسروراً ! فأنا كئيب جداً ! ألم ينته كل شيء بعد ؟ كنت حسبت ، مع الثورة ، أننا سنكون سعداء . أتذكر كم كان ذلك جميلاً ! كم كنا نتنفّس جيداً ! ولكن ها نحن وقعنا أسوأ من أي وقت .

ومحدّقاً في الأرض ، قال :

ـ هم الآن ، يقتلون جمهوريّتنا ، كما قتلوا تلك الرومانية ! والبندقية المسكينة ! بولونيا ، المجر ! يا للفظاعة ! أوّل الأمر ، هم اقتلعوا أشجار الحرية ، ثم قيّدوا حق الاقتراع ، أقفلوا الأندية ، أعادوا الرقابة وسلّموا التعليم للاكليروس ، منتظرين التحقيق الجنائي . لِمَ لا ؟ هنالك محافظون يتمنون القوزاق ! يدينون الصحف حين تتحدّث ضد عقوبة الموت ، باريس تضيق بالحراب ، ست عشرة مقاطعة في حالة حصار ، وها ان العفو العام يُرْفَض ، مرة بعد !

أخذ جبينه بيديه ، ثم قال مبعداً يديه كما في خيبة كبيرة :

ـ مع ذلك لو نحاول ! لو كان لنا إيمان وطيد ، لأمكننا التفاهم ! إنما لا ! فالعمّال ليسوا أفضل من البورجوازيين ! لقد رفضوا ، في «البوف» مؤخراً ، النجدة في حريق . بعض الحمقى يعاملون « بربيس » كأرستوقراطي ! آلي يسخروا من الشعب ، يريدون تسمية « نادو » للرئاسة ، ماسوني هو ، أترى ! وليس من وسيلة ! ليس من دواء ! الجميع ضدّنا ! ـ أنا ، لم أعمل سوءاً ، أبداً ، ومع هذا ، فكأنّ حملاً ثقيلاً يثقل على معدتي . أجنّ لو هذا يستمرّ . أرغب لو أقتل نفسي . أقول لك إنني لست بحاجة لمالي !

ستردّه لي ! أنا أدّينك إيّاه !

قبل فريدريك المبلغ ، وكانت الضرورة ترغمه . هكذا لم تبق لديه وساوس لجهة « الفاتناز » .

إنما سرعان ما خسرت روزانيت دعواها ضد أرنو ، وعناداً منها ، أرادت الاستئناف .

تعب ديلورييه في إقناعها بأن وعد أرنو لا يشكل وثيقة هبة ولا تحويلاً منتظماً ، ما كانت ، حتى ، لتستمع ، فقد وجدت القانون غير عادل ، هذا لأنها امرأة ، فالرجال يساند بعضهم بعضاً ! مع ذلك خضعت في النهاية لنصائحه .

كان منزعجاً في البيت إلى حد ما ، فصار يأتي بسينيكال للعشاء . أزعجت هذه البساطة فريدريك ، الذي كان يسلّفه مالاً ، يخيط له ثياباً عند خيّاطه ، وكان المحامي يعطي ستراته الطويلة القديمة للاشتراكي الذي كانت موارد عيشه مجهولة .

مع ذلك أراد بخدمة روزانيت . ذات يوم إذ هي أظهرت له اثنتي عشر سهماً من شركة الصلصال (هذا المشروع الذي كلف أرنو ثلاثين ألف فرنك) ، قال لها :

ـ لكن هذا احتيال ! انه لأمر رائع !

فلها الحق باستحضاره أمام القضاء لتأدية ديونه . سوف تثبت ، أوّلاً ، أنه ملزم بدفع كل دين الشركة ، بعد هذا انه كان أعلن كديون جماعيّة ديوناً شخصيّة ، وأخيراً انه اختلس من الشركة العديد من الأغراض .

ـ كل هذا يجعله متهماً بالافلاس الاحتيالي بموجب المادتين

٥٨٦ و٥٨٧ من قانون التجارة ، ولسوف نربح الدعوى ، يا حبيبتي ، تأكّدي من هذا .

قفزت روزانيت إلى عنقه . طلب إليها أن ترى ، في الغد ، محاميها القديم ، فهو لا يستطيع الاهتمام بالدعوى لأنه منشغل في نوجان ، في الحالة الاضطراريّة ، يكتب إليه سينيكال .

مفاوضاته لشراء مكتب كانت حجّة . هو يمضي وقته عند السيّد روك ، حيث بدأ ، ليس فقط بمديح صديقهم ، بل بتقليده ، مظهراً ولغة قدر الامكان ، ـ مما جعل لويز تثق به ، بينما ربح ثقة والدها ثائراً ضدّ لادرو ـ رولين .

فريدريك لم يعد ، ذلك لأنه يخالط الأعيان ، وشيئاً فشيئاً ، أخبرهم ديلورييه أنه يحب كائناً ما ، أن له ولداً ، أنه ينفق على عشيقة .

كبيرة كانت خيبة لويز ، سخط السيّدة مورو لم يكن أقل وقعاً . راحت ترى ابنها يدور صوب عمق هاوية مجهولة القعر ، جُرحت بدينها وتقاليدها ، وأحسّت كما بعار شخصي ، حين ، فجأة ، تغيّر لونها . وعندما يسألونها عن فريدريك تجيب ساخرة :

ـ حسن ، حسن جداً .

كانت تعرف بأمر اعتزامه الزواج من السيّدة دمبروز .

تحدّد الموعد ، وهو بات يبحث عن كيفيّة جعل روزانيت تتقبّل الأمر .

أواسط الخريف ، ربحت دعواها المتعلّقة بأسهم شركة الصلصال . عرف فريدريك بهذا على بابه من سينيكال الآتي من

جلسة المحكمة .

لقد اعتبر السيّد أرنو شريكاً في كل الاحتيالات ، وبدا المدرّس القديم سعيداً ، إلى حدّ منعه فريدريك من الذهاب أكثر ، مؤكّداً له انه سيهتم بإبلاغ روزانيت الخبر . دخل عليها غاضباً .

ـ وبعد ، ها أنت مسرورة !

لكنها ، من دون أن تنتبه لكلماته ، قالت :

ـ أنظر !

ودلّته على ابنها نائماً في مهد ، قرب النار . وجدته ، صباحاً ، في حالة سيّئة عند مرضعته ، فأتت به إلى باريس .

كل أطرافه كانت هزلت بشكل غريب ، وعلت شفتيه نقاط بيضاء ، كانت تركت داخل فمه كمثل خثارات حليب .

ـ ماذا قال الطبيب ؟

ـ آه ! الطبيب ! يدّعي أن الرحلة زادت . . . بتّ لا أدري ماذا . . . أخيراً انه مصاب بالقلاع . أتعرف هذا ؟

ما تردّد فريدريك في القول : « بالطبع » ، مضيفاً أن الأمر ليس خطيراً . لكنه ، في المساء ، ذُكر لمظهر الولد الواهن ولتقدّم البقع البيضاء ، الشبيهة بالعفن ، كأنما الحياة ، وهي تغادر هذا الجسد الصغير المسكين ، لم تترك فيه سوى مادة تنمو فيها نابتات . يداه باردتان ، بات لا يستطيع الشرب ، وراحت مرضعة ، كان أتى بها البوّاب كيفما اتفق ، تردّد :

ـ يبدو لي مشرفاً على الهلاك !

أمضت روزانيت الليلة واقفة . في الصباح ، راحت إلى

فريدريك :

ـ تعال انظر . انه لا يتحرك .

في الواقع ، كان مات . راحت تأخذه ، تهزه . تضمّه منادية إيّاه بأعذب الأسماء ، تغمره بالقبلات والشهقات ، تدور على نفسها ، ضائعة ، تنتف شعرها ، تصعّد صرخات ، تركت نفسها تسقط على طرف الأريكة ، حيث بقيت فاغرة الفم ، مع دفق دموع منحدرة من عينيها الجامدتين . ثم أخذها خمود ، وهدأ كل شيء في المنزل . كان انقلب الأثاث . فوطتان مهملتان أرضاً أو ثلاث . دقّت السادسة . انطفأ سراج الليل .

حسب فريدريك ، مراقب كل هذا ، أنه يحلم . قلبه انقبض قلقاً . بدا له أن هذه الميتة ليست سوى بداية ، وأنّ وراءها شراً أعظم وشيك الحصول .

فجأة ، قالت روزانيت بصوت حنون :

ـ سنحتفظ به أليس كذلك ؟

رغبت بتحنيطه . لكن أسباباً كثيرة تقوم عائقاً دون ذلك فالأفضل ، حسب فريدريك ، ولكون التحنيط غير مطبّق عر الأطفال ، أن يصنعا له لوحة . وافقت على هذه الفكرة . كتب إلى بيلّران ، وأسرعت دلفين بالرسالة .

وصل بيلّران بسرعة ، يريد أن يمحو ، بهذه الغيرة ، كل ذكرى لسلوكه . قال أوّلاً :

ـ يا للملاك الصغير المسكين ! آه ! يا ربي ، يا للمصيبة ! إنما ، شيئاً فشيئاً (بعدما عاد إليه الفنّان) ، أعلن أنه ليس في

الامكان شيء مع هاتين العينين الداكنتين ، وهذا الوجه الأدكن ، انّ ذلك طبيعة ميتة حقاً ، وانه يلزم موهبة كبيرة ، وراح يتمتم :

ـ أوه ! ليس ملائماً ، ليس ملائماً !

قالت روزانيت :

ـ أقلّه فلتكن صورة تشبهه .

ـ إيه ! تباً للمشابهة ! فلتسقط الواقعيّة ! فالروح تُرْسَم ! دعيني ! سأحاول أن أتصوّر ما كان سيصير .

فكّر ، جبينه في يده اليسرى ، والكوع في اليمنى ، ثم ، فجأة :

ـ آه ! إنها لفكرة ! بَسْتِل ! مع انصاف ظلال ملوّنة ، تكاد تكون مسطّحة ، نستطيع الحصول على نموذج مجسّم جميل ، فقط على الأطراف .

أرسل الوصيفة تأتيه بعلبته ، ثم ، بعدما وضع كرسياً تحت قدميه وأخرى قربه ، بدأ يرسم خطوطاً كبرى ، بهدوء من يعمل بموهبة . راح يمتدح قدّيسي جان دو كورّيج الصغار ، الوصيفة روز لفيلاسكيز ، الأجساد اللبنيّة لدي رينولدز ، تميّز لورنس ، وبخاصة الطفل ذو الشعر الطويل والراكع لليدي غلور .

ـ على كل حال ، صعب وجود من يفوق هؤلاء الأولاد جمالاً ! نوعية المثال (رافايل دلّ عليها عبر عذاراه) ، أهي أم مع طفلها ؟

خرجت روزانيت ، فقد كانت تبكي ، قال بيلّران سريعاً :

ـ وأرنو . . . أتعرف ما حلّ به ؟

ـ لا ! ماذا ؟

ـ وفوق ذلك سينتهي هكذا !

ـ عن أي أمر تتحدّث ؟

ـ لربما هو الآن . . . عذراً !

قام الفنان ليرفع رأس الجثة الصغيرة .

تابع فريدريك :

ـ ما كنت تقول . . . ؟

أجاب بيلّران وهو يغمز لقياس مسافاته بطريقة أحسن :

ـ كنت أقول إن صديقنا أرنو هو الآن ، ربما ، سجين !

ثم ، وبنبرة سعيدة :

ـ أنظر قليلاً ! أهذا ما تريد ؟

ـ نعم ، حسن جداً ! ولكن أرنو ؟

وضع بيلّران قلمه .

ـ من خلال ما فهمت ، يلاحقه واحد اسمه مينيو ، وهو صديق حميم لريجمبار ، يا لرأسه هذا ، أليس كذلك ؟ تصوّر أن يوماً . . .

ـ ايه ! ليس الأمر متعلقاً بريجمبار !

ـ صحيح وبعد ، مساء أمس ، كان على أرنو إيجاد اثني عشر ألف فرنك ، وإلا فالويل له .

قال فريدريك :

ـ أوه ! لربما هذه مبالغة .

ـ لا ! أبداً ! هذا ما جعلني حزيناً ، حزيناً جداً .

ظهرت ، عند هذا ، روزانيت ، مع احمرارات تحت جفنيها ، ملتهبة كما طبقات حمرة . وقفت إلى جانب الكرتونة وراحت تنظر . أشار بيلّران أنه سيصمت بسببها . لكن فريدريك ، بدون محاذرة ، تابع :

ـ مع ذلك لا يمكنني التصديق . . .

قال الفنّان :

ـ أكرّر لك القول إنني التقيته أمس ، في السابعة مساء في شارع جاكوب . كان معه جواز سفره ، احتياطاً ، ويتحدث عن إبحار إلى هافر ، هو وكل عائلته .

ـ كيف ؟ مع امرأته ؟

ـ من دون شكّ ! هو رب عائلة طيّب ، فلا يستطيع العيش وحده .

ـ وهل أنت متأكد ؟ . . .

ـ تباً لك ! ومن أين تريده يجد اثني عشر ألف فرنك ؟

دار فريدريك دورتين أو ثلاثاً في الغرفة . صار يلهث ، يعضّ شفتيه ، ثم تناول قبّعته .

قالت روزانيت :

ـ إلى أين تذهب ؟

اختفى ، ولم يجب .

V

كان ضرورياً إيجاد اثني عشر ألف فرنك ، وإلا فلن يعود يرى ، أبداً ، السيّدة أرنو ، وقد بقي له ، حتى الآن ، أمل لا يُقْهر . ألم تكن غذاء قلبه ، وحتى ، جوهر حياته ؟ ترنّح على الرصيف خلال دقائق ، تتأكله الهواجس ، ومع ذلك فهو سعيد لكونه لم يعد عند الأخرى .

من أين الحصول على المال ؟ يعرف فريدريك ، من نفسه ، كم يصعب الحصول عليه الآن ، وبمطلق ثمن . واحدة تستطيع مساعدته : إنها السيّدة دمبروز . تحتفظ ، هي ، بمكتبها ، وبصورة دائمة ، ببضع أوراق نقديّة . توجّه إليها ، وبنبرة جريئة :

ـ أمعك اثنا عشر ألف فرنك تقرضينني إياها ؟

ـ لماذا ؟

هو سرّ آخر . أرادت أن تعرفه . لم يستسلم . كلاهما عاند . أخيراً قالت انها لن تعطي شيئاً ما لم تعرف لماذا هي تعطي . احمرّ فريدريك كثيراً . واحد من زملائه اقترف سرقة . يجب أن يتأمّن المبلغ اليوم .

ـ هل تسمّيه ؟ باسمه ؟ هيّا ، ما اسمه ؟
ـ ديسّردييه !
وارتمى على قدميها يتوسّل إليها أن لا تقول شيئاً .
ـ أية فكرة لك عنّي ؟ أجابت السيدة دمبروز . كنا لنحسب أنك المذنب . دع مظاهرك المأساوية ! هاك ، إليك المبلغ ، وأدّ له خدمة جلّى !
ركض عند أرنو . لم يكن التاجر في محلّه . لكنه لا يزال يسكن في شارع الفردوس ، لأنه يمتلك منزلين .
في شارع الفردوس ، أقسم البوّاب أن السيّد أرنو غائب منذ ليلة أمس . إنما بالنسبة للسيدة ، لم يجرؤ أن يقول شيئاً . وبعدما انطلق صاعداً الدرج كسهم ، ألصق أذنه بالقفل . فُتح الباب أخيراً . تجهل الخادمة متى يعودان ، فقد دُفع حسابها وهي تستعدّ ، بدورها ، للذهاب .
فجأة سمع صفق باب :
ـ هل هناك أحد ؟
ـ أوه ! كلا يا سيدي ! إنه الهواء !
حينها انسحب . مهما يكن الأمر ، فإن اختفاء بهذه السرعة يبدو غير مبرّر .
لربما استطاع ريجمبار أن ينيره بشيء ، فهو صديق مينيو الحميم . وقاد نفسه إليه ، إلى مونمارتر ، شارع الامبراطور .
تحاذي بيته حديقة مقفلة بسياج تسدّ منفذه صفائح حديد . ترتفع الواجهة البيضاء فوق مدخل من ثلاث درجات .

وتلاحظ ، وأنت تمر على الرصيف ، غرفتي الطابق الأرضي ، الواحدة صالون مليء بالأثواب المتناثـرة على قـطع الأثاث ، والأخرى مشغل فيه عاملات السيّدة ريجمبار .

كلهن مقتنعات بأن للسيّد اهتمامات كبيرة ، علاقات كبيرة ، بأنه رجل ممتاز . حين اجتاز الممرّ بقبّعته ذات الأطراف المتدلّية ، بوجهه الطويل الرصين ، وسترته الطويلة الخضراء ، توقفن عن عملهن . لم يبخل عليهن بكلمة تشجيع ، بمجاملة بشكل قرار ، وفي ما بعد ، في البيت ، يجدن أنفسهن تعيسات لأنهن نظرن إليه كمثال .

أياً منهن لم تكن تحبه مثل السيّدة ريجمبار ، امرأة قصيرة ذكيّة ، تعيله بمهنتها .

مذ تلفّظ السيّد مورو باسمه ، اقبلت برشاقة تستقبله ، وقد عرفت من الخدم ما يكون بالنسبة للسيّدة دمبروز . زوجها كان « دخل لتوّه » ، وهو يتبعها ، راح فـريدريـك يقدّر المسكن والاسراف باللوحات المشمّعة الكائنت موجودة . ثم انتظر لحظات ، في شكل مكتب كان ريجمبار يختلي فيه للتفكير .

كان استقباله أقلّ تجهّماً من المعتاد .

روى قصة أرنو . صاحب مصنع الخزفيّات السابق كان فتن مينيو بالكلام المعسول ، وهو مواطن يمتلك مئة سهم من جريدة « العصر » ، مظهراً له ، أنه يجب ، من الوجهة الديمقراطيّة ، تغيير إدارة الجريدة ومكتب تحريرها . وبحجة تأمين انتصار رأيه في الجمعيّة المقبلة للمساهمين ، طلب إليه خمسين سهماً ، قائلاً إنه

سيعطيها لأصدقاء مؤتمنين يدعمون التصويت له . لن يكون لمينيو أية مسؤولية ، فلن يختلف مع أحد . وإذ يتم النجاح ، سيجعل له ، في الهيئة الادارية ، مركزاً مرموقاً ، بخمسة إلى ستة آلاف فرنك أقله . أعطاه مينيو الأسهم . لكنّ أرنو باعها مباشرة ، وتركّز ، بالمبلغ ، تاجر تحف دينيّة . وبسبب هذا ، مطالبات من مينيو ، ومماطلات من أرنو . أخيراً ، تهدّد المواطن بدعوى احتيال إن لم يرد إليه الأسهم أو المبلغ الموازي : خمسين ألف فرنك .

بدا فريدريك في غاية الحزن .

ـ ليس هذا كل شيء ، قال الرجل . كان رضي مينيو ، وهو رجل طيّب ، بالربع . وعود جديدة من الآخر ، لكنها ، بالطبع ، أحابيل . باختصار ، قبل أمس صباحاً ، أنذره مينيو ، رسمياً ، بدفع اثني عشر ألف فرنك ، خلال الأربع والعشرين ساعة ، مع حفظ حقّه بالمبلغ المتبقّي .

ـ لكن معي المبلغ ! قال فريدريك . .

ـ مازح !

ـ عفواً ! انه في جيبي . لقد أتيت به .

ـ كم أنت غبيّ ! يا لك من رجل ساذج ! على كل ، لم يبقَ الوقت مناسباً ؛ قدّمت الشكوى ، وذهب أرنو .

ـ وحيداً ؟

ـ كلا ! مع زوجته . لقد شوهدا في محطة هافر .

شحب فريدريك بشكل عجيب . خشيت السيّدة ريجمبار من أن يغمى عليه . تمالك نفسه ، واستطاع ، حتى ، أن يسأل

سؤالين أو ثلاثة عن الحادثة الغريبة . حزن ريجمبار للأمر ، فهذا يضرّ بالديمقراطية . فأرنو كان دائماً بلا أخلاق ولا تنظيم .

ـ انه طائش حقيقيّ ! يحرق الشمعة من طرفيها ! سعيه في معاشرة النساء جعله يضيع ! فالمواطن كان معجباً بالنساء الفاضلات ، ويعطي مثالاً السيّدة أرنو . « لقد عانت الشيء الكثير ! » .

امتنّ فريدريك له على هذه الملاطفة ، وضغط على يده ، بانسكاب ، كما لو انه حصل منه على خدمة .

وإذ دخل ، واجهته روزانيت بالسؤال : هل أنهيت كل ما يلزم ؟

قال انه لم تكن لديه الشجاعة لذلك . وكان سار ، كيفما كان ، في الشوارع ، ليتناسى .

انتقلا في الثامنة إلى غرفة الطعام ، لكنهما بقيا صامتين يصعّدان ، بين لحظة وأخرى ، نهدة طويلة ويرفعان ، للخدم ، صحنهما . شرب فريدريك ماء الزهر . أحس نفسه مهدّماً ، محطّماً ، مضنى ، ما عاد يشعر بشيء إلا بتعب لا محدود .

ذهبت وجاءت باللوحة . تصطدم فيها الألوان الحمراء ، الصفراء ، الخضراء ، الزرقاء ، ببقع عنيفة ، تجعل منها عملاً قبيحاً ، يكاد يكون ساخراً .

على كل حال ، فالميت لم يكن ، بعد ، معروفاً . فلون شفتيه الضارب إلى البنفسجي ضاعف بياض جسده . ازداد أنفه نحولاً ، وعيناه غارتا أكثر . يستريح رأسه إلى وسادة من تفتا زرقاء ، بين

بتلات الكاميليا ، وورود الخريف والبنفسج ، إنها فكرة الوصيفة ، هما رتّبتاها كذلك ، بورع . على المدفأة المغطاة بغطاء مخرّم شمعدانان من فضة مذهّبة ، تفصلهما باقتا بقس مقدّس . في آنيتين ، في الزاويتين ، تشتعل أقراص معطّرة ، يؤلف ، كل هذا ، مع المهد ، نوعاً من مذبح ، وتذكّر فريدريك سهرته قرب السيّدة دمبروز .

كل ربع ساعة تقريباً ، كانت روزانيت تزيح الستائر لتنظر إلى ابنها . راحت تتخيّله ، بعد أشهر ، بادئاً بالمشي ، ثم في المدرسة ، وسط الملعب لاعباً بالحواجز ، ثم شاباً ذا عشرين عاماً ، وكل هذه الصور التي كانت تخلقها ، تجعلها تشعر أنها فقدت ، بعددها ، أولاداً ، ـ فازدياد الألم ضاعف حسها الأمومي .

كان فريدريك يفكّر ، وهو على الكرسيّ الآخر ، في السيّدة أرنو .

هي ، ولا شك ، في الطريق الحديديّ ، وجهها في زجاج قاطرة ما ، ناظرة الريف يهرب وراءها من جهة باريس ، أو هي على جسر سفينة بخاريّة ، كأوّل مرة رآها فيها ، لكنها ، هذه المرة ، تذهب الى أماكن لن تعود فتخرج منها . ثم يتخيّلها في غرفة فندق ، معها حقائب في الأرض ، والباب يصطفق في الهواء . وبعد ؟ ما سيحلّ بها ؟ معلّمة ، سيّدة مرافقة ، وصيفة ماذا ؟ هي مسلّمة الى صُدَف التعاسة . يؤرّقه جهله لمصيرها . كان عليه الوقوف في وجه رحيلها ، أو الذهاب وراءها . ألم يكن زوجها ، حقيقة ؟ وراح يشعر كما بتمزّق في كل كيانه ، إذ يفكّر أنه لن يلقاها من بعد ، أن

كل شيء انتهى ، انها فقدت نهائيًا . فاضت دموعه ، وهي حُصرت منذ الصباح .

لاحظت روزانيت دموعه .

ـ آه ! أنت تبكي مثلي ! أمتألّم أنت ؟

ـ نعم ! نعم ! ! أنا متألّم ! . . .

ضمّها الى صدره ، وراحا يشهقان متعانقين .

السيّدة دمبروز تبكي كذلك ، نائمة على بطنها ، في سريرها ، ورأسها بين يديها .

في المساء ، اذ جاءت أولمب ريجمبار لتقيس لها ثوبها الملوّن الأوّل ، أخبرتها بزيارة فريدريك ، وأنه ، حتى ، يحمل اثني عشر الف فرنك للسيّد أرنو .

هكذا ، فهذا المال ، مالها هي ، هو ليمنع رحيل الأخرى ، ليحتفظ لنفسه بعشيقة !

طفحت غضباً ، أوّل الأمر . وقرّرت طرده كخادم . هدّأتها دموع سخيّة . فالأفضل عدم الحديث في ذلك ، عدم البوح بشيء .

في الغد ، حمل اليها فريدريك الاثني عشر الف فرنك .

رجته الاحتفاظ بها ، في حال الحاجة ، لصديقه ، وسألته كثيراً عن هذا السيّد . فما كان دفعه الى هذه الثقة الزائدة ؟ انها امرأة ولا شك ! فالنساء يدفعن بك الى كل الجرائم .

حيّر فريدريك هذا التهكّم . شعر بندم كبير للوشاية . انما ما يطمئنه هو انّ السيّدة دمبروز لن تعرف الحقيقة .

مع ذلك ، فقد تمسّكت بالأمر . لأنها ، بعد غد ، استعلمت عن رفيقه الصغير ، ثم عن آخر ، عن ديلوربيه .

ـ أهو رجل واثق وذكيّ ؟

امتدحه فريدريك .

ـ قل له ان يمر بي في صباح ما : أريد استشارته في قضيّة .

كانت وجدت مُدرَجة وثائق قديمة تتضمّن سندات كان أرنو أنكرها تماماً وعليها توقيع السيّدة أرنو . بسبب هذه كان فريدريك ، مرة ، حضر عند السيّد دمبروز وقت غدائه ؟ وبالرغم من انّ الرأسمالي ما أراد متابعة الاستيفاء ، كان جعل محكمة التجارة تحكم ، ليس فقط بإدانة أرنو ، بل وزوجته التي كانت تجهل ذلك ، لأن زوجها وجد من المناسب ان لا يخبرها بالأمر .

انه لسلاح ، هذا ! لا تشكّ السيّدة دمبروز في الأمر . لكن كاتب عدلها ربما نصحها بالامتناع عن التنفيذ . أرادت كائناً غير معروف . وتذكّرت ذلك الشيطان الكبير ، ذا السحنة الوقحة ، الذي كان عرض عليها خدماته .

بسذاجة أبلغ فريدريك رسالتها .

سرّ المحامي بأن يكون على علاقة بسيّدة كبيرة مثل هذه .

فركض اليها .

أخبرته أن التركة تعود لابنة اختها ، وهذا سبب آخر لتصفية ديونها التي عليها تسديدها ، مصرة على ان تكدّر الزوجين مارتينون بافضل الطرق .

فهم ديلوربيه ان هنالك سرًّا ما ، راح يحلم وهو ينظر في

السّندات . اعاد اسم السيّدة أرنو ، مكتوباً بخطّها ، أمام عينيه كل شخصها ، وذكّره بما لقي منها من اهانة . فلم لا ينتقم ، ما دام الظرف ملائماً ؟

فنصح السيّدة دمبروز بأن تبيع بالمزاد الديون الميؤوس منها المتعلّقة بالتركة . يعود فيشتريها مسخّر خفية ويتابع الملاحقات . يتكفّل ، هو ، باحضار هذا الرجل .

وحوالى أواخر تشرين الثاني ، فيما كان فريدريك ماراً بشارع السيّدة أرنو ، رفع عينيه نحو النوافذ ، فلمح اعلاناً على الباب فيه ، بأحرف كبيرة :

« مبيع أثاث فخم ، يتضمّن أدوات طبخ ، بياضات للجسم وللمائدة ، قمصاناً ، دانتيلاّ ، تنانير داخليّة ، بناطلين ، كشميراً فرنسيًّا وهنديًّا ، بيانو إرارد ، صوانين سنديانيّين من طراز عصر النهضة ، مرايا من البندقيّة ، بوّابات من الهند ومن اليابان » .

« انه أثاثهم ! » قال فريدريك في ذاته . وأكّد البواب هواجسه .

لكن من يكون الشخص البائع ، فهو يجهله . لكن المثمن ، وهو السيّد برتلموت ، قد يزوّده ببعض الايضاحات .

لم يشأ الموظف البلدي ، أوّل الأمر ، أن يقول أي دائن يتابع عملية البيع . أصرّ فريدريك . انه رجل اسمه سينيكال ، وكيل أعماله ، وسايره السيّد برتلموت أكثر فأعاره جريدته وفيها « اعلانات صغيرة » .

حين وصل فريدريك عند روزانيت ، رمى الجريدة ،

مفتوحة، على الطاولة .

ـ اقرئي !

ـ ماذا ! قالت بوجه هادىء أثاره .

ـ آه ! احتفظي ببراءاتك !

ـ لا أفهم ما تقول .

ـ أنت من تبيعين السيّدة أرنو ؟

أعادت قراءة الاعلان .

ـ أين إسمها ؟

ـ إيه ! إنه أثاثها ! تعرفينه أفضل منّي !

قالت روزاينت رافعة كتفيها :

ـ ماذا يهمّني ؟

ـ ما يهمّك ؟ أنت تثأرين ، هذا كلّ ما في الأمر ! انها تتمّة مضايقاتك ! ألم تشتميها إلى حدّ مجيئك اليها ؟ أنت ، الفتاة التافهة ؟ لماذا تستبسلين لتدمّري المرأة الأكثر قداسة ، الأكثر جمالاً ، المرأة الفضلى ؟

ـ مخطىء أنت ، أؤكّد لك !

ملأه الغضب .

ـ تكذبين ! أنت تكذبين أيتها البائسة ! أنت تحسدينها ! تمتلكين حكماً ضدّ زوجها ! تدخّل سينيكال بأعمالك ! هو يكره ارنو ، تفاهم كرهكما . رأيت فرحه حين ربحت الدعوى بشأن الصلصال . أتنكرين هذا ؟

ـ أقسم بشرفي . . .

ـ أوه ! أعرفه شرفك !

وراح فريدريك يذكرها بعشاقها ، بأسمائهم ، مع التفاصيل ومناسباتها . تراجعت روزانيت وقد شحبت .

ـ هذا يثير عجبك ! ظننتني أعمى لأنني كنت أغمض عينيّ . يكفيني اليوم ! لا نموت لخيانات امرأة من نوعك . حين تصبح خيانات فظيعة ننسحب ، هذا أفضل من عقابهن !

رفعت ذراعيها :

ـ يا الهي ، من غيَّره ؟

ـ لا أحد غيرك !

ـ وكل هذا لأجل السيِّدة أرنو ! . . . صرخت روزانيت باكية .

ببرود قال :

ـ لم أحبّ سواها !

هطلت دموعها عند هذه الاهانة .

ـ هذا يؤكّد حسن ذوقك ! انسانة ناضجة ، لونها لون السوس ، سمينة ، عيناها كبيرتان كمنافذ كهف ، وفارغتان مثلها ! بما ان هذا يرضيك الحق بها .

ـ هذا ما كنت أتمنّاه ! شكراً !

جامدة لبثت روزانيت ، مشدوهة لتصرفاته الغريبة . تركت الباب يُغلق ، ثم بقفزة ، لحقت به في غرفة الانتظار ، طوّقته بذراعيها قائلة :

ـ لكنك مجنون ! أنت مجنون ! هذا محال ! أحبّك ! توسّلت

اليه : يا إلهي ، باسم طفلنا الصغير !

ـ أقرّي بأنك أنت وراء ذلك !

دافعت عن براءتها .

ـ ألا تريدين الاقرار ؟

ـ لا .

ـ اذن ، وداعاً ! وإلى الأبد !

ـ اسمعني !

استدار فريدريك .

ـ لو أنك عرفتني أكثر ، لعرفت أن قراري لا رجوع عنه !

ـ أوه ! أوه ! ستعود اليّ !

ـ أبداً !

وصفق الباب بعنف .

كتبت الى ديلورييه أن يأتي بسرعة . هي بحاجة إليه .

وصل ، ذات مساء ، بعد خمسة أيّام ، وإذ أخبرته بالانفصال ، قال :

ـ هذا كل ما في الأمر ؟ !

حسبت ، أوّل الأمر ، أن في استطاعته ردّ فريدريك اليها ، انما الآن كل شيء ضاع ، علمت ، من بوّابها ، قرب زواجه من السيّدة دمبروز .

أخذ ديلورييه يعظها ، بدا فرحاً ، مزّاحاً . وبما ان الوقت متأخّر كثيراً ، طلب ان يمضي الليلة على كرسيّ مريح . وفي الغد ، مجدّداً إلى نوجان ، وأخبرها أنه لا يعرف متى سيلتقيان . من الآن

حتى وقت قريب ، سيحصل تبدُّل كبير في حياته .

بعد ساعتين من عودته كانت المدينة في حالة ثورة. يحكى ، كان ، أن فريدريك سيتزوّج من السيّدة دمبروز . عند هذا الخبر ، ما استطاعت الانسات أوجيه الثلاث كتم الخبر ، فذهبن إلى السيّدة مورو ، التي أكدت الخبر بفخر. مرض السيّد روك . لويز أقفلت على نفسها . سرى همس أنّها جنّت .

فريدريك ، لم يكن يستطيع اخفاء حزنه . لتسلّيه ، راحت السيّدة دمبروز تضاعف اهتماماتها به . تأخذه في نزهات ، طوال بعد ظهر كلّ يوم ، في عربتها . مرة ، وهما يمران بساحة البورصة ، فكّرت بالدخول الى فندق الدلاّلين للتسلية .

إنه الأوّل من كانون الأوّل ، اليوم الذي سيتمّ فيه « بيع » السيّدة أرنو . تذكّر التاريخ ، وجهر بنفوره معلناً أنّ المكان لا يطاق بسبب الجموع والصخب . تتمنّى ، كانت ، كما تقول ، أن ترمي نظرة على المكان . توقّفت العربة . فكان عليه أنْ يتبعها .

يُرى في الساحة ، مغاسل بدون أحواض ، خشب كراسٍ ، سلال عتيقه ، شقف بورسلان ، قناني فارغة ، فرش ، ورجال بقمصان فضفاضة وسترات وسخة ، رماديّة كلّها بفعل الغبار ، ذوو وجوه دنيئة ، مع بعضهم أكياس قماش على الكتف ، يتحدّثون جماعات أو يتنادون بصخب .

أثار فريدريك مضارّ التقدّم أكثر .

ـ لا عليك !

وصعدا الدرج .

في الغرفة الأولى ، الى اليمين ، كان رجال يتفحصون لوحات ، والدليل في اليد ؛ في أخرى يبيعون مجموعة سلاح صينيّة . أرادت السيّدة دمبروز النزول . راحت تنظر الى الأرقام ، فوق الأبواب ، واصطحبته إلى آخر الممشى ، نحو غرفة تغص بمن فيها .

للحال عرف خزانتي « الفن الصناعي » ورفوفهما ، طاولة عمله، كل أثاثه!كان يؤلّف مجمّعاً في الطرف، كل شيء حسب طوله ، كدسة عريضة من الأرض حتى النوافذ ، وفي جوانب الغرفة الأخرى يتدلّى السجّاد والستائر على طول الجدران ، تحتها أدراج يشغلها رجال مسنّون نائمون . الى الشمال ، نوع من مكتب ، حيث المثمن ، بربطة عنق بيضاء ، يلوّح بمطرقة صغيرة ، برشاقة . قربه شاب ، فيه من الموظف الرحّالة ومن تاجر التذاكر المؤقتة ، ينادي ببيع الأثاث . يحمل الأغراض الى طاولة ، ثلاثة صبيان ، يحيط بهم ، جالسين في صف ، تجار سقط وبائعون بالمفرّق . خلفهم تتحرّك الجموع .

حين دخل فريدريك ، كانت عادت التنانير الداخليّة ، وخمارات الكتفين ، المحارم ، وحتى القمصان ، التي انتقلت من يد إلى يد ؛ أحياناً يرمونها من بعيد ، فتخترق الفضاء ألوان بيضاء ، بعدها ، بيعت أثوابها ، ثم احدى قبّعاتها وقد سقطت ريشتها المكسورة ، ثم فراؤها ، ثم ثلاثة أزواج جزمات ؛ - بدا له تقاسم بقاياها هذه ، التي فيها وجد ، بغموض ، أشكال أعضائها ، عملاً فظيعاً ، كما لو كان رأى غرباناً تتناتش جثّة . ضايقه جوّ الغرفة

المثقل باللهاث . قدّمت له السيّدة دمبروز قارورتها ، تقول انها تتسلّى كثيراً .

وراحوا يعرضون أثاث غرفة النوم .

يعلن السيّد برتلموت سعراً . يكرّره المنادي ، بسرعة ، بصوت أعلى . وينتظر الموظفون الثلاثة ، بهدوء ، ضربة المطرقة ، ثم يحملون القطعة الى غرفة مجاورة . هكذا اختفت واحدة بعد أخرى ، السجّادة الكبيرة الزرقاء المزركشة بزهور كاميليا التي كانت تلامسها قدماها وهي آتية اليه ، المثواة الصغيرة المنجّدة حيث كان يجلس دوماً بمواجهتها حين يكونان وحيدين ؛ عاكساً المدفأة التي كان عاجها صار بفعل لمس يديها ؛ مدبسة مخملية لا تزال شائكة بالدبابيس . انها أجزاء من قلبه تذهب مع هذه الأشياء ؛ خدّرته رتابة الأصوات نفسها ، الحركات نفسها ، أتعبته ، أحدثت فيه خدراً حزيناً ، انحلالاً .

سمع طقطقة حرير قرب اذنه ، روزانيت تلامسه .

كانا عرفت بهذا المبيع من فريدريك ذاته . وبما ان حزنها كان انتهى ، أرادت الاستفادة . أتت تشاهد ، مرتدية سترة ساتّانيّة بيضاء ذات ازرار لؤلؤيّة ، وثوب بزينة كريهة ، مقفّزة بدقّة ، بمظهر المنتصرة .

شحب غضباً . نظرت الى المرأة التي ترافقه .

عرفتها السيّدة دمبروز ، وللحظات تأمّلت إحداهما الأخرى ، من رأسها حتى أخمص قدميها ، بدقة ، لاكتشاف النقص ، العيب ، ـ الواحدة تحسد ، ربما ، شباب الأخرى ،

وهذه مغتاظة بظرف ، تحسد بساطة منافستها الأرستقراطيّة .

أشاحت أخيراً ، السيّدة دمبروز برأسها ، مبتسمة بوقاحة غريبة الغموض .

كان الدّلال أظهر بيانو ، ـ انه خاصتها ! واقفاً ، نقر ، بيمناه ، سلّماً موسيقيًّا ، وأعلن ان البيانو بألف ومئتي فرنك ، ثم أنزله إلى الف ، ثمانمائة سبعمئة .

سخرت السيّدة دمبروز من الآلة الموسيقيّة .

وضع ، أمام تجار السّقط ، صندوق مجوهرات صغير مع ميداليّات ، وزوايا . وأقفال فضيّة ، انه الصندوق ذاته الذي كان رآه في العشاء الأوّل في شارع شوازول ، ثم انتقل الى روزانيت ، وعاد الى السيّدة أرنو . راحت عيناه تختلسان النظر اليه وهما يتحادثان . هو متصل بذكرياته الأعزّ ، وكانت روحه تذوب حناناً حين قالت السيّدة دمبروز فجأة :

ـ هه ! سوف أشتريه !

ـ لكنه فقال لايلفت الانتباه .

هي ، على العكس ، رأته جميلاً جداً . وراح الدّلال يمتدح نعومته :

ـ تحفة من عصر النهضة ، بثمانمائة فرنك ، أيها السادة ! يكاد يكون كلّه من الفضّة ! مع شيء من كربونات الكلسيوم الطبيعي يعوذ فيلدع !

وإذا ندفعت بين الجموع ، قال فريدريك :

ـ يا للفكرة الغريبة !

ـ أهذا يزعجك !؟
ـ لا ! ولكن ماذا نستفيد من هذه التحفة ؟
ـ من يدري ؟ قد نضع فيها رسائل حبّ !
ونظرت اليه نظرة جعلت تلميحها في غاية الوضوح .
ـ يجب ألاّ ننقّب في أسرار الأموات .
ـ ما كنت أحسبها ميتة .
أضافت : « ثمانمائة وثمانون فرنكاً ! » .
قال فريدريك :
ـ ليس ما تفعلينه مستحسناً .
ضحكت .
ـ انما ، يا صديقتي العزيزة ، هذا أول طلب أطلبه منك .
ـ لكنك لن تكون زوجاً لطيفاً ، أتعرف ؟
رفع أحدهم الثمن ، رفعت يدها قائلة :
ـ تسعماية فرنك !
ـ تسعماية فرنك ! ردّد السيّد برتلموت .
ـ تسعمائة وعشر . . . وخمسة عشر . . . وعشرون . . .
وثلاثون ! يصرخ الدلاّل ملاحقاً الجمهور بنظره ، ويحرّك رأسه بطريقة متلاحقة .
قال فريدريك :
ـ أظهري لي أنّ زوجتي عاقلة .
صحبها ، بلطف صوب الباب .
تابع المثمّن .

ـ هيّا ، أيها السّادة ، هيّا ، تسعمائة وثلاثون ! هل من يشتري بتسعمائة وثلاثين ؟

توقّفت السيّدة دمبروز وكانت وصلت الى العتبة ، وبصوت مرتفع :

ـ الف فرنك !

سرت رعشة في الجمهور ، صمت .

ـ الف فرنك ، أيّها السادة ، ألف فرنك ! لا أحد يزيد شيئاً ! اتفقنا ؟ الف فرنك ! ـ مبروك !

خبطت المطرقة العاجيّة .

سلّمت بطاقتها ، فأرسلت اليها علبة الحليّ . أغرقتها في فروة يديها . أحسّ فريدريك ببرد يخترق قلبه .

ما كانت السيّدة دمبروز تركت ذراعه ، وما جرؤت على النظر اليه مواجهة حتى الشارع ، حيث تنتظرها عربتها .

قذفت نفسها اليها كلص يهرب ، وحين جلست ، التفتت ناحية فريدريك . كانت قبّعته في يده .

ـ ألا تصعد ؟

ـ كلاّ ، يا سيّدتي !

وإذ حيّاها ببرود ، أغلق البوّابة ، ثم أشار إلى الحوذيّ بالذهاب .

شعر ، أوّل الأمر ، شعور فرح واستقلال مستردّ ، فخوراً ، كان ، لكونه ثأر للسيّدة أرنو مكرّساً لها ثروة . ثم عجب لتصرّفه ، وأصابه تيبّس لا محدود .

نقل اليه خادمه صباح الغد الأخبار . صدر قرار بالأحكام العرفيّة ، حُلّ المجلس ، وقسم من ممثلي الشعب في كازاس . لم يهتم بالأمور العامة ، فقد كان مأخوذاً بأموره .

كتب الى موزّدين لالغاء طلبات كثيرة متعلّقة بزواجه الذي بدا له ، الآن ، فكرة خسيسة . ولعن السيّدة دمبروز ، لأنه ، من أجلها ، كاد يقترف دناءة . نسي « المارشالة » ما عاد يهتمّ ، حتى بالسيّدة أرنو ، ـ غير مفكّر إلا بذاته ! ـ ضائعاً في انقاض أحلامه ، مريضاً ، مليئاً المّاً وخذلاناً . وتمنّى طراوة الأعشاب ، كرهاً للوسط المزيّف حيث كان تألّم كثيراً ، هناك راحة الريف ، حياة مسترخية تنقضي في ظلّ السقف المولدي ، مع قلوب بيضاء . وخرج ، أخيراً ، مساء الأربعاء .

تقف على البولفار جماعات كثيرة . بين وقت وآخر ، تفرقها دوريّة ، وإذ تغيب يعودون مجدّداً . يتحدّثون بحريّة ، يصرخون ضد الفرقة بهتافات وشتائم لا أكثر .

ـ كيف !؟ ألن يتقاتلوا ؟ سأل فريدريك عاملاً .

أجابه الرجل ذو القميص الفضفاضة :

ـ لسنا حمقى لهذه الدرجة ، فنقتل لأجل البورجوازيّين ! ليتدبّروا أمورهم !

ودمدم رجل ، ناظراً الى الريفي شزراً :

ـ اشتراكيون أوغاد ! لو نستطيع ، هذه المرة ، إبادتهم !

ما فهم فريدريك شيئاً تجاه هذا الحقد والبلاهة . زاد قرفه من باريس . وفي الغد ، ذهب الى نوجان مع القافلة الأولى .

سريعاً ما اختفت البيوت ، بدأ الريف يظهر . هو يستعيد ، وحيداً في مقطورته ورجلاه على المقعد الصغير ، أحداث الأيّام الأخيرة ، وكل ماضيه . تذكر لويز .

ـ « كانت تحبّني ، هذه ! أخطأت في عدم تمسّكي بتلك السّعادة . . . هيا ! فلا تفكّر بعد ، بالأمر ؟ » .

وبعد دقائق خمس :

« من يدري ؟ . . . لمَ لا في ما بعد ؟ » .

راحت أحلامه ، كما عيناه ، تغوص في آفاق مبهمة .

« ساذجة كانت ، قرويّة ، تكاد تكون متوحّشة ، إنما لطيفة للغاية ! »

وبمقدار ما يقترب من نوجان ، تقترب منه . حين مرورهم بحقول سوردون تصوّرها ، كما من زمان ، تحت شجر الحور ، قاطعة أسلاً على ضفاف البرك . وصلوا فنزل .

اتكأ فوق الجسر لرؤ ية الجزيرة من جديد والحديقة حيث كانا تنزّها ذات يوم مشمس ؟ ـ وبما ان دوخة الرحلة والهواء الطلق والوهن الذي يحتفظ به من عواطفه الحديثة العهد ، أحدثت فيه ، كلها ، نوعاً من الحماس ، قال في نفسه :

« لربما لم تكن في البيت ، لو ذهبت لرؤ يتها ! » .

كان جرس كنيسة القديس لوران يقرع . وأمام الكنيسة ، في السّاحة ، تجمّع فقراء ، وعربة ، هي الوحيدة في البلدة (هي الكانت تستخدم في الأعراس) ، وفجأة بدا عروسان تحت البوّابة الكبيرة بين دفق من البورجوازيين بربطات عنق بيضاء .

حسب نفسه متوهّماً . إنما لا ! انها نفسها ، لويز ! ـ مغطاة بطرحة بيضاء نازلة من شعرها الأشقر حتى قدميها ، وهو نفسه ، ديلوريبه ! ـ مرتدياً ثوباً أزرق مطرّزاً بالفضة ، هو ثوب مدير . لماذا اذن ؟

اختبأ فريدريك بزاوية بيت ، ليمرّ الموكب .

استدار صوب الخط الحديدي ، وعاد إلى باريس ، خجلاً ، خاسراً ، محطّماً .

أكّد له حوذيّ العربة أن الحواجز عادت من « قصر المياه » حتى الملعب الكبير ، وأخذ طريق ضاحية القدّيس مارتان . نزل فريدريك عند زاوية شارع بروفنس ليذهب عبر الطرقات الواسعة .

كانت الخامسة ، تمطر رذاذاً على رصيف الأوبرا بورجوازيّون . والمنازل المقابلة مقفلة . لا أحد في الشبابيك . وجنود خيّالة ، على امتداد البولفار ، يخبّون بأقصى سرعة ، محنيّين فوق جيادهم ، سيفهم مجرّد ؛ واعراف خوذهم ، ومعاطفهم البيضاء الكبيرة المرتفعة وراءهم ، تمرّ فوق نور مصابيح الغاز ، الكائنة تتلوّى في السهول وسط الضباب . تنظر اليهم الجموع ، ساكتة ، خائفة .

تأتي زمر من الشرطة ، بين هجمات الفرسان ، لترد الناس عن الشوارع .

إننا ، ها ان رجلاً على درج « تورتوني » ، ـ انه ديسّردييه ، ـ

يُعرف من بعيد لقامته الطويلة ، يبقى دون حراك مثل كريتيد * .

تهدّد بسيفه واحد من عملاء المقدمة ، وقبّعته المثلّثة القرون على عينيه .

حينها ، تقدّم ديسردييه خطوة ، راح يهتف :

- لتحيا الجمهورية !

وسقط على ظهره ، ذراعاه ممدودتان كصليب .

ارتفع ضجيج خوف بين الناس . نظر الشرطي حواليه دائريًّا ، وفريدريك ، فاغراً فاه ، عرف فيه سينيكال .

---

* تمثال امرأة يتّخذ بدلاً من عمود في مبنى .

VI

سافر .

عرف كآبة المراكب ، برودة النهوض تحت خيمة القوارب ، ذهول المناظر والآثار ، مرارة الملاطفات التي تنقطع .

عاد .

خالط الناس ، عرف مغامرات حب أخرى . لكنّ تذكّره الدائم لحبّه الأوّل ، جعل مغامراته تافهة في عينيه . ثم انّ حدّة اللهفة ، حتى زهرة الحسّ ، كانت فُقدت ، طموحاته ، كذلك ، انحسرت . انقضت سنوات ، وهو يتحمّل بطالة ذهنه وجمود قلبه .

وعند انسكاب الليل ، أواخر آذار ١٨٦٧ ، إذ كان وحيداً في غرفته،دخلت امرأة .

ـ سيّدة أرنو !

ـ فريدريك !

أخذته من يديه ، جذبته بلطف صوب النافذة ، وراحت تنظر اليه مردِّدة :

ـ إنه هو ! إذن إنه هو !

ما كان يرى في غَبَش الغروب ، سوى عينيها تحت غلالة وجهها التي من دانتيللا سوداء تحجب وجهها .

جلست ، بعدما وضعت على حافة المدفأة حافظة نقود صغيرة بلون أحمرّ رمّاني . راح يبتسم واحدهما للآخر ، لا يستطيعان الكلام .

وجّه اليها أخيراً عدداً من الأسئلة عنها وعن زوجها .

يسكنان أقصى بريتانيا ، ليعيشا في اقتصاد ويدفعا ديونهما . وبدا أرنو ! ويكاد يكون دائم المرض ، هرماً . تزوّجت ابنتها إلى بوردو ، وابنها في حامية « موستاغانيم » . ثم رفعت رأسها :

ـ لكنني أراك مجدّداً ! سعيدة أنا !

لم ينس ان يخبرها أنه ، حين سماعه بالمصيبة ، ركض اليهم .

ـ عرفت !

ـ كيف !

كانت رأته في الساحة ، واختبأت .

ـ لماذا !

حينها ، وبصوت متلجلج ، ومضطرب ، وبتقطُّع طويل بين كلماتها :

ـ لقد خفت ! نعم . . . خفت منك . . . من نفسي !

جعله هذا اليوم ، يرتجف من لذّة حسّيّة . راح يدق قلبه دقّات كبيرة . تابعت :

ـ أعذرني ، ما استطعت المجيء قبل (وبعدما دلّته على

المحفظة الصغيرة ذات اللون الأحمر الرمّاني المغطاة بريش ذهبّي :) طرّزتها على نيّتك ، عمداً . تحتوي هذا المبلغ ، أنتجته أراضي بيلّفيل .

شكرها فريدريك على الهديّة ، لائماً إيّاها على إزعاجها نفسها .

ـ لا ! ليس لأجل هذا جئت ! كنت مصرّة على هذه الزيارة ، ثم سأعود . . . إلى هناك .

وراحت تخبره عن المكان الذي تعيش فيه .

إنه بيت وضيع من طابق واحد مع حديقة ملأى شمشاداً ضخماً وممرّاً مزدوجاً من شجر الكستناء يصل حتى أعلى التلّة ، حيث تطل على البحر .

ـ أذهب أجلس هناك ، على مقعد سميته : فريدريك .

ثم راحت تنظر إلى الأثاث ، التحف ، الأطُر ، بشراهة ، لتحملها في ذاكرتها . كان رسم « المارشالة » نصف مخبّأ بستار . لكن الذهب والبياض اللامعين وسط العتمة ، لفتا انتباهها .

ـ يبدو لي أنني أعرف هذه المرأة .

ـ مستحيل ! هي رسم إيطالي قديم .

صارحته أنها ترغب بنزهة في الشوارع ، وهي برفقته .

خرجا .

كان ضوء المحلات ينير وجهها الشاحب بين وقت وآخر ، ثم تغمره الظلمة مجدّداً . يمشيان بين العربات ، بين الجماهير ، غير منفصلين عن بعضهما البعض ، غير سامعين شيئاً ، كأنهما

يمشيان معاً في الريف ، على فراشٍ من الأوراق الميتة .

راحا يخبران بعضهما بعضاً عن أيامهما العتيقة ، عن عشاءات زمن « الفن الصناعي » ، عن عادات أرنو ، طريقته في سحب حرفي قبّته الاصطناعية ، في سحق دهون التجميل على شاربيه ، وعن أشياء أخرى أكثر حميميّة وأكثر عمقاً . أيّ شعور غريب لذيذ أحسّه حين سمعها تغنّي للمرة الأولى ! كم كانت جميلة يوم عيدها في سان كلو ! ذكّرها بحديقة أوتوي الصغيرة ، بعشايا في المسرح ، بلقاء على البولفار ، بخدم عتاق ، بعبدتها .

تعجب ، كانت ، لذاكرته . قالت :

ـ تعاودني كلماتك ، أحياناً ، كصدى من بعيد ، كنغم جرس آتٍ مع الهواء ، ويخطر لي أنك معي حين أقرأ مقاطع حب في الكتب .

ـ لقد جعلتني أشعر بكل ما فيها من آلام . بتّ أفهم أولئك العشاق أمثال « فرتير » الذي لا يزدري الفطائر التي كانت تعدها شارلوت .

ـ يا للعزيز المسكين !

تنهّدت . وبعد صمت طويل :

ـ مهما يكن ، فقد كنا نحبّ بعضنا بعضاً .

ـ ولم نمتلك بعضنا بعضاً !

قالت :

ـ لربما كان هذا أفضل .

ـ لا ! لا ! يا للسعادة التي كنا عشناها !

ـ أوه ! أظن هذا ، مع حبّ كحبّك !
وهو ، حتماً ، قويّ ليدوم بعد هذا الانفصال الطويل !
سألها فريدريك كيف اكتشفت ذلك الحبّ .
ـ ذات مساء حين قبّلت رسغي بين القفّاز والكم . قلت لنفسي : « هو يحبّني . . . يحبّني ! » مع ذلك فقد كنت أخشى التأكّد . تحفّظك كان عذباً إلى حدّ اني كنت أسرّ به كولاء غير إرادي ومتواصل .
لم يندم على شيء . فآلامه القديمة جوزيت .
حين عادا ، خلعت السيّدة أرنو قبّعتها . أضاء شعرُها الأبيضَ مصباحٌ موضوع على منضدة مزخرفة . حدث كما صدمة في قلبه .
ليخفي لها خيبة أمله ، ركع على قدميها ، أمسك يديها وراح يسكب لها كلمات حنونة .
ـ يبدو لي أنّ لشخصيتك ، لأقل حركاتك ، أهميّة فائقة يرتفع ، كان ، قلبي كالغبار وراء خطواتك . كنت في ضوء قمر في ليلة صيف ، حين كل شيء عطور ، ظلال ناعمة ، بياض ، مدى لا متناهٍ . ولذاذات الجسد والروح ، أحسّها ، كنت ، في اسمك الذي كنت أردّده لذاتي ، محاولاً تقبيله على شفتيّ . ما كنت أحلم بشيء أبعد من هذا . أنت ، سيّدة أرنو ، تماماً كما أنت ، مع ولديك ، حنونة ، رصينـة ، جميلة حتى الابهار ، وطيّبة ! كانت هذه الصورة تمحو كل صورة أخرى . هل كنت أفكّر بهذا ، فحسب ! طالما أنني كنت أحتفظ في عمق نفسي

بموسيقى صوتك وبراءة عينيك !

كانت تتقبّل ، بنشوة ، هذه الملاطفات لأجل المرأة التي ما كانتها بعد . انتشى فريدريك بكلماته ، ووقع في تصديق ما كان يقول . محنيّة فوقه ، كانت السيّدة أرنو ، وظهرها إلى النور . أحسّ على جبينه مداعبة لهاثها ، وعبر ثيابه ملامسة جسدها . أيديهما تضغط على بعضها ، رأس جزمتها متقدّماً كان أمام ثوبها ، فقال لها يكاد يكون خائراً :

ـ مرأى قدمك يجعلني مضطوباً .

حركة حياء جعلتها ترفعها إلى الوراء . ثم ، جامدة ، وبنبرة المروبصين الخاصّة :

ـ في سني ! هو ! فريدريك ! . . . ولا واحدة كانت محبوبة مثلي ! لا . لا ! ماذا ينفع الصبا ؟ أسخر تماماً ! أحتقرهنّ جميعاً ، من يأتين إلى هنا !

ـ أوه ! لا أحد يأتي ، أبداً ! قال فريدريك بمجاملة .

أشرق وجهها ، وأرادت أن تعرف إن كان سيتزوّج .

أقسم أن لا .

ـ بالتأكيد ؟ لماذا ؟

ـ بسببك ، قال فريدريك وهو يضمّها بين ذراعيه .

بقيت هكذا ، قامتها إلى الوراء ، فمها نصف مطبق ، عيناها عاليتان . دفعته ، فجأة ، بمظهر يأس ، وإذ رجاها أن تستجيب له ، قالت خافضة رأسها :

ـ كنت أريد إسعادك .

فكّر فريدريك أن السيّدة أرنو جاءت لتهب نفسها . وأخذته شهوة أقوى من كل مرة ، ثائرة ، عنيفة . مع ذلك فقد أحسّ بشيء غامض ، تقزّز ، وكما ذعر مرتكب محرّم . صدّه خوف آخر ، أن ينفر منها في ما بعد . أيّ قلق سيكون ! ـ ومعاً ، تعقّلاً ولئلا يسقط مثاله ، استدار على أعقابه وراح يـدخّن سيجارة .

راحت تتأمّله وملؤها الاعجاب .

ـ كم أنت رقيق ! وحدك أنت ! وحدك !

دقّت الحادية عشرة . قالت :

ـ بهذه السرعة ! ربع ساعة وأمضي .

عادت فجلست . لكنها صارت تراقب الساعة ، وهو يكمل التمشور مدخّناً . ما عادا وجدا شيئاً يقولانه . هناك لحظة ، أثناء الانفصال ، لا يعود فيها الشخص المحبوب معنا .

أخيراً ، بعدما تجاوز العقرب الدقيقة الخامسة والعشرين ، تناولت قبّعتها بالرباط ، على مهل .

ـ وداعاً ، أيها الصديق ، يا صديقي الحبيب ! لن أراك بعد ، أبداً ! كانت هذه آخر محاولاتي كامرأة . لن تفارقك روحي . فلتهبط عليك كل بركات السماء !

وقبّلته في جبينه كأمّ .

لكنها بدت تبحث عن شيء ، وطلبت مقصّاً .

رفعت مشطها ، فانسكب شعرها الأبيض كلّه .

بقسوة ، اقتطعت ، من الجذور ، خصلة طويلة .

ـ إحتفظ بها ! وداعاً !

حين خرجت ، فتح فريدريك النافذة . حين صارت على الرصيف أشارت إلى عربة خيل كانت مارة ، بالتقدّم . صعدت . اختفت العربة .

كان هذا كل شيء .

VII

في أوائل هذا الشتاء ، كان فريدريك وديلورييه يتحادثان في زاوية قرب النار ، وقد تصالحا ، مرة بعد ، بحتميّة طبيعتهما التي كانت ، دائماً ، تجعلهما يتصلان ويتحابان .

أخبر الأول ، باختصار ، تخاصمه والسيّد دمبروز ، وزواجها في ما بعد من انكليزي .

الآخر ، من دون أن يخبر كيف تزوّج الآنسة روك ، روى أن امرأته ، ذات يوم ، هربت مع مغنٍ . ليتخلص من هذا الوضع الشاذ ، راح يجازف في مديريّته ، بحماسة حكومي زائدة . أقالوه . بعدها ، صار رئيس استعمار في الجزائر ، سكرتيراً لباشا ، مسؤولاً عن جريدة ، وسيط إعلانات ، ليصل ، في النهاية ، إلى مركز موظف دعاوى قضائيّة في شركة صناعيّة .

أما بالنسبة إلى فريدريك ، وقد أنفق ثلاثة أرباع ثروته ، فقد كان يعيش كبورجوازيّ صغير .

ثم استعلما ، بالتتابع ، عن أصدقائهما .

مارتينون هو الآن عضو في مجلس الشيوخ .

هيسّونيه يشغل منصباً مرموقاً ، تحت أمرته كل المسارح وكل الصحافة

سيزي ، وقد استغرق في الأمور الدينية وصار أباً لثمانية أولاد ، يسكن قصر جدوده .

بيلّران ، بعدما تحمس للفوريرية * والطب التجانسي ، والطاولات المتحرّكة ، والفنّ القوطي والرسم الانسانوي ، صار مصوّراً ، وعلى كل جدران باريس ، تراه ممثلا بثوب أسود ، بجسم ضئيل ورأس ضخم .

وصديقك الحميم سينيكال ؟ سأله فريدريك .

- اختفى ! لا أعرف عنه شيئاً ! وأنت ، أين حبك الكبير ، السيّدة أرنو ؟

- هي في روما مع ابنها وهو طيّار .

- وزوجها ؟

- مات العام الفائت .

- عجباً ! قال المحامي . ثم خابطاً على جبينه :

- للمناسبة ، رأيت ذات يوم ، في محلّ ما ، تلك « المارشالة » الطيّبة ، آخذة بيدها صبياً تبنّته . هي أرملة سيّد اسمه أودري ، وقد صارت بدينة جداً ، ضخمة . يا للتراجع ! هي التي كانت قامتها نحيفة جداً في الماضي .

---

* مذهب فورييه الاجتماعي .

لم يخف ديلورييه أنه استفاد من يأسه ليتأكد بنفسه .

ـ كما وعدتني ، على كل حال .

كان هذا الاقرار تعويضاً عن الصمت الذي لزمه تجاه مبادرته بخصوص السيّدة أرنو . ولقد غفرها فريدريك ، طالما أنها لم تنجح .

بالرغم من كونه كان جُرح قليلاً للاكتشاف ، فقد حاول أن يبتسم . وذكر « المارشالة » ذكّره « الفاتناز » .

ما كان رآها ديلورييه أبداً ، ولا آخرين كُثُراً كانوا يأتون عند أرنو . لكنّه يتذكّر تماماً ريجمبار .

ـ ألا يزال يحيا ؟

ـ بالكاد ! هو يجرجر نفسه ، بانتظام ، كل مساء ، من شارع غرامّون حتى شارع مونمارتر ، أمام المقاهي ، ضعيفاً ، محدودباً ، هزيلاً ، كشبح .

ـ وبعد ، وكومبان ؟

صرخ فريدريك صرخة فرح ، وطلب إلى المندوب القديم للحكومة المؤقتة ، أن يخبره سرّ رأس العجل .

ـ هي بدعة انكليزيّة . لمحاكاة الاحتفال الذي كان يقيمه الملكيّون في ٣٠ كانون الثاني ، وبسخرية ، أسّس مستقلّون مأدبة سنويّة فيها يأكلون رؤوس عجول ، ويشربون نبيذاً أحمر في جماجم عجول ، شاهرين أنخاباً متمنّين إبادة آل « ستيوارت » .

نظّم إرهابيّون ، بعد ترميدور * ، أخويّة مشابهة ، مما أثبت أن البلاهة خصبة .

- يبدو لي أنك هدأت بخصوص السياسة .

قال المحامي :

- بفعل العمر .

واختصرا حياتهما .

كان كل منهما خسرها ، من حلم بالحب ، ومن حلم بالسلطة . ما سبب هذه الخسارة ؟

- قد يكون بسبب النقص في الاستقامة .

قال فريدريك :

- بالنسبة إليك ، قد يجوز ذلك . أنا ، على العكس ، فقد أخطأت لفرط الاستقامة ، بدون حساب لألف أمر ثانوي ، أقوى من كل شيء . غلب عليّ المنطق ، وأنت العاطفة .

ثم تشكّيا من الصدفة ، الظروف ، الفترة التي وُلدا فيها .

قال فريدريك :

-ليس هذا ما كنّا نحلم به ، من زمان ، في « سانس » ، حين كنت تريد ، أنت ، كتابة تاريخ نقديّ للفلسفة ، وأنا ، رواية كبيرة عن نوجان في القرون الوسطى ، وجدت موضوعها في « فرواسار » : كيف أن سيّد بروكار دو فينيسترانج ومطران تروا هاجما سيّد أوستاش أمبريكيكور . أتذكر ؟

---

* محل صيد السّمك .

وراحا يتنشقان نسيم شبابهما ، ومع كل عبارة يقولان :
ـ أتذكر ؟

تذكرا ملعب المعهد ، الكنيسة ، غرفة الاستقبال ، غرفة السلاح عند أسفل الدرج ، وجوه بعض النظار والتلاميذ ، واحداً كان اسمه أنغلمارّ من فرسايّ كان يفصّل سيورة ران لجزمات قديمة ، السيّد ميربال وندماءه الصهب ، أستاذ الرسم التخطيطي والرسم الكبير ، فارو وسوريريه ، اللذين كانا على خلاف دائم ، والبولونيّ ، مواطن كوبرنيك ، مع نظام مجموع سيّارات صنعه من كرتون ، كأنه فلكيّ نقّال دفعنا له مرة ، ثمن الجلسة ، وجبة غداء في قاعة الطعام ، ـ ثم تذكّرا إفراطهما في الشرب أثناء العُطل ، تدخينهما أوّل غليون ، توزيع الجوائز ، فرح العطلات .

وهما في عطلة ١٨٣٧ ذهبا عند التركيّة .

إنها امرأة اسمها الحقيقي « زورايد تورك » ، وكثير من الأشخاص كانوا يحسبونها مسلمة ، تركيّة ، مما يزيد على شاعريّة مقرّها الواقع على ضفة المياه ، خلف السور . وحتى في الصيف ، بيتها محاط بالظل ، يُعْرف من قمقم سمك أحمر قرب إناء خزامى على شبّاك . تنقر على الزجاج ، وأنت تمر ، آنسات بقمصان نوم بيضاء ومسحوق تجميلي على الخدود وأقراط طويلة في الأذنين . وفي المساء ، تغنّين ، على مهل ، بصوت أجشّ ، على عتبات الباب .

يعكس مكان هلاك النفس هذا ، في كل الدائرة ، بريقاً هائلاً . يشيرون إليه بتلميحات : « المكان الذي تعرف ، ـ شارع

ما ، ـ عند أسفل الجسور » . مزارعات الجوار يرتجفن منه خوفاً على أزواجهنّ ، البورجوازيات لأجل خادماتهن ، لأن طاهية السيّد نائب المدير ضُبطت هناك ، وكان ، بالطبع ، هاجس كل المراهقين السرّي .

وذات أحد ، أثناء صلاة العصر ، وكان فريدريك وديلورييه مرّا به من قبل ، قطفا زهوراً من حديقة السيّدة مورو ، ثم خرجا من بوّابة الحقول ، وبعد دورة كبيرة في الكروم عادا عبر المصيدة فانسلاّ عند التركيّة حاملين باقتي أزهارهما الكبيرتين .

قدّم فريدريك باقته ، كعاشق لخطيبته . لكن الحرارة المخيّمة ، والتخوّف من المجهول ، ونوعاً من تبكيت الضمير ، وحتى لذة رؤ ية كل هذه النساء تحت تصرّفه ، من نظرة واحدة ، كل هذا أذهله كثيراً فشحب كثيراً ولبث مكانه ، لم يتفوّه بكلمة . ضحكن كلّهن ، فرحات لتلبّكه ، وإذ حسبهن يسخرن منه ، هرب . وبما أنّ فريدريك يمتلك المال ، فقد رأى ديلورييه نفسه مضطراً للحاق به .

شوهدا خارجين . كانت هذه قصة لم تُنس طوال ثلاث سنين .

راحا يرويان هذه الحكاية بإطناب ، يكمل واحدهما ذكريات الآخر وحين انتهيا ، قال فريدريك :

ـ هو هذا أفضل ما حصلنا عليه !

ـ نعم ، لعل هذا صحيح ، قال ديلورييه ، هو هذا أفضل ما حصلنا عليه !

الملف

حياة غوستاف فلوبير

١٨٢١ . ١٢ كانون الأول . مولد غوستاف فلوبير في روّان .

١٨٣٢ . دخل ، في شباط ، الصف الثامن في « المعهد الملكي » في روّان حيث تابع دروساً عادية .

١٨٣٤ . ١٨٣٧ . كتابات مدرسية وخارج نطاق الدراسة لوحظ ، في ما بعد ، أنها كانت بدايات أدبية مبكّرة .

١٨٣٦ . صيفاً : لقاؤه في تروفيل للسيّدة شليسنجر التي ظلت حبه الكبير طوال حياته : شخصية السيّدة أرنو في « التربية العاطفية » تمثل العاطفة التي كنّها فلوبير لها .

١٨٣٧ بدايات نشره في جريدة أدبية في روّان .

١٨٣٨ . ١٨٣٩ . كتابة « مذكّرات مجنون » و « سْمار » .

١٨٤٠ . صيفاً : إذ قُبل حائز بكالوريا في الآداب فور انتهائه من صف الفلسفة ، سافر في البيرينيه وكورسكا .

١٨٤١ - ١٨٤٣ . عاش في روّان وفي باريس ، درس الحقوق في باريس بقليل حب وقليل اجتهاد ، كتب « تشرين الثاني » (أنهاه في ٢٥ تشرين الأول ١٨٤٢) ، يباشر

ما نسمّيه « التربية العاطفية الأولى » (شباط ١٨٤٣) ، يرتبط ، في باريس ، بمكسيم دوكمب .

١٨٤٤ . كانون الثاني . أول صدمة عصبية ، لم تحدّد ، بوضوح ، طبياً . وضعت حداً لدروسه ولحياته الباريسيّة ، اضطرته للانسحاب إلى ملكية كرواسّيه قرب روّان ، وتدخله أو تثبّته هكذا في طبعه المنزوي .

١٨٤٥ . ١٧ كانون الثاني . أنهى « التربية العاطفية » ، كتابة أولى ، ولم تظهر سوى ثلاثين عاماً بعد وفاته .

نيسان ـ حزيران . رحلة في بروفانس ، في إيطاليا الشماليّة وفي سويسرا .

١٨٤٦ . ٢١ كانون الثاني . ولادة كارولين هامار ابنة أخت فلوبير التي تزوّجت أرنست كومّنفيل في ١٨٦٤ وإذ ترمّلت تزوّجت الدكتور فرانكلين ـ غرو . انهيار آل كومّنفيل سينقل على فلوبير في أواخر أيامه . وان ضياع أوراقه المحفوظة ، بعد موته ، على يد كارولين سيطلق المجال واسعاً لكثير من التقوّلات .

تموز : بداية علاقة فلوبير بلويز كوليه وقد التقاها الشهر الماضي . توقفت العلاقة في آب ١٨٤٨ ثم عادت بعد ثلاثة أعوام لتنتهي في ١٨٥٥ .

١٨٤٧ . أيار ـ آب : رحلة مع مكسيم دوكمب إلى أنجو فبريطانيا ونورماندي .

١٨٤٨ . ٢٤ أيار : يباشر فلوبير « تجربة القديس أنطوان »

(كتابة أولى) ، أنهاها في ١٢ أيلول ١٨٤٩ .

١٨٤٩ . ١٨٥١ . رحلة إلى الشرق مع مكسيم دو كمب . في ٢٩ تشرين الأول ١٨٤٩ : الانطلاق من باريس : مصر ، فلسطين ، سوريا ، لبنان ، آسيا الصغرى ، القسطنطينية ، اليونان ، إيطاليا . العودة في تموز ١٨٥١ .

١٨٥١ . أيلول : يباشر فلوبير « مدام بوفاري » ، رحلة إلى لندن . مراسلته مع لويز كوليه تنير جوانب نفيسة جداً ومعلومات مهمة عن عملية تكوّن الرواية ومذهبه الأدبي .

١٨٥٦ . ٣٠ نيسان . الفراغ من « مدام بوفاري » وقد ظهرت ، مع حذف ، في « مجلة باريس » ، من أوّل تشرين الأول إلى ١٥ كانون الأول .

نوّار ـ تشرين الأول . كتابة « تجربة القديس أنطوان » (كتابة ثانية) ، منها مقتطفات ظهرت في « الفنّان » في كانون الأول وكانون الثاني وشباط .

١٨٥٧ . كانون الثاني ـ شباط . دعوى جنحيّة على « مدام بوفاري » لانتهاكها ، قال ، حرمة الأخلاق العامة والدينية والتقاليد ، ـ بالرغم من الحذف القاسي من قبل المجلّة . ظهرت الرواية ، بعد التبرئة ، في المكتبات في نيسان .

أول أيلول . يباشر فلوبير « سلمبو » .

١٨٥٨ . نيسان ـ حزيران . رحلة إلى تونس والجزائر .

١٨٦٢ . ● نيسان . الفراغ من « سلمبو » ، وقد ظهرت في المكتبات في تشرين الثاني . بالرغم من الانتقادات ، فقد اشتهرت بسرعة ، ويكفّ فلوبير عن التسبّب بحياة الوحدة .

● حزيران . فلوبير ، وهو يحلم بـ « التربية العاطفية » وبـ « بوفار وبيكوشيه » ، يباشر ، بالمشاركة ، « قصر القلوب » ، (مسرحيّة جنّ) .

● كانون الثاني . يبدأ بحضور « عشاءات ماني » ، وقد أسّسها ، الشهر المنصرم ، غافارني ، آل غونكور ، سانت بوف ، الخ . التقى فيها تورغنييف في شباط ١٨٦٣ .

١٨٦٣ . ٤ كانون الأول . الفراغ من « قصر القلوب » والتي لم تقدّم أبداً ، ولقد ظهرت في « الحياة المعاصرة » سنة ١٨٨٠ .

١٨٦٤ . أوّل أيلول يباشر فلوبير كتابة « التربية العاطفية » التي كان أوّلاً جمع وثائقيّتها وقرر تصميمها .

● تشرين الثاني : دُعي عند الامبراطور في « كومبيين » .

١٨٦٥ . تموز . رحلة إلى « بادن ـ بادن » .

١٨٦٦ . تموز . رحلة إلى انكلترا .

١٥ آب . جُعل فارساً في جيش الشرف .

١٨٦٩ . ١٦ أيار . إنهاء « التربية العاطفية » التي ظهرت في المكتبات في تشرين الثاني . خلال ذلك توفي بويلهيه ثم سانت ـ بوف .

١٨٧٠ . عمل فلوبير في كتابة ثالثة لـ « تجربة القديس أنطوان » التي ظهرت في المكتبات في نيسان ١٨٧٤ .

● آب . يباشر فلوبير « بوفار وبيكوشيه » ، كان بها يحلم من عشرين سنة .

١٨٧٣ . تموز ـ تشرين الثاني . تأليف « المرشّح » ملهاة بأربعة فصول ، ولم تقدّم سوى بعض المرات في الفودفيل ـ آذار ١٨٧٤ ، وظهرت بعد ذلك بقليل في المكتبات .

١٨٧٤ . تموز . رحلة إلى سويسرا .

١٨٧٥ ـ ١٨٧٧ . كتب فلوبير « أسطورة القديس جوليان المضياف » ، « قلب ساذج » و « هيروديا » ، نشرها في دوريّات ثم جمعها في جزء واحد ، « قصص ثلاث » ظهرت في نيسان ١٨٧٧ . وأثناء ذلك ظل يتابع عمله في « بوفار وبيكوشيه » .

١٨٨٠ .. ٨ نوّار . توفّي في « كرواسّيه » .

١٨٨٠ ـ ١٨٨١ . طبع « بوفار وبيكوشيه » في « المجلة الجديدة » بين كانون الأوّل وآذار ، ثم في المكتبات في آذار ١٨٨١ .

إشارات

لم يكن فلوبير ينتهي من تصحيح مخطوطة « سلامبو » ، في تشرين الأول من عام ١٨٦٢ ، حتى أسرّ إلى صديقة له : « أحلم بكتاب آخر ، ولكن ما زالت تنقصني أشياء كثيرة ، قبل أن أستطيع وضع تصميم له . أشعر برغبة عظيمة بل بحاجة ملحة إلى الكتابة هذا كل ما أعرفه عن نفسي » .

خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٦٣ ، استمر مستغرقاً في حلمه ، مفكّراً في الرّواية المقبلة التي باح بشأنها لآل غونكور ، في شهر أيار من العام نفسه ، أنها ستكون « سلسلة من التحاليل والثرثرات الرّديئة التي لا عظمة فيها ولا جمال . وبما أنّ الحقيقة ليست بالنسبة إليّ شرطاً فنياً ، لا يمكن إذاً أن أنقاد إلى كتابة تفاهات من هذا القبيل ، بالرغم من أنها مرغوبة في أيامنا هذه » . كما أن أحلامه قد توقفت عند كتابه المقبل بوفار وبيكوشيه ، الذي لن يكون بدون روابط قربى مع « التربية العاطفية » ، ثم ما لبث أن توقّف ، لكي يشغل نفسه ، دونما شديد إيمان بعالم الحب ، في « قصر القلوب » الذي سينجز كتابته في نهاية السنة . وعند ذلك ، قفل عائداً إلى « التربية العاطفية » . وفي رسالة موجّهة إلى أمه ،

يرجّح أنها تعود إلى كانون الثاني ١٨٦٤ يقول : « ... أفكّر بلا هوادة في روايتي ... وأربط بهذا العمل ، كعادتي ، كل ما أرى وأشعر » .

وقد بقيت لهذا القلق الكابوسي ، آثار عديدة ، إقرأ مثلاً الملاحظات التي نشرتها السيدة ماري - جان دورّي (فلوبير ومشاريعه المخطوطة) : هي قليلة العدد ، موجزة ، مجزّأة ، ولكنها آسرة ، نشاهد فيها خطوطاً لا تلبث أن تتخذ أشكالاً ، كما لو أنها في قلب الضباب .

غير أن فلوبير يحرص على أن يبعث الحياة ، ولو ذهنياً ، في ما كان يجمعه بصديقه الدائم بوييه : شبابهما ، مغامراتهما العاطفية ، انطلاقاتهما ، قرفهما ، الألوان المعنوية والعاطفية التي أسبغاها عليها في الوقت الذي حدثت فيه ، وكذلك الأحداث التاريخية التي يستند إليها ، كما سنرى في ما بعد ، إذ إن حكاية الرواية تستلزم عوداً إلى الماضي .

ويوقف مشروعه ، ثم لا يلبث ، كعادته ، أن يستأنف الكتابة في أوائل أيلول ١٨٦٤ ، ولا ينهيها إلا في السادس عشر من أيار ١٨٦٩ ، أي بعد خمس سنوات تقريباً . حينها أزف إلى صديق له ، بأسلوب المنتصر ، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة إلا خمس دقائق صباحاً ، بشرى انتهاء كتابه : « إنني على طاولتي منذ الثامنة من صباح الأمس ، ورأسي يكاد ينفجر » . وخلال سنوات الخلق الأدبي هذه ، كانت مراسلاته ، بكل أسف ، أقل غنى بالبوح والتصريح ، منها مع « مدام بوفاري » .

كانت كتابته تتطلب الكثير من العناء ، غير أنها كانت أقل حدّة من السابق ، ومقطوعة بأسفار عديدة أو بمزيد من النشاط والتنوع في حياته الاجتماعية ، وأحياناً لا علاقة لها بالرواية .

صدر كتاب « التربية العاطفية » عن دار ميشال ليفي في السابع عشر من تشرين الثاني ١٨٦٩ (حاملاً تاريخ ١٨٧٠) . وقد تعدّدت آراء النقاد : سارسي وباربي دورفيبي انتقداه بشدة ، أما جورج ساند وبانفيل فقد استقبلاه بحفاوة . والواقع أن العصر لم يكن ملائماً تماماً . ويدعي مكسيم دو كمب أنه في أثناء مروره وفلوبير أمام أنقاض حرائق ثورة عامية باريس ، في حزيران ١٨٧١ ، قال له فلوبير : « لو فهموا « التربية العاطفية » ، لما حصل شيء من هذا » . هذا مع الاشارة ، إلى أنه ، وان كان من المناسب اتخاذ جانب الحذر مما يقوله ماكسيم دوكامب ، إلا أنه من الضروري سماعه . ففي ١٨٧٤ ، كتب فلوبير إلى تورغونييف يقول : « إن ما يؤلمني ، هو سقوط « التربية العاطفية » ، وعدم فهمه هو ما يدهشني » . لقد كان على الكتاب أن ينتظر عشر سنين حتى يجد نفسه في المكان اللائق به . عشر سنين كانت كفيلة بتهدئة الخواطر ، وببروز أجيال جديدة ، وبالتغيير .

ثمة ناقد متحفظ ولكن باعتدال ، حذر بدون حماسة ، متأثر بالعمل ولكنه غير منقاد له . إنه فلوبير نفسه ، ويقول في رسالة له منذ أوائل تشرين الأول ١٨٦٤ : « أريد أن أكتب التاريخ الأدبي لأبناء جيلي ، أو بقول أصح « التاريخ العاطفي » لهذا الجيل . إنه كتاب وشهوة . ولكنها الشهوة التي نصادفها في عصرنا ، وهي

شهوة ساكنة هادئة . إن الموضوع ، كما عالجته ، شديد الالتصاق بالحقيقة ، ولأنه كذلك ، فهو يفتقر قليلاً إلى عنصر الامتاع ، كما انه يفتقر بنفس النسبة إلى الأحداث والدراما ، فضلاً عن ان الحركة تمتد على مساحة من الزمن طويلة جداً » .

ثمة معلقون يبدون إعجابهم « بالوضوح » الذي تتجلى في رأي فلوبير . ونحن لا ننقاد لهم ، ذلك أن الروائي ، ربما وصف مقدّماً بنية المؤلّف موضوع البحث ، ولكنه يقدّر خطأ فضائله . إنه يحكم من خلال عادات الوسط الذي ينشأ فيه ، وليس من خلال قدرته الخلاقة الذاتية ، التي يمكن أن تكون محقّة ، تجاه البورجوازي الذي يستند إليه ، والمسمى « غوستاف » .

إن أوّل مصدر يغرف منه فلوبير ، هو فلوبير نفسه الذي كان قد بدأ باكراً جداً ، يجرّب بعض المواضيع التي كان من المفترض أن تنسّق « التربية العاطفية » في ما بينها ، كما في كتابه « مذكرات مجنون » الذي صدر عام ١٨٣٧ ، وفي كتابه « تشرين الثاني » عام ١٨٤٢ ، وفي الطبعة الأولى من كتابه « التربية العاطفية » عام ١٨٤٥ . إن هذه الأخيرة التي ظهرت بنفس العنوان وفي نفس الاتجاه من الانشغالات ، موثوق بها تماماً ، وغير ناضجة بدون أدنى شك ، ومختلفة تماماً عن الطبعة الأولى للرواية الصادرة عام ١٨٦٩ . ففي الفترة الممتدة ما بين ١٨٦٤ - ١٨٦٩ ، يستوحي فلوبير كتاباته الماضية ، أقل مما يستوحي بعض الثوابت في طبيعته ومزاجه .

يؤكد مكسيم دو كمب بخصوص الشخصيات : « ولا

شخصية إلا أستطيع تسميتها ، فقد عرفتها جميعاً أو عايشتها » .
هذا دقيق ، لكنه ليس صحيحاً كلياً . فمهما كان فلوبير موضوعياً ، أو مهما أراد أن يكون كذلك ، فالحركة الذاتية للرواية تحوّل قليلاً ، إنما دائماً ، ما كان حفظه من دقة الملاحظة .

وهكذا فإن فريدريك مورو مدين حتماً لسبرة فلوبير الذاتيّة ، ولكن ملامح ، منه ، متنوّعة ، وهي ليست نبيلة ، تمثّل حقاً ، ملامح من دو كمب . أما بالنسبة للسيدة أرنو ، فإننا نعرف ، منذ اكتشافات السيّد جيرار كايي المذهلة ، أن الواقع يتخطى الوهم . لقد جسّد فيها فلوبير حب حياته الأكبر ، لكنه لم يقل كل شيء في إليزا شليسنجر . وجاك أرنو هو موريس شليسنجر صاحب شخصية الزوج المحوّرة . والسيّدة دمبروز هي السيّدة دو لوسّير التي كانت إحدى عشيقات ميريميه ثم دو كمب . أما السيّد دمبروز فهو بوييه ـ كرتييه ، رجل أعمال ونائب مع بعض ملامح من آخرين ، وهكذا ، فإن عائلة دمبروز ، في الرواية ، ليست هي نفسها عائلة دو لوسّير في الحقيقة . وديلورييه يمثّل في الوقت نفسه دو بوييه ودو كمب . ومن جهة أخرى ، فإن روزانيت والفاتناز تميلان معا ، وليس حصراً ، إلى السيّد براديه . . . الخ .

لقد اهتم فلوبير ، منذ بداية أحلامه ، وبجدية ، بالتوثيق (لم يسمح ، قط ، لهذه بالتعدي على الأخرى) . وحدثت ، مرة بعد في حياته ، فترة مطالعات هائلة ، وتراكمت عنده الملاحظات والملفّات . من بينها كتب ، جرائد ، قصص ، مسارّات

الآخرين . وفي الواقع ، إننا لنتساءل كيف استطاع أن يضمّن ، في روزنامة ملأى ، دراسة كثير من أصحاب العقائد الاشتراكيّة ، مثلاً . لا شك أنه يتميّز بموهبة نادرة من التغلغل والاستيعاب .

إن استقصاءاته اللامحدودة تتابعت خلال سنوات الكتابة . إنها ، دائماً ، المطالعات . رحلات اختبار ، مراقبة . تحقيقات شخصيّة . كان له همٌّ راسخ : أن يُشرك في طلب الخدمة أصدقاءه وأصدقاء أصدقائه لتسجيل شهاداتهم . يسأل ، كان ، محاربي العام ١٨٤٨ (وهو لم يهمل الأكثر تواضعاً ، لأنهم الأقرب إلى الحدث وقت بروزه ، إذن إلى الحقيقة الروائية) ، يستخبر عن مرض الخُناق عند (تروسّو) وفي المستشفى ، ولقد أعاد ، في غابة فونتينبلو ، النزهات التي عهد بها في ما بعد إلى فريـدريك وروزانيت ، وسجّل تفاصيلها دقيقة دقيقة أو هو كاد . واستخبر عن نسّاجي ليون ، عن نقاط باريس المحدّدة حيث كان للحرس الوطني وللجيش مراكزهم أثناء الثورات الشعبيّة ، كذلك عن تقنيّة الخزفيّات وتجارتها ، عن حفلات سباق الخيل في سان دو مارس ، عن قضايا البورصة ، عن الأزياء النسائية سنة فسنة ، الخ .

إذن ، فهو كان ، بـطريقة مـا ، يحضّر هـذه الروايـة المعاصرة ، حسب الطريقة نفسها التي حضّر بها رواية قديمة سبقت هذه ، الفرق هو أنّه ، حسب قانون التتابعيّة الذي يعطي مؤلفه إحدى طبائعه ، هو ، هذه المرة ، لم يتوقّف عن أن يصل الوثائق بتجربته الشخصيّة ، محيياً بعضها بذكر الأخرى التي كانت تكشف

له ، في المقابل ، وعلى تقطع ، المعنى العميق . وان صوت العاطفة الخفيض وكذلك صوت الضمير ـ سرّ النغمية ـ لم تُكْتَشَف قط عبر الارغنات القديرة لكل هذه التوثيقيّة .

كان فلوبير يعرف المجازفة التي يقدم عليها . « ان الوسط الذي تتحرّك فيه شخصياتي ، كما نقرأ في إحدى رسائله سنة ١٨٦٦ ، هو غزير ومتحرّك إلى حدّ أنها مهدّدة بالضياع ، مع كل سطر ، بالاختفاء . فأنا مضطر إذن لأن أعيد إلى مستوى ثانٍ الأمور التي هي ، على التحديد ، الأكثر أهمية » . وفي رسالة تعود إلى العام ١٨٦٨ ، نقرأ : « خفت أن تلتهم الركائز الأمور المفترض أن تحتل الواجهة . هنا هنا خطأ النوع التاريخي . ان الشخصيات التاريخية أكثر أهمية من الشخصية المن نهج الخيال ، بخاصة حين لهذه عواطف متزنة . فنحن نهتم بفريدريك أقل من اهتمامنا بلامارتين » . لا نعرف إن كان في باله مَثَل فابريس في واترلو ، ما هو ثابت ، انه ، هو أيضاً ، توصّل إلى تخاصم مع الواقع التاريخي حفاظاً على الحقيقة الروائيّة .

نتخذ هنا ، كأساس ، الطبعة الأخيرة التي نشرها فلوبير . ظهرت بعد عشر سنين عن الطبعة الأولى وقبل وفاته بستة أشهر ، عند شاربنتييه في تشرين الثاني ١٨٧٩ ، حاملة تاريخ ١٨٨٠ . وإننا لننقل نوعين من التهيئات .

من جهة نحن نعدّل ـ بالاستناد ، حين الحاجة ، إلى الكتابة الأساسية ـ فيها بعض أخطاء مطبعيّة أو أخطاء سهو واضحة .

ومن جهة أخرى فنحن نُلحق بالنص تصحيحات قام بها فلوبير نفسه على نسخة من طبعة ١٨٧٩ محفوظة في كرواسّيه . كانت هذه التصويبات ، في المرة الأولى ، ممهورة بتوقيع ل . أندريو في نشرة كانون الأوّل ١٩٦٥ من جمعيّة أصدقاء فلوبير . يبدو أنها ، حتى الآن ، بقيت غير منشورة ، فليست هي متناولة في طبعة واسعة الانتشار .

في الحقيقة ، ليس الأمر هنا إلاّ تكملة للعمل الواسع المتعلّق بالمراجعة التي كانت سجّلتها طبعة ١٨٧٩ . وان الطبعات اللاحقة منذ الطبعة الأساسيّة لم تكن تقدم ، في الواقع ، شيئاً جديداً . هذه ، على العكس ، سمحت في ١٩١٠ للبحّاثة د . ل . ديموريست بأن يعثر فيها على أربعمئة وخمسة وتسعين اختلافاً . ويخشى أن يكون هذا الرقم أقلّ من الحقيقي ، لكن هذا المجموع ، صحيحاً كان أم تقريبياً ، لا يؤكد إلا نسبة تحتفظ على كل حال بقيمتها ذات المغزى : إحدى عشرة إضافة فقط ، مقابل أربعمئة وعشرين حذفاً . لم يطرأ أي تبديل على الهيكليّة إنما هنالك حذف لمئة وخمس وعشرين « ولكن » لتسع وثلاثين « عندئذ » ، لاثنتين وثلاثين « و » ، لاحدى وثلاثين « ثم » ، لثلاثة وعشرين « مع ذلك » ، الخ .

تفاصيل صغيرة ؟ بلا شك . إنما ألا معنى لحمل ملاحظة بسيطة ، وبإصرار ، حول تفاصيل صغيرة ؟ كان يحذف فلوبير كل الكلمات التي وظيفتها تسجيل ألفاظ منطقيّة : فالاتصالات والعلاقات ، برأيه ، يجب أن تستنتج من تنظيم العبارات بين

بعضها ، ببساطة ، بلا حاجة إلى تشديد بطريقة أوضح ، وبهذه الطريقة ، وأنت تلاحق كلمات الربط ، مخلاً بروابط الاعراب والتفكير ، ومفضلاً الملاحظة على تفسير التسلسلات ؛ يكتشف ، كان ، الايقاع الروائي الجديد الذي كان بروست ولا شك ، أول من وصفه وهذه الأبحاث المعاصرة أو تلك لم تنته بعد من تعميقه .

إن ملاحظتنا ، طبعاً ، لا تنتبه لكل هذه المتغيّرات : فهي كثيرة جداً . لقد عملنا على تقديم بعضها ، وقد انتُخبت من بين تلك التي تدل أفضل على قرار كاتبنا وتنفيذه .

كان فلوبير عهد إلى مكسيم دو كمب بمخطوطته ، فسجّل له مئتين وخمسين ملاحظة . عمل الروائي بكثير منها . أشرنا إلى بعضها في الملحق ، منها رآه موافقاً ومنها وجده حماقات لا قيمة لها . ولقد أسقطنا الكثير مما كان لأن تمسّ مفردات اللغة أو القواعد ، كان فلوبير يواجه مراراً « ليتّريه » الذي كان حينها في زهوة تحديثه ، بأكاديمية مكسيم دو كمب الذي يخبر عنه ، مازجاً ، ولا شك ، الحقد بالواقع : « كان يدّعي ، دائماً يدّعي أن الكاتب حرّ ، حسب ضرورات أسلوبه ، في أن يقبل أو يرفض التعليمات اللغوية التي تحكم اللغة الفرنسيّة ، وأن الشروط الوحيدة الواجب الخضوع لها هي شروط التناسق » .

أما بالنسبة إلى الايضاحات التاريخيّة ، وغالباً ما هي مفيدة ، فكنا نريد جمعها في عرض واحد متواصل ، أو لوحة واحدة متسلسلة تسلسلاً زمنياً . كان مستحيلاً مثل هذا العمل . لأن أحداث العام ٤٨ ، والحركات التي سبقته أو مهدت له ،

وتلك التي تبعته ليست بارزة في الرواية حسب التاريخ : كان وجب ، على هامش التاريخ ، تأليف « ما وراء التاريخ » مشوّهاً . هنا نرى إلى أي مجال نجح فلوبير في تخطّي الصعوبة التي كان يخشى : فقصته تدور حول تسلسل الأحداث بدون أن تتوحّد فيها ، وأبطاله يحتفظون ، في فورات غضبهم ، بشكلهم المحدّد وقدرهم . قرب فريدريك ، ليس لامارتين ، كما يجب أن يكون ، سوى كومبارس . إذن فلقد قرّرنا ألّا نشرح تلميحات الرواية ، إلّا حسب نسق النصّ ، حسب الطريقة الأكثر إيجازاً ، وضمن الحدود التي هي مرتبطة بالتوسّع الروائي من غير منافسة القاموس أو الكتاب . وطبعاً ، إن ملاحظاتنا مدينة بالكثير ، وتقريباً بكل شيء إلى السّلف الذين ذكرت أسماؤهم ، وإلى سلف السّلف .

فهرست

تقديم ألبير تيبوديه ٥

التربية العاطفية

القسم الأول ١٦
القسم الثاني ١٥٧
القسم الثالث ٤٢٦

الملف

حياة فلوبير ٦٣٩
إشارات ٦٤٥

منشورات عويدات ٨٤١ / ١٩٨٣

Flaubert
L'éducation sentimentale

Traduction arabe

par

Elie M. KHALIL

MARIANNE / OUEIDAT
Beyrouth

Gustave Flaubert
L'éducation sentimentale

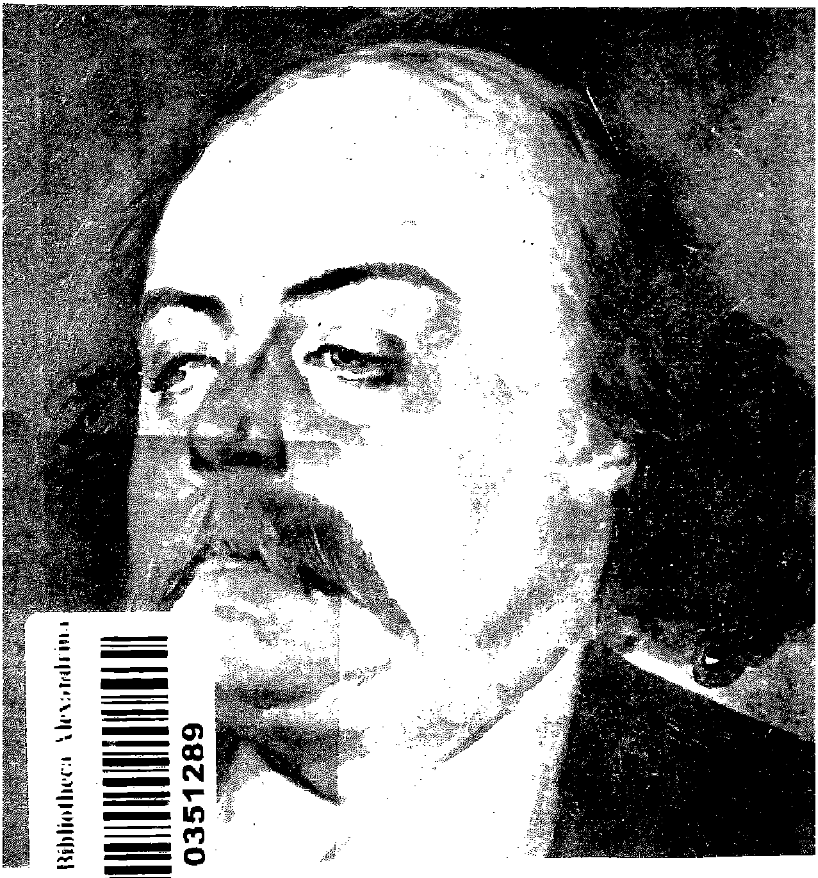

Bibliotheca Alexandrina
0351289